

تراجم رجال العلم والدين والسياسة في مطلع القرن العشرين

محمد رشيد رضا

تحرير وتقديم

الدكتور/ أحمد عبد الوهاب الشرقاوي





المركز الثقافي الآسيوي
مشروع تراث الشيخ محمد رشيد رضا
(1)



تراجم رجال العلم والدين والسياسة في مطلع القرن العشرين

محمد رشيد رضا

مجموعة مقالات مختارة من مجلة المنار

تحرير وتقديم

الدكتور / أحمد عبد الوهاب الشرقاوي

الطبعة الأولى
(1443 هـ- 2022 م)

إسم الكتاب: تراجم رجال العلم والدين والسياسة في مطلع القرن العشرين

مقالات مختارة من مجلة المنار محمد رشيد رضا

تحرير وتحقيق: د.أحمد عبد الوهاب الشرقاوي

موضوع الكتاب : تاريخ – تراجم

طبع هذا الكتاب على نفقة وقفية والدة الدكتور عطية الويشي



التوزيع والنشر



Arab History Publishing

تراجم رجال العلم والدين والسياسة
في مطلع القرن العشرين

الإهداء

إلى أهل الفضل الذين يفتحون لنا أبواباً من العلم والثقافة والأدب

ويضيئون لنا طاقاتِ نورٍ وأملٍ رغم الواقع المرير

إلى رعاة مركز نهر النيل الثقافي

الأديبة نجلاء محرم ، الأستاذ جمال سعده

لكما كل المودة

المقدمة

نقدم في هذا الكتاب مجموعة من التراجم لكبار رجال الفكر والسياسة والدين والإصلاح في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ، تبلغ نحو ثمانية خمسين ترجمة، كتبها العلامة الشيخ محمد رشيد رضا –صاحب المنار– عن صداقات حميمة أو علاقات وثيقة مع معظم الرجال الذين ترجم لهم .

ونلاحظ أن عدد غير قليل منهم لم ترد له ترجمة وافية في معظم المصادر المعاصرة رغم دورهم المؤثر ، كما نجد أن ترجمة رشيد رضا لهم تحوي تفاصيل وأخبار كانت مجهولة لدى الكتَّاب والباحثين ؛ وإنما عرفها الشيخ وأوردها من واقع علاقاته مع من ترجم لهم ، واطّلاعه على جوانب من شخصياتهم لم يكن لغيره أن يعرفها ، أو من خلال تواصله مع أهل وأصدقاء المترجم له ؛ حرصاً منه على إبراز رجال الإصلاح في تلك المرحلة الحرجة ذات التحولات في العالم الإسلامي.

ساعد في ذلك علاقاته المتشعبة في طول البلاد وعرضها على كافة المستويات والأصعدة ، و معايشته لآمال الأمة وآلامها، وقربه من الزعماء والقادة والحكام ، بل والمعارضين ودعاة الثورة ، واستطاع بمشاركته وفكره وحركته، وضع يده على طرائق الإصلاح وأساليب التغيير والتجديد، فجاءت ترجماته ومقالاته التاريخية لا وصفية للشخصيات وللأحداث فقط، بل رصد وتحليل ونقد واستخراج للعبرة ، وربط بالواقع، واستقراء للمستقبل . لم يكن محمد رشيد رضا بمنأى عن هذه الأحداث ، كان في القلب منها تأثرًا وتأثيرًا، وسواء اتفقنا معه أو اختلفنا، في المنهج والأسلوب والأيديولوجية، فلا نملك إلا أن نقر بموضوعيته وحياده ومنهجيته التي تجمع بين الأصالة والمعاصرة.

ولا أزعم انني جمعت كل التراجم التي أوردها في مجلة المنار، بل عمدت إلى انتقاء أبرز تلك التراجم التي أولاها عناية خاصة من الإسهاب والتحليل، كذلك ما حرص على مراسلة أهل المترجم له والمقربين منه ليمدوه بما يجلي الحقائق ويوفر التفاصيل ويفيد المطالع بالعبرة والتأسي، وما تنشره الصحف المحلية والعالمية عن المترجم له، بل وما يقام من حفلات التأبين التي تلقى فيها كلمات تحمل أسرار ومواقف لا تنشر إلا في مثل تلك المحافل.

تعددت مشارب المترجم لهم ما بين زعماء مسلمين أو أوروبيين ، ومفكرين وعلماء ودعاة ومصلحين، وثوار وقادة ورجال صحافة وأدب، أو رجال إدارة وسياسة ، كذلك تراجم النساء ، إلا أنه لم تحظ بترجمته من سيدات التاريخ الحديث في المشرق سوى باحثة البادية (ملك حفني ناصف) ، مع غيرها من نساء العصور الإسلامية السابقة، إلا أننا اقتصرنا على تراجم العصر الحديث ، لكنه حرص على أن يبرز من بين هؤلاء جميعا أهل التأثير في البلاد والعباد من رجال الإصلاح والتجديد والنهضة، من سائر بلاد العرب والمسلمين في مشاق الأرض ومغاربها.

ولعلنا بذلك الكتاب نضيف مرجعا جديداً إلى مراجع ومصادر التراجم والتاريخ، ونلقي المزيد من الأضواء على ما تحمله مجلة المنار من مادة تاريخية شديدة الأهمية، وننبه الباحثين إلى ما فيها من مواد متفردة. وهو ما نحاول عمله في "المركز الثقافي الآسيوي" من خلال إطلاقنا لمشروع :

"تراث الشيخ محمد رشيد رضا" .

ونسأل الله أن يجعل عملنا هذا خالصًا لوجهه الكريم، وأن يعم به النفع، ويرزقنا مواصلة الجهود لإعادة تقديم وتصنيف موضوعات هذه الموسوعة في صورة تيسر الانتفاع بها في أوساط القراء والمثقفين والأكاديميين .

أحمد عبد الوهاب الشرقاوي

مدير المركز الثقافي الآسيوي

harpgeneration@yahoo.com

محمد رشيد رضا .. رائد الإحياء والتجديد
(1282 - 1354هـ / 1865 - 1935 م)

عَلَمٌ مِنْ أَعْلامِ الإصلاحِ، ورائدٌ من رواد التَّجديد، وأحد أقطاب المدرسة العقليَّة الحديثة في التفسير . له في الدعوة إلى الله جهود مشكورة، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسنات مبرورة، وفي محاربة البدع والخرافة طريقة محمودة، وفي إصلاح الأزهر مواقف مشهودة، وفي التأليف والكِتَابَةِ مُصنفات مشهورة، وكانت له في السياسة مشاركات ومحاولات .

صاحب مجلة (المنار) وأحد رجال الإصلاح الإسلامي. من الكتاب، العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير.

قال عنه الأمير شكيب أرسلان: " هو فرع دوحة شرف وأصالة ونبل وكنانة كرم ونبالة وسليل بيت أسس علي التقوى، فكان الرشيد اسمًا وفعلًا ....".

وقال عنه الشيخ محمد مصطفي المراغي: " كان الفقيد السيد محمد رشيد رضا محيطًا بعلوم القرآن، وقد رزقه الله عقلًا راجحًا في فهمه، ومعرفة أسراره وحكمه، واسع الاطلاع على السنة وأقضية الصحابة وآراء العلماء، ... ".

ثم قال الدكتور أحمد الشرباصي: " كان رشيد صاحب استقلال فكري، فهو لا يقتنع إلا بما يوافق العقل والبديهة الصافية، ويقوم عليه الدليل، وله فطرة سليمة تعرف طريق الحق بسهولة ".

***

والشيخ رشيد رضا أكبر تلامذة الأستاذ الإمام محمد عبده، وخليفته من بعده، حمل راية الإصلاح والتجديد، وبعث في الأمة روحًا جديدة، تُحرِّك الساكن، وتنبه الغافل، لا يجد وسيلة من

وسائل التبليغ والدعوة إلا اتخذها منبرًا لأفكاره ودعوته ما دامت تحقق الغرض وتوصل إلى الهدف .

وكان (رحمه الله) متعدد الجوانب والمواهب، فكان مفكرًا إسلاميًا غيورًا على دينه، وصحفيًا نابهًا ينشئ مجلة (المنار) ذات الأثر العميق في الفكر الإسلامي، وكاتبًا بليغًا في كثير من الصفح، ومفسرًا نابغًا، ومحدثًا متقنًا في طليعة محدثي العصر، وأديبًا لغويًا، وخطيبًا مفوهًا تهتز له أعواد المنابر، وسياسيًا يشغل نفسه بهموم أمته وقضاياه، ومربيًا ومعلمًا يروم الإصلاح ويبغي التقدم لأمة .

نسبه :

محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب .

المولد والنشأة :

في قرية (القلمون) كان مولد محمد رشيد بن علي رضا في 27 من جمادى الأولى 1282هـ / 23من سبتمبر 1865م، وهي قرية تقع على شاطئ البحر المتوسط من جبل لبنان، وتبعد عن طرابلس الشام بنحو ثلاثة أميال، وهو ينتمي إلى أسرة شريفة من العترة النبوية الشريفة، حيث يتصل نسبها بآل الحسين بن علي (رضي الله عنها) .

وكان أبوه (علي رضا) شيخًا للقلمون وإمامًا لمسجدها، فعُني بتربية ولده وتعليمه ؛ فحفظ القرآن وتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، ثم انتقل إلى طرابلس، ودخل المدرسة الرشيدية الابتدائية، وكانت تابعة للدولة العثمانية، وتعلم النحو والصرف ومبادئ الجغرافيا والحساب، وكان التدريس فيها باللغة التركية، وظل بها رشيد رضا عامًا، ثم تركها إلى المدرسة الوطنية الإسلامية بطرابلس سنة (1299هـ / 1882م)، وكانت أرقى من المدرسة السابقة، والتعليم فيها بالعربية، وتهتم بتدريس العلوم العربية والشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية، وقد أسس هذه المدرسة وأدارها الشيخ (حسين الجسر) أحد علماء الشام الأفذاذ ومن رواد النهضة الثقافية العربية، وكان يرى أن الأمة لا يصلح حالها أو ترتقي بين الأمم إلا بالجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا على الطريقة العصرية الأوربية مع التربية الإسلامية الوطنية .

ولم تطل الحياة بتلك المدرسة فسرعان ما أُغلقت أبوابها، وتفرّق طلابها في المدارس الأخرى .

شيوخه :

غير أن رشيد رضا توثقت صلته بالشيخ الجسر، واتصل بحلقاته ودروسه، ووجد الشيخ الجسر في تلميذه نباهة وفهمًا، فآثره برعايته وأولاه عنايته، فأجازه سنة (1314هـ / 1897م) بتدريس العلوم الشرعية والعقلية والعربية، وهي التي كان يتلقاها عليه طالبه النابه، وفي الوقت نفسه درس (رشيد رضا) الحديث على يد الشيخ (محمود نشابة) وأجازه أيضًا برواية الحديث، كما واظب على حضور دروس نفر من علماء طرابلس، مثل : الشيخ عبد الغني الرافعي، ومحمد القاوجي، ومحمد الحسيني، وغيرهم .

في قريته :

اتخذ الشيخ رشيد رضا من قريته الصغيرة ميدانًا لدعوته الإصلاحية بعد أن تزود بالعلم وتسلح بالمعرفة، وصفت نفسه بالمجاهدات والرياضيات الروحية ومحاسبة نفسه وتخليص قلبه من الغفلة وحب الدنيا، فكان يلقي الدروس والخطب في المسجد بطريقة سهلة بعيدة عن السجع الذي كان يشيع في الخطب المنبرية آنذاك، ويختار آيات من القرآن يحسن عرضها على جمهوره، ويبسط لهم مسائل الفقه، ويحارب البدع التي كانت شائعة بين أهل قريته .

ولم يكتف الشيخ رضا بمن يحضر دروسه في المسجد، فذهب هو إلى الناس في تجمعاتهم في المقاهي التي اعتادوا على الجلوس فيها لشرب القهوة والنارجيلة، ولم يخجل من جلوسه معهم يعظهم ويحثهم على الصلاة، وقد أثمرت هذه السياسة المبتكرة، فأقبل كثير منهم على أداء الفروض والالتزام بالشرع والتوبة والإقبال على الله، وبعث إلى نساء القرية من دعاهن إلى درس خاص بهن، وجعل مقر التدريس في دار الأسرة، وألقى عليهن دروسًا في الطهارة والعبادات والأخلاق، وشيئًا من العقائد في أسلوب سهل يسير .

الاتصال بالأستاذ الإمام :

في الفترة التي كان يتلقى فيها رشيد رضا دروسه في طرابلس كان الشيخ محمد عبده قد نزل بيروت للإقامة بها، وكان محكومًا عليه بالنفي بتهمة الاشتراك في الثورة العرابية، وقام بالتدريس في المدرسة السلطانية ببيروت، وإلقاء دروسه التي جذبت طلبة العلم بأفكاره الجديدة ولمحاته الذكية، وكان الشيخ محمد عبده قد أعرض عن السياسة، ورأى في التربية والتعليم سبيل الإصلاح وطريق الرقي، فركز جهده في هذا الميدان .

وعلى الرغم من طول المدة التي مكثها الشيخ محمد عبده في بيروت فإن الظروف لم تسمح لرشيد رضا بالانتقال إلى المدرسة السلطانية والاتصال بالأستاذ الإمام مباشرة، والتلمذة على يديه، وكان التلميذ النابه شديد الإعجاب بشيخه، حريصًا على اقتفاء أثره في طريق الإصلاح، غير أن الفرصة سنحت له على استحياء، فالتقى بالأستاذ الإمام مرتين في طرابلس حين جاء إلى زيارتها ؛ تلبية لدعوة كبار رجالها، وتوثقت الصلة بين الرجلين، وازداد تعلق رشيد رضا بأستاذه، وقوي إيمانه به وبقدرته على أنه خير من يخلف (جمال الدين الأفغاني) في ميدان الإصلاح وإيقاظ الشرق من سباته .

وحاول رشيد رضا الاتصال بجمال الدين الأفغاني والالتقاء به، لكن جهوده توقفت عند حدود تبادل الرسائل وإبداء الإعجاب، وكان جمال الدين في الآستانة يعيش بها كالطائر الذي فقد جناحيه فلا يستطيع الطيران والتحليق، وظل تحت رقابة الدولة وبصرها حتى لقي ربه سنة (1314هـ = 1897م) دون أن تتحقق أمنية رشيد رضا في رؤيته والتلمذة على يديه .

في القاهرة :

لم يجد رشيد رضا مخرجًا له في العمل في ميدان أفسح للإصلاح سوى الهجرة إلى مصر والعمل مع محمد عبده تلميذ الأفغاني حكيم الشرق، فنزل الإسكندرية في مساء الجمعة (8 من رجب 1315 هـ = 3 من يناير 1898م)، وبعد أيام قضاها في زيارة بعض مدن الوجه البحري نزل القاهرة واتصل على الفور بالأستاذ الإمام، وبدأت رحلة جديدة لرشيد رضا كانت أكثر إنتاجًا وتأثيرًا في تفكيره ومنهجه الإصلاحي .

ولم يكد يمضي شهر على نزوله القاهرة حتى صارح شيخه بأنه ينوي أن يجعل من الصحافة ميدانًا للعمل الإصلاحي، ودارت مناقشات طويلة بين الإمامين الجليلين حول سياسة

الصحف وأثرها في المجتمع، وأقنع التلميذ النجيب شيخه بأن الهدف من إنشائه صحيفة هو التربية والتعليم، ونقل الأفكار الصحيحة لمقاومة الجهل والخرافات والبدع، وأنه مستعد للإنفاق عليها سنة أو سنتين دون انتظار ربح منها .

أهم الأنشطة الاجتماعية والسياسية :

اشتغل رشيد رضا بالسياستين العربية والإسلامية في وقت مبكر فأخذ يخطب ويكتب ويعلق على الأحداث، وينتقد الظلم والبغي، ويندد بالفساد والخلل، ويتعرض بسبب ذلك لألوان من الأذى والاضطهاد.

اهتم بمعالجة علاقات العرب بالأتراك، والمسألة الشرقية، والتدخل الاستعماري الغربي في الشرق الإسلامي، وشئون الخلافة الإسلامية، والخطر الصهيوني على فلسطين، وكان أحد أقطاب حزب اللامركزية الذي تكون عام 1330هـ/1912م.، في محاولة لإصلاح الإدارة العثمانية، على نحو يحفظ وحدة الدولة ويستجيب للطموحات العربية المشروعة في إطارها.

منهجه في الإصلاح :

كتب رشيد مئات المقالات والدراسات التي تهدف إلى إعداد الوسائل للنهوض بالأمة وتقويتها، وخص العلماء والحكام بتوجيهاته ؛ لأنهم بمنزلة العقل المدبر والروح المفكر من الإنسان، وأن في صلاح حالها صلاح حال الأمة، وغير ذلك بقوله : (إذا رأيت الكذب والزور والرياء والنفاق والحقد والحسد وأشباهها من الرذائل فاشية في أمة، فاحكم على أمرائها وحكامها بالظلم والاستبداد وعلى علمائها ومرشديها بالبدع والفساد، والعكس بالعكس) .

واقترح رشيد رضا لإزالة أسباب الفرقة بين المسلمين تأليف كتاب يضم جميع ما اتفقت عليه كلمة المسلمين بكل فرقهم، في المسائل التي تتعلق بصحة الاعتقاد وتهذيب الأخلاق وإحسان العمل، والابتعاد عن مسائل الخلاف بين الطوائف الإسلامية الكبرى كالشيعة، وتُرسل نسخ بعد ذلك من هذا الكتاب إلى جميع البلاد الإسلامية، وحث الناس على دراستها والاعتماد عليها .

وطالب بتأليف كتب تهدف إلى توحيد الأحكام، فيقوم العلماء بوضع هذه الكتب على الأسس المتفق عليها في جميع المذاهب الإسلامية وتتفق مع مطالب العصر، ثم تُعرض على سائر علماء

المسلمين للاتفاق عليها والتعاون في نشرها وتطبيق أحكامها .

التربية والتعليم :

كان الشيخ رشيد رضا من أشد المنادين بأن يكون الإصلاح عن طريق التربية والتعليم، وهو في ذلك يتفق مع شيخه محمد عبده في أهمية هذا الميدان، (فسعادة الأمم بأعمالها، وكمال أعمالها منوط بانتشار العلوم والمعارف فيها) .

وحدد (رشيد رضا) العلوم التي يجب إدخالها في ميدان التربية والتعليم لإصلاح شئون الناس، ودفعهم إلى مسايرة ركب العلم والعرفان، مثل : علم أصول الدين، علم فقه الحلال والحرام والعبادات، التاريخ، الجغرافيا، الاجتماع، الاقتصاد، التدبير المنزلي، حفظ الصحة، لغة البلاد، والخط .

ولم يكتف بدور الموجه والناصح، وإنما نزل ميدان التعليم بنفسه، وحاول تطبيق ما يراه محققًا للآمال، فأنشأ مدرسة دار الدعوة والإرشاد لتخريج الدعاة المدربين لنشر الدين الإسلامي، وجاء في مشروع تأسيس المدرسة أنها تختار طلابها من طلاب العلم الصالحين من الأقطار الإسلامية، ويُفضل من كانوا في حاجة شديدة إلى العلم كأهل جاوة والصين، وأن المدرسة ستكفل لطلابها جميع ما يحتاجون إليه من مسكن وغذاء، وأنها ستعتني بتدريس طلابها على التمسك بآداب الإسلام وأخلاقه وعبادته، كما تُعنى بتعليم التفسير والفقه والحديث، فلا خير في علم لا يصحبه خلق وسلوك رفيع، وأن المدرسة لا تشتغل بالسياسة، وسيُرسل الدعاة المتخرجون إلى أشد البلاد حاجة إلى الدعوة الإسلامية .

وقد افتتحت المدرسة في ليلة الاحتفال بالمولد النبوي سنة (1330هـ / 1912م) في مقرها بجزيرة الروضة بالقاهرة، وبدأت الدراسة في اليوم التالي للاحتفال، وكانت المدرسة تقبل في عداد طلبتها شباب المسلمين ممن تتراوح أعمارهم ما بين العشرين والخامسة والعشرين، على أن يكونوا قد حصلوا قدرًا من التعليم يمكنهم من مواصلة الدراسة

غير أن المدرسة كانت في حاجة إلى إعانات كبيرة ودعم قوي، وحاول رشيد رضا أن يستعين بالدولة العثمانية في إقامة مشروعه واستمراره لكنه لم يفلح، ثم جاءت الحرب العالمية لتقضي على هذا المشروع، فتعطلت الدراسة في المدرسة، ولم تفتح أبوابها مرة أخرى .

مؤلفاته :

بارك الله في عمر الشيخ الجليل وفي وقته رغم انشغاله بالمجلة التي أخذت معظم وقته، وهي بلا شك أعظم أعماله، فقد استمرت من سنة (1316هـ = 1899م) إلى سنة (1354 = 1935م)، واستغرقت ثلاثة وثلاثين مجلدًا ضمت 160 ألف صفحة، فضلاً عن رحلاته التي قام بها إلى أوربا والآستانة والهند والحجاز، ومشاركته في ميادين أخرى من ميادين العمل الإسلامي .

ومن أهم مؤلفاته (تفسير المنار) الذي استكمل فيه ما بدأه شيخه محمد عبده الذي توقف عند الآية (125) من سورة النساء، وواصل رشيد رضا تفسيره حتى بلغ سورة يوسف، وحالت وفاته دون إتمام تفسيره، وهو من أَجَلِّ التفاسير . وله أيضًا :

مؤلفاته :

التفسير المختصر المفيد

مجلة المنار

تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

السنة والشيعة

الخلافة

حقيقة الربا

مناسك الحج

الوحي المحمدي

نداء للجنس اللطيف

شبهات النصارى وحجج الإسلام

إنجيل برنابا

المسلمون والقبط

عقيدة الصلب والفداء

حقيقة الدعوة الإسلامية

ذكرى المولد النبوي

محاورات المصلح والمقلد

الوهابيون والحجاز

يسر الإسلام وأصول التشريع العام

***

شارك رشيد رضا في الكثير من المؤتمرات العلمية منها:

ترأس المؤتمر السوري العام الذي عقد في دمشق عام1337هـ/1919م .

شارك في مؤتمر للاحتجاج على انتداب فرنسا على سوريا ولبنان، وبريطانيا على فلسطين، عقد في مدينة جنيف في ذي الحجة 1339هـ/أغسطس1921م .

شارك في المؤتمر الإسلامي الذي عقد بمكة المكرمة عام 1344هـ/ 1925م .شارك في المؤتمر الإسلامي الذي عقد في مدينة القدس عاصمة فلسطين عام 1350هـ/1931م .

وفاة الشيخ :

كان للشيخ رشيد روابط قوية بالمملكة العربية السعودية، فسافر بالسيارة إلى السويس لتوديع الأمير سعود بن عبد العزيز وزوده بنصائحه، وعاد في اليوم نفسه، وكان قد سهر أكثر الليل، فلم يتحمل جسده الواهن مشقة الطريق، ورفض المبيت في السويس للراحة، وأصر على الرجوع، وكان طول الطريق يقرأ القرآن كعادته، ثم أصابه دوار من ارتجاج السيارة، وطلب من رفيقيه أن يستريح داخل السيارة، ثم لم يلبث أن خرجت روحه الطاهرة في يوم الخميس الموافق (23 من جمادى الأولى 1354هـ / 22 من أغسطس 1935م) .

وكانت آخر عبارة قالها في تفسيره : (فنسأله تعالى أن يجعل لنا خير حظ منه بالموت على الإسلام) .

مؤلف عنه :

ما تزال الكتب والدراسات الأكاديمية تجرى حول فكر الشيخ رشيد رضا وآرائه ومواقفه وجهوده، ومن هذه الكتب :

جهود الإمام محمد رشيد رضا في خدمة السنة

صلاح زكى أحمد، أعلام النهضة العربية الإسلامية فى العصر الحديث

رشيد رضا والعودة إلى منهج السلف

محمد رشيد رضا (1282-1354هـ/1865-1935م) محمد عمارة : ضمن كتاب موسوعة أعلام الفكر الإسلامي المعاصرون

رشيد رضا صاحب المنار عصره وحياته ومصادر ثقافته

رشيد رضا الإمام المجاهد

السيد رشيد رضا وإخاء أربعين سنة

منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة

محمد رشيد رضا طود وإصلاح دعوة وداعية (جهاده في خدمة العقيدة وأثره في الاتجاهات الفكرية المعاصرة)

مصادر الترجمة :

أحمد الشرباصي : رشيد رضا صاحب المنار، إصدارات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة .

إبراهيم العدوي : رشيد رضا الإمام المجاهد، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، سلسلة أعلام العرب، 1964 .

أنور الجندي : أعلام وأصحاب أقلام، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، بدون تاريخ .

أنور الجندي : موسوعة تاريخ الصحافة الإسلامية، الجزء الأول " المنار – محمد رشيد رضا "، القاهرة، دار الأنصار، 1983.

خير الدين الزركلي الدمشقي : الأعلام .. قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة، 2002م .

سمير أبو حمدان، الشيخ رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل، بيروت : الشركة العالمية للكتاب، سلسلة :موسوعة عصر النهضة،.1992

صلاح زكي أحمد : أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، القاهرة، مركز الحضارة العربية .

محمد رجب البيومي : النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، دار القلم – دمشق، الدار الشامية – بيروت، 1415هـ / 1995م .

يوسف إليان سركيس : معجم المطبوعات العربية والمعربة، مصر، 1346ه/ 1928م.

كما قدم الشيخ ترجمة لنفسه في سلسلة مقالات، بدأها بمقالة عنوانها (فصول من ترجمتي منقول من كتاب المنار والأزهر) نشرها في مجلته (المنار) في الأعداد التالية :

1- مجلة المنار: المجلد [33] الجزء [5] ص353، جمادى الأولى 1352 / سبتمبر 1933 .

2- مجلة المنار: المجلد [33] الجزء [5] ص367، جمادى الأولى 1352 / سبتمبر 1933 .

3-مجلة المنار: المجلد [33] الجزء [5] ص371، جمادى الأولى 1352 / سبتمبر 1933 .

4-مجلة المنار: المجلد [33] الجزء [7] ص536، شعبان 1352 / نوفمبر 1933 .

***

مجلة المنار
(1315هـ - 1359 هـ / 1898م -1940م)

تُعَدُّ مجلة المنار التي أصدرها الشيخ بعد شهر واحد من مقدِمه إلى مصر أكبر مجلة إسلامية في العالم الإسلامي بأسره، وأكثرها تداولاً وأعظمها تأثيرًا وأبعدها صيتًا .

وكان الشيخ يكتب على صدرها: (مجلة شهرية تبحث في فلسفة الدين وشئون الاجتماع والعمران) .

ولقد عُنيت المجلّة بمحاور متعددة، فلم تقتصر على الأمور الشرعيَّة والدينيَّة، بل أَفْرَدت مساحات للأدب والشعر والقصة، ونشرت مقالات عديدة عن السنن الكونية والطب والصحة، ونقلت عن مجلات أخرى عيون مقالاتِها وبحوثِها الجيدة، وشارك السيدَ رشيد في تحريرها نخبةٌ من الأعلام كالرافعي، والمنفلوطي، وشكيب أرسلان، ومحمد الخضر حسين، وغيرهم .

وأخذت المجلة في حياة مؤسسها مكانتها في قلوب الناس وعقولهم، وامتد أثرها إلى معظم أصقاع العالم الإسلامي . واستمر صدورها إلى وفاة مؤسسها في 1354هـ لتتوقف سبعة أشهر وتعود على يد علامة الشام الشيخ/ بهجت البيطار، ثم توقفت أخرى ليعود صدورها على يد الشيخ/ حسن البنا حيث أخرج منها ستة أعداد على مدى أربعة عشر شهرًا لتتوقف عن الصدور نهائيًّا عام 1359 هـ /1940م .

وبحق فقد كانت المنار منارًا للإحياء والتجديد والتربية والتعليم، وقد تصدت لقضايا الأمة بعامة، وعنيت بإصلاح العقيدة ومحاربة البدع والخرافة، والاهتمام بشأن العلم المادي والتجريبي، والدعوة إلى إنهاض الأمة في جميع المجالات، ولقد كانت بصمات الشيخ/ رشيد رضا على المجلة

واضحة، فهو أكبر محرريها، وأكثر من كتب فيها، بل جُلّ مقالاتها تُنسَب إليه شخصيًّا أو إلى المدرسة التي انتمى إليها في المرحلة الوسيطة من حياته .

كما موارد ثقافة الشيخ الصوفية والعقلانية والسلفية قد ظهرت وانعكست بوضوح في كتاباته ومقالاته، وفيما يلي بعض الملاحظ المهمة التي لا تخفى على الباحث المدقق، ويحتاج إليها عامة القراء والمهتمين بمجلة المنار من حيث هي ديوان فكر للإصلاحيين، ونبضُ أُمةٍ في مرحلة من الانكسار، وتأريخ لعدد من المساجلات العلمية والفكرية، ورصد لكثير من التحولات المنهجية .

صدر العدد الأول من مجلة المنار في (22 من شوال 1315هـ / من مارس 1898م)، وحرص الشيخ رشيد على تأكيد أن هدفه من المنار هو الإصلاح الديني والاجتماعي للأمة، وبيان أن الإسلام يتفق والعقل والعلم ومصالح البشر، وإبطال الشبهات الواردة على الإسلام، وتفنيد ما يعزى إليه من الخرافات .

وأفردت المجلة إلى جانب المقالات التي تعالج الإصلاح في ميادينه المختلفة بابًا لنشر تفسير الشيخ محمد عبده، إلى جانب باب لنشر الفتاوى والإجابة على ما يرد للمجلة من أسئلة في أمور اعتقادية وفقهية، وأفردت المنار أقسامًا لأخبار الأمم الإسلامية، والتعريف بأعلام الفكر والحكم والسياسة في العالم العربي والإسلامي، وتناول قضايا الحرية في المغرب والجزائر والشام والهند .

ولم يمض خمس سنوات على صدور المجلة حتى أقبل عليها الناس، وانتشرت انتشارًا واسعًا في العالم الإسلامي، واشتهر اسم صاحبها حتى عُرف باسم رشيد رضا صاحب المنار، وعرف الناس قدره وعلمه، وصار ملجأهم فيما يعرض لهم من مشكلات، كما جاء العلماء يستزيدون من عمله، وأصبحت مجلته هي المجلة الإسلامية الأولى في العالم الإسلامي، وموئل الفتيا في التأليف بين الشريعة والعصر .

وكان الشيخ رشيد يحرر معظم مادة مجلته على مدى عمرها المديد، يمده زاد واسع من العلم، فهو عالم موسوعي ملم بالتراث الإسلامي، محيط بعلوم القرآن، على دراية واسعة بالفقه الإسلامي والسنة النبوية، عارف بأحوال المجتمع والأدوار التي مر بها التاريخ الإسلامي، شديد الإحاطة بما في العصر الذي يعيش فيه، خبير بأحوال المسلمين في الأقطار الإسلامية .

حوت المجلة - التي تتألف من أكثر من 36 ألف صفحة - مادة ثرية في الدين والسياسة والأدب والتراجم والتاريخ والفتاوى وأخبار العالم الإسلامي والمناظرات والخطب والمحاورات والمساجلات، التي كانت ملء السمع والبصر في كل مناحي الحياة .

اشتهر من مؤلفات الرجل الكثيرة كتاب واحد هو " تفسير المنار " الذي لم يمهله العمر أن يتمه، ثم مجلته المنار، لكننا نستطيع اعتبار هذه المجلة – دون مبالغة – مجموعة مؤلفات شاملة في تخصصات عدة .

والذي يعنينا في هذا المقام هو المقالات التاريخية التي حوتها المنار ؛ إذ لم يتناول الرجل فقط التاريخ الإسلامي عامة، ولا الأموي والعباسي والأندلسي، بل كان التاريخ الحديث والمعاصر هو صاحب النصيب الأعظم في مقالاته التاريخية، إذ امتزج بالسياسة والواقع الاجتماعي وأحوال الأمة العربية والإسلامية، وكان الرجل يحمل رسالة الإصلاح والتجديد في المدرسة التي سلمه رايتها أستاذيه الأفغاني ومحمد عبده.

كما أسهمت علاقاته المتشعبة في طول البلاد وعرضها على كافة المستويات والأصعدة في معايشته لآمال الأمة وآلامها، وقربته من مكان الداء ومواضع الألم، واستطاع بمشاركته وفكره وحركته، وضع يده على طرائق الإصلاح وأساليب التغيير والتجديد، فجاءت مقالاته التاريخية لا وصفية للأحداث فقط، بل رصد وتحليل ونقد واستخراج للعبرة، وربط بالواقع، واستقراء للمستقبل . فلم يكن فقط راصدا للأحداث، بل كان شاهد عيان عليها ن مشاركا فيها متفاعلا معها، ومحركا إياها .

والخلاصة أن مواهب الرجل المتعددة والمتميزة في الفكر والدين والإصلاح والصحافة والسياسة والسياحة، والعلاقات المتشعبة، والمساجلات والمناظرات وغيرها، كل ذلك أضاف إلى شخصية المؤرخ رشيد رضا رصيدًا كبيرًا، فجاءت مقالاته التاريخية –كما أسلفت– ليست وصفًا للأحداث، بل نبضًا لهذه الأحداث.

لذا ؛ يستطيع الباحث والمتخصص والمثقف بصفة عامة اعتبار هذه المقالات التاريخية مصدرًا أساسيًا في التاريخ لهذه المرحلة الساخنة والحرجة في تاريخ الأمة العربية والإسلامية.

تراجم رجال العلم والدين والسياسة
في مطلع القرن العشرين

عثمان باشا الغازي[1]

سيرة المرحوم عثمان باشا الغازي

ولد في مدينة توقات من ولاية سيواس سنة 1248، وكان والده في الأستانة فاستقدم بيته إليها ، وأدخل عثمان أولاً إحدى مدارسها الابتدائية، ثم نقله إلى المدرسة الإعدادية في سنة 1258، وكان أخوه أو خاله أستاذًا فيها، فعني بتعليمه وتربيته ، وبعد خمس سنين انتقل منها إلى المدرسة الحربية ، وخرج منها في سنة 1265 برتبة ملازم ثان في الفرسان وفي إثر ذلك كانت حرب القريم فجعل من أركان حربها تحت قيادة عمر باشا فظهرت بسالة الفقيد ونجابته فيها ، فترقى عقيبها إلى رتبة يوزباشي في الحرس الشاهاني، ثم إلى رتبة (قول أغاسي) وفي سنة 1274 عين في اللجنة التي كلفت بتنظيم خرائط الأناضول، وفي سنة 1276 صار رئيسًا لأركان الحرب في معسكر يكيشهر فظهرت براعته فيها أحسن ظهور، وكان في العسكر الذي أرسل لإخماد فتنة سوريا المعروفة بفتنة سنة 1860 ميلادية برتبة بكباشي، واستقدم مع عسكره من سوريا لإخماد فتنة حدثت في كريد، وقد ارتقى ببراعته وبسالته فيها إلى رتبة قائمقام ثم أميرالاي وأنعم عليه بالوسام المجيدى الثالث وكان ذلك في سنة 1283هـ و 1866م.

ولما كانت فتنة سنة 1283 في اليمن كان الفقيد أحد قواد العساكر التي أرسلت إليه فارتقى بعمله فيها إلى رتبة أمير لواء.

ولما عين قائدًا لفرقة يكى بازار نظمها أحسن تنظيم؛ فارتقى إلى رتبة فريق وجعل قائدًا للأستانة العلية، ثم لأشقودره ثم لبوسنه ثم تعين رئيسًا للمجلس العسكري في الفيلق الرابع.

ولما حاربت بلاد الصرب الدولة العلية كان قائدًا للفرقة الأولى في محاربتها فدوخها، وألجأ أهلها إلى طلب الصلح، فارتقى بهذا إلى رتبة المشيرية، وأنعم عليه بالوسام المجيدي الثاني، ثم وقعت الحرب بين الدولة العلية والروسية، فتولى عثمان باشا قيادة 68 طابورًا و17 كوكبة من الفرسان وأعطي 174 مدفعًا وكانت له فيها الوقائع الهائلة التي كان فيها مثال الثبات والشجاعة والدراية في

الفن العسكري وقيادة الجيوش، وناهيك بما كان منه في حصار بلافنا فإن الروسيين زحفوا عليه بقضهم وقضيضهم وعددهم وعديدهم، فصابرهم وكافحهم، وقتل منهم الألوف، وهزم الزحوف بعدد قليل، ثم قطع عنه الزاد والإمداد، حتى لم يبق عنده شيء يتلمظ به الجند، وهل ألجأ هذا الأسد للتسليم ما أصابه من البلاء الأليم؟ كلا إنه نفخ في جنده روح الحمية والبسالة، وأمرهم بأن يخترقوا صفوف العدو بالقوة، وكان عددهم نحو أربعين ألفًا، وعدد الروس يزيد على مائة وخمسين ألفًا ومعهم ستمائة مدفع، فأطاعوه واخترقوا صفين من المعسكر الروسي والنيران تنصب عليهم كالمطر، وقبل النجاة باختراق الثالث أصيب القائد العظيم بالرصاص هو وجواده فوقع جريحًا، فسلم جنده ظنًّا منهم أنه قتل.

وقد عرف الروسيون لهذا القائد الباسل فضله وقدروه قدره، فلم يعاملوه معاملة الأسرى، بل أعادوه إلى بلافنا مكرمًا معظمًا؛ ليداوي جرحه، وكان دخلها القيصر إسكندر الثاني وفي اليوم التالي من وصول عثمان باشا إليهم قابل القيصر فوقف له وسلم عليه وجامله بالقول والفعل، ومما تناقله الركبان قول القيصر له: (لا يحزنك أيها الباشا أنك اضطررت للتسليم فإنك لم تسلم جبنًا ولا تقصيرًا، بل دافعت عن وطنك أشد الدفاع وانتهيت في الشجاعة والثبات إلى الغاية التي لا وراءها، وإنني لا أنظر إليك كما أنظر إلى الأسير، وإنما أنظر إلى بسالتك بعين الاحترام والتوقير، وأراني ذا حظ بالتقائي بشجاع مثلك في حومة الوغى، وها أنا ذا أعيد إليك سيفك، وأبيح لك أن تتقلده في بلادي إقرارًا بشجاعتك واعترافًا بجدارتك، وهذه مركبتي وهؤلاء حرسي تحت أمرك، فلك الخيار إن شئت ركبت وإن شئت مكثت).

وأمر بأن تضرب له خيمة بجانب خيمة الغراندوق نقولا القائد العام لعسكر الروس، وكان الغراندوق يزوره كل يوم ويلاطفه ويسليه.

ولما ألقي السلم بين الدولة العلية والروسية في سنة 1296هـ 1878م وأطلق سراح الأسرى عاد عثمان باشا إلى الأستانة فاستقبل فيها باحتفال عظيم، ومن المستقبلين له عدد كثير انتهوا إلى مدخل البحر الأسود، ولما بلغها سار توًّا إلى المابين الهمايوني حيث حظي بمقابلة مولانا السلطان، ولقي منه أجمل الالتفات، وتناول طعام العشاء في ذلك اليوم على المائدة السلطانية، وحضر العشاء معه بالأمر السلطاني وكلاء الدولة وأكابر وزرائها، وكان مولانا أعزه الله يخصه بالملاطفة على المائدة، وأنعم عليه في ذلك المجلس بالوسام العثماني المرصع، وقلده سيفًا محلًّى بالذهب من آثار السلطان محمود خان عليه الرحمة، منقوش عليه هذه الكلمة (للغازي).

ثم عين مشيرًا للحرس السلطاني، ثم مشيرًا للمابين وفي 22 شهر أيلول أو تشرين أول من سنة 1894 مالية عهد إليه بوزارة الحربية (سر عسكر) فبقي فيها إلى 18 أيلول (سبتمبر) سنة 1302 مالية، ففصل منها وبقي مشيرًا للمابين، ثم أعيد إليها في 9 أغسطس سنة 1307 عقيب وفاة السر عسكر علي صائب باشا ثم انفصل بعد مدة، وبقي مشيرًا للمابين إلى آخر أيام حياته فكانت مدة خدمته في هذا المنصب 22 عامًا كان فيها من مولاه محل الثقة الأول، وعليه المعتمد والمعول، وقلده في أثنائها أعلى وسامات الدولة- وسام الافتخار ووسام الامتياز والعثماني والمجيدى المرصعات، وأنواع المداليا من ذهبية وفضية ولياقة وكريد، وحاز وسامات الدول الأجنبية كلها من الدرجة الأولى ومنها أعظم وسام عند حضرة البابا.

وقد نال شرف المصاهرة السلطانية فإن نور الدين باشا أكبر أولاده تزوج بدولة زكية سلطان، ونجله الثاني كمال الدين باشا تزوج بدولة نعيمة سلطان وهما كريمتا مولانا أمير المؤمنين.

ولصاحب الترجمة عليه الرحمة ولدان آخران أحدهما جمال بك أفندي وهو اليوم في برلين يشتغل بالتحصيل، ورتبته بكباشي في الجيش العثماني، وملازم في عسكر بروسيا وسنه 22 سنة، وثانيهما حسيب بك من حُجاب الحضرة السلطانية أحسن الله عزاءهم جميعًا، وجعلهم خير خلف لخير سلف.

فعلم من مجموع ما تقدم أن هذا القائد العظيم قد ارتقى إلى الأوج الذي كان فيه بجده واجتهاده، ولو أنه أعطي الرتب والوسامات من أول النشأة قبل أن يظهر منه عمل من الأعمال لما نال ما نال، وأن مبدأ شهرته كان من ظهور بسالته في حصار بلافنا، وقد جاء في الهلال أن كل أمة حاولت أن تدعي في إثر تلك الواقعة أنه منها، فقال الأميركان: إنه أميركانى الأصل، وقال الفرنساويون: إنه فرنساوي، وقال غيرهم مثل قولهم، والحق أنه تركي صريح كما مر، وهكذا شأن الناس تدهشهم الوقائع الغريبة ولذلك لم تشتهر بينهم الوقائع التي أظهر القواد فيها من البراعة في الفن العسكري ما يكاد يكون معجزًا كبعض وقائع دولة الغازي مختار باشا التي قررت دولة ألمانيا أن تجعلها من الدروس العسكرية الدائمة، ولا شك أن عثمان باشا هو ثاني (مختار باشا) في الفنون العسكرية علمًا وعملاً على أنه كان جديرًا بكل ما ناله، وإن ذهب بعض الناس إلى أن للمداراة يدًا في ذلك ، تغمده الله -تعالى- برحمته ، وأسكنه فسيح جنته آمين.

فكتوريا ملكة الإنكليز 2

في اليوم الثاني من شوال و22 يناير الماضي قضت نحبها هذه الملكة العظيمة وفارقت ملكها الكبير ذا الشأن الخطير عن ثلاث وثمانين سنة ثلاثة أرباعها بل أكثر على عرش الملك والعظمة ومستقر العز والقوة فقد كانت مدة حكمها 64 سنة.

أما تاريخ حياتها وما نالته من السعادة، وعظم السيادة، فلا تفي به المجلدات.

بله هذه الورقات، ولا بد من إجمال قليل إذا لم يمكن التطويل بالتفصيل.

مولدها ونشأتها :

هي ألكسندرينا فيكتوريا بنت دوق كنت بن الملك جورج الثالث ملك إنكلترا، وحفيد الملك جورج الثاني ابن الملك جورج الأول الألماني الأصل لأنه كان أمير هنوفر.

ولدت في 24 مايو 1819 ووالدتها (لويزا فيكتوريا) بنت دوق ألماني وأخت ليوبولد الأول ملك بلجيكا.

ومات والدها وهي في السنة الثانية فقامت والدتها بتربيتها أحسن قيام أهَّلها لإدارة ذلك الملك الواسع، وإذا قلت لإدارة كرة الأرض لم تكن مغاليًا، وقد استعانت والدتها على تربيتها بمربية بارعة اسمها البارونة لهزن لها معها شئون مدونة في الكتب يقرؤها الإنكليز للاقتداء والفكاهة والافتخار.

ولما تم لها 11 سنة كانت تعلمت اللغات الألمانية والفرنساوية والإيطالية واللاتينية مع آداب اللغة الإنكليزية ، وتعلمت الموسيقى والرسم والتصوير وبعض الأشغال اليدوية ونظرت في الفنون الرياضية وكان لها مزيد عناية بالدين.

وكانت حسنة الأخلاق لطيفة المعاشرة كاملة الآداب.

وكانت والدتها ومربياتها عارفات بأن ملك إنكلترا سيئول إليها لأن عمها جورج الرابع مات من غير ولد فخلفه عمها وليم الرابع وكان له بنتان ماتتا في عهدها وهو حيٌّ فتلطفت معلمتها البارونة بإعلامها أنها ولية العهد بالمواطأة مع والدتها بأن وضعت لها شجرة بيت الملك في كتاب كانت تطالعه فلما رأتها قالت: إنني أقرب إلى الملك مما كنت أحسب.

ثم قالت : إن الملك عظيم ومجده كبير ولكن أعباءه أكبر.

وقالت لمعلمتها : الآن فهمت سبب إلحاحك عليّ بإتقان اللغة اللاتينية.

جلوسها :

مات عمها ملك إنكلترا في 20 يونيو سنة 1837 بعد نصف الليل فأسرع رئيس الأساقفة ومركيز كوننهام وأحد الأطباء الذين حضروا موته إلى قصر الأميرة فيكتوريا فلما أيقظت وأعلموها طلبت من الأسقف أن يصلي ثم كتبت إلى امرأة عمها كتاب تعزية لقبتها فيه بجلالة الملكة حتى لا تكون أول من يسلبها هذا اللقب. وتلك نهاية الأدب.

ونودي بها في اليوم التالي ملكة على الإنكليز وبعد سنة وثمانية أيام احتفل بتتويجها أعظم احتفال.

تتويجها :

توّجت الملكة في كنيسة وستمنستر كما هي العادة المتبعة عند ملوك الإنكليز، فزينت الكنيسة الزينة التي تقتضيها عظمة الملك، وكان أول العمل أن وقفت أمام رئيس الأساقفة ووضعت يدها على التوراة راكعة، وحلفت أنها تحكم البلاد بحسب دستور مجلس الأمة (البارلمنت) وقوانين البلاد مع العدل والرحمة، وأنها تحافظ على حقوق خدمة الدين، ثم قدم لها لورد ملبرن سيف المملكة، وافتداه بعد ذلك بخمسة جنيهات حسب التقاليد، وألبست حلة الملك وخاتمه وأعطيت الكرة والصولجان ودهنت بالدهن المقدس، وألبسها رؤساء الكهنة التاج وأجلست على عرش الطاعة، وجثا أمامها رئيس الأساقفة، وقبل يدها وتلاه سائر رؤساء الكهنة ثم خضع لها عمَّاها دوق سسكس ودوق كمبردج ثم سائر الأمراء.

وكان ذلك اليوم مطيرًا فاتفق أن تقشعت الغيوم وبرزت الشمس عند وضع التاج على رأسها فوقع شعاعها عليه فتألقت جواهره وتلألات حتى كادت تخطف الأبصار فكان ذلك فألاً حسنًا للحاضرين.

زواجها :

كان الأمير ألبرت ابن خالها ليوبولد ملك البلجيك زار إنكلترا ورأته الأميرة فيكتوريا فأعجبها جماله وكماله وعزمت على الاقتران به، ثم شغلها الملك وحقوقه عن ذلك وما ذكرها به إلا زيارته لها في إنكلترا، وكان أهلهما يتوقعون اقترانهما؛ فكان.

وبعد مشاورتها مجلس الأمة وإقراره على الزواج احتفل به في 10 فبراير سنة 1840 في كنيسة قصر سنت جمس.

ومما يحسن ذكره هنا أن من التقاليد عندهم أن يقرأ عند صلاة الاقتران فصل من الكتاب المقدس تؤمر فيه المرأة بطاعة الرجل، فسأل الأسقف الملكة: هل تبيح له ذلك وتأذن به؟ فأجابته جواب العاقل الحكيم : (إنني أقترن امرأة لا ملكة فلا تحذف شيئًا من كلام الكتاب)، وكذلك كانت تعامل زوجها بعد، وكان لها كما كانت له خير عون وظهير.

وكانا تِرْبَين؛ لأن ولادته كانت في شهر 5 أغسطس (آب)، أي : بعد ولادتها بنحو 3 أشهر وعاش معها 21 سنة (ستأتي بقية الترجمة).

ملكة الإنكليز[3]

تقدم في الجزء الثاني والثلاثين من السنة الثالثة ذكر مولد هذه الملكة العاهلة ونشأتها وجلوسها وتتويجها وزواجها، ونلم هنا بباقي سيرتها.

أخلاقها ودينها: تقدم في مطاوي الكلام ما يُشْعِر بدماثة أخلاق الملكة فيكتوريا وتهذيبها، ويُؤْثَر عنها شدة التمسك في مذهبها البروتستانتي؛ ولكنها كانت تُظهر الاستياء من التحامل على رعاياها الكاثوليك، ومما يُؤثر عنها في المحافظة على يوم الأحد أن أحد الوزارء أراد أن يعرض عليها أوراقًا ذات بال في مساء السبت، فرأى الوقت يضيق عن النظر فيها، فاستأذنها بأن يحضر لعرضها في صباح اليوم التالي فقالت : إن غدًا الأحد يا حضرة اللورد.

فقال : إن مصلحة البلاد لا تسمح بالتأجيل.

قالت : إذن لا بأس.

وفي صبيحة ذلك اليوم حضر ذلك الوزير سماع الوعظ في الكنيسة مع الملكة كعادة أمثاله، وكان الوعظ في (الواجب على المسيحي يوم الأحد) فلما انتهى قالت الملكة للوزير: (هل أعجبك الوعظ ؟) قال: كثيرًا يا جلالة الملكة.

قالت: (لا أخفي عنك أنني أنا التي أوعزت إلى الخطيب بهذا الموضوع فعسى أن يؤثر كلامه فينا)، ثم أمرته أن يحضر في اليوم التالي لعرض الأوراق ففعل، ويُؤثر عنها أنها قالت: (إن السر في عظمة إنكلترا هو الكتاب المقدس.

وقالت: إن التجارة وحدها لا تجعل الأمة عظيمة وسعيدة، وإنكلترا إنما بلغت ما بلغت من العظمة والسعادة بمعرفة الإله الحقيقي) نعم إن الإنكليز أشد تمسكًا بالدين، وأقل تعصبًا على

المخالفين من جيرانهم الفرنساويين، ولذلك تقدموا عليهم ؛ ولكن البوير أشد تدينًا من الإنكليز ؛ ولذلك انتصروا عليهم وقاووهم إلى الآن، ولا يزال الحرب بينهما سجالاً مع أنهم في الإنكليز كالشامة في جلد البعير، فليعتبر شبان المصريين الذين يتوهمون أن المدنية إنما تكون بالكفر والتعطيل، واتباع الشهوات البهيمية، والغرور بالزخارف الظاهرية.

سياستها: الممالك إنما تنهض وترتقي برجالها ووزرائها المسؤولين المحنكين، ودولة إنكلترا أغنى الدول بالساسة، وقد رزقت الملكة فيكتوريا بأنصار منهم نهضوا بالبلاد في عهدها نهوض الأسود وهم: واللورد ملبرن، والسر روبرت بيل، واللورد جون رسل، واللورد بامرستون، واللورد بيكنسفيلد، وأرل دربي، وأرل إبردين، والمستر غلادستون، واللورد روزبري، واللورد سالسبري، هؤلاء هم الذين تولوا الوزارة الكبرى على عهدها، ولهم من سائر الوزراء والنواب والحكام أعوان وأنصار على شاكلتهم؛ لأنهم نتائج تعليم وتربية واحدة، ويظن كثيرون أن الملكة لم تكن إلا آلة صماء لا عمل لها بذاتها، ولا إرادة لها في حكومتها، والصواب أنها كانت تنظر الأشياء الكلية وتبدي رأيها فيها، ومن الشواهد على هذا أن اللورد ملبرن حاول إقناعها بالأدلة الخطابية بأن تُصَدِّق على مشروع مهم، وكان يخاف أن لا ينجح في ذلك، فنوه بأمر المشروع ما شاء أن ينوه، وقال: إنه يا جلالة الملكة عظيم الأهمية.

فقالت له: (إن أعظم المسائل وأهمها عندي الآن هو أمر التوقيع على مشروع لم أقتنع به).

وقد اتسع عمران الدولة البريطانية على عهدها، فقد كانت مساحة البلاد الإنكليزية ومستعمراتها يوم تولت عليها 8329000 ميل مربع، وعدد سكانها 168 مليونًا، وما تولت عنها إلا ومساحتها تزيد على 11250000 ميل مربع، وسكانها يزيدون على 400 مليون، وكان دخل الحكومة الإنكليزية حين وُليت 50 مليون جنيه من بلادها، و25 مليونًا من الهند، وبلغ قبل أن وَلَّت 120 مليونًا من بريطانيا وحدها، ونحو 70 مليونًا من الهند، وثلاثين من أستراليا و20 مليونًا من سائر المستعمرات.

وكان للملكة نفوذ شخصي عظيم في أوربا لكونها امرأة، ولكبر سنها، ولوشيجة الرحم المشتبكة بينها وبين أعظم ملوك الأرض كعاهل الألمان، وقيصر الروس، فكانت تحل بكتاب تخطه بيمينها ما لا تحله النفاثات في عقد السياسة منه بواقع الرجال، ولذلك يُظن أن بريطانيا قد فقدت بفقدها شمس المجد ونجم السعد، وأنها لن تكون بعدها كما كانت، والله علام الغيوب.

عبد الرحمن الكواكبي[4]
مصاب عظيم بوفاة عالم حكيم

في يوم الجمعة 6 ربيع الأول أصيب الشرق بفقد رجل عظيم من رجال الاصلاح الإسلامي، وعالم عامل من علماء العمران، وحكيم من حكماء الاجتماع البشري، ألا وهو السائح الشهير، والرحالة الخبير، السيد الشيخ عبد الرحمن الكواكبي الحلبي مؤلف كتاب (طبائع الاستبداد) وصاحب (سجل جمعية أم القرى) الملقب فيه بالسيد الفراتي.

اختطفت المنية منا بغتة هذا الصديق الكريم، والولي الحميم، بل هدمت منا الركن الركين، وقوضت أقوى الدعائم والأساطين، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لو كان الرثاء والتأبين من موضوع المنار لرثيته بما يليق بخَطْبِه العظيم، وما كنت لأستعير المدامع لأستعبر القارئ والسامع، ولا لأستمدّ الرثاء من خيال الشعراء، ولا الحزن من فؤاد الخنساء، وإنما أستملي القلب بعض ما يجد من الكرب، فإنه ما أحزنني خطب كخَطْبِه، ولا أَمَضَّنِي كَرْب ككربه.

حزني عليه دوره مسلسل * مهما انتهى إلى النفاد انقلبا**

ولكنني أدع الرثاء والتأبين لأفاضل الشعراء المجيدين، وأذكر في المنار ما يليق بموضوعه من خلاصة سيرة هذا الرجل؛ ليعلم القراء منها كيف يُنْبِت الشرق الرجال العظام، وكيف تُضيّعهم الأمم والحكام، ولتكون ذكرى لمن يذَّكر، وعظة لمن يعتبر، وأبدأ بترجمة الفقيد الرسمية وهي مطبوعة في ورقتين رسميتين إحداهما مُصَدَّق عليها من والي حلب المشير عثمان نوري باشا ورؤساء حكومة حلب يومئذ، والثانية مُصَدَّق عليها من الوزير رائف باشا والى حلب وهي الأخيرة

وإنما أبدأ بالسيرة الرسمية؛ لأنها من مواد استنباط سيرته الاجتماعية والسياسية والأدبية، وهذا تعريبها ملخصًا:

السيرة الرسمية:

هو عبد الرحمن أفندي ووالده الشيخ أحمد أفندي من آل الكواكبي ومن المدرسين في الجامع الأموي الكبير والمدرسة الكواكبية، وآخر وظيفة كان فيها عضوية مجلس إدارة ولاية حلب.
وبيتهم من بيوتات المجد والشرف (خاندان) المشهورة في الأستانة العلية و حلب.
ولد السيد عبد الرحمن أفندي الكواكبي في 23 شوال سنة 1265 وتعلم القراءة والكتابة في المدارس الأهلية الابتدائية، ثم استحضر له أستاذ مخصوص عَلَّمَه أصول اللسانين التركي والفارسي.
وتلقى العلوم العربية والشرعية بمدرسة الكواكبية المنسوبة لأُسرته، وأخذ الإجازات من علمائها ودَرَّس فيها.
وهو يقرأ ويكتب بالعربية والتركية.
وقد وقف على العلوم الرياضية والطبيعية وبعض الفنون الجديدة بالمطالعة والمراجعة.
ومن تأليفه تحرير الجريدة الرسمية (فرات) بقسميها التركي والعربي في سنة 1292 إلى سنة 1297.
ومنه جريدة الشهباء التي أنشأها في حلب سنة 1293 وكان هو المحرر لها.

خدمته ووظائفه:

دخل في وظائف الدولة رسميًّا في الثامنة والعشرين من عمره وفي سنة 1293 عُيِّنَ محررًا رسميًّا للجريدة الرسمية بقسميها (كأنه كان في سنة 1292 يحررها بصفة غير رسمية للاختبار) براتب قدره ثمانمائة قرش.
وفي 5 ربيع الأول سنة 1295 عُيِّن كاتبًا فخريًّا للجنة المعارف التي تأسست في ولاية حلب (يعنون بالفخري ما كان بدون راتب).
وبعد ثلاث سنين اتسعت دائرة اللجنة وزيد فيها قسم النافعة (الأشغال العمومية) وعين عضوا فخريًّا فيها.
وفي 2 جمادى الأولى تعين محررًا للمقاولات (مسجل المحكمة) وفي 16 ربيع الثاني سنة 1298

صار مأمور الإجراء (رئيس قلم المحضرين) في ولاية حلب.
وفي 7 رمضان سنة 1298 عين عضوًا فخريًّا للجنة (قومسيون) النافعة.
وفي 22 ذي القعدة سنة 1299 عين بأمر نظارة العدلية (الحقانية) في الآستانة عضوًا في محكمة التجارة بولاية حلب مع البقاء في وظيفته الأولى (محرر المقاولات) وفي سنة 1303 انفصل من هذه الأخيرة وفي 4 رجب سنة 1304 عاد إلى وظيفة مأمور الإجراء، وفي 23 رجب سنة 1310 عُيِّنَ رئيسًا للبلدية.
إلى هنا انتهت وظائف الترجمة الرسمية الأولى، وجاء في الثانية بعد ذكر ما تقدم أنه في 29 من ربيع الأول سنة 1312 عين رئيس كُتّاب المحكمة الشرعية في حلب (باشكاتب) بقرار من مجلس النواب في دار السعادة.
وفي 28 ذي الحجة سنة 1312 عين ناظرًا ومفتشًا لمصلحة انحصار الدخان (الريجي) المشتركة مع نظارة المالية في ولاية حلب ومتصرفية الزور، وفي أثناء ذلك اتفق مع إدارة المصلحة وتعاقدا على أن يستلم من المصلحة جميع ما تقدمه من الدخان (التبغ) إلى الولاية المتصرفية بزيادة كثيرة عن القدر المعتاد وجميع ما يزرع فيهما منه، ويتولى بيعه، وتعهد في إزاء ذلك بمبلغ من المال يزيد عما كانت تبيع به المصلحة دخانها زيادة كبيرة.
وفي غضون ذلك استقال من رياسة كُتَّاب المحكمة الشرعية ثم في 9 ذي الحجة سنة 1314 أعيد إليها وعين رئيسًا للجنة البيع والفراغ (أي استبدال الأراضي الأميرية من أصحاب اليد بالمال) وفي 7 ربيع الأول عين رئيسًا أولاً لغرفة التجارة في حلب ورئيسًا لمجلس إدارة المصرف (البنك) الزراعي، وفي 22 رجب عين قاضيًا شرعيًّا لراشيا التابعة لولاية سوريا.

رتبه ووساماته:

في 19 رجب سنة 1297 وجهت إليه نيابة دروس أدرنة العلمية.
وفي 25 ربيع الثاني وجه إليه تدريس هذه الرتبة.
وفي 22 ذي الحجة سنة 1312 وجهت إليه مولوية أزمير المجردة.
وفي 28 من جمادى الثانية أعطي الوسام المجيدي من الدرجة الثالثة.
اهـإن من ينظر في هذه الترجمة الرسمية ولم يكن عارفًا بالمترجم ولا بسيره في هذه الوظائف العلمية الأدبية، الإدارية القلمية، الحقوقية التجارية، الزراعية المالية يقول: إن صاحبها من أوساط

الناس لا من أفراد الرجال الذين يعدون من علماء الاجتماع وأركان العمران، ومهذبي الأمم كما وصف في فاتحة القول، ولكن من يعلم أنه في كل عمل منها آية بينة في إتقان العمل، وحكمة التصرف، يحار كيف يحسن رجل هذه الأعمل المتباينة.
وإذا وقف بعد ذلك على بعض سيرته في العزيمة وقوة الإرادة وعلم ما كانت تسمو إليه نفسه، ويرمي إليه فكره، وقرأ بعض ما جادت به قريحته الوقادة، وفكرته النقادة، علم أنه من أفراد الزمان، وأدرك ماذا كان يرجى منه لو ساعد الزمان والمكان، وإننا نلم بشيء مما وقفنا عليه من سيرته في مدة صحبتنا له في هاتين السنتين اللتين أقامهما في مصر.

أدبه وأخلاقه:

توفيت والدة الفقيد وهو في أول سن التمييز فعهد والده بتربيته إلى خالة له (من بيوتات أنطاكية) من نوابغ النساء اللواتي قلما يعرف مثلهن الشرق، لا سيما في هذا الزمان، كانت تعرف بالعقل والكياسة والدهاء والأدب البارع فنشَّأته على أدب اللسان والنفس فكان من أخلاقه الراسخة الحلم والأناة والرفق والنزاهة والعزة والشجاعة والتواضع والشفقة وحب الضعفاء.
وقد كنت ككل من عرفه معجبًا بأناته حتى كنت أقول: إنني أراه يتروّى في رد السلام ويتمكث في جواب من يحييه عدة ثوان ! ولا أكاد أعرف أخلاقًا أعصى على الانتقاد من أخلاقه ولقد كان لسان الحال يصفه بقول ابن دريد:

يعتصم الحلم بجنبي حُبْوتِي *** إذا رياح الطَّيْش طارت بالحبي

لا يطبيني طمع مدنّس *** إذا استمال طبع أو اطَّبي

والحلم خير ما اتخذت جُنَّة *** وأنفس الأبراد من بعد التقى

علمه ومعارفه:

نزيد على ما جاء في السيرة الرسمية أن الفقيد درس قوانين الدولة درسًا دقيقًا، وكان محيطًا بها يكاد يكون حافظًا لها وله انتقاد عليها يدل على دقة نظره في علم الحقوق والشرائع، ولهذا عينته

الحكومة في لجنة امتحان المحامين.
ولا أعلم أن برّز في فن أو علم مخصوص فاق فيه الأقران ولكنه تلقى ما تلقاه من كل فنُ يفْهَم، وعَقِل بحيث إذا أراد الاشتغال به عملاً أو تأليفًا أو تعليمًا يتسنى له أن ينفع نفعًا لا ينظر من الذين صرفوا فيه أعمارهم.
ألا تراه كيف ألف كتابًا في طبائع الاستبداد لم يكتب مثله فيلسوف في الشرق ولا في الغرب فيما نعلم وكما سمعنا من كثيرين لهم اطلاع واسع في مؤلفات فلاسفة الغرب وكتابه.
على أن الفقيد لم يتعلم شيئًا من علوم النفس والأخلاق والسياسة وطبائع الملل والفلسفة في مدرسة، وإنما عمدته في هذه العلوم ما طالعه فيها من المؤلفات والجرائد التركية والعربية.
أرأيت عقلاً يتصرف هذا التصرف الذي يفوق فيه الحكماء والفلاسفة في علم لم يأخذه بالتلقي وهو أصعب العلوم البشرية وأعلاها.
كيف يكون أثره لو تربى وتعلم في مدارس منتظمة كمدارس أوربا الجامعة وكان عنده من مواد العلم ومعرفة الأمة والحكومة بقيمة صاحبه مثلما في أوربا.
وبالجملة إنك لم تكن تذاكره في شيء ولا علم إلا ويشاركك فيه على بصيرة.

عمله ووجهته:

كانت وجهة الفقيد في كل عمل عمله أو حاوله هي المنفعة العامة فأول شيء ولأّه وجهه هو إنشاء جريدة في بلاد لم تكن تعرف الجرائد الأهلية ولم تكن بضاعة الكتب رائجة فيها ولو كان في بلاده حرية للجرائد لكان في (الشهباء) الأثر المحمود، ولكن البلاد التي تحكم بالاستبداد كالأرض الموبوءة لا تحيا فيها الجرائد، ولذلك لم تنجح جريدة من الجريدتين اللتين أنشأهما لأن نفسه الأبية لم تستطع إرضاء الحكام فيما يكتب.
وهكذا كان شأنه في وظائفه: ولي رياسة البلدية فكان أول عمل عمله للبلدان أن وضع على طرق المدينة من خارجها سلاسل من الحديد تمنع الجمال التي كانت تسدّ الطرقات وتمنع المارين من التردد في حوائجهم وجعل لهذه الجمال التي تُحْمَل إلى البلد ومنه مكانًا أو أمكنة مخصوصة، وكانت مصلحة (القبان) قد حصرت في واحد من الأغنياء يأخذها من البلدية بالالتزام ولا يتجاسر على الزيادة عليه أحد لتقربه من الرؤساء فلما علم أن الرئيس الجديد لا يصدّه التقرب إليه عن خدمة المصلحة عرض عليه أربعين ألف قرش أو أكثر يعطيه إياها (رشوة) كل عام في مقابلة سكوته عنه

فلم يقبل الفقيد أن يأخذ لنفسه شيئًا ولكنه قبل أن يكون المبلغ إعانة لصندوق البلدية فعلم الوالي بهذه الزيادة في الصندوق وسعى في أن يكون له سهم منها فأبى عليه الفقيد ذلك فعزله.

وهكذا كانت سيرته مع الحكام في كل وظائفه أو جلها: يتصدى للإصلاح فيصدونه عنه لأجل منفعة مالية أو لتقليل نفوذه فلا يتم له عمل.

(لها بقية)

((يتبع بمقال تالٍ))

تتمة سيرة الكواكبي[5]

وكان أول عمل عمله في إدارة مجلس البلدية هو قطع عرق الرشوة من العمال الذين يباشرون الأعمال والمصالح ويسمون (الجاويشية) ولكنه زاد في راتبهم؛ لعلمه بأن الذي يضطر أكثر العمال إلى الرشوة هو قلة الراتب.

وكان من ظلم الوالي بعد عزل الفقيد من رياسة البلدية أن أرجع راتب الجاويشية كما كان وألزم صاحب الترجمة بدفع ما كان زاده لهم في مدته إلى صندوق البلدية كما ألزمه بدفع ما أنفق على سلاسل الحديد التي منع بها الجمال من طرق المدرسة؛ لأن الوالي أمر بإزالتها عقيب عزله ثم عاد فأمر بإعادتها بعد زمن قريب ولكنه لم يعد إلى الفقيد الغرامة التي ظلمه بها.

ولما عين رئيسًا لكتاب المحكمة الشرعية كانت المحكمة في أسوإ الأحوال في الصورة والمعنى، فكان ينفق على إصلاحها من جيبه حتى إنه استحضر لها السجوف والأستار من بيته ومنع اختلاط النساء بالرجال إذ جعل لكلٍّ مكانًا ينتظر فيه دوره للتقاضي ورَتَّبَ الأوقات ونظَّم الدفاتر.

وكان صاحب عزيمة قوية لا يهاب حاكمًا ولا يخاف ظالمًا وعزيمته هي التي جنت عليه فقد كان نجح في عمله عندما عين مديرًا ومفتشًا لمصلحة حصر الدخان كما تقدم في السيرة الرسمية حتى وقع النزاع بنيه وبين عارف باشا والي حلب يومئذ فبطل العمل عمل الفقيد في ضبط هذه المصلحة ما عجزت عنه إدارتها العمومية والحكومة جميعًا حتى كانت تخسر في ولاية حلب دون سائر بلاد الدولة، وكان المشتغلون بتهريب الدخان البلدي وبيعه في حلب سبعمائة رجل فعين لهم رواتب ومنعهم من التهريب بحكمة عجيبة وسيأتي مجمل خبره في عداء الوالي عند الكلام على بعض الصعوبات التي لقيها في طريقه.

كانت مدة الاتفاق الأول مع مصلحة حصر الدخان ثلاث سنين فانفصل من إدارة العمل والتفتيش بعد سنتين بالسبب الذي ألمعنا إليه، ولثقة الفقيد بنفسه واقتداره على العمل ذهب إلى الأستانة بعد عزل عارف باشا من ولاية حلب فعقد اتفاقًا آخر مع المصلحة والحكومة مدته عشر سنين وكان أراد أن

يضم إلى ولاية حلب متصرفًا فعقد اتفاقًا آخر مع المصلحة والحكومة مدة عشر سنين وكان أراد أن يضم إلى ولاية حلب ومتصرفية الزور ولايتي بيروت و سورية فلم يرض له ذلك من استشاره من الأقربين فرجع عنه.
وقد نجح أيضًا في المرة الثانية ولكن حدثت بعد أربع سنين الفتنة الأرمنية فنهب الأرمن الدخان من عدة بلاد وقتلوا موظفي المصلحة فكان الفقيد يخسر في الشهر بضعة عشر ألفًا من الليرات فتوسل بذلك إلى الآستانة بحل العقد وإبطال الاتفاق فتم له ذلك بعد عناء وخسارة عظيمة ولإخلاصه بحب المصلحة العامة كانت أكثر وظائفه فخرية أي بغير راتب كما عرف من الترجمة الرسمية ويزيد على هذا أنه كان يبذل شيئًا من ماله فوق ما أخذه من راتب بعض الوظائف لأجل ترقية العمل وإتقانه، وهذا خلق لم يعرفه الشرق في هذا العصر.

مشروعاته:

طلب من الحكومة عدة امتيازات بأعمال عظيمة لم تكن تخطر لأهل بلاده على بال.
(منها) إنشاء مرفأ في السويدية وطريق حديدي منها إلى حلب.
و (منها) جلب نهر الساجور إلى حلب لأن ماء المدينة قليل، ولو تم هذا العمل لأحييت به أرض واسعة فكانت جنات وحدائق.
(ومنها) أن عينًا خوارة في سفح جبل بين أرمنان وأدلب قد أغرقت أمواهها تلك الأرض فجعلتها مستنقعات تضر الناس، ولا يأوي إلى غاباتها إلا الخنزير البري فذهب الفقيد إليها واختبر حال الأرض والعين اختبارًا هندسيًّا زراعيًّا فعلم أنه يمكن جر مائها إلى أدلب القليلة الماء وتجفيف تلك المستنقعات فتصير نافعة وتحيا أرض أدلب ويحيا أهلها فطلب بذلك امتيازًا.
و (منها) إنارة حلب وبيره جك ومرعش و أورفه بالكهربائية بواسطة شلال يحدثه من نهر العاصي في محل اسمه المضيق بالقرب من دركوش تابع لجسر الشغر وكان اختبر المكان اختبارًا هندسيًّا فعلم أن إحداث الشلال فيه ممكن.
(ومنها) استخراج معدن نحاس من أرغنه التابعة لولاية حلب.
وقد حال دون إعطاء بعض هذه الامتيازات ما يحول كل مصلحة عامة يطلبها الوطنيون كالرشوة ونحوها.
وقد كان أعطى امتياز استخراج النحاس واشتغل به ثلاثة سنين ونيف وبعد ذلك أرادت حكومة

الولاية إبطاله لأمر ما فأدخلت مع الفقيد في العمل بعض الأجانب وتوسلت بذلك إلى إبطاله.

خدمته للناس وللحكومة:

كان اتخذ له مكانًا بين داره ودار الحكومة سماه المركز يأوي إليه وكلاء الدعاوي فكان يؤمه أصحاب الحاجات والقضايا يستشيرون صاحب الترجمة في حل عقد المشكلات، ويستضيئون برأيه في دياجير المهمات، وكان في الغالب يفصل بينهم بالتراضي ويغنيهم عن المحاكمة والتقاضي فإن احتيج في قضية إلى الحكومة ينتدب له من يراه أهلاً لها من الوكلاء المحامين، وإن كانت عظيمة الشأن أن ينتدب نفسه ويحاكم المبطل حتى يحق الحق لصاحبه.
وقد كان قُصَّادُ ذلك المركز يكادون يزيدون على قصاد دار الحكومة، وكانت الحكومة نفسها تستشيره في الشئون الغامضة تعتمد على رأيه.

***

مقاومة الحكام له:

ورث الفقيد عن سلفه السادة الأمراء علو الهمة وقوة العزيمة وعدم المبالاة بالأخطار فهو من سلالة السيد إبراهيم الصفوي الأردبيلي المهاجر إلى حلب وما حديث الصفوية في الإمارة بمجهول.
بهذا كان رحمه الله تعالى لا يهاب الحكام ولا يداريهم مع أن حكومتهم في الحقيقة استبدادية.
وهذا هو الذي أحبط أعماله في بلده وذهب بثروته.
غَاضَبَ عارف باشا أحد ولاة حلب فأغرى بعض الناس بأن يكتب إلى الأستانة شاكيًا من سيئات الوالي شارحًا لهم فعلم الوالي بذلك فعمل مكيدة لحبس الفقيد وضبط أوراقه وزوَّر عليه ورقة سماها (لائحة تسليم ولاية حلب إلى دولة أجنبية) وطلب محاكمته عليها، وحكمُ القانون في هذه الجريمة الإعدامُ ولكنهم غلطوا في معاملته بالحبس وطلب الاستنطاق غلطًا قانونيًّا ما كان ليخفى على الفقيد فكتب إلى الأستانة كتابة مطولة يظهر فيها أن خروج حكومة الولاية عن حدود القانون هو من دلائل تحاملها عليه وتحريها ظلمه، وطلب أن يحاكم في ولاية أخرى فأجيب طلبه وحُوكم في بيروت فحكم

ببراءته وما زال يتتبع الوالي حتى عزل بعد عودته إلى حلب وكان هو أول من بشره بالعزل بواسطة قاضي الولاية ثم إنه أخرجه من حلب بإهانة عظيمة؛ لأنه أوعز إلى أصناف الفقراء الذين كانوا يسمون الفقيد أباهم لنصرته إياهم فاجتمعوا عند داره بهيئات غريبة فترك أهله وخرج كالهارب وسافر إلى الأستانة وتبعه الفقيد ليحاكمه ولكنه لم يكد يصل إليها حتى مات قهرًا.
وكان الشيخ أبو الهدى أفندي الشهير من أعدائه ويقال أن السبب الأول في ذلك إباء الفقيد أن يصدق على نسب الشيخ أبي الهدى هذا، وإن الشيخ أبا الهدى صار نقيب أشراف حلب وكانت هذه النقابة من قبل في آل الكواكبي.
ومن آداب الفقيد العالية أنه كان هنا يثني على صفات الشيخ أبي الهدى الحسنة كالمروءة والكرم والذكاء والثبات وقلما كان يخوض بانتقاده إلا مع الخواص الذين يعرفون الحقائق فكانت عداوتهما عداوة العقلاء.
خسر الفقيد بتلك المحاكمة ألوفًا من الجنيهات وخسر أضعافها بإدارة شركة انحصار الدخان للمرة الثانية أيضًا؛ لأن الحكومة مكلفة بحفظ أماكن الشركة فلما حدثت فتنة الأرمن امتنع الوالي عن إرسال العساكر لمنع نهب الأرمن مال الشركة وخسر بعدم مداراة الحكام غير ذلك من المزارع والأرض (منها) مزرعة (جفتلك) جميل باشا الوالي التي اشتراها منه الفقيد فاعتدى عليها زعماء التركمان بإغراء خفي حتى أخذوها ومنها مزرعة (جفتلك) كانت مستنقعات تابعة للأراضي الأميرية فألف لها شركة وأخذها من الحكومة وجففها فأغرى المغرون بعض عشائر الأكراد بالتعدي على حصته فحاكمهم فحكم لهم عليه بالمساعدة الخفية، وفي أثر ذلك سافر مهاجرًا إلى مصر.

سياسته ورأيه في الإصلاح:

لم يكن الفقيد في اشتغاله بخدمة بيته وبلده وحكومته غافلاً عن شئون المسلمين العامة فقد كان يقرأ الجرائد التركية والمصرية حتى الممنوعة التي كانت تدخل إلى حلب كغيرها بوسائط خفية.
ولما هاجر إلى مصر كان أول أثر له فيها طبع سجل جمعية أم القرى وكان يقول: إن لهذه الجمعية أصلاً، وأنه هو توسع في السجل ونقحه ست مرات آخره عند طبعه منذ سنتين ونيف أي عقيب قدومه إلى مصر.

وقد قال لنا مرة: إن الإنسان يتجرأ أن يقول ويكتب في بلاد الحرية ما لا يتجرأ عليه في بلاد الاستبداد بل إن بلاد الحرية تولد في الذهن من الأفكار والآراء ما لا يتولد في غيرها.
ومن يقرأ الكتاب يظن أن صاحبه صرف معظم عمره في البحث عن أحوال المسلمين وتاريخهم في عقائدهم وعلومهم وآدابهم وتقاليدهم وعاداتهم ومنه يعلم رأي الفقيد في الإصلاح وقد كنا معه على وفاق في أكثر مسائل الإصلاح حتى إن صاحب الدولة مختار باشا الغازي اتهمنا بتأليف الكتاب عندما اطلع عليه وربما نشير إلى المسائل التي خالفنا الفقيد فيها في هامش الكتاب عند طبعه وأهمها الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية.
أما آراؤه السياسية فحسبنا منها كتاب طبائع الاستبداد الذي يكاد يكون معجزة للكتاب السياسيين.
وقد زعموا أن معظم ما في هذا الكتاب مقتبس من كتاب لفليسوف إيطالي في الظلم.
ومن كان له عقل يميز بين أحوال الإفرنج الاجتماعية وأحوالنا وذوقهم في العلم وذوقنا يعلم أن هذا الوضع وضع حكيم شرقي يقتبس علم الاجتماع والسياسة في حالة بلاده حتى كأنه يصورها تصويرًا، وإذا لاحظ مع ذلك أن هذا الكتاب كان مقالات مختصرة نشرت في المؤيد ثم مدها صاحبها مد الأديم العكاظي وزاد فيها فكانت كتابًا حافلاً يتجلى له علمه الأول بصورة أوضح وأجلى، وإذا علم بعد هذا كله أنه نقحه بعد الطبع فحذف منه قليلاً وزاد فيه كثيرًا يعلم علم اليقين أن ينبوع علم هذا الرجل صدره وأنه كان يزداد في كل يوم فيضانًا وتفجيرًا، نعم إن قال في مقدمته: إن بعضه مما درسه، وبعضه مما اقتبسه، وإننا نعلم أنه لم يولد إنسان عالمًا ولكن فرقًا عظيمًا بين من يحكي كلام كغيره كآلة (الفوتغراف) وبين من يُحَكِّم عقله في علوم الناس فيأخذ ما صح عنده وينبذ ما لا يصح.
من كان له مثل هذا العقل الحاكم في كليات العلوم فهو الفيلسوف إن كان اجتهاده هذا في العلوم العقلية والكونية وهو الإمام إن كان اجتهاده في العلوم الدينية.

وجهته الأخيرة:

وجه همته أخيرًا إلى التوسع في معرفة حال المسلمين ليسعى في الإصلاح على بصيرة فبعد اختباره التام لبلاد الدولة العلية تركها وعربها وأكرادها وأرمنها، ثم اختباره لمصر ومعرفة حال السودان منها ساح منذ سنتين في سواحل إفريقية الشرقية وسواحل أسيا الغربية، ثم أتم سياحته في العام الماضي فاختبر بلاد العرب التي كانت موضع أمله أتم الاختبار فإنه دخلها من سواحل المحيط الهندي ومازال يوغل فيها حتى دخل في بلاد سوريا واجتمع بالأمراء وشيوخ القبائل وعرف

استعدادهم الحربي والأدبي وعرف حالة البلاد الزراعية وعرف كثيرًا من معادتها حتى إنه استحضر نموذجًا منها.

وقد انتهى في رحلته الأخيرة إلى كراجي (من مواني الهند) وسخر الله له في عودته سفينة حربية إيطالية حملته بتوصية من وكيل إيطاليا السياسي في مسقط فطافت به سواحل بلاد العرب وسواحل إفريقيا الشرقية فتيسر له بذلك اختبار هذه البلاد اختبارًا سبق به الإفرنج، وكان في نفسه رحلة أخرى يتم بها اختباره للمسلمين وهي الرحلة إلى بلاد الغرب ولكن حالت دونه المنية التي تحول دون كل الأماني والعزائم.

أرأيت رجلاً كريم الأصل، كبير العقل، تربّى أحسن تربية وتعلم أحسن تعليم ودخل في الأعمال المختلفة وتصدى للمشروعات المتعددة وكتب في أدق المسائل أحسن الكتابة وساح في البلاد، واختبر أحوال الأمم، حتى بلغ أشده، واستوى كيف يكون حاله وما هي درجة استعداده ؟ هذا هو صديقنا الذي فقدناه بالأمس، فكأنما فقدنا به الشمس، ومثل تلك الآمال الكبيرة لا تبلغ إلا بمساعدة الحكومة أو سعة المال أو الجمعيات، وقد كان له أمل في مصر وأميرها أراه الاختبار خلافه.

ولقد كان لموته تأثير كبير في الفضلاء والعقلاء، وقد نُعِيَ إلى الجناب الخديوي في صبيحة الليلة التي مات فيها فأمر بأن يجهز على نفقة سموه وأن يعجل بدفنه فكان ذلك.

فرحم الله فقيدنا وأحسن عزاء الإسلام والشرق فيه.

البابا لاون الثالث عشر[6]

ترجمته

في يوم الاثنين الماضي (20 يوليو) توفي عظيم النصرانية ورئيس الطائفة الكبرى فيها بابا رومية عن ثلاث وتسعين سنة، قضى جُلها في خدمة مذهبه الكاثوليكي منها خمس وعشرون سنة، أو ربع قرن في منصب البابوية، وقد كان لسياسته من التأثير في عالم النصرانية والمدنية ما لم يكن في حسبان أحد من العالمين، وكاتب هذه السطور يعتقد أنه كان أعقل رجال أوربا وأعلاهم كعبًا في السياسة.

وإننا نذكر من ترجمته ما فيه العبرة للمسلمين كما يليق بمجلة إسلامية مثل المنار، فلا تقل -أيها المسلم- ما لهذه المجلة الإسلامية ولزعماء النصرانية؟!الكاثوليك أكثر فرق النصارى عددًا، واعتقادهم في البابا كاعتقاد أكثر المسلمين في الخليفة أو أمير المؤمنين من حيث الرياسة الدينية والدنيوية في الجملة، وكاعتقاد بعض الفرق الإسلامية في وجوب عصمة الإمام الحق، ثم إنه يُنتخب من طائفة مخصوصة ولا يأخذ هذا المنصب بالوراثة، وتلك سنة الإسلام في انتخاب الإمام من طائفة مخصوصة.

قال ياقوت في معجمه: (والبابا رئيس الفرنج هو عندهم نائب المسيح كما هو أمير المؤمنين عند المسلمين ينفذ أمره في جميع ما يتعلق بالدين في جميعهم)، وقال الشريف الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق: (وفي مدينة رومة قصر الملك المسمى البابة، وليس فوق البابة فوق في القدر والملوك دونه، ويقيمونه مقام الباري جل وعز !!) إلى أن قال: (وحكمه نافذ ماضٍ على جميع ملوك الروم، ولا يقدر أحد منهم يرد عليه) وقال أبو الفداء في كتاب تقويم البلدان عن أهل بيزة: (وليس لهم ملك، وإنما مرجعهم إلى الباب خليفة النصارى) وقال عن رومية: (وهي مدينة مشهورة ومقر خليفة النصارى المسمى بالباب)، وقد تكلم ابن خلدون عن هذه الرياسة وصاحبها بإيضاح تام؛ ولهذا كله قال بعض علماء أوربا: إن البابوية أو النصرانية مقتبسة من الإسلام !جلس لاون الثالث عشر على

كرسي هذه الخلافة (سنة 1778م)، وأوربا بقضّها وقضيضها وعلومها وصنائعها ومدنيتها معادية للكاثوليك أشد من معاداتها للإسلام؛ لأنها تعتقد أن الكاثوليك والبابوية من الأمراض الباطنية التي أصابت الوطن في القلب والكبد والرئتين، فهي تفتأ تفتك به، حتى تبيده، فالكثلكة خطر في الباطن تحارب خوفًا وحذرًا من شرها، وأما الإسلام فهو عدو على البعد يحارب طمعًا في أرضه ودياره.

ولكن البابا لاون الثالث عشر حول بسياسته ودهائه ذلك العداء إلى ولاء، وذلك الاستخفاف والاحتقار واعتبار، والفضل في ذلك لحسن الانتخاب والاختيار، إذ لو كان هذا المنصب وراثيًّا لما ارتقى إليه مثل هذا الرجل.

ولد ليون الثالث عشر (وكان اسمه قبل البابوية بتشي) في 2 مارث سنة 1810م في بلدة كاربنتو من إيطاليا، وتعلم التعليم الابتدائي في مدرسة للجزويت ببلدة فيترب، وجاء رومية سنة 1824 وأتم دروسه بمدرسة الجزويت فيها، ثم بمدرسة رومية الجامعة، وعني أولاً بالعلوم الطبيعية والكيمياء حتى نبغ فيها، ثم اشتغل بآداب اللغة اللاتينية حتى عد من الكتاب البلغاء والشعراء المجيدين، ثم درس علوم الفلسفة واللاهوت فأتقنها ومنح لقب (دكتور) في الفلسفة.

ثم وجه عنايته إلى علم الحقوق فبرع حتى أخذ الشهادة العالية فيه من مدرسة رومية الجامعة.

وفي سنة 1837 عين قسًا ونائبًا عن البابا في بعض البلاد، وفي سنة 1843 عين رئيسًا لأساقفة دمياط، ثم وكيلاً للبابا في بروكسل عاصمة بلجيكا فأقام في تلك البلاد ثلاث سنين منحه ملكها في آخرها وسام (ليوبولد) من الدرجة الأولى وهو من أعلى الوسامات عنده، وفي سنة 1846 عين رئيسًا لأساقفة بيروز.

وقد لبث في منصب الأسقفية 32 سنة كان فيها حسن السلوك يستتيب اللصوص والبغاة المعتدين حتى خلت منهم السجون التي كانت ممتلئة بهم قبل عهده.

وفي سنة 1877 صار كردينالا ومديرا في الفاتيكان والكنيسة الرومانية، وفي سنة 1878 توفي البابا بيوس التاسع فانتخب خلفًا له.

وقد ذكرنا هذه النبذة الوجيزة في تعليمه وتقلبه في الأعمال الدينية لأجل المقابلة بين تربية رؤسائهم ورؤسائنا حتى لا يعجب أحد من تقدمهم وتأخرنا.

إذا سأل المسلم عن كيفية تربية رئيس أمته العام من أمير وسلطان أو ولي عهدهما أو الرئيس الخاص كشيخ الإسلام في الآستانة وشيخ الأزهر في مصر، وسأل: ماذا تعلم هؤلاء من العلوم التي لا بد منها للأمة التي يرأسونها، وما هي الأعمال والمناصب التي تقلبوا فيها فظهر استعدادهم لخدمة

الأمة فرشحوا لها بسببها فماذا يكون جواب هذا السائل ؟ لعل الأكثرين يجيبونه بأن الواجب علينا أن نقبل رياستهم من غير سؤال عن استعدادهم، وعن علومهم وأعمالهم، ومن تحدث بشيء من ذلك فهو عدو للملة والدين.

وفتنة لجميع المسلمين، وذلك أن الأمة في طور الضعف لا يرضيها إلا أن يمدح منها كل شيء، وذلك أنها تشعر بفقد مقومات السعادة بالفعل فتحب أن تخادع نفسها بالمدح كما يتكبر الوضيع ويتنفج ليظهر في مظهر الكبراء.

فقد الكاثوليك السلطة الدنيوية، سلبها الملوك من البابا الذي كان يفيضها عليهم ولو تسنى لهم في أي يوم من الأيام إرجاعها لوجدوا في الفاتيكان رجالاً يديرونها أحسن مما يديرها ملك إيطاليا، وحكومته في جميع أصولها الإدارية والمالية والقضائية والعسكرية؛ لأن رجال الدين عندهم يتعلمون كل شيء.

أرأيتك هؤلاء الذين يسمون رجال الدين في الإسلام إذا قيل لهم - وهم يشكون من خروج الأحكام عن الشرع إلا ما يسمونه الأمور الشخصية ومحاكمها على خطر -: تعالَوْا فأديروا أعمال الحكومة الكلية من إدارية ومالية وحربية وقضائية وسياسية (خارجية) وغير ذلك، أيجدون في الأزهر من يحسن عملاً من هذه الأعمال كما يجد الكاثوليك في الفاتيكان ؟ أنَّى وهم إلى اليوم يتنازعون بينهم: هل علم تقويم البلدان يقطع على الطالب طريق الدين أم لا ؟ الجمهور على أنه يقطع وأنه ينبغي أن لا يُقرأ في الأزهر.

وهل الحساب العملي والهندسة العملية يفسدان العقل حتى يضعف استعداده لفهم العلوم الدينية أم لا ؟ الجمهور على أنه يفسد العقل وينبغي أن لا يدرس في الأزهر كما صرح بذلك الشيخ (ثابت بن منصور) والشيخ محمد راضي البحراوي من كبار المدرسين هنالك في مقالاتهما المنشورة في المؤيد.

ثم أَنَّى يجدون في الأزهر مَن يحسن عملاً ما وليس فيه من يعد لعمل ما إلا القضاء الشرعي، وهؤلاء القضاة الخارجون منه تبكي من سيرة أكثرهم السماء والأرض وتستغيث العدالة بلسان المظلومين المهضومين بأن ينقذها الله منهم ويرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين، ثم لا يتوبون ولا هم يذَّكَّرون !!ولقد كان رجال الكاثوليك في يوم مضى مثل رجال الأزهر يعدون كل علوم العمران حجابًا دون الدين حتى كأن الدين آلة الخراب والدمار، وكان أكثر عامتهم على رأي رجال الدين كما هو الشأن عندنا حتى اليوم، ولكنهم لم يلبثوا أن علموا على أن بقاء الدين محال ما لم

تجعل علوم العمران نصيرة له فعكفوا على العلوم حتى برعوا في جميع فنونها، فمدارسهم جامعة تفوق غيرها نظامًا وإحكامًا، وعلماؤهم من القسيسين وغير القسيسين مستعدون لكل عمل يرتقي فيه العمران.

فمتى يعود قومنا إلى هذا وهم أحق به من كل أحد ؟أنت يا رب مسئول بتوفيق العقلاء للسعي وإليك وحدك المشتكى.

قلنا: إن لاون الثالث عشر قد ولي البابوية والأخطار محدقة بها من كل جانب فقد كان في عهد سلفه بيوس التاسع ما كان من الثورات والانقلاب حتى نشر على عهده في باريس (إعلان) في تحريض بلاد إيطاليا على إنشاء جمهورية إيطالية، لا يكون فيها بابا ولا دين بالمرة.

وأصابت البلاد سَنة فذهب الجماهير إلى أن المحل والقحط من شؤم السلطة البابوية، وقد أشاع المرجفون على عهده بأن النمسا تعضد مؤامرة سرية على خلع البابا، وإقامة حكومة عسكرية في البلاد البابوية كلها فاضطربت رومية، وكثر فيها الهرج، وعجزت الحكومة عن ضبط النظام؛ إذ كانت المدينة غاصة بجماهير المسلحين من الأهلين.

ثم فتح مجلس الشورى فطلب إناطة الأعمال الإدارية بالعوام (يطلق لفظ العوام في مقابل لفظ (الأكليروس) في اصطلاحهم) وحرية المطابع وطرد اليسوعيين (الجزويت) وإعتاق اليهود، وكان الشعب الثائر يؤيد طلب المجلس.

ثم عم الهياج بلاد إيطاليا من شمالها إلى جنوبها، وكان على أشده في رومية، وتوقع الناس سقوط الدولة البابوبة من الأرض، وقلّ احترام البابا في البلاد الأجنبية حتى ما كان يجد نصيرًا.

ونقول بالاختصار: إنه لم يستقر للسلطة البابوية قرار من بعد ثورة فرنسا سنة 1848، بل كانت الفتن تتفاقم يومًا بعد يوم، وقد أظهر البابا بيوس التاسع من حب الإصلاح وإرادة الخير للشعب ما لا مزيد عليه، ولم ينقص ذلك من قوة الحزب الجمهوري شيئًا.

ولقد بلغ من الاستهانة بالبابا أن كتب إلى إمبراطور النمسا يلتمس إخراج عساكره من إيطاليا فكان كتابه سخرية في فينا بعد أن كان لا مرد لأمره، ولا معقب لحكمه.

وحدث في هذه السنة من الأحداث ما زعزع الكرسي البابوي من الشعب الذي كان يقول: إن هذا الكرسي هو كرسي بطرس الرسول نائب المسيح.

ومن ذلك اتفاق الشعب والحرس المدني والعساكر المنظمة والجيش الروماني على محاصرة الكويرنال وقتل أمين أسرار البابا، وإكراهه بعد ذلك على قبول وزارة إصلاحية وجعْله كالأسير في

قصره تاركًا الأحكام الدينية والمدنية جميعًا، حتى اضطر إلى الفرار متنكرًا بهيئة قسيس إلى غايتا. ثم اشتعلت نيران الفتن والثورات في جميع البلاد التابعة له كما أشرنا إليه آنفًا؛ حتى خسر سلطته في تلك البلاد، وسنذكر نبذة من سلوك لاون الثالث عشر في مقاومة الأخطار، وصرف التيار، وما في ذلك من العظة والاعتبار.

((يتبع بمقال تالٍ))

البابا لاون الثالث عشر[7]

تتمة ترجمته

بينا في النبذة الأولى التي نشرناها في الجزء التاسع أن الأخطار كانت محدقة بكرسي البابا عندما جلس عليه لاون الثالث عشر، ووعدنا بالإلماع إلى سلوكه في مقاومتها، وما كان من نجاحه فيه، فنقول:

إن الدول الكاثوليكية - التي يَدين أكثر رعاياها بالخضوع إلى البابا كفرنسا والنمسا وإيطاليا - كانت عاملة على محو سلطته، فما بال روسيا الأرثوذكية، وإنكلترا وألمانيا البروتستنتيتين لا يَكُنَّ من أعدائه العاملات على محوه، ومحو طائفته من الأرض، وقد كان بين أهل مذهبه ومذهبهن من الخلاف وسفك الدماء ما كان ؟!سلطة البابا رسمية دولية، وللدول عنده وكلاء كالسفراء عند الملوك، وقد كان أول عمله استمالة الملوك العظام، والتوسل إليهم بالرفق بالكاثوليك، فنجح في ذلك، حتى عاد إليه اعتباره، وتيسر لطائفته السير في طرق الترقي في كل مملكة كانوا مهددين فيها، حتى تقدموا تقدمًا مبينًا.
ولم تبقَ حكومة لم تسالمه ويسالمها إلا إيطاليا التي أزالت ملكه، ونزعت سلطته المدنية (أو الزمنية)، واستولت على أملاكه، وفرضت له مبلغًا عظيمًا من المال بدلاً عنها، فلم يقبله، ومَن يبيع المُلك بالمال ؟ ! ولكنه على استمراره على عداوة الحكومة لم يقصر في استمالة الشعب الإيطالي، ومن ذلك أنه بعث وفدًا دينيًّا إلى ملك الحبشة، يسأله إطلاق الأسرى الذين أسرهم من جند إيطاليا في الحرب المعروفة.

سياسته مع الدول الكاثوليكية:

قد كان من إساءة فرنسا والنمسا في معاملة بيوس التاسع، والإنحاء على كرسيه ما أومأنا إليه في الجزء التاسع، وقد استطاع أن يسالمهما مع حفظ حقوقه، فكان يحث الكاثوليك على الخضوع للحكومة الجمهورية التي اختارتها الأمة لنفسها، على أن أكثر أعدائها منهم.
وكذلك جامل النمسا بقدر الإمكان، وأحسن في تعزية عاهل النمسا و المجر جوزيف عند وفاة ولي عهده والتجائه إليه، حتى قيل: إنه لم يرد الزيارة لملك إيطاليا حلفه مصانعة للبابا والتماسًا لرضاه.
وقد كانت الصلات السياسية تقطعت بين بلجكا و الفاتيكان، فأعاد رابطتها، حتى صارت حكومة البلاد إلى وزارة كاثوليكية.
وأما **سياسته مع الدول غير الكاثوليكية** فهي السياسة المثلى، وإننا نتوسع بعض التوسيع فيها، فنقول:

سياسته مع ألمانيا:

يعرف التاريخ ما كان في ألمانيا من اضطهاد الكاثوليك بعد سفك تلك الدماء في التنازع الديني بينهم وبين البرتستنت، فإن ألمانيا مهد لوثر مؤسس المذهب الثاني الذي كان مبدأ كل ما كان.
وقد كان البرنس بسمارك داهية السياسة يبغض الكاثوليك ويناصبهم.
فلما ولي المترجَم كان أول عمله العناية بمسالمة ألمانيا واستمالتها، وجمع كلمة الكاثوليك فيها، فكتب إلى عاهل الألمان بتوليته.
ثم رأى البرنس بسمارك اتحاد الكاثوليك وارتباطهم بالبابا، ورأى نفسه محتاجًا إليهم في مقاومة الاشتراكيين في مجلس النواب، فلم يَرَ بُدًّا من استبدال الملاينة بالمخاشنة، فكتب إلى البابا رقيمًا أطراه فيه إطراءً لم يكن يخطر بالبال، وكان من اعتبار ألمانيا للبابا أن حكَّمته في الخلاف بينها وبين أسبانيا على جزائر كارولين، فكان من حكمته ودهائه أن تمكن من إرضاء الفريقين معًا بما حكم به.
ثم إنه أسلس لألمانيا حتى أطمع عاهلها بلينه في إرضائه بأن تكون دولته حامية الكاثوليك في الشرق؛ ولهذا الطمع زاره غليوم الثاني مرتين سنة 1888 وسنة 1893، ولكنه لم ينل منه هذه الأمنية، ولم ييأس منها.
ولولا دهاؤه لسلب فرنسا التي قاومته، وقاومت الدين أشد مقاومة هذه المزية - حماية الكاثوليك - وهي أقوى آلتها السياسية في الشرق، ومنحها لعدوتها (ألمانيا)، ولكنه لم يحب أن يزيد الخرق

اتساعًا بينه وبينها.

سياسته مع إنكلترا:

لم يكن حظ الكثلكة في إنكلترا مع الإصلاح بأمثل من حظها في ألمانيا؛ فقد اضطُهِد الكاثوليك في تلك الجزائر وسفكت دماؤهم وسِيموا خسفًا وهوانًا في القرون الثلاثة: السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، وكذلك الثلث الأول من القرن التاسع عشر، حتى قل عددهم، وانطمست رسومهم في تلك البلاد، فلم يبق من الإنكليز على مذهب الكنيسة الرومانية إلا نحو 160 ألفًا.

أحسن ليون الثالث عشر التودد لملكة الإنكليز، واختار لرياسة الكنيسة في بلادها بعض رجاله الدهاة، حتى حسنت الحال، وصارت الملكة تتلقى الكرادلة الوافدين عليها من قِبَله بالحفاوة العظيمة، بل صاروا يتقدمون في قصرها على رئيس أساقفة (كنتربري) رئيس الكنيسة الإنكليكانية الرسمي، الذي يتوج ملوك الإنكليز، وأُعطي الكاثوليك حرية من الحكومة الإنكليزية، لم تكن تصل إليها أمانيهم، فارتقوا ارتقاءً مبينًا، وزاد عددهم، حتى صار البروتستنت يرجعون إلى الكثلكة، وحتى طلب بعض قسوسهم رجوع الكنيسة الإنكليكانية إلى رسوم الرومانية، فطمع البابا المترجَم باتحاد الكنيستين، وكتب يدعو إلى ذلك.

ويقول العارفون: إنه لو قدر على ترك بعض الرسوم والتقاليد - التي لا يمكن أن يطيقها أهل مذهب الإصلاح بعدما تفصوا من عُقلها - لتم له ما يريد.

أرأيت الكاثوليك الذي كانوا في أول القرن التاسع عشر يعدون في إنكلترا بالألوف، إنهم صاروا يعدون بالملايين؛ فقد جاء في إحصاء سنة 1891 أن عدد الكاثوليك في إنكلترا نفسها مليون ونصف، وفي أيرلاندة 3،549،956 وفي سكوتلنده 356000، وتبع هذا التقدم والنمو في بلاد الإنكليز التقدم والنمو في مستعمراتها، حتى علم من ذلك التقويم أن عددهم في البلاد والمستعمرات يزيد على عشرة ملايين ونصف، وأن لهم فيها من كراسي رؤساء الأساقفة 28، ومن كراسي الأساقفة 105.

ونخص الهند بالذكر فنقول: إن عدد الكاثوليك في الهند لم يكن يزيد في أوائل القرن التاسع عشر على نصف مليون، ولم يكن لهم إلا ثلاثة أساقفة، وقد تبين من الإحصاء - الذي أشرنا إليه - أن

عددهم صار يزيد على مليونين، وأن لهم 33 كرسيًا أسقفيًا و800 كاهن أوربي، و650 كاهنًا هنديًّا و600 راهبة أوربية و200 راهبة هندية و200 راهب من جمعية الإخوة (فرير) و70 مدرسة كبرى، و2200 مدرسة ابتدائية، وتلامذة هذه المدارس مائة ألف، وإن لهم مدرسة دينية خاصة (على أن جميع مدارسهم دينية)، فيها ستة آلاف تلميذ، يكونون كلهم دعاة للدين ورهبانًا وقِسِّيسين.
وإن لهم أيضًا 98 ملجأً للأيتام، فيها 5800 ولد.
وقد زار ملك الإنكليز البابا في هذه السنة.
ولما مرض مرض الموت كتب إليه بخطه، يسأله عن صحته، كما كتب إليه عاهل ألمانيا بخطه.

سياسته مع روسيا:

الخلاف بين الكنيسة الرومانية والكنيسة الشرقية - التي يحميها قيصر روسيا وأكثر رعيته من أتباعها - قديم كان ولم يكن في الدنيا بروتستانت، وقد كانت روسيا في سرور عظيم من قيام أوربا بمناهضة البابا وكنيسته، ولم تقصر في اضطهاد كاثوليك بلادها.
وكانت الصلات السياسية قد تقطَّعت بين هذه الدولة وبين الفاتيكان في عهد البابا بيوس التاسع، فلما جاء بعده ليون الثالث عشر كان أول شيء عمله في تلافي ما سبق أن أرسل كتابًا بخط يده إلى القيصر، يخبره فيه بتوليته، ولما كاد النيهلست للقيصر وحاولوا اغتياله سنة 1879 و1880، فنجا من كيدهم - كتب إليه البابا يهنئه بذلك، فكان لهذه المجاملة من التأثير ما حمل القيصر على التساهل في تعيين الأساقفة للكاثوليك في بلاده، وأعيد أسقف ورسو من منفاه في سيبريا.
وكتب البابا إلى أساقفة بولندا يأمرهم بالخضوع لحكام بلادهم وقوانينها، وبِحَثّ العوام على ذلك، وأرسل سفيرًا من قِبَله لحضور تتويج القيصر الحالي سنة 1896.

سياسته مع الدولة العلية :

إن هذه الدولة تختلف مع البابا في أصل الدين لا في المذهب، ولكن التساهل الذي تقضي به طبيعة الإسلام جعل الكاثوليك في بلادها أحسن حالاً منهم في جميع البلاد الأوربية أيام ذلك الاضطهاد، والتسافك في الدماء، وقد قابل البابا السياسي هذه المعاملة الحسنة بالشكر، فازدادت المودة بينه وبين السلطان العثماني.

وقد أرسل السلطان مندوبًا خاصًّا إلى رومية لتهنئة ليون الثالث عشر بمنصبه، وقد اجتهد السلطان أيضًا بالفصل في الخلاف الذي كان من الأرمن الكاثوليك، والشقاق الذي كان من الكلدان الكاثوليك، فكان البابا يعلن الشكر له على ذلك.

ولما احتفل بعيد البابا الكهنوتي (يوبيله الفضي) سنة 1887، أرسل السلطان عبد الحميد يهنئه بهدية نفيسة، وهي خاتم من جوهرة يتيمة، كبيرة الحجم، بيضية الشكل، تنبعث منها أشعة تنعكس أنوارها على الزوايا، فيخال الناظر إليها أنها مجموع أحجار كريمة تتراءى فيها ألوان الطيف التي في قوس السحاب، وكانت هذه الجوهرة من النفائس المحفوظة في خزائن سلاطين آل عثمان.

وقد وضع الخاتم في غلاف من الذهب الوهَّاج على هيئة تاج ملكي يضيء الخاتم من خلال فروجه.

ولما احتفل بعيد البابا الأسقفي (يوبيله الذهبي) سنة 1792، أهداه السلطان هدية كانت عنده، وعند أهل ملته أنفس من الأولى، وهي الكتابة التي يقولون إن القديس أبرقيوس - أسقف هيرا بوليس، وتلميذ يوحنا الحبيب - نقشها في أواسط القرن الثاني الميلادي على صفيحة أوصى بأن تُجعل فوق ضريحه.

ولو أردنا أن نذكر ما خدم به ملته وأمته في الصين و اليابان و الحبشة، وفي سائر البلاد لخرجنا إلى التطويل الذي ليس من موضوعنا ولا من غرضنا؛ لأن العبرة التي نقصدها تتم لنا بالقليل الذي يغني عن الكثير، فكيف بنا إذا حاولنا إحصاء المكاتب والمدارس، والأديار والكنائس، والملاجئ والمستشفيات، والرهبان والراهبات، والأطباء والممرضات، والمبشرين والمربيات، والمعلمين والمعلمات، والمتنصِّرين والمتنصرات ؟! هل من الحكمة والرأي أن نجهل ما يفعله القوم من خدمة دينهم ونشره، وأن نكتم ما يتفق لنا علمه؛ لأنه مما يُمدحون عليه ؟ هل تقضي علينا الغيرة الدينية بأن نسمي جهلنا علمًا، وتقصيرنا تشميرًا، وضعفنا قوة، وأن نسمي حذقهم بلادة، ونشاطهم كسلاً، وعلمهم جهلاً، وقوتهم ضعفًا ؟!

منزلة ما خلتها يرضى بها *** لنفسه ذو أدب ولا حِجى

لا شيء أنفع من معرفة الحقيقة والواقع، ولا شيء أضر من الجهل بالحقيقة والواقع، ومَن أنهكه المرض حتى صار حَرَضًا، وأشرف على الهلاك، ويئس من روح الله - لا يرضيه إلا أن يغش نفسه بالمدح الكاذب، ويكابر حسّه وعقله، فيذم من مناظريه ما يراه محمودًا.

وإننا نبدئ هذا القول ونعيده، ثم إننا نجد ممن يطلعون عليه من يقول: إن محبنا الذي ينصح لنا هو مَن يمدحنا ويمدح رؤساءنا ولو بالباطل، وينكر حقوق من يخالفنا، ويذمهم ولو كاذبًا.
والعلة في هذا أن هؤلاء الضعفاء لا غرض لهم من حياتهم إلا اللذة، والحق مر في ذائقة المبطلين، والجد مملول عند الهازلين.
إليكم عنّا يا عشّاق اللذة الباطلة، ومحبي الجهالة القاتلة، لسنا نكتب لكم، وإنما نكتب لقوم استعدوا لقبول العلم النافع، وهو - كما قال الأستاذ الإمام -: (ما يعرفك مَن أنت ممن معك)، فإلى هؤلاء نسوق هذه الترجمة، ونقول: أين علماؤكم الأعلام، أين الذين تلقبونهم بمشايخ الإسلام، أين الأمراء الذين انتحلوا لأنفسهم الرياسة الدينية، وزعموا أنهم أولو الأمر الذين تجب طاعتهم على الرعية، خبِّرونا ماذا تعلموا وماذا عملوا حتى استحقوا هذه الرياسة، وهل كان للأمة رأي في اختيارهم لها، وبماذا خدموا الإسلام فيها، هل يعرف شيخ الإسلام حدود بلاد المسلمين، هل وقف على شيء من أحوال شعوبهم في الدنيا والدين، هل سعى لهم بإنشاء مدرسة كلية أو جزئية، هل أرسل إلى بعض بلادهم بعثة دينية، هل كشف لهم شبهة اعتقادية، هل حل لهم مشكلة سياسية، هل كَاتَبَ العلماء في غير بلاده، هل حاول أن يصل ودادهم بوداده، هل خطر بباله أن يعد طائفة من العلماء للقيام بمثل هذه الأعباء ؟! كلا، إن المسلمين ليس لهم جمعيات دينية ولا دنيوية تنتخب لهم شيخًا مستعدًّا لخدمة الإسلام فتسميه (شيخ الإسلام)، ويكون مطالَبًا من المسلمين، وإنما اخترع هذا اللقب الأمراء الذين استقلوا بالزعامة الدينية والدنيوية؛ فثقل عليهم الجمع بين شعار رؤساء الدين، وبين التمتع بالشهوات وحضور مجالس اللهو والشرب والرقص؛ فجعلوا هذا الشعار لبعض العلماء الرسميين الذين يأخذون شعار العلم والدين من الأمير أو السلطان، فالأمير يصل إلى مقاصده الدينية بعمامة (شيخ الإسلام) وجُبته، ويتمتع هو بما شاء بزي السياسة، وشيخ الإسلام وسائر أصحاب المناصب الدينية من القضاة والمفتين والمدرسين الرسميين والخطباء وأئمة المساجد - يعترفون للأمير بالرياسة الدينية الكبرى بما يمنحهم من الرتب والرواتب، والأوسمة والمناصب، فما لهؤلاء ولخدمة الإسلام والمسلمين ؟! إذا أراد الحاكم - الذي يولي شيخ الإسلام وغيره من المشايخ مناصبهم، ويزين صدورهم وأكتادهم وعمائمهم بالنسيج الفضي يتلألأ عليهم في أيام الأعياد - أن يكلفهم بعمل ينفع الإسلام، فإنهم يجتهدون في القيام به ما استطاعوا كما اجتهدوا في خدمة هؤلاء الحكام فيما يضر ولا ينفع، وأوَّلوا لهم ما أولوا، حتى غيروا ما غيروا، وبدلوا ما بدلوا، وإذا لم يُرِد الحاكم لا يريد شيخ الإسلام؛ فإن الإنسان مادام محرومًا من الاستقلال يكون تابعًا لمَن يرى بيده منفعته ومضرته،

ولو كان المسلمون هم الذين ينصبون (شيخ الإسلام) - كما عُهد إليهم أن ينصبوا السلطان والإمام - لكان شيخ الإسلام تابعًا لإرادتهم، وعاملاً بمشاورتهم لمصلحتهم.

وسنكتب نبذة خاصة في كيفية انتخاب البابا، ونبين فيها حكم الانتخاب عند المسلمين.

حسن باشا ناظر البحرية[8]

وفاة حسن باشا ناظر البحرية

ننقل ترجمة هذا الوزير عن جريدة (محمدان) الهندية كما نقلتها عن جريدة الأخبار الإسلامية (مسلم كرونيكل) وهي رسالة لمُكاتب هذه في لندن مأخوذة من رسالة من الآستانة، كتب في اليوم الثالث لموت الوزير.

وقد نشر في بعض الجرائد المصرية ترجمة الرجل على نحو ما في جريدة الدولة الرسمية خالية من كل عبرة وفائدة وذلك أن جرائد المسلمين في مصر تنحو في الأخبار العثمانية منحى جرائد الآستانة وسوريا وهي لا تكاد تنشر إلا ما يوافق الأهواء.

ومن هنا نستدل على كون جرائد المسلمين في الهند أرقى حرية من أخواتها في مصر، ولعل سبب ذلك أن القارئين صاروا هنالك أرقى منهم هنا في الحرية؛ إذ يحبون أن يعرفوا الحقيقة لا أن يتلذذوا بالمدح وإن كان كذبًا.

قال المكاتب ما تعريبه:

الرأي العام مجمع على أن قوة الدولة العثمانية الحربية توازن قوة أية دولة من الدول الكبرى ولكن بَحرية الدولة صارت من عدة سنين قرحًا في جسمها ومرضًا في بنيتها، وقد كانت إلى عهد حرب القِرم، بحيث لا تقل عن قوة فرنسا وروسيا إن لم تكن من أعلى القوى البحرية لذلك كان مما يثير العجب أن لا يكون لتركيا موقف مع الدول البحرية لهذا العهد.

وقد علم قراء (الكرونكل) من رسائلي السابقة في هذا الموضوع الأسباب والأحوال التي هبطت ببحرية الدولة إلى هذا الحضيض.

وكل هذا الهبوط والتأخر ينسب إلى رجل واحد استحق لعن الأمة التركية هذا الرجل البغيض هو

حسن باشا حسني.

مات حسن باشا حسني ناظر البحرية العثمانية أول أمس وكان يرجو الناس موته من زمن بعيد وكان موته في قصره بالكوروششمه على ضفة البوسفور وهو في سن الثمانين، ولم يُعرف في تاريخ البشر من أول الخليقة إلى الآن رجل كان أشد بغضًا ومقتًا إلى أمته من هذا الرجل الذي مكث في منصبه هذا نحو ربع قرن.

ولي البحرية العثمانية وهي في الدرجة الثانية من قوى البحرية الأوربية، وتركها وهي أدنى القوى البحرية في العالم وأضعفها.

ولقد تستحوذ الدهشة على الإنسان وتملكه الحيرة إذا حاول فهم سبب إهمال البحرية من دولة حربية عارفة بمكانة القوى البحرية في هذا العصر.

على أن هذا الناظر لم يكن أقل علمًا من أعظم أمراء البحر في أوربا؛ بل المشهور عنه أنه كان من أمثل أمراء البحر في الدول البحرية العظمى وأمهرهم وأحذقهم، ولكن هذا الرجل الذي كان من أكبر رجال الدولة هو الذي أضعف تلك القوة العظمى عامدًا متعمدًا، وقد وصفته إحدى الجرائد التركية اليوم بأنه أعظم عبيد السلطان أمانة وأشدهم استقامة؛ ولكنَّ أفكارنا وشَكْلَ الحكومات الراقية في هذا العصر يحولان دون الاعتقاد بأن الخائن لأمته ودولته يكون ناصحًا لسلطانه وصادقًا في خدمته؛ ذلك لأن النصح للحاكم والإخلاص في خدمته أمران لازمان لحكومته؛ إذ لا معنى لخدمة الحاكم من حيث هو حاكم إلا خدمة الحكومة التي هو رئيسها، وكان فساد طوية حسن باشا وتركه محاسبة نفسه واستفتاء قلبه حال دون التمييز بين الرجل من حيث هو حاكم ومن حيث هو شخص ربما يرجى نفعه ويخشى ضره لذلك كان يقضي ليله ونهاره مدة ربع قرن في تجريد السفن الحربية من جميع عدتها التي تكون بها صالحة للحرب.

ولا يدري أحد من الناس أين صُرفت الأموال العظيمة المخصصة للبحرية في ميزانية الدولة؛ إذ لم يطالبه أحد بحسابها؛ بل كان مطلق التصرف ومتمتعًا بالسلطة التامة في نظارته إلى آخر حدودها، وكان يولي ويعزل من شاء من غير سؤال ولا مراقبة من أحد نافذ الرأي مطاع الأمر في نظارته وفي مجلس الوزراء بل وفي قصر يلدز نفسه.

ولقد مات موتة شنيعة سبقها مرض عاثَ في جسمه سنة كاملة كان فيها موضعًا لسبعين نوعًا من الأعمال الجراحية وذاق فيه من الآلام ما لا يُطاق، وكان يجمجم وهو يتقلب في غمرات الموت بهذه الكلمة توبة وندمًا: (ما جنيت إذ جنيت وحدي ولكن كان لي شركاء) ! أو ما هو في معناها وسيكون

موته عبرة لغيره ممن يدفعون إلى الجري على سننه.

عين حسن باشا ناظرًا للبحرية ولم يكن يملك شيئًا؛ حتى ولا بيتًا يقيم فيه ومات بالأمس وهو يكاد يكون أغنى رجل في تركيا وتقدر ثروته المنقولة والثابتة بثمانية ملايين من الجنيهات وكان دخله السنوي مئتي ألف جنيه وكان يشتري كل ما يباع حيثما وجده وإن لم يكن قادرًا على كمال الانتفاع به؛ لأنه لم يكن يسمح له بالخروج من القسطنطينية.

وقد أقبل الناس هنا (الآستانة) على الجرائد التي نَعَتْه بالأمس واشتروا منها عددًا عظيمًا وقد أخذتهم روعة من السرور استغرقت شعورهم وطفق يهنئ بعضهم بعضًا بالجهر من القول بكمال الحرية، وكان الفرح عامًا في السواحل البحرية فإن أتراك الآستانة وسواحل البحر الأسود و بحر مرمرة والساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وخليج العجم مولعون جدًا بالبحرية؛ فالسفينة المدرعة أبهى في نظرهم من الخميس العَرَمْرَم من الجيش، ولو كانت ترجمة الرجل الرسمية مما يستحق العناية لنقلتها من الجريدة الرسمية بحروفها؛ ذلك أن أعماله قليلة جدًّا فلا نصيب لها من التطويل.

كان حسن ولدًا لباشا فريقٍ في البحرية ولا ينبغي أن يعتقد أنه ارتقى بنَسَبِه؛ بل كان أنجب التلامذة في المدرسة والمقدم في فرقته ومحبوبًا لكل أساتذته، ولما نال الشهادة من المدرسة البحرية التي كانت وقئتذ حديثة النشأة عُيِّن ملازمًا في السفينة المسماة (خداداد) وقام بخدمة الحكومة في البحر المتوسط على سواحل إفريقيَّة وسواحل الجبل الأسود وجزيرة كريد والبحر الأحمر وشهد حرب القِرْم وأبلى بلاءً حسنًا في حرب سيباستبول وكان يومئذ أمير عمارة البحر الأسود في الحرب الروسية العثمانية الأخيرة وقد أُعجب الناس بنجاحه ومهارته يومئذٍ في إنزال الجنود العثمانية في باطوم.

ترك حسن باشا اثني عشر ولدًا، أكثرهم مستخدمون في دار الصناعة (الترسانة) العثمانية.

وكان يتكلم بالتركية واليونانية والإنكليزية.

محمود سامي البارودي[9]
الأخبار والآراء
(مصاب مصر بحسانها ومحسنها)

رزئت الديار المصرية في هذا الشهر برجلين عظيمين لا خلف لهما فيما امتازا به وهما: حسان الشعر وأديب القطر محمود سامي البارودي، ومحسن مصر الكبير أحمد المنشاوي.

فخسرت الأمة بفقدهما خسارة عظيمة لا عوض لها إلا فيما نرجوه من فضل الله تعالى بتوفيقه من شاء أن يكون مثل (محمود) في بلاغة اللسان وثبات الجنان وعلو الهمة ومكارم الأخلاق وحب الإصلاح ، ومثل (أحمد) في بسطة اليد وسخاء النفس وحب الخير للبشر والإعانة على الإصلاح.

أما المصاب بالأول فقد كان موجعًا لأهل الأدب لأنهم هم الذين يعرفون قيمة الفقيد، ولمعارفه من الوجهاء والفضلاء ، وقد نُسي مقامه السياسي عند من كان على رأيه ومن كان مخالفًا له لأن علو المناصب عرض يطرأ فيكون له حكمه، ويزول فيمحى رسمه، ولا يذكَر الإنسان إلا بصفاته وأعماله.

وأما المصاب بالثاني فقد أحست به جميع الطبقات في الأمة فتألم له العالم والجاهل والمسلم والإسرائيلي والنصراني ، بل تألم له كل عنصر يقيم في مصر حتى الأجانب؛ لأن إحسانه -رحمه الله- كان شاملاً عامًّا ، وقد كان لتشييع جنازته مشهد ما رأينا مثله لأمير ولا لعالم أو وزير.

وإننا نذكر مجملاً من سيرة الرجلين ليكون درسًا في التاريخ يستفيد به المستبصرون.

***

(محمود سامي البارودي)

(ترجمته عن صحيفة كانت عنده يقال بأن الشيخ محمد عبده كتبها معه سنة 1298)

هو محمود سامي بن حسن حسني بك البارودي ينتهي نسبه إلى نوروز الأتابكي المالكي الأشرفي[10].

والبارودي نسبة إلى إيتاي البارود بلدة من مديرية البحيرة بمصر ، كان أحد أجداده ملتزمًا لها فنسب إليها على عادة تلك الأيام.

ولد المترجَم لثلاث بقين من رجب سنة 1255 ، وبعد أن تلقى المبادي التعليمية دخل المدارس الحربية في سنة 1267 في مبادي حكومة عباس باشا الأول وخرج منها في أواخر سنة 1271 في أوائل حكومة سعيد باشا.

كان في طبعه ميل غريزي إلى الآداب العربية وفنون الإنشاء والنظم، فاشتعل بها حتى بلغ درجة عالية في النظم والنثر، وفي شعره من السلاسة والمتانة وحسن التخيل ولطف الأداء وبهجة الديباجة ما لا نرى نظيره إلا في شعر فحول المخضرمين.

ثم جنحت نفسه إلى تحصيل فنون الآداب التركية فرحل إلى القسطنطينية وأقام هناك بقلم كتابة السر بنظارة الخارجية في الباب العالي فأتقن اللغة التركية قراءة وكتابة ، وله فيها من الأشعار والرسائل ما يعترف أدباء الترك ببلاغته، وتعلَّم هناك أيضًا اللغة الفارسية ولما انتهت إمارة مصر إلى إسماعيل باشا وسافر إلى الأستانة لأجل القيام بالشكر للحضرة السلطانية على ولاية مصر عاد بصاحب الترجمة في حاشيته وكان ذلك في رمضان سنة 1279هـ.

ورقي إلى رتبة البكباشي العسكرية في سبع بَقِين من المحرم سنة 1280هـ ، وفيها سافر مع جماعة من ضباط العسكر المصري إلى فرنسا لمشاهدة التمرينات العسكرية التي تكون هناك كل عام في

المعسكر المعروف باسم (قان دوسالون) وسافر بعد أن قضى لبانته من ذلك إلى لندره عاصمة إنكلترا لاختبار الأعمال العسكرية والآلات الحربية فيها ثم عاد إلى مصر فارتقى إلى رتبة القائمقام في الألاي الثالث من الفرسان المعروف بلقب (الغارديا) وكان ذلك في 11 جمادى سنة 1381.

وفي غاية ذي القعدة من هذه السنة ارتقى إلى رتبة أمير ألاي فكان على الألاي الرابع من عسكر الحرس المعروف بالفارديا.

ولما خرج أهل جزيرة كريد عن طاعة الدولة في ربيع الأول سنة 1283 وأرسلت الإمارة المصرية جيشًا لإسعاد الدولة على تأديبهم أرسِل المترجَم مع الجيش المصري بوظيفة رئيس الياورية وبعد إخماد نار الفتنة في 3 جمادى الثانية سنة 1284 أنعم السلطان عبد العزيز عليه بالوسام العثماني من الدرجة الرابعة ، وعاد إلى مصر فكان من حجاب الخديوي (ياور) ولما صدر الفرمان السلطاني بحصر الخديوية المصرية في ذرية إسماعيل باشا في 13 ربيع الأول سنة 1290 وصار محمد توفيق باشا ولي العهد جعل صاحب الترجمة رئيس الحجاب (الياوران).

وبعد ثلاث سنين جعله الخديوي كاتب السر الخاص له (مكتوبي أو سكرتير) وبعد سنتين عاد إلى العسكرية.

ولما خرجت بلاد الصرب على الدولة عقيب فتنة الهرسك وأرسلت الحكومة المصرية جيشًا لمساعدة الدولة على تدويخها أرسل هو إلى الأستانة برسالة خاصة بذلك ، فأقام فيها ثلاثة أشهر وعاد إلى مصر ثم أرسل إليها برسالة أخرى تختص بفتنة البلغار وخروج الجبل الأسود على الدولة.

ولما اشتعلت نار الحرب بين الدولة و روسيا سافر بعسكره مع الجيش المصري الذي أرسل لمساعدة الدولة إلى وارنة ولم يعد إلا بعد عقد الهدنة الأخيرة وفي خلال ذلك رقي إلى رتبة أمير لواء ومنح الوسام المجيدي الثالث والمداليا.

وفي شهر ربيع الآخر سنة 1295 عين مديرًا للشرقية ثم عين رئيسا للشحنة (الضبطية) في مصر مدة سنة كاملة اهتم فيها بحفظ الأمن ، وكانت المخاوف تتناوش الناس من كل مكان لما كان فيها من الأصابع الخفية التي تتلاعب بإثارة الخواطر في ذلك الوقت أي أواخر حكم إسماعيل باشا بما كان من المنافسة بين الأمراء والكبراء ، ومن توجه كثير من الأفكار لإثارة الشرور وإيقاف حركة الإدارة حتى إذا ما تم أمر الله بعزل إسماعيل باشا وأقيم وليّ عهده توفيق باشا أميرًا لمصر جُعل صاحب الترجمة عضوًا في مجلس الوزارة وقلده نظارة عموم الأوقاف المصرية وكانت مختلة معتلة فأصلح خللها وداوى عللها بما وضعه لها من القواعد والترتيب (وسمع منه صاحب هذه

المجلة أنه اجتهد يومئذ في جمع الكتب الموقوفة المتفرقة في المساجد وإنشاء دار للكتب (كتبخانه) تجمع فيها ، وكان ذلك مبدأ الفكر في إنشاء المكتبة المصرية المعروفة بالكتبخانة الخديوية) ولما تم أمر التصفية المصرية على ما يرام رقي المترجَم إلى رتبة فريق ، وأعطي الوسام المجيدي من الدرجة الثانية وذلك في 9 شعبان سنة 1297.

الفتنة العرابية:

في غرة شهر ربيع الأول من سنة 1298هـ كانت واقعة تألب الضباط المصريين على ناظر الجهادية لأسباب أحفظتهم عليه ، فاجتمعوا على طلب عزله من النظارة فأجيب طلبهم ، وعيَّن الخديوي صاحبَ الترجمة ناظرًا للجهادية جامعًا بينها وبين نظارة الأوقاف ، فاجتهد في إثلاج صدور الضباط واتخاذ الوسائل التي تكفل حفظ الأمن فتم له ذلك ، ولكن ظهر له أن إدارة العسكرية أشد اختلالاً من نظارة الأوقاف وأنها في حاجة إلى إصلاح عظيم لابد فيه من الروية وطلبه من أسبابه بالتدريج ، فوجه عنايته لذلك واثقًا بحسن نيته ومضاء عزيمته وثقة الأمير والأمة به - قال كاتب الصحيفة التي نقلنا عنها ما تقدم بتصرف في العبارة دون المعنى: وفي هذه المدة القصيرة تيسر له إصلاح كثير من شئونها ، وتحويل بعض أحوالها إلى ما هو أحسن ، ومن المأمول أن يساعده التوفيق الإلهي على إتمام مقاصده فيها إن شاء الله تعالى ا.هـ.

وإننا نتم ترجمته بحسب ما نعلمه من أصح الروايات ، وقد علم مما مر وهو ما كان يحفظه المرحوم مما كتب في أوائل أيام الفتنة أنه لم يكن للمترجَم سابقة تقتضي استياءه من الأمير ، فإنه نشأ في حجر الإمارة عزيزًا كريمًا فبينه وبين رؤساء العسكرية الذين أثاروا الفتنة فرق ، وهم أحمد عرابي وعلى فهمي وعبد العال وأحمد عبد الغفار، فإنهم كانوا كأكثر المصريين في العسكرية وغيرها مهضومي الحقوق ، والمهضوم يندفع عند الفرصة إلى إزالة الهضم وطلب الحقوق بشعور قوي من نفسه بالحاجة إلى ذلك ، وكثيرًا ما يقوى سلطان الشعور على الفكر ، فقد كان فكر زعماء الفتنة تابعًا لشعورهم بالألم والخطر المتوقع من جراءتهم على ما فعلوا لا سيما بعد الظهور بمظهر القوة أمام قصر الإمارة وإلزام الأمير باطنًا بما أجابهم إليه بالرضا ظاهرًا.

أما محمود باشا سامي فإنه كان يعمل بالفكر لمصلحة أميره وأمته معًا ولا يبعد أن يكون شعوره بوجوب تأييد سلطة الأمير المطلقة وقتئذ أقوى من فكره بوجوب تأييد مطالب أهل البلاد ، وعدم تمييز الترك والجراكسة عليهم لأن الشعور دائمًا يتبع المنفعة الخاصة ، والفكر يؤيد المصلحة

العامة، والذي نظنه أنه كان معتدلاً جامعًا بين مقتضى الشعور ومقتضى الفكر.

كان الرجل على ما بيَّنَّا، ولكنه في رمضان من السنة التي جعله الأمير فيها ناظرًا للجهادية (سنة 1298) أحس بسوء ظنه فيه واتهامه إياه بالاتفاق والاشتراك مع الضباط فيما كان يصدر عنهم من الأعمال المخالفة للنظام فاستعفى فأعفاه الأمير، وعين داود باشا يكن ناظرًا للجهادية.

ولكن استعفاءه زاد الفتنة احتدامًا ، ففي منتصف شوال حصلت المظاهرة المشهورة في ميدان قصر عابدين بعد ما اجتهد الأمير في تسكين جأش الرؤساء المضطربين ، وكان ما كان في القصر من الكلام بين رئيس الفتنة أحمد عرابي وبين الأمير أولاً وقنصل الإنكليز ثانيًا وطلب عرابي إسقاط وزارة رياض باشا ، والتصديق على قانون العسكرية الجديد الذي ألّفوه ، وعزل شيخ الأزهر ، وبعد المراجعة رضي بإسقاط الوزارة قبل نزوله من القصر إلى جيشه المحدق به وتأجيل ما عداه، فأجيب إلى ذلك.

ولما بلغ محمود سامي باشا خبر سقوط وزارة رياض باشا أسف أسفًا شديدًا لاعتقاده أن الخلل سيزيد والفوضى ستنتشر بعده ، وقد سئل عن رأيه في تأليف وزارة تحت رياسة شريف باشا وهل يجيب الدعوة ليكون فيها ناظرًا للجهادية كما كان؟ فأجاب بأنه عقد النية على أن لا يدخل في خدمة الحكومة ما دام لرجال العسكرية سلطان يعلو سلطان النظام ، وصمم على ذلك مع الإخلاص وصدق العزيمة ، ولما قبل شريف باشا تأليف الوزارة دعاه ليكون ناظر الجهادية فأبى ، ولكن الأمير توفيق باشا نفسه دعاه وأكد له القول بأنه لم يسئ به ظنًّا قط، بل كان يعتقد إخلاصه في جميع أعماله ، وأن الذي أساء به الظن هو رياض باشا وذكر له أمورًا أثرت في نفسه تأثيرًا حمله على قبول نظارة الجهادية لا رغبة فيها ولكن خضوعًا للأمير وتشفيًا ممن كان سببًا في تسوئة سيرته وتشويه سمعته ، ووقع بحسن نيته في الشَّرَك الذي كان يتحامى الوقوع فيه.

وفي أثناء هذه الوزارة تألف مجلس النواب المصري وعارض وكيلا دولتي فرنسا وإنكلترا في نظر النواب وتقريرهم لميزانية الحكومة لما للدولتين من الديون عند الحكومة التي تسمح لهم بمراقبة ماليتها.

ولما أصر النواب على وجوب النظر في الميزانية كغيرها ، وعدم قبول تداخل الأجانب في ذلك، ولم يقبلوا ما نقحت الوزارة به لائحة مجلس النواب ، بل أرسلوا وفدًا إلى الأمير يطلبون تنفيذ ما قرروه أو إسقاط الوزارة ، فاختار الأميرُ صاحبَ الترجمة لتأليف وزارة تحت رياسته ففعل ، وكان ذلك في منتصف ربيع الأول من سنة 1299 وسارت الأعمال بعد ذلك سيرًا مرضيًّا.

ثم كانت المسألة التي سموها مسألة الجراكسة وهي كيد ضباطهم لعرابي باشا وعزمهم على قتله ، وكان ناظر الجهادية فأمر بالقبض عليهم ومحاكمتهم في مجلس حربي ، والمشهور أنهم قبضوا على أربعين منهم عثمان رفقي باشا الذي كان ناظر الجهادية من قبل ، وأن رئيس المجلس الحربي الذي حكم عليهم كان راشد باشا الجركسي فحكم عليهم بالنفي إلى أقاصي السودان ، ولكن مجلس النظار طلب من الأمير تخفيف العقوبة فأصدر أمره بذلك ولكن خاطب به نظارة الداخلية لا نظارة الجهادية خلافًا للمتبع يومئذ ، فوقع الخلاف يومئذ بين الأمير ومجلس النظار ، ومن ثم وقع الخطر وما كان أغناه عنه.

اجتهد النظار في استرضاء الأمير بواسطة جماعة من النواب استقدموهم من بلادهم فكلموه وكلمه غيرهم فلم يجب طلبهم.

وسأل حينئذ وكلاء الدول من النظار عن حال الأوربيين في مصر: هل يخشى عليهم من خطر ؟ فأجابوهم بأنه لا خوف عليهم ولا خطر ، ولكن الأمير قال عقيب ذلك لهؤلاء الوكلاء أنه لم يبق آمنًا على مسنده ولا على دماء الأوربيين وأموالهم في مصر ، فطلب قنصل فرنسا وإنكلترا من دولتيهما إرسال أسطولين.

الفرنسي طلبه للتهديد والإنكليزي طلبه للعمل ، ولما حضر الأسطولان قدم القنصلان لائحة يطلبان فيها إسقاط الوزارة وإخراج عرابي من القطر المصري وغير ذلك ، وكان ذلك في 7 رجب سنة 1299 الموافق 25 مايو (أيار) سنة 1882 فقبلها الأمير ، واستعفى المترجَم من الوزارة ، وكان اعتماد الأمير على إنكلترا دون فرنسا ومن آية ذلك تصريح المستر غلادستون يومئذ بأن دولته تريد أن تؤيد كلمة الجناب الخديوي توفيق باشا لما أظهر من أدلة الصداقة والإخلاص...

وكان في أثناء ذلك ما كان من الفوضى والاضطراب ، وكتب عرابي إلى قناصل الدول يضمن لهم الأمن العام ، ويقترح رجوع الأسطولين من الإسكندرية ووضع قانون أساسي يحدد حقوق الأمير والوزراء ، وجعل صلات الدول بمصر في حقوق الدولة العثمانية.

وفي تلك الأثناء أرسلت الدولة درويش باشا مندوبًا لينظر في تلافي الأمور ، فكان للأعمال ظهر وبطن ، واشتبه الأمر على الناس وحشر الأجانب إلى الإسكندرية ، وهاجر الألوف منهم فزاد الخوف وكثر الاعتداء في الإسكندرية ، وتفاقم الشر بعد ذلك بحريق الإسكندرية الذي كان بمعرفة محافظها عمر باشا لطفي بوحي خفي لا يخالف.

وكان مرشد الأمير في تلك الأطوار المستر ملت قنصل إنكلترا الذي أُمر رسميًّا من دولته بأن يترك

القاهرة بعد حضور الخديوي إلى الإسكندرية ويلازمه فيها.

ثم انتحل أمير الأسطول الإنكليزي (سيمور) سببًا للعدوان فزعم أن الجهادية تحصن قلاع الإسكندرية لأجل محاربته ، وفي سبع بقين من شعبان بلغ الإنكليز الخديوي عزم سيمور على مباشرة القتال بعد يومين وأشاروا عليه بأن يترك قصر رأس التين ويقيم في قصر الرمل ففعل.

وفي اليوم التالي لذلك سافر الأسطول الفرنسي ولم يترك غير سفينتين ، وفي اليوم الذي بعده أطلق الأسطول مدافعه على حصون الإسكندرية ـ إلخ ما كان مما لا محل هنا لشرحه بل نكتفي بالمثل: (دم أضاعه أهله) والمراد أن الفتنة قد بلغت أشدها ، والحرب وقعت ، والاحتلال حصل ، والمترجَم معتزل لأعمال الحكومة جهادية وإدارية، حتى إذا كانت الحرب البرية ألزمه عرابي إلزامًا بقيادة فرقة الصالحية فاضطر للقبول.

ولما تمكن الإنكليز من البلاد وحاكموا رجال الثورة حكم عليه بالنفي إلى سيلان كما هو معلوم.

وبهذا انتهت سيرة حياة الرجل السياسية ، ومن عرف أخلاقه وأفكاره وأطواره يجزم معنا بأنه لم يكن في عمل عمله سيئ القصد أو التصرف ، بل كان يريد الخير لبلاده تحت سلطة أميره الذي تغذى بنعمه ونعم أبيه وارتقى في قصرهما ، ولذلك عفا أمير البلاد الحالي عباس حلمي باشا عنه عند التماس بعض أصحابه ذلك من سموه راضيًا ، وقابله بعد حضوره وأعاد له جميع حقوقه المدنية مع شدة بغضه لغيره من زعماء الفتنة العرابية ، حتى إنه ليتألم من ذكر أسمائهم.

وسنذكر في الجزء الآتي نبذة من سيرة الفقيد الأدبية ، وترجمة محسن مصر أحمد باشا المنشاوي، رحمهما الله تعالى وأحسن عزاء أهليهما ومحبيهما.

محمود سامي باشا البارودي[11]

ذكرنا في الجزء الماضي تاريخ نشأة هذا الرجل وترجمته السياسية ، وهذا ما وعدنا به من سيرته الأدبية ننشرها في باب الآثار فهو أولى بها.

يقولون: إن التربية هي التي تُكَوِّنُ الرجال النابغين ، وليس وراء التربية إلا الوراثة. ونقول مع الإذعان لهذا القول: إن الإنسان ابن استعداده لا ابن أبيه وعشيرته التي يتربى فيها ويتكيف بصفاتها وعاداتها ، فإن كان العامل في الاستعداد هو الوراثة لأحد الآباء والجدود فذاك ، وإلا فإن الاستعداد الذي يولد في بعض الناس بغير سعي منهم ولا ممن يربونهم هو الأصل في تكوّن الرجال النابغين في كل زمان ومكان. والتربية تساعد الاستعداد في تكميل الشخص أو تقاومه فيبقى ناقصًا ، وحوادث الزمان تساعد صاحبه فيظهر أثره أو تعانده فلا يظهر له أثر. وقد ولد محمود سامي معتدل المزاج مستعدًّا للبلاغة والتأثير في القول وللإتقان مع الاعتدال في العمل ، وقد كان الزمن الذي نشأ فيه غير مساعد على تكوين ملكة البلاغة وسجية الشاعر المفلق ، ولم يعرف في آبائه وعشرائه شاعر مطبوع ولا كاتب بليغ ، وكان المتأدبون لا يتنافسون إلا في مثل شعر البهاء زهير و ابن الفارض فمن دونهما من المتأخرين المتكلفين ، ولكن استعداده غلب وراثته الأعجمية وتربيته القومية فنشأ في المدرسة الحربية شاعرًا ساحرًا جامعًا بين السلاسة والمتانة ، وقد قال الشعر في شبابه فكان في بدايته خيرًا من جميع شعراء عصره في نهايتهم.

ولكن له أبياتًا زعم فيها أنه جرى في الشعر على عرق إذ ورث النظم عن خال له ، والمعالي عن جده ، وهي مما يوحي معاني الشعر قال :

أنا في الشعر عريق *** لم أرثه عن كلاله

كان إبراهيم خالي *** فيه مشهور المقاله

وسما جدي علي *** يطلب النجم فناله

فهو لي إرث كريم *** سوف يبقى في السلاله

ولم يكن يحفظ لخاله ما يصح له به الحكم ، ولكنه سمع أنه كان ينظم وأن نظمه ضاع ، فإن صح أنه كان بليغًا فالاستعداد مؤيد بالوراثة من جهة أمه أو هو هي. ومن نظم المترجَم في شبابه قوله في الحرب الروسية العثمانية :

أدور بعيني لا أرى غير أمة *** من الروس بالبلقان يخطئها العد

جواثٍ على هام الجبال لغارة *** يطير بها ضوء الصباح إذا يبدو

إذا نحن سرنا صرّح الشر باسمه *** وصاح القنا بالموت واستقتل الجند

وقال معارضًا قصيدة أبي فراس (أراك عصي الدمع) :

طربت وعادتني المخيلة والسكر *** وأصبحت لا يلوي بشيمتي الزجر

كأني مخمور سرت بلسانه *** معتقة مما يضن بها التجر

ومنها في الفخر :

من النفر الغرّ الذين سيوفهم *** لها في حواشي كل داجية فجر

إذا استلّ منهم سيدٌ غربَ سيفه *** تفزعت الأفلاك والتفت الدهر

ويا لله أرق حاشية قوله: (لها في حواشي كل داجية فجر) وما أدق غزل خياله فيه. وأما البيت الثاني فإنه ليكاد يروع ببلاغته السامع حتى يخيل إليه أن الأفلاك تصدعت مما تفزعت فيلمس رأسه مخافة أن يصيبه كسف منها، ويتمثل له الدهر رجلاً فجأه العجب فالتفت إلى السبب، وليكاد يلفته ما يتخيل من التفات الدهر، ويلم به الدهش والذعر، أو يذهب به الوهم إلى أن التفات الدهر هو التفات أهله فيحسب كل فرد من الناس قد ألوى عنقه وشخص ببصره مقطبًا ينظر ما يكون من فعل ذلك السيف المستل في يد ذلك البهمة الأمثل، وجملة ما يقال في البيتين: إنهما من السحر الذي يأخذ المرء عن نفسه ويحكم سلطان الخيال في عقله وحسه، ولكني لا أعرف صيغة (تفزّع) في هذه

المادة لغيره ، ولو كان لي أن أجيز مثلها لأجزتها وقلت: إنها مما يشتق قياسًا ، فإني لا أرى لغيرها مثل روعتها.

وله من قصيدة أخرى نحو هذا الفخر :

وأصبحت محسود الجلال كأنني *** على كل نفس في الزمان أمير

إذا صُلت كفّ الدهر من غُلوائه *** وإن قلت غصت بالقلوب صدور

وله قصيدة يعارض بها دالية النابغة الذبياني ، ومنها في وصف الحرب والفرس :

ولقد شهدت الحرب في إبانها *** ولبئس راعي الحي إن لم أشهد

تتقصف المران في حجراتها *** ويعود فيها السيف مثل الأدرد

عصفت بها ريح الردى فتدفقت *** بدم الفوارس كالأتيّ المزبد

ما زلت أطعن بينها حتى انثنت *** عن مثل حاشية الرداء المجسد

ولقد هبطت الغيث يلمع نوره *** في كل وضاح الأسرة أغيد

تجري به الآرام بين مناهل *** طابت مشاربها وظل أبرد

بمضمر أرِنٍ كأن سراته *** بعد الحميم سبيكة من عسجد

خلصت له اليُمنى وعم ثلاثة *** منه البياض إلى وظيف أجرد

فكأنما انتزع الأصيل رداءه *** سلبًا وخاض من الضحى في مورد

زجل يردد في اللهات صهيله *** دفعًا كزمزمة الحبي المرعد

متلفتًا عن جانبيه يهزه *** مرح الصبا كالشارب المتغرد

فإذا ثنيت له العنان رأيته *** يطوي المعاهد فدفدًا في فدفد

يكفيك منه إذا استحس بنبأة *** شدًّا كألهوب الإباء الموقد

صلب السنابك لا يمر بجلمد *** في الشد إلا رضّ فيه بجلمد

نهم العتاد إذا الشفاة تقلصت *** يوم الكريهة في العجاج الأربد

وقال عندما كان يصطلي بنار الحرب في جزيرة كريد يصفها :

أخذ الكرى بمعاهد الأجفان *** وهفا السرى بأعنة الفرسان

والليل منشور الذوائب ضارب *** فوق المتالع والربى بجران

لا تستبين العين في أرجائه *** إلا اشتعال أسنة المران

نسري به ما بين لجة فتنة *** تسمو غواربها على الطوفان

إلى أن قال :

فالبدر أكدر والسماء مريضة *** والبحر أشكل والرماح دوان

والخيل واقفة على أرسانها *** لطراد يوم كريهة ورهان

وضعوا السلاح إلى الصباح وأقبلوا *** يتكلمون بألسن النيران

حتى إذا ما الصبح أسفر وارتمت *** عيناي بين ربى وبين محان

فإذا الجبال أسنة وإذا الوها *** د أعنة والماء أحمر قان

ونظم في عهد الصبا قصيدة في العلم قال في مطلعها :

بقوة العلم تقوى شوكة الأمم *** فالحكم في الدهر منسوب إلى القلم

كم بين ما تلفظ الأسياف من علق *** وبين ما تلفظ الأقلام من حكم

وهذا الذي قاله وهو من رجال الحرب يدل على مبلغ استعداده للعلم.

ومنها :

شيدوا المدارس فهي الغرس إن بسقت *** أفنانه أثمرت غضًّا من النعم

مغنى علوم ترى الأبناء عاكفة *** على الدروس به كالطير في الحرم

من كل كهل الحجا في سن عاشرة *** يكاد منطقه ينهلّ بالحكم

كأنها فلك لاحت به شهب *** تغني برونقها عن أنجم الظلم

يجنون من كل علم زهرة عبقت *** بنفحة تبعث الأموات في الرمم

ثم وصف الشاعر منهم والكاتب والحاسب والمهندس والطبيب والخطيب والسياسي والقانوني ، وذكر التهذيب والفضيلة ، وقال :

أنّيفوز لنا قدح بفائدة *** ونحن في زاخر بالجهل ملتطم

لا تجعلوا اليأس عذرًا فهو داعية *** إلى المذلة بعد العز والشمم

لو كان يعلم حيّ أن خيبته *** من زلة الرأي لم يعتب على القسم

وقال بعد النفي يصف النوى، ويذكر الهوى، ويمثل أخلاقه، ويشكو رفاقه، وقد سمعناها من إنشاده بعد عودته :

محا البين ما أبقت عيون المهى مني *** فشِبتُ ولم أقض اللبانة من سني

عناء ويأس واشتياق وغربة *** ألا شدّ ما ألقاه في الدهر من غبن

فإن أك فارقت الديار فلي بها *** فؤاد أضلته عيون المهى عني

بعثت به يوم النوى إثر لحظة *** فأوقعه المقدار في شَرَك الحسن

فهل من فتى في الدهر يجمع بيننا *** فليس كلانا عن أخيه بمستغني

ولما وقفنا للوداع وأسبلت *** مدامعنا فوق الترائب كالمزن

أهبت بصبري أن يعود فعزني *** وناديت حلمي أن يثوب فلم يغن

وما هي إلا خطرة ثم أقلعت *** بنا عن شطوط الحي أجنحة السفن

فكم مهجة من زفرة الوجد في لظى *** وكم مقلة من غزرة الدمع في دجن

وما كنت جرّبت النوى قبل هذه *** فلما دهتني كدت أقضي من الحزن

ولكني راجعت حلمي وردني *** إلى الحزم رأي لا يحوم على أفن

ولولا بنيات وشيب عواطل *** لما قرعت نفسي على فائت سني

فيا قلب صبرًا إن جزعت فربما *** جرت سنحًا طير الحوادث باليمن

فقد تورق الأغصان بعد ذبولها *** ويبدو ضياء البدر في ظلمة الوهن

وأي حسام لم تصبه كهامة *** ولهذم رمح لا يفلّ من الطعن

ومن شاغب الأيام لان مريره *** وأسلمه طول المراس إلى الوهن

وما المرء في دنياه إلا كسالك *** مناهج لا تخلو من السهل والحزن

فإن تكن الدنيا تولت بخيرها *** فأهون بدنيا لا تدوم على فن

تحملت خوف المن كل رزيئة *** وحمل رزايا الدهر أحلى من المنّ

وعاشرت أخدانًا فلما بلوتهم *** تمنيت أن أبقى وحيدًا بلا خدن

إذا عرف المرء القلوب وما انطوت *** عليه من البغضاء عاش على ضغن

يرى بصري من لا أودّ لقاءه *** وتسمع أذني ما تعاف من اللحن

وقد نظم في منفاه بجزيرة سيلان قصيدة طويلة في السيرة النبوية على رويّ البردة قال في فاتحتها :

يا رائد البرق يمم دارة العلم *** واحْدُ الغمام إلى حيّ بذي سلم

وإن مررت على الروحاء فأمر لها *** أخلاف سارية هتانة الديم

من الغزار اللواتي في حوالبها *** ري النواهل من زرع ومن نعم

إذا استهلت بأرض نمنمت يدها *** بردًا من النور يكسو عاري الأكم

ترى النبات بها خضرًا سنابله *** يختال في حلة موشية العلم

أدعو إلى الدار بالسقيا وبي ظمأ *** أحق بالريّ لكنني أخو كرم

منازل لهواها بين جانحتي *** وديعة سِرها لم يتصل بفمي

إذا تنسمت منها نفحة لعبت بي *** الصبابة لعب الريح بالعلم

أدِر على السمع ذكرها فإن لها *** في القلب منزلة مرعية الذمم

عهد تولى وأبقى في الفؤاد له *** شوقًا يفل شباة الرأي والهمم

إذا تذكرته لاحت مخايله *** للعين حتى كأني منه في حلم

فما على الدهر لو رقت شمائله *** فعاد بالوصل أو ألقى يد السلم

تكاءدتني خطوب لو رميت بها *** مناكب الأرض لم تثبت على قدم

في بلدة مثل جوف العير لست أرى *** فيها سوى أمم تحنو على صنم

لا أستقرّ بها إلا على قلق *** ولا ألذ بها إلا على ألم

إذا تلفتّ حوالي لم أجد أثرًا *** إلا خيالي ولم أسمع سوى كلمي

فمن يرد على نفسي لبانتها *** أو من يجير فؤادي من يد السقم

ليت القطا حين سارت غدوة حملت *** عني رسائل أشواقي إلى إضم

مرت علينا خماصًا وهي قاربة *** مر العواصف لا تلوي على أرم

لا تدرك العين منها حين تلمحها *** إلا مثالاً كلمح البرق في الظلم

كأنها أحرف برقية نبضت *** بالسلك فانتشرت في السهل والعلم

لا شيء يسبقها إلا إذا اعتقلت *** بنانتي في مديح المصطفى قلمي

محمد خاتم الرسل الذي خضعت *** له البرية من عرب ومن عجم

سمير وحي ومجنى حكمة وندى *** سماحة وقِرى عافٍ وريّ ظم

قد أبلغ الوحي عنه قبل بعثته *** مسامع الرسل قولاً غير منكتم

قوله: قاربة، مؤنث قارب وهو طالب الماء ليلاً. وأرم بالتحريك ككتف بمعنى أحد، لا يستعمل إلا في النفي. ومر بقصر الجزيرة بعد عودته من سيلان

فتذكر أيام إسماعيل ، ونظم معتبرًا ومذكرًا :

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع *** هيهات قد ذهب المتبوع والتبع

هذي الجزيرة فانظر هل ترى أحدًا *** ينأى به الخوف أو يدنو به الطمع

أضحت خلاء وكانت قبل منزلة *** للملك منها لوفد العز مرتبع

فلا مجيب يرد القول عن نبأ *** ولا سميع إذا ناديت يستمع

كانت منازل أملاك إذا صدعوا *** بالأمر كادت قلوب الناس تنصدع

عانوا بها حقبة حتى إذا نهضت *** طير الحوادث من أوكارها وقعوا

لو أنهم علموا مقدار ما فغرت *** به الحوادث ما شادوا ولا رفعوا

دارت عليم رحا الأيام فانشعبوا *** أيدي سبا وتخلت عنهم الشيع

كانت لهم عصب يستدفعون بها *** كيد العدوّ فما ضروا ولا نفعوا

أين المعاقل بل أين الجحافل بل *** أين المناصل والخطية الشرع

لا شيء يدفع كيد الدهر إن عصفت *** أحداثه أو يقي من شر ما يقع

زلوا فما بكت الدنيا لفرقتهم *** ولا تعطلت الأعياد والجمع

والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر *** وإنما صفوه بين الورى لمع

لو كان للمرء فكر في عواقبه *** ما شان أخلاقه حرص ولا طمع

وكيف يدرك ما في الغيب من حدث *** من لم يزل بغرور العيش ينخدع

دهر يغرّ وآمال تسرّ وأعـ *** ـمار تمرّ وأيام لها خدع

يسعى الفتى لأمور قد تضر به *** وليس يعلم ما يأتي وما يدع

يأ أيها السادر المزّور من صلف *** مهلاً فإنك بالأيام منخدع

دع ما يريب وخذ فيما خلقت له *** لعل قلبك بالإيمان ينتفع

إن الحياة لثوب سوف تخلعه *** وكل ثوب إذا ما رثّينخلع

فهذه القصيدة من آخر ما نظم ، وفيها من آيات النذر للمغرورين بكثرة المال والدثر، ما يستعبر له صاحب القلب، ويعتبر به من له لب.

والطبع في قوله: ما شان أخلاقه حرص ولا طبع (بالتحريك) الدنس والفساد والكسل ، وأصله من طبع (كتعب) السيف إذا علاه الصدأ. والسادر في الأخير: المتحير ، والذاهب عن الشيء ترفعًا ، والذي لا يبالي ما صنع.

أثره الأدبي :

منتخبات ثلاثين ديوانًا

كان للفقيد في ذوق الشعر وملكة البيان ما يُشعر به شعره، واشتهر به دون السياسة والرياسة أمره، فهو كما ترى قد ناهز الجاهليين في القوة والمتانة، وخاطر المخضرمين في الفصاحة والبلاغة؛ وبذ المولدين في الرقة والسلاسة، فصح أن يلقب برب السيف والقلم، وصاحب الحُكْم والحِكَم، وفارس الميدان والبيان، والصائل بالسنان واللسان. وما زال أهل الأدب يعجبون بذوقه وحسن اختياره ، وقد رأى بعد عودته من سيلان أن يؤلف ديوانًا في الأدب من مختار فحول الشعراء المولدين؛ ليكون عونًا للناشئين على طبع ملكة البلاغة العربية في النفس وتقوية سليقة الشعر في الخيال ، فاختار دواوين ثلاثين شاعرًا فقرأها واختار منها فرائدها ورتبها في سبعة

أبواب: الأدب ، المديح ، الرثاء، الصفات، النسيب، الهجاء، الزهد، والحكم، ورتب أسماء الشعراء على حسب أزمنتهم لا على حسب مكانتهم وهم :

(1) بشار بن برد (2) العباس بن الأحنف (3) أبو نواس (4) مسلم بن الوليد (5) أبو العتاهية (6) محمد بن عبد الملك الزيات (7) أبو تمام (8) البحتري (9) ابن الرومي (10) عبد الله بن المعتز (11) أبو الطيب المتنبي (12) أبو فراس الحمداني (13) ابن هانئ الأندلسي (14) السري الرفاء (15) ابن نباتة السعدي (16) الشريف الرضي (17) أبو الحسن التهامي (18) مهيار الديلمي (19) أبو العلاء المعري (20) صردر (21) ابن سنان الخفاجي (22) ابن حبوس (23) الطغرائي (24) الغزي (25) ابن الخياط (26) الأرجاني (27) الأبيوردي (28) عمارة اليمني (29) سبط التعاويذي (30) ابن عنين.

ونقول: إن بشار بن برد أولهم مات سنة 167 عن نحو تسعين سنة فهو من أهل القرن الأول والثاني ، وابن عنين - بالتصغير - توفي سنة 630 وقيل سنة 634 أي في أوائل القرن السابع فهؤلاء فحول الشعراء المولدين في نحو سبعة قرون ، فأشعارهم هي تاريخ اللغة والأدب في هذه القرون ، وقد تحامى الفقيد في اختياره المجون ، فإنه كان يكرهه قولاً فكيف يثبته كتابة. وقد وضع تعليقًا لهذا الديوان العظيم يفسر فيه الألفاظ الغريبة والمعاني المغلقة ، وسيشرع أهله في طبعه في زمن قريب إن شاء الله تعالى.

هذا هو الأثر العظيم لفقيد الأدب وأشعر الشعراء في هذا العصر ، ولك مثل من شعره في الموضوعات المختلفة ، وكان أدبه النفسي أعلى من أدبه اللساني ، وقد خانه رحمه الله في نكبته كل صلة بالناس ما عدا هذه الصلة الأدبية ، فلم يف بعهده ويرعى حقوق وده من انتفعوا بجاهه ورفده، ولكن وفى له الأدباء والشعراء، ووادَّه الفضلاء والعلماء الذين تجمعه بهم الصلة الروحية والمشاكلة الطبيعية، فكانوا يكاتبونه في غيبته، ويغشون ناديه بعد عودته، وكان أشدهم له وفاء الأستاذ الإمام، ومثله من يقوم بحقوق الصداقة حق القيام، وقد عرفناه وصحبناه في هذه المدة ، وكنا نذاكره في شؤون الإصلاح فنراه متفقًا معنا في كل ما نعتقد ونكتب في وسائل إصلاح حال المسلمين ، وكان له ولع بالمنار حتى كان أحيانًا يطلبه قبل صدوره ، بل قبل تمام طبعه فنرسل له الكراسة بعد الأخرى خالصة له من دون المحبين.

توفاه الله تعالى في ليلة الثلاثاء لخمس خلون من شهر شوال فشيعت جنازته باحتفال عظيم ، وصلى عليه الأستاذ الإمام ، ولم أره صلى على ميت غيره إلا مأمومًا ، وسيجتمع شعراء مصر وأدباؤها في اليوم التاسع والثلاثين لموته -الجمعة 14 ذي القعدة 20 يناير- عند ضريحه ويؤبنونه ويرثونه بما نظموه من القصائد ، فنسأل الله تعالى أن يرحمه رحمة واسعة ، ويجعل في ذريته خير خلف له، آمين.

حسن باشا عاصم[12]
رزيئة مصر بحسن باشا عاصم

رزئت مصر في ثالث شوال برجل الجد والعمل والثبات والاستقامة والعدل والنظام، خادم الأمة المخلص نابغة النوابغ نادرة العصر يتيمة العصاميين العصماء حسن باشا عاصم رحمه الله تعالى رحمة واسعة وأحسن عزاءنا وعزاء البلاد عنه.

وإننا نكتب في شأنه كلمات لا نقصد بها مجرد الرثاء والتأبين، ولا محض الترجمة والتأريخ، بل العبرة والموعظة للأمة، عسى أن يكون فيها لأهل الاستعداد حسن الأسوة.

ومن هو حسن باشا عاصم الذي يحليه المنار بهذه الألقاب والنعوت مخالفًا عادته في ذكر الناس بأسمائهم ؟ من هو حسن باشا عاصم الذي يؤبنه المنار وقد مات من الأمراء والباشوات وكذا العلماء ولم يذكر خبر موتهم ولا عزى البلاد عنهم ؟كان حسن عاصم رجلا من الرجال الذي تنهض بأمثالهم الأمم إذا كثروا فيها ولو كثر أمثاله لأذعنت إنكلترا بأن المصريين قادرون على أن يحكموا أنفسهم كأرقى أمة أوروبية فقد كان إذًا روحا من أرواح الحياة القومية، وركنا من أركان النهضة المدنية، وإن كان عمله مما كانت تجهله العامة، وقلما تهتف به ألسنة الخاصة.

كان ربما يزور هذه البلاد السائح المؤرخ فيقرأ جرائدها، ويغشى أنديتها ومعاهدها، ويتحدث مع الخواص والعوام، والمحكومين والحكام، فيسمع ويقرأ أخبار الأحزاب ومؤسسيها، والتحزب لها أو عليها، والمحاورات في التفاضل بين أفراد يقال: إنهم هم الذين ينهضون بالبلاد، ولا يسمع لحسن باشا عاصم في هذه المواضع ذكرا، ولا يقرأ عنه في هذه الصحف خبرا، فكيف كان لحياة البلاد روحًا مدبرًا، ولنهضتها ركنا مشيّدًا، والأمة في مجموعها غافلة عنه جاهلة عمله، ويتنازع زعامة النهضة فيها زيد وعمرو، وخالد وبكر؟الجواب عن هذا أن الرجل كان فعالا ولم يكن قوالاً، وأمتنا في مثل هذا الطور تشغلها الأقوال، وتغرها الدعاوى العراض الطوال، ورب قؤول كبير الدعوى قدير على التغرير، لو كثر أمثاله في الأمة ما زادوها إلا رهقًا، ولكن ما كان يعرف حسن باشا

عاصم أحد - وكل أهل الفضل في البلاد يعرفونه - إلا ويجزم بأنه لو كان فينا عشرون رجلا مثله في صفاته وأعماله لنهضوا بنا نهضة لا تخطر في بال الذين يقولون ما لا يفعلون، ولكانوا حجة لنا على الأجانب لا يكابر أحد في دحضها.
ولكن يوجد في البلاد مئات أو ألوف يستطيعون أن يقولوا بألسنتهم وأقلامهم ما يشتهر بمثله المرء بين العامة قضت عليهم حال المعيشة بأن يكون كسبهم الذي هو قوام معيشتهم بأعمال أخرى.

صفات حسن باشا عاصم :

استقلال الفكر: من الصفات التي تحلى بها هذا الرجل استقلال الفكر والرأي، فقد كان لا يقلد أحدًا في رأيه وإنما ينظر في الأمر ويطيل فيه الفكر والتدبر حتى يظهر له الصواب.
وإننا نرى أكثر الرجال قد درجوا على التقليد والتسليم حتى كأنهم لم يخرجوا من الطفولية، وهم لا يشعرون بذلك لأنهم يظنون أنهم مستقلون فيما قبلوه بادي الرأي ولا محل هنا لكشف التلبيس في ذلك.
استقلال الإرادة: كان رحمه الله تعالى مستقل الإرادة قوي العزيمة، أعني أنه كان يعمل دائما ما يعتقد أنه الصواب والخير والموافق للمصلحة في الواقع ونفس الأمر بحسب اعتقاده، وإن كان مما يخشى أن يعود عليه بالضرر. وهذا الخلق فينا أضعف من سابقه.
ولو كان عندنا كثير من الحكام والعاملين الذين يعملون بما يعتقدون أنه الخير والمصلحة للبلاد لكنا من أرقى الشعوب، فإن فينا عددًا كثيرًا من العارفين بما يجب ولكنهم ضعفاء العزائم فلا يعملون بما يعلمون.
الثبات والاستقامة: كان رحمه الله تعالى كالجبل الراسخ في ثباته على رأيه وعلمه واستقامته في سيرته، وبهذا كان نافعا في استقلاله وقوة إرادته.
فإن العزيمة تكون في الخير والشر وفي المصلحة الخاصة والمصلحة العامة، وتكون للرجل الثابت وللرجل القلّب؛ فإن الإمعة الذي ليس له رأي مستقر قد يكون ضعيفًا في العمل بالرأي قبل أن يتحول عنه وقد يكون قويا.
وكان رحمه الله لا يشكو من شيء شكواه من التقلب والتحول في الناس، فقد اقترحت عليه غير مرة مشروعات نافعة للأمة مما يكون بالاجتماع والتعاون وكان يجيبني في كل مرة: إنك حسن الظن في الأمة أكثر مما يجب لأنك لما تختبرها.

وقال لي مرة أو غير مرة ما معناه: إننا إذا دعونا إلى هذا العمل نجد المجيبين إليه كثيرين في أول الأمر ثم يتسللون لواذًا حتى لا يبقى منهم من يمكن أن يستمر به العمل.

الصبر والاحتمال: كان على نحافة بدنه آية في الصبر على العمل واحتمال المشقة، لا يمل ولا يسأم. ولولا الصبر والاحتمال ما كان ثبات ولا استقامة.

كان في كل عمل دخل فيه يعمل ما لا يعمله عدة رجال حتى كان يمل ويتململ كل من يشتغل معه - لا سيما إذا كان هو رئيسه - ولكنه لا يستطيع أن يشكو من كثرة العمل مع من يراه يعمل أضعاف عمله، وقد كان يشتغل أخيرًا في أربع إدارات كبيرة في كل يوم فيعجب كل عمالها من صبره وجلده، وهي إدارة القصر العالي وإدارة تركة الأمير محمد إبراهيم وإدارة الجمعية الخيرية ومدارسها وإدارة الشركة الإنكليزية المصرية، هذا وهو غير مهمل لإدارة منزله بل مقيم لها على أكمل نظام.

النظام والإتقان: كان عاشقًا للنظام كَلِفًا بإتقان كل أمر يشتغل به، فكان كل عمله مرتبا منظما متقنا حتى قال فيه سعد باشا زغلول: إنه خلق منظما بالطبع.

ومن يخطر بباله أن صاحب تلك الأعمال الكثيرة كان يشغل ساعات من ليله ونهاره ويشغل معه فيها بعض أصحابه في البحث عن صحة كلمة أو عبارة فيما يطبعه لمدارس الجمعية الخيرية أو لشركة إحياء العلوم العربية ؟ خطر له أن يطبع أجزاء القرآن الكريم لأجل التعليم في مدارس الجمعية بحسب قواعد الرسم لا برسم المصحف المتبع عن الصحابة عليهم الرضوان، فبدأ أولا بالبحث عن جواز ذلك واستفتى فيه الأستاذ الإمام فأفتى ووجد نصا عن الإمام مالك بجوازه في مصاحف التعليم، ثم كان يستنسخ الأجزاء ويبحث بنفسه مع أهل العلم في الكلم الذي يشتبه رسمه بكلمة (الضحى) تكتب ألفها بصورة الياء أم ملساء ؟ والكلمات التي في آخرها ياء تحذف في قراءة حفص لأجل الوقف.

فكنا نسهر معه الليالي ذوات العدد نتباحث في هذه الكلمات.

ثم ناط ضبط ذلك كله وتصحيح الأصل بالشيخ حسين والي مؤلف كتاب الإملاء ليطبقه على قواعد الرسم بعد مراجعة كتب القراءات لكي لا يخرج الرسم عن أداء المتواتر منها ثم إنه كان يراجع بنفسه كل ما يصححه الشيخ حسين.

وقد عزم منذ أكثر من سنتين على طبع كتاب (العمدة في الأدب) لابن رشيق بنفقة جمعية إحياء العلوم العربية، فلما أرسلت إليه المطبعة الأميرية نموذج الملزمة الأولى بعد تصحيح مصححيها لها

ومراجعتها مقابلة على النسخ - قرأها فتوقف في فهم بعض عباراتها والأحاديث وأبيات من الشعر فيها فراجع كاتب هذه السطور في ذلك في مكتب المنار.

وغير مرة كنا نراجع فيه الأحاديث في كتبها والأشعار في مظانها من كتب الأدب واشترى هو ديوان حسان بن ثابت (رضي الله عنه) لأن فيها شيئًا من شعره وراجع أيضًا غير واحد من أصحابه أهل العلم والأدب.

وبعد هذا كله لم يأذن بالطبع لأنه بقي في الملزمة عبارة غامضة يرجح أنها محرفة ! وطفق يسأل ويبحث عن نسخة أخرى من العمدة ليجلبها أو يستنسخها من القطر الذي يعلم أنها فيه.

وأبى عليه خلق الإتقان وأمانة العلم أن يطبعها وهو يعتقد أن فيها تحريفًا فتبارك من أنعم عليه بهذه الأخلاق، ويا ليت الذين يتَّجرون بطبع الكتب الدينية والعلمية وغيرها يعنون بعض هذه العناية بالضبط والإتقان.

الجد والرصانة: كنا نرى كثيرا من الناس ينتقدون منه رصانته وجده في كل وقت وحال، وتجنبه الهزل والدعابة وتحاميه المزاح والمفاكهة في الحديث إلا قليلا وهذا هو الواجب على من يريد أن يخدم شعبا يعتقد أنه يكثر فيه الطيش والخفة ويغلب على أكثر أفراده الهزل واللهو واللعب في زمن يزاحمه فيه أهل الجد والعمل من الشعوب الأخرى على بلاده وينازعونه جميع مقومات حياته، فلولا هذان الخلقان لما قدر على كل ما عمل.

ولكننا لا ننكر مع هذا أن استغراق جميع الأوقات في الجد والتزام الرصانة في جميع الأحوال من المبالغة المنتقدة في الفضيلة ولكن لا يُقبل انتقادها إلا ممن يصرف أكثر أوقاته في الجد ويفرغ أقلها للأهل والصحب يفاكههم ويمازحهم وينبسط إليهم في الحديث، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقا.

الاقتصاد والوفاء: اشتهر فقيدنا المبكي بأعين الفضلاء بالمبالغة في الاقتصاد حتى كان بعض الناس يظن فيه البخل والتقتير وهو لم يكن بخيلاً ولا مقترًا في النفقة؛ بل كان في الإنفاق على ما أمر الله تعالى في قوله: [لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ](الطلاق: 7) كان يكتب لبيته ميزانية السنة قبل دخولها، فيجعل الخرج غير مستغرق للدخل كله ويحصي كل أنواع النفقات ويضيف إليها مبلغًا احتياطيًّا ثم يؤدي كل شيء في وقته، فكان يدفع اشتراكات الصحف العربية والإفرنجية في أواخر شهر ديسمبر من كل سنة واشتراك الجمعية الخيرية في غرة المحرم، فيأخذ أول وصل من وصولات التحصيل وأجور الخدم في أول يوم من كل شهر وثمن كل شيء

يشتريه في وقته.

ولولا هذا الاقتصاد لما قدر على الوفاء الكامل في المعاملة بأداء كل حق قي وقته ولا على الاستغناء عن الاقتراض والاستدانة بالربا.

نعم، إن اقتصاده المبني على قواعد العلم الحديث والتزامه النظام فيه ومن كل عمل كان يستلزم مخالفة أهل البلاد في بعض الأمور مخالفة يستنكرونها فيسمونها بغير اسمها.

فمن ذلك أنه كان إذا دعا إلى طعامه نفرًا من أصحابه وزاره عند وقت الطعام أو قبيله صاحب آخر فإنه لا يدعوه معهم، بل كان بعض أصدقائه ربما يتعمد أن يقول: بلغني أن فلانا وفلانا سيأكلان العشاء عندك وأحب أن أكون معهم ليجيبه بحريته المعهودة: إنه ليس لك كرسي على المائدة في هذه الليلة.

وذلك أنه رحمه الله تعالى كان يهيئ الطعام على قدر حاجة الآكلين المعلومين بلا تقتير ولا تبذير.

وكيف يوصف بالتقتير من كان خدمه يأكلون من جميع ما يأكل منه أهل البيت وضيوفهم من الألوان والحلوى حتى الفاكهة في الشتاء.

وبلغ من اقتصاده في مال الجمعية الخيرية أنه كان لا يرمي ورقة مكتوبة من الأوراق التي لم تبق من حاجة إليها إلا بعد أن يقص منها ما عدا المكتوب إن كان ينتفع به بإمكان كتابة شيء عليه.

ووقع لي معه دقيقة من هذه الدقائق أذكرها مثالا، وهي أنني جئت مرة قصر عابدين أبغي لقاء الأمير، وكان هو رئيس التشريفات فأرسلت إليه بطاقة الزيارة للاستئذان، ولما هممت بالخروج من حجرته قال لي: خذ هذه البطاقة - وكانت لا تزال في يده - فإنها أدت وظيفتها الآن ويمكن أن تؤديها مرة أخرى.

فقلت له: ذكرتني هذه الدقة في الاقتصاد كلمة للإمام الغزالي وهي أن الميزان الذي لا يرجح بالحبة لا يرجح بالقنطار لأن القنطار مؤلف من الحب، فإذا ألقي في الميزان حبة بعد حبة لم يكن الرجحان إلا بحبة، فأعجبه هذا القول وكان يتمثل به.

ومن الناس من يهزأ بهذه الدقائق ويعدّها من الصغائر التي لا تنبغي لأهل النفوس العالية.

وهذا خطأ وجهل يزينه لصاحبه الإسراف والخرق واعتياد الخلل والحرمان من النظام فإن الكاتب (الخطاط) الذي لا يعنى بكل حرف من الكلمة لا يكون مجموع خطه كامل الحسن، والبناء الذي لا يعنى بضبط كل حجر ينحته لا يكون بناؤه رصينا محكما، والمصور الذي لا يدقق في إحكام تصوير كل عضو لا تأتي صوره مطابقة لما صوره، وهكذا يضيع المال الكثير في غير فائدة بسبب

من يفرط حفظ القليل بوضعه في غير موضعه.
إن كثيرًا من المسرفين الذين يسميهم الحمقى أسخياء وأجوادا يمطلون أصحاب الحقوق ويلوونهم وهم واجدون ما يفون به، ولا يكادون يبذلون شيئا في سبيل الله.
وإذا خرج منهم الحق لا يخرج إلا نكدا ولكنهم يراؤون الناس بإضاعة المال في أمور لا يحمد فاعلها عند العقلاء ولا يؤجر عند الله.
ومنهم الذين يضيعون ما ورثوا من الثروة الواسعة أو غير الواسعة فيقعون في الذل الموجع والفقر المدقع، وما أكثرهم في هذه البلاد ولكن أكثر الناس لا يعتبرون.

قال الفقهاء يكره في الوضوء أن يغسل المتوضئ العضو أكثر من ثلاث مرات لأن ذلك من الإسراف ولو كان يتوضأ من البحر، إلا أن يكون له حاجة أخرى في الزيادة كالتبرد، ولكن لا ينوي بها العبادة.
وقالوا: إن حكم الشرع في ذلك هو أن تتعلم الأمة الاقتصاد في الأمور كلها فلا تفرط في شيء وتضيعه في غير منفعة وإن لم يكن في إضاعته ضرر.
أي ضرر يتصور أن يصيب الأمة لو جرى جميع أفرادها على طريق حسن باشا عاصم في الاقتصاد.
لا يضيعون شيئا بوضعه في غير موضعه ولا يؤخرون حقًّا عن مستحقة ويجتهدون في السبق إلى مساعدة الجمعيات الخيرية ؟ أما والله إن أمة يكثر فيها أهل هذا الخلق لجديرة بأن تكون أسعد الأمم.
(للترجمة بقية)

(يصدر هذا الجزء من المنار في سلخ رمضان)

((يتبع بمقال تالٍ))

أعمال حسن باشا عاصم[13]

كتبنا في الجزء الماضي شيئًا عن أخلاق حسن باشا عاصم، ونكتب في هذا الجزء شيئًا عن أعماله، وعمدتنا في هذا وذاك الاختبار، وغرضنا منه بيان طريق التأسي والاعتبار، وإنما قدمنا الكلام في الأخلاق لأنها هي مصادر الأعمال، فهي الأصل الأصيل في تفاضل الرجال، ولم نسلك فيما كتبنا ولا فيما نكتبه الآن مسلك الاستقصاء بل نكتفي بما قل ودل.

تمهيد في تربيته وتعليمه:

بالتربية والتعليم يتفاضل المتساوون والمتقاربون في الاستعداد، وقد اتفق لحسن عاصم منهما ما أظهر استعداده العظيم.

كان والده من حاشية محمد باشا عاصم أحد كبار المديرين في هذا القطر ولم يكن لهذا نسل.

وولد حسن في حجره فسُر به وتولى تربيته، بل تبناه وأضاف اسمه إلى اسمه، فعلمه التعليم الابتدائي والوسطي والعالي، فانتقل من المدارس الابتدائية إلى مدرسة الإدارة (الحقوق) فكان في طليعة النابغين ثم أرسل مع بعض النابغين إلى فرنسا على نفقة الحكومة؛ للترقي في علوم الحقوق والسياسة، فتلقاهما بجده واجتهاده حتى كان من خير النابغين وحملة الشهادات العالية فيهما.

وكيف لا وهو لم يكن يعرف اللهو والبطالة، ولا ممن يحفل باللذات والشهوات البدنية، وتلك هي قواطع طريق العلم على طلابه لا سيما في أوروبا ولا سيما في فرنسا.

وما أظن إلا أن بيت محمد باشا عاصم كان نقيًّا من اللوث الذي تلطخ به كثير من البيوتات كالسكر وما يتصل به عادة، وكأني بذلك الرجل وأنا لم أعرفه ولم أعرف عنه شيئًا كان بصيرًا بالمفاسد التي تدب إلى الناشئين في السعة، فحال بين ربيبه وبينها، فلم تتدنس نفسه برذائل المترفين ولا بدناءة المعوزين، فهذه التربية النقية هي التي ساعدته على كمال تحصيل العلوم، حتى كان وهو ابن الخادم

مشرفًا للمخدوم بنسبته إليه ومحييًا لذكره، ولولاه لما عرفه مثلي ولا دوّن اسمه في هذه المجلة الإصلاحية.
وكم أفسدت باريس من أولاد الأمراء والوجهاء الذين هم أرفع من محمد عاصم باشا ذكرًا في قومهم.

عمله في القضاء والنيابة:

لما عاد من أوروبا جعلته الحكومة مساعدًا للنيابة فوكيلاً فرئيسًا في الإسكندرية ثم في طنطا، وكان قد مات محمد عاصم باشا فكان خير خليفة له في أهله، حتى إنه كان ينفق معظم مرتبه الشهري على قلته في المرتبات التي كان يقوم بها مربيه الذي مات ولا مال له.
بل لم يتعجل في العودة من أوربا إلى مصر إلا لأجل هذا، فقد كان يبغي الاستزادة من العلم إلى أن يصير دكتورًا في العلوم التي كان يشتغل بها بعد أن نال شهادتها العالية المعبر عنها عندهم بالليسانس، ففاجأه نعي مربيه فاكتفى بما حصل، ورجع عما كان أمّل، وقد كان في النيابة العالم المصلح للنظام ولحال الاجتماع، إذ كان يتعقب الأشقياء المفسدين وسلبة الأمن المعتدين، حتى طهر منهم المديريات التي عظم بلاؤها بهم وكان يزجي كل من تحت رياسته في الجد والاجتهاد، فلا يكادون يجدون ساعة بطالة.
ولما جعل السير سكوت مستشارًا قضائيًّا لمصر، وجه همته إلى إصلاح المحاكم الأهلية، وكانت مختلة معتلة، فكان يطوف على رجال القضاء والنيابة يسألهم عن رأيهم في الإصلاح وعما يشكون منه، فما كان يسمع من الأكثرين إلا عبارات الثناء والإقرار بالرضا عن الحال الحاضرة.
حتى ظفر بحسن عاصم فأخبره هذا بجميع العلل وبطرق علاجها، فجاء به وبصديقه علي بك فخري الذي رأى فيه مثل نباهته واستعداده، وجعلهما مفتشين للقضاء ثم عضوين للجنة المراقبة التي أنشئت في نظارة الحقانية، فكانا هما الواضعين لنظام المحاكم الحاضر وطريقة المراقبة القضائية المتبعة، بل كان حسن عاصم هو الذي اقترح بموافقة رفيقه اختيار القضاة من أهل الكفاءة بالاستقامة والنباهة واختبار البلاد، كالمتخرجين من دار العلوم وغيرهم ممن عرف بالعلم والفضل وإن لم يكن متخرجًا في مدرسة الحقوق، وبذلك تيسر للحكومة إصلاح المحاكم بقدر الإمكان.
ومن خدمة حسن عام للقضاء وضع مشروع المحاكم الجزئية، ثم السعي مع صديقه على فخري في إنفاذه عند سنوح الفرصة لهما بثقة السير سكوت المستشار المحب للإصلاح بهما.

وله في ذلك أعمال أخرى ليس من غرضنا تقصيها.

وكان للسير سكوت من الإعجاب بعلمه واستقامته وقدرته على العمل ما أحله عنده في أعلى منازل الثقة والكرامة.

وأراد ترقيته فلم ترض الوكالة البريطانية بذلك، بل حاولت أن تدليه لاتهامها إياه بمناصبتها، فعرقلت عليه السياسة الاستمرار في عمله النافع في المحاكم، وذلك شأنها ما دخلت في عمل إلا وأفسدته، كما كان يقول الأستاذ الإمام.

وما كانت تهمة حسن عاصم بالسياسة محض اختلاق، ولكن ربما كان يبالغ فيما ينقل للوكالة عنه أو كانت الوكالة تنظر إلى الأمور بعين الاحتياط، فتراها أكبر مما كانت عليه.

وكانت في البلد حركة وطنية قبلتها بل روحها الأمير الجديد (عباس حلمي باشا) تبعثها الآمال وتحدو بها الأقوال، حتى تزجيها إلى بعض الأعمال التي كان يظن أنها وسائل لإزالة الاحتلال والتمتع بكمال الاستقلال، وكان أكثر أهل الفهم والرأي من رجال الحكومة وغيرهم مغرورين بتلك الحركة، ولم يسلم من شيء من ذلك حسن عاصم على أناته وبصيرته، وكان صديقه ورفيقه في العمل علي فخري بك أشد منه إعجابًا بل تحمسًا بها، بل أقول: إنه لم يسلم من الغرور بتلك الحركة أحد من أهل الرأي والظهور في البلد إلا ما دون عدد أنامل اليد الواحدة.

قد يظن بعض الشبان اليوم أن في البلاد حركة وطنية قوية لم تكن من قبل، وما ذلك إلا لأنهم لا يعرفون شيئًا عن الحركة التي كانت من نحو خمس عشرة سنة إذ كان الرجال يجرون عربة الأمير بأيديهم، وإذ كان الأمير يعود من سياحته الصيفية فتكتظ الإسكندرية بمئات الألوف للقائه، حتى قيل: إنه دخل في الإسكندرية في يوم واحد ثمانون ألفًا من أهل الأرياف.

وما ذلك إلا لأن السلطة الأجنبية ثقيلة على النفوس البشرية تنفر منها بالطبع، فإذا آنست بصيصًا من الأمل بالتملص منها على يد من تثق بهم من أبناء جنسها السياسي أو الديني، فإنها لا تعتم أن تعشو إليه وتعول عليه، وقد كان الشعب يرى من الأمير الجديد منذ تولى ذلك البصيص، بل كانت ترى من حاله وتسمع مما ينثر من درر أقواله، ما يجعل ذلك البصيص نورًا ساطعًا يملأ الجوانح أملاً، وينفر بالنفوس إلى الجهاد الوطني خفافًا وثقالاً، فلا عجب إذا كان مثل حسن عاصم وهو في شبابه ممن كان يظن أن في تلك الحركة بركة، لا سيما وهو مطلع على ما كانت تدبره فرنسا، وما تعد به مصر وتمنيها.

غرضنا من هذا البيان ومن سائر ما نكتبه عن الرجل أن تكون العبرة بسيرة رجل نابغ منا مبنية

على أصل ثابت، ورواية صحيحة في زمن لا يكتب فيه عن رجال العصر إلا أصحاب الصحف السياسية في الغالب، وهم لا يبينون من الحقائق إلا ما تسمح لهم به السياسة على الوجه الذي تحبه وترضاه.

فليعلم الشبان المتحمسون في الوطنية الذين تهيجهم نغمات المتغنين بأشعارها، والضاربين على أوتارها، أن هذا النابغة الذي يفتخر الوطن به قد تحمس في شبابه بالسياسة أيامًا كانت دواعي التحمس فيها أوفر، والآمال بالنجاح أقوى، ثم استقر رأيه بعد الاختبار على أن العاملين للوطن والمخلصين في خدمة الأمة، يجب عليهم أن يتنزهوا عن الشوائب والتحمسات السياسية والتهيجات الطبيعية، وأن يلتزموا السكينة والروية، ويجعلوا عمدتهم إتقان الأعمال دون الغرور بزخرف الأقوال والانخداع بالدعاوي العراض الطوال؛ لذلك كان يعمل ليله ونهاره من غير لغط ولا دعوى، ولا تذمر ولا شكوى، بل كان ذلك دأبه منذ كان.
كان السير سكوت المستشار المصلح المخلص على ما هو مشهور بين جميع العارفين، قد وعده بأن يجعله نائبًا عموميًّا بعد أن جعله الأفوكاتو العمومي، ولكن الورد كرومر أمره بعزله كما يقال، فحار في أمره وبعد العناء والجهاد قدر على أن يستبدل العزل وجعله قاضيًا في محكمة الاستئناف الأهلية بمرتب أنقص من مرتبه قبله، فلم يزده ذلك إلا جدًّا في العمل ومضاء في الإصلاح.
ومما يؤثر عنه أنه كان يسمع خبر عزله، فلا يحدث عنده فتورًا ولا مللاً ولا يثنيه عن الابتداء بعمل جديد أو وضع مشروع لعمل مستقبل، وإن كان يتوقف تنفيذ هذا وإتمام ذاك على بقائه في عمله.
وقد كان مما اقترحه في أثناء التحدث بعزله نقل طائفة من الكتاب باليومية في محكمة الاستئناف لعدم الحاجة إليهم إلى المحاكم الابتدائية التي هي في أشد الحاجة إليهم، فأخبره رئيس الكتاب بأن أمر عزله قد تقرر بل كتب، ولم يبق دون تنفيذه إلا ختمه، فقال رحمه الله ما معناه: إن هذه فرصة تحرم إضاعتها، وإنني أعمل الواجب ما دمت متمكنًا منه، وإن هذا التمكن يستمر إلى أن أبلغ الأمر بالعزل رسميًّا.

عمله في المعية :

عز على أصدقاء هذا العامل المصلح أن يكون ظنينًا على عمله عند القوة الفعالة في البلاد، وأن لا يوضع في الوضع الذي يستحقه من ناصية القضاء، ولما خلا منصب رياسة التشريفات عند

الأمير بنقل عباني باشا منه إلى نظارة الحربية، بادر الأستاذ الإمام فرغب إلى الأمير أن يجعل الفقيد رئيسًا للتشريفات، فذكر له الأمير رجلاً آخر من المرشحين عنده لهذا المنصب، فقال الأستاذ الإمام رحمه الله وكان الأمير أطال الله عمره يقدر رأيه حق قدره: كلا الرجلين كفء ويمتاز عاصم بمعارفه القضائية، وأفندينا تعرض عليه القوانين واللوائح فيحسن أن يكون في معيته من يدرسها ويبدي رأيه فيها.

ذكر لي ذلك الأستاذ في سياق عناية الأمير به، وكونه هو الذي اقترح جعله مستشارًا في الاستئناف، ثم جعله مفتيًا، وما كان فضل عاصم ليخفى على الأمير، لذلك فضله على غيره وولاه هذا المنصب.

إننا نرى من المتعلمين من يختار أو يختار أولياؤه له علم الحقوق ليكون قاضيًا أو محاميًا، أو علم الهندسة ليكون مهندسًا، أو علم الطب ليكون طبيبًا مثلاً.

ولكننا نرى النابغين فيما يوجهون جل عنايتهم إليه قليلين، وأقل من هذا القليل من يبرع في العمل كما نبغ في العلم، وأقل من هؤلاء من يعهد إليه عمل غير ما استعد له واشتغل فيه، فيتقنه بعد إتقان غيره والبراعة فيه.

أولئك الذين أعطوا من المواهب العقلية ما أعدهم لإتقان كل عمل يشتغلون به، وقد كان حسن عاصم من هذا الفريق النادر، فإنه كان في أخلاقه وجل معارفه وسابق عمله أبعد الناس عن خدمة الأمراء، ولكنه على هذا عمل في خدمة الأمير ما عجز عن مثله كل من كان في خدمته وخدمة أسلافه، كما عجز عن الزيادة عليه من جاء بعده.

كان رجال التشريفات من قبل رياسته لا عمل لهم في غالب أوقاتهم، فخلق لهم من الأعمال ما استغرق عامة أوقاتهم في القصر، حتى إنه استخرج دفاتر التشريفات القديمة من عهد محمد علي، وعرف ماضي ذلك وحاضره، ثم وضع للتشريفات نظامًا ثابتًا حدد فيه أوقات المقابلات الرسمية وغير الرسمية، وكذلك الدعوات وحفلة المرقص الخديوي، فقد كان كل ذلك محفوفًا بالفوضى والخلل.

ومن ذلك أنه اشترط فيمن يقابل الأمير شروطًا في الزي للموظفين وغير الموظفين، قد تختلف باختلاف المقابلات واختلاف زي الأمير العسكري والملكي فيها، ونفذ ذلك كله على الوطنيين والأجانب على سواء.

وما كان يسهل عليه أن يشذ عن نظامه ذاك أحد.

وأذكر من تنفيذه النظام على الأجانب من كبار المحتلين وغيرهم أن بعض كبار الموظفين منهم جاء

عابدين بلباس غير ما يجب في تلك المقابلة فنبهه إلى ذلك فعاد إلى بيته وغير زيه.

وأعظم من ذلك أن مرقص الخديوي كان يحضره من أوشاب الإفرنج من يعرف ومن لا يعرف.

وسبب ذلك أن ديوان التشريفات كان يرسل إلى كل وكالة سياسية للدول عدة أوراق، ليس عليها أسماء ليدعي بها وجهاء الأجانب، فكان يأخذها من هم أهل ومن ليسوا بأهل لحضور مجالس الأمراء والملوك، فكان من النظام الذي وضعه له حسن عاصم أنه لا يحضر المرقص أحد إلا من دعاه ديوان التشريفات دعوة خاصة باسمه، وأنه لا يدعو من الأجانب إلا من كان معروفًا عند الأمير، ولو بتقديمه إليه قبل المرقص بزمن قريب، كما أنه لا يدعو من الوطنيين إلا من كانت صفته كيت وكيت ككونه من أصحاب الرتبة الثانية فما فوقها أو ما يقابل ذلك.

فساء هذا النظام وكلاء الدول وقناصلها فعهدوا إلى لورد كرومر وهو أقدمهم أن يعترض على ذلك ويتلافاه، فكلم حسن باشا فيه فاحتج عليه هذا بتفضيل النظام على الفوضى، وأطلعه على إعلان من شركة كوك التي تتولى نقل السياح في مصر من مكان إلى آخر، وفيها أن سياحها يشاهدون كذا وكذا من الآثار القديمة، ويحضرون المرقص (الباللو) الخديوي ! فقال له اللورد: إنني أجل النظام ولا يليق بي ولا بدولتي أن نعترض عليه، ونحن دعاته ولكنني أعلم أن السراي لا يلتزم فيها نظام بل المستثنى فيها من القاعدة أكثر من المستثنى منه، فنحن لا نرضى أن يكون النظام ساريًا علينا وهو غير مطرد.

فقال له الفقيد: إنني أضمن لجنابكم بأنني أنفذ هذا النظام ما دمت هنا بلا شذوذ قط، وعليّ تبعة ذلك إلا أن يأمر رب المكان بشيء، فلا يمكن لخادمه أن يعارضه فيه.

إذ يحتمل أن يقدم له شخص في غير السراي فيدعوه هو مثلاً، فهل يمكن أن يسئل عن ذلك ؟ فاقتنع اللورد بذلك ولم يسعه إلا الرضا.

سمعت هذا من الفقيد نفسه.

وقد مكث في منصب رئيس التشريفات بضع سنين، ثم رقاه الأمير فجعله رئيس الديوان الخديوي، فكانت خدمته أجل وأوسع؛ إذ تعدت خدمة الأمير الخاصة إلى خدمة الأوقاف العمومية.

ولكن قلب الأمير تغير عليه ففصله بعد ثلاث سنين من منصبه بالإحالة على المعاش.

فكبر ذلك على الناس، وكثر حديثهم فيه وظهر أثر ذلك في الجرائد، فكانت متفقة على الثناء على الفقيد، فرأينا أن نجعل ذلك وسيلة للموعظة وسوق العبرة إلى المستعدين للاقتداء بعظماء الرجال وطلاب الفضيلة والاستقلال، فكتبنا يومئذ في المنار نبذة في ذلك (راجع ص758م7).

وقد أشار المؤيد إلى نحو ما نقلناه يومئذ عن اللواء مع زيادة؛ إذ قال عند بيان سبب عزل الفقيد من رياسة الديوان الخديوي في ترجمته له ما نصه:(وقد أمضى الفقيد نحو سبع سنوات رئيسًا للتشريفات الخديوية وثلاثًا رئيسًا للديوان الخديوي مثالاً لأشرف موظف نزيه، يخلص العمل والخدمة لمولاه، ويؤدي الوظيفة المنوطة به أشرف أداء.

ثم فصل بعد ذلك لأمر حسب نفسه فيه مؤديًا واجبًا كما ينبغي عليه، وحسبه الجناب الخديوي متعنتًا فيه.

وزادت الريبة منه كلمة قالها اللورد كرومر لأحد رؤساء الدواوين الخديوية ليبلغها للجناب العالي، إذ قال اللورد: (إنني أهنئ الجانب الخديوي بوجود رجل مستقل قوي الإرادة نزيه مثل حسن عاصم باشا في معيته) فخالج الجناب العالي ذلك الفكر الذي طاف قبلاً على خاطر اللورد كرومر؛ لأن هذا اللورد كان قد اعتقد أن لشدة مراس الرجل في وظائفه القضائية أثر ظاهر من آثار الانحياز إلى جانب المعية السنية، وهي التهمة التي كانت تلقى على كرام الوطنيين للتنكيل بهم.

ولذلك كان يحسب الفقيد من أشد أعداء الوكالة البريطانية.

فلما جاء الوقت الذي تجلت فيه صفات الفقيد كما هي شهد تلك الشهادة العالية، فأولت التأويل الطبيعي الذي كان نتيجته شدة التنافر بين قصر الدبارة وعابدين.

ولذلك قال كثيرون من الناس: إن اللورد أراد بحسن عاصم باشا سوءًا إذ شهد له هذه الشهادة، وهو يعلم ماذا يكون وقعها في نفس مولاه في تلك الظروف).

اهـ ثم قال المؤيد: إنه لم يطل الأمر بعد ذلك حتى رضي عنه الأمير.

ونحن نعلم أن اللورد قال كلمته في الفقيد عن إعجاب بمزاياه لا سيما بعد ما تبين له أن الحق عنده يعلو على كل شيء، فلا يتحيز لغيره ولا يراعي فيه مولاه الأمير فضلاً عمن دونه.

وإن الذين قالوا: إنه أراد به سوءًا.

يسيئون الظن بالأمير إذ يعتقدون أن اللورد يقدر بكلمة واحدة أن يغيره على ما يشاء، وإن ثبتت استقامته وكفاءته بحيث صار أشهر بهما من علم في رأسه نار، وأظهر من الشمس في رابعة النهار، والأمير أذكى ذهنًا وأوسع فهمًا مما يعتقدون.

عمله في الجمعية الخيرية الإسلامية:

كان سبب تأسيس هذه الجمعية أن مشعوذًا ممثلاً أجنبيًّا، جاء مصر من نحو ست عشرة سنة، فربح منها مالاً كثيرًا، فأراد أن يجعل ليلة من لياليه لفقراء المسلمين، وبلغ محافظ العاصمة إبراهيم باشا رشدي ذلك فاجتمع بعض أهل الغيرة والفضل وائتمروا بينهم في ذلك، فاتفقوا على أن يزينوا حديقة الأزبكية في تلك الليلة، ويضيفوا إلى ألعاب المشعوذ فيها ضروبًا أخرى من اللهو المباح، ويحفظوا المال ليجمعوا إليه غيره بالتبرع وغيره، ويجعلوا ذلك أصلاً لجمعية خيرية إسلامية، وكاشفوا المحافظ بذلك فوافقهم عليه (وقيل إن زينة الحديقة كانت بعد) أولئك هم الأخلاء الصادقون في خلة بعضهم لبعض وفي حب ملتهم وأمتهم، منهم فقيدنا اليوم الذي نعتبر بسيرته، وفقيدنا بالأمس الأستاذ الإمام رحمهما الله، ومنهم سعد باشا زغلول وحشمت باشا ودرويش بك السيد أحمد وإخوانهم من الأحياء أطال الله أعمارهم، وقد وضع هو قانون هذه الجمعية بمشاركتهم على أساس من الحكمة متين وكان أحكم أصوله وجوب إضافة نصف الدخل (الإيراد) السنوي إلى رأس المال؛ لأجل الاستغلال والنصف الآخر يكون للتعليم وإعانة الفقراء.

والسبب في هذا ضعف ثقتهم بأهل البلاد في كل ما يقوم بالتعاون والاجتماع لاسيما إذا كان لمحض الخير، وكان حسن عاصم أضعفهم ثقة حتى إنه لم يكن يطلب من أحد معاونة ولا تبرعًا إلا نادرًا، وكان جل خدمته للجمعية في الإدارة الداخلية لماليتها ومدارسها، فكان ينظر بنفسه في الأمور الكلية والجزئية حتى ما كان من شأن الكتبة.

قال لي درويش بك أمين سر الجمعية: إنه ما كان يكلفني إلا ضبط الحسابات ثم هو يقوم بسائر أعمالي.

وأما الأستاذ الإمام فكان لا ينظر في الأمور الداخلية إلا إلى الكليات ونحو امتحان من يرشحون للتعليم في المدارس من الجزئيات، وكذا أمور التنفيذ إذ كان رئيسًا ولكنه كان يسعى في الخارج لتكثير مال الجمعية، ويدعو الأمراء والوجهاء حتى كبراء الأجانب إلى التبرع لها أو الاشتراك فيها، وهو الذي دفع الوشايات عنها ولولاه لما بقيت، فكانا رحمهما الله تعالى يكمل أحدهما ما يقصر فيه الآخر.

وههنا نبين الحقيقة في مسألة ألمّ بها المؤيد، فلم يحسن التعبير ولا وافق الصواب، وكانت عبارته وهو يقصد بها مدح عاصم باشا ذمًّا له بالاستبداد والشذوذ عن الآداب، وهضمًا لحق رئيسه في الجمعية (الأستاذ الإمام) وكذا لسائر أعضاء مجلس الإدارة؛ إذ جعل وجودهم في المجلس كعدمهم من حيث إنهم لم يكن لهم رأي ينفذ إذا خالف رأي عاصم باشا.

بل أقول: إن هذه العبارة تفيد سلب أقوى مزايا عاصم باشا عنه وهي مزية التزام النظام واتباع القانون كأنه أمر إلهي.

ولا شك أن صاحب المؤيد لا يقصد هذا، ولكنها زلة قلم ولا عصمة إلا لكتاب الله تعالى.

أما عبارة المؤيد فهي :

(ولم يكن يسمح لأحد أن يتعدى على النظام الذي عمله لها، حتى استبد بجميع شؤونها، وله في كل سنة وقفة أمام مجلس إدارة الجمعية الخيرية الإسلامية في شيء ينتهي الأمر فيها إلى العمل برأيه، ومع ما كان من صداقته للمرحوم الشيخ محمد عبده وخصوصًا حيث كان رئيسًا للجمعية الخيرية الإسلامية، قد أراد هذا أن يتداخل سنة 1904 في أمر مدرسة المحلة الكبرى، فرأى الفقيد أن تداخله هذا قد يشوش عليه عمله، ويجعل لأساتذة مدارس الجمعية وأهالي تلامذتها مندوحة إلى مخاطبة غيره في أمرها فكتب إليه تلغرافًا وهو في المنصورة يقول له: (لا تضع قدمك في المحلة الكبرى قبل أن تقابلني ولا أسمح لك بالتداخل في شئون مدرستها) أو ما هو بمعناه - فجاء الأستاذ المرحوم إلى القاهرة وجرى بينهما كلام أدى إلى اختلافهما في الرأي اختلافًا شديدًا، فأبى الفقيد إلا أن ينفذ رأيه أو يعتزل عمله كله في الجمعية، وتم له ما أراد ولم يكن قصده إلا أن يستقيم أمر المدارس على ما اعتقده أفيد لإدارتها) اهـ.

أما حقيقة المسألة التي أشار إليها المؤيد، فهي أن بعض المؤسسين لمدرسة المحلة بما تبرعوا به من المال لهم أولاد تجاوزوا السن التي يشترطها قانون مدارس الجمعية الخيرية في التلاميذ الذين يدخلونها.

وهم ما بذلوا المال إلا رغبة في تعليم أولادهم في بلدهم أولا وبالذات ثم المساعدة على تعليم الفقراء ثانيا وبالعرض فلما عهدوا بإدارة المدرسة إلى الجمعية كما هو القصد الأول من تأسيسها أراد حسن باشا أن لا يقبل أولئك الأولاد في المدرسة التي أسسها آباؤهم لأن اتباع النظام والتزام القوانين عنده من الأمور الوجدانية التي لا يناقش فيها، كما عُلم ذلك مما كتبناه في أخلاقه رحمه الله.

وكان من رأي الأستاذ الإمام رضي الله عنه أن يقبل أولئك الأولاد لأن رأيه في القوانين أنها وسائل لدفع المضار وحفظ المصالح وإقامة العدل فمتى عرض من الحوادث ما يكون التزام القانون فيه مخلاً بالمصلحة أو منافيًا للعدل وجب أن يعمل في الحادثة التي هذا شأنها بما يقوم به العدل وتتحقق به المصلحة وهذا ما عناه حسن باشا عاصم نفسه بقوله في تأبينه أنه كان في القضاء ما يعبر عنه الإفرنج (بقاضي العدل والإنصاف) وأقول والشيء بالشيء يذكر أنه كان قد وشي به إذ كان قاضيًا

للمستشار القضائي بأنه يخالف القانون عمدًا في بعض أحكامه، فسأله المستشار عما قيل فأجابه: هل القانون وضع لأجل العدل أم العدل وضع لأجل القانون ؟ فقال: بل القانون وضع لأجل العدل.

فبين له حينئذ القضايا التي لم يلتزم فيها نص القانون وأنه لو التزمه لخرج عن العدل وترتب على ذلك من المفاسد كيت وكيت.

فشكر له المستشار ذلك.

وكان على هذا الاختلاف بين الصديقين في هذا الأصل أو المبدأ كما يقال قد حدث أن الأستاذ أمر بشيء مخالف للقانون على سبيل الاستثناء لأجل المصلحة العارضة فأنفذه حسن باشا ممتعضًا ثم قابل الأستاذ وقال له: إنني أنفذت أمرك الذي كتبت إلي به لأن أمر الرئيس متى صدر بالفعل وجب تنفيذه كيفما كان وإلا فلا معنى للنظام ولا للرئاسة، ولكنني أرجوك أن ترجي ما تراه من مثل هذا إلى أن نجتمع ونتذاكر فيه.

فلما عرضت مسألة مدرسة المحلة خاف حسن باشا أن يعد رئيس الجمعية آباء أولئك الأولاد أو يكتب إليه أمرًا بقبولهم بطريق الاستثناء، وذلك صعب عليه جدا ولا بد من تنفيذه متى أمضاه الرئيس.

فكتب إليه يرجوه أن لا يبت شيئًا في المسألة لا بالأمر ولا بالوعد بل يرجئ ذلك إلى الاجتماع.

وكان الأمر كذلك فاجتمع مجلس الإدارة وتناقشوا فيها وكان من رأي بعضهم تغيير ما فرضه قانون المدارس في السن فعلم حسن باشا بذلك، فتشدد رحمه الله تعالى في المحافظة على القانون وعدم قبولهم وكتب إلى الأستاذ الإمام كتابًا يستقيل به من إدارة المدارس إن تغيرت مادة تحديد السن في القانون.

وبعد طول المناقشة تقرر بأغلب الآراء تنفيذ رأي الرئيس وهو الأستاذ الإمام بقبول أولئك الأولاد بطريق الاستثناء وإرضاء الوكيل ومدير المدارس بوعد المجلس له بأن يكون هذا الاستثناء قاصرًا على هؤلاء الأولاد لا يتعداهم إلى غيرهم ولا يطلب إدخال غيرهم باستثناء آخر.

في ذلك اليوم الذي قرر فيه مجلس إدارة الجمعية ما ذكر ذهبت إلى مكتب الجمعية لمقابلة الأستاذ الإمام عند خروجه فرأيته خارجا مع بعض أعضاء المجلس وعلمت ما تقرر.

ولما كتب المؤيد في ترجمة حسن باشا ما كتب كدت أشك فيما أعلم فراجعت درويش بك سيد أحمد أمين الجمعية (سكرتيرها) منذ وُجدتْ فقلت له: هل رأيت ما كتب المؤيد في ترجمة المرحوم حسن باشا ؟ قال: نعم.

قلت له: إن الذي علمته أنا يومئذ مخالف لما في المؤيد - وذكرته له - فأينا الغالط ؟ فقال: إن الغلط هو ما جاء في المؤيد وما تذكره أنت هو الذي وقع.

وعجبت مما قال المؤيد أن حسن باشا كتب إلى المرحوم الشيخ (لا تضع رجلك في المحلة) إلخ وحسن باشا أعلى أدبا من أن يكتب ذلك لمن دون الشيخ في مكانته الذاتية وفي صداقته له، فلا أدري من أين جاء المؤيد هذا.

وجملة القول: إن حسن باشا رحمه الله تعالى كان شديدا في المحافظة على النظام والقوانين كما كتبنا من قبل، ولكن لم يكن مستبدا في الجمعية الخيرية ولا في غيرها وكيف يكون متبع النظام مستبدا ؟ وإن أعضاء مجلس إدارة الجمعية كلهم من أهل الاستقلال فما كانوا يتبعون له رأيا، وإنما يقول كل واحد ما يظهر له أنه الصواب وكان كل شئ يختلفون فيه يقرر بأكثر الآراء إن لم يتفقوا، كما هو نص القانون.

أقول: سمعت حسن باشا رحمه الله تعالى يقول بعد ما بلغه أمر الأمير بعزله: الحمد لله أنني الآن صرت قادرا على أن أعطي الجمعية الخيرية حقها من الخدمة فإن السراي كانت آخذة معظم وقتي.

وقد عين بعد ذلك وكيلا لدائرة القصر العالي وكانت مختلة معتلة مسلوبة منهوبة فأدارها بدقة ونظام يعجز عنهما سواه ممن قضوا أعمارهم في إدارة الأعمال الزراعية والإدارية والمالية.

وعين مع ذلك مأمورا لتركة الأمير محمد إبراهيم وهي تضاهي دائرة القصر العالي ثروة وأعمالا ومشاكل فضبطها أحسن ضبط.

ولما تأسست الشركة الإنكليزية المصرية للإتجار بالأراضي الزراعية كان - وهو من مؤسسيها - وكيل أعمالها وأدهش الإفرنج بأعماله فيها على كثرة أعماله في القصر العالي وفي تركة لأمير محمد إبراهيم وفي الجمعية الخيرية ومدارسها.

ثم عين مع ذلك عضوا في اللجنة الإدارية لمدرسة القضاء الشرعي، فكان لها من خدمته العظيمة الحظ العظيم.

وقد أشرنا في الكلام عن إخلائه إلي بعض عمله في جمعية إحياء العلوم العربية التي كان وكيل رئيسها، بل لم يكن لها بعد الأستاذ الإمام رئيس سواه.

كان يعمل هذه الأعمال كلها مع منتهى الدقة والإتقان، فيالله ولهمم الرجال.

وههنا أقول أني كنت أنتقد عليه كثرة العمل وأخاف أن ينهكه فيقتله، وأنى لجسمه النحيف أن يحتمله، وقد كان ما خفت أن يكون، فإنا لله وإنا أليه راجعون، أصابه منذ أشهر ضعف في المعدة

ترك لأجله أكل اللحوم كلها حاشا السمك وقد كان صام رمضان الماضي كله على الوجبة إذ لم يكن يتسحر، فكلمته في ذلك غير مرة فقال لي: إنني جربت مرة فأكلت في السحور شيئًا من الكنافة والفاكهة فثقل علي وأصابني منه غثيان في النهار.

وكنت أراه أحيانا بعد العصر من رمضان وقد ضعفت قوته وخفت صوته، حتى لو استفتاني في الفطر لأفتيته، ولكن الله تعالى أحب أن يكون ذلك خاتمة عمله.

فرحمه الله تعالى رحمة واسعة، وأحسن عزاءنا عنه، ونفعنا بسيرته الحميدة بمنه وكرمه.

حسن باشا عبدالرزاق[14]

شيء من سيرة حسن باشا عبدالرزاق

علمه وأدبه :

نبت حسن باشا في بيت كريم وجاور في الأزهر تسع سنين تلقى فيها من فنون العربية وعلوم الشريعة ما رأى نفسه غير محتاج إلى تلقي غيره فيه.

وهكذا شأن النابغين تكون مدة تعلمهم قصيرة في الغالب وكم من طالب أقام في الأزهر عشرات السنين ولم يستفد منه ما يطمعه في شهادة العالمية.

وكان من شيوخه الشيخ نصر الهوريني اللغوي الأديب الشهير، ولعله هو الذي رغبه في الأدبيات فكان يحفظ كثيرا من مختار الشعر ويورد في حديثه الشواهد والأمثال منها فيضعها في مواضعها، وكان لنا معه محاضرات أدبية يسمعنا فيها أكثر مما يسمع منا.

وقد نظم الشعر كثيرا ولكنه لم يبذله فلم يشتهر به.

أما علمه بأصول الدين وأحكام الحلال والحرام، فقد ظهر أثره في جميع أدوار حياته فلم تعبث بعقيدته الشبهات على اتصاله بأهلها، ولم تزلزل استقامته معاشرة المترفين المسرفين مع الحكام مع الشباب والجدة اللذين هما أشد مثارات الافتتان.

وأما علمه بالفقه فقد ظهر أثره في مجلس الشورى إذ هو الذي أعانه على فهم القوانين ودقة النظر في انتقادها على كونه لم يتلق علم الحقوق بالدراسة.

مزيته في أمته، بسياسة أسرته :

لهذا الرجل مزية في بلاده لا يفضله فيها أحد قط فيما أعلم، مزية لو تبعه فيها أصحاب البيوتات لنالت البلاد بهم ما يتمنى لها محبوها من الارتقاء في أقرب وقت، مزية يمكن شرحها في مصنف خاص ولا يسعنا هنا إلا الاكتفاء بالإشارة إليها بعبارة وجيزة.

من المتفق عليه بين العقلاء أن لحياة الأمة وارتقائها مبدأ وغاية فالمبدأ هو التربية الحسنة في البيوت والتعليم النافع للأفراد، وغايتها اتحاد من أوتوا المبدأ على العمل لرقيها المادي والمعنوي.

فنحن نرى العقلاء يشكون من إهمال التربية الحسنة في البلاد ومن فقد الاتحاد بين المتعلمين حتى كأن المتعلمين في الأزهر أمة والمتعلمين في دار العلوم أمة والمتعلمين في سائر المدارس أمة - وكل أمة من هذه الأمم بعيدة عن الأخرى في أخلاقها وأفكارها.

ولا أزيد على ذلك هنا.

فكيف ربى هذا الرجل الحكيم أولاده؟ علم أبناءه -حسنا وحسينا ومحمودا- علم الحقوق وجعل الأول محاميا أهليا ومدرسا بمدرسة البوليس وألزم الثاني بعد أن قبل محاميا في المحاكم المختلطة بأن يكون عمدة في بلدة (أبو جرج) ولولا حسن التربية الأدبية الدينية لما ترك الإقامة في العاصمة مع أقرانه في العلم ورضي بأن يكون عمدة جل عمله مع الفلاحين طاعة لأبية.

وجعل محمودًا في الإدارة فكان معاونًا في قسم الأزبكية ثم ترقى فصار مأمور الضبط في الفيوم وجعل أبنيه مصطفى وعليًّا مجاورين في الأزهر ولعله لا يوجد فيه من أولاد الباشوات الأغنياء غيرهما لأن كبراءنا يعدون المجاورة في الأزهر ضعة وضياعًا.

وهما الآن في ذروة المجاورين تحصيلاً، يمتازان بالأدب العالي وحسن الإنشاء.

وللشيخ مصطفى من المنظوم والمنثور ما يجعله في بدايته مزاحمًا للمجيدين في نهايتهم، وجعل ابنه إبراهيم في مدرسة الزراعة وابنه إسماعيل في مدرسة الناصرية وهو صغيرهم الذي لا يزال في حجر التعليم الابتدائي، فلا أدري أين كان يريد أن يوجهه بعد ذلك ولعله كان يرشحه لخدمة المعارف.

وقد علم من هذا أنه كان يريد أن يجعل كل واحد من أولاده السبعة في أفق من آفاق أعمال البلاد ليكونوا قدوة يقتدى بهم في صدق الخدمة مع المحافظة على مقومات الأمة الدينية والاجتماعية ودعاة للوحدة وحسن التفاهم بين جميع طبقاتها المختلفة في التربية والتعليم، فيكونوا بذلك كالكواكب السبعة السيارة كل يدور في فلكه مع حفظ النسبة بينه وبين غيره بالجاذبية العامة.

أما الجاذبية العامة بين هؤلاء فهي التربية التي كان يمدهم بها كبيرهم الذي كان منهم بمنزلة الشمس

من كواكب السماء بجمعه بين الزي المصري من الجبة والقباء والعمامة ورتبة الباشوية، وبين إقامة شعائر الإسلام والآراء العصرية، والمستحسن من مظاهر المدنية، والقيام بالخدمة القانونية والسياسية، فما كان أروع تلك المائدة التي يستدير معه حولها حملة العمامة والطربوش الذين صار بين أمثالهم من البعد في مصر ما هو معروف.

بل كان ولا يزال - ولن يزال إن شاء الله - في ذلك البيت اجتماع أروع وأبدع وهو الاجتماع الأسبوعي في كل ليلة جمعة لإلقاء الخطب الاجتماعية والأدبية والمذاكرات العلمية والدينية، وهذا الاجتماع عام لكل من يحضره من أسرة عبد الرزاق.

فالمرحوم كان مربيا لإخوته وولدهم أيضًا.

فأي تربية ترجو البلاد أفضل من هذه التربية ؟ وما قولكم في أمة تتألف من مثل هذا البيت أو يكثر أمثاله فيها؟ (خدمته للأمة)أما خدمة الرجل لأمته في مجلس الشياخات بمديريته (المينا) وفي شورى القوانين نائبا عنها مدة ثماني عشرة سنة ثم في شركة الجريدة وحزب الأمة فهو معروف مشهور.

فقد كان عضوا عاملا ومثالا صالحا في فهمه ودقته واستقلاله وحريته، كما كان قدوة في صلاحه واستقامته، تغمده الله بمغفرته ورحمته.

أمين

ميرزا محمد حسين خان [15]
(المخلص بفروغي)
فاجعة أدبية

قد توفي إلى رحمة ربه فيلسوف إيران وأديبها الشهير ذكاء المُلْك طاب ثراه عصر يوم السبت 11 رمضان، فكان موته ثلمة في بناء العلم والأدب وهيهات أن يفخر الإيرانيون في وقت قريب بمثله.
اشتغل المرحوم سبعين سنة بخدمة الوطن خدمة خالصة وإحياء موات أدبيات اللغة الفارسية بحرارة الشبيبة وتجارب الشيخوخة، وإذا كان الإيرانيون بجهل جاهليهم وعدم مساعدة حكومتهم المستبدة لم يعرفوا قيمته، ولم يوفوه حقَّه من الإجلال كما كان حظ أمثاله من العظماء، فإنهم قد أبقوا ذلك تراثًا لخلفهم الذين يرجى أن يقدروا أمثاله قدرهم.
ولكن الإفرنج قد قدروه قدره في حياته بالتنويه بفضله والتعريف به لقومهم حتى إن الفرنسيين لقبوا هذا الرجل بفيكتور هوغو الشرق.
ونحن في هذا العدد نذكر خلاصة من ترجمة هذا الفيلسوف المعظم، وإن أمهل الزمان نقوم بما يجب علينا لهذا الرجل الكامل المحترم.

مختصر ترجمة المرحوم طاب ثراه

هو المرحوم ميرزا محمد حسين خان المخلص بفروغي[16]الملقب بذكاء الملك ولد في منتصف ربيع الثاني سنة 1255 بمدينة أصفهان وتوفي يوم السبت 11 رمضان سنة 1325 بطهران فيكون عَمَّرَ سبعين سنة و5 أشهر ووالده هو المرحوم الآقا محمد مهدي المعروف بأرباب من مشاهير أصفهان، وكان على اشتغاله بالتجارة على حظٍ عظيم من العلم والفضل لاسيَّما علوم التاريخ والجغرافية والهيئة؛ فإن له فيها تصانيف عديدة وقد سافر إلى الهند وأقام فيها طويلاً وعاشر فضلاء الإنكليز وأخذ حظًّا عظيمًا من العلوم الحديثة والسياسة، ولمَّا رجع إلى أصفهان قبل خمسين

سنة أراد أن يظهر معارفه؛ ولكن الأذهان في ذلك الزمن لم تكن مستعدة لقبول هذه النفائس الثمينة، فَأَكَبَّ على تحسين حال الزراعة والتجارة في أصفهان، وكان يمكنه أن يفيد بلاده بأكثر مما أفادها؛ ولكن عموم الجهل يومئذٍ حال دون ذلك.

أما فقيدنا ذكاء الملك فإنه بعد أن حَصَّلَ علوم العربية وأدبياتها ومبادي سائر العلوم سافر من أصفهان إلى العراق العربي لأجل تكميل تلك المبادي فمكث هناك طائفة من الزمان ثم عاد إلى أصفهان، وكان والده قد عاد من الهند فكانت نتيجة تآلف الأب والابن بما كان أتقنه كل منهما ظهور نهضة جديدة في العلم والسياسة؛ فكان ما تولد في دماغه يومئذٍ من قوة النهضة العلمية هو ما نراه الآن في أدمغة شباننا، فأخذ يتتبع بشغف عظيم دواوين الشعراء وكتبهم الأدبية ليشحذ بها غِرَار استعداده الفطري للشعر حتى كان شعره في الخامسة والعشرين مساويًا لشعر أساتذة هذا الفن.

وسافر للمرة الأولى إلى شيراز وطن الشيخ السعدي فنشبت عامئذٍ حرب أمريكا الشهيرة، وقل ورود القطن إلى معامل أوربا، فانتهز الفقيد هذه الفرصة فاشترى بجميع ما يملكه قطنًا وسافر به إلى الهند؛ ولكن ساورته الأنواء الشديدة في البحر فاضطر إلى إلقاء بضاعته كلها في البحر كغيره وعاد إلى شيزار بِخُفَّيْ حُنَيْن.

ثم سافر سائحًا إلى كرمان ويزد والعراق العجمي وركمان شاه وهمدان والعراق العربي وغيرها من الأقطار، فلبث في سياحته هذه أربع عشرة سنة وكان في كل مكان موضع الحفاوة والإكرام من العظماء والأمراء مثل محمد حسين خان وكيل الملك وإمام قلى ميرزا عماد الدولة وأولاده وسائر أهل الكمال والذوق.

ثم ملّ السياحة واتخذ طهران مقامًا له فصحبه المرحوم محمد حسين خان اعتماد السلطنة[17] وجعله مساعدًا له في الترجمة وتحرير الجريدة الرسمية، ولما كانت الجريدة الرسمية قليلة الفائدة حثَّه صاحب الترجمة على إنشاء جريدة (اطلاع) الباقية إلى الآن[18] وكان يساعده في تحرير النشرات والرسائل والكتب العلمية.

ونعني أن اعتماد السلطنة كان يهيئ مواد التأليف من الكتب وغيرها وصاحب الترجمة هو الذي يكتبها بقلمه.

وكنت تراه دائمًا متململاً متألمًا لبلاء أبناء وطنه بالمستبدين، وكان يفكر دائمًا في الإصلاح لا يبرح ذلك من مخيلته قط.

ومن الشواهد على ذلك أنه من نحو عشرين سنة كانت دبت عقارب السعاية فيه إلى الشاه ناصر

الدين بسبب ظهور بوادر هذه الأفكار الإصلاحية فأتعبوه طائفة من الزمن؛ أي حبسوه مدة مديدة إلى أن تولى المرحوم الشاه مظفر الدين فأفرج عنه، ولما استنشق نسيم الحرية أنشأ جريدة (تربيت) وهي كما لا يخفى أول جريدة حرة أسست في عاصمة إيران.
ومن خدمة هذه الجريدة أنها ولَّدت في نفوس الإيرانين الرغبة في قراءة الجرائد وكانوا إلى ذلك العهد ينفرون منها لركاكة عبارتها.

وذلك بما جذبهم به من انسجام عبارته وبلاغة أسلوبه.
ومنها أنه كان في زمن الاستبداد ينشر فيها جميع الأفكار الحرة بأسلوب لا يؤاخذه عليه القانون.
وفي الجملة أنه قضى عشر سنين في نشر جريدته كان فيها عرضة لإيذاء الأعداء والمحبين.
وفي العام الماضي أصابه مرض شديد فحلّ قواه، وقد شفي منه إلا أن صحته لم تعد كما كانت قبله، ولما كان هو الذي يتولى تحرير الجريدة وإنشاءها اضطر في آخر السنة إلى إبطالها.
ومن خدمته أيضًا اشتغاله بالتدريس والتعليم في مدرسة العلوم السياسية سبع سنين وثلاث سنين أخرى في إدارتها، ولو جمعت دروسه في تلك المدرسة من المسائل الأدبية والمعاني والبيان والبديع ومختارات الشعر وغير ذلك لكان مؤلفًا كبيرًا.
وكان للفقيد مؤلفات كثيرة طبع منها :

(1) تاريخ ساسانيان.

(2) ترجمة كتاب السياحة حول الأرض في ثمانين يومًا.

(3) كلية هندي.

(4) عشق وعفت.

(5) ريحانة الأفكار.

(6) قصة جورج الإنجليز.

وله كتب أخرى مترجمة من اللغات الأجنبية، وله شعر كثير ولكن أكثره مفقود والباقي منه يدخل في ديوان كامل.

مصطفى باشا كامل[19]
فقيد الصحافة والوطنية

ما لنا لا ننتهي من نعيٍّ إلا إلى نعيٍّ، ولا نفرغ من ترجمة مبكيٍّ إلا ونفجأ بتأبين مبكيٍّ، وما بال (أم لهيم) تلتهم من المسلمين أشهر الكتاب والسياسيين، فها هي ذي قد اغتضرت اليوم أندى الصحافيين المصريين صوتًا ، وأبعدهم في عالم السياسة صِيتًا، وأشدهم في دهماء بلده تأثيرًا، وأكثرهم وليًّا ونصيرًا، مصطفى باشا كامل صاحب جريدة اللواء العربية ومدير جريدتي اللواء الفرنسية والإنكليزية، ورئيس الحزب الوطني الذي تأسس في مرض مماته واختاره رئيسًا له مدة حياته.

قضى رحمه الله تعالى عن أربع وثلاثين ربيعًا قضى نصفها في السياسة، ونصف هذا النصف في الصحافة باذلاً فيما أخذ فيه جميع أوقاته مفرغًا فيه منتهى وجدانه وشعوره، وما زال الشعور والوجدان أقوى المؤثرات في الإنسان، وقد أعجب بخطته في اللواء جمهور القارئين، ثم تحزبت له نابتة كبيرة من المتعلمين، بل عشقه بعض طلاب الحقوق عشقًا، وملك قلوبهم ملكًا، فظهر أثر تحزبها في تشييع جنازته بمظهر غريب، ما رؤي مثله من نسيب ولا قريب، حتى أثرت حالهم في جميع المشيعين، وجذبت قلوب الناظرين، بل استعبرت المقل الجامدة، وسعرت الأفئدة الخامدة، بل كان لهم بعد ذلك سلطان على أكثر الجرائد المصرية، حتى المخالفة للفقيد في آرائه السياسية، ومن كان بينه وبين أصحابها مناصبة شخصية، بل صار لهم ظهور سياسي يرجو الجذع نائله، ويخشى القارح عقابله، ومشى في جنازته خلق كثير في مشهد لم يعهد له نظير، حمل فيه تلاميذ المدارس رايات للحداد يعلوها السواد، وقدر عدد من شهد الجنازة بخمسة عشر ألفًا، ورأى بعضهم أنهم يناهزون ثلاثين ألفًا.

كان رحمه الله تعالى مصداقًا بينًا لقوله صلى الله عليه وسلم: (كل ميسر لما خلق له).

فقد كان في سن الدراسة يحدث نفسه بالسياسة، ويمنيها بالرياسة، فيحدو به ذلك إلى مثافنة الكبراء،

ويزجيه إلى مناقشة الرؤساء والوزراء حتى فتحت له السياسة وهو في مدرسة الحقوق أبوابها، وزينت له بأن يكون طَلابها، فآثر لحبها التناوة على المذاكرة بجد وعناية، حتى ظهر أثر ذلك في الامتحان، على ما كان من اللوذعة وجرأة الجنان على أنه نال بعد ذلك شهادة الحقوق في مدرسة طولوز الفرنسية.

وكان كبير النفس، طموحًا إلى المعالي، جريء الجنان، طلق اللسان، قوي الشعور والوجدان، متلافًا للمال إذا اقتضت الحال، فهذه هي الصفات الفطرية التي أهلته لتلك الغاية الكسبية بافتراص الحوادث، ومواتاة الوقائع، ومساعدة الزمان، واستعداد البيئة والمكان.

أما استعداد البيئة ، فمنشؤه أنه كان قد سبق لهذا الشعب حركة حيوية، ونهضة اجتماعية أدبية تلتها يقظة وطنية أنتجت ثورة شعبية عسكرية، وعقب ذلك احتلال الإنكليز للبلاد؛ وإيقاف حركة ذلك الاستعداد، فسكتت الألسنة وسكنت الأقلام، وغلت الأيدي، وقيدت الأقدام، ولكن هذا الوقوف كان في الظاهر، دون ما تنطوي عليه السرائر من ضغائن مضطربة، وحفائظ مضطرمة، وأوهام مفزغة، وأحلام مزعجة، مع مجاراة الأمير توفيق للاحتلال، ومواتاته له في كل حال.

فبعد أن قضى الأمير توفيق وولي الأمير عباس دخلت البلاد في عهد جديد من الحركة الوطنية تجلت فيه كتجليات الحقيقة الكلية، فكان تجليها الأول هو التجلي العام الذي ظهر في الخواص والعوام، وكان لسانه الناطق جريدتا المؤيد والأهرام، ثم فتر التجلي في جميع الطبقات، ثم ظهر في طبقة الضباط وقتًا من الأوقات، ثم فتر طائفة من الزمان، ثم ظهر في مظهره الذي هو عليه الآن بأن نفخت روحه في الناشئين، ففعلت فعلها في غير أصحاب العمائم من المتعلمين، لأن هؤلاء لا يعرفون لهم جنسية إلا في الدين، وقد كان مصطفى كامل (رحمه الله) هو المجلي، في ميدان هذا الطور من أطوار التجلي، ثم صار داعية النابتة إلى هذه الوطنية وهاديها، أو سائقها وحاديها، وهي هي فوق المدعو والهادي، وأمام المسوق والحادي.

وقد كنت أُعجبت بما رأيت من تجلي الوطنية أول مقدمي لهذه البلاد ، فكتبت فيها مقالة في المؤيد عنوانها (الحياة الوطنية) أُعجب بها كثيرون حتى استظهرها بعض أساتذة المدارس الأميرية، ثم رأيت الدعوة موجهة إلى جعل الوطنية جنسية للمسلمين، فأنكرتها في المنار بالبرهان المبين، وأكثرت من الكتابة فيها حتى في تفسير القرآن، ولا ينبغي لي الخوض في ذلك الآن.

عرفت مصطفى كامل في السنة الأولى من هجرتي لهذه البلاد ، وكنت أَراه كثيرًا في إدارة المؤيد إذ كنت أطبع المنار في مطبعة الآداب وكان معجبًا بالمنار حتى كان يهنئني أحيانًا ببعض المقالات ،

ويقول لي: إنك قادر على خدمة الإسلام أنفع خدمة وأجلها ، ولكن الكتابة لا تكفي وحدها ، فاطلب من الشيخ محمد عبده أن يجعلك خطيبًا في أحد المساجد الكبيرة؛ فإن له نفوذًا يمكنه من ذلك ، وهو صاحبك فيما أرى ، ولو كان لي به صحبة لطلبت لك منه ذلك، ومن هذه العبارة يعلم رأيه في تأثير الخطابة.

ثم أصدر جريدة اللواء -والمنار يومئذ في أصيل سنته الثانية- فنصحت له في تقريظها بأن يتتبع ما يكتب في الجرائد الأوربية عن الإسلام ، ويترجمه لجريدته ليكون لها امتياز عن غيرها من الجرائد الإسلامية ، وأن يترك ما اشترطه من عدم إرسالها إلا لمن يدفع الاشتراك سلفًا ، فساءه ذلك ، ولكنه علم بعد التجربة أنه لباب النصيحة.

وانتقدت عليه الإرجاف بمسألة الخلافة العربية؛ إذ كان كتب أن في مصر من يسعى لها سعيها ، وبينت له وجه الضرر في ذلك الإرجاف، فكبر عليه ذلك ، وقطع المبادلة الصحافية بيننا وبينه ، وأنحى علينا بعد ذلك كثيرًا؛ لما كان عليه -عفا الله عنه- من الشدة على من خالفه ، ولو مهضومًا، ونصر من وافقه ظالمًا كان أو مظلومًا، وكان الأول من أسباب بُطْء انتشار اللواء، على ما كان فيه من مواضع إعجاب الدهماء، كالمبالغة في ذم المحتلين، وانتقاد الحكومة، ومدح الأمة، وتحامي الانتقاد عليها، والتنويه بالاستقلال، والتعجيل بطلب محو الاحتلال، ولكن اللواء صار في هذه المدة الأخيرة من أهم الجرائد المصرية وأكثرها انتشارًا.

فرحم الله مؤسسه، وعفا عنه! ولعلنا نوفق بعدُ إلى كتابة شيء عن العبرة بسيرته في حياته وموته.

قاسم بك أمين[20]

مصاب مصر بقاسم بك أمين

يموت كل يوم خلْق كثير ، فيخلفهم مثلهم ، فتمسي الأمة وتصبح وكأنها لم تفقد أحدًا.

ولكن في الناس أفرادًا امتازوا بالمزايا النادرة في قومهم ، فأولئك إذا مات الواحد منهم يشعر أهل البصيرة من أُمّتهم بأنهم فقدوا من لا يقوم مقامه غيره ، ولا يعمل عمله سواه.

ومن هؤلاء الأفراد من فقدته مصر اليوم ألا وهو قاسم بك أمين القاضي بمحكمة الاستئناف الأهلية ، ونائب رئيس إنشاء الجامعة المصرية ، ومؤلف كتابي (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) اغتالته المنية فجأةً (في 21 من هذا الشهر) فلم تنذره بمرض ولا سَقَم ، بل لم تنذر عقلاء البلاد ليعدوا لهذا الخطب عُدَّته، ويأخذوا للمصاب أُهْبَته بتوطين النفس على الصبر، وتوجيه قواها إلى الجَلَد والتجلد.

امتاز قاسم بك أمين بمعظم المزايا التي تعوز المصريين في سبيل الحياة الاستقلالية التي ولوا وجوههم شطرها.

امتاز باستقلال الفكر ، وجودة الرأي ، وصفاء الذهن ، وَسَعَة الخيال ، وقوة الإرادة ، والعدل في الحُكْم ، والوفاء في الصداقة ، والإخلاص للبلاد ، وكان مع هذا من علماء الحقوق والأخلاق والاجتماع والفلسفة العقلية ، وقد وجَّه هِمّته في السنين الأخيرة إلى فرع من فروع هذه العلوم وهو ترقية البيوت (العائلات) بتعليم النساء وتهذيبهن ، فلم يكتفِ بكتابيه فيه ، بل جعله همه الأكبر إلى أن وافته منيته ولسانه رطب بذكر تهذيب النساء وتمدينهن ، وتمني مشاركة الفتيات المصريات للفتيان في محافل العلم والأدب.

قال ذلك في خُطْبَة فرنسية أَلْقاها في نادي المدارس العليا قبل وَفَاته بساعة أو ساعتين.

كان قاسم بك أمين يعد في استقلاله وفي الحرص على ترقية بلاده من طبقة يُعَدّ رجالُها على الأنامل ، وهم أصدقاء بعضُهم لبعض، مات إمامهم وكبيرهم فَكَرَّ أكثرهم على أثره.

مات الأستاذ الإمام فتلاه صديقه علي بك فخري أحد أركان النهضة الوطنية العاملين في ترقية

القضاء والمحاكم الأهلية ، فحسن باشا عاصم المصلح في القضاء وفي المعية وقطب إدارة الجمعية الخيرية الإسلامية ، فحسن باشا عبد الرازق الذي كان في مجلس الشورى هو الثنيان، بعد البدء الذي هو الأستاذ الإمام، وهذا قاسم بك أمين خامسهم فلا غَرْوَ إذا تفاقم بالرزيئة به الخطب، وعظم على البلاد الكرب، فإنه كاد يتحقق به قول الأستاذ الإمام: إن الأمة مصابة بالعقم وقحط الرجال، فللأمة أن تتمثل اليوم بقول ابن النبيه:

والموت نقاد على كفه *** جواهر يختار منها الجياد

فقد كنا نقول: إن هذا البيت من الشعريات، وصرنا نقول اليوم: إنه من المشاهدات، ولا ننسى أن مصر فقدت أيضًا في هذه المُدّة القليلة الشيخ أحمد أبا خطوة نابغة الأزهر، وإبراهيم بك اللقاني الذي كاد يكون في آخِرِ عُمُرِهِ منسيًّا لحيلولة المرض بينه وبين العمل ، وهو في مقدمة كتاب مصر وخطبائها ومن أركان النهضة الجمالية الأولى فيها ، وكان كلا الرجلين من أصدقاء الأستاذ الإمام أيضًا فيا لَلَّهِ ما كان أشأم فقده على هذه البلاد ، فقد ذكرني بما تتابع بعده من خيار الرجال قتل عمر بن الخطاب إذ فتح على المسلمين باب الفتنة في السلطة ، فقتل بعده عثمان وعلي (رضي الله عنهم أجمعين).

كمل للأستاذ الإمام قوة الفكر والنظر، مع القدرة والمرانة على القول والعمل، وكان حسن عاصم أقوى في العمل منه (أي: من نفسه) في القول والنظر، وأما قاسم أمين فكان نظريًّا، أكثر مما كان عمليًّا، فكان يسبح في بَحْرٍ لُجِّيٍّ من الفكر، ويطير في جو واسع من الخيال، فيؤلف بين الحكم العقلية، وبين التخيلات الشعرية، فلهذا كان لمكتوبة من التأثير وقوة الجاذبية، ما جعله في مقدمة كتاب العربية، على قِلّة اشتغاله بفنونها، وتحصيله لها، وما ذاك إلا أن كلامه يشبهه في كون روحه أكبر من جسمه، ومعناه يفيض الجمال على صورته، حتى كاد يكون فكرًا مجردًا، أو خيالاً متوهمًا.

كان قاسم من الهائمين في رياض الجمال المعنوي ، فكان ذلك يرفعه أحيانًا عن عالم المادّة وما فيه النَّصَب واللُّغُوب والمصائب في المال والوَلَد والصديق ، فيهون عليه ما أصابه من ذلك ، ويفيض عليه الجَلَد والصبر، ويخيل لي أن لو طال عُمُرُهُ، وقلّ عَمَلُه، واستراح بالُه، لانتهى أَمْرُه بفلسفة عالية تظهر على لسانه، وتفيض من قلمه، فتروي أرض مصر بالحكم الجليلة، في غلائل من الشعريات الجميلة، وناهيك بما في اجتماع الحكمة والشعر، من تربية الشعور والفكر.

على أن ما في هذه الطريقة من الخطأ في الحكم قد يعسر انتزاعه ممن تمكن فيه ، فإن الفكر يتحد فيه مع الوجدان، اتحادًا يقل أن يفيد معه البرهان، لذلك كان لقاسم آراء في فلسفة الأديان، ومستقبل

الإنسان، تعد عند المنطقي من الخيالات، وهو يراها من الحدسيات أو الوجدانيات.
كان فقيد مصر اليوم من أعضاء الجمعية الخيرية الإسلامية الأولين ، ولكن خدمته لها كانت بالرأي لا بالعمل، أما العمل الذي كان يتوق إليه، ويتمنى لو يتيسر له، فهو أن يؤسس ولو بماله -إن وجد المال- مدرسة لتربية البنات المصريات على ما يحب ويرى أنه يرقي هذه البلاد.
كان قاسم كَنْزًا مخفيًّا لا يعرفه إلا أصدقاؤه ، وكان أول شيء عُرِفَ به في عالم الأدب ردُّه على الدُّوق دركور فيما كتبه مِن الانتقاد على البيوت بمصر لا سِيَّمَا مسألة الحجاب وسوء حال النساء المسلمات.
كتب الدُّوق في ذلك كتابًا باللغة الفرنسية ، فردّ عليه قاسم باللغة الفرنسية ، وقد ذكر لنا غير واحد أن عبارته في رده كانت كعبارة كُتّاب فرنسا البلغاء.
وكان قلمه في ذلك الرد يتدفق غيرةً وحماسةً ، وقد بين فيه ما للحجاب من الفائدة ، وشنع على ما في أوروبا من التبذل والتهتك وتجارة الأعراض.
وأخبرني قاسم أنه كان يومَ اطلع على ما كتبه الدُّوق دركور غافلاً عن حال النساء بمصر ، فآلمه ذلك النقد والتشنيع ، فاندفع إلى الرد بوجدان الغيرة وبعد أن شفى غيظَه، وأرضى غيرتَه بذلك عاد إلى نفسه وفكّر في الأمر ، فرأى أن كثيرًا من العيوب التي عاب الدُّوق بها البيوت المصرية صحيح في نفسه ، فبعثه ذلك إلى درس هذه المسألة قائلا في نفسه: إنه لا ينفعنا إذا كان العيب فينا أن نرد على مَن يعيبنا ونبحث عن عيوب قومه ، وإنما يجب علينا أن نبحث عن عيبنا ، فنعرِفه ونسعى في إزالته.
وطَفِقَ يبحثُ ويسأل ويفكر في حال البيوت بمصر ، ويقرأ ما كتب الإفرنج في شأن النساء ، وانتهى به البحث والتنقيب إلى تصنيف (كتاب تحرير المرأة) الذي هَزّ مصر هزةً شديدةً ، وشغل جرائدها في تقريظه ونقده زمنًا طويلاً ، وبعث همة غير واحد من حملة العمائم والطرابيش جميعًا إلى التصنيف في الردّ عليه ، وبذلك طارَ صيت قاسم بك أمين في الآفاق وعُرِفَ اسمُه في الشرق والغرب ، وعُدَّ من المصلحين الاجتماعيين.
ثم ألف كتابه (المرأة الجديدة) لتعزيز رأيه ، وتفنيد آراء خصومه ، فكان دون كتاب تحرير المرأة مادةً وفائدةً وتحريرًا وتأثيرًا على أنه فوقه صراحةً في المقصد وحريةً في القول المخالف لرأي الجمهور وميله.
وقد تولى في السنتين الأخيرتين من عُمُرِهِ الاشتغال بتأسيس (الجامعة المصرية) فلم يدخر وسعًا،

ولم يألُ جهدًا، وكان مَناطَ الأمل في إنجاح هذا العمل، وأي مصاب ترزأ به البلاد أشد من فقد رجالها عندما يتم استعدادهم، ويكمل رشادهم، وتعرف الناس قيمتهم، ويشرعون في الأعمال الكبيرة التي يرجى نهوضهم بها، وينتظر نجاحهم فيها ؟ فهذا ما ضاعف الحزن على فقيد مصر اليوم.

حزن العقلاء على قاسم لذاته ، وما تحلّتْ به ذاته من المزايا العالية، وضاعف حزنهم عليه أن كان مصاب البلاد به قريب العهد بمصابها بأصدقائه من رجال الاستقلال، وما يرقي الأمة من الأعمال، وضاعفه مرةً أخرى أن كان في الوقت الذي بدأ فيه بعمل عظيم، وأنشأت النابتة تعرف من فضله ما يعرف الكهول والشيوخ من أهل المعرفة والفضل.

يموت الرجل فيبكيه الأهل ويندبه النساء ، ولكن قاسمًا أبكى عظماء الرجال وأقدرهم على التجلد والاحتمال، وندبه مثل سعد باشا زغلول و فتحي باشا زغلول ، وإنما أرادا أن يؤبناه ، فكان تأبينهما ندبًا وتعدادًا، وبكاء ونشيجًا، أبكى معهما جميع من بلغ القبر من المشيعين، وذلك ما لم يعهد لسواه من الميتين.

وجملة القول فيه أنه يصدق عليه ما قاله هو في تأبين الأستاذ الإمام من أنه لا يوجد في الأمة من يملأ الفراغ الذي كان يشغله، فرحمه الله تعالى رحمةً واسعةً ، وأحسن عزاء أهله وأصدقائه ووطنه فيه.

مصطفى رياض باشا[21]
رئيس المؤتمر المصري
مصاب مصر بوفاة رجلها العظيم

قضى الله ولا رادّ لقضائه أن لا نفرغ من تلخيص أعمال المؤتمر المصري؛ بنشر خطبة رئيسه الختامية إلا ويفاجئنا من الإسكندرية نبأ وفاة هذا الرئيس العظيم، وطيّ سجل حياته الشريفة، ففي يوم السبت 20 جمادى الآخرة (17 يونيو) تغدى كعادته في داره برمل الإسكندرية، ونام لا يشكو ألمًا ولا سقمًا، وكان من عادته المضطردة أن يخرج من حجرة نومه على رأس الساعة الرابعة أو يتأخر عدة دقائق، فيشرب الشاي ممزوجًا بعصير الليمون، ويقابل من عساه يزوره ثم يركب إلى النزهة ويعود عند المغرب، فلما جاءت الساعة الخامسة، ولم يخرج كعادته افتقد فإذا هو ميت.

عاش عيشة شريفة. ومات ميتة هنيئة -رحمه الله تعالى- وأشهد أنني ما رأيته يائسًا من الحياة متوقعًا للموت كما رأيته في هذه السنة فقد سألته غير مرة قبل المؤتمر وبعده عن صحته، فكان يجيب بأنه لا يشكو من شيء، ثم يستدرك بقوله: (خلاص خلاص) ويشير بيده وبرأسه إلى الذهاب وقرب الموت.

هذا هو الرجل الجدير بأن يرثى ويؤبن، هذا هو الرجل الحقيق بأن يؤرخ، هذا هو الرجل الذي ينبغي أن نجعل سيرته في موضع الأسوة، وأخلاقه وأعماله في مكان العظة والعبرة، فإنه من فحول الرجال الذين تنتجهم الفطرة السليمة في بعض الأجيال، وهو حجة على أن أعظم ما يتفاضل به الناس هو جوهر النفس وصفاتها وأخلاقها، لا ما يتلقى في المدارس من مصطلحات العلوم والفنون. فإن العلم بهذه الاصطلاحات - وإن كان لا بد منه كالحرف والصناعات - ليس هو الذي يجعل الرجل عظيمًا زعيمًا بإصلاح حكومته، أو ترقية أمته، وإنما هو من الآلات التي تعين العامل على

عمله إن خيرًا وإن شرًّا، فكم من عالم حافظ لأحكام الشرع والقوانين لا يقيمها، بل يستعين بها على الفساد في الأرض، وكم من عالم بالاقتصاد يقذفه إسرافه في هاوية الفقر، وإننا نرى مصداق ذلك بأعيننا كل يوم.

إنني أدع للخطباء والشعراء تأبين نابغة مصر ورجلها العظيم، ورثاءه بما يمثل مقامه في نفوس أمته، وعرفانها لقدره وقيمته، وأذكر أحاسن أخلاقه، وغرر صفاته التي امتاز بها في عصره، وفضل بها جميع وزراء مصره.

إنني أعد له صفات وأخلاقًا يقل أن تجتمع في رجل واحد، وقد اجتمعت فيه، وهي: سلامة الفطرة وكرم الجوهر، الاستقلال في الرأي والعمل، الابتكار والتصدي للإصلاح، والإخلاص وحسن النية، العدل، حب الحق وكارهة الباطل، الشجاعة وقوة الإرادة، العفة والنزاهة، الثبات والاستقامة، النجدة والمروءة، السخاء وعلو الهمة، الاقتصاد والنظام، إيثار المصلحة العامة على المنفعة الخاصة قوة الإيمان ومراقبة الله عز وجل وهو روح الفضائل كلها.

بهذه الأخلاق والصفات كان رياض باشا كالفلك تمر عليه الحوادث، وتنتقل البلاد بحكومتها وشؤون الاجتماع والعمران فيها من طور إلى طور، وهو ثابت لا تتغير أخلاقه، وقد خدم الحكومة المصرية من عهد عباس الأول إلى عهد عباس الثاني، وذلك نحو نصف قرن.

وكان خلقه مع كل واحد من هؤلاء الأمراء واحدًا على اختلافهم في الأخلاق والآراء والسلطة المطلقة من كل قيد وكل سيطرة، والسلطة المقيدة بالقوانين ومراقبة الأجانب وسيطرتهم.

سن إسماعيل باشا لرجال حكومته وأغنياء رعيته سنة الإسراف في البذخ والانغماس في النعيم؛ فامتلأت القصور بالخمور والنساء الغربيات والشرقيات والشماليات والجنوبيات، حتى كان يكون في القصر الواحد منهن العشرات والمئات، وكان يتبع ذلك ما يتبعه من المعازف واللهو والطرب، وبقيت دار رياض باشا ممتازة بين دور الوزراء والكبراء؛ كامتياز نفسه بين نفوسهم لم يدنسها شيء من ذلك.

ثم سنت لكبراء المصريين والواجدين منهم سنة الاصطياف في أوربة، فكانت الملاهي والحانات والمواخير مكتظة بهم، والدنانير تفيض فيها من أيديهم فيضان النيل في أرضهم.

وأما رياض باشا فكان يعيش في أوربة كما يعيش في مصر عيشة الاعتدال والشرف والعفة، ومراعاة قوانين الصحة.

أخبرني في سياق حديث معه أنه لم يدخل دار من دور اللهو في أوربة ولا دار التمثيل (الأوبرة) في

باريس إلا قليلاً مع إسماعيل باشا بصفة رسمية، وأنه لم يدخل المعازف وآلات الطرب داره إلا مرتين: إحداهما في زفاف ولده محمود باشا فإنه جاري فيها رغبة أمه، والثانية إجابة لولي العهد لإحدى الدول الكبرى (أظنه ولي عهد إنكلترة) فإنه زاره زيارة رسمية؛ إذ كان رئيس الحكومة واقترح عليه أن يسمعه الموسيقى الوطنية، فلم تسعه إلا إجابته.

ولا يحسبن القارئ أن هذا الوزير كان يعيش عيشة القشف والخشونة، كلا إنه كان متمتعًا بجميع الطيبات بالسعة مع الاعتدال وحسن النظام والشرف كما يليق بمقامه العظيم، ولهذا بلغ الثمانين وهو متمتع بصحة بدنه، وسلامة حواسه وعقله، يعرف ذلك من كان يلقاه مثلنا، وظهر ذلك للجمهور في رياسته للمؤتمر التي كانت خاتمة أعماله الطيبة، فقد كان يجلس عدة ساعات في اللجنة التحضيرية وفي المؤتمر العام لا يتحرك حركة غير عادية، وذلك ما تقصر عنه عافية كثير من الشبان.

وكان هو الضابط بعقله ونفوذه المعنوي لسير المؤتمر ومناقشات أعضائه، لولاه لخشي من تنازع الأحزاب فيه أن يجر إلى الفشل، فقد تحدث الواقفون على خفايا الأمور أن بعض أصحاب الأثرة والأنانية كانوا يبغون ذلك؛ لأنهم لم يكونوا هم الداعين إلى المؤتمر والقائمين به، وقد عرف من شنشنتهم مقاومة كل خير يقوم به غيرهم، ويذمونه وينفرون منه كما نفروا الناس عن الجامعة المصرية وعن جماعة الدعوة والإرشاد، على أنه لولا قبوله لرياسة المؤتمر لكان محل الريبة عند الإنكليز وسائر الأوربيين، ولقاوموه خشية أن يجعله أصحاب الأثرة مظاهرة سياسية تخشى فتنتها، ولا تؤمن مغبتها، وقد صرحت الجرائد الأوربية بما يثبت هذا.

قلنا: إن رياض باشا كان مستقلاً في رأيه وإرادته وعمله، لم يعبث باستقلاله نفوذ الخديويين، ونقول أيضًا: إنه لم يعبث باستقلاله نفوذ الاحتلال الذي تصرف كما يشاء في تصريف من عداه من نظار مصر فمن دونهم من الرؤساء؛ ولذلك لم يرض البقاء في الوزارة على عهدهم، بل رأى تركها أشرف من ترك استقلاله الذاتي، ولم يكن فيما عارضهم فيه من المداخلة في أعمال الحكومة الداخلية (دون الاحتلال نفسه) طالب شهرة ولا منفعة، بل كان عاملاً بما يعتقد أن مصلحة البلاد لا تقوم إلا به، مخلصًا لها فيه، ولهذا أثنى عليه لورد كرومر كغيره من رجال أوربة العارفين بالشؤون المصرية.

أدركنا هذا الرجل وقد شبع من جاه الدنيا وروي، فلم يكن كثير المبالاة بمدح ولا ذم، وهو الآن أغنى عن المدح والذم وأبعد عن الانتفاع به أو التأذي منه، فغرضنا مما نكتب عنه العبرة والحث على التأسي والقدوة.

لا نفعه ولا سرد مسائل تاريخه، عسى أن يستفيد منه من لهم بصيرة في تربية أنفسهم أو تربية أولادهم إن كان وقت تربية أنفسهم قد فات.

يظن كثير من الناس أنهم يربون أولادهم ويعلمونهم؛ ليكونون رجالاً عظامًا، وإنما كانوا ظانين واهمين؛ لأنهم لا يعرفون ما هي العظمة الحقيقية، وما هو الطريق الموصل إليها، يظنون أن العظمة في المناصب الكبيرة ذوات الرواتب الكثيرة، وألقاب العزة والسعادة، أو العطوفة والدولة، وإن كان صاحبها عاطلاً من الاستقلال عاريًا من الفضيلة، كلاًّ على أولي السلطان والقوة، أينما يوجهوه لا يأت بخير، وإن الطريق الأدنى إليها هو أخذ ورقة الشهادة الدراسية من مدارس مصر، والطريق الأعلى أخذ ورقة مثلها من مدارس أوربة، وقد أخطأوا في الأمرين؛ فليست العظمة الحقيقية في المناصب العليا، وإن من الناس من يفضحه منصبه، ويظهر فساده ومهانته، وليس الطريق إلى هذه المناصب هو الشهادة الدراسية وإن كانت الشهادة شرطًا للاستخدام في الحكومة، وإنما يكون الإنسان عظيمًا بجوهر نفسه وعقله، وعلو أخلاقه وآدابه، فإذا نال العاقل الزكي النفس الكريم الأخلاق منصبًا كان هو الذي يشرف المنصب بالاستعانة به على الإصلاح والنفع، فإن كان مع ذلك واسع العلم، كان علمه أكبر عون له على أعماله النافعة، وإن كان لم يؤت من العلم إلا قليلاً هداه عقله وأخلاقه إلى الاستعانة بأهل العلم، فجعل علم غيره آلة له وعونًا على الإصلاح الذي يريده.
على حين يبعد العالم الفاسد الأخلاق عنه أهل العلم، ويصطنع أهل الجهل، فيضر الناس ويمنع غيره أن ينفعهم، فالعلم لفاسد الأخلاق كالسلاح في يد المجنون.

(للترجمة بقية)

((يتبع بمقال تالٍ))

فقيد مصر

مصطفى رياض باشا[22]

(2)

قلنا: إن رياض باشا فاق الأقران، وكان من نوابغ الزمان، بفطرته الزكية، وأخلاقه الشريفة، وإن من تلك الأخلاق والسجايا الاستقلال في الرأي والعمل، والابتكار والتصدي للإصلاح... إلخ.

كان هذا الرجل يعمل في عهد إسماعيل باشا وما قبله ما يمكنه أن يعمله من الإصلاح ومنع الظلم، حتى كان يعرض نفسه للخطر وينقذه الله تعالى منه بإخلاصه، واعتقاد أميره أنه لا يستغني عن مثله في حكومته، وقد جمع إسماعيل مرة كبار رجاله واستشارهم في وضع ضريبة جديدة فوق تلك الضرائب الكثيرة، فما منهم إلا من أظهر الاستحسان وأبدى رأيه في كيفية وضعها وطريق تنفيذها، إلا رياض باشا فإنه ظل ساكتًا حتى سأله إسماعيل لم لم يتكلم ؟ فقال: إن عندي كذا فدانًا عليها من الضرائب كذا، وهو يزيد عن غلتها بقدر كذا، فأدفع هذه الزيادة من راتبي، فالذي أراه أن حال الأهالي لا تحتمل أكثر مما عليهم، ولما أمرهم الأمير بالانصراف طفق بعض الباشوات يلكزون رياضًا قبل أن يبرحوا الباب، ويقولون: ما لك تعرض نفسك للهلاك ؟ فقال لهم بصوت جهوري: إنني أرضى أن أعرض نفسي للهلاك ولا أعرض أهل البلاد كلهم له، وله وقائع متعددة من هذا القبيل؛ ولذلك قال لورد كرومر: إنه هو الذي تجرأ على تعليق الجُلجُل في عنق الهرّ، يشير بهذا إلى المثل العربي الذي نظمه (لافوتين) الإفرنجي فيما نظمه من الحكم والأمثال؛ ولما عز على فقيد مصر العمل بالاستقلال في آخر عهد إسماعيل، وتعذر عليه الاتفاق معه، هاجر من مصر إلى أوربة، وعزم على الإقامة فيها طول حياته أو تتغير الحال، ولم يعد منها إلا بعد سقوط إسماعيل، وطلب توفيق باشا له ليتولى رياسة حكومته الجديدة.

سقط إسماعيل باشا عن عرشه والبلاد على شفا جرف هار مما برّح بها الظلم وما نشأ عنه من الفقر

والذل، والغرق في الدَّين بأخذهم المال من الأوربيين بالربا الفاحش أضعافًا مضاعفة، فأراد توفيق باشا أن يري البلاد عصرًا جديدًا فوسد الأمر إلى رياض باشا؛ لعلمه بأنه رجل الهمة والإقدام والرغبة الصادقة في الإصلاح.

قال الأستاذ الإمام فيما كتبه من أسباب الثورة العرابية في سياق ذكر وزارة الفقيد وتأثيرها في البلاد ما نصه:حفظ رياض باشا لنفسه إلى رياسة النظارة نظارة الداخلية أصالة ونظارة المالية نيابة مؤقتة، كان ولا يزال رياض باشا يألف إدارة الأمور الداخلية؛ لعلمه أنها روح السلطة الحقيقية في الحكومة، وهي التي تشرف على أحوال الأهالي مباشرة وتتصل بأهم شؤونهم، فيهمه أن يكون هو الآخذ بزمام تلك الإدارة؛ اعتقادًا منه أن ذلك يمكنه من أن يعمل بنفسه ما هو خير للعامة.

أما نظارة المالية فقد استضمها إلى وظائفه موقتًا؛ لأن المشاكل المالية هي التي كانت أهم شيء يستدعي دقة الفكر وشدة الالتفات، فأراد أن يكون المباشر لجميع المخابرات التي تحصل فيها خصوصًا وله بها إلمام سابق؛ لأنه كان النائب عن الحكومة في لجنة التفتيش العليا.

قبض رياض باشا على إدارة الداخلية بيد شديدة وعزم ثابت.

وأول شيء توجهت عزيمته إلى محوه بسرعة تامة التسخير الشخصي.

ربما يسأل سائل ما هي السخرة الشخصية: التسخير في البلاد المصرية كان على نوعين: التسخير باسم المنفعة العامة؛ وهو إلزام الأهالي بالعمل مجانًا بلا أجر فيما لا بد منه لمصالح العامة؛ كإقامة الجسور على الأنهار العظيمة، وحفر الجداول الكبيرة التي تستمد المياه منها بلاد كثيرة، وتشييد كل بناء يقام بأمر الحكومة.

والنوع الثاني هو إلزام الأعلياء لمن دونهم بالعمل في منافعهم الخاصة بدون أجرة، ويسومونهم مع ذلك آلام الضرب والإهانة إن لم يؤدوا ما فرضوه عليهم من تلك الأعمال الخاصة، أو أدوه وقصروا في تطبيقه على ما في نفس وكلاء أولئك الأعلياء، أو أتوا به كما ينبغي وكما يريد الوكلاء، ولكن كان الوكيل أو الناظر أو الخولي يشتهي أن يضرب لمجرد التلذذ بالضرب، ولا يستثنى من ذلك موظف إلا أن يكون في نهاية العجز الطبيعي، بحيث لا يستطيع أن ينطق بكلمة (أرميه) [23] أو أن يحرك الكرباج بيده.

(كان كل ذات من الذوات الفخام له بلاد تتعلق به، يستخدم سكانها في أراضيه بأشخاصهم وماشيتهم في جميع مواسم الزراعة، على شريطة أن يحمل العاملون أزوادهم وأقواتهم وأدوات العمل وغذاء ماشيتهم من ديارهم إذا كانت البلاد قريبة، فإن كانت بعيدة سمح لهم بغذاء الماشية فقط دون غذاء

الآدميين.
ولكن لا يسمح لهم بأماكن تقي من البرد والمطر أيام الشتاء تبيت فيها العملة الذين يعملون له مجانًا، بل كانوا يبيتون كراديس في (الدوار) تحت السماء، كما لا يسمح بمستظل يقيهم الحر أيام الصيف، فالقر يقتلهم شتاء والحر يذيبهم صيفًا، والذوات الكريمة تجني ثمار أعمال الموتى وتتلذذ بما تطعم من أيديهم.
وهكذا كان يصنع أصاغر موظفي الحكومة وعمد البلاد كل على حسب اقتداره في التسخير؛ العالي يسخر من دونه إلى أن ينتهي كل استعباد وتذليل إلى أدنى طبقة من الشعب.
ولا أريد بيان ما في هذه الحال من الأضرار المادية والعقلية والأدبية، فكل من استحق أن يسمى إنسانًا يعلم أنها كانت ضربة قاضية على الحياة الوطنية والوجود الملي، وقاتلة للشعور بالاستقلال الإداري الخاص بالنوع الإنساني، وزد على ذلك أنها ما كانت تدع للفلاح وقتًا يعمل فيه بأرضه، فكانت أوقاته موزعة بين السخرة العمومية والسخرة الخصوصية، فأوقات عمله لنفسه كانت خلسات بين هذه الأوقات، فكيف كان يعيش؟ لا أدري كيف بقي الفلاح حيًّا مع هذا، لولا ما عرف من صبر المصريين على أن يعيشوا؟ ساعد رياض باشا على محو هذه الجريمة ما كان يظهر من ميل الجناب الخديوي إلى العدل والتعفف عن دنيء الكسب؛ فلذلك شدد ناظر الداخلية في أوامره إلى المديرين وسائر المأمورين أن لا يأتوا عملاً من ذلك، وأن لا يسمحوا لغيرهم أن يأتيه، وأظهر من الشدة في ذلك ما أخاف رجال الحكومة وغيرهم، فأخذ على أيديهم وأيدي الذوات، بل وعلى أيدي الأغلب من عمد البلاد، وفي مدة قريبة لم يبق أثر للتسخير الشخصي إلا في بعض الأطراف على طريق الخفية والكتمان ونوع من الشفقة؛ خوفًا من الحاكم القوي، وبالغ رياض باشا في ذلك حتى أنه آخذ مدير القليوبية مرة في إرسال بعض أشخاص من أهاليها؛ لحفر الترعة التوفيقية التي تصل إلى أراضي القبة لأنها خاصة بالخديو، ووبخ المدير توبيخًا شديدًا، وعرض الأمر على الخديو فاستحسنه، ولكن لم يذهب بلا أثر في نفسه، فإن المبالغة في العدالة إلى هذا الحد مما لا يلتئم مع السلطة العليا في مصر مهما كانت منزلة الحاكم من الكمال.
فانظر ماذا يكون في نفوس أكابر رجال الحكومة السابقين، بل والحاليين من رياض باشا بعد حرمانهم من منافع أبدان الرعية بغتة بلا تدريج؟ وبعد ذلك شرع رياش باشا في إجراء ما كانت أشارت به لجنة التفتيش العليا (من الأجانب) من إبدال نظام السخرة بنظام آخر أضمن للعدل؛ في توزيع ما يلزم للأعمال اليومية من منفعة أو عمل على المنتفعين بها، وجمع لذلك كثيرًا من الأعيان

للاستعانة برأيهم، ولكون الأمر غريبًا على أذهانهم لم يهتدوا فيه إلى وجهة الصواب فانصرفوا، ووضعت الحكومة نظامًا حسبما هداها إليه رأيها، يقضي بالتخيير بين دفع بدل نقدي وبين القيام بالعمل البدني، وأخذ في تنفيذه ولكن حالت دونه صعوبات كثيرة، فمن الأغنياء من دفع البدل عن رجاله، ثم أكرهوا بعد ذلك على العمل بأبدانهم، ومن الناس من أراد دفع البدل النقدي، فلم يقبل منه وألزم بأن يعمل بنفسه؛ وذلك لعدم التعود على إيفاء الأعمال بطريقة المقاولات، ومع ذلك فقد خف الويل بهذا النظام عن كثير من الفلاحين، وشعروا بأن أوقاتهم ملك لهم، ولكن كانوا يظنون أن أبدانهم وأزمان حياتهم وهبت لهم من جانب ملاكها وما كان يخطر ببالهم أنها كانت مسلوبة منهم ثم ردت إليهم؛ ولذلك كنت تراهم يتعجبون، وينقلون أخبار هذه القصة بالدهشة والاستغراب، كأنه قد رسخ في نفوسهم أن ليس من شأن الحاكم أن يعدل، فإن طبيعة الحكم تقضي بالظلم.

وهنا أورد حادثة تدل على شدة حرص رياض باشا في ذلك الوقت على أن تكون أعمال الفلاحين منحصرة فيما يعود عليهم بالمنفعة العامة والخاصة: هطل مطر غزير نشأ عنه سيل جرف جانبًا من جسر سكة حديد من خط السويس، فكتبت مصلحة سكة الحديد العمومية إلى مدير الشرقية وكان فريد باشا، تستنهض همته في إرسال مئتي شخص لإصلاح الجسر، فأمر المدير بإرسال العدد المطلوب في الحال وأصلح الجسر، ولم تأت مصلحة سكة الحديد ولم يفعل المدير إلا بعض ما هو معهود في البلاد، وما لم يكن يعده الأهالي شيئًا نكرًا، خصوصًا وقد كان الناس يفهمون أن أعمال السكك الحديدية من الأعمال العمومية، فلما بلغ الخبر رياض باشا استدعى أولاً فريد باشا وعنفه أشد التعنيف مع ما هو معلوم بينهما من المحبة وشدة القرابة، ولم يكتف بذلك، بل أمر بكتابة منشور عمومي لجميع المديرين، فكتب المنشور عدة مرات، وكلما قرأه لم يجده وافيًا بغرضه؛ لعدم تعود الكتاب على التنويه بشأن الأهالي إلى الدرجة المطلوبة له فيمزقه ، وآخر الأمر دعاني لتحرير ذلك المنشور فكتبته وذكرت فيه الحادثة، وأتذكر منه هذه الفقرة: (وليعلم المديرون والأهالي جميعًا أن الأهالي ليسوا عبيدًا لأحد، ولا لأحد عليهم سلطان إلا فيما يتعلق بمنافعهم عامة أو خاصة) وهذا تصريح من رئيس الحكومة النائب عن الجناب الخديوي بإعتاق الأهالي من عبودية التسخير، بل من العبودية للحاكم على وجه الإطلاق، وهذا مما لم يعهد له مثل من قبل.

ا.هـ المراد هنا.

(المنار)

هذا ما كتبه الأستاذ الإمام في إبطال رياض باشا للسخرة، وفيه ما ترى من الفائدة التاريخية والعبرة.

وسنذكر في النبذة التالية ما كتبه من أعماله الإصلاحية الأخرى؛ كتوزيع مياه النيل بالقسط لري الأرض ومساواته فيها بين الرؤساء والفلاحين، وإلغاء الضرائب الكثيرة، وإبطاله استعمال الكرباج، ومنعه الحبس لتحصيل الحقوق الأميرية والشخصية، وغير ذلك من أعماله الجليلة.

((يتبع بمقال تالٍ))

فقيد مصر[24]

مصطفى رياض باشا

(3)

نقلنا في الجزء السابع (الماضي) ما كتبه الإمام في كتابه (أسباب الثورة العُرابية) عن إبطال رياض باشا للسخرة ، ووعدنا بأن ننقل عنه شيئًا آخر من أعماله الإصلاحية ، وها نحن أولاء ننجز الوعد، فنقول: كتب الأستاذ عقب ما تقدم ما نصه:

العدل في الري :

واهتم رياض باشا بأن توزع مياه النيل بالقسط، وقد كان الفقراء لا ينالون من النيل أيام هبوطه إلا فضلات ما يبقى عن ري أراضي الأغنياء، فوضعت نظارة الأشغال العمومية بعض الروابط، وشددت المراقبة في تنفيذها، فأصاب التوزيع جانبًا من العدل، غير أن عادة بعض موظفي الهندسة حالت دون الغاية المطلوبة، خصوصًا مع تعود الأهالي على السكوت عن ذلك وعدم الشكوى منه؛ ظنًا منهم بأن الدعاء لا يجاب في أرض مصر على ما يعهدون ، ولكن أتذكر أنني ذكرت لرياض باشا يومًا حالة قسم الحاجر في مديرية البحيرة وأن الماء محجوز عنه، وقد كادت تتلف زراعة القطن فيه، فلم تمض بضع دقائق حتى كتب لنظارة الأشغال بتحقيق السبب، وبعد يومين أطلقت المياه، وأوخذ المتسبب في حجزها، وهكذا كان شأنه عند سماع أي شكاية من هذا القبيل.

وإني أتذكر حادثة عُدّت في وقتها من أغرب الحوادث؛ ذلك أن بولينو باشا كانت له آلة بخارية رافعة للمياه على جدول عظيم بجوار دمنهور، وكان يعطي الماء للأهالي بالأجرة، وكان يستمر في إدارة وابوره إلى ما بعد ارتفاع الغيطان وتزاحم المياه على فم الترعة؛ ليستزيد من الأجور، وكانت

تلك عادته من سنين، والأهالي متعودون على هذا الظلم؛ لكثرة الشكوى وعدم الإشكاء.
ففي أول نظارة رياض باشا كانت قد ارتفعت مياه النيل، ومن المعروف أن المياه في شهر سبتمبر تعلو فوق مستوى أغلب الزرع في مصر، فركبت المياه فم الجدول، ووابور بولينو باشا مستمر الدوران والمياه محجوزة عن الأهالي إلا أن تكون من مياه بولينو باشا، فشكوا للمدير لإحساسهم بفائدة الشكوى إذ ذاك، وعرض المدير شكواهم على رياض باشا فأمر بفتح الترعة ، وعند التنفيذ جاء رجال بولينو بالسلاح لمقاومة المنفذين، وأشعر رياض باشا فأمر بفتح الترعة ولو بقوة السلاح، ففتحت تحت حماية العساكر المصرية.
كانت مديرية البحيرة من أسوأ المديريات حالاً من جهة الري وأعمال التطهير، فكان أهاليها يسامون العذاب أيام الشتاء في تطهير ترعة الخطاطبة، ويجلب من سكان المديريات الأخرى عدد عديد لمساعدتهم؛ ليستحصلوا على قليل من الماء ، لا يكفيهم بعد شدة العناء ، وكثيرًا ما فتك الموت فيهم أيام العمل لشدة البرد ، فاهتم رياض باشا ليخفف المصاب عنهم، وأنشأت نظارة الأشغال العمومية نظام شركة ري البحيرة، وكان يوم البدء بإدارة آلاتها يومًا معروفًا، احتفلت فيه الحكومة احتفالاً عظيمًا، حضره كثير من كبار الموظفين والأجانب، وشرب فيه رياض باشا كأسًا من ماء النيل على ذكر نجاح عمل يتعلق بمنفعة النيل.

إلغاء الضرائب :

ولم تمض بضعة أشهر على تعيين هذه الوزارة، حتى ألغي نيف وثلاثون ضريبة من الضرائب الصغيرة التي كانت أخرت بالمصنوعات، وأوقفت حركة الأعمال التجارية والصناعية الخاصة بالأهالي، وأساءت حال المزارعين ، وزيد مئة وخمسون ألف جنيه على ضريبة الأطيان العشورية؛ تعويضًا لما فات بإلغاء تلك الضرائب ، ولا يخفى أن أغلب هذا النوع من الأطيان في يد الأغنياء، فقد خف بذلك عن الفقراء ما ثقل على أهل الثروة، وهو مما لا يمحى أثره من نفوس الفريقين.
وذهب الأفواج من التجار والصناع إلى سراي الإسماعيلية؛ ليعلنوا شكرهم للجناب الخديوي على إلغاء تلك الرسوم القاتلة للأعمال في مصر، وكان لذلك احتفال عظيم.
ولكن الذوات الكرام لم يحتفلوا له، ولم ير لجماهيرهم سواد حول السراي ولا داخلها؛ إلا في أيام التشريفات والمقابلات التي ينحصر موضوع الكلام فيها في حالة الجو وحره وبرده واعتداله، ولا

يذكر فيها أمر إلغاء الضرائب، وربما ذكر فيها استحسان إبقائها أو الزيادة فيها على أن يكون ذلك على الفقراء.

ثم عفت الحكومة عما عجزت عن تحصيله من الضرائب والرسوم المتأخرة لغاية سنة 1876، ورفعت بذلك المطالبة به عن الأهالي، وفرح به كثير من الأغنياء الذين ظهروا بمظهر العجز، وراوغوا في دفع الضرائب فيما سبق، وساعدتهما الحظوة على الإمهال إلى ذلك الوقت.

ميزانية الحكومة ونظام الجباية :

ثم نظم برنامج الإيراد والمنصرف من مال الحكومة (ميزانية)، وشكلت لجنة لسماع شكايات المطالبين بالضرائب وإنصافهم ، ووضع نظام التحصيل في الأوقات المعينة حسب على مواسم الزراعة، وعرف الفلاح ما له وما عليه ، وهذه الأمور أجريت طبقًا لما كانت أشارت له لجنة التفتيش العليا، كما صرح به رياض باشا فيما كتب به إلى لجنة صندوق الدَّيْن.

ولما نظمت أوقات التحصيل على حسب مواسم المحصول، نما في الناس الشعور بأن الحكومة نوع محدود من النظام، وأنها لا تريد منهم إلا مبالغ معينة ، وليس من شأنها أن تشغل الأهالي كما تشغل الماشية بدون استبقاء شيء في أيديهم، وبدأوا يوقنون بأن ما زاد من الضرائب المحددة فهو لهم خصوصًا، بعد ما صدرت الأوامر الصريحة بأن لا ضريبة توضع إلا بنظام معروف، تراعى فيه المصالح وتبين فيه الأسباب.

ثم ظهر عقب ذلك مبدأ المساواة بين الأغنياء والفقراء وبين الأجانب والوطنيين ، فقد كان الغني أو الذات الكريمة من ذوات الحكومة يماطل في دفع الضرائب من سنة إلى سنة، وربما عوفي من دفعها بعد ذلك، ويوزع ما لم يدفعه على أراضي جيرانه من فقراء الأهالي ، وهكذا كان شأن الأجانب بعد ما يأخذون الأراضي من مالكيها؛ إيفاء لديونهم، أو يشترونها بالثمن البخس عند اشتداد الضيق على الفلاح وإلحاح الكرباج على بدنه بدفع ما لا يلزمه، وليس في يده منه شيء.

كانوا يماطلون في دفع الضرائب، وما أبوا دفعه يوزع بغير حق على المساكين الذين لا حامي لهم.

أما بعد مضي أشهر من نظارة رياض باشا، فقد صدرت الأوامر مشددة بتحصيل ما على الأجانب والذوات بالطريقة التي يجري بها تحصيل ما على الأهالي بدون مراعاة، وقد نفذت الأوامر بعدما لاقت صعوبات كثيرة ، وظهر عند التنفيذ أن بعض الأغنياء والأجانب كان في ذمته ضرائب سبع سنين، فحصلت منه بقوة الحكومة ، وهذا مما لم يكن يسمع به من قبل.

ثم صدرت أوامر في ابتداء سنة 80 بإلغاء لائحة المقاولة، وإعفاء الممولين من دفع ما بقي منها.
ولكن مع إلغاء الامتياز الذي اكتسبه من دفعها جملة، وبعض الامتياز الذي ناله من دفع بعضها، وفرح بذلك قوم وسيء به آخرون، وسنذكر شيئًا من أثر ذلك فيما بعد.

إبطال الكرباج ومنع الحبس لتحصيل الحقوق :

وصدرت الأوامر بإبطال استعمال الكرباج بتحصيل الأموال الأميرية، وعجب كثير من الناس من ذلك، وقالوا: كيف يمكن أن يحصَّل مال من الفلاح بدون ضرب ؟ وأنكرته نفوس كثير من المديرين، وظنوا أن قد هدم ركن عظيم من سلطان الحكومة على قلوب الرعية، ولكن لم يمض إلا قليل حتى ظهر الخزي على وجوه القائلين بأن الفلاح المصري لا يؤدي ما عليه إلا بالكرباج، وأخذ الممولون يتسابقون إلى دفع ما عليهم حتى قبل الأجل؛ خوفًا من ضياع النقد عند حلول الآجال المعينة.
وهكذا صدرت الأوامر مشددة في عهد رياض باشا بمنع الحبس؛ لتحصيل الحقوق، سواء كانت أميرية أو شخصية، وقد لاقى تنفيذ هذه الأوامر مصاعب ومقاومات؛ لتمكن الميل إلى الظلم في نفوس أغلب المأمورين.
لكن رغمًا عن كل ذلك فقد ظهر أثره ظهورًا بينًا.
ولم تأت آخر مدة رياض باشا حتى محي أثر الحبس لتحصيل الحقوق إلا ما ندر ولم يكن يعرف ، ومن غرائب آثار التعود على الظلم وعلى رؤيته ملازمًا للسلطة في مصر؛ أن الذين حفظت أبدانهم من الضرب والجلد وأرواحهم وأجسامهم من الحبس في سبيل اقتضاء الحقوق، سواء كانت للحكومة أو للأفراد، كأنهم يعدون تلك الأوامر مخالفة لما يجب أن يعاملوا به ، وأن لا يفيد فيهم إلا الكرباج، كما لا يزال قوم منهم يقولون بذلك إلى اليوم ، وكانوا يهزءون بتلك الرحمة.
اللهم إلا الذين لمع في عقولهم روح الفهم ووصل إلى أبصارهم شعاع الإحساس؛ بما للإنسان من حق التكرمة التي خصه الله بها.
ا.هـ المراد.

هذا ما ننقله من صفحات هذا التاريخ الصادق؛ للاستدلال به على أن رياض باشا كان من الرجال المصلحين في إدارة الحكومة ، وإن لنا لمجالاً واسعًا في الاستدلال على سائر ما ذكرنا من

أخلاقه وصفاته الحميدة.

((يتبع بمقال تالٍ))

الشيخ علي يوسف 25

مصاب مصر و الصحافة العربية الإسلامية

بالشيخ علي يوسف -رحمه الله تعالى-

في صبيحة يوم السبت الخامس والعشرين من هذا الشهر ذي القعدة الحرام أكتوبر، فجعت مصر بأكبر سياسي فيها، وأشهر كاتب من كتاب صحفها، النابغة العصامي الكبير، صديقنا الشيخ علي يوسف منشئ جريدة المؤيد أشهر الجرائد الإسلامية في العالم وأعلاها قيمة، وشيخ السادات الوفائية بمصر، فاهتز القطر المصري لوفاته، واضطرب اضطرابًا ظهر أثره في جمهور العقلاء والمفكرين، وشعر بأنه فقد ركنًا من أركان حياته السياسية والاجتماعية يعز أن يرى له خلفًا، أو يجد عنه عوضًا، وأن الفراغ الذي حدث بفقده واسع يعز أن يوجد من يملؤه، وسيشارك القطر المصري في مصابه سائر الأقطار الإسلامية ولا سيما العربية.
حسب الرجل نبوغًا وفضلاً أن يوصف في قومه ببعض أسماء التفضيل، ويكون وصفه بها حقًّا لا مراء فيه، وفي مصر كثير من الكتاب والمشتغلين بالسياسة، ولا خلاف بين العارفين والمنصفين في كون الفقيد أوسعهم في الشئون المصرية خبرة، وأسدّهم رأيًا، وأمضاهم عزمًا، وأكتبهم قلمًا، وإنك لتجد العقلاء المفكرين يجيلون الآن قداح الفكر، ويراجع بعضهم بعضًا الرأي، ويتساءلون بينهم: من يخلف عليًّا في سياسته المصرية الإسلامية ؟ فلا يكون الجواب إلا: يجب التفكير والبحث.

كيف نبغ هذا الرجل في مصر بين ألوف ممن نالوا ما لم ينله من شهادات المدارس الدينية والمدنية، ونشئوا في بيوت أكبر من بيته جاهًا وأكثر مالاً ؟

نفس عصام سودت عصاما *** وعلمته الكر والإقداما

إن المدارس لا تعطي أبناءها نبوغًا، ولكنها تعطيهم آلات للعمل وسلاحًا للجهاد أو تدلهم على ذلك، وما كل من وجد الآلة يحسن العمل، ولا كل من يحمل السيف والقنا يصيب بهما مقاتل العدو، وبيوت الجاه والمال لا تستطيع أن تُكَوِّنَ عظماء الرجال، وإنما ينبغ النابغون باستعدادهم الذاتي وصفاتهم النفسية، وقد أودع الله في فطرة فقيدنا حظًّا عظيمًا من هذه الصفات والسجايا، أعلاها قوة الإرادة وصحة العزيمة، والإقدام مع الروية، والثبات والصبر، والبصيرة في العواقب، وحب معالي الأمور واحتقار سفسافها، وقد دفعه استعداده للظهور إلى التطفل على الصحافة من غير استعداد لها بتعليم معلم، أو تربية مرب، فأقدم غير هيَّاب ولا وَكِل، وعلم نفسه الكتابة بالتمرن والعمل، حتى صار طفيلي الكتابة هو صاحب مائدتها الكبرى في وطنه، وما تلك المائدة إلا المؤيد ويا لها من مائدة كان يفضلها على غيرها أكبر كتاب العصر، فيرغبون أن يكونوا طهاة يهيئون لها الطعام الطيب تارة، وضيوفًا يأكلون ما طاب لهم مما يطبخه صاحبها أو يختاره من طيبات غيره.

وإن شئت قلت: كان المؤيد مدرسة جامعة عليا يلقي فيها أكبر علماء المسلمين وكتابهم الدروس العالية في العلم والدين والسياسة والاقتصاد والإدارة في سائر المعارف الاجتماعية، فكان من أساتذتها وأعوانها الأستاذ الإمام والشيخ عبد الكريم سلمان وأمين باشا فكري وحسن باشا عاصم وسعد باشا زغلول و قاسم بك أمين وعلي بك فخري والمويلحي والهلباوي وغيرهم من الكتاب والمفكرين، وكان أكبر أنصارها ومروجيها وزير مصر العظيم مصطفى باشا رياض، وناهيك بمن كانوا يتعاهدونها برسائلهم من سائر الأقطار الإسلامية.

وأما الذين تربوا فيها، وتعلموا الكتابة والسياسة بإرشاد فقيدنا اليوم، فكثيرون جدًّا، ومن أشهرهم مصطفى باشا كامل، ومحمد أفندي مسعود وحافظ بك عوض.

مولده ونشأته ومؤيده:

ولد الفقيد في بلدة صغيرة تسمى بلصفورة في مديرية جرجا سنة 1280هـ وبعد تعلم مبادئ القراءة والكتابة مال إلى طلب العلم فابتدأ بالطلب على شيخ من شيوخ العلم والتصوف في بني عدي كان له عناية كبيرة بتربية أخلاق تلاميذه قلما يلتفت إلى مثلها أمثاله في هذا الزمان، ثم في سنة 1299هـ جاء الأزهر للمجاورة فيه فأقام فيه ثلاث سنين أو أربعا يشتغل كما يحب، وعني من نفسه بالأدب ونظم الشعر، وفي السنة الخامسة ملَّ الطلب، وجنحت نفسه لما هي مستعدة له من العمل، فأنشأ مجلة الآداب بالاشتراك مع الشيخ أحمد الماضي، ثم استبدلا جريدة المؤيد بمجلة الآداب سنة

1307 ثم استقل الفقيد بها بعد ذلك، فرباها بعزمه وحزمه وثباته وذكائه، وربته بما أدخلته فيه من الحوادث السياسية والمدنية، وما جعلت له من الصلة بكبار رجال الحكومة وسمو الأمير والتعاون مع كبار الكتاب والمفكرين، فلولا صبر الشيخ علي وثباته وفطنته لما قوي المؤيد على ما لقيه من المقاومة وتحامل الاحتلال والأجانب وناهيك بنفوذهم في مصر، ولولا المؤيد لما كان الشيخ علي ذلك السياسي المحنك والكاتب القدير، فإنه لم يتعلم الكتابة والسياسة في بني عدي ولا في الأزهر، وما ثم من كتابة ولا سياسة، فظهر بهذا أن الرجل قد نبغ بأخلاقه وسجاياه التي دفعته إلى الإقدام على العمل، وأقدرته على مصارعة الحوادث، ومقارعة الحوادث، حتى صار أشهر رجال السياسة في قومه، وأقدر كتابها في وطنه، وعرف اسمه الشرق والغرب، فتقدم إلى الأمام، وتخلف أصحاب الشهادات العالية في العلوم القديمة والحديثة فصاروا وراءه في هذا الميدان، فبهذا يعلم القارئ أن الرجل دخل في عالم العمل وهو لا يحمل من آلاته الصناعية والفنية شيئا يذكر، ولم يمنعه ذلك أن يبذَّ حاملي أحدث الآلات الصناعية والفنية، وإنه خاض معامع الجلاد في الجدال وهو أعزل، فجدل فرسانها المدججين بأمضى أسلحتها الحديثة هذا وما...

فكيف لو...

كانت الصحافة المصرية قبل المؤيد وقفًا على السوريين المسيحيين، والسوري من أقدر الناس على الاصطباغ بصبغة الوطن الذي يهاجر إليه، وعلى خدمته للعلم والأدب والسياسة فيه كما يخدم في وطنه.

فإذا هاجر إلى أوربة يقدر أن يكون أوربيًّا، وإذا هاجر إلى أمريكة يقدر أن يكون أمريكيًّا، فأجدر به أن يكون مصريًّا في مصر التي يصح أن تسمى وطنًا أصليًّا له؛ لأنه يشارك أهلها في اللغة وأكثر العادات؛ لقرب الجوار وكثرة الاختلاط، وناهيك بهما وبمكانتهما من مقومات الأمم وروابط الجنسيات، لهذا كانت خدمة أكثر السوريين الذين اشتغلوا بالصحافة مرضية عند المصريين، ولولا ذلك لما نجحوا وعاشوا هذه العيشة الراضية، وصار بعضهم صاحب ثروة واسعة.

بل أقول: إن أكثر الصحف السورية ومديريها ومحرريها قد صادفوا في مصر قبولاً ومساعدة من جمهور الأمة وهم المسلمون، وما نجح من نجح منهم إلا بمساعدة الأمة برضاها واختيارها، اللهم إلا المقطم فإنه أنشئ مشايعًا للاحتلال الإنجليزي، فكره ذلك منه المسلمون فكان نجاحه بنفوذ الاحتلال والحكومة المصرية، مع قدرة أصحابه وبراعتهم، وسعة علمهم واختبارهم وما شعر المسلمون بشدة حاجتهم إلى جريدة وطنية إسلامية إلا بعد ظهور المقطم بهذه السياسة، وإن كانت

مصبوغة بصبغة وطنية، تحاول إقناع المصريين بأن كل ما ترمي إليه هو الموافق لمصلحة مصر في هذه العهد أو الطور الذي دخلت فيه، وإذا جاز إقناع بعض الناس بأن هذا صواب في الجملة، فلا يمكن إقناعهم بأن كل ما يحاول الإنجليز عمله في مصر إما موافق لمصلحة المصريين، أو يجب سكوتهم عليه وإن لم يكن موافقا لمصلحتهم، وهو ما كانت تدور عليه سياسة المقطم.

ظهور المقطم في وقته كان طبيعيًّا، وظهور المؤيد وقيامه بمعارضته كان ضروريًّا، وقد كانت جريدة الأهرام معارضة للمقطم في سياسته الاحتلالية، ولكن ذلك لم يكن مغنيًا للمصريين المسلمين عن إنشاء جريدة تشعر بشعور الأمة الإسلامية وتعبر عن رأيها ووجدانها من كل وجه، ومهما صدقت وطنية المخالف للأمة في دينها، وأخلص في خدمتها، فإنه لا يمكنه أن يشعر بشعورها، ويدرك كُنْه مصالحها، ويغار عليها كغيرتها، فكيف إذا كان مبلغ صدقه لها لا يعدو صدق الصانع الأمين الذي يجيد الصنعة على قدر الأجرة.

هذا وإن للدين دخلاً كبيرًا في المصالح السياسية والوطنية لا ينكره إلا جاهل أو مكابر، فها نحن أولاء نرى طائفة القبط كانت وما زالت أشد معارضة للمسلمين في منازعهم السياسية والمصالح والمنافع المصرية من الأجانب أنفسهم، بل نرى مثل هذا في أرقى البلاد مدنية، فإن طائفة البروتستانت في أرلندة غير راضية بالاستقلال الذي رضيته الحكومة الإنكليزية لوطنها؛ لأن أكثر أهله من طائفة الكاثوليك، وكلهم نصارى.

إذن كان من أكبر تقصير مسلمي مصر وإهمالهم وتوكلهم أن لا يكون لهم جريدة إسلامية سياسية، أو عدة جرائد إسلامية سياسية أو غير سياسية، وقد كان فقيدنا اليوم هو الذي أزال هذه النقص، والفضل الأكبر فيه له، ومما ينتقد على القطر كله أنه لم يستطع إيجاد شقيقة أخرى للمؤيد، بل مرض المؤيد بما أصاب مؤسسه من الأمراض الجسدية والنكبات المالية، وخيف عليه السقوط على قوة أساسه، ونور نبراسه، ولم تظهر الكفاءة من أحد لإنشاء مثله، وأسست له شركة فلم تستطع الاضطلاع بأمره، وإنما كان أعضاء شركته كغيرهم يرجون أن يعود إلى ما كان عليه بعودة الصحة إلى مؤسسه، فلما وقع قضاء الله تعالى شعروا وشعر جميع أهل الرأي والغيرة بوجوب العناية به، كما يليق بمكانته وأفقه، وهذا هو موضوع حديثهم وهمهم اليوم.

لا يمكن أن تحل محل المؤيد جريدة أصحابها وكتابها من غير المسلمين، ولا من المسلمين المتفرنجين، بل لا بد أن يكون الروح المدبر لمثل هذه الجريدة كروح من فقدنا اليوم، إسلامي قبل كل شيء، بأن تكون تربيته إسلامية وعنده من المعارف الإسلامية والوقوف على حال العصر ما

يعرف به كيف يحافظ على مصالح أمته الملية، من غير إخلال بالحقوق العامة والمنافع الوطنية، ليعرف كيف يدبر السفينة في مهاب العواصف الاجتماعية والسياسية التي تمس الدين ومصالح أهله، كالعاصفة التي هبت منذ بضع عشرة سنة على المحاكم الشرعية بسعي بطرس باشا غالي فكادت تقوض بناءها المعنوي، وكعاصفة القبط التي أرادوا بها أن يأتوا على ما آخر ما بقي للمسلمين من شيء في حكومة هذه البلاد، حتى شعائر الجمعة والأعياد، وكعاصفة متفرنجي المسلمين الذين يدعون إلى فرنجة النساء، وهتك ما بقي من آثار العفاف والصيانة والحياء، باسم تحرير المرأة وتمدينها، وترقية الأمة وتعليمها، وكالعاصفة التي أثارها بعض أهل الأهواء من المسلمين لمقاومة مشروع الدعوة والإرشاد، فهل يرجى أن يدير سفينة المصلحة الإسلامية في مهاب أمثال هذه العواصف مسيحي مهما كان محبًّا للبلاد وأهلها، أو متفرنج جاهل بحقيقة الإسلام يصدق عليه المثل: صديق أحمق شر من عدو عاقل ؟ألا إنه قد علم المسلم وغير المسلم أنه لم توجد في مصر جريدة سياسية إسلامية بحق إلا جريدة المؤيد، وإن وجودها ضروري من الضروريات، لا من الحاجيات أو التحسينات، نعم وجدت صحف للمسلمين ولكنها غير إسلامية المشرب والسياسة.

وقد أكثر بعضها الجعجعة باسم الإسلام والمسلمين، وأظهرت الغلو في التشنيع على المعارضين والمخالفين، تحاول بذلك أن تميت المؤيد وتحل محله، وإنما تلك نزعات أهواء، ومظاهر سمعة ورياء، وكان أمثلها جريدة اللواء، وأين اللواء من المؤيد :

وأين الثريا وأين الثرى *** وأين معاوية من علي

ما كان اللواء إلا إعلانًا لوطنية صاحبه وشاعرًا يطريه في كل عدد، على حين تمر السنة والسنين ولا ينشر في المؤيد شيء في تعظيم صاحبه، اللهم إلا في الحوادث التي يكتب فيها شيئا يكون شديد الوقع في البلاد، فيحبذه الناس بالبرقيات والرسائل، ويرى أن في نشرها بيانًا لرأي الجمهور في موضوعها، ولا يصده عن النشر كونه هو الموضوع أو كون الموضوع يتضمن الثناء عليه، فالفصل بين المؤيد واللواء أن المؤيد جريدة المصلحة العامة للدين والدولة ومصر وأميرها، على قاعدة أن مصلحة مصر مرتبطة بسلطة أميرها، وأما اللواء فهو وإن أنشئ محاكاة للمؤيد؛ لأن صاحبه تربى في حجر صاحب المؤيد، لم يكن إلا جريدة مصطفى كامل نفسه، فكانت تكون مع الأمير تارة وعليه تارة، وتوافق أحكام الإسلام ومصلحته تارة وتخالفها تارة، يدور ذلك كله على ذلك المحور الشخصي، وليس هذا مقام إثبات هذه المسألة بالشواهد والبينات.

وحسبي أن أذكر الواعين بتهييج اللواء اليهود على الأستاذ الإمام؛ لأنه فسر ما ذمهم الله تعالى به في القرآن وبتشنيعه للقصاص في القتل عند دفاعه عن ضابط قتل آخر في السودان - وقد كتب الله علينا القصاص في القرآن - دع انقلابه على أمير البلاد الذي لولا نعمه عليه لم يكن شيئا مذكورًا، وقد مات اللواء وصاحبه ومات صاحب المؤيد أيضًا، فلا هوى لأحد في ترجيح إحدى الجريدتين على الأخرى، وإنما غرضنا بيان الحقيقة إنصافًا للتاريخ، وتنبيهًا للأمة إلى مزيد المؤيد وفضله لتحافظ عليه، وتذكيرًا لشركة المؤيد ولأصحاب النفوذ في البلد، بوجوب انتقاء رئيس لتحريره يحفظ مزاياه كلها من حيث هو جريدة إسلامية عربية مصرية.

وسنتكلم على سياسة الفقيد وسائر ما نرى فيه العبرة من سيرته فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

((يتبع بمقال تالٍ))

الشيخ علي يوسف[26]

(2)

سياسته العامة والعثمانية الخاصة:

كان الشيخ علي كاتبًا سياسيًّا، وكانت سياسته إسلامية عثمانية مصرية، ثم لما أظهر الاتحاديون العصبية التركية، واضطهاد العرب والعربية، كانت سياسته إسلامية عربية أولا ثم عثمانية.

أعني أنه يخدم الدولة العثمانية في كل ما يستطيعه إلا إذا كان معارضًا للإسلام أو العرب، وقد خدمها أجل خدمة في تأسيسه لجمعية الهلال الأحمر في مصر، فهو الذي سن هذه السنة الحسنة في مصر فاستفادت الدولة منها تلك الألوف الكثيرة من الجنيهات مع بعثات طبية منظمة أدت لها الخدمة النافعة في حربي طرابلس و البلقان كما كان له في مؤيده اليد البيضاء في إعانتها من قبل على حرب اليونان.

كان للمؤيد التأثير العظيم فيما عليه المصريون الآن من التعلق الشديد بالدولة العثماية والحب الخالص لها، وقد كانوا يمقتون الترك وحكم الترك مقتًا شديدًا لأنهم لم يروا من آثار حكمهم ولم يحفظوا من أخبار حكمهم ما يوجب غير ذلك.

وقد تجلى ذلك في الثورة العرابية أظهر التجلي، فكان زعماؤها عازمين على جعل حكومتهم مصرية محضة يتولى إدارتها المصريون دون الترك والمستتركين من الشركس وغيرهم، فلما وقعت البلاد تحت سيطرة الاحتلال الأجنبي ثقل ذلك على المسلمين طبعًا، وأحسوا بضعفهم، فحدث عند بعض المشتغلين بالسياسة فكرة التعلق بالدولة والرجاء فيها.

وكبر ذلك ونمى بل وجد وظهر منذ تولى الأريكة الخديوية العزيز الحاج عباس حلمي الثاني وفقه الله وأيده، فإنه بما سنه من زيارة الآستانة في كل عام، أوجد في مصر حركة سياسية وطنية لم تكن

في غابر الأيام، وجرأ المصريين على ما لم يكونوا يتجرءون عليه من قبل، وولى وجوههم شطر تلك العاصمة، وأنطق ألسنتهم وأجرى أقلامهم، بما لم يكن يعهد من أحد منهم، وكان المؤيد خطيب هذا المنبر، أو منبر خطباء هذه السياسة، ولكن مصر لم تستفد منه شيئًا مما كانت ترجوه من هذه السياسة، وإنما استفادت منه الدولة تعلق السواد الأعظم من المصريين بها وحبهم إياها فكان من أثره جمع الإعانات لها في كل حرب تدخل فيها.

لا موضع هنا لبيان أثر هذه السياسة في معاملة الإنكليز لمصر وللدولة العثمانية ولا لبيان تأثير هذا الحب والتعلق من الخديو وأمته في نفس السلطان عبد الحميد ثم في نفوس من خلعوه وخلفوه في هذه الدولة، ولا لبيان سيرتهم مع عزيز مصر، ولا مع الإنكليز فيما يتعلق بسياسة مصر؛ لأن موضوعنا سياسة الشيخ علي يوسف في المؤيد وفي نفسه، وخلاصة القول فيها أنها كانت إسلامية في كل حال، عثمانية مصرية معًا أيام كانت الآمال والأماني تنوط بالدولة حل المسألة المصرية بإخراج الإنكليز من مصر، ثم عثمانية محضة مصرية محضة بعد ما خابت تلك الآمال، وطاحت تلك الأماني والأحلام، التي كان يقال في مثلها: حياتنا بين أيدي المابين.

ثم عربية عثمانية في العهد الأخير، كما أشرنا إلى ذلك في فاتحة الكلام، بل صارت خدمته للدولة في هذا العهد داخلة في سياسته الإسلامية العامة.

وسيأتي الكلام في سياسته المصرية خاصة.

يقول أعداؤه وخصومه في السياسة من قومه: إنه كان متقلبًا في سياسته، ويعدون عليه من ذلك ما قد يعد له، والسياسة متقلبة بنفسها، فالذي يجمد على حال واحدة لا يستطيع أن يكون سياسيًّا؛ لأن الأحوال تتغير دائمًا، والسياسي هو الذي يدور معها كيفما دارت.

وفي الحكم والأمثال دوام الحال من المحال، وإنما يعاب على الرجل أن يكون متقلبًا في المقاصد لا في الوسائل.

فعلى هذه القواعد التي لا نزاع فيها يرد أنصار الفقيد شبهة خصومه بأنه كان في سياسته أثبت من الأطواد، أما سياسته الإسلامية فالأمر فيها ظاهر، ولم يتهمه بالتحول عنها متهم، وأما سياسته العثمانية فقد ثبت عليها حتى الممات أيضًا، وآخر خدمة خدم بها الدولة تأسيس جمعية الهلال الأحمر المصرية، وكان عضوًا عاملاً في جمعية إعانة الحرب أيضًا.

نعم إنه شن على جمعية الاتحاد والترقي حربًا عوانًا لاعتقاده أن ما سارت عليه في سياسة الدولة وإدارتها كان ضارًّا بالدولة العلية والأمة العثمانية عامة، وقومه العرب خاصة، ومضعفًا للرابطة

بين الدولة وبين مصر، ومنافيًا للسياسة الإسلامية أيضًا، ولم يكن رحمه الله منفردًا بهذا الاجتهاد بل كان متفقًا مع جماهير العثمانيين من الترك والعرب الذين ألفوا عدة أحزاب لمقاومة الجمعية، وصار أكثر أعضاء مجلس الأمة عليها فاضطرت إلى حله بالإرادة السلطانية، ثم إن الجمعية نفسها صرحت بأنها كانت مخطئة في كثير من أعمالها ومقاصدها وأنها رجعت عنها، ومنها تتريك العرب وغيرهم من الأقوام العثمانيين.

فظهر للمتتبع للحوادث أنه قد ظهر أنه كان مصيبًا في انتقاده، وكان آخر ما ظهر للجمهور من ضرر سياستها هو أول شيء كان أول من انتقده عليها جهرًا، وهو جعل السلطة في أيدي الضباط وإشغالهم بالسياسة، وقد قال في هذا الموضوع كلمته المشهورة في بيروت في أول العهد بإعلان الدستور، وسكر الناس كلهم بخمرة الفرح والسرور، وهي أن السيف والسياسة لا يجتمعان في غمد واحد.

قال ذلك لما رأى بعض صغار الضباط الاتحاديين في بيروت يتصرف في الحكومة تصرف الحاكم المطلق المستبد.

ثم تبين أن ضرر اشتغال الضباط بالسياسة والإدارة قد أضعف الدولة وقسم القوة فيها على نفسها، وكان أهم أسباب الخذلان في الحرب البلقانية الأخيرة كما صرح به القائد الألماني الكبير البارون فندر غلترز باشا منظم الجيش العثماني.

ويقولون: إن التقلب والذبذبة في السياسة العثمانية هو ما جرى عليه خصوم الفقيد الذين صدق عليهم المثل رمتني بدائها وانسلت، ذلك بأنه ينتصرون لصاحب القوة أخطأ أم أصاب نهض بالدولة أم هوى بها، فكانوا يقدسون السلطان عبد الحميد ويقولون في طلاب الدستور والإصلاح منه أشد مما قال مالك في الخمر.

وكان قاعدة سياستهم ما وضعه لهم زعيمهم مصطفى كامل باشا من الغلو في السلطان عبد الحميد والتشنيع على طلاب الإصلاح والدستور منه، حتى إنه أوجب على من ينطق بالشهادتين، الشهادة لله تعالى بالوحدانية والشهادة لمحمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة، أن يثلثهما بالشهادة للسلطان عبد الحميد إلخ، وقد صرحوا في جريدتهم اللواء قبل إعلان الدستور بيوم واحد بأن طلاب الدستور أعداء الدولة الخونة؛ لأنه يضر الدولة ويفسدها...

بل كانوا بعد إعلان الدستور أيضًا يصيحون في وجوه بعض العثمانيين المبتهجين به.

ثم لما استقرت السلطة لجمعية إعلان الدستور وصار بيدهم المال والقوة قدسوهم كما كانوا يقدسون

السلطان عبدالحميد.
هذا ملخص ما يرد به أنصار الشيخ على خصومه في مسألة ثباته على سياسته العثمانية في جوهرها، وهو أنه كان يتبع المصلحة ويدور معها، وهم يتبعون رجال السلطة ويدورون معهم، وقد فتح ههنا الباب لخصم ثالث يقول: إن الشيخ عليًّا كان من أنصار عبد الحميد أيضا، بل هو أستاذ مصطفى كامل في الغلو فيه، وقد نال من رتبه وأوسمته أكثر مما نال مصطفى كامل، وبقي ثابتًا على الثناء عليه فلم ينقلب عليه بعد سقوطه، كما انقلب عليه تلاميذ مصطفى كامل، وكنا ننتظر أن يعد أنصاره هذا من ثباته، ولكنك تذكر عنهم أن الشيخ كان يتبع في خدمة الوطن العلية المصلحة، لا الرجال الذين بيدهم المال والقوة، فهل كان الشيخ علي يجهل أن السلطان عبد الحميد مخرب للدولة أم لا ؟ إن قلت: نعم فما هو بالسياسي، وإن قلت لا فما هو بالناصح الذي يتبع المصلحة.
وإنما الناصح في هذه المسألة هو المقطم دون المؤيد ودون اللواء الذي تلقى عنه السياسة الحميدية كالمصرية، ثم أربى عليه في الغلو فيها وغش الناس بمدح ذلك السلطان المخرب.
فما قول أنصار الشيخ الذي يبالغون في مدح سياسته فيغرقون في هذا ؟ وما قولك وأنت تبحث في سياسته بحث المؤرخ الصادق المنصف.
أقول: إن آخر ما أعرف من شوط أنصار سياسة المؤيد في هذه المسألة أن السلطان كان هو الدولة، فكان لا بد لمن ينتصر لها؛ لكونها إسلامية وللتَّقوِّى بها على الاحتلال الأجنبي في مصر من مدح السلطان والدفاع عنه كيفما كانت سيرته في سياسته وإدارته للمملكة.
والسياسي لا يكون صوفيًّا ولا ناسكًا يلتزم الحق من كل وجه، بل يلتزم مصلحته والمنفعة التي اتخذها قاعدة لسياسته.
والمقطم ما كان يذم السلطان ويندد بمخازيه انتصارًا للحق وغيرة على الدولة، بل ليصرف عن الدولة قلوب المصريين ويقطع حبل رجائهم فيها خدمة للاحتلال، لأجل هذا كان في حجاج وخصام دائم مع المؤيد ثم مع اللواء الذي اتبع سنن المؤيد، وغلا فيها غلوًّا كبيرًا، وأما الانتفاع برتب السلطان وأوسمته فلا يلام عليه مثل الشيخ علي ولا مصطفى كامل، لأن المتصدي للزعامة السياسية يحتاج إلى ذلك؛ لأنه يزيد في جاهه ويعلي من كلمته، ويؤهله للقاء عظماء الحكام والسياسيين أصحاب المناصب فيعدونه من طبقتهم، وإنما يعاب بمثله من يخدم المصلحة العامة تعبدًا لله تعالى، أو من يبني خدمته على مقاومة تمييز بعض الناس على بعض بهذه الرتب التي تضعها الحكومة يطلب إبطالها، ليتفاضل الناس بعلومهم وأعمالهم، لا بالألقاب اللفظية، ولا حلي الأوسمة

الفضية والذهبية.

أما أنا فأقول: إن كلا من المؤيد واللواء، ومثلهما الأهرام، قد أضر المسلمين والعثمانيين عامة والمصريين خاصة بما جرين عليه من الإسراف في مدح السلطان عبد الحميد والدفاع عنه، ولولا أن جمهور المسلمين كانوا يحملون ذم المقطم لسياسته وإدارته وتنديده به على سوء النية ويظنون أن أخباره غير صادقة، ولولا تلك الردود عليه لكان نفع ما نشره عظيمًا، ولقد كان يكون النفع أعظم لو كان المؤيد واللواء ينشران مثل تلك الأخبار ويبنون عليها مطالبة السلطان بالإصلاح مشايعة لطلابه من العثمانيين مع الاعتدال.

وقد كنت أقول لمن أذاكرهم في ذلك من عقلاء المصريين: إن المقطم ينشر بعض ما يعلم، ويعلم بعض ما يقع، وإنه يجب عليكم أن تعتبروا بأخباره، مهما كان ظنكم ورأيكم في نيته، وإلا كنتم طالبين التلذذ بمدح الدولة والسلطان، لا لمعرفة الحقيقة التي يتبعها الصلاح والفساد، فتشايعون السلطان على ما يضر، وتتكلون عليه في أمر الإسلام وأمر مصر، وكل ذلك من بناء المصلحة على وعث من الرمل، بدلا من بنائها على الصخر، وهو أن تعرف الأمة حقيقة حال دولتها وحكومتها، وتعتمد على سعيها وعملها في إصلاح نفسها وإصلاحها.

ومما أعرفه للشيخ علي رحمه الله تعالى من المزية في سياسته العثمانية بل في أخلاقه وسجاياه الفطرية، إنه كان كلما ازداد علمًا وخبرة بأحوال الدولة ازداد ميلاً إلى مساعدة طلاب الإصلاح من العثمانيين على ما يطلبونه، ولكن مع روية واعتدال، ومحافظة على كرامة السلطان لعدة أسباب منها مراعاة صلة الولاء بينه وبين الخديو التي كان هذا يحافظ عليها فلا ينقطع عن زيارة ذاك سنة من السنين ومنها ما كان يراه أولا من نفع تعلق المصريين به في المسألة المصرية ومنها اتقاء أن يظنوا أنه صار خصمًا للدولة.

ومنها أن مفاجأة الناس بخلاف ما يرونه ربما يفضي إلى ضد ما يراد منه.

وينفرهم من المؤيد فلماذا لم يعد خصومه هذا من ثباته على حفظ كرامة السلطان ويعدون مساعدته لطلاب الإصلاح من التقلب في السياسة وعدم الثبات.

لا أذكر من الشواهد على رغبته في معرفة حقيقة حال الدولة ومساعدة طلاب الإصلاح فيها ما كان بينه وبين مراد بك صاحب جريدة ميزان الذي كان من زعماء جمعية الاتحاد والترقي الأولى، ولا ما كان من صلته بمحمود باشا الداماد، فإن هذا مما لا أعرف حقيقته وخفاياه.

وأكتفي بأصح الشواهد وأثبتها وهو ما وقع لي معه: إنما كثر اجتماعي به وكان مبدأ صحبتي له في

سنة 1316 إذ كنت أطبع المنار بمطبعته في أواخر سنته الأولى وأوائل سنته الثانية قبل شراء مطبعة له، وما كان أسرع ما وثق بي على قلة ثقته بالناس، ولما رأيته يحدثني بحرية واستقلال فكر، ويقبل مني ما أذكره له من الانتقاد على الدولة والسلطان، خلافًا لأكثر من عرفت في مصر من الإخوان، رغبت إليه في جعل المؤيد لسانًا لطلب الإصلاح في الدولة، فقال لي: اكتب ما تشاء من رأيك في ذلك مع الاعتدال وحفظ كرامة السلطان، وذلك كاف في إيصال هذه الأفكار والآراء إلى الناس.

فكتبت عدة مقالات في موضوع حاجة الدولة إلى الإصلاح وما يجب منه في هذا العصر، فكان ينشرها في صدر المؤيد غالبًا كما ينشر غيرها من مقالاتي التي كنت أذيلها بإمضاء (م. ر) ويعزوها هو إلى أحد أفاضل الكتاب المجيدين.

ما كنت أظن يومئذ أن أحدًا من المتعلمين المدركين في مصر ينكر عليه نشر تلك المقالات؛ لأنني كنت أنشر في المنار ما هو أشد منها في تمثيل الخلل والفساد، وما يجب على الأمة والدولة من الإصلاح، حتى دخلت عليه يومًا فإذا هو في جدال مع محمد بك فريد في مقالة من تلك المقالات، كان فريد يقول له: إن نشر مثل هذه المقالة يعد خروجًا من المؤيد على خطته، وإن ذلك قد ساء إخوانهم الوطنيين جدًّا...

وقد علمت منه بعد ذلك أن كثيرًا من أصحابه كلموه بهذا اللسان، ولم ير أن يذكر لي ذلك حتى سمعت بأذني، وأطلعني أيضًا على رسالة جاءته من تونس وأخرى من جاوه في الرد على مقالة من مقالات المنار ساءت كثيرًا من الناس في تلك الأقطار، إذ عدوا النصيحة لجهلهم عداوة للدولة وخروجًا عليها، ولكنه لم ينشرهما؛ لأنه كان يرى أن ما ينشره المنار حق، وقد كتب بمداد الغيرة والإخلاص للدولة.

أليس هذا دليلا على كونه كان يراعي المصلحة العامة، ويحب إصلاح الدولة ويساعد المصلحين، بشرط أن لا يضر بنفسه ولا بجريدته ؟ بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، ولعله لولا ظهور جريدة اللواء والتزامها خطة الغلو في تقديس السلطان عبد الحميد وفي المسألة المصرية ووقوفها للمؤيد بالمرصاد، وإسامتها تأويل كل ما ينشر فيه بقلم الروية والاعتدال، لما وقف المؤيد بالمصريين عند ما عهدوا من السياسة العثمانية، بل لسدد وقارب في السير إلى الغاية التي تجب، وهي معرفة حقيقة حال الدولة ومعرفة حقيقة أنفسهم، ومكانهم منها ومكانها منهم، وما يجب عليهم لها ولأنفسهم، ولكانت مصر حينئذ هي المعين الأكبر لأحرار العثمانيين على ما كانوا يطلبون من الإصلاح،

ولوصلوا بذلك إلى خير مما كان من إكراه الجيش السلطان على إعلان الدستور ثم خلعه بقوة السلاح، وما ترتب على ذلك من الشقاق والخذلان، الذي نشكو من سوء عواقبه إلى الآن.

وجملة القول في سياسة المؤيد العثمانية أنها بنيت أولا على أساس المسألة المصرية، وقصد بها تقوية الصلة بين الدولة ومصر، وبين السلطان والخديو، وكان الشيخ علي لا يعرف في أول العهد بها من أمر الدولة والسلطان شيئًا، إلا ما اقتضته الحال من تلك الحركة الخديوية، ووافق ما جبل عليه من النزعة الإسلامية، ثم إنه صار كلما زاد علمًا بالدولة واختبارًا يتلطف في النصح، ويساعد طلاب الإصلاح من العثمانيين، مع مراعاة ما كان يرمي إليه من تقوية الصلة بين مصر والدولة العلية، والمحافظة على كرامة السلطان إن لم يكن لذاته فَلِمَا هو متحمل به من لقب الخلافة الإسلامية، ولما بينه وبين عزيز مصر من الرابطة الرسمية.

وأما اللواء فقد بدأ سياسته العثمانية بما تلقفه من سياسة المؤيد في طفولته أي المؤيد وغلا فيها كدأبه وعادته، وكان كلما زاد صاحبه معرفة بسوء حال السلطان عبد الحميد وزبانيته، يزداد غلوا في إطرائه وتقديسه، وإسرافًا في التشنيع على طلاب الإصلاح للدولة.

ذلك بأنه كان له راتب مالي يأخذه من المابين فوق ما نال من الرتب والأوسمة لنفسه ولكثير من المصريين، وفوق المال الذي كان يأخذه بأسماء أخرى كعقد الاحتفالات السنوية بعيد الجلوس السلطاني في أوربة، ووراء ذلك ما لا يحسن ذكره في هذه الترجمة فإذا كان هذا هو الثبات المحمود عند الذين يطعنون في الشيخ علي لتحوله عنه فأعدل ما نحكم به في هذه القضية قول الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل.

على أننا رأينا الشيخ ثبت على خدمته للدولة في تقوية حقوقها في مصر، وناهيك بتلك الغارة الشعواء التي شنها على حكومة بلاده في مسألة القضاء الشرعي إذ أرادت بضغط الإنجليز أن تبطل جعل تولية قاضي مصر الأكبر من حقوق السلطان يرسله من الآستانة وفي إعانة المصريين لها بالأموال، ولا سيما في أزمنة الحروب والشدائد، وفي تقوية الصلة بين عابدين والمابين كما يقال في عرف هذا العصر وقد ختم ذلك بأفضل خاتمة، وهي تأسيس جمعية الهلال الأحمر، واستقال أخيرًا من لجنة إعانة الحرب البلقانية؛ لأنه اقترح أن ترسل اللجنة إلى الدولة ما بقي في صندوقها من المال وهو مبلغ كبير، بعد انتهاء الحرب، فأبى الرئيس وأكثر الأعضاء ذلك.

فليدلنا المعارضون على خدمة غيره لها، التي تضاهي خدمته وتغني غناءها، ومن سَبَرَ غَوْرَ السياسة يعلم أن حملته على الاتحاديين كانت أنفع للدولة في سياستها ومصلحتها الدائمة من تلك

الإعانات المالية؛ لأنه تفيد في إصلاح سياستها الدائمة، والإعانة منفعة مؤقتة عارضة، ورحم الله الأستاذ الإمام حيث قال: ما وعظك مثل لائم ولا قوَّمَك مثل مقاوم.

سياسته المصرية:

كانت مقاومة الاحتلال والسعي لجلاء الجيش الإنكليزي عن مصر من قواعد سياسة المؤيد الأساسية، وقد كان ذلك مرجوًّا لأن حكومة لندره كانت تصرح رسميًّا بأن احتلالها للبلاد المصرية مؤقت وأنها ستنجلي عنها؛ ولأن دول أوربة كانت معارضة لها في احتلالها معرقلة لكل ما يثبت قدمها، وأشدهن في ذلك فرنسة، ولأن الدولة العثمانية كان يحسب لها حساب كبير في هذا.

فلما عرف الفقيد حقيقة الدولة العثمانية، ومنتهى شوطها في المسألة المصرية ورأى كيف رجعت فرنسة القهقرى في حادثة فشوده الشهيرة، ثم كيف عقدت سنة 1904 مع إنكلتره الاتفاق على ترك حقوقها لها بمصر، في مقابلة مساعدتها على احتلال مملكة مراكش، ثم كيف تتابعت سائر الدول الكبرى على إقرار إنكلتره على احتلالها في مصر، وإعطائها العهود على عدم معارضتها فيه، لما علم ذلك رأى أن العمل النافع لمصر إنما يكون فيها وفي لندره؛ لأن الجذب والدفع صار محصورًا بين المصريين والإنكليز محبي الإنصاف أو المعارضين لحكومتهم في سياستها الاستعمارية.

فحصر عمله في هذين الأمرين، فقامت عليه قيامة جريدة اللواء وأنصارها، وسموا المؤيد بالمقطم الأحمر؛ لأن الوطنية وخدمة مصر عندهم تتجلى في شيئين: مطالبة الانكليز بالجلاء عن مصر، وشتم نظارة الحكومة وذم كل عمل تعمله في مصر.

أما الفقيد فقد اغتنم فرصة إصرار اللواء على الغلو في المعارضة للسير على ما أوجبه عليه تغير السياسة الخارجية وطول التجربة والاختبار من الاعتدال في المعارضة، وإقامة الحجة لمصر بأن فيها من يتكلم ويناضل بالحجة والبرهان لا بالتمويه ومكابرة الحسن والعيان، وكان يرى أن الحماقة والجهل، قد تكون مجنا للروية والعقل، فيكره أن يصادر اللواء في حريته، على إيذائه له ولوطنه.

أما عمله في مصر لمصر فطرقه وأنواعه كثيرة، منها ما هو خاص بتنبيه الأهالي وإرشادهم إلى ما ينفعهم في التربية والتعليم والآداب والفضائل، وفي الكسب والاقتصاد والتعاون على الخير، ومنها ما يتعلق بحقوق الأمة على الحكومة، والتعارض والتجاذب بين مصر والمحتلين.

وكان ركن سياسته المصرية الركين تأييد نفوذ الأمير الشرعي الخديو وسلطته في كل أمر، والتوسل إلى ذلك بكل ما يمكن، ويحتج بأن كل ما زاد في سلطته ونفوذه فهو ربح لمصر على الاحتلال، وكل

ما نقص منها فهو مزيد في سلطة الاحتلال ونفوذه.
فكل أمر للأمير فيه رأي أو قصد فهو الخادم الأمين له فيه، ينصره برأيه وقلمه ولسانه، وإن خالف رأي نفسه إلا أنه في هذه الحالة قد يتلطف في عرض رأيه على مسامع الأمير قبل الشروع في العمل، فإن قبل فذاك، وإلا أخذ بقول الشاعر: سيد القول ما يقول الرئيس.

وقد ثبت على هذه السياسة واستقام على هذه الطريقة طول حياته، ولقي في ذلك من الألاقي ما يلقاه أمثاله من كيد الحاسدين له على قربه من أريكة الملك، ومعارضة المخالفين له في السياسة والرأي، وخسر كثيرًا من الأصدقاء الذين لا ينكر ما لهم عليه أو على الأمة من الفضل؛ لأن هؤلاء يرون أن الإخلاص للبلاد في خدمة الأمير إنما تكون بحسب اعتقادهم ورأيهم وإن لم يرضه أحيانًا.
وقد كانت إضاعته لبعض هؤلاء الأصدقاء الأوفياء أنهض حجج من رموه بقلة وعدم الوفاء، ويقل من يعرف كنه هذه الوقائع ويزنها بالقسطاس المستقيم، ويقل في هذا القبيل من يبين للناس ما هو الراجح والمرجوح في هذا الميزان، للتعريف بحقيقة هذا الرجل الذي يقل مثله في الرجال.
إننا سمعنا بعض الذين رثوا الرجل في منظومهم ومنثورهم قد وصفوه بأنه أوفى الأصدقاء، في هذا الزمن الذي قل فيه الوفاء، وإنني - ولا أنكر أن بعض الناس غلوا في إطرائه - أقول: إنه كان ذا وفاء يقل من يفضله به، وأما الذين يصفونه بعدم الوفاء فمنهم صاحب الهوى المتبع الذي يتكلم بسوء قصد، ومنهم المنصف الذي يعتقد ما يقول.
أما سيئ القصد فلا علاج لمرضه ولا جواب لقوله، وأما المنصف فله عندي جواب استخرجته من الشواهد التي عرفتها في هذا الباب، ولعلها أوضحها وأكبرها، وهو أن الرجل كان سياسيًّا قبل كل شيء، فهو ما ترك صداقة صديق إلا في سبيل السياسة، وإلا بعد أن تعذر عليه الجمع بين صداقته وبين ما تقتضيه تلك السياسة.
وما لي لا أصرح فأقول كان إذا غضب مولاه، الذي تدور سياسته على قطب رحاه، على أحد أصدقائه، يبذل كل ما يراه في وسعه من وسائل إرضائه، فإن لم يستطع حافظ على مودته بالقدر الممكن، فإذا رأى أنه مضطر إلى هَجَره هجره هجرًا جميلاً، وإذا اضطر إلى كتابة ما يسوؤه لا يتعدى حد الضرورة التي تقتضيها السياسة إلا قليلاً.
وإذا استطاع في أثناء ذلك أن يخدمه بشيء خدمه، إن لم يكن ذلك في الجهر، فمن وراء الستر.
وهل يستطيع السياسي الذي يخدم الأمراء والملوك أكثر من هذا ؟كأني ببعض هؤلاء المنصفين يقول إذا قرأ هذا: إن عندي انتقادًا آخر على الرجل وهو أنه ما كان يقف في مثل هذا عند حد

المصلحة العامة أو عند الحق ومقتضى الفضيلة.
وإنني أُذَكِّر هؤلاء - الذين تمثل بعضهم أمامي الآن - بما قلته من قبل في السياسي الذي يشتغل بالسياسة فعلا من كونه لا يزن أعماله بالميزان الذي يزن به الصوفي أو فيلسوف الأخلاق، وليس ما شرحته من سيرة الرجل في هذه المسألة بالذي يكثر في عصرنا من تصل به الفضيلة إلى مثله.
ولا هو بالذي يرتقي إلى وضعه في ميزان سياسة عمر بن الخطاب أو علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، ولا بالذي يعد من مقامات الصديقين، المشروحة في كتابي إحياء العلوم ومدارج السالكين.
أين هذه السيرة ممن كان إذا سخط من أحد؛ لأنه لم يعظمه التعظيم الذي يحبه لنفسه يغلو جهد طاقته في ذمه وإيذائه، ويقعد له بكل طريق يسير فيه ولو إلى خدمة الملة والأمة، فيضع له العواثير، ويحفر له الأحافير، ولا يرقب فيه إلاًّ ولا ذمة ؟ أيجوز أن يقرن هذا بذاك ؟ كلا إن ذلك ظلم وجهل بأقدار الرجال، لا يذهب إلى مثله إلا بلداء العوام وأغرار الأطفال.
(للترجمة بقية)

((يتبع بمقال تالٍ))

الشيخ علي يوسف[27]

(3)

فصل في بقية الكلام على سياسته المصرية :

بينَّا أن سياسة الشيخ في المؤيَّد كانت تدور في أول العهد على ثلاثة أقطاب:

(1) تأييد سلطة الأمير ونفوذه

(2) مقاومة نفوذ الاحتلال الإنكليزي

(3) الاعتماد في هذه المقاومة على نفوذ الدولة العثمانية وحقوقها الرسمية في مصر. وكذا على نفوذ فرنسا ومصالحها السياسية فيها، وأنها بعد طول الاختبار وتغير الحوادث طرأ عليها بعض التغيير.

ونزيد ذلك بيانًا فنقول - وإن كررنا بعض المعاني -:إنه بعد حادثة فشودة علم المترجم أن الاتكال أو الاعتماد على عهود دولة أوربية لا يكون إلا دون الاتكال على المواعيد العرقوبية، وأنه بعد اختبار السياسة العثمانية بالغوص في أعماق الحوادث التي بيانها وبين أوربا، وبلقاء كبار رجالها في الآستانة ومصر وأوربا، علم أنه لا يتكل عليها في شيء، وأن الذي يبني عمله على الرجاء فيها فإنما يبني على شفا جرف؛ إذ لا يؤمن خذلانها له في كل عمل، فاكتفى من خدمة الدولة فيما يسمونه المسألة المصرية بالمحافظة على حقوقها الرسمية في مصر، وجعل فرماناتها الرسمية لأمراء مصر ركن استقلالها الركين، الذي يصد به بعض ما يخشى من هجمات الاحتلال عليه.

وأما فرنسة وسائر دول أوربة فقد علم كما يعلم كل خبير بصير أنها دول تجارية تَتِّجر بالأمم والشعوب والدول، وأنها لا تراعي في تجارتها حقًّا ولا عدلاً، ولا رحمة ولا فضلاً، وإنما رأس مالها القوة والحيلة والأثرة، فلا يقدر أن يستفيد منها إلا من جعل منفعته وسيلة إلى منفعتها، وهيهات

أن يتسنى لأدنى أن يستخدم لمنافعه من هو أعلى منه قوة وعلمًا.
وما كل من تنفعه تقدر أن تستخدمه، وناهيك بدول أوربة ومعارضة بعضها لبعض في سياستها أو مطامعها في بلادنا، فإذا أراد بعضها أن ينفعنا قليلاً لينتفع منا كثيرًا، عارضه في ذلك من يكره لنا هذه المنفعة ويراها عقبة في طريق مطامعه فينا.
وكان الفقيد يعلم أيضًا أن شعوب أوربة خير من حكوماتها، وأن فيهم كثيرًا من الأحرار ومحبي الحق والخير لكل البشر، وأن رأي الشعب العام له السلطان الأعلى على الحكومات؛ فلهذا كان يرى أخيرًا أنه ينبغي أن يكون للمصريين صلة ببعض أهل الفضيلة من أحرار الإنكليز لعلهم يستعينون بهم على مقاصدهم، وإيصال ما يشكون منه بحق من إنكليز مصر إلى إنكليز لندرة، حتى لا تكون الشؤون المصرية محجوبة عن محبي الإنصاف، لا يعرفون منها إلا ما يكتبه عميد إنكلترا في مصر إلى ناظر الخارجية في لندرة وبعض مراسلي الجرائد.
والعلم بهذا الرأي إما أن ينفع وإما أن لا يضر.
ولكن عارضه فيه أحداث الوطنية في جريدة اللواء وما أحدثوه بعد مصطفى كامل من الجرائد كدأبهم وعادتهم، وقد بينا وجه ذلك عندهم في هذه الترجمة.

***

(الجرائد والأحزاب بمصر)

ونقول ههنا: إن السياسة في مصر لا مظهر لها إلا الجرائد، وقد تألفت الأحزاب لأجل الجرائد ومديري سياسة الجرائد، ولم يستطع حزب من الأحزاب أن يجعل جريدة أكثر رواجًا وقبولاً من جريدة أخرى عند الرأي العام بمصر.
وقد سبق القول بأن الجرائد العربية المؤثرة في الجمهور المصري كانت ثلاثة: الأهرام والمقطم والمؤيد، وأن التنازع إنما كان أولاً بين الأهرام والمقطم؛ ثم كانت الأهرام تشايع المؤيد بعد ظهوره لاتفاقه معها في الميل إلى السياسة الفرنسية التي تعد الأهرام هي الركن الأول لها؛ ولأن مشايعته على المقطم كانت تعد من آيات صدق الخدمة الوطنية لمصر.
ولما انقطع أمل المصريين من فرنسة صارت جريدة الأهرام في المرتبة الثانية بين الجرائد اليومية؛ بل كادت تموت من شدة ضعفها؛ لولا أن تداركها همّة بشارة باشا تقلا القوية ومَن ساعده على تحريرها من أذكياء الكتاب، وأعانه على ذلك ثقة جمهور التجار والزراع بأخبارها التجارية.

بذلك انتعشت بعد أن سقطت، وارتفعت بعد أن انخفضت، وحفظت مكانتها بين الجرائد اليومية الكبرى، فإن لم تعد رأسًا في سياسة خاصة فهي رأس في الثروة والمباحث العامة.

ولا يضاهيها في هذين الأمرين إلا المقطم.

فهما الآن في مقدمة الجرائد المصرية في الثروة، وسعة الأخبار العامة، والقدرة على التصرف في الكلام عن الشؤون المصرية، على أنهما لم تتألف لهما أحزاب، وإنما تلك كفاءة أصحابهما ومحرريهما، والجمع بين حسن الإدارة، والبراعة في الكتابة.

وقد تألف في مصر ثلاثة أحزاب سياسية حول ثلاث جرائد يومية، هن أكبر جرائد مسلمي هذا القطر وأوسعها انتشارًا: المؤيد واللواء والجريدة، ولم يكن لواحدة منهن دخل يوازي دخل المقطم والأهرام إلا للمؤيد، فقد كان أوسع منهما انتشارًا وعلى مقربة منهما في المال، ولو أتيح للمؤيد مدير مالي يسير بإدارته سيرة أصحاب تينك الجريدتين لكان أوسع الجرائد ثروة، على أن الشيخ رحمه الله عاش به في سعة ورخاء، كما يعيش الأمراء والكبراء، حتى تورط في شراء الدور وأراضي البناء، في إبان إسراف الناس في التغالي بها، فركبته الديون وجاءت سنوات العسرة المالية فأتت على تجميع ما في يده، وكادت تذهب بالمؤيد نفسه، لولا أن تداركه بتأسيس شركة مساهمة له، فحالت دون موته، لا دون مرضه، فقد مرض المؤيد أمراضًا أشرفت به على الموت عدة مرار، وصارت حركة ظهوره كحركة المذبوح أو حركة الاستمرار، وهو لا يزال محتاجًا إلى تجديد الحياة، وإنما يكون ذلك بحسن الإدارة والنظام، وجعل التحرير على الوجه الذي بيناه من قبل، وهو ما به يظل المؤيد صاحب التأثير الأول في كل ما يتعلق بمصالح المسلمين في مصر، وكذا في غيرها، ثم بالمصالح المصرية والعثمانية.

فإذا قصَّر المؤيد في هذا الأمر - الذي لم يكن لولاه أمرًا ذا بال - يحكم عليه الرأي العام الإسلامي بالعدم والزوال، ويطلب بلسان حاله جريدة تحل محله حتى ينهض بها مَن يؤهله الاستعداد من الشركات أو الأفراد.

وجملة ما نريد الاعتبار به أن المؤيد قد جعله مشربه الإسلامي والمصري فوق جرائد القطر كلها، بل جعله حاجة طبيعية، مِنْ حَاج البلاد المصرية فالإسلامية، ولقي من المساعدة والإقبال ما لم يلق غيره، ومع هذا كله لم يستطع أن يكون في ثبات الأهرام والمقطم وفي مثل ثروتهما، ولا في المحافظة على إشعار الجماهير بحاجاتهم إليه، وبأنه لا بد لهم في الحوادث الطارئة من رأيه، وقد ألف صاحبه له حزبًا سياسيًّا سماه (حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية) فلم يفده قوة تذكر، ولا

رد عنه غارة تشن، وإنما كانت قوته المعنوية في هجومه ودفاعه سنان قلم الشيخ علي، وحسن استعماله لأسنة الأقلام التي كانت تساعده، ومنها ما كان أنفذ من سنانه في بعض الشؤون وأقتل.

فلما مرض الشيخ مرض المؤيد، ولما مات خشي الناس أن يموت كما مات حزبه، ولكن الشركة المالية تداركت حياته المادية، وعسى أن توفق لتدارك حياته المعنوي، فإن لم يتم هذا يفقد مسلمو مصر الانتفاع بقوتهم المعنوية، ولا يبقى لهم قائد منهم في حياتهم السياسية والأدبية، ولا مدافع يؤثر صوته في مصالحهم الدينية، فالشعب جريدة أحداث جهال، والجريدة ليست إسلامية المشرب، والأهالي كذلك، على أنها ولدت سقطًا كما قال أحد الأدباء.

فالجريدة الإسلامية المصرية هي المؤيد، فإذا مات يعسر وجود خلف له.

وإنني بهذه الحرية في النصيحة، ربما أثير على نفسي حقدًا قديمًا وعداوة جديدة، ولا أبالي ذلك في سبيل مصلحة المسلمين، على أنني لست على ثقة من قبولها، والله الموفق.

وأما اللواء فقد بينا أن منشئه تربى في مدرسة المؤيد السياسية، فكان تلميذًا له، إلا أنه عقه وكفره، وكان يحسب أنه يبذه أو يكون ناسخًا له؛ لأنه يبالغ ويغلو في كل المقاصد التي صار المؤيد يسلك سبل الاعتدال فيها، كمدح السياسة الحميدية، وذم الحكومة المصرية، ومقاومة الاحتلال بالذم والاحتجاج، وذلك أن الناس كانوا قد ألفوا بعض المبالغة من المؤيد، فإذا أرجعته عنها الحكمة والخبرة، يعد عوامّهم وشبانهم ذلك من تغيير الخطة، ومن دأب الأحداث والعوام، حب الإغراق والغلو في الكلام، وناهيك بما يتعلق منه بالسياسة والحكام.

وقد بذّ اللواءُ المؤيَّدَ في المبالغة بهذه المقاصد، وانفرد دونه بدعوة مسلمي مصر إلى تكوين رابطة جنسية وطنية، لكنها رابطة تنافي إخاء الإسلام ولا ترضي القبط وسائر طوائف النصرانية.

صادف اللواء من مساعدة الآستانة ومساعدة بعض أمراء مصر وأغنيائها ما لم تصادفه جريدة أخرى.

حتى كان يبذل له الذهب بالألوف، وهو على هذا كله لم يتسع انتشاره إلا بعد سنين من إنشائه، ثم إنه غلب المؤيد على استمالة أكثر تلاميذ المدارس وكثير من العوام، وصار المؤيد باعتداله -على رضاء أكثر العوام عنه- جريدة الخواص.

لم يستطع اللواء أن يصل بكل ذلك إلى أن يكون كجريدة الأهرام أو المقطم في ثباتهما وثروتهما، وقد ألف صاحبه له الحزب الوطني الحديث وألف شركة رأس مالها عشرون ألف جنيه لأجل إصدار لواء أو لوائين آخرين باللغتين الفرنسية والإنكليزية، وإنما كانت هذه الشركة صورية لا

غرض منها إلا بذل ذلك المال لمصطفى كامل يتصرف فيه؛ كما يشاء كما يفهم من قانونها وقد فعل. أضاع هذا المال -كما أضاع ما سبقه من الإعانات مع كل غلة اللواء ومطبعته- في السرف والمخيلة والمضارات، وطفق ينشد في اللواء شركاء يشترون سهامًا أخرى من الشركة؛ فلم يستجب لرقيته أحد، ولم يلبث مصطفى باشا كامل أن مرض وضاعف ثقل المرض عليه همّ الدين والعوز، وفي أثناء مرضه ألف الحزب الوطني الحديث[28] وكل ذلك لم يغن شيئًا.

ومات (كما مات صاحب المؤيد بعده) مثقلاً بالديون، فقد تبين أن عليه عشرات الألوف من الجنيهات.

وقد حجز الدائنون مطبعة اللواء، وبيع أثاث زعيم الوطنية في محل رجل رومي يبيع الأثاث بالمزاد، ثم مات اللواء بعد أن اضطر أصحابه إلى استخدام بعض الكتاب من نصارى السوريين لتحريره وقد كان أعدى أعدائهم، وبعد أن انشق الحزب وأنشأ - بسعي محمد بك فريد؛ رئيسه - جريدة لتكون لسان حاله سماها العلم (بالتحريك) ناط رياسة تحريرها بالشيخ عبد العزيز شاويش، فكانت دون اللواء؛ أحط منه في كل شيء إلا الغلو والإسراف في الكذب، والإرجاف والطعن في الشعوب والأفراد.

لذلك اضطرت الحكومة إلى إلغائها بعد أن حوكم رئيس تحريرها (شاويش) غير مرة، وحكم عليه بالسجن وسجن.

في أثناء هذه الحوادث كان المتحمسون من رجال الحزب الوطني وآخرون ممن يودون استمالة محبي الرجل من التلاميذ يجمعون المال لنصب تمثال له، يخلدون به ذكره، ولو راعوا الآداب الإسلامية لحافظوا بهذا المال على جريدة اللواء، وانتقوا لها محررين من العقلاء الأدباء، فإن هذا هو الذي يحفظ ذكره كما حفظ الأهرام اسمي سليم تقلا وبشارة تقلا، فما من يوم إلا ويقرأ الأهرام ألوف من الناس يرون هذين الاسمين ويتذكرون مؤسسي هذه الجريدة المرتقية، وفي مصر عدة تماثيل لا يخطر أصحابها لأحد على بال حتى عند رؤيتها ماثلة بالشوارع.

وأما (الجريدة) فالعبرة بها أعظم فقد أنشأها جماعة من سروات البلاد أصحاب الثروة والمكانة الاجتماعية، وحصلوا لها رأس مال عظيم، ووضعوا لها قبل إنشائها قانونًا من أدق القوانين، وأسسوا لها مطبعة من أرقى المطابع، وجعلوا إدارتها ومطبعتها في قصر من أحسن القصور، واختاروا لها مديرًا من أذكى الكتاب وأعلمهم بالسياسة والقوانين، واختار هو من المحررين من سبق لهم التمرن على الكتابة حتى في إدارة الأهرام وإدارة المقتطف والمقطم.

وألف أولئك السروات المؤسسون لها حزبًا سياسيًّا يكفلها سموه (حزب الأمة) فهي قد ولدت بالغة راشدة فلم تكن كالمؤيد واللواء طفلاً ينمو في إدارته رويدًا رويدًا، ولكنها - على كل هذه المزايا - لم تستطع أن تجد لها مقعدًا ولا موقفًا من المكان الفسيح الذي وجده قبلها المؤيد أو اللواء من قلب الرأي العام المصري، ولم تستطع أن تنال من جيبه بعض ما ينال المقطم أو الأهرام، بل كانت تحتاج كل سنة إلى إمداد أولئك السروات لها بمالهم، على أنها ليست في الحقيقة لسان حالهم، وسبب ذلك كله أن الروح الذي نفخ في هذه الجريدة لتحيا به ليس إسلاميًّا، وإنما هو فلسفة خاصة لا تكاد تتجاوز دماغ مدير الجريدة وأدمغة بعض أصدقائه من المحامين وغيرهم (الذين هم حزب الجريدة المعنوي لا المالي) إلا بتدرج بطيء جدًّا، ثمّ إنه لا يرجى أن يعم، وليس من الحكمة، ولا مما يبيح الاقتصاد أن يكون له جريدة توقف عليه في مثل هذه البلاد التي لم تستعد لأن تعيش فيها جريدة أو مجلة خاصة بشيء واحد ممّا تعمّ الحاجة إليه كالاقتصاد والزراعة أو الأدب، ودع الفلسفة بجملتها، دون مذاهب الأفراد فيها فقط.
وجملة القول أن الجريدة لا ترمي عن قوس عقيدة مسلمي مصر، ولا تصلح للتأثير بالرأي العام المصري ولا فيه، فهي لا تستطيع أن تخدمه كما يجب، ولا أن تستخدمه كما نحب؛ لأن روحها غير إسلامي، فلا هي لسان حال المسلمين، ولا لسان الذين أسست بأموالهم منهم، وهم لم يستمروا على الإنفاق عليها إلا لما يشعرون به من الغضاضة عليهم إذا ألغوها وأبطلوها، ولا يرجى لها بهذا المشرب أن تبلغ شأو المقطم أو الأهرام من نفوس الناس ولا من الرواج والربح.
فظهر ما شرحناه أن الأحزاب في مصر لا عمل لها ولا تأثير إلا بالجرائد، وأن الجرائد بالرجال الذين يتولون سياستها وإدارتها، وأنه لم توجد بمصر جريدة للمسلمين حسنة الإدارة والنظام اللهم إلا الجريدة في الجملة أو في ضبط الأعمال المالية وأن جريدة المؤيد هي الجريدة الإسلامية السياسية التي أوجدتها الحوادث وكفاءة الشيخ علي يوسف في مكانه من الرأي العام الإسلامي يعرفها لها أهل السياسة في أوربة ويعدونها لسان حال مسلمي مصر وغير مصر أيضًا.
وحذت جريدة اللواء حذوها، ولم تبلغ شأوها؛ لأن صاحب المؤيد كان في السياسة الإسلامية مستقلا، وصاحب جريدة اللواء كان فيها مقلدًا، وإنما كان حظه منها بقدر ما اقتبس من سياسة المؤيد.

وكل ما خالف المؤيد كان خطأ في جملته، إن لم يكن خطأ في كل فروعه وجزئياته، ولكن الغيرية لا تكون إلا بالمخالفة في بعض الشؤون، فصاحبا المؤيَّد واللواء هما أوجدا المؤيد واللواء، وقد كان لسوء تصرفهما المالي دخل عظيم في إضعاف جريدتهما، حتى ماتت إحداهما بعد موت

صاحبها بعدما أشرفت على الموت المالي في عهده، ويخشى أن تموت الأخرى مثلها، إن لم يعن بها أهل الغيرة والبصيرة عناية يراعى فيها ما بيناه في هذه الترجمة مرارًا.

فيجب على مسلمي مصر أن يتدبروا هذا النقص العظيم، وأن يتذكروا أن شعبهم المستعد للعلم والأدب والتربية السياسية والاقتصادية، هو الذي جعل الأهرام والمقطم أغنى الجرائد في بلاده، لأن أصحابهما عرفوا كيف يخاطبونه بحسب استعداده، وهو قد ساعد المؤيد واللواء ما لم يساعدهما، فيجب على من يخدمه أن يخاطبه بلسان استعداده.

وأن يتذكروا أن (مصر) و(الوطن) الجريدتين القبطيتين، تليان في الثروة والثبات الأهرام والمقطم السوريتين.

ولولا صبيتهما القبطية لما كانتا دونهما تأثيرًا في نفوس المسلمين.

فمن النقص -بل من العار- على المسلمين أن لا يكون لهم جريدة أو جرائد مثل هذه أو أرقى منها في النظام والثروة، بله التأثير والحظوة.

إن لي أن أفاخر بكفاءة أصحاب المقطم والأهرام ومحرريهما وببراعتهم؛ لأنهم من أبناء وطني الأول الذي هو وطن المولد والمنشأ.

وأود -واللهِ- أن أفخر بمثل عملهم من أبناء ديني ووطني الثاني الذي هو وطن العمل.

ولا يسرني من مثل المقطم والأهرام في مصر إلا ما ينفع المصريين؛ لأن أبناء وطني السوريين ليس لهم مصالح في مصر إلا ما ينفع المصريين، فهم غير محتاجين إلى جرائد خالصة لهم من دون المصريين، لأجل هذا يهمني أمر المؤيد، ويسرني أن يكون أرقى الجرائد المصرية تحريرًا ونظامًا وإفادة واستفادة؛ لأن المسلم أجدر بمعرفة حاجة الجمهور المسلم وبيانها والدفاع عنها، من مثله في علمه وبيانه من غير المسلمين، وأقدر على التأثير فيه بحمله على الخير أو صرفه عن الشر، وعلى التأثير به يجعله مِجَنًّا يدفع به عنه ما يراه ضارّا به.

وقد رأيت غير واحد من المشتغلين بالعلم وبالسياسة من النصارى يتمنون لو ولدوا مسلمين؛ لأجل أن يكونوا أقدر على خدمة وطنهم أو الشرق الإسلامي كله.

وما أطلت الكلام على الجرائد في ترجمة الشيخ علي يوسف إلا لأذكِّر إخواني مسلمي مصر بما أراهم غافلين عنه، وهو أنه لم توجد لهم جريدة تصح أن تكون لسان حالهم بحق إلا المؤيد، وأن الروح الذي كان به المؤيد هو المؤيد يجب أن يبقى له، ويجب أن يكفل، وأن يكون لهيئة التحرير فيه مع الرئيس الكفؤ، مراقب موثوق به، مثل سعد باشا زغلول الذي كان ركنًا من أركان تأسيس

المؤيد.

وإلا خسر مسلمو مصر خسارة يصعب عليهم الاستعاضة عنها في سنة أو سنين قليلة، وربّما حرموها الأجيال طويلة، وقد ذكرناهم بما يوجب العبرة من تاريخ أعظم جرائدهم.

هذا وإن أية جريدة من جرائد المسلمين في مصر يتولى رياسة تحريرها كاتب خبير بمصالح المسلمين غيور عليها، قادر على الدفاع عنها، يمكن أن تحل محل المؤيد الأول وأن تكون أكمل منه فيه وأثبت، ولكنْ لا يكون ذلك إلا بعد ثقة الجمهور المسلم بها، وهذه الثقة إذا استعادها المؤيد في سنة واحدة -لا تنالها جريدة جديدة بعد سنين كثيرة أو قليلة، ومن ذا الذي ينفق على جريدة جديدة إلا بعد سنين كثيرة أو قليلة، ومن ذا الذي ينفق على جريدة جديدة عدة سنين، منتظرًا طروء الحوادث التي تقنع الرأي العام بأنها هي حاجته التي يطلبها لسان حاله واستعداده؟

(للترجمة بقية)

((يتبع بمقال تالٍ))

الشيخ علي يوسف[29]
(4)

أخلاقه وسجاياه :

المنار لا يعنى بترجمة أحد ترجمة تاريخية محضة؛ وإنما يعنى من تراجم الناس ببيان الأخلاق الحسنة والأعمال النافعة، متى تكون مثالاً حسنًا، وقدوةً صالحةً؛ لأن غاية المنار إصلاحية فهو يعنى بكل ما يتوسل به إلى الإصلاح، ويرغّب الناس في الفضائل ومحاسن الأعمال، وإن ذكرنا ما يقابل ذلك فإنما نذكره لأن العبرة لا تتمّ إلا به، ولا يجعل ذكر المساوئ هو الأصل في الموعظة، وقد كان ما ذكرناه من ترجمة هذا الرجل دائر على هذا القطب، وأحببنا أن نختمها بهذه الكلمات التي تذكر الناسي وتنبّه الغافل لِما هو المقصود بالذات.

فنقول: إن هذا الرجل نبه بعد خمول، وارتفع بهمته وأخلاقه إلى الطبقة العليا في أمته، فصار من بطانة أمير البلاد وأهل ثقته.

وصاحب التأثير الأول في أفكار المصريين، والرأي المحترم في جميع الأقطار الإسلامية، وكم من متعلم نال الدرجات العلى في العلوم والفنون العربية والإفرنجية يتمنى أن يصل إلى ما وصل إليه الشيخ علي يوسف بما دون درجات علمه، وهو لا يستطيع إلى ذلك سبيلاً؛ لأن مَن أبطأت به سجاياه وأخلاقه لا تسرع به علومه وفنونه، فأحب أن تتذكر نابتتنا أن الرجل قد ارتقى بالعزيمة وقوة الإرادة والصبر والثبات وعلو الهمة والإخلاص للملة والأمة، فمَن استطاع أن يتخلق بهذه الأخلاق، فليقصد بها ما شاء من مراتب الكمال، ومقامات الرجال.

وليحذر المعتبر بسير رجال عصره من الوقوع في مثل الخطأ الذي ارتكبه هذا النابغة وأمثاله من النوابغ (كقاسم بك أمين) وهو محاولة استعجال الثروة الواسعة التي تليق بمقامهم الاجتماعي بسلوك الطرق التي ربما تؤدي إلى ضد مرادهم، والشيخ رحمه الله عصمته تربيته الدينية أن يفتتن بما افتتن

به كثير من كبرائنا المتفرنجين من المقامرة، وإنما تورط في شراء الدور والقصور وعرصات الأرض المعدة للبناء في تلك المدة التي خرج فيها التغالي بالأثمان عن الحد الطبيعي الذي وصلت إليه درجة العمران في البلاد.

ولما عادت (سنة ردّ الفعل) بأثمان المباني وعرصاتها إلى ما دون الثمن المعتدل لها، بعد ذلك الإفراط فيها، غرق الرجل مع مَن غرق في طوفانها، ولولا ذلك لَمَا قصرت ثروته بما يليق بمقامه الاجتماعي، على ما كان من تقصيره في إدارة المؤيد المالية.

وما ذكرنا هذا -على كونه معروفًا مشهورًا- إلا ليكمل الاعتبار بسيرة فقيدنا النافعة طردًا وعكسًا، ونسأل الله تعالى أن يتغمده برحمته، بمنّه وفضله وكرمه.

مصاب مصر والشام[30]
برجال العلم وحملة الأقلام

أكبر مصائب البلاد موت العلماء والأدباء والكتاب الذين يغذون العقول ويزكّون النفوس بالتعليم والتصنيف ونشر العلوم والآداب.
وقد رزئت الديار المصرية والسورية في هذه الأيام بوفاة أربعة كهول من أشهر رجالهما في علوم الدين والدنيا واللغة، يعدون من عوامل التحول والانقلاب الاجتماعي في الأمة العربية.
وهم :

أحمد فتحي باشا زغلول المصري

والشيخ حسن المدور

والشيخ محيي الدين الخياط - البيروتيان

والشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي.

1- أحمد فتحي باشا زغلول

في آخر يوم من الشهر الماضي شيعت مصر جنازة نابغة العرب فيها صديقنا أحمد فتحي باشا زغلول، وشعر كل ذي بصيرة فيها بأنها فقدت رجلاً لا خلف له في مواهبه ومزاياه.

ولد الفقيد لليلتين أو ثلاث خلت من شهر رمضان 1279 (الموافق أول شهر الشتاء الثاني سنة 1241 هجرية شمسية - 22 فبراير 1863م) والده من بيت كريم ينتمي إلى بعض قبائل العرب التي استوطنت القطر المصري، ووالدته من بيت كريم يسمَّى (بيت بركات)، وهما من قرية من قرى مديرية الغربية اسمها (إبيان)، وكان والده سمّاه (فتح الله صبري) ثم غير اسمه ناظر المعارف فسماه باسمه (أحمد) لما ظهر له من نجابته، ولقبه بفتحي للإشارة إلى اسمه الأول.

وتلقى التعليم الابتدائي والوسط في مدارس الحكومة بمصر والإسكندرية، واختار له ناظر المعارف أن يتلقى التعليم العالي في فرنسا، فكان في مدارس التعليم كلها آية الذكاء والاجتهاد.

ولما عاد من أوربة دخل في خدمة الحكومة في النيابة والقضاء حتى صار رئيسًا لمحكمة مصر الأهلية ثم وكيلاً لنظارة الحقانية، ونال ما نال من رتب الحكومة وأوسمتها العالية، وكان العارفون يجزمون بأن ترقيه دون استحقاقه واستعداده.

فهل هذا هو أحمد فتحي باشا زغلول ؟تعلم في مدارس مصر وأوربا ألوف، عاش أكثرهم ومات كما يعيش ويموت الملايين من الجهلة والمغمولين، وتقلب كثيرون منهم في مناصب الحكومة وأعمالها.

وما كل واحد منهم يستحق أن يترجم في الصحف ويخلد اسمه في دواوين التاريخ، اللهم إلا تواريخ المنافقين الذين يعظمون كل صاحب منصب أو ثروة وإن لم يكن له أثر يذكر أو منقبة تؤثر إلا جمع المال واقتناء العقار، والتعالي على الناس ولو بالظلم والإفساد.

أحمد فتحي زغلول ذلك الرجل الذي شهد له كل ذي علم وفهم في مصر بأنه بذ الأقران، وكان المجلى من حلبة المدنية في كل ميدان، لم يجمع مالاً، ولم يتأثل عقارًا، ولم يترك درهمًا ولا دينارًا؛ وإنما كان هو ذلك الرجل بما آتاه الله من الذكاء واللوذعية، والعقل والروية، والهمة العلية، وما تربى عليه من ملكة الاستقلال، وما اكتسبه من العلوم وما أحسنه من الأعمال.

خلق أحمد فتحي زغلول كبير الاستعداد، آتاه الله فؤادًا ذكيًّا، وذهنًا لوذعيًّا، والأذكياء في أمتنا العربية كثيرون، فإن كان حظ هذا الرجل من الذكاء عظيمًا فكم من عظيم الذكاء أطفأت التربية

السوءى والبيئة الفاسدة نور ذكائه، وهدمت ما بنته الفطرة من قوة استعداده، وكم من ذكي وجهت القدوة السوءى ذكاءه إلى ما يضره أو يضر أمته كلها، وقد اتفق لهذا الذكي اللوذعي أن نبت في بيئة خاصة، مثل فيها أمام عينيه من أول العهد بالتمييز إمام الإصلاح في هذا الزمان، ومن حوله من المريدين والإخوان، الذين لم يكن لهم سمر ولا حوار، إلا في شؤون التربية والإصلاح، فكان يرى منهم منذ عهد التعليم الابتدائي الأستاذ الإمام متجليًا في فضائله وحكمته، والشيخ عبد الكريم سلمان متحليًا بآدابه وفطنته، وأخاه (سعدًا) معتصمًا باستقلاله وحجته، مع أتراب لهم من مريدي السيد جمال الدين حكيم الإسلام، وخليفته الأستاذ الإمام، وكل في فلك العلم والحكمة يسبحون، وحول قطب الإصلاح وتجديد حياة الأمة يدورون، فلقح استعداد أحمد فتحي بفكرة العمل والسعي لتجديد حياة الأمة، وصحب الأستاذ الإمام بعد عودته من أوربة ودخوله في أعمال الحكومة كأخيه الأكبر (سعد باشا) صحبة المريد الصادق للمرشد الكامل، فاستفاد من تلك الأفكار السامية، والمقاصد العالية، والفصاحة الخلابة، والبلاغة الجذابة، ما شاء الله أن يستفيد.

وكان زيته صافيًا يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، فاتصل بذلك القبس المتألق فاشتعل نورًا على نور.

أروي عن فقيدنا النابغة كلمتين في أستاذنا الإمام رحمهما الله تعالى:الأولى سمعتها منه في أول مجلس لقيته فيه: زار الفقيد طرابلس الشام بصحبة الأستاذ أيام كنت أطلب العلم فيها، فكنت مدة مكثهما في طرابلس ملازمًا لهما من الصباح إلى وقت النوم؛ لأنني كنت اطلعت على ما صدر من جريدة (العروة الوثقى) فعشقت السيد جمال الدين مدير سياستها، والشيخ محمد عبده رئيس تحريرها، وصرت مريدًا لهما بالغيب، وقد جئت الدار التي ناما فيها ليلة قدما فقيل لي أنهما ذهبا إلى حمّام عز الدين، جئت الحمام فألفيت بعض العلماء والوجهاء قعودًا في خارج الحمام ينتظرون مع الفقيد، والأستاذ في الداخل، فترجمني الشيخ خير الدين الميقاتي من علماء طرابلس للفقيد، وكان مما قاله: إنه أكتب الكتاب عندنا وهو لا يرى لنفسه أستاذًا في الكتابة إلا الأستاذ الشيخ محمد عبده على أنه لم يره، فقال الفقيد: كلنا ليس لنا أستاذ في الكتابة غير الأستاذ.

وأحسب أنه فسّر ذلك بأن التمايز في الكتابة إنما هو بالأفكار وأساليب التصرف في الكلام، وأن كل من يقرأ ما كتبه الشيخ أو يسمع كلامه يجد فيه القدوة المثلى والمادة الغزيرة في ذلك.

ولم أحفظ من كلامه بنصه وقتئذٍ إلا تلك الكلمة.

وأما الكلمة الثانية فقد قالها منذ ثلاث سنين؛ إذ كنا نتذاكر في داره ببعض المسائل الاجتماعية،

فذكرنا كلمة من حكم الأستاذ في ذلك فسرتها الحوادث فقال: إن كثيرًا من كلام الشيخ لم يظهر لنا معناه المراد إلا بعد موته.
وقد كان يقول الكلمة فنظن أننا فهمناها ثم يظهر لنا بعد عدة سنين أننا لم نكن فهمنا بعد غوره فيها، حتى كشفه طول البحث وسعة الاختبار.
اهـ بالمعنى.
تلك البيئة الإصلاحية هي التي جعلت استعداد أحمد فتحي زغلول خطيبًا مفوهًا، كما جعلته كاتبًا قديرًا، فكان في مصر ثاني الأستاذ الإمام في فصاحة لسانه، والتزام الفصيح في أكثر كلامه، أما الأستاذ فقد كتب الشيخ إبراهيم اليازجي في ترجمته - وناهيك بنقده ودقته -: إن كلامه الذي كان يلقيه في مجالسه العادية كأبلغ ما يكتبه المترسلون المتأنقون.
أقول: وناهيك به قدوة صالحة، ومربيًا للملكة.

تلك البيئة الطيبة والقدوة الصالحة هي التي لقحت ذلك الذهن الوقاد بلقاح الاستقلال، الذي به تظهر ثمرات العلوم عند القيام بالأعمال، فكان مضطلعًا بالعمل بما تعلم، وكان علمه ملكة ثابتة، وصفة راسخة، وشجرة مثمرة، وأكثر بالعمل المتعلمين منا مقلدون، يودعون العلم بوداع المدرسة، وما عرفنا رجلاً مثله كانت الحكومة تشعر بحاجتها إلى علمه، وترجع إليه حتى في القوانين والأعمال التي لا تتعلق بعلمه، فهو واضع اللائحة الإصلاحية للمحاكم الشرعية، وهو واضع قانون إصلاح الأزهر، وناهيك بهما، وبما يتوقف عليه وضعهما، وقد اشتهر أنه كان في نظارة الحقانية الركن الركين لوضع جميع الأنظمة واللوائح والقوانين.
لم تشغل الفقيد خدمة الحكومة التي كان يتقنها من كل وجه، عن خدمة الأمة بالعلم والعمل، فقد كان عضوًا عاملاً في الجمعية الخيرية الإسلامية، وألف وترجم عدة كتب ينبغي بها الإصلاح والنهوض بالأمة، دون الكسب والثروة، وكان أول ما أخرجه للغة العربية من نفائس مصنفات الإفرنج (كتاب أصول الشرائع) لبنتام، وهو كتاب جليل في فلسفة القوانين وعللها ومداركها، يعجز عن ترجمته من لم يكن راسخًا في علوم القوانين والفلسفة، وسعة الاطلاع في علم اللغة، ولو كان العلم في الأمة حيًّا لأعيد طبع هذا الكتاب مرارًا.
وكان آخر كتاب ألفه في القضاء (شرح القانون المدني المصري) شرحه شرح العالم المجتهد المستقل، وتصرف في تنسيقه وترتيبه تصرف المصلح المنقح، غير في هذه الترجمة كثيرًا من الاصطلاحات القضائية المترجمة عن اللغة الفرنسية ترجمة غير صحيحة، فأعجبت الحكومة

وجمهور رجال القضاء بهذا الشرح، واعترفوا بشدة الحاجة إليه، وكان هو الباعث على احتفالهم بالشارح ذلك الاحتفال الذي نوهنا به في وقته.

وله في هذه المباحث القضائية كتاب حافل سماه (المحاماة) وقد بين في هذه الكتاب تاريخ المحاماة عند الأمم القديمة بالإجمال وعند الأمم الغربية بالتفصيل ومنه الكلام في نظامها عند هذه الأمم، والمؤتمر الذي عقد لها، ثم أفاض القول في المحاماة في مصر، وبيان حال المحاكم المصرية وتاريخها وتأسيس الحكومة المصرية ودخولها في سلك النظام الأوربي، وأطال الكلام على القضاء فيها، وبعد استيفاء كل ما أراده من الكلام على المحاماة وأهلها من التاريخ والنظام والقوانين والآداب، وما يناسب ذلك ختم الكتاب بملحقات في قوانين مصرية سابقة ولوائح وأوامر رسمية مصرية متممة للموضوع.

فكانت صفحات الكتاب 434؛ وصفحات الذيل 210 وله رسالة قضائية في التزوير مفيدة في بابها.

وله ترجمة كتاب (الإسلام - خواطر وسوانح) للكونت هنرى دي كاستري الفرنسي، في رد مفتريات الصليبين وأشباههم على الإسلام، فقد كان هذا الكونت واسع الاطلاع في كتب المسلمين، ونقل في هذا الكتاب من مطاعن الإفرنج في الإسلام ما لم يخطر على بال مسلم في الدنيا، وردها وأثنى على الإسلام خير الثناء.

وقد ترجم هذا الكتاب وطبعه في أواخر سنة 1305، وهي التي صدر فيها المنار، وقرظناه في العدد الحادي عشر من السنة الأولى، ونشرنا مقدمته للترجمة العربية التي نقل الفقيد فيها نبذة من المنار.

وكان غرضه من ترجمة هذا الكتاب الدفاع عن الإسلام وبيان محاسنه وتنبيه المسلمين إلى ذلك.

وأما الكتب التي ترجمها لغرض التجدد العلمي والمدني في مصر وسائر الأمة العربية فهي كتاب (سر تقدم الإنكليز السكسونيين) في الطريقة المثلى للتربية والتعليم، لعالم فرنسي اسمه (أدمون ديمولان) وكتاب (روح الاجتماع) وكتاب (تطور الأمم) كلاهما للفيلسوف الفرنسي الكبير (غوستاف لوبون) فكان غرضه من هذه الكتب بث فكرة التربية الاستقلالية والتعليم العلمي في الأمة، واعتماد الأفراد على أنفسهم لا على حكوماتهم[31] وتنبيهها إلى أسباب التحويل والانقلاب في الأمم والشعوب، وكونه لا يحصل إلا بالتدريج البطيء، وتذكيرها بالآفات والعلل الكامنة في التطورات الاجتماعية الحديثة في الإفرنج، كالاشتراكية والأحزاب والجمعيات السياسية، والاقتصادية وغيرها.

ولغوستاف لوبون مذهب خاص في هذه المباحث يخالفه في كثير من آرائه بعض علمائهم والناظر

المستقل لا يقلد أحدًا من المختلفين، وإنما يمحص المسائل ويتبع قوة الحجة والدليل.

ويقال: إنه كان بدأ بترجمة كتاب مدنية العرب أو حضارة العرب لغوستاف لوبون أيضًا، وكان الأستاذ الإمام حضه على ترجمته، وآخر ما أخرجه قلمه للناس ترجمة رسالة سياسية في سوء حال الدولة العثمانية وشدة حاجتها إلى تغيير وضعها ونظامها، وهي للأمير مصطفى فاضل باشا زعيم الأحرار الأول في الآستانة خاطب بها السلطان عبد العزيز، ورسالة أخرى في قواعد وفذلكات اجتماعية لغوستاف لوبون جعلها كالمذاكرات والعناوين لما فصله في كتبه الاجتماعية، فترجمها الفقيد بالعربية وسماها (جوامع الكلم).

وقصارى القول في صفة الرجل الاجتماعية والسياسية أنه حجة على كفاءة العربي، وقدرته على العلم والعمل بالنظام الأوربي كأرقى الأوربيين؛ لأنه ركن في العمل بذلك.

وأما صفاته الشخصية فقد كان حسن المعاشرة، حلو المفاكهة، نزيه النفس واللسان، يقدر على إرضاء كل جليس بغير دهان، لا يمل جليسه جده، ولا يعبث بوقار هزله، وقلما تربى في أوربا شاب مثله في عفته وصيانته، والاعتصام من استخفاف حرية الفسق لشرة الصبا وخفته، وكان دقيق النظام في كل شيء متأنقًا جد التأنق في زيه ومعيشته بلا تكلف، ولا إضاعة وقت في العبث وأما رأيه في الإصلاح والتجدد فهو أن يبني ولا يهدم؛ لأن الأمة إذا وجدت البناء الجديد أصلح لها، تركت المباني العتيقة تسقط من تلقاء نفسها، فلم يكن يدعو إلى ترك العادات الضارة ويشنع على أنصارها؛ لذلك لم يطعن الناس في رأيه ومذهبه كما طعنوا في صديقه قاسم بك أمين؛ بل لم يكن الجمهور يعرفون أن له رأيًا يرمي إليه في الانقلاب الاجتماعي.

فإن فهم بعض أذكياء الحزب الوطني أن ما شرحه كتاب روح الاجتماع من أمر اندفاع الجماعات بغير عقل ولا شعور ينطبق على حزبهم، فهل كان يسهل عليهم أن يطعنوا بوطنية مترجم الكتاب ويعدونه خصمًا لهم ؟هذا وإن الفقيد قد كان ميالاً إلى الإصلاح الديني، معتقدًا أنه شطر أو شرط للإصلاح الدين والسياسي، وقد كان أخبرني في أوائل العهد بإنشاء المنار أن إبراهيم باشا فؤاد ناظر الحقانية مغتبط بالمنار ويرى وجوب تعميم نشره بين المسلمين.

وأنه هو قد سرّ بذلك وتواعد مع الناظر باتخاذ وسيلة لذلك يوزع بها ألوف من النسخ على طلاب العلم وفقراء القراء بثمن قليل.

ثم لم أراجعه ولا كلمت إبراهيم باشا في ذلك عندما كنت ألقاه وأسمع منه الثناء على المنار.

ولا هما وفقًا لشيء مما تحدثا به.

ولما توفي شيخنا الأستاذ الإمام تذكر أصدقاؤه ومريدوه في عمل شيء يذكر به، فاقترحت أن تنشأ باسمه مدرسة كلية يجمع بها بين التربية الدينية الصحيحة وتعليم العلوم الدينية والدنيوية على طريقته التي كان يسعى لها سعيها بإصلاح الأزهر، فقبلوا الاقتراح بكل ارتياح، وانتخبوا في دار سعد باشا زغلول لجنة لوضع نظام المدرسة مؤلفة من حسن باشا عاصم والفقيد وصاحب هذه المجلة، فكان الفقيد مهتمًا بهذا، وذاكر به لورد كرومر - كما تقتضي المصلحة - فأظهر اللورد له الاستسحان.

ووعده بأن يحضر له نظام وبرنامج مدرسة عليكرة الإسلامية الهندية للاقتباس منه واستحسن أن يبدأ بالعمل صغيرًا ليكبر بالتدريج.

ويعلم الذين يقرؤون المنار منذ سنين أن الذي حال دون إنشاء هذه المدرسة هو ظهور مشروع مدرسة الجامعة المصرية ونوط أمرها بسعد باشا زغلول وقاسم بك أمين.

وكان سعد باشا هو الركن الركين لمشروعنا فتركه للجامعة وما كان يمكن أن يشتغل به وبمشروع الجامعة معًا.

ولما عزمت على السفر إلى الآستانة منذ أربع سنين لأجل مشروع الدعوة والإرشاد اهتم بذلك الفقيد اهتمامًا عظيمًا، وجاءني ليلة من ليالي رمضان الذي سافرت فيه واقترح أن نتكلم في المشروع منفردين، فأقفلنا باب الدار، وظللنا نتحدث في المشروع إلى ما بعد نصف الليل، فلما شرحت له وسائله ومقاصده سر به وبالغ في استحسانه، ووعد بأن يساعد الجمعية التي تؤسس له هناك بقدر الطاقة، وعهد إلي بأن أتعاهده بالكتابة من الآستانة، فكانت الكتابة بيننا متصلة في ذلك، ولم أر أحدًا من أصدقائي بمصر اهتم بذلك بعض اهتمامه رحمه الله تعالى.

كان سبب موته مرض ألم بدماغه، سببه كثر تفكره واشتغاله، ولا غرو فقد كانت قوة ذلك الدماغ أعظم من مادته، وعمله فوق استطاعته، وذلك منتهى أكثر الرجال الذين همتهم أكبر من قوتهم، تنسى عقولهم حقوق أبدانهم: فيجنون على أمتهم بجنايتهم على أنفسهم؛ إذ ينتزعهم القدر منها، أقدر ما كانوا على خدمتها، فمنهم من يغتضر في سن الشباب، ومنهم من يلقى مصرعه عند الاكتهال، وبلوغ قواه كلها مستوى الكمال، كمن فقدنا اليوم، ومن فقدنا بالأمس، رحمهم الله تعالى.

((يتبع بمقال تالٍ))

مصاب مصر والشام[32]
برجال العلم وحملة الأقلام

2- الشيخ حسن المدور

هو من بيت معروف في بيروت.

اشتغل من أول نشأته بطلب العلوم العربية والشرعية، وصحب الأستاذ الإمام أيام هجرته في بيروت وتلقى عنه، فاستنار عقله، وأشرب حب الإصلاح في قلبه، ولكنه كان يداري الجامدين، ويخاف شر المستبدين، فلهذا لم ينهض بالدعوة إلى الإصلاح، ولم يقم بمظاهرة الظاهرين بها في زمن الاستبداد، على أنه كان يدرس ويفيد الطلاب باعتداله ورويته، وقد رغب إليَّ منذ سنتين أن أرسل إليه ما طبع من تفسير القرآن الحكيم؛ ليقرأه درسًا في الجامع الكبير، فلم أبادر في إرساله إليه، فكنت في ذلك مخطئًا، وما كنت ألتمسه لنفسي من العذر في التأخير كان ضعيفًا.

وكان الفقيد كريم الأخلاق، حسن المعاشرة واسع الحلم، شديد الاحتياط في أموره، فوجود فقيه مثله في بيروت كان ضروريًّا؛ إذ كان رحمه الله تعالى وسطًا بين تشديد الجاهدين، وشذوذ المتساهلين المفرطين، فهو من الأفراد الذين لا تستغني أمتنا الإسلامية في قطر ولا مصر عن واحد أو آحاد منهم في هذا العصر - عصر التحول والانقلاب.

وقد كان مسلمو بيروت مستفيدين من هذه المزية من مزاياه وإن لم يعرفها له الجمهور منهم.

وقد صار في العهد الأخير أمينًا للفتوى في بيروت؛ فكان خير عون وظهير لمفتيها لهذا العهد صديقنا الشيخ مصطفى نجا، ويسوؤنا أننا لا نعرف من ترجمة هذا الصديق شيئًا كثيرًا نثبته في ترجمته؛ ليكون ذكرًا باقيًا له، فنحن نعلم أنه كان يفيد طلاب العلم والمستفتين بعلمه وعقله وأدبه. ولا ندري أكتب شيئًا من الكتب والرسائل المفيدة أم لا.

وقد خسرت بيروت بفقده خسارة لا عوض لها الآن عنها، لضعف الاشتغال بالعلوم الدينية فيها.

وهو قد دخل في العقد السادس من عشرات سني عمره، وكان جيد الصحة، فعرض له المرض أيامًا معدودات انتهت بأجله، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

***

3- الشيخ محيي الدين الخياط

ولد بمدينة صيدا في رجب سنة 1229 فكانت وفاته في أواخر السنة القمرية المتممة للأربعين، ورأينا في بعض جرائد بيروت التي أَبَّنَتْهُ أن والده من السلالة العلوية، وأنه لرغبته عن التفاخر بالأنساب لم يكن يعرف عنه كلمة تدل على ذلك، وأن أمه ألبانية الأصل، وكانت كريمة الخلق ذكية الفؤاد، فهي التي تولت تربيته وعنيت بتعليمه.

وقد تعلم التعليم الابتدائي في مدرسة لجمعية المقاصد الخيرية في بيروت، وتلقى بعض علوم الأدب والدين عن الشيخ إبراهيم الأحدب الطرابلسي والشيخ يوسف الأسير البيروتي اللذين انتهت إليهما رئاسة العلوم العربية والشرعية في بيروت.

ثم كان جل تحصيله بجده واجتهاده في المطالعة والمراجعة والتعليم، وعين بالكتابة العصرية ونظر الشعر فكان في الرعيل الأول من فرسانهما في وطنه، وعلم في بعض المدارس، وحرر في عدة جرائد، وألف عدة كتب قرظها المنار في أزمنة نشرها، حتى صار أشهر شبان النهضة الإسلامية في بيروت.

لقيته في بيروت قبل هجرتي إلى مصر، فإذا هو شاب يتدفق غيرة على الأمة وشعورًا بسوء حالها، وشدة حاجتها إلى الإصلاح ومجاراة الأمم الحيّة.

ولما أنشأت المنار جعلته وكيلاً له في بيروت وما يتصل بها، فقبل ذلك بالارتياح، وكان مغتبطًا بالمنار أشد الاغتباط، على ما كان في ذلك من الخطر والتعرض لأذى الحكومة الحميدية، ولكنه عهد بعد ذلك بتوزيعه وجمع مال اشتراكاته لصاحب له من ذوي المطامع الدنيئة وفاسدي الأخلاق، فغشنا به - غير متعمد - عدة سنين سامحه الله وعفى عنه.

كان الفقيد صاحب همة علية، وحب للاستقلال الفكري والحرية، وميل شديد للسياسة، ولو أتيح له أن يعيش في بلاد كتاب العصر المصلحين.

ولكنه كان ضعيف الثقة باستقلال نفسه في العمل، فلم يتجرأ على الهجرة ولا على النهوض بعمل مستقل غير مضمون الربح، ولهذا باع قلمه لأصحاب الجرائد بالأجرة مراعيًا مشاربهم ومذاهب سياستهم فيها، فكان لا يؤلف كتابًا إلا بعد أن يتعاقد مع رجل يطبعه على نفقته، ويكون ملكًا لطابعه من دونه، وكان الباعث له على ذلك الحاجة إلى المال، وحب التعجل بربح قطعي بلا نفقة ولا انتظار، وكان من لوازم هذه الطريقة من الكسب بالقلم اختيار ما يروج عند الطابعين وسرعة التأليف، فالوقوف به عند حد في استطاعة المؤلف ما هو أعلى منه، ولولاها لم يحصر جُلَّ ما كتبه في كتب التعليم الابتدائي، فإنه لم يؤلف إلا كتب دروس التاريخ الإسلامي والعربية والفقه والمطالعة للمدارس الابتدائية.

وعلّق على ديواني أبي تمام وابن المعتز تفسيرًا لغريبهما، سلك فيه مسلك الاختصار المخل، وأوقعه الاستعجال في كثير من الغلط، على أنه كان من أحرص كتاب العصر على ضبط اللغة وصحة العبارة، والثقة مما يضبطه بدقة المراجعة.

فكان يضاهي الشيخ إبراهيم اليازجي في هذا.

وكان يعرف اللغة التركية، وترجم عنها قصة (الوطن) لنامق كمال بك الشهير.

وكان يرجى من خدمته للغة العربية ما هو أعظم من ذلك، ولكن كان من سوء حظ الأمة العربية أن فقدته عندما بلغ أشده واستوى، وقوي في إتقان خدمة الأمل والرجاء عرضت له حمى وهو في عنفوان قوته، فقضت في أسبوع واحد على حياته، فخسرت بفقده الأمة العربية قلمًا سيّالاً، وذهنًا جوالاً، وهمة لا تعرف ملالاً ولا كلالاً.

***

4- الشيخ محمد جمال الدين القاسمي

هو علامة الشام، وبادرة الأيام، والمجدد لعلوم الإسلام، محيي السنة بالعمل والتعليم، والتهذيب والتأليف، وأحد حلقات الاتصال بين هدي السلف، والارتقاء المدني الذي يقتضيه الزمن، الفقيه الأصولي، المفسر المحدث، الأديب المتفنن، التقي الأواب، الحليم الأواه، العفيف النزيه، صاحب التصانيف الممتعة، والأبحاث المقنعة، صديقنا الصفي، وخلنا الوفي، أخونا الروحي، قدّس

الله روحه، ونوّر ضريحه، وأحسن عزاءنا عنه.
نشأ الفقيد في بيت من بيوت العلم والدين في دمشق الشام، ولد سنة ثلاث وثمانين ومئتين وألف.
وتلقى مبادئ العلوم العربية والشرعية عن والده الشيخ سعيد ابن الشيخ قاسم الملقب بالحلاق، والقاسمي نسبة إلى الشيخ قاسم هذا.

ووالدته علوية يتصل نسبها بنسب الشيخ إبراهيم الدسوقي الشهير.
وقد عني الفقيد في آخر عمره بإثبات هذا النسب، وكتب له شجرة، وجاء مصر في العام الماضي لشؤون تتعلق بذلك فسررنا بلقائه، وجددنا ما لا تخلقه الأيام من عهود إخائه.
وكتبنا له كما أحب كلمات على نسبه.
وقد صار بعض تلاميذه وأصحابه يطلقون عليه لقب (السيد) بعد تحرير هذا النسب؛ بناء على القول بعموم شرف الأسباط.
ولكن العرف الذي عليه أكثر المسلمين على خلاف هذا القول.
والكثيرون من أهل سوريا يطلقون لقب (السيد) على من ليس له لقب علمي ولا رسمي، ولعل ذلك من نزغات الأمويين، في هضم حقوق العلويين، والشيخ غني عن هذا اللقب، الذي لا يفهم المراد منه أحد.
وقد تلقى العلوم المتداولة في الشام عن الشيخ بكري العطار أشهر علمائها وفقهاء الشافعية فيها، وكان يحضر مجالس الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرزاق البيطار مجدد مذهب السلف في الشام، وقد استفاد من علمه وعقيدته الأثرية وهديه وأخلاقه المرضية، ما لم يستفده من غيره، وصحب الأستاذ المعنّ المفنّ الشيخ طاهراً الجزائري، فاستفاد من صحبته علمًا بحال العصر، ومعرفة بنوادر الكتب وغرائب المسائل، وصحب العالم المستقل الشيخ سليم البخاري، وأترابًا من خيرة شبان العصر المدنيين كرفيق بك العظم ومحمد أفندي كرد علي وغيرهما وجماعتهم.
فكان لصحبة هؤلاء الشيوخ والشبان - وهم خير من أنبتت الشام في هذا الزمان - تأثيرًا عظيمًا في حياته العلمية، من حيث فتحت لاستعداده الفطري، واستقلاله الوهبي، أبواب البحث والتحقيق، وعدم الوقوف عن المسلمات من التقاليد، ونبهته إلى حاجة الأمة إلى الإصلاح المدني كحاجتها إلى الإصلاح الديني وجاء مصر مع الأستاذ البيطار -على عهد الأستاذ الإمام- فاغتبطا بلقائه واغتبط بلقائهما، وصارت المكاتبة بعد ذلك متصلة بينه وبينهما.
وإنما كان جمال الدين ذلك الرجل بجوهر نفسه، وقوة استعداده، وكم من طالبِ علمٍ سمع مثل ما

سمع، ولقي من الشيوخ والشبان مثل من لقي، فأنكر كل ما خالف - وعلى كل من خالف - ما عرف وألف.

ولم يهده ذلك إلى طلب علم جديد، ولا إلى مراجعة النظر واستشارة الدليل.

فالحق أن الأفراد الذين امتازوا في هذا العصر من أمتنا بالعلم الصحيح والتصدي للإصلاح، إنما امتازوا أولاً بقوة الاستعداد، والميل الفطري إلى الاستقلال، ثم سلوك النظر والاستدلال، فمن كان هذا نفعه لقاء أهل الاختصاص، والاطلاع على أحاسن الكتب والأسفار، فيكون في ذلك كالنحلة في الروض، تجني من ناضر الأزهار ويانع الثمار أطيب ما فيها.

رغبت بعض المدرسين، في قراءة كتاب إحياء علوم الدين، فقلب أوراقه كلها أو بعضها، فلم يقع اختياره على شيء يقرؤه منها، إلا بعض حكايات الصالحين، وبعض الآثار في فضائل الأعمال، فهو لم يستفد من علم الغزالي مسألة ما، ولم يعقل من خصائص الكتاب شيئًا.

ذلك بأن هم ذلك المدرس كان محصورًا فيما رأى عليه أمثاله، وهو انتقاء ما يرضي الناس ويلذ لهم، ولا يذكرهم بشيء من جهلهم، ولا يكشف لهم الستار عن شيء من عيوبهم، ولا ينذرهم سوء عاقبة إفراطهم وتفريطهم.

نعم إن كل فرد من أولئك الأفراد القلائل الذين نعدهم في هذا العصر من المصلحين - وصديقنا المترجم منهم - لم يكن امتيازهم إلا بصفاء جوهرهم وقوة استعدادهم الفطري للاستقلال والكمال.

مع التوفيق للطلب والاشتغال، واتفاق لقاء بعض أصحاب المزايا من الرجال، ذلك بأنه ليس في أمتنا مربّون، ولا معلمون مصلحون، لا في البيوت ولا في المدارس، ولو وجد فينا كثير من القادرين على التربية الصحيحة والتعليم الاستقلالي، لوُجِدَ في كل بلد - لا في كل قطر فقط - كثير من أمثال القاسمي.

ظهر الشيخ جمال الدين في الشام على حين فترة من العلماء، فقد كان من أدرك من كبار شيوخها آخر الذين عنوا بدراسة الكتب المعهودة التي يطلق على مدارسيها لقب (علماء) على أن العلم الصحيح - وهو العلم الاستقلالي المبني على الدليل كان قد حجر عليه وحكم بتحريمه من عدة قرون، فلم يكن أحد يشم ريحه ولا يشم وميضه إلا قليلاً، وصار الناس كالخفافيش لا يفتحون في هذا النور عينًا، ولا يحيلون في شعاعه فكرًا.

ظهر الفقيد وفي دمشق الشام أفراد ورثوا عن آبائهم وأجدادهم عمائم العلماء وألقابهم والرواتب التي كانوا يأخذونها من أوقاف المسلمين ولم يرثوا عنهم من العلم بتلك الكتب شيئًا.

فاتهم العلم ولم يفتهم صرف الأوقات كلها في استنباط الحيل للتمتع بجاهه ومجده، تبعًا للتمتع بألقابه وأزيائه ونقده، فكان من أكبر الخطوب عليهم أن يروا في الشام عالمًا يتصدى للتدريس والتصنيف، ويبين حاجة البلاد إلى الإصلاح والتجديد، فإذا تصدى لذلك أحد يكيدون له المكايد، وينصبون له الحبائل، ويبغونه الفتنة، ويجعلونه في موقف الظنة، فيسعون به إلى الحكام، أنصار كل منافق، ويهيجون عليه العوام، أتباع كل ناعق، فماذا يعمل العالم المصلح بينهم.

إذا كان عمل القاسمي للإصلاح وتجديد علوم الدين صغيرًا في نفسه، فهو كبير جدًّا في بلاده وبين قومه، فما القول فيه إذا كان عمله كبيرًا في الواقع، وقد عظم المطلوب وقل المساعد ؟كان رحمه الله تعالى يقرأ الدروس العربية والشرعية للطلبة وللعامة، ويخطب في المسجد خطبة الجمعة، ويصنف الرسائل والأسفار الممتعة، ويصحح ما يرى نشره نافعًا من كتب المتقدمين، ويشرح المختصر ويختصر المطول منها، ويسعى في طبعها ونشرها، ويبث روح الاستقلال والاستدلال في ذلك كله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن.

وكم سعى فيه، وكاد له أولئك المعممون الجامدون فأنجاه الله منهم، وإن أكبر الكبائر التي يتهمون بها كل من يدعو مثله إلى العلم والعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، هي محاولة هدم الدين بفتح باب الاجتهاد والاستدلال، وما يستلزمه ذلك - بزعمهم - من تحقير الأئمة، ومن اتبعهم من علماء الأمة!! وقد اتهم مرة بذلك مع بعض أصدقائه وعقد لهم مجلس في المحكمة الشرعية وسألهم القاضي عن تلك التهمة، وأخذ الفقيد من دونهم إلى دار الشرطة، وحبس فيها بضع ساعات.

كان له رحمه الله تعالى دروع سابغات من أخلاقه وسيرته تقيه بغي أعداء العلم والإصلاح من حسّاده؛ إذ كان نزيه اللسان، بعيدًا عن المراء والجدال، متجنبًا للإزراء بغيره، والتعريض بغميزة خصمه أو مدح نفسه، غير مزاحم لوارثي العمائم على الحطام، ولا مسابق لهم إلى أبواب الحكام، إلى ما كان عليه من العبادة، والعفة والاستقامة.

(للترجمة بقية)

((يتبع بمقال تالٍ))

مصاب مصر والشام[33]
برجال العلم وحملة الأقلام

4- الشيخ محمد جمال الدين القاسمي(تتمة ترجمته)

تصانيفه ورسائله:

كان أثابه الله سيّال القلم سيّال القريحة، سريع الذاكرة سريع المراجعة، وقد كتب كثيرًا من الكتب والرسائل تصنيفًا وشرحًا واختصارًا لبعض المطولات، وأحصاها لنا بعض تلاميذه فزادت على السبعين، وهو العقد الذي تعبر به العرب من الكثرة.
وهذه أسماؤها مرتبة على حروف المعجم:

(1) الاستئناس في تصحيح أنكحة الناس. طبع في دمشق سنة 1332.

(2) الأنوار القدسية على متن الشمسية في المنطق، كتب عليها إلى آخر قسم التصورات.

(3) إيضاح الفطرة في أهل الفترة.

(4) الارتفاق، بمسائل الطلاق.

(5) إزالة الأوهام بما يستشكل من ترك سيدنا عمر لكتابة الكتاب الذي همَّ به عليه الصلاة والسلام.

(6) إفادة مَن صحا في تفسير سورة "والضحى".

(7) إعلام الجاحد عن قتل الجماعة المتمالئة بالواحد.

(8) الأقوال المروية في من حلف بالطلاق الثلاث في قضية.

(9) الأوراد المأثورة - مطبوع في دمشق.

(10) الأجوبة المرضية مطبوع في دمشق سنة 1326.

(11) إصلاح المساجد من البدع والعوائد.

(12) بذل الهمم لموعظة أهل وادي العجم.

(13) بديع المكنون في أهم مسائل الفنون.

(14) بيت القصيد في ديوان الإمام الوالد السعيد.

(15) بحث في جمع القراءات المتعارف.

(16) تعطير المشمامّ، في مآثر دمشق الشام.

(17) تعليقات على حصول المأمول لصديق حسن خان.

(18) تنوير اللب في معرفة القلب.

(19) تاريخ الجهمية والمعتزلة.

نشر في مجلة المنار وطبع في مطبعتها سنة 1331.

(20) تنبيه الطالب إلى معرفة الفرض والواجب - طبع في مصر سنة 1326.

(21) ثمرة التسارع إلى الجب في الله وعدم التقاطع.

(22) الجواب السني عن سؤال السيد أحمد السني.

(23) الجوهر الصاف في نقابة الأشراف.

(24) جواب المسألة الحورانية.

(25) جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب.

(26) جدول في مخارج الحروف وصفاتها.

(27) جواب الشيخ السناني في مسألة العقل والنقل، نشر في مجلة المنار.

(28) حسن السبك في الرحلة لوعظ قضاء البنك.

(29) حياة البخاري.

طبع في صيدا سنة 1330.

(30) حاشية على الروضة الندية.

(31) درء الموهوم من دعوى جواز المرور بين يدي المأموم.

(32) دلائل التوحيد. مطبوع في دمشق سنة 1326.

(33) ديوان خطب مطبوع في دمشق سنة 1325.

(34) رفع المناقضات، بين ما يزيد في العمر وبين المقدرات.

(35) رسالة في الشاي والقهوة والدخان. مطبوعة في بيروت سنة 1323(36) رسالة في أوامر من مشايخ الإسلام بالحكم بغير المذهب الحنفي. مطبوعة بعد نشرها في مجلة المنار سنة 1331.

(37) رسالة في المسح على الجوربين. مطبوعة في بيروت سنة 1332.

(38) رسالة في المسح على الرجلين.

(39) زوال الغشاء عن وقت العشاء.

(40) زبدة الأخبارعن أولاد الكفار.

(41) السطوات في الرد على منع العشاء قبل الصلوات.

(42) شمس الجمال على منتخب كنز العمال.

(43) الشذرة البهية في حل ألفاظ نحوية. مطبوعة في دمشق سنة 1322.

(44) شذرة من السيرة المحمدية. مطبوعة بمطبعة المنار في مصر سنة 1331.

(45) شرح لقطة العجلان. مطبوعة في مصر سنة 1326.

(46) شرح مجموعة أربع رسائل في الأصول. مطبوعة في بيروت سنة 1324.

(47) شرح مجموعة أربع رسائل في الأصول أيضًا. مطبوعة في دمشق سنة 1323.

(48) شرح مجموعة ثلاث رسائل في أصول التفسير وأصول الفقه مطبوعة في دمشق سنة 1332.

(49) شرح مختصر المستصفى لابن رشيق.

(50) الطائر الميمون في حل لغز الكنز المدفون. مطبوع مرتين سنة 1316 وسنة 22.

(51) طراز الخلعة فيما نقل من قول الرملي: وأقسام الاسم تسعة.

(52) الطالع المسعود على تفسير أبي السعود (لم يتم).

(53) الطالع السعيد في مهمات الأسانيد.

(54) العقود النظيمة في ذكرى مولد النبي صلى الله عليه وسلم وأخلاقه العظيمة، ومحاسن شريعته القويمة.

(55) غنيمة الهمة على كشف الغمة.

(56) فصل الكلام في حقيقة عود الروح إلى الميت حين الكلام.

(57) الفضل المبين على عقد الجوهر الثمين، ويعرف بشرح الأربعين العجلونية.

(58) فتاوى الأشراف في العمل بالتلغراف. مطبوع في دمشق سنة 1329.

(59) قواعد التحديث من فن مصطلح الحديث.

(60) الكواكب السيارة في مدح الفوارة.

(61) كتاب الفتوى في الإسلام. مطبوع في دمشق في سنة 1329.

(62) كتاب إرشاد الخلق إلى العمل بخبر البرق. طبع بدمشق سنة 1329.

(63) كتاب الإسراء والمعراج.طبع دمشق سنة 1331.

(64) كتاب شرف الأسباط. طبع بدمشق.

(65) كتاب (شرح العقائد) وهو كتاب كبير كتب الفقيد منه نحوًا من مائتي صفحة ولم يتم.

(66) اللف والنشر في طبقات المدرسين تحت قبة النسر.

(67) لزوم المراتب في الأدب مع الإمام الراتب.

(68) المسند الأحمد على مسند الإمام أحمد.

(69) منتخب التوسلات.مطبوع في دمشق سنة 13.

(70) مذاهب الأعراب وفلاسفة الإسلام في الجن.طبع بدمشق سنة 328.

(71) ميزان الجرح والتعديل، طبع في مصر سنة 1330.

(72) موعظة المؤمنين من أحياء علوم الدين.طبع بمصر سنة 133.

(73) (محاسن التأويل) وهو التفسير العظيم الذي يقع في اثني عشر مجلدًا مع مقدمته التي كتبت في مجلد حافل.

(74) النفحة الرحمانية على متن الميدانية.مطبوعة في دمشق سنة 1323.

(75) نقد النصائح الكافية.طبع بدمشق سنة 1328.

(76) هداية الألباب لتفسير آية: [وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ](المائدة: 5).

(77) الوعظ المطلوب من (قوت القلوب).

(78) وفاء الحبيب وحده، في إيضاح جهة الوحدة (المسوقة في الفناري).

(79) ينابيع العرفان في مسائل الأرواح بعد مفارقة الأبدان.

أقول: إن بعض ما ذكرنا رسائل صغيرة مؤلفة من كراسة أو كراستين أو كراسات قليلة، له أو لغيره، وبعض ما ذكرنا من الشروح عبارة عن تعليقات لا يصح أن تسمى شرحًا، وقد كتب إليّ في العام الماضي أنه له كتابًا في العبادات مقتبسًا من كتب المذاهب مع بيان حكمة التشريع.

كان أخذه منه الشيخ أحمد طباره ليطبعه في مطبعته ببيروت ولم يعده إليه، وعلمت ممّا كتب إليّ أنه من أهم كتبه، وكنت وعدت بتأليف كتاب في ذلك فسبقني رحمه الله إليه، فتمنيت لو يطبع لأستغني به.

ولعل هذا الكتاب وتفسيره الحافل هما أكبر مظاهر علمه وإصلاحه، على أن له رسائل مختصرات لا تغني عنها المطولات.

سيقول كثير من الناس: إنك عددت القاسمي من رجال الإصلاح، وإن أسماء كثير من هذه الكتب التي صنفها أو شرحها تدل على أنها ليست من الإصلاح في ورد ولا صدر، ولا تشتمل على عين منه ولا أثر؛ فكيف يضيع العالم المصلح وقته في شرح لغز، أو ما يعد أبعد عن الإصلاح من اللغز ؟ويمكنني أن أقول: إن الرجل كان من خيار مصلحي المسلمين في هذا العصر، وإن لم يدخل كل ما كتبه في باب الإصلاح الذي يفهمه قراء المنار، فمسمى الإصلاح ومفهومه واسع، وهو يختلف باختلاف الزمان والمكان، والسن والعشراء والأقران، والتلاميذ والمريدين، وغيرهم من المخاطبين، والمصلح لا يخلق مصلحًا بالفعل؛ بل يخلق كغيره لا يعلم شيئًا، ويكون الاستعداد للإصلاح فيه كامنًا، ثُمَّ تظهره التربية والتعليم، وما يتجدد المرة بعد المرة له من العبرة والتأثير.

فهل يطلب ممن عاش خمسين، ترك فيها من هذه الكتب والرسائل نحوًا من سبعين، أن يكون جميع ما كتبه أو شرحه إصلاحًا في الدنيا والدين، مرضيًا عند الكهول المجربين، والشيوخ المحنكين ؟

طريقته في الإصلاح:حسب من نشأ وتعلم وتربى في أرض التعصب للتقليد، والجمود على العادات والخرافات، تحت سماء الاستبداد، والحجر على الألسنة والأقلام، -ولم تكن هذه المفاسد في الآستانة أشد منها في الشام- أن يكون بسلامة فطرته، وعناية الله به، مثل الشيخ جمال الدين القاسمي في استقلاله، ونزاهته واعتداله، ونظافة عقله وقلمه ولسانه، وجرأته على مجاهدة الجمود والتقليد، والجمع في إحياء علوم اللغة، والدين بين الطريف والتليد.

أما طريقته في الإصلاح وغايته منه فلم يكن فيها ما على خطة مقررة من أول النشأة، وإنما كونتهما

الحاجة بقدر استعداد البيئة: فتح الرجل عينيه فرأى أطلال العلم في بلده دارسة، وأعلامه طامسة، وقد كانت مهاجرًا يرحل الطلاب إليها، فأصبحت مهجورة يرحل عنها.
فكان الإصلاح الضروري فيها إيجاد نشء جديد من طلبة العلم يعلمون تعليمًا صالحًا يرجى أن يحيا به وبهم العلم، وقد كان سبب اختيار الشيخ لقراءة بعض الكتاب ولكتابة بعض الشروح والتعليق على بعضها، هو الضرورة أو الحاجة إلى تدريسها، لا كونها صالحة في نفسها، أو محاولته إصلاح التعليم بها.
مثال ذلك ما كتبه على شرح الفناري ومتن الشمسية في المنطق، كان ما لا بد منه؛ لأن طلبة العلم كانوا يمتحنون بهما لأجل إعفائهم من الخدمة العسكرية.
ونقيس ما لم نعرف عذره فيه -كقراءة كتاب جمع الجوامع وشرح بعض المتون- على ما عرفنا عذره فيه كمتن الشمسية وشرح الفناري، وكلاهما لا يصلحان للتدريس في رأي العارفين بطرق إصلاح التعليم.
ولو كان الشيخ في مصر لقلنا إن عذره في قراءة جمع الجوامع اعتماد الجامع الأزهر عليه في الامتحان ونيل شهادة العالمية.
لعلنا لو اطلعنا على جميع ما كتبه لظهر لنا من عذره ما لا يظهر لنا الآن، أو ننتقد منها ما لا نظن الآن أنه منتقد، وحسب الرجل أن يكون مصلحًا في سيرته ومجموع أعماله.
قد اطلعنا على كتاب دلائل التوحيد وبعض الرسائل من مؤلفاته المطبوعة، وقرظنا بعضها في المنار وبينا مزيتها فيه.
ويمكنا أن نستنبط منها ومن مذاكراتنا القصيرة له ما نعده للقارئين من مزاياه ومزاياها:

(1) إن القاسمي درس فنون اللغة العربية والعلوم الشرعية على الطريقة المألوفة في مدارس المسلمين منذ قرون، وتلقى تلك الكتب التي اختارها المتأخرون للتدريس، ورأى حاجة أهل البلاد إلى بعض تلك الكتب لأجل امتحان الإعفاء من العسكرية، وأن المشتغلين بالعلم منهم يظنون أن العالم لا يكون عالمًا حقيقة إلا بتحصيل كذا وكذا منها (كجمع الجوامع وكتب السعد التفتازاني) فكانت هذه الأمور الثلاثة أسبابًا لمحافظته على بعض ذلك التليد.
(2) أنه كان يرى أن ما يثبت بالدليل النقلي في النقليات والعقلي في العقليات وبالتجربة في المجربات لا تتلقاه بالقبول هذه الأمة التي جمدت على التقليد، وبعد عهد جمهورها بالحجة والدليل، إلا إذا أيد بنقل عن بعض العلماء السابقين، ولا سيّما إذا كان من المشهورين، فكان يرى هذا ركنًا

من أركان الإصلاح في التدريس والتأليف لأجل إقناع المستدلين والمقلدين معًا، ونحن نجري على هذا في المنار والتفسير أحيانًا.

(3) أنه كان يتحرى مذهب السلف في الدين وينصره في دروسه ومصنفاته، وما مذهب السلف إلا العمل بالكتاب والسنة، بلا زيادة ولا نقصان، على الوجه الذي كانوا يفهمونه في الصدر الأول.

وقد اتهم - كما اتهم غيره من المستقلين - بأنه أحدث مذهبًا جديدًا في الإسلام، ولما كانت حادثة السعاية التي أشرنا إليها، وذكرنا أنه حبس فيها، لغط حساده بهذه المسألة فقال يرد عليهم:

زعم الناس بأني *** مذهبي يدعى الجمالي

وإليه حينما أف *** تي الورى أعزو مقالي

لا وعمر الحق إني *** سلفيّ الانتحال

مذهبي ما في كتا *** ب الله ربي المتعالي

ثم ما صح من الأخـ *** بار لا قيل وقال

أقتفي الحق ولا أر *** ضى بآراء الرجال

وأرى التقليد جهلاً *** وعمى في كل حال

وقال أيضًا في هذا المعنى:

أقول كما قال الأئمة قبلنا *** صحيح حديث المصطفى هو مذهبي

أألبس ثوب القيل والقال باليًا *** ولا أتحلى بالرداء المذهب.

(4) كان يتحرى في المسائل الخلافية الاعتدال والإنصاف، واتباع ما يقوم عليه الدليل من غير تشنيع على المخالف ولا تحامل.

وكان لحرصه على الوفاق وجمع كلمة المسلمين يجتهد في استبانة حجة كل فريق من أصحاب المذاهب، وتقريب أحدهما من الآخر، بإظهار حجته أو شبهته، وحكاية ما يعارض الخصم به.

ومن كانت هذه طريقته فكثيرًا ما يغضب الخصمين معًا.

فيتهمه كل منهما بالتشيع للآخر.

ثم إذا كان أحدهما مصيبًا والآخر مخطئًا يتعذر على محب الاعتدال في الحكم بينهما أن يرضى باستحداث مذهب ثالث يجعله وسطًا بينهما؛ إذ ليس بين الحق والباطل وسط، وإنما يكون الحق وسطًا بين باطلين، أو أباطيل ترجع كثرتها إلى نوعين ـ الزيادة على الحق أو النقص منه.
وقد اتهم الفقيد بعض السلفيين بأنه خالف مذهب السلف في رسالته (تاريخ الجهمية والمعتزلة) التي نشرناها في المنار، على شدة حرصه عليه وتحريه إياه؛ وانتقدها بعض الشيعة كما يأتي.
واتهمه بعض المستقلين بعثرة أخرى في رسالته (نقد النصائح الكافية) وهي أن حب الاعتدال وتقريب أحد الخصمين من الآخر أخرجه عن الاعتدال في بعض المسائل؛ ولكن بقصد الإصلاح.

وههنا مسألتان:

(إحداهما) أن المستقل في علمه وحكمه حق الاستقلال يتحرى ما يظهر له أنه الحق فيقوله ويحكم به، وإن أغضب جميع الناس عليه.
وقصارى ما يستبيحه من إرضاء الناس أو استمالتهم التلطف في القول، وتزيين الحق الذي ثبت عنده بحلي البيان وحلله، دون إبرازه لهم عاري الجسد عاطل الجيد.
(الثانية) أن الإصلاح بين الرجلين أو القبيلين من الناس فضيلة حث عليها الشرع وعرف حسنها العقل، وقد أبيح فيها الكذب عند الرواة عملاً بقاعدة (ارتكاب أخف الضررين) فبالأولى يباح فيها التماس العذر لكل خصم فيما خالف فيه الآخر، وتوجيه ما قام عنده من الحجة أو شبه الحجة.
وهذه الطريقة في الإصلاح أقرب الطرق لإرضاء المعتدلين من أهل المذاهب المختلفة، وأما الغلاة في التعصب لمذاهبهم فلا يرضيهم إلا موافقتهم واتباعهم.
أما العمل بهاتين المسألتين وإعطاء كل واحدة منهما حقها فهو عسر جدًّا، فإن المستقل جد الاستقلال إذا تصدى للتوفيق بين الخصمين المتعصبين يغضبهما جميعًا، وإنما يمكن أن يرضي المستقل من كل فريق أو المستعد للاستقلال إذا أوتي الحكمة وفصل الخطاب.
ومن الآيات على ذلك أن رسالة (تاريخ الجهمية والمعتزلة) لم يكتب أحد في هذا العصر كتابة أعدل منها في التأليف بين فرق المسلمين الكبرى ـ وهم أهل السنة الأثرية والأشاعرة والمعتزلة والشيعة والخوارج ـ وقد كتب بعض علماء الشيعة ردًّا عليها قبل إتمام نشرها، وهل يرضى شيعي بتعديل بعض الخوارج والرواية في الصحيحين عنهما ؟ وأنكر بعض أهل السنة الأثريين بعض المسائل فيها كما تقدم.

فأين هذه من تلك الرسالة التي كتبها أحد علماء الشيعة للتوفيق بين الأمة بزعمه أو دعواه الظاهرة فكانت عبارة عن دعوة أهل السنة إلى التشيع بتخطئتهم وتصويب الشيعة في جميع مسائل الخلاف !!

أخلاقه وشمائله:

كان من أكمل ما رأيت في أخلاقه وآدابه وشمائله: كان أبيض اللون نحيف الجسم ربعة القد، أقرب إلى القصر منه إلى الطول، غضيض الطرف، كثير الإطراق، خافض الصوت، ثقيل السمع، خفيف الروح، دائم التبسم.

وكان تقيًّا ناسكًا، واسع الحلم، سليم القلب، نزيه النفس واللسان والقلم، برًّا بالأهل، وفيًّا للإخوان، يأخذ ما صفا ويدع ما كدر، عائلاً عفيفًا قانعًا.

لا يطبيه طمع مدنس *** إذا استمال طمع أو أطبى

وقد بينا ما كان لأخلاقه الكريمة من حسن الأثر، والوقاية من كيد الجاهدين والحاسدين، والإعانة على الإصلاح.

ومن حسن وفائه أنه لم يقطع مراسلتنا ولا مراسلة الأستاذ الإمام في إبان ثقل وطأة الاستبداد الحميدي؛ إذ كانت مراسلتنا تعد من الجنايات السياسية التي تعاقب الحكومة صاحبها أشد العقاب، ولكنه ترك التصريح بنقل شيء عنا كما يعلم من كتابه (دلائل التوحيد) وصرّح لنا بذلك.

وقد عبرنا عن بعض ما وجدناه من الحزن لفقده بكتاب وجهناه إلى أهله، وكان من يعرف ما بيننا من الإخاء يعزينا عنه كما يعزي الإخوة في النسب.

وما بيننا من أخوة النسب الروحي أعلى من النسب الجسدي، على أن نسب أمه يتصل بنسبنا أيضًا.

وحسبي أن أدون من تلك التعازي ما كتبه إليَّ صديقي وصديقه علامة العراق ورحلة أهل الآفاق، السيد محمود شكري الألوسي الشهير.

وقد كتبت إليه مثل الذي كتبه إليّ بباعث القلب، ولكنه سبق كدأبه في السبق إلى كل فضل.

وهذا ما كتبه بعد الألقاب، وفاتحة الخطاب:(أما بعد؛ فقد نعت إلينا صحف البلاد الشامية وفاة العلامة السيد جمال الدين القاسمي قدّس الله روحه الزكية، فأمضّ ذلك الخبر قلبي وأفض لبّي، وجرح فؤادي وطرد رقادي.

وأحدث لي حزنًا ملازمًا، وألمًا دائمًا، وأورثني قلقًا واخزًا.

وانزعاجًا حافزًا.

وحيث كان المشار إليه من أعزة أحبابكم، وخُلّص أصفيائكم، مع ما كان عليه من الفضل الوافر، والأدب الباهر، والورع الظاهر، والنسب الطاهر، والذب عن الشرع المبين، وقوة الإيمان واليقين، ومناضلة الحائدين والملحدين، وأنه حسبما اعترف له الموافق والمخالف:

أحيا به الله الشريعة والهدى *** وأقام فيه شعائر الإسلام

حكم على أهل العقول يبثها *** منعوتة الأوضاع والأحكام

ويريك في ألفاظه وكلامه *** سحر العقول وحيرة الأفهام

فإني أعزيك على فقده، وتوسده للحده، ومفارقته لهذه الدنيا الغدارة الخائنة المكارة، فإن نعيمها زائل، وكوكب سعدها آفل، فلا أوجع الله لك قلبًا، ولا كدر لك خاطرًا ولا لبًّا، وللإسلام من طلعتكم الغراء سلوان عمن مضى من الفضلاء، وإنما يجل الرزء إذا قل العوض، ويكبر المصاب إذا عدم الخلف.

فأما إذا كنت الباقي، وغيرك الماضي، وصرت الموجود، وسواك المفقود، فالفادحة خفيفة الوقع، مرؤبة الصدع، ويد الدهر فيما نال قصيرة، ومنته فيما ترك كبيرة.

هذا مع أسفي عليه كل الأسف، وتصاعد أنفاسي بمزيد اللهف، وقد جرت عليه من العيون عيون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

نسأله تعالى أن يديمكم ركنًا للإسلام، ومرجعًا للخاص والعام، ويصونكم من طوارق الليالي والأيام، تذكرة للسلف الأعلام). اهـ.

وأقول: إن مما يعزيني ويعزي هذا الأخ الكريم والمصلح العظيم، الذي لا أستحق بعض ثنائه، ولا ينسيني نقصي كمال إطرائه، أن أخانا الفقيد قد ربّى وعلّم أفرادًا من إخوته وغيرهم يرجى أن يقفوا أثره، ويتلوا تلوه، وإن كان نسيج وحده فتبقى بهم ديار الشام، آهلة إن شاء الله بالعلماء والأعلام، على مدى السنين والأيام.

***

5- جرجي بك زيدان

قضى الله - ولا راد لقضائه - أن لا نفرغ من رثاء وترجمة رجال العلم الذين فجعت بهم الأمة العربية في هذه السنة في مصر والشام، إلا وقد رزئ القُطران بفجيعة أخرى، فقد فاجأت المنية في التاسعة والعشرين من هذا الشهر جرجي بك زيدان صاحب مجلة الهلال، وأحد أركان النهضة العربية الحديثة، فاجأته كهلاً قد بلغ أشده واستوى، حسن الصحة تام القوى - وقد أتم في هذه الليلة تصحيح آخر كراسة من آخر جزء من أجزاء السنة الثانية والعشرين للهلال، آخر كراسة من كتاب تاريخ العرب.

وتنفس الصعداء من تعب ليلة شعر بأنه ألقى عن عاتقه في أولها تعب عشرة أشهر، ثم ألقى نفسه على سريره ليبدأ فيها باستراحة شهرين كاملين، فغاضت نفسه، فإذا هو قد ألقى عنها تعب ربع قرن في الجهاد العقلي كان هو القاضي على مادة ذلك الدماغ الذي يشبه معملاً من معامل الكهرباء، في السرعة والنور والحرارة والضياء، والمقوض لدعائم تلك الحياة الحميدة، حياة الجد والعمل والعفة والاستقامة.

فإذا كان الجهاد العقلي قد صرع أحمد فتحي باشا زغلول والأستاذ القاسمي بعد مرض طويل أو قصير، فقد صرع جرجي بك زيدان من غير مرض ولا شكوى.

فقدت الأمة العربية بهذا الرجل ركنًا من أركان نهضتها الحديثة في العلم والأدب، بعد أن نضج علمه، واتسعت معارفه، وكملت تجاربه، وصار أقدر على إتقان خدمتها، ومساعدة نهضتها.

نشأ الرجل عصاميًّا، فقد ولد في أواخر سنة 1861م من أبوين فقيرين أميين، ولكن يظهر أنه كان له في الأرومة العربية عرق راسخ، فقد بحث عن أصل بينهم - وكان يسمى بيت مطر - فانتهى به البحث إلى ترجيح كونه من عرب حوران، وكان يظن أنه كأكثر الروم الأرثوذكس في سوريا من بني غسان.

تلقى مبادئ القراءة والكتابة في بعض مكاتب بيروت الابتدائية.

وكان يشتغل مع والده في مهنته لأجل المعاش؛ ولكن استعداده للعلم وعشقه للمدارس كان قويًّا جدًّا، فكان يختلف إلى بعض المدارس الليلية، يتعلم فيها اللغة الإنكليزية.

ويبحث عن رجال العلم والأدب ويتقرب إليهم، وانتظم مع طائفة من خيارهم في سلك جمعية شمس البر الأدبية، فازداد حبًّا للعلم ورغبة في طلبه، وكان بعض من آنس فيه الاستعداد من أهل العلم يقرأ له دروسًا خاصة يستعد بها لدخول القسم الطبي من المدرسة الكلية الأمريكانية الشهيرة ببيروت، وبعد تحصيل قليل أدى الامتحان ودخل المدرسة فكان يتعلم فنون الصيدلة ويؤدي بعض الخدمة لأجل المعاش؛ ولكنه ترك المدرسة في أثناء السنة الثانية لما كان عرض فيها من الاختلال الداخلي المعروف.

وقصد بعد ذلك الديار المصرية ليتم دروسه في مدرسة القصر العيني فلم يتح له ذلك؛ بل دخل في طور العمل والكسب.

إن كثيرًا من النابغين لم يقيموا في المدارس زمنًا طويلاً، ومن الثابت بالاختبار أن طول الإقامة في المدارس تضعف ملكة الاستقلال، فيخرج الطالب بعده مقلدًا جامدًا على ما أطال درسه ومزاولته.

فإن كانت سعة العلم لا تحصل إلا في الوقت الواسع، فالواجب أن يكون أطول زمن التحصيل خارج المدرسة لا داخلها، وفي أثناء العمل بالعلم، لا في أثناء تلقي نظرياته ومصطلحاته.

ورُبَّ ذكي أو مجتهد يحصّل من مسائل العلم في سنة ما لا يحصله غيره في سنين كثيرة وما تحصيل المدرسة إلا دلالة على طريق العمل بالعلم، فمن يطلب العلم فيها لأجل الاستعانة به على العمل بعد الخروج منها، فربما يكفيه القليل من العلم، فيجعله أهلاً للعمل الذي لا يكمل العلم إلا به.

وأما من يطلب العلم لأجل نيل شهادة مدرسية يتوسل بها إلى رزق لا يتوقف على دوام الاشتغال به والارتقاء فيه، فهجرته إلى ما هاجر إليه، فهو يحصل ورقة الشهادة، ولكنه قلّما يكون عالمًا عاملاً بعلمه مرتقيًا فيه.

وناهيك إذا كان طلبه للعلم بإرادة ولي أمره، لا بإرادته الذاتية ورغبته.

أما فقيدنا اليوم فقد كانت نفسه العصامية هي الحافزة لهمته والباعثة له على طلب العلم، وكان يقصد من العلم أن يعمل به فيفيد مالاً وجاهًا يكون به في مقدمة أمته لا في ساقتها.

ولذلك حصل بجده وقوة إرادته في الزمن القليل ما مكنه من العمل الذي عجز عن مثله مَن هم أكثر منه تحصيلاً، وأوسع في العلوم والفنون عرفانًا.

وأمّا إذا اتفق لمثل صاحب هذه الهمة والإرادة تحصيل المقدمات تامة من أول النشأة، فإن عمله يكون أقوم، وسيره فيه يكون أسرع وأتم.

اشتغل الفقيد عقب هجرته إلى مصر بالتحرير في جريدة يومية اسمها الزمان نحوًا من سنة، ثم

سافر مع الحملة النيلية الإنكليزية إلى السودان مترجمًا في قلم المخابرات، وشهد بعض وقائع الحرب في السودان، ومكث هنالك عشرة أشهر، ثم عاد وسافر إلى سورية فاشتغل فيها مدة بدراسة اللغتين العبرانية والسريانية، ثم إلى بلاد الإنكليز، ثم عاد إلى مصر فندبه أصحاب المقتطف إلى مساعدتهم في إدراته فتولاها سنة وأشهرًا، ثم استقال منها وانصرف بكل همته إلى التأليف فألف تاريخ الماسونية ومختصر التاريخ العام وتاريخ مصر الحديث.

ثم تولى إدارة التعليم بالمدرسة العبيدية سنتين.

وفي أواخر سنة 1892 ميلادية أنشأ مجلة الهلال، وجعل جل عنايته فيها بالتاريخ والأخبار العلمية، وجعل لها ذيلاً من القصص (الروايات) الغرامية الممزوجة بتاريخ الإسلام، فظهر من خطته فيما ينشئ وينقل أنه من أقدر من اشتغل بالصحف العربية والتأليف في هذا العصر، أو أقدرهم على جذب جمهور القراء إلى ما يكتب، بمحاولة جعل ما يكتبه لذيذًا سهل الفهم، كالطعام اللذيذ سهل الهضم، وكان يختار في كل وقت ما يناسبه، وفي كل حال ما يلائمه، فإذا ألمّت ملمة، أو حدثت حادثة مهمة- كالحروب ومشاكل الدول وموت الملوك والكبراء - بادر إلى كتابة ما يتعلق بذلك من مباحث التاريخ القديم والحديث، مزينًا له بما يتعلق به من الصور والرسوم.

وكان سلمًا نزيه القلم، يتقي كل ما يثير غضب أصحاب المذاهب الدينية، والأحزاب السياسية، ولكنه لم يسلم مع ذلك من اتهام بعض سيئي الظن من المسلمين والنصارى، فقد اتهمه بعض الأولين بتعمد الطعن في الإسلام بفرية يفتريها، أو دسيسة يدسها، وكانوا يستدلون على ذلك ببعض الأغلاط التي وقع فيها، أو تصوير بعض المسائل بغير الصورة التي يعرفونها، لفهمها بغير الصفة التي يفهمونها، ورد عليه بعض هؤلاء في المؤيد.

وطالما رددت على بعضهم مبرئًا له من سوء القصد، لما لي فيه من حسن الظن. وأشرت إلى ذلك في المنار غير مرة.

وقد حدثني أن بعض سيئي الظن من النصارى قد اتهمه بضد ما يتهمه به بعض المسلمين: اتهموه بمصانعة المسلمين ومحاباتهم، ومدح الإسلام والمسلمين تقربًا إليهم لأجل الكسب منهم.

ولا يسلم من ألسنة الناس أحد، كيف وقد كفروا بالواحد الأحد، الفرد الصمد، سبحانه وتعالى.

نعم إنه قد ظهر منه بعد الانقلاب العثماني نزعة جديدة، تقدمتها نزغة عدت إحياء لمذهب الشعوبية: ذلك بأنه زار الآستانة ولقي فيها بعض زعماء جمعية الاتحاد والترقي، ثم عاد متشبعًا بالنهضة التركية، مستنكرًا مجاراة العرب لإخوانهم الترك بالقيام بنهضة عربية، مستصوبًا خطة الاتحاديين

الأولى من تتريك العناصر وإدغام العرب في الترك.
وقد كتب في الهلال ما يشعر بهذه النزعة، فهاج ما كتبه جماعات فتيان العرب في الآستانة وسورية، وكادوا يحملون عليه في الصحف ردًّا واحتجاجًا؛ ولكن حالت دون ذلك معارضة مسموعة مقبولة.
وأما النزغة التي سبقت هذه النزعة، فهي مطاعن للفقيد في العرب أودعها في تاريخ التمدن الإسلامي فطن لها أخيرًا من لم يكن يحفل بها.
وزادهم التفاتًا إليها ترجمة جريدة (إقدام) التركية لتاريخ التمدن الإسلامي ونشره فيها بالتتابع. فتشاور كثير من الشبان المتعلمين في الرد على هذا التاريخ ولم يظهر منهم شيء.

ثم اتفق أن انبرى للرد عليه في هذه المسألة الأستاذ الشهير الشيخ شبلي النعماني من أشهر علماء الهند وأوسعهم اطلاعًا في التاريخ.
وكتب إلينا هذا الأستاذ الكبير وهو صديقنا وصديق فقيدنا المردود عليه يخبرنا بما شرع فيه من الرد، ويقترح علينا أن ننشر رده في المنار، ولما كنا نعهد من الفقيد تلقي الانتقاد عليه بسعة الصدر؛ بل عهدنا منه مطالبة الكتاب بهذا الانتقاد - ونعلم أن الأستاذ الشيخ شبلي النعماني صديقه - ونرى أن تمحيص هذه المسألة أصبح ضروريًّا - بادرنا إلى نشر الرد من غير أن نقرأه؛ بل نشر في أثناء رحلتنا الهندية، ثم قرأناه بعد عودتنا من الهند وعمان والعراق وسورية، فرأيناه فوق ما كنا نظن من شدة الرد، ورمي الفقيد بسوء القصد.
وكنا علمنا من المنتقد عند لقائه في الهند أنه كان يرى بعض الغلط في تاريخ التمدن الإسلامي وغيره من مؤلفات صاحبه فيحمله على الخطأ أو سوء الفهم، ولكنه لما قرأ مجموع طعنه في العرب جزم بأنه صادر عن سوء قصد.
فهذا سبب شدة حملته عليه، على ما كان من مودته له.
وقد كتبنا مقدمة لانتقاد الشيخ شبلي إذ طبع على حدته بينا فيها ذلك، وإننا لو اطلعنا على ما فيه من الشدة قبل نشره، لراجعنا الكاتب فيه واستأذناه بحذف الطعن الشخصي منه، وقد نشرنا تلك المقدمة في المنار تعزيزًا لدفاعنا السابق بالقلم واللسان، عن رجل عددناه صديقًا لنا، وعضوًا نافعًا في أمتنا، على أننا لم نسلم مع ذلك من سوء ظنّه فينا:ثقلت وطأة رد الشيخ شبلي النعماني على الفقيد لشدته؛ ولأنه كان يعده من أصدقائه، وأثنى عليه غير مرة في هلاله، فلم يصدق أولاً أنه هو المنتقد، واتهمنا بذلك، وكتب إلى الشيخ شبلي كتابًا ذكر فيه ذلك، راجيًا أن يكتب إليه متنصلاً منه ليبين ذلك في

الهلال، ويظهر أن النقد لصاحب المنار!! وقد أطلعني الأستاذ الشيخ شبلي على كتابه ذاك في (لكهنؤ) أيام كنت فيها، ورأيته متعجبًا منه، فكان عجبي أشد من عجبه.
وقد ذكرت للفقيد ذلك معاتبًا، فكان حقي عليه في سوء ظنه بي، أكبر من حقه علي في نشر النقد - وقد نشر في غيبتي.
وقد اتفق لي مثل هذا مع كاتب سوري آخر، كانت حقوق الصحبة بيني وبينه أقوى منها بيني وبين جرجي بك زيدان، وكنت أثني عليه للأستاذ الإمام وأستميله لمساعدته، فكتب إلى الأستاذ كتابًا يطعن بي فيه، ويتهمني بتنفير الأستاذ عنه، والطعن فيه عنده، فتعجب الأستاذ من أمري وأمره !!أما مؤلفاته فهي مطبوعة مشهورة وهاك أسماؤها:

1- التاريخ العام.

2- تاريخ مصر الحديث، جزآن.

3- تاريخ التمدن الإسلامي، خمسة أجزاء.

4- تاريخ العرب قبل الإسلام، جزء واحد.

5- تاريخ الماسونية العام، جزء واحد.

6- تاريخ اليونان والرومان، جزء واحد صغير.

7- تاريخ إنكلترا والرومان، لم نره.

8- تاريخ اللغة العربية، لم نره.

9- تاريخ آداب اللغة العربية (4) أجزاء.

10- الفلسفة اللغوية، جزء صغير.

11- أنساب العرب القدماء، جزء صغير.

12- علم الفراسة الحديث، جزء صغير.

13- طبقات الأمم، جزء صغير.

14- عجائب الخلق.

15- 36 قصص (روايات) منها (18) قصة تتعلق بتاريخ الإسلام وثلاث تتعلق بتاريخ مصر، وواحدة غرامية محضة.

وأما أخلاقه وشمائله فقد كان أديب النفس، نزيه اللسان والقلم، بشوش الوجه معتصمًا بحبوة الجد، متنزهًا عن اللغو والعبث، محبًّا للنظام، حفيًّا بالأهل، وصولاً للرحم، محبًّا للقريب.

ورأيي فيه أن عقله كان أكبر من عمله، ومن فضل عقله على علمه حسن اختيار ما كان يكتب، وحسن ترتيبه وتبويبه، فقد كان في هذا -وهو من ثمرات العقل- أبرع منه في تحرير المباحث وتنقيحها، وتمحيص الحقائق بالقول الفصل فيها.

وسبب ما انتقد وما ينتقد من الغلط على كتبه بحق، هو أنه كان يقدم على الكتابة في مباحث لم تسبق له دراستها، معتمدًا على مراجعتها من مظانها عند الحاجة إليها، ومن كان يكتب المقالة في يوم أو أيام أو ساعة أو ساعات؛ لأجل أن تنشر في مجلة شهرية، ويؤلف الكتاب في عدة أشهر؛ لأنه وعد بنشره في وقت معين من السنة، قلما يستطيع أن يجمع بين المواد وتنسيقها وترتيبها، وبين تمحيص الحقائق فيها وتحريرها.

ولعمر الإنصاف أنه ليقل من يستطيع كتابة تلك الكتب في مثل الزمن الذي كتبها فيها مصنفها، وهل وجد في أمتنا كثير من أمثال من فقدته اليوم؟ وقد ترك للأمة ما يعزيها عنه - تلك المصنفات الجامعة بين الفائدة واللذة، ونجله النجيب أميل زيدان الذي أحسن تعليمه وتربيته.

وقد رأى قراء الهلال من آثار قلمه فيه، ما يبشر باستمرار بزوغه عليهم ما داموا مقبلين عليه موازرين له، (ولا غَرْو أن يحذو الفتى حذو والده).

الشيخ شبلي النعماني[34]

ترجمة الشيخ شبلي النعماني

بقلم الشيخ حبيب الرحمن خان الشرواني

مترجمة من جريدة (عليكدة إنستيتيوت غازت) بقلم عبد الرزاق من تلاميذ دار الدعوة والإرشاد.

انتهت السنة الثانية والثلاثون الهجرية على حادثة فجائية ستُذْكَر في تاريخنا إلى زمن بعيد: أذيع خبر وفاة الشيخ شمس العلماء شبلي النعماني في صبيحة 28 ذي الحجة، أي في الوقت الذي تنير فيه الشمس العالم، ولكن وآسفاه غربت فيه شمس العلم، وأظلم العالم العلمي.

(ثم بين الكاتب مجد المسلمين القدماء، وكثرة وجود العلماء والنابغين فيهم الذين كانوا يخلفون السلف، وانحطاط المسلمين الآن، وفقدان الرجال الذين يحلون محل موتاهم، قال:إن في سيرة الشيخ عبرًا ودروسًا للطبقتين: طبقة النابتة الحديثة، وطبقة العلماء، فلو كُتب تاريخه لكان نافعًا للمسلمين، وتوخيًا للفائدة نلمح إلى تاريخه فنقول:الشيخ شبلي النعماني من بلدة أعظم كدة الشهيرة، وهو من أسرة كبيرة، وابن رجل عظيم، لا أعلم سنة ولادته؛ ولكني قرأت ما كُتب في الجرائد من أنه ولد سنة 1857 أي سنة الثورة، وكان من أسباب تقدمه العلمي ذهنه الثاقب، وطبعه السليم، وحرص والده على تثقيفه وتربيته، ووجود أستاذ كامل له كمحمد الفاروق، الذي كان ماهرًا في العلوم العربية والآداب الهندية، أخذ الشيخ شبلي علم الحديث عن العلامة أحمد علي الشهير، وبعد فراغه من التحصيل دخل خدمة الحكومة، ولكنه لم يلبث أن تركها من تلقاء نفسه، ثم قُرر معلمًا للغة العربية في كلية علي كرة، فاتخذ له بيتًا بجوار السيد أحمد خان رئيس الكلية، وكان السيد يبحث في العلوم المختلفة، فاقتبس منه ومن المعلم آرنلد الأستاذ في الكلية معلومات في الفلسفة والعلوم الحديثة، وهو الذي علم الأستاذ المذكور عليه كثيرًا من العلوم الإسلامية واللغة العربية، لهذا كان في تأليف كتاب

(الدعوة الإسلامية preachig Islam of) للأستاذ آرنلد يد كبيرة للشيخ.
وخرج من الكلية سنة 1898 بعد أن توفي السيد أحمد، وذهب إلى حيدرآباد، وهنالك كانت قد أسست الجمعية العلمية المسماة (السلسلة الآصفية) فتوظف فيها براتب 200 روبية في الشهر (والآن قد زيد فيها مائة فصارت 300 روبية) وألف بضعة كتب باسمها، ثم رتب مشروع كلية حيدرآباد.
ولما رجع من حيدرآباد طلبه محسن الملك رئيس الكلية لها ولكنه لم يقبل، ورجح ندوة العلماء عليها، وأقام في مدينة لكهنؤ، فكان فيها عضوًا كبيرًا عاملاً، وفهم مقاصدها حق الفهم، وأراد أن يثمرها فنظم شؤونها، وأصدر مجلة كبيرة باسمها كانت من أشهر المجلات الهندية وأرقاها، وهي لا تزال فخرًا في اللغة الهندية؛ ولكنه لما انتخب رئيسًا للجمعية بعد اعتزال رئيسها الشيخ محمد علي لم يقدر على استخدام الأعضاء كلهم كما استخدمهم سلفه؛ لأنه اشتهر بحرية الرأي والاجتهاد في كل شيء، فخالفه العلماء وظنوا به الظنون، حتى قال بعضهم: إنه دهري ويريد إفساد الجمعية، فلم ينجح في عمله هذا كما ينبغي؛ ولكنه استطاع تنفيذ كثير من مقاصدها.
وساح في البلاد الإسلامية في زمن إقامته في الكلية للاستعانة على تأليف تاريخ عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- بمطالعة الكتب التي لا توجد في الهند، فكان الكتاب من أحسن الكتب التاريخية على طريقة حديثة، وسيكون فخرًا له إلى الأبد، وبعد رجوعه من السفر ذهب إلى رستميد، فمرض هناك مرضًا شديدًا ذهب بصحته الجيدة، فلم تعد إلى الموت.
ومن الحوادث المؤلمات في حياته إصابة رجله بالرصاص؛ وسبب ذلك أنه كان جالسًا في حرمه والبندقية في يد زوجة ابنه، فسقطت على الأرض فأصابت ساقه.
وآخر حياته مملوءة بمخالفة العلماء له في الندوة؛ ولكنه مع هذا كله ما زال مشغولاً بتأليف تاريخ النبي - صلى الله عليه وسلم - وأرسل إليّ خطابًا قبل وفاته بقليل وصف فيه تأثير موت أخيه في نفسه، ثم قال: أريد تأسيس دار للمصنفين، ودار لتكميل العلوم أدرس فيها بنفسي التفسير والحديث ويدرس فيها غيري من العلماء الآخرون لعلي أنجح في هذا بعد العجز عن العمل في الندوة التي أضعت وقتي فيها، ولكن جاءت المنية قبل تحقق رجائه، جزاه الله خير الجزاء لأعماله النافعة للمسلمين.

***

ترجمة الشيخ شبلي النعماني
بقلم عبد الرزاق أحد طلبة دار الدعوة والإرشاد

كان الشيخ شبلي النعماني من أكبر علماء الهند قدرًا، وأوسعهم علمًا، وأشدهم غيرة على الدين والأمة، خدم المسلمين زمنًا طويلاً، بدون تعب ولا نصب ولا مبالاة بحوادث الدهر، ومن مزاياه الكثيرة أنه كان نابغًا في علوم عديدة، مجتهدًا في الدين والعلوم العقلية، ماهرًا في تاريخ الشرق والغرب، أديبًا بارعًا في اللغة العربية والفارسية، ينشد الشعر بالفارسية مثل أعظم شعراء العجم، وهو يعد من أئمة اللغة الهندية، وأفصح كتابها، له كتب كثيرة جدًّا في الفلسفة والتاريخ وآداب اللغتين الفارسية والهندية، وفي علوم شتى، وآخر كتاب كان يعنى بتأليفه هو (سيرة النبي صلى الله عليه وسلم)، ولم يكد يتمم جزءًا منه حتى عاجلته منيته، وهو ابن خمس وستين سنة تقريبًا، هذا الكتاب ليس مثل سائر الكتب التاريخية، بل أراد رحمه الله أن يكتب باستقصاء لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من آثار النبي، وأقوال المتخرسين (؟) إلا أحصاها، وبحث فيها بحثًا فلسفيًّا ليس من ورائه بحث، وكان من اهتمامه بالكتاب المذكور أنه قبل الاشتغال فيه أعلن في الجرائد الهندية أنه يحتاج إلى خمسين ألف روبية (3325 جنيهًا) ليسافر إلى الممالك الإسلامية والإفرنجية، ويطالع في مكاتبها الكتب المؤلفة في سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم -، وتساءل عمن يساعده بذلك ؟ فأجابت طلبه (أميرة بهوبال) التي اشتهرت بالأعمال الخيرية والعلمية، غير أنها لم تأذنه بالسفر لكبر سنه، وما أصابه من المرض، بل وعدت بأن تطلب له جميع الكتب المحتاج إليها، وتعطي 200 روبية شهريًّا لمترجمي الكتب الإفرنجية منها (لأن الشيخ لم يكن عالمًا بلغات العرب) فاشتغل الشيخ بالكتاب ثلاث سنوات، وكمل منه جزء واحد كما ذكر آنفًا.

وكان ينتهز الفرص لينفع المسلمين، ومن مآثره أنه نجح في مسألة الوقف على الأولاد عند الحكومة، فأجازته بعد أن كانت أبطلته.

ربما يظن ظان أن هذا الشيخ الجليل كان من متخرجي المدارس العالية، ومن أصحاب الشهادات العليا، وليس الأمر كذلك؛ فإنه لم يتعلم في مدرسة ما قط، بل كان يتلقن بعض العلوم المتروكة القديمة في بيوت بعض العلماء، ولم يكن يعلم شيئًا من أحوال العالم المدني، ولكن علامات الذكاء كانت تنطق على سِيمَاه بعظيم مستقبله.

ولما كمَّل دروسه غير المنظمة، انتظم في سلك المعلمين في كلية علي كرة الشهيرة، وهنالك ظهر له

أنه يوجد عالم غير عالمه، وعلوم غير الفقه والكلام والفلسفة اليونانية، فأخذ يطالع العلوم حتى عُدَّ من أكبر علماء الهند، وفي هذه الأثناء ساح في البلاد الإسلامية كلها ليعرف داء المسلمين ودواءه، وبعد رجوعه إلى وطنه ابتدأ دوره الذهبي؛ لأنه ترك الوظيفة، ولم يعمل شيئًا بعد إلا لإصلاح المسلمين، ولهذا الغرض أخذ على عاتقه مشروع ندوة العلماء، وهي لم تكن شيئًا يذكر قبله، وبهمته العالية ترقت في مدة قصيرة حتى سُمع صوتها في العالم المدني، وتخرَّج فيها العلماء والمربون، وكانت له أماني كثيرة حالت منيته دونها إذا وافته بعد أن مرض نصف شهر، فسقطت بذلك حلقة كبيرة في سلسلة المصلحين، وانطفأ مصباح الهند، فليحزن على فقده المصلحون، والهنود المسلمون، إنا لله وإنا إليه راجعون.

(المنار)

فقدنا الأستاذ النعماني في عهد هذه الحرب التي حرمتنا رؤيته، ما عدا جريدة عليكدة من جرائد الهند، فلم نقف على شيء من تأبينها وترجمتها له، والشيخ حبيب الرحمن الذي كتب تلك النبذة الوجيزة في جريدة عليكده من أهل العلم والدين، وحزب المصلحين المعتدلين، ولكنه أوجز واختصر حتى أنه لم يذكر لنا مصنفات الشيخ، ولعل أهل مصر وغيرها من البلاد العربية لا يعرفون منها إلا رده الوجيز على كتاب تاريخ التمدن الإسلامي، وما هو إلا عجالة جعلها نموذجًا لبيان ما أنكره من ذلك الكتاب، ولم يرد به الاستقصاء، وكنت رأيت له رسالة في الجزية نشرت بعضها في المجلد الأول من المنار، وهي تدل على اجتهاد في التاريخ وعلوم الدين، ومن سوء حظ المسلمين أن يقوم حزب الجمود في وجوه هؤلاء الأفراد من المصلحين كالشيخ النعماني، ويحولوا بينهم وبين خدمتهم لملتهم وأمتهم، ويضعف أنصار الإصلاح عن إحباط أعمالهم، ومما يذكر بالإعجاب في ترجمته أنه لم يوجد في أمراء الهند وعظمائها رجل عرف قيمة هذا الأستاذ الكبير المصلح، كما عرفته أميرة بهوبال فضلى نساء تلك الأقطار وأقيالها.
وسننشر في الجزء التالي كلمة وجيزة من صلة المودة بيننا، وبين الفقيد وكتابًا منه يعلم منه شيء من صلته العلمية الدينية بصاحبة بهوبال، أدام الله النفع بها.

((يتبع بمقال تالٍ))

الشيخ شبلي النعماني[35]

كان الشيخ شبلي النعماني -رحمه الله وأدام النفع به- ركنًا من أركان نهضة الإصلاح الإسلامي في الهند.

ورجال هذا الإصلاح في كل الأقطار الإسلامية أمة وسط بين فريق الجامدين على التقاليد والعادات، التي انتهى إليها أمر جمهور المسلمين بعد فتك التفرق الديني والسياسي بهم، وانتشار البدع والخرافات فيهم، وإضاعة جل ما ترك سلفهم من العلم والمجد التليد، وإعراضهم عن العلم الحديث والمجد الطريف، وبين فريق المتفرنجين الذين أصابوا حظًّا من اللغات الأجنبية، وتلقوا قليلاً من العلوم والفنون الأوربية، فأحدث لهم ذلك غرورًا بأنفسهم، واحتقارًا لأمر أمتهم، فطفقوا يمرقون منها بزلزال عقائدهم وأفكارهم، وتغيير عاداتهم وأزيائهم، فوهت فيهم جميع مقوماتها، ولم يندغموا في أمة من الأمم التي يقلدونها، على أن منهم من يحسبون أنه يمكن جعل أمتهم كلها، مثلهم أو مثلها.

المباينة بين الجامدين والمتفرنجين عظيمة، كل منهم يحتقر الآخر ويكرهه، ويعده علة لضعف الأمة وانحطاطها، أولئك يرمون هؤلاء بالكفر والفسوق، ويَنْفرون ويُنَفِّرون منهم ر ومن هذه العلوم والفنون، ويعدونهم آلات الأجانب التي يحللون بها عناصر الأمة ويستعملونها كما يستعملون عناصر الأرض في تنمية ثروتهم، وإعلاء كلمتهم، واستعمار البلاد وجعلها تحت سلطتهم - وهؤلاء يرمون أولئك بالتعصب والجهل، والخرافات والهمجية، التي يجب نسفها لإقامة بناء الحضارة والمدنية، والحق أن كلا منهما مخطئ في شيء، ومصيب في شيء آخر، وله مزايا حسنة، ورزايا ضارة، وأن الأمة لو سارت على رأي كل منهما وحده لم تكن عاقبتها إلا الانحلال والهلاك.

وأما حزب الإصلاح، فهو وحده محل الرجاء؛ لأنه يُقَدِّر مزية كل من الحزبين قدرها، ويعرف منافعه ومضاره، ويريد أن يكون معقد الارتباط والاتصال بينهما بإرجاع كل منهما عن خطئه، والسير بالأمة في طريق تحفظ به مقوماتها ومشخصاتها، وتعيد الموروث النافع منها إلى جدته، وتتدرج في استبدال النافع بالضار منه، وتقتبس من علوم العصر وفنونه وصناعاته ما لا تقوم لأمة قائمة في هذا العصر بدونه، وليس هذا المقام مقام شرح الإصلاح، ولا بيان أحوال الأحزاب الثلاثة،

وإنما ذكرنا هذا لبيان مرادنا من قولنا إن فقيد الإسلام في الهند كان ركنًا من الإصلاح الإسلامي.

ولم يكن طلاب الإصلاح إلا أفرادًا من الناشئين في بيت حزب الجمود أو حزب التفرنج، هداهم الله تعالى باستعداد في فطرتهم، وتوفيق في سيرتهم، إلى معرفة الطريقة المثلى لصلاح أمتهم، وكان المعقول أن يكون رجال العلم الديني أقدر على أهل الجمود منهم على المتفرنجين، ولكن كثر ما كان الأمر على غير ذلك؛ وسببه أن كبراء الجامدين من الشيوخ هم أشد حسدًا وبغضًا للمصلح الديني من غيره، فلهذا لم يتم للشيخ شبلي ما كان يريد من الإصلاح في ندوة العلماء، وكان أدنى الناس إلى مساعدته المتدينون من كبراء الدنيا كأميرة بهوبال، وقد أخبرني رحمه الله تعالى أن الأمير الجواد، الذي تفاخر به الهند أمراء المسلمين في جميع البلاد، النواب محمد علي راجا محمود آباد، عرض عليه مبلغًا كبيرًا من المال يدفعه سنويًّا لمدرسة ندوة العلماء بشرط جعلها للمسلمين كافة كمدرسة عليكرة لا خاصة بأهل السنة، وهذا باب عظيم من أبواب الإصلاح ما كان ليشايعه عليه المتعصبون من أعضاء الندوة؛ فلذلك اعتذر للأمير بأن هذا عمل ما حان وقته.

وأما الأميرة المحسنة التقية صاحبة بهوبال، التي جعلها الله تعالى بعد المصلح العظيم السيد صديق حسن خان، نصيرة العلم وخادمة الإسلام، فقد كانت ظهيرة للشيخ في جميع ما يخدم به الدين والعلم من الأعمال، وإننا ننشر هنا نص كتاب جاءنا منه، يشير إلى ما كان من صلتها وصلتنا به، وهو:

إلى حضرة السيد المحترم

متع الله المسلمين بطول بقائه بعد التحية والسلام

إني لم أزل أقرأ في الجرائد ما تبذلون من السعي في تأسيس دار العلم والإرشاد، وهذه هي بغيتنا التي كنا ننشدها نحن أهل الندوة، فجعل الله سعيكم مشكورًا، وتوج عملكم بالنجاح، طالما تاقت نفسي إلى زيارة مصر للقائكم، ولكن هيهات فإني قد قُطِعَتْ إحدى رجلي لرصاصة أصابتها فبقيت جليسًا[36]للبيت غير قادر على تحمل أعباء الرحلة والسفر، والأمر الذي دعاني الآن إلى إرسال النميقة أن الأميرة سلطان جهان (بيكم) صاحبة إيالة بوفال[37]خرجت راحلة إلى لندرة للحضور في حلفة تتويج الملك جرج، وهي تريد زيارة البلاد الإسلامية، وتصل في مصر في شهر رمضان.

وهي من عظماء بلادنا أعطت مائة ألف روبية لتكميل كلية عليكده، وعينت ثلاث مائة روبية جراية شهرية لندوتنا، وكم لها من أمثال ذلك.

ولها شدة عناية بتربية عائلتها؛ ولذلك أرادت أن تجلب إحدى المعلمات المسلمات من مصر

المحروسة، وقد كتبت إليَّ أن أكون مساعدًا لها في إنجاح هذا الأمر، فالمرجو من حضرتكم أنها لما تصل إلى قاهرة[38]وتستدعي من حضرتكم الاستشارة والاستعانة، فافعلوا ما يليق بكم من إكرام مثل هذا الضيف الكريم العديم المِثْل، والفضل لكم[39].

شبلي نعماني

في 7 مايو سنة 1911

ندوة لكهنؤ

هذا وإن الفقيد رحمه الله تعالى قد اشترك بالمنار من أول العهد لظهوره، وكان مواظبًا على قراءته معجبًا به، وقد كان له من حسن الظن بصاحب المنار ما حمله على دعوتنا لرئاسة مؤتمر ندوة العلماء السنوي رجاء زيادة إقبال مسلمي الهند على هذا المؤتمر، وما يتبع ذلك من تعضيد الندوة ومساعدتها، وهذا نص كتابه الأول في ذلك:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى حضرة الفاضل الأستاذ مولانا رشيد رضا أطال الله بقاءه.

لا يخفى على أمثالكم أن إغارات جرجي زيدان على أعراض العرب في كتابه (تاريخ التمدن الإسلامي) أكثر من أن تحصى، وإن كل ما دسَّه وَموَّه به لا أصل له أصلاً، وحين اطلعت على ذلك كاد قلبي أن يتميز من الغيظ غير أني صبرت وأمعنت النظر فيما له نظر، ولما عيل عني الصبر ونأى، قمت على ساق، وألفت رسالة أكشف فيها دسائسه، وهي الآن تطبع، وأريد إرسال ما فُرغ من طبعه منها إليكم لكي تدرجوه في جريدتكم، وكذلك إلى الفراغ منها بأسرها.
ومما أنهيه إليكم أن ندوة العلماء في كل عام تعقد محفلاً عامًّا يحضر فيه الخاص والعام، والأمراء والنواب وأهل الحل والعقد، ويكون انعقاده عامنا هذا في أول إبريل سنة 1913، فنحن معشر المعتمدين والآراكين نهوى ونود من صميم قلوبنا أن يكون صدر[40] هذا المحفل العظيم، وواسطة

عقده النظيم حضرتكم الشريفة، فإن تشرفونا بالقدوم علينا في الهند، تهرع أهل البلاد الشاسعة إلى هذا المحفل الإسلامي على كل ضامر من كل فج عميق لمقدمكم المبارك إن شاء الله تعالى، ويحصل بعون الله لكم ما أنتم بصدد الاجتهاد فيه من إظهار مقاصد مجلس التعليم والإرشاد، ويعظم بذلك محفل ندوتنا، ويُقَدَّر قَدْرَه، وفي طي رقيمي هذا، أُرسل إليكم خطبة والي الهند، وعميدها؛ فيظهر لكم منها أن الدولة البريطانية لها عناية تامة بندوة العلماء، ولولا ذلك لم تعين لها في كل شهر خمسمائة روبية من خزائنها، فإن عزم جنابكم على تشريفنا بما اقترحناه فلا عليه أن يلاقي سفير الدولة البريطانية في مصر المحمية، وينهي إليه خطبة والي الهند وعميدها في حق ندوة العلماء، وعريضتها عند قدوم الملك المعظم مع ملكته المعظمة قاعدة الهند دهلي، لكي يكون على علم ويستحسن قدومكم علينا، وإن أمكن منكم طلب الإجازة بذلك مرقومة فيها فنعم ذلك، ودمتم أفندم.

شبلي نعماني
5 جنوري (يناير) سنة 1913
ندوة العلماء - لكهنؤ

جاءنا هذا الكتاب ونحن نستعد لفتح مدرسة (دار الدعوة والإرشاد) فكان المانع من إجابة هذه الدعوة أرجح من المقتضي، إذ كان لا بد من السفر بعد فتح المدرسة بشهر أو أقل - وأنا ناظر موظف لها، والروح المدبر في تأسيسها والقيام بها، ولكن أعضاء مجلس جماعة الدعوة والإرشاد رأوا أن رحلتي إلى الهند خير لمشروعنا؛ لأن إشهاره في مثل ذلك المؤتمر العظيم فقروا في جلسة رسمية إجازتي وإعانتي على ذلك.

اقترح الشيخ رحمه الله تعالى عليّ أن أسافر بإجازة من عميد الدولة الإنكليزية هنا، وأرسل إليّ خطبة حاكم الهند العام، الذي ذكر ندوة العلماء بخير لأتوسل بها إلى هذه الإجازة، فكان هذا من بعد نظره وغور فهمه للسياسة، وكان مراده أن تكون هذه الإجازة كتابية فلم يتيسر ذلك، فلقي الشيخ من إنكار والي لكهنؤ عليه دعوتي إلى رياسة مؤتمر الندوة ما لقي، وأمكنه إرضاؤه بما كان أعده لذلك من الحجج، ومنها ما كتبه لورد كرومر في تأبين شيخنا الأستاذ الإمام من مدح حزبه، وخطبة للدكتور مرجليوث الأستاذ الشهير في مدرسة أكسفورد ذكر فيها رأي صاحب المنار في الجامعة الإسلامية بكلام مرضي، وثناء حسن.

ونحمد الله أن حقق ظن الشيخ رئيس الندوة، وأعضائها الكرام فينا، إذ كان الإقبال على المؤتمر في ذلك العام مما لم يسبق له نظير من قبل، ورحم الله الشيخ شبليًّا، وأحسن عزاء المسلمين عنه.

السيد عبد الحميد الزهراوي[41]

كان الشهيد السعيد نابغة من نوابغ السوريين، لا يكاد يلزّ به في مجموعة مزاياه قرين، ما عرفت بلاده كنهه، ولا قدَّرته قدره على أنها لم تقصر في تعظيمه وتكريمه، وفي الاحتفال له والحفاوة به أيام سفره وأيام قدومه، إذ عرف الجمهور منه في أواخر سِنِي حياته كما كان يعرف الآحاد.

إنه أحد أشراف البلاد المنصرفين لخدمة الأمة بكفاءة، واستعداد من معرفة المصلحة وفصاحة اللسان، والحجة وجرأة الجنان، وما كان لعقل الجمهور أن يدرك كُنه المزايا والفضائل التي بها كان الزهراوي في حقيقة جوهره من الحكماء الربانيين، والفلاسفة الاجتماعيين؛ وإن قضت عليه الأيام بالانتظام في سلك السياسيين، تلك الفضائل التي عرفها له كل من عرفه من العقلاء المنصفين؛ وهي استقلال الرأي وصدق القول وقوة الإرادة والإخلاص في العمل وإيثار الحق على الهوى، وتوجيه الهمم والهمة إلى المصالح العامة، وترجيحها عند التعارض على المنافع الخاصة، بل لم نعلم عنه أنه اشتغل في طور من أطوار حياته لمنافعه الخاصة، وإنما نعلم عنه أنه بدأ حياته العملية منذ بلوغ الرشد بإنشاء (جريدة المنير) السرية التي كان يطبعها في حمص بمطبعة الجلاتين، ويوزعها في البلاد السورية سرًّا لخدمة جمعية الاتحاد والترقي الأولى والسعي معها لإنقاذ الدولة من الإدارة الحميدية المستبدة، فتعلق بالسياسة من ذلك الحين، وظل مشتغلاً بها طول حياته.

كان بيننا وبين هذا الصديق العزيز تشابه في النشأة والتربية، ومشاكلة في الاستعداد والغريزة، وتقارب الفكر والرأي، تعارفنا به بالمكاتبة قبل اللقاء ثم كان بعد اللقاء كالمحبة والوِداد، ولم يزدد بالمُعاشرة إلا ثباتًا ورسوخًا، كان كل منا ميالاً إلى الاشتغال بالصلاح الديني والاجتماعي، وعلاقة ذلك بالسياسة لا تخفى، ولكن تيسر لكل منا من أمر الاشتغال بالسياسة أو الإصلاح ما لم يتيسر للآخر، إذ كانت هجرتنا إلى مصر وهجرته إلى الأستانة.

وفي سنة 1315 التي أنشأنا فيها المنار كان محررًا في إدارة جريدة (معلومات) العربية في

الأستانة؛ وكان ما يكتبه فيها موافقا لمشرب المنار، ووقع بيننا ما يشبه المناقشة في المسائل الإصلاحية (راجع ص 950 من الطبعة الثانية لمجلد المنار الأول) ثم نفته أفكاره من الأستانة إلى وطنه، وفي سنة 1319 كتب، وهو في دمشق الشام تحت المراقبة السياسية رسائله الاصلاحيه الثلاث (الفقه والتصوف) التي نشرنا أولها في المجلد الرابع من المنار، ثم قرظنا فيه المجموع لما طبع على حدته في مصر، وقد كانت هذه الرسائل أشد مما كنا نكتبه في موضوعها نقدا على سعة الحرية هنا، وشدة الضغط هنالك، فهاجت عليه حَمَلَة العمائم في دمشق، وأشد ما أنكروا عليه فيها القول بالاجتهاد وبطلان التقليد، فهيجوا عليه الحكومة فاعتقلته في الشام، ثم أُرسل إلى الأستانة.

ولم يكن سبب ذلك التشديد عليه، والإغضاء عمن اتهموا بالقول بالاجتهاد وإبطال التقليد معه غيرة من الحكومة على الفقهاء والصوفية أن يوجَّه إليهما انتقاد، ولا مجرد الإرضاء لمصبية الحشوية الجامدين في الشام، وإنما سببه الباطن أنه كان نشر في المقطم مقالة في الخلافة بإمضاء (ع.

ز) وهو إمضاؤه الرمزي لكل ما كان ينشره بمصر، وقد وُجِدَتْ تلك المقالة معه عند القبض عليه، وحاول تمزيقها.

وقد أشار الأستاذ الإمام إلى هذه الواقعة في فصل (الإسلام اليوم) من كتاب (الإسلام والنصرانية) وإننا نذكر عبارته هنا لما فيها من تأييد هذا الصديق الشهيد وهي:ألم يسمع بأن رجلاً في بلاد إسلامية غير البلاد المصرية، كتب مقالاً في الاجتهاد والتقليد، وذهب فيه إلى ما ذهب إليه أئمة المسلمين كافه، ومقالاً بيَّن فيه رأيه في مذهب الصوفية، وقال: إنه ليس مما انتفع به الإسلام، بل قد يكون مما رُزِئَ به، أو ما يقرب من هذا، وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبله، فلما طبع مقاله في مصر تحت اسمه، هاج عليه حَمَلَة العمائم وسَكَنة الأثواب والعباعب وقالوا: إنه مرق من الدين، أو جاء بالإفك المبين ثم رفع أمره إلى الوالي، فقبض عليه، فألقاه في السجن، فرفع شكواه إلى عاصمة الملك، وسأل السلطان أن يأمر بنقله إلى العاصمة ليثبت براءته مما اختلق عليه بين يدي عادل لا يجور، ومهيمن على الحق لا يحيف إلى آخر ما يقال في الشكوى، فأجيب طلبه لكن لم ينفعه ذلك كله، فقد صدر الأمر هناك أيضًا بسجنه، ولم يُعف عنه إلا بعد شهر، مع أنه لم يقل إلا ما يتفق مع أصول الدين، ولا ينكره القارئ والكاتب، ولا الآكل والشارب) ا.هـ.

أرسل الرجل إلى الأستانة، فاعتقلته السلطة الحميدية هناك أشهرًا، بعد جعله تحت مراقبة الجواسيس زمنًا، ثم أرسل إلى بلده (حمص) ليكون مقيمًا فيها تحت المراقبة لا يبرحها (ويسمى مثله في عرف الدولة الرسمي (مأمور إقامة) فبقي فيها إلى أن فر إلى مصر سنة 1324 وبقي فيها يشتغل بالتحرير

في (المؤيد) ثم في الجريدة إلى أن أُعلن الدستور سنة 1327 فعاد إلى سورية فانتخب مبعوثا عن لواء حماه وكان من أمره في المجلس وبعده ما كان.

لو كان الزهراوي من طلاب المنافع الشخصية لأمكنه أن ينال منها في عهد عبد الحميد ما نال من كانوا دونه من أرباب الأفكار، وحملة الأقلام الذين استمالهم السلطان عبد الحميد وأعوانه وغمروهم بالأموال والرتب وأوسمة الشرف، ولم يكن جهاده القانوني للاستبداد الذي انقلبت إليه جمعية الاتحاد والترقي بعد الدستور بأضعف من جهاده للاستبداد الحميدي مع الجمعية في إبان صلاحها، ومع غير الجمعية أيضا نصرها في الأيام الأولى من عهد الدستور كما نصرها قبله، وجاهدها بعد أن صار أمر الدولة كله في يدها.

ولو كان من طلاب المنافع الشخصية لنال بمسايرة الجمعية منها ما كان يعلم أنه لا ينال بمعارضتها، وما كنت أرى - وأنا في الآستانة - أحدًا من المعارضين للجمعية يرى قوتها فوق ما كانت عليه إلا الزهراوي، كان من أشدهم معارضة لحزب الجمعية في المجلس، وفي جريدة الحضارة التي أسسها في الأستانة، على كونه من أشدهم اقتناعًا بقوة الخصم وبُعدًا عن الغرور بما كان يروى عن ضعفه،فجمله القول فيه: أنه بدأ حياته بخدمة الأمة والدولة، وثبت على ذلك طول حياته، وأن جل عمله كان مع جمعية الاتحاد والترقي؛ فهو بعد تلك المعارضة في زمن المبعوثية، اعتقد أن الدولة صارت بعد الجمعية؛ وأنه لا يوجد في الأمة حزب يُرجى أن ينتزعها منها، فلم يَبق من طريق لخدمة الدولة والأمة إلا طريقها، وهذا الاعتقاد هو الذي حمله على قبول منصب الأعيان أخيرًا، كما سنبينه بالبرهان، وكان جزاؤه من الجمعية التي أفنى حياته في خدمتها أن قتلته شر قتلة، وأبقت جثته مصلوبة في الشام 12 ساعة ليعلم كل عربي يراها، أو يسمع خبرها كيف تكون عاقبة العربي العالم المفكر والخطيب المؤثر والكاتب المحرر عند هؤلاء القوم، الذين جعلوا من أصول سياستهم محو العربية من سورية والعراق، وحتم البداوة على عرب الجزيرة وإيقاع الشقاق الدائم بينهم إلى أن يبيد بعضهم بعضًا ؟كان قبول السيد الزهراوي لمنصب الأعيان من الحكومة الاتحادية مثيرًا لاستياء جمهور طلاب الإصلاح ومحبي الإصلاح للأمة العربية العثمانية وسببًا لسوء الظن فيه، وكثر القول بأنه تحول عن سيرته التي كان عليها طول عمره، فآثر منفعته الشخصية على مصلحة أمته العربية، فتحول ذلك الجمهور الذي كان ينوه به ويصفق له إلى الخوض فيه، ولو كان عقل الجمهور يدرك كثيرًا تلك الفضائل التي وصفناه بها بحق، لما صدق أن مثله يتحول بعد سن الخمسين من عمره إلى ضد ما ثبت عليه من أول نشأته، وما الذنب على العامة في ذلك، وإنما الذنب ذنب خواص الأذكياء

والمتعلمين الذين سارعوا إلى الخوص فيه فتبعتهم العامة، وكان يجب عليهم التروي والتثبت في أمر هذا الحدث الجديد.

ألهذا العامل المستقل عذر فيه واجتهاد أم لا ؟ ثم التثبت والتروي في الطعن بمثل هذا الرجل منهم، إن ثبت لهم أنه مجرم سياسي متعمد، لا مجتهد مصيب أو مخطئ، فإن أول نتائج الطعن في مثله- وقل أن يوجد مثله في طهارة سيرته الشخصية والسياسية- هي زوال ثقة الأمة من زعمائها بقياس أنزه الصادقين على أخس المنافقين، وما أولئك الطاعنون إلا حاسد يذم من الزهراوي ما يتمنى مثله لنفسه، أو نفعي ساء ظنه لسوء نيته وفعله، أو غيور شديد العصبية، قليل الروية، يبادر إلى إرضاء حميته، ولا يحسب حسابًا لعاقبة قوله وعمله.

لم يكن الزهراوي من أهل الأهواء، الذين يجعلون مصلحة الأمة والدولة تبعًا للأغراض، وعرضة للعواطف والأحقاد، بل كان يحب العمل المبني على القواعد المعقولة والرغائب المأمولة، فلما رأى أن الاتحاديين يحاولون إصابة أغراضهم الضارة بالأمة العربية وبوحدة عناصر الدولة، بقوة مجلس المبعوثين، أحب أن يحاربهم بسلاحهم، فكان من المؤسسين للحزب المعتدل ثم لحزب الحرية والائتلاف الذي تكون من هذا الحزب الذي أكثر أفراده من العرب، ومن حزب الأهالي الذي أكثر أفراده من الترك، وكان الزهراوي وكيل الرئيس في هذا الحزب، وقد ظفر هذا الحزب بالاتحاديين، فجذب إليه الجم الغفير من مفكريهم وضباطهم، ثم أسقط وزارتهم، واستبدل بها وزارة مختار باشا التي لم تكن هي ولا وزارة كامل باشا التي جاءت بعدها ائتلافية ولا اتحادية، وإنما كانتا على كراهتهما لسيرة الاتحاديين غير معتصمتين بعروة الائتلافيين، ولا موافقتين لهم في كل شيء، ولذلك سهل على الاتحاديين إسقاط وزارة كامل باشا، وقد أخطأ الائتلافيون بعدم جعل الوزارة من حزبهم.

وقعت حرب البلقان في أيام وزارة مختار باشا، فانكسرت الدولة فيها، وألفت وزارة كامل باشا لتتدارك أمر الدولة بالصلح، وفي أثناء ذلك جاء الزهراوي مصر قاصدًا الذهاب إلى الأستانة لقرب موعد فتح مجلس المبعوثين وقد أقنعناه بأن لا يتعجل السفر، لما يُخشى من وقوع الفتن بالأستانة، وقد وقع ما كنا نتوقعه بهجوم الاتحاديين على الباب العالي، وقتلهم ناظر الحربية فيه وإسقاطهم وزارة كامل باشا، والقبض على أزِمَّة الحكومة، ولكن صاحبنا كان يصر على السفر، يظن ظنًا كاد أو كان يسميه يقينًا بأن الاتحاديين لا يثبتون أسبوعًا حتى تسقطهم الأمة، وتستبدل بهم غيرهم فأقنعناه بأن يصبر حتى تصدق الأيام ظنه أو تكذبه، وما اقتنع منا إلا بإدلال الصداقة، على

أنه كان يرجع عن رأيه إلى رأي صديقه، هذا كما نص على ذلك في كتابه الآتي وإنما صرحت بهذا؛ لأنه من مقدمات الحجة التي أذكرها بعد نشر ذلك الكتاب.

وفي أثناء حرب البلقان تأسس حزب اللامركزية بمصر، ولم يدخل هو في الحزب؛ لأنه لم يكن ينوي الإقامة بمصر، وإنما رشحه الحزب لرياسة المؤتمر العربي، لمكانته العلمية والاجتماعية، وموافقته للحزب في مقاصده الإصلاحية، فانتخب رئيسًا في باريس، وعقد معه الاتحاديون ذلك الاتفاق المشهور.

كان في مدة إقامته في باريس أيام المؤتمر، وبعدها يكاتب حزب اللامركزية ويعمل برأيه، ولم يسافر إلى الأستانة إلا بعد إذنه، فقد استشار الحزب فخيره بين مصر والأستانة، وكان هو يرجح الثانية، والحزب يرجح الأولى، وكان يكتب من الأستانة إلى رئيس الحزب كل ما يدور هناك في مسألة إعطاء العرب حقوقهم من الإصلاح والوظائف، ويكتب إلى صديقه (كاتب هذا) مثل ذلك، وما وراء ذلك مما كان يكتمه عن البعض، أو عن كل أحد، كما يعلم من كتابه المطول الآتي.

كان من فضائل الزهراوي الشخصية التي تُعد عيوبًا في السياسيين أنه لحُسن نيته وصفاء سريرته، يبالغ في حسن الظن بكل أحد يُظهر له إرادة الخير والحق، فلما قال الاتحاديون: إنهم يعترفون بما كان من خطئهم في تنفير العرب منهم، وفي محاولتهم تتريك جميع العناصر العثمانية، وأنهم يرغبون في إصلاح ما أفسدوا في ذلك؛ لتوقف تجديد قوة الدولة عليه- صدقهم في ذلك؛ لأنه معقول عنده، وعد توجيههم منصب الأعيان إليه على ما كان من شدة معارضته لهم برهانًا على صدقهم، وصار يرى أنه ينبغي لطلاب الإصلاح المخلصين أن يمدوا أيديهم إليهم، ويساعدوهم على الإصلاح وأنهم إذا أحجموا حل محلهم المنافقون وطلاب المنافع، وكان متفقًا مع صاحبه عبد الكريم الخليل على ذهاب المنار ورفيق بك العظم إلى الأستانة لهذا الغرض.

أما أنا فكان يغلب على ظني أن جعله من الأعيان أحبولة يريدون بها اصطياد المخلصين من طلاب الإصلاح في خارج المملكة؛ ليفتكوا بهم بعد جلبهم إليهم جملة واحدة، وإن وجوده وحده هنالك واقٍ له، وفيه فوائد منها أنه تجربة للاتحاديين، وحجة عليهم.

قبل منصب الأعيان بتلك النية الصالحة من غير مشاورة للحزب، ولا لأحد من أصدقائه، وإنما أخبرنا بما كان ونيته فيه، فلُمْناه على تعجله، ولكن الحزب أجاز عمله، واتفق الرأي على أن يمضي في هذه التجربة، وأن لا ينضم إليه أحد من المقيمين خارج المملكة، وكان أول ما كتبه إلي في ذلك قوله من كتاب مؤرخ في 6 صفر سنة 1322 (6 يناير سنة 1914) ما نصه:(أخوكم عُيِّن - بعون

الله وعنايته - عضوًا لمجلس الأعيان فبشروني بأنكم راضون عن قبولي بها، والله يشهد إنني إنما قبلت؛ لإتمام العمل، وتعلمون قلة الرجال عندنا يا أخي، يعترض بعض المعجلين، فالأمر في هذا متروك لحكمتكم وهمتكم.

بل أرى أن تقديم شكر للصدارة يكون مؤيدًا لإتمام العمل، ومَنَّ الله سبحانه التوفيق).

وقد كتب إلى الحزب بنحو هذا، فأجيب طلبه؛ لأن غرض الحزب الإصلاح لا المشاغبة ولا عداوة الدولة، ولكن لم يكن يحسن الظن بالاتحاديين أحد، وقد دار بيننا وبين هذا الصديق في هذه المسألة، وما يتعلق بها مكاتبات ومعاتبات لم تخل من عدة مغاضبات، وإنني أنشر الآن منها كتابًا مطولاً، كتبه في 16 صفر سنة 1332 وكتب في أعلاه (مكتوم كله عن كل أحد) وهذا نصه بعد العنوان :

كتاب سري من السيد الزهراوي

سيدي الأخ الرشيد الولي الحميم الحميد:

تحية من الله ومن أخيك، ولا برحت المكرمات تحييك، لقد عظم شوقي أيها الأخ، ومضت الأيام، وأنا أمني النفس بقرب التلاقي، ومازلت راجيًا ذلك.

يظهر يا عزيزي أن عتبك على تأخري هنا عظيم، عرفت هذا من كتابك إلى الأخ الأستاذ...

ويظهر أن قطعك الكتاب عني عمد، استنبطت هذا من طول مدة القطع، وقد حملت هذا على كثرة عملك التي أعرفها، ثم تذكرت ما أعهد من وفرة نشاطك - والحمد لله -، وأن كثرة عملك من تلك الوفرة من النشاط لا تقف في سبيل ما تعزم عليه، فاستنتجت من هذا القياس- سامحني الله على رأي ابن حزم - أنك تعمدت عدم العزم في الكتابة أو عزمت على عدم الكتابة.

وقد ظهرت هنا شائعة أن اللامركزيين في مصر مشمئزون من بقائي هنا، وأنهم قطعوا علاقتهم بي ومكاتبتهم لي، أنا لم أصدق هذه الشائعة، وإنما خشيت أن يكون بعض العجولين هناك يصرح ثمة مثل هذه التصريحات وكدت أخشى أن يكون...

مثلاً قد شاهد شيئًا من تأففكم لتأخري فبنى على مشاهدته كلامًا كتبه إلى بعض معارفه هنا، فشطّر ههنا وخمّس.

هذه كلها ظنون، وأستغفر الله -تعالى- منها، وأرجوكم مسامحتي عليها، ومن الشرح يظهر لكم سر تقديمها بين يدي هذه التفاصيل المهمة التي جاء أوانها:كنت قد فصلت لكم؛ إذ جئت باريس كيف وجدت أمر مؤسسي فكرة المؤتمر فوضى ؟ وكيف تعبنا في ستر الأمر وإيجاد المؤتمر مرونقًا

-وبتوفيق من الله تعالى- فوق المأمول؟ وبعد انقضاء المؤتمر تفرق الجمع الذي لفق تلفيقًا، ثم بعد قليل نفد صبر البيروتيين فذهبوا إلى بلادهم عن طريق إستنبول، وبقيت -يا عزيزي- وحدي أمثل الفكرة، وبقي خليل زينية وأيوب ثابت وهما لم يرشفا من مشرب الجامعة العربية ولا قطرة واحدة، حتى ولا من الجامعة السورية، وإنما همهما بيروت وحدها لا شريك لها، ولكن لأنهما متعلمان سايراني وسايرتهما، وتوادينا جيدًا حتى سفري، ولم يكن مثل هذا التواد، ولا رُبعه بينهما وبين رفقتهم البيروتيين المسلمين.

لو عجلت تلك الأيام، ورجعت على الفور إلى مصر لبقيت المسألة مقطوعة بَتْراء، إذًا يكثر استهزاء الأفراد والجماعات والأقوام بأشخاصنا وبجماعتنا وقومنا، لكن الله -سبحانه- سلم من هذا، وأقدرني على الصبر هناك ممثلاً للفكرة مدة خمسة أشهر- وما هي بالقليلة ولا الكثيرة - ونِعمت المدة كانت، وقفت فيها على كثير، وعظم فيها اختباري لأوروبا، وما أحوجنا إلى مثل هذا الاختبار، جئت بعد ذلك إلى إستنبول؛ لأرى ما جدَّ فيها لأن المعرفة بالقديم لا تغني، والمعرفة عن بُعد كثير من مآخذها غير صحيح، وما أضر العلم المبني على مأخذ غير صحيح.

بعد وصولي بقليل عرفت كثيرًا من الأحوال الحاضرة هنا، وبعد مدة أخرى عرفت أكثر، وكدت أظنني اكتفيت، وأحطت كل الإحاطة، ولكن الآن تبين لي أنه لولا الصبر والتأني اللذان مكنني الفاطر -سبحانه- منهما لرجعت بمعرفة غير كافية؛ ولذلك أصبحت لا أجسر أن أقول: تمت إحاطتي وإنما أقول: أصبحت يجوز لي أن أفصل، وأشرح بشيء من الطمأنينة، وإن تأخير هذا التفصيل والشرح كان أنفع، وجاء اليوم في وقته.

الشرح ههنا يتعلق بثلاثة مواضيع (أو موضوعات):

(1) أوربا والعثمانية.

(2) الاتحاديون وغيرهم.

(3) رجال الإصلاح الحقيقي وأبناء العرب هنا، وفي الجهات الأخرى.

وإني أبدأ لكم بالأول لقِصر البحث فيه، وأشفع بالثاني، وأخرت الثالث لطوله وطوَّلته لتوقف التفاهم وكثير من أعمالنا على الإحاطة بهذه الحقائق المشروحة فيه.

أوربا والعثمانية :

لقد كشفت أوروبا آخر ستار من ستر السياسة في المسألة العثمانية، وقررت التداخل في سائر شئونها، وإنما لا يزالون مختلفين بعض الاختلاف في كيفية هذا التداخل وكميته وصورة توزيعه فيما بينهم، وليس في أوروبا اليوم موضوع مقدم على هذا الموضوع، ولا يمضي ثلاثة أشهر حتى تتمخض الليالي، فتلد ذلك الشكل الجديد الذي يتفقون عليه، والذي أظنه أن الدولة ستبقى بعد ذلك، وتعيش أحسن مما كانت عائشةً؛ لأن بعض التداخل طب، ولست مغاليًا إذا ذهبت إلى أن الموت أقرب إليها مع عدم التداخل ألبتةَ منه مع شيء من ذلك، فإنا إذا قلنا بعدم التداخل ألبتة؛ فحينئذ تخلق كل واحدة سببًا لنشوب الحرب عليها، فتؤخذ بداء السكتة دفعةً واحدةً.

الاتحاديون وغيرهم:

الاتحاديون معروفون، فمن غيرهم لا يوجد الآن حزب سياسي آخر إلا أن يكون خفيًّا، ولم أشم شيئًا من هذا، وحينئذ لا نجد مقابل الاتحاديين إلا جماعات الأجناس، كجماعات الروم وجماعات الأرمن وجماعات العرب.
نعرف أن للروم جماعات وللأرمن جماعات، فهل للعرب مثل هذا ؟ هلم ننظر:

أولاً: الروم كلهم جماعة واحدة، يرأسهم البطرك، ولكيلا يستبد ربطوه بمجلسين روحاني وجسماني، وهكذا الأرمن، أما العرب فليس لهم مثل ذلك.
ثانيًا: الروم والأرمن لهم جمعيات سياسية منظمة مرتبة غنية، وليس للعرب مثل ذلك، اللهم إلا جماعتنا في مصر وجماعتنا في بيروت؛ إذن غير الاتحاديين هم الروم والأرمن، وجماعتنا في مصر وجماعتنا في بيروت.
فالاتحاديون هم أولياء الأمر مباشرة، وهم اليوم يتسلحون بعزائم شديدة ماضية، وناوون نيةً قاطعة أن يجددوا شباب الدولة بقدر ما تسمح الظروف، ويشتهون أن يخلص إليهم العرب ويساعدهم فضلاؤهم في هذا السبيل، ويعترفون بخطيئاتهم الماضية، وينوون أن لا يعودوا إلى مثلها بقدر الإمكان أنا مؤمن بنيتهم وأقوالهم هذه كل الإيمان، لأدلة كثيرة ظهرت لي، ولكنني مرتاب من جهة قابليتهم لتطبيق العمل على النية، وعلى كل حال أرى أن عدم تركهم وحدهم خير من تركهم، ويرجى به أن تقوى قابليتهم، فإن شئتم أن تخطئوني بتحسين الظن إلى هذه الدرجة- كما أشرتم إلى

ذلك في كتاب.
فإني لا أخطئكم بالتخطئة؛ لأني أُجِلُّ رأيكم أكثر من رأيي، وإنما أرجو أن يكون في خطئي شيء من البركة، أرجو ذلك من مصداق قوله سبحانه: [فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً] (النساء: 19) هذا وصف الاتحاديين بما هم عليه اليوم.
أما الروم فقد قلوا في المملكة، وقصاراهم أن يحافظوا على ما بيدهم من امتيازات البطركية وحق المبعوثية، وسيقل الالتفات إليهم، وأما الأرمن فهم اليوم آلة بيد روسية وسيتم لهم في المبعوثية حظ قريب مما يأملون، وأما نحن معشرَ العرب، فإن أخاكم الآن يعتبر ممثل جماعتنا، وقد فصلت ما تم على يدي في الكتاب الذي أرسلته إلى الأخ الرفيق في البريد الماضي، وههنا سأزيد.

(3) رجال الإصلاح الحقيقي وأبناء العرب هنا وفي الجهات الأخرى:

ما أظنكم-أستغفر الله- ما أعتقد أنكم في حاجة إلى بيان أن رجال الإصلاح الحقيقيين غير كثيرين، وما أعتقد أنكم تعرفون منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة، أعني برجال الإصلاح الحقيقيين، من جمعوا في موضع الإصلاح بين صدق النظر وصدق العمل، مَن كثرت تجاربهم، ومرنت رويتهم وصحت عزيمتهم، وشهد ماضيهم، مَن كثر اختلاطهم بمختلف الطبقات، ووقوفهم على متباين النزعات، وصبرهم على متنوع العقبات، من امتزجت روحهم بحب النظام الذي يحبه الله، وكره الفساد الذي يكرهه الله، وامتزجت سيرتهم بأخبار مَعَامِع الجهاد الإصلاحي، من أُشربت أفكارهم فهم معنى الرابطة، وأفئدتهم محبتها وتعشقها.
فنحن لقلة هؤلاء واقعون أمام حاجتين عظيمتين (الحاجة إلى تكثيرهم، والحاجة إلى اشتغال هؤلاء مع من ليس من جنسهم وطبيعتهم).
ثم نحن مع قلتهم وصعوبة اشتغالهم مع غيرهم أمام مشكلين عظيمين، الأول السُّبات الذي الأمة فيه، والثاني الجشع الذي أوروبا فيه.
أترك تفصيل هذا الإجمال لحكمتكم، وحسبُنا هي في كل موضوع، وآخذ الآن بحكاية حال أبناء العرب هنا، لأنكم علقتم الأمل مرارًا على صنف منهم ههنا.
العرب هنا ثلاثة أصناف: متاجرون ومتعلمون ومأمورون، فالصنف الأول لا في العير ولا في النفير من جهة السياسة والإصلاح، ثم هو في غاية القلة، والصنف الثاني أولاد في ناشئة العمر لا يليقون للسياسة ولا تليق لهم، والصنف الثالث أربعة أقسام: الضباط والمأمورون المنصوبون في

بعض الوظائف والمأمورون المتقاعدون المقيمون هنا والمأمورون المعزولون الذين جاءوا لينصبوا.

فأما الضباط فلا تجربة لهم في هذه المسالك ألبتة والأَوْلى عدم دخولهم فيها، فإن هذه التجربة القليلة التي سأقصها الآن زهدتني في كل سياسة يشترك فيها الضباط منا: ذلك أن... ناقم اليوم على الحكومة، فيشتهي لأجل هذا زعزعة الدولة ونسفها نسفًا، وهو لأجل ذلك ناقم على ائتلافنا مع الحكومة ومضاد له؛ لأنه على زعمه يؤخر حركات العرب، ولا أدري ما هي حركات العرب، وأين تسير وأين ترسي، وهذا يجتهد أن يجمع حوله بعض أولئك الأولاد وينفرهم منا، ومن صنيعنا، ولكن لا ينجح بحوله - تعالى -، ومن جهة أخرى هو يحافظ على ظاهر الصداقة بيننا، وقد أردت اختباره فوجدته يجنح إلى مصالحة أولياء الأمور، وحينئذ يرضى عن كل شيء، فانظر يا عزيزي إلى الذين يعدون أنفسهم في مصاف رجالنا.

أما المأمورون المتقاعدون، فمثلهم كمثل العجائز لا يرضيهن شيء ولا يستطعن عمل شيء، وأما المأمورون المنصوبون فلا هَمَّ لهم إلا حفظ المنصب.

وأما طلاب المأموريات فَجِيَاع مساكين لا يفهمون من الإصلاح إلا المأمورية، إن جاءت فقد جاء الإصلاح، وإن لم تجئ فقد منع الإصلاح، ومن هذا التفصيل يظهر لك أن العاصمة في حالتها الحاضرة ليس فيها أبناء عرب تستطيع جماعتنا أن تعتمد على أحد منهم، أو أن تعمل صلة أو رابطة مع أحد منهم، اللهم إلا أن يكون (فلان وفلان) وكل ما أخبركم عنه (فلان) فهو سراب بِقِيعة جاءه أخوكم الظمآن فلم يجده شيئًا.

وبعض أولئك الأولاد يحسدون الشاب عبد الكريم، وبعضهم لم يتمكن من إنالتهم أربًا لأبيهم أو أخيهم أو ابن عمهم مثلاً، فمِن هنا أكثروا عليه من قيل وقال، وكله هُراء وهواء.

وأما العرب في الجهات الأخرى، فهم أهل سورية وأهل العراق وأهل الجزيرة الخُلَّص، فالسوريون والعراقيون حَضَر قد ألفوا الذل وتعودوا الاستخذاء والاستكانة لا يفهمون ولا يريدون أن يفهموا، لا يساعدون ولا ينوون أن يساعدوا، لا يهبون ولا يَرُوق لهم أن يُوقَظوا.

وأما أهل الجزيرة الخُلَّص، فهم الأهل - وفاهم الله الخير وشد سواعدهم - أولئك يجب وصل الرابطة بهم من غير أن نقطعها من الحضر على قلة غنائهم.

وقد فهمت من كتاب الأخ (فلان) كثيرًا واستنبطت كثيرًا.

ولو كان في وسع البشر أن تتوزع أرواحهم على أمكنة متعددة لكانت روحي أوزاعًا على اليمن

وعسير والحجاز ونجد وحضرموت، ولكن نظرية الصوفية في هذا الباب لا يمكن تطبيقها[42].
انظر يا عزيزي، أنا لازم لهناك كما تشير، ولازم إلى هنا، فإن هنا محل عمل ليس بقليل، فإني أرجو أن يكثر بوجودي هنا عدد رجالنا الذين يعتمد عليهم، فإن رضيت عن هذا الرأي فعليك عملان مُعَجَّلان وعمل يمشي مع الزمان، وأنا معك فيه على بعد المقر، فالأول من المُعَجَّلين تبشيري بتلغراف عن رضائك خاصة وهو الأهم، ورضاء الرفاق عامة وهو مهم، والثاني منهما حملك الرفاق على تقديم تلغراف للصدارة، يحبذون فيه هذا التعيين ويجعلونه دليل إقدامهم على تنفيذ الرغائب كلها بعبارة رقيقة تشويقية، أما الثالث، فهو ما بيننا من أمر إيجاد الرجال الذين يعتمد عليهم وتوزيعهم بقدر ما يساعد الزمان والمكان لبث الإصلاح العلمي والعملي.
وإن لم ترض عن هذا الرأي فاكتب إليّ مفصلاً ومبينًا كل جهة من جهات الموضوع، وأنا من عهدت مَنْ يَدَعُ رأيه أخيرًا إلى رأي وليه.. هذه هي الخلاصة المفصلة، وإليك خلاصة الخلاصة، وهي أن اليأس لا يجوز بحال من الأحوال، ولكن الأمة في كل أطرافها ليست بحالة يُعتمد عليه في شيء، وأنه مع هذا لا يجوز إهمالها، وكذا لا يجوز إهمال من بيدهم أمر المملكة وتركهم وحدهم، وأنه لا بد لنا من رجال ههنا، وأن أكثر ما يتصرف به الرواة من الأخبار غير صحيح، وإني منتظر أمركم بسرعة، وإن شوقي عظيم.
والسلام على الأخ السيد صالح وجميع المعارف، سلم الله - تعالى - الجميع.

عبد الحميد الزهراوي

(المنار)

من هذا الكتاب وكتب أخرى بمعناه يعلم رأي الرجل الذي يبني عليه اجتهاده ومنه أنه مؤمن بحسن نية الاتحاديين، وتمنيهم الاتفاق مع العرب، وبهذا كان يحاول إقناعنا، ولم يكن يخفي هذا على الاتحاديين؛ ولذلك نجزم بأنهم قتلوه، لأنه من أنجب نجباء العرب لا لذنب آخر [وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ](آل عمران: 4).
وإنما نشرت هذا الكتاب السري من كتبه بنصه، فلم أحذف منه إلا أسماء الأحياء ليكون حجة على فريقين من الناس- فريق الذين قد يظنون أن الاتحاديين ما قتلوا مثل هذا السيد الجليل بعد أن رفعوه

إلى مقام الأعيان إلا لأنهم عرفوا له ذنبًا كبيرًا كالخيانة للدولة أو للجمعية المتصرفة في الدولة.

وفريق الذين ظنوا أنه خان قومه العرب بتركه الدفاع عن حقوقهم بمنصب الأعيان الذي رشاه به الاتحاديون، وإنما يتم ظهور هذه الحجة، ببيان ما كان بيني وبين هذا الصديق الصدّيق من الصلة والرابطة.

يرى قارئ كتابه أنه قال لي فيه عن نفسه: (وأنا من عهدت من يدع رأيه أخيرًا إلى رأي وليه، وقد أشرت إلى هذه الكلمة في المقدمة التي قدمتها على هذا الكتاب، وأقول: إنه يعني بهذا أنني إذا حتمت بعد المناقشة معه في الموضوع وجوب تركه لمنصب الأعيان، واشتغاله بعمل آخر في غير الأستانة فإنه يقبل ذلك.

وقد كانت طريقتنا فيما يختلف رأينا فيه أن يدلي كل منا بحجته، فمن نهضت منا حجته قبلها الآخر، فإذا لم ترجح إحدى الحجتين، وكانت المسألة مما يترتب عليها عمل يرجع هو في العمل إلى رأي أخيه.

ويدل على مكانة هذا الأخ عنده جعله رضاءه عنه في هذا الأمر أهم من رضاء الحزب الذي كان سبب ذلك، وهو صادق في قوله هذا وقوله ذاك، لا ريب عندي في صدقه، وما قلت هذا في بيان كلمتيه إلا ليعلم المطلع عليه أن الرجل لو كان يكذب ويخدع لم يكن يكذب علي ولا يخادعني، ولو كان يفعل ذلك لحاول إرضائي بأنه يعامل الاتحاديين بمثل ما يعاملوننا به من الخِلابة السياسية ليستفيد منهم في طور ضعفهم وحاجتهم إلى استرضاء العرب بعض الحقوق، وما كان يكتب إليَّ- وهو معتقد أنني ساخط عليه، ومتعمد ترك الكتاب إليه- أنه مؤمن بحسن نية الاتحاديين وصدقهم في هذه المرة ولكنه كتب هذا وهو يعلم أنني أعدّه سذاجة منه وغلوًّا في حسن الظن.

وأزيد على هذا أنني عاتبته على بعض ما جاء في هذا الكتاب وغيره عتابًا ثقيلاً جاءت فيه كلمة جارحة، فكتب إلي رقعة أوْدعها كتابًا له قال فيها ما نصه: كلمات بيننا

(في كتابكم الأول كلمة لا أكتم عنكم أنها كسرت قلبي، إذ لو كتبت هذا لكان خيانة للإخاء النظيف الصافي، ذلك أنكم بنيتم على نظرية إغراقي بحسن الظن بالقوم أن هواء الأستانة طمس على عقلي وقلبي.

أخوكم يا عزيزي قد عرفتموه بعد أن كان عاش في هذا البلد سنين، وعرفتموه في الآستانة نفسها، فلولا ذلك لرجعت إلى نفسي؛ لأرى تغلغل أثر البوسفور فيها.

ولكن كما لم أكتمكم هذه الحقيقة أتحدث أمامكم بما مَنَّ الله - تعالى - به من حَمْل حدتكم القلمية هذه

على ما يشابهها من حدتكم اللسانية التي نأنس بها أنسنا بِحِلْمِكُمْ الذي هو أغلب وأصدق دلالة على كرم قلبكم.

على أنني أؤكد بشرفكم أن انكسار القلب الذي أشرت إليه كان أنينًا وأعقبه تذكر حقيقتكم العالية.

أما تأخير كتبنا فقد كان عامًّا حتى شمل الوالد، فلا تحملوه على ذلك السبب، ولكن أبى كرمكم إلا يطيب القلب فأخصكم بشكر على هذا) ا هـ.

فمن كان بينهما مثل هذه الحرية في الخطاب والعتاب لا يغش أحدهما الآخر، لو كان من دأبهما الغش.

وأحمد الله - تعالى - أنني لم أُبْتَلَ بهذه الرذيلة، وإنني أبرئ منها صديقي الشهيد السعيد كما أبرئ نفسي.

هذا وإنني لم أكتف بما دار بيني وبينه - قدس الله روحه - من المكاتبات في هذه المسألة بل دعوته إلى زيارتنا بمصر فأجاب، وكنت أعقد معه مجلسين للمناقشة في كل يوم وليلة: مجلسًا قبل النوم ومجلسًا في الصباح.

فرأيته بعد ذلك كله معتقدًا أن الاتحاديين عازمون على إرضاء العرب، وأنه يحب مسايرة العقلاء منا لهم على ذلك، وأننا ننال بهذا من الحقوق ما لا يُرجى أن نناله بالسعي مع مجافاتهم.

وقد وافقته على بقائه في منصب الأعيان والاستمرار على هذا السعي؛ لأنه إما أن ينفع وإما أن لا يضر.

***

المشانق في سورية - شنق الزهراوي

جاء في جريدة الأهرام تحت هذا العنوان ما نصه: تلقت المقدمات التي يوثق بروايتها أن السيد عبد الحميد الزهراوي حوكم في دمشق أمام المجلس العسكري، فحكم عليه بالموت شنقًا، فشنق.

ولربما خفف من لوعة الأسى عليه، شنق من تقدموه من عظماء الأمة السورية وأمراء المسلمين على وجه التخصيص كالأمير عمر الجزائري ابن الأمير عبد القادر وشفيق بك المؤيد من أكبر رجال سورية ورشدي بك الشمعة من صفوة أعيانها، وشكري بك العسلي، وعبد الوهاب بك ومحمد

المحمصاني، وسليم بك الجزائري وعبد الغني العريسي... إلخ.
ولكن الزهراوي كان يمثل طائفة خاصة، وفكرة نابتة وحياة جديدة تتراوح بين طائفة علماء الدين الإسلامي وغيره من الطوائف الراقية، والبحث في شئون طائفة الزهراوي في سورية، وبلاد العرب من المباحث الخطيرة الجليلة التي تبين الصلة بين الماضي والحاضر والقديم والحديث، بل تظهر التدريج الذي كان ينتظر على يد أولئك الذين أزهقت الحبال أرواحهم، وأودت بعملهم وعلمهم، وأماتت غرسهم قبل أن ينبت وبما نبت منه قبل أن يزهر ويثمر.
فالمسلمون في سورية تأخروا عن إخوانهم النصارى واليهود والدروز في طلب العلم؛ لأن القدماء من أكابرهم وأغنيائهم كانوا يعتقدون أن طلب العلم إنما يراد لطلب الرزق، والوجيه الكبير المتوافر رزقه كان يعد من العار على أبنائه أن يطلبوا العلم للارتزاق (من شق القصبة) وضاعف في ذلك أن المدارس كلها كانت نصرانية، إما للأجانب وإما للمسيحيين، الذين تأدبوا بآداب الأوروبيين فحذوا حذوهم، وساروا في العلم سيرتهم.
وقد لقيت هذه الفكرة تشجيعًا من الحكومة، بل ربما غرست الحكومة نفسها هذه الفكرة في الصدور حتى يظل المسلمون على حالهم فلا يطلبون إصلاحًا ولا يطالبون بحق، وليس للمسيحيين وسواهم ممن يتعلمون تأثير أو نفوذ؛ لأنهم الأقلية، ولهذا السبب لم يتمتع أحد من أبناء مسلمي سورية بذلك الإنعام الذي أنعم به إبراهيم باشا بن محمد علي باشا على لبنان وسورية بأن يعلم طائفة منهم في مدارس مصر العالية، وانحصرت تلك النعمة حتى عهد الاحتلال بأبناء المسيحيين السوريين وحدهم.
وظلت الحال على هذا المنوال، ولا مدارس ولا مكاتب للمسلمين في سورية حتى إن دَخْل أوقاف المدارس والمكاتب فيها كان يجيء للآستانة، إلى أن زاد احتكاك القوم بالأوروبيين، ورأوا بأعينهم ومسوا بأيديهم فائدة التعليم فطلبوه لأبنائهم إما في مدارس الأجانب في بلادهم، وإما في مدارس الأستانة، حتى إن بعض طلبة العلوم الدينية، سبقوا إلى ذلك سواهم أو ماشوهم في هذا السبيل، ولكن على غير رغبة الحكومة وإرادتها، فكانت تسبغ النِّعَم على من يذم العلم وعلماء الأجانب كالشيخ النبهاني الشهير بذم مدارس النصارى.
ومن هؤلاء الطلبة الدينيين السيد عبد الحميد الزهراوي من أشراف حمص، وسلالة بهوتها الكبيرة.
بدأ علمه في بلده، وأتمه في الأستانة، وتعلم هناك من السُّفطاء الترك الاهتمام بالشئون السياسية

والاجتماعية، فكان أول ظهوره برسالة ألفها في المعتقد الديني لم تَرُقْ في عيون مشايخ الطرق، فسعوا به إلى السلطان عبد الحميد حتى نفاه، وأقصاه إلى دمشق[43].

ولكن الوسطاء توسطوا له - وكان الظلم في ذلك العهد يدفع بالوساطة خلافًا لما نراه اليوم - فتركه حرًّا، وأطلقه من كل يد، فعاد السيد الزهراوي إلى الأستانة، وأشترك بالمظاهرة الودية التي قام بها فريق من العلماء والكتاب أمام السفارة الإنكليزية بعد انتصار الإنكليز على البوير في الترنسفال، فلم يغفر له ولرفاقه السلطان عبد الحميد تلك المظاهرة، لا لأنهم هنئوا إنكلترا بنصرها، بل لأنهم مثلوا الأمة العثمانية والشعب، ولم يكن يُغضبه أمر كهذا الأمر، حتى إن رقباء الصحف والمطبوعات (المكتوبجيه) حذفوا من قواميس اللغة كلمة (وطن) و (شعب) و (أمة) و (جمهور)... إلخ، وما شاكل ذلك من الألفاظ، فصبر السلطان على أولئك المتظاهرين مدة، ثم فرق شملهم وأرسل كل واحد منهم إلى جهة، إلى أن تمكن السيد الزهراوي من الفرار إلى مصر كما فر قبله السيد عبد الرحمن الكواكبي وكل حر في تلك البلاد من عربي وتركي وغيرهم.

ويمتاز الزهراوي وأمثاله من رجال الدين المصلحين على سواهم، من المتعلمين أنهم خير صلة بين طوائف الشعب وفرقه، فهم يحترمون التقاليد المقدسة لكل طائفة، وهم في الوقت ذاته يؤيدون المصلحين في إصلاحهم، فقد كانت طائفة الإسماعيلية في سورية تَجْمَع العُشور والنذور وترسلها إلى أغاخان في الهند لأن معتقدها ومذهبها يقضي عليها بذلك، فحدث بعد إعلان الدستور أن هذه الطائفة الصغيرة جمعت ما تبلغ قيمته نحو عشرة آلاف ليرة فصادرتها الحكومة، ولكن السيد الزهراوي الذي كان يومئذ من أعضاء مجلس النواب انتصر لتلك الطائفة وقاوم الحكومة، وجاهد في هذا السبيل حتى قرر مجلس النواب أن تنفق تلك الأموال في تعليم تلك الطائفة، ولا تصادر لخزانة الحكومة كما فعلت وزارة الداخلية، ولكن القرار لم يتجاوز الورق.

وكان السيد الزهراوي يقول باتحاد الطوائف العربية بعامل اللغة والمنفعة والأصل والسلالة، فأنشأ جريدة الحضارة لهذا الغرض، وكان من محرري جريدته رزق أفندي سلوم الذي شُنق في دمشق، وهو فتًى من حمص كان قد ترهب، ولكنه خلع ثوب الرهبنة، وسار على آثار مواطنه بحتة، ووحد الاثنان كلمتهما في هذا السبيل، فكأنهما جمعا لسانين دينين على دعوة واحدة وطنية، وكان الزهراوي ككل أديب في بلاده اتحاديًّا بحتًا على مذهب الاتحاديين الأولين الذين نالوا الدستور (للاتحاد والترقي وللنجاح) ولكن لما ذهب أولئك الاتحاديون الأولون، ومُزق شملهم وخولفت مبادئهم ومذاهبهم، اتفق مع الخوجة شكري أفندي الذي تُوفي في مصر منذ عهد قريب على تأليف

حزب الأهالي.

ثم ضُمَّت الفرق كلها وأُلف منها حزب الائتلاف على قواعد ومذاهب فرقة الاتحاد والترقي، كما كانت هي عهد زعامة صادق بك وإخوانه وأقرانه، إلى أن فشلوا في مهمتهم، فوجه نظره شطر العرب حيث لا أحزاب ولا فرق، بل مطالب قاعدتها انتفاع البلاد بما يُجْبَى منها من الضرائب وبأوقافها، فرأس المؤتمر العربي الذي عقد في باريس- لأنه لم يسمح لهم بعقده في بلاد الدولة- وهناك كتب الوثيقة المشهورة مع مندوبي الاتحاد، وعاد إلى الأستانة مع رسول الاتحاديين عبد الكريم قاسم الخليل الذي كان أول المشنوقين في سوريا، والهادي الذي تلاه والشيخ أحمد طباره الذي حكم عليه بالإعدام، فعين الزهراوي في مجلس الأعيان إلى أن شُنق.

ومما امتاز به هؤلاء جميعًا شدة عصبيتهم العربية، وشدة عصبيتهم الجنسية العثمانية، حتى كان الزهراوي يقول عند ذكر مطمع دولة من الدول في أملاك الدولة العثمانية: (إن هذا ينال منا بعد أن تزهق أرواحنا) وله في ذلك مغاضبات شديدة مع أصدق أصدقائه (الصواب مع بعض معارفه لا أصدق أصدقائه).

نقول هذا لا تأبينًا للسيد الزهراوي بل بيانًا للحقيقة عن تلك البلاد وأهلها وميول زعمائها الذين ذهبوا جملة لا لجريرة إلا أنهم طلبوا إصلاحًا يقيهم البلاء، واتقاء مطامع الطامعين في أرضهم وبلادهم، حتى إن الشيخ أحمد طباره لما عاد من أوربا غيَّر منهج سياسته وبعد أن كان يمتعض لذكر المدنية الأوربية، أخذ يكتب ويحث أمته على الاقتباس من محاسنها، فكان يكرر قوله: (إنا لا ننقذ بلادنا ووطننا إلا بالسير على مناهجهم) تلك طائفة ذهبت اليوم، ولكن لهذه الطائفة مذاهب ومبادئ إذا بقي في قومها وعشيرتها من يحبها ويعمل بها قد تكون نتيجتها خيرًا وإلا فقد ذهبت الرءوس وبقي القوم كالقطيع من الأغنام بدون راعٍ تُساق فتسير إلى حيث يراد منها لا إلى حيث تريد؛ لأنها بعد قطع رءوسها باتت بلا إرادة.

(المنار)

هذا ما نشر في جريدة الأهرام عند وصول نبأ شنق السيد الزهراوي إلى مصر، وفي بعضه نظر أو إبهام، تختلف فيه الأفهام، وقد رأينا من حق صديقنا رفيق رزق سلوم الذي ذكرته الأهرام في كلامها عن السيد الزهراوي أن نقول في نشأته كلمة وجيزة، تحفظ في تاريخه ويظهر بها سبب

شنقه وشنق جورج الحداد من شبان نصارى سورية مع من شُنق من زعماء المسلمين ونابغيهم بتهمة السياسة العربية.

***

رفيق رزق سلوم المحام

نبت هذا الفتى في بيت من أكرم بيوت الروم الأرثوذكس في حمص، وتلقى التعليم الابتدائي في إحدى مدارس الطائفة فيها، ثم أرسل إلى دير البلمتد بالكورة (لبنان) فألبس لباس خدمة الدين، ودخل مدرسة الدير الدينية، ولكنه لم يُخلق مستعدًّا للرهبانية والخدمة الكنيسية، وإنما خُلق كبير الاستعداد للحياة الاجتماعية السياسية، فلم يُتم مدة المدرسة، بل خرج منها، ودخل المدرسة الكلية الأمريكية في بيروت، ثم سافر إلى الأستانة بعد الانقلاب العثماني، فدخل أحد مدارسها الإعدادية، ثم مدرسة الحقوق، وقد أخذ الشهادة الدراسية منها، واختار أن يكون محاميًا.

كان رفيق مريدًا وتلميذًا للزهراوي في أفكاره الاجتماعية، عاشره فعلم منه، وهو أنبغ رجل من أشرف بيت في حمص أن في مسلمي البلاد فئة تسعى للإصلاح الوطني سعيًا لا شائبة فيه للعصبيات والأحقاد الدينية، ولما جاء الأستانة بمساعدة الزهراوي رأى جميع طلبة المدارس الرسمية العالية، وكلهم من المسلمين على هذا المشرب الذي شرب كأسه الأُولى من يد الزهراوي، فانتظم في سلك أعضاء المنتدى الأدبي، وانتخب وكيلاً للرئيس فيه، وكان حظه من اللغة العربية أوفر من حظوظ جمهور إخوانه أعضاء المنتدى الذين لم يتعلموا شيئًا في غير مدارس الدولة، فكان خطيبًا مفوهًا وشاعرًا مؤثرًا، ورغَّبه السيد الزهراوي في الكتابة إنشاءً وترجمة، وكان يصحح له ما ينشره في جريدة الحضارة فحسنت كتابته.

تمكنت النزعة العربية من نفس هذا الشاب المهذب بما كان يسقي غرسها في نفوسه مما كان يسمعه من كلام مدرسي الترك وطلابهم في مدارس العاصمة من الحث على العصبية التركية، وما يقولون في العرب والعربية، وما كان يقرؤه في جرائدهم وكتبهم، وما يقف عليه من أخبار جمعياتهم، فكان يقابل غلو متعصبي الترك بجنكيز خان وهلاكو خان المفسدين اللذين دمرا المدنية العربية الإسلامية بنظم القصائد في مدح النبي العربي الأعظم - صلى الله عليه وسلم - وإنشادها في احتفال المولد النبوي الشريف في المنتدى الأدبي، فهذا هو السبب الحامل لجمال باشا السفاك الاتحادي على شنق رفيق رزق سلوم مع السيد الزهراوي وإخوانه وأخدانه من مصلحي العرب، ولا نعلم له ذنبًا إلا

هذا، فإنه قضى حياته السياسية كلها في الأستانة، وكان على رأي أستاذه الزهراوي في وجوب السعي إلى ترقي العرب في حجر الدولة العثمانية.
وكان جورج حداد على هذا المشرب أيضًا.

ولكنه كان من أعضاء حزب اللامركزية، وكفى بذلك ذنبًا عند جمال باشا يقتضي القتل والصلب.

الدكتور شبلي شميل[44]

في اليوم الأول من هذه السنة الميلادية سنة (1917) اغتالت المنية الطبيب النطاسي، الحكيم الاجتماعي، العالم الطبيعي، الأديب الكاتب، الناظم الناثر، الدكتور شبلي شميل الشهير بتصانيفه ومقالاته العلمية والاجتماعية في المجلات والجرائد العربية والفرنسية.
كان شبلي فذًّا نادر المثل في مجموعة علومه وأعماله وأفكاره وأخلاقه والذي يحملنا على ترجمته أنه كان من طلاب الإصلاح المدني والتجديد الاجتماعي المخلصين- وقليل ما هم - لا من الذين اتخذوا العلم ذريعة لجمع المال ولا وسيلة لجاهٍ كما هو شأن السواد الأعظم من المتعلمين، فهو لم يدخر مالاً، ولم يتأثل عقارًا، ولم يصرف جُلّ أوقاته للكسب، بل كان اشتغاله بالأمور الاجتماعية أكثر من اشتغاله بالطب، ومثل هذا يكون مؤثرًا في أهل جيله تأثيرًا نافعًا أو ضارًّا لا كالذين يعدون من العلماء بورقة شهادة يحملها كل منهم بيده، ونرى أنه يعيش عمرًا طويلاً ثم يموت كما يموت العصفور لا يترك أثرًا في جيله يُنسب إليه.
لهذا نذكر عن هذا الرجل أهم ما نرى فيه العبرة من ترجمته فنقول:كان أول من نشر مذهب دارون باللغة العربية وانتصر له وناضل دونه؛ إذ كان رجال الدين ولا سيما الكاثوليك الذين نشأ شميل على مذهبهم يعدون هذا المذهب من دعائم الكفر، ولم يكتف الرجل بذلك بل كان يصرح قولاً وكتابة بالتعطيل والإلحاد، ولم يتجرأ أحد قبله على ما تجرأ عليه من ذلك فيما نعلم مع كثرة الذين زاغت عقائدهم من المتعلمين على الطريقة الأوربية الحديثة.

ومن الغريب أن نرى المحامين عن النصرانية وكتبها الدينية كاليسوعيين (الجزويت) لم يتصدوا للرد على الدكتور شميل كدأبهم في الرد على أمثاله من كتاب الشرق والغرب، وقد كانت مجلتهم (المشرق) واقفة بالمرصاد والهلال وغيرهما من الصحف المنشرة كلما نشر فيها شيء يخالف الدين أو المذهب الكاثوليكي ردوا عليه أشد الرد.

فإذا كان الجزويت لم يشنعوا على الدكتور شبلي شميل كما شنعوا على من لم يجهر بمثل ما جهر به فلا عجب إذا سكت عنه من دونهم عصبية وعناية بهذا الأمر، وأكبر ما بلغنا من مقاومة بعض القسيسين له أنهم كانوا ينهون بعض الناس سرًّا عن دعوته لمعالجة مرضاهم.

وجمهور المتعلمين على الطريقة العصرية من السوريين في مصر وسورية وأمريكة يحبون الدكتور شميل ويعدونه من دعاة الإصلاح الاجتماعي المخلصين، ومنهم من يغلو فيه، أما النصارى منهم - وهم الأكثرون- فلا يرون عدم تدينه مانعًا من إصلاحه الاجتماعي؛ إذ لا علاقة للدين بذلك عندهم، ولا شك في كون هذا من تساهلهم الذي قاربوا به الإفرنج، وأما المسلمون فلا يرون مروقه من عقيدته التي نشأ عليها مبعدًا له عنهم؛ لأنها ليست عقيدتهم فهو في نظرهم طبيب عالم اجتماعي غير مسلم، ولكنه أقرب من غيره من المخالفين لهم إلى التساهل والإنصاف لحريته واستقلال فكره.

وله أصدقاء من مسلمي مصر لعلهم يزيدون على أصدقائه من مسلمي سورية الذين لا يعرفه أكثرهم إلا بالسماع.

وأما مذهب داروِن فقد تكلم بعض علماء المسلمين فيه وفي مخالفته لظواهر النصوص في خلق آدم -عليه السلام-، ولم يجعلوا ذلك ردًّا على الدكتور شميل؛ لأنه لم يكن صاحب المذهب، وقد سبق أشياخنا إلى الرد على مذهب دارون، وأول ما رأيناه في ذلك ما أبرزه لنا الأستاذ الإمام في ترجمته لرسالة أستاذي الذي تخرجت على يديه الشيخ حسين الجسر في الرسالة الحميدية فهو قد لخص هذا المذهب وبين أن دلائله في أصل البشر ظنية لم تصل إلى درجة القطع، وأنها لو ثبتت وصارت يقينية لا تكون حجة على الإسلام لإمكان تأويل ظواهر النصوص الواردة في الكتاب والسنة في خلق آدم.

وقد أقر أكابر علماء سورية شيخنا على تلك الرسالة وترجمت بالتركية فأقرها علماء الترك، وكافأه السلطان عبد الحميد على خدمته للإسلام بها برتبة علمية عالية وراتب شهري.

ورغب إليه أن يكون من شيوخ قصره فاعتذر وعاد إلى طرابلس الشام بعد أن أقام في قصر يلدز عدة شهرًا ضيفًا مكرمًا عند السلطان.

وأما علماء الأزهر فقد اطلع كثير منهم على الرسالة الحميدية وأعجب بها.

ولكن لم نسمع أن أحدًا منهم كتب في موضوعها شيئًا.

بينا رأي المسلمين الذين يعرفون الدكتور شبلي فيه، وأنهم كانوا يرونه أقرب إلى التساهل والإنصاف، وبيان ذلك أنه كان يقول: إنه لا يوجد دين اجتماعي يتفق مع مصالح البشر المدنية إلا

دين القرآن.

سمعت هذا منه غير مرة.

وأخبرني أنه طالما خطر في باله أن يجمع ما في القرآن من الآيات الواردة في المسائل الاجتماعية والأدبية ويفسرها تفسيرًا علميًّا اجتماعيًّا.

وأنه قد حاول هذا الجمع فصعب عليه تجريد ما أراده لما في القرآن من المزج بين هذه المسائل والمسائل الروحية الأخروية.

وقال لي: إنك أقدر مني على تجريد ما أريد، فلو فعلت لكان تفسيري نافعًا لك فيما تتوخاه من التوفيق بين الإسلام والعلم العصري والحضارة العصرية، ومن نشر محاسن الإسلام بين الناس؛ لأن ألوفًا من الناس يقرؤون تفسيري ولا يقرؤون تفسيرك.

وأما رأيه في نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- فهو أنه كان يفضله على جميع البشر، وقد كتب إليَّ منذ تسع سنين كتابًا أودعه أبياتًا من الشعر في ذلك هذا نصه:

إلى غزالي عصره السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار.

أنت تنظر إلى محمد كنبيٍّ فتجعله عظيمًا، وأنا أنظر إليه كرجل وأجعله أعظم ، ونحن وإن كنا في الاعتقاد (الدين أو المبدأ الديني) على طرفي نقيض فالجامع بيننا العقل الواسع والإخلاص في القول، وذلك أوثق بيننا لعُرَى المودة.

من صديقك الدكتور

شميل

(الحق أولى أن يقال)

دع من محمد في سدى قرآنه *** ما قد نحاه للحمة الغايات

إني وإن أكُ قد كفرت بدينه *** هل أكفرن بمُحْكم الآيات

أوَما حوت في ناصع الألفاظ من *** حكم روادع للهوى وعِظات

وشرائع لو أنهم عقلوا بها *** ما قيَّدوا العمران بالعادات

نِعْمَ المدبر والحكيم وإنه *** رب الفصاحة مصطفى الكلمات

رجل الحِجَا رجل السياسة إنه *** بطل حليف النصر في الغارات

ببلاغة القرآن قد خطب النهى *** وبسيفه أنحى على الهامات

من دونه الأبطال في كل الورى *** من سابق أو لاحق أو آت

وقد نشرنا هذا الكتاب والأبيات في (ج1 م11) في معرِض الرد على البرنس كايتاني في زعمه أن نجاح النبي -صلى الله عليه وسلم- كان في كفاءته من حيث هو سياسي محنَّك أكثر من نجاحه من حيث هو نبي، وأن حُنْكَته وسياسته أفادا أكثر من إفادة القرآن.

رددنا على صاحب هذا القول وعلى المؤيد الذي نقل كلامه وأقره وعلى الدكتور شميل فيما زعمه من أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أفضل من حيث كونه رجلاً منه من حيث كونه نبيًّا.

وسألنا الله تعالى أن يهديه إلى الباقي من مزايا كتابنا ورسولنا -صلى الله عليه وسلم- وهو المهم الأعظم المتعلق بأمر الدين والآخرة الذي أشار إليه في البيت الأول، وكفر به في البيت الثاني، فقد صرح لنا بأن مراده بلُحمة الغايات أمور الآخرة.

إن الدكتور شبلي شميل قد اهتدى بالاطلاع على القرآن الحيكم إلى ما فيه من الحكم الروادع للهوى والشرائع والموافقة لأصول العمران حتى في هذا الزمان.

وبالاطلاع على سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى كونه قد فاق جميع أبطال البشر وعظمائهم، ويدخل فيهم عنده أكابر الأنبياء -عليهم السلام- وكبار الساسة وقواد الحروب وأهل الفصاحة والأدب.

فلو أن الدكتور تأمل فيما اهتدى إليه من هذين الأمرين وكان مؤمنًا بالله تعالى لجزم بكونه نبِيًّا مرسلاً من عنده عز وجل؛ لأن ما امتاز به كتابه وما امتاز به شخصه على جميع البشر من سابق أو لاحق أو آتٍ إنما كان بعد أن بلغ أربعين سنة في الأُمية بين أهل الشرك والجاهلية فهل يُعقل أن تحدث هذه المزايا العلمية العملية الأدبية العمرانية الحربية السياسية الاجتماعية لرجل في سن الكهولة دفعة واحدة ؟ كلا إن هذا لا يعقل أن يكون إلا بوحي وتأييد من الله عز وجل.

ولكن كثيرًا من الباحثين في مثل هذه المسألة يبحثون فيها من جهة واحدة منصرفين عن سائر الجهات فلا يحيطون بسائر أطراف المسألة، والصوارف عن أمثال هذه المباحث كثيرة، أظهرها: كون إنكار الأديان عندهم من القضايا المسلمات، وكنت أرى أن للدكتور شبلي شميل مانعًا قلما يشاركه فيه غيره في بلاده وهو عدّه الجرأة على التصريح بالتعطيل مزية من المزايا العظيمة التي انفرد بها، وحب الامتياز من غرائز البشر الراسخة، فمن رأى نفسه قد انفردت بشيء منه قلما يفكر ويبحث في شيء من شأنه أن يذهب بما انفرد به، على أن رجال الدين الذين على مذهب أسرته الذي نشأ عليه ثم ارتد عنه قد حكموا بأنه تاب من ردته وعاد قبل الموت إلى دينه ومذهبه الأوَّلَيْن، ولذلك جنَّزوه وصلوا عليه في كنيستهم ودفنوه في مقابرهم، وجماهير الناس يرتابون في ذلك أو يجزمون بخلافه ويعدون هذا من غرائب تساهل الكاثوليك.

كان الدكتور شبلي شميل من دعاة الاشتراكية وهو مستقل برأيه فيها غير مقلد لطائفة من طوائفها، وكان ماديًّا في آرائه وأفكاره إلا أنه كان متحليًا بكثير من الأخلاق الحسنة المحمودة التي يضاد بعضها ما تقتضيه الأفكار المادية التي غلبت على عقله وخياله، كالرأفة والسخاء والصدق والوفاء والنجدة والمروءة والشجاعة وغير ذلك.

وإن تحلي بعض المعطلين بالفضائل من أقوى الشبهات على الدين في هذا العصر، فإننا نسمع كثيرًا من المرتابين أو الراسخين في الكفر يقولون: أيّ حاجة للناس في الدين وإننا نرى كثيرًا من المصلين الصائمين منغمسين في المعاصي والرذائل، بل ترى كثيرًا من رؤساء الأديان الرسميين كذابين طماعين أدنياء بخلاء لا يُرجى منهم معروف، ونرى فلانًا وفلانًا مما لا دين لهم متحلين بالأخلاق الفاضلة والآداب العالية والسبق إلى عمل المعروف، وقد أجبت عن هذه الشبهة في المنار غير مرة واتخذت تأبين الدكتور فرصة لبيان ذلك للجمهور.

في اليوم المتمم للأربعين من تاريخ وفاته أقام النادي السوري في القاهرة حفلة تأبين للدكتور الذي هو من نوابغ السوريين بلا خلاف، أجاب الدعوة فيها مئات من أهل العلم والأدب والوجاهة من سكان القاهرة على اختلاف مذاهبهم ونِحلهم فغصَّ النادي بهم، وافتتح الجلسة رئيسها أحمد حشمت باشا بخطبة وجيزة أطرى فيها المؤبَّن إطراءً كبيرًا.

ثم دعي الدكتور يعقوب صروف إلى الكلام في علم الدكتور شميل، وهو أعلم الناس به وبعلمه فجاء من ذلك بخلاصة جمعت فأوعت.

ثم دُعيت إلى الكلام على أخلاقه فقلت ما خلاصته على ما أتذكر الآن:(أشكر لإدارة النادي السوري

اختيارهم إياي للكلام في أخلاق الدكتور شبلي شميل، فإن الكلام في الأخلاق أحب إليَّ؛ لأن أثرها في حياة الناس العملية أعظم من أثر العلم؛ لأن العلم يبين طرق العمل، والأخلاق هي التي تبعث عليه وتهدي إلى الغاية منه، فحُسن الأخلاق هو الذي يجعل العلم نافعًا وسوء الأخلاق قد يجعله ضارًّا، ولذلك شبه حكماؤنا علم فاسد الأخلاق بالسيف في يد المجنون، وإننا نرى مبلغ تأثير ضرر العلم بسوء استعماله في الحرب الأوروبية الحاضرة التي كان الموقد لنيرانها بعض الأخلاق المذمومة من الطمع والكبر وحب العلو واستعباد الأقوياء للضعفاء.

على أن العمل النافع لا يرتقي إلا بالعلم، وما ساد بعض الأمم على بعض إلا بالعلم، [هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ](الزمر: 9) وإنما تظهر حقيقة المرء وتُعرف ترجمته ببيان علمه وأخلاقه وأعماله، وقد أحسن النادي باختيار العلامة الدكتور صروف للكلام على علم الدكتور شميل فهو أعلم منَّا بهذه العلوم وبمكان الرجل منها، وقد جاء بفصل الخطاب في ذلك.

كان الدكتور شميل متحليًا بعِدّة من الأخلاق الحميدة التي لا يرتقي العمران البشري إلا بكثرة المتحلِّين بها في الأمم كالصدق واستقلال الرأي والشجاعة والثبات والسخاء والوفاء والنجدة والمروءة والرأفة، يعرف له ذلك كل من عرفه، وكل خلق من هذه الأخلاق له تأثير في أعمال الناس ومعاملاتهم، ولا يمكن بيان ذلك بالتفصيل في وقت قصير محدود كوقتنا هذا وإنما أشير إلى بعض ذلك بالإيجاز فأقول:إن من أضر مفاسد الكذب طمس الحقائق وإبطال ثقة الناس بعضهم ببعض، فالكذاب لا يوثَق بخبره ولا بعلمه ولا برأيه ولا يمكن أن يرتقي قوم فُقدت الثقة من بينهم.

ومن أكبر بواعث الكذب الجُبن، ولولا ما أوتي الدكتور شميل من الجرأة والشجاعة لما أمكنه أن يكون صادقًا يقول ما يعتقد، وإن كان مما ينكره عليه ويكرهه منه أهله وقومه والسواد الأعظم من أهل وطنه، والشاهد على هذا تصريحه قولاً وكتابة بالآراء التي تخالف عقائد هؤلاء الذين يعيش معهم، والمعروف أن الخوف من عاقبة قول الصدق، هو الذي يحمل الناس على الكذب، ولذلك يكثر في عهد الاستبداد والظلم، ولكننا نرى كثيرًا من كبراء الحكام ورؤساء الناس في بلاد كثيرة يكذبون على رعاياهم ومرؤوسيهم، فلا يتجرؤون على التصريح لهم بما لا يرضيهم، وإن كان التصريح خيرًا لهم، وهكذا يعيش كثير من أكابر الناس وأصاغرهم عيشة الكذب والغش والرياء والنفاق لجبنهم وضعف ملكة الاستقلال فيهم، ولم يكن شميل مرائيًا ولا منافقًا بل كان مستقلاًّ شجاعًا يقول ما يعتقده حقًّا وصوابًا غير هيَّاب ولا وَجِل.

وكان على جرأته وشدته في آرائه رقيق القلب سخي النفس، فكان إذا دُعي إلى معالجة فقير يخف

إليه مرتاحًا ويعالجه مجانًا، وربما اشترى له الدواء، وزاده ثمن الغذاء، على أنه لم يكن ذا فضل من المال، وإننا نرى كثيرًا من الأغنياء البخلاء، يحتالون على أكل أموال الناس حتى الفقراء والأدباء، ونحن أصحاب الصحف قد جرَّبنا جميع أصناف الناس فوجدنا في كل صنف منهم (حتى علماء الدين وكبار الحكام من قضاة وغيرهم) أناسًا يتعمدون هضم الحق فيعِدُون جابي الصحيفة ويمطلون، حتى تمر الشهور والسنون، ولا يصدقون ولا يفون.

فهل يمكن أن ترتقي أمة إلا بزوال هؤلاء أو زوال النعمة من أيديهم ؟ إن السخي لا يمنع حق أحد؛ لأن من يعطي الناس من ماله ما ليس لهم، لا يعقل أن يمسك عنهم ما هو لهم، وفي مثل شائع بين كثير من المسلمين: إن الذي يزكي لا يسرق.

وهنا مسألة مهمة تخفى على كثير من الناس، وهي إن أكثر مكارم الأخلاق لا تنطبق في النفس إلا بالتربية الدينية، وتكون عرضة للفساد بالتعطيل والأفكار المادية، فكيف اتصف الدكتور شميل بتلك الأخلاق الحسنة مع كونه كان ماديًّا متعطلاً ؟ يحتج بهذه الشبهة بعض الملاحدة على عدم الحاجة إلى الدين قائلين: إننا نرى فلانًا وفلانًا ممن مرقوا من الدين أفضل أخلاقًا وآدابًا من المتدينين الذين نرى من رؤسائهم وعلمائهم من فشا فيهم الكذب والطمع والدناءة والبخل والجبن والرياء والنفاق، والجواب عن هذه الشبهة أن فاسدي الأخلاق من المنسوبين إلى الدين لم يتربوا تربية دينية صحيحة بل لم يكن لهم حظ من الدين إلا الاسم أو تعوّد بعض العبادات من غير فَهْم لحكمها ولا قيام بحقها، وإن أولئك المتعطلين الحسني الأخلاق قد تربوا تربية دينية تكونت بها أخلاقهم، فقد حدثني الدكتور شميل عن نفسه أنه كان في نشأته الأولى مبالغًا في التدين مواظبًا على العبادة، وأن فكرة التعطيل ما طرأت عليه إلا بعد سفره إلى أوروبة، فقد لقي في فرنسة عالمًا ماديًّا قال له كلمة هدمت عقيدته الدينية هدمًا، ولم يذكر تلك الكلمة.

وأقول: إنها لم تهدم تأثير التربية الدينية في نفسه، ولا ما ورثه من أخلاق أهل بيته، ولا عجب فقد ثبت في العلم الحديث أن لكل نوع من المدرَكات الفكرية والوجدانية مركزًا خاصًّا في دماغ الإنسان، وما كل فكر يأخذه المرء بالتسليم يؤثر في أخلاقه وآدابه العملية بل لا بد في هذا التأثير من التربية العملية أو كونه عقيدة يجزم صاحبها عقلاً ووجدانًا بأن العمل بمقتضاها سعادة، وتركها شقاوة لا تعد لها شقاوة، وفكرة الإلحاد ليست كذلك، فهي قد كانت محصورة في مركز صغير من دماغ الدكتور شميل له صلة بلسانه ولا سلطان له على قلبه، ولذلك كانت تظهر أحيانًا في كلامه، ولكنها لم تنزع من نفسه ما تربى عليه في بيته من الأخلاق الدينية كالصدق والرحمة والسخاء وغير ذلك).

ثم ذكرت في التأبين رأي الدكتور في الإسلام وفي نبينا -عليه الصلاة والسلام- وقرأت كتابه وأبياته في ذلك، وقد تقدم ذكرها في هذه الترجمة.

هذا ما أتذكره من كلامي في أخلاق الدكتور شميل لم أترك منه شيئًا ولكنني زدت مسألة الشبهة الأخيرة إيضاحًا؛ لأنني رأيت بعض الناس لم يفهمها حتى قال لي بعضهم: إن التأبين يقصد به المدح وأنت ذممت الرجل وجعلته مجنونًا، وإنما أخذ جعلي إياه مجنونًا من قولي: إن فكرة الكفر والإلحاد قد طرأت على دماغه في الكِبَر، وقد عبرت بكلمة المخ بدل الدماغ ففهم ذلك الرجل وغيره من ذلك ما فهموا ولغطوا به.

ثم دعي الدكتور كحيل إلى الكلام في سيرة شميل الطيبة فقرأ خطبة طويلة بالفرنسية بيَّن فيها ذلك. ودُعي محمد حافظ بك إبراهيم فأنشد قصيدة بليغة استعاد الجمهور كثيرًا من أبياتها مرارًا. ودُعي أيضًا كل من أنطون جميل الأديب المشهور وحسن أفندي الشريف وهو شاب من أبيار وأميل أفندي زيدان صاحب الهلال فألقى كل منهما خطبة فصيحة أطرى فيها الفقيد إطراء الشاب الممتلئ إعجابًا بآرائه وأفكاره ونشاطه وهمته، فدل ذلك على تأثير الرجل في أنفس النابتة الجديدة ثم قام ابن أخيه رشيد بك شميل صاحب جريدة البصير فشكر للنادي السوري وللمؤبنين عملهم، وانفضت الحفلة.

الشيخ سليم البشري[45]

وفاة الشيخ سليم البشري

شيخ الأزهر

في الضحوة الكبرى من يوم الجمعة لأربع خلون من شهر ذي الحجة الحرام تُوفي الأستاذ الأكبر الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الأزهر عن عمر ناهز المائة سنة وقيل جاوزها، وكان قبل يومين من وفاته سليمًا معافى، وقد نعته إدارة المعاهد العلمية في الأزهر إلى رؤساء الحكومة والجرائد اليومية، بما نصه:أصيب المسلمون في مصر بفقد شيخ المسلمين وكبير علماء الدين حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الأزهر ورئيس المجلس الأعلى للمعاهد العلمية والدينية الإسلامية.

توفي إلى رحمة الله قبيل ظهر اليوم (الجمعة 21 سبتمبر 1917) بعد ما لزم الفراش يومين، كان من قبلهما ينهض بأعباء المعاهد الدينية ويلقي دروسه العالية في الأزهر بعزم فتيّ، لا تنال منه الشيخوخة، ولا يدركه هرم.

وستشيع جنازة الفقيد غدًا السبت 22 سبتمبر 1917، الساعة 11 صباحًا من محطة كُبري الليمون مارة بشارع كامل، فشارع الموسكي إلى الجامع الأزهر، حيث يجتمع وفود المشيعين من العلماء والطلاب وغيرهم للصلاة عليه.

ثم تسير الجنازة إلى مدافن السادات المالكية بقرافة الإمام مارة بشارع الغورية فشارع المغربلين فشارع محمد علي ويلقي صاحب العزة حافظ إبراهيم بك على قبر الفقيد مرثاة من نظمه.

أحسن الله عزاء المسلمين في فقيدهم الجليل وتولاه برضوانه ورحمته.

كانت وفاته في داره بالحلمية من ضواحي مصر وبدئ الاحتفال بتشييع جنازته في الوقت الذي ذُكر في النعي، وقد وصفت ذلك جريدتا الأهرام والمقطم بالتفصيل، قالت الأهرام:فجيء بالجثة من

الحلمية إلى كبري الليمون بقطار خاص يصحبها أنجال الفقيد وأحفاده وآله وجمهور من العلماء والأعيان.

وكان في انتظارها في محطة كبري الليمون نفسها من الداخل جمهور عظيم من كبار العلماء والموظفين الملكيين والعسكريين والأعيان والتجار والمحامين، يتقدمهم حضرة صاحب السعادة حسن عبد الرازق باشا وكيل الديوان العالي السلطاني بالنيابة عن صاحب العظمة السلطانية، والكولونِل ر. ف. هربرت بالنيابة عن القومسير العالي البريطاني، وحضرة صاحب المعالي إبراهيم فتحي باشا وزير الأوقاف العمومية بالنيابة عن رئيس الوزراء والميجر هـ. م. جريفس أحد أركان الحرب في الجيش البريطاني بالنيابة عن القائد العام، فاللواء السيد علي باشا مساعد الأدجونانت الجنرال بالنيابة عن وزير الحربية، فالقائم مقام إدواردس بك بالنيابة عن سردار الجيش، فحضرة صاحب المعالي محمود شكري باشا رئيس الديوان العالي السلطاني، فحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية.

(ثم ذكرت وكلات الوزارات بأسمائهم وكبار الموظفين الوجهاء بالإجمال وخيَّالة البوليس، فجمهور الطلاب الأزهريين وطلبة مدرسة القضاء الشرعي ومدرسة ماهر باشا).

ثم وصفت الجريدة السير بالجنازة إلى الأزهر والصلاة عليها فيه وتأبين الفقيد كما بلغت، ومنه أن المؤذنين كانوا يرتلون في المآذن التي مرت فيها الجنازة - وكذا في صحن الأزهر - آيات الأبرار، أي الآيات التي وردت في وصفهم من سورة الإنسان، وهي قوله تعالى: [إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً](الإنسان: 5)... إلخ.

وأقول: إن هذا من البدع الخاصة بكبار رجال العلم الديني، ومَن يُنزلونه منزلتهم؛ ولذلك يظن الكثير من غير المسلمين ومن المسلمين الجاهلين الذين لا يعرفون السنن والبدع أنه من شعائر الدين.

وللمؤذنين في قراءة هذه الآيات طريقة رديئة، لو لم تكن قراءتها والاجتماع لها في المآذن والمساجد بدعًا لكانت هذه الطريقة في التلاوة كافية في وجوب الإنكار عليهم ووجوب منعهم من ذلك على القادر؛ ذلك أنهم يقطعون الآيات قطعًا، يقرأ بعضهم كَلِمًا منها، يسكت في غير مواضع الوقف منها، فيتم بعض آخر ما بدأ كما يفعل الممثلون للقصص في الملاهي، فيفصلون بين الصفة والموصوف، والعامل والمعمول، يقول بعضهم: [إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ](الإنسان: 5)، فيقول آخرون: [كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً](الإنسان: 5)، ثم يقول بعضهم: [عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ](الإنسان: 6)، فيقول آخرون: [يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً](الإنسان: 6)، وهكذا يفرقون في قوله تعالى:[يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ

يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً](الإنسان: 7) بين (يومًا) وما وصف به، ولو تدبروا الآية لخافوا أن يعذبهم الله تعالى في ذلك اليوم على هذا التمزيق في قراءة كتابه.

ومن غريب الاتفاق أننا اقترحنا في جزء المنار الماضي على شيخ الأزهر أن يسعى لإبطال البدع من المساجد، ولم يكد نوزع الجزء إلا وقد قضى الشيخ نحبه، فعسى أن يقوم بذلك خلفه.

ثم قالت الأهرام: وكان الناس من وطنيين وأجانب وقوفًا بالعشرات والمئات على جانبي الطريق، يحيون الفقيد في مشهده، ويترحَّمون عليه.

ثم ذكرت وصول الجنازة إلى الجامع الأزهر في منتصف الساعة الأولى بعد الظهر والصلاة عليه وقراءة الشيخ محمد الحملاوي قصيدة من نظمه في رثاء الفقيد.

وتلاه الشيخ محمد أبو العيون بتأبين منثور، أشير إليه بأن يختصره لأجل التعجيل بالدفن المطلوب شرعًا، ففعل.

ثم حملت الجنازة من الأزهر، والمؤذنون يكررون الآيات التي تقدم الكلام عليها إلى مقابر المالكية من قرافة الإمام الشافعي رضي الله عنه، وبعد مواراتها التراب أنشد محمد حافظ بك إبراهيم مرثيته، وتلاه الشيخ محمد فراج المنياوي بتأبين نثري، أساء فيه الإطراء، فجعل فيه الفقيد من الخلفاء الراشدين، بل فضَّله عليهم في التعبير.

ثم عزى جمهور المشيعين أبناء الفقيد، وانصرفوا.

***

(مرثية محمد حافظ بك إبراهيم)

أيدري المسلمون بمن أُصيبوا *** وقد واروا سليمًا في التراب

هوى ركن الحديث فأي خطب *** لطلاب الحقيقة والصواب

موطأ مالك عزى البخاري *** ودع لله تعزية الكتاب

فما في الناطقين فم يوفي *** عزاء الدين في هذا المصاب

قضى الشيخ المحدث وهو يملي *** على طلابه فصل الخطاب

ولم تنقص له التسعون عزمًا *** ولا صدته عن درك الطلاب

وما غالت قريحته الليالي *** ولا خانته ذاكرة الشباب

أشيخ المسلمين نأيت عنا *** عظيم الأجر موفور الثواب

لقد سبقت لك الحسنى فطوبى *** لموقف شيخنا يوم الحساب

إذا ألقى السؤال عليك ملقٍ *** تصدى عنك برك للجواب

ونادى العدل والإحسان أَنَّا *** نزكي ما يقول ولا نحابي

قفوا يا أيها العلماء وابكوا *** وروووا لحده قبل الحساب

فهذا يومنا ولنحن أولى *** ببذل الدمع من ذات الخضاب

عليك تحية الإسلام وقفًا *** وأهليه إلى يوم المآب

***

التعازي:

ونشرت جريدتا الأهرام والمقطم تعزية برقية من نائب الملك لمدير المعاهد الدينية، وأخرى للشيخ طه البشري أكبر أبناء الفقيد، صرح فيهما بأن نعي الفقيد قد شق عليه كثيرًا، ودعا له بالرحمة والرضوان، وبرقيتان أُخريان بمعناهما من كبير الوزراء، صرح فيهما بأنه أسف جدًا لعدم إمكان تشييعه الجنازة بشخصه.

وقد تألف وفد من أنجال الفقيد ومراقب الأزهر رأسه المدير العام للمعاهد الدينية الشيخ عبد الرحمن قراعة لأداء الشكر لرؤساء الحكومة وكبراء البريطانيين الذين اشتركوا في تشييع الجنازة بالذات، أو بإنابة الوكلاء عنهم والمعزين، فبدءوا بقصر عابدين، وسجلوا أسماءهم في (دفتر التشريفات)، ثم نائب وزير الحربية، وإدواردس بك لشكر السردار، ثم الجنرال كليتون لشكر القائد العام للقوات البريطانية بمصر على إرساله مندوبًا لتشييع الجنازة، ثم وكيل الأوقاف لشكره وشكر الوزير،

وأرسلوا برقيات شكر إلى نائب الملك ورئيس الوزراء وقومندان المحروسة ومحافظ العاصمة وحكمدارها.

***

ترجمة الفقيد

نشرت جريدة الأهرام ترجمة وجيزة للفقيد، قيل إنها مستمدة من أهل بيته ملخصها:

أنه (وُلِدَ حوالي سنة 1243 أو 1244 في محلة بشر بمركز شبراخيت، ولما شبَّ حضر إلى مصر لتلقي العلم، وأقام تحت رعاية شيخه الشيخ بسيوني البشري من شيوخ المسجد الزينبي، وأنه تعب في طلب العلم تعبًا شديدًا، ولقي من الدهر مقاومات عظيمة، وأنه كان يتعبد في المسجد الزينبي ليلاً، ويذهب إلى الأزهر نهارًا لتلقي الدروس، وأن خاله عُين أمينًا لكساوي المحمل في أول ولاية سعيد باشا، فخرج معه إلى الحجاز حاجًّا، وبعد أن أدى فريضة الحج عاد إلى مصر، وبقي يشتغل بالتدريس حتى سنة 1273 تقريبًا).
وإن أول عهده بالوظائف أن (عُين إمامًا لمسجد إينال بمرتب 90 فضة في الشهر)، وفي سنة 1291 مات الشيخ علي العدوي فنِيط به التدريس في المسجد الزينبي بدلاً منه بمرتب مئة قرش في الشهر، وعين وكيلاً عن شيخ المسجد الزينبي لحداثة سنه، وهو الشيخ أحمد الصفتي الشيخ الحالي، وبقي كذلك إلى آخر ولاية إسماعيل باشا، ثم عين إمامًا وخطيبًا لمسجد زين العابدين، ثم شيخًا للمالكية بعد وفاة الشيخ عليش، ثم شيخًا للأزهر لأول مرة في سنة 1901، وكانت مدتها أربع سنين.
وذكر من حبه للعلم وإيثاره له أن تلميذه قدري باشا عرض عليه وظيفة بثلاثين جنيهًا، فأبى مفضلاً الانقطاع إلى تعليم العلم.
ولم يذكر تلك الوظيفة، فالظاهر أنه لم يكن يمكن الجمع بينها وبين التعليم.

وذكر مسألتين من خلائقه:

إحداهما أنه كان اختار الشيخ أحمد المنصوري شيخًا لرواق الصعايدة، فأبى قاضي مصر إقامته ناظرًا على أوقاف الرواق، فأصر صاحب الترجمة على تعيينه دون غيره (ورأى في العدول

إهدارًا لرأيه، وبالغ في التشبث برأيه حتى فضَّل ترك المشيخة على التجاوز عن حقه المفروض بحكم القانون)، والثانية أنه لما جدد المسجد الزينبي رأى رئيس مهندسي الأوقاف أن ينقل القبر المنسوب إلى السيدة زينب بما فيه، فعارضه الشيخ، وأعلمه أن ذلك مخالف للشرع من وجوه عديدة، وانتهى الخبر إلى الخديو محمد توفيق باشا، فأمر بإبقاء القبر في مكانه، وترضَّى الشيخ، فتم له ما أراد، ولما كانت نشأة الشيخ الدينية قد كانت في جوار ذلك الضريح وصار قيِّمًا له عدة سنين ظل محافظًا على تكريمه طول عمره، ولا ندري أكان يعتقد أن السيدة زينب مدفونة في هذا المكان كما يظن عامة المصريين أم كان يرى أن نسبة القبر إليها كدفنها فيه ؟ وفي هذه الترجمة أغلاط وقصور.

وقد علمنا من عالم من أكبر تلاميذ الفقيد وأعلمهم بترجمته أنه سمع منه أنه وُلد في سنة 1237، وأنه جاء مصر في سنة 1245 أو 1247، وأقام عند خاله الشيخ بسيوني شلتوت المؤذن في مسجد السيدة زينب.

ثم قضت الحال أن أرسله الخال إلى الأزهر.

وقد رأينا في جريدة وادي النيل التي تصدر في الإسكندرية - وهي أرقى جريدة للمسلمين في هذا القطر - نعيًا للفقيد، وشيئًا من حاله، يبلغ زهاء نصف عمود، بدأه بقوله: (نعت العاصمة الأستاذ الشيخ سليمًا البشري شيخ الجامع الأزهر عن عمر طويل، قضى شطره الأكبر في خدمة العلم، وقضى أواخره في ولاية المشيخة الأزهرية غير مرة. وكان رحمه الله في ولاية المشيخة ذا أنصار يحفون من حوله، وخصوم كثيرين يأخذونه بأمور ليس من المناسب ذكرها...)، ثم ذكر أن علماء الأزهر متفقون على أنه أعلمهم بالحديث وأن طريقته في قراءته أنه كان يقرأ الحديث أولاً على سبيل التبرك، ثم يقرؤه أحد الطلبة بصوت جهوري، ثم يشرحه الشيخ بما شاء الله من علمه.

أقول: وهذه المزيَّة له مشهورة سمعتها من كثيرين، وعليها بنى حافظ مرثيته، وهي أعظم مزية تُذكر له في هذا العصر، الذي أهمل الأزهريون فيه العناية بعلم السنة روايةً ودرايةً؛ حتى صار طلبة العلوم الدينية في ديوبند وغيرها من بلاد الهند يفضلون أكبر شيوخ الأزهر في علوم الحديث.

وإنما كان الشيخ سليم البشري على حظ من علم الحديث؛ لأنه طلب العلم قبل هذا الجيل بجيلين، وكانت كتب السنة لا تزال تدرس في الأزهر.

وقد أدركنا من أقران الشيخ في الطلب شيخ شيوخنا الشيخ محمود نشابه فألفيناه منفردًا بعلوم الحديث، وقد كنت أقرأ عليه صحيح مسلم، فيصحح لي أسماء الرواة وغريب الحديث، ويجيبني عن

كل ما أسأله عنه من المشكلات على البداهة من غير مراجعة شرح ولا كتاب آخر، فإذا رجعت إلى تلك الكتب رأيت ما قاله هو الصواب.

ولكن صاحب الترجمة لم يعمل شيئًا لإحياء ما اندرس من علوم الحديث في الأزهر في أيام رياسته ومشيخته.

وعندنا أن أعظم ما يُذكر في تاريخ مشيخته للأزهر قبوله للقانون الذي وضعته الحكومة له ولمعاهد التعليم الديني التابعة له وتنفيذه إياه، وقد بيَّنَّا رأينا فيه في المجلد الرابع عشر من المنار، ولا مجال لبيان ذلك، ولا لما كان بين المترجم وبين الأستاذ الإمام من الوفاق والخلاف في إدارة الأزهر، وإنما أقول: إن المترجم كان حريصًا على نيل رضاء السلطة العليا في كل وقت، وقد فصَّلنا ذلك بعض التفصيل في تاريخ الأستاذ الإمام.

(للترجمة بقية)

((يتبع بمقال تالٍ))

ترجمة الشيخ سليم البشري[46]

بقي مما ينبغي أن يُذكر في ترجمته، ما انفرد به دون أمثاله من شيوخ الأزهر كإنكاره كتابةً على الدولة العثمانية الفتك بالأرمن في أطنة، وكرئاسته لاحتفال اللجنة السورية التي عُقدت في دار التمثيل الأميرية لإعانة طلبة العلم السوريين في الأزهر، تلك اللجنة التي قال - في حمدها بحق -: إنها مسيحية، ليس فيها إلا مسلم واحد تسعى لإعانة مسلمين ليس فيهم نصراني واحد ! وغير ذلك من الأمور المدنية العصرية، ولم يتيسر لنا جمع ما كتب في ذلك بوقته من الجرائد، ولم يذكره أحد في ترجمته.

الشيخ عبد الكريم سلمان[47]

في أثناء شهر شعبان من هذا العام فجع القطر المصري بعالِم من أنفع علمائه، وأديب من أبرع أدبائه، وكاتب من أبلغ كُتابه، وقاضٍ من أعدل قضاته، أحد أعضاء النهضة الإصلاحية (الشيخ عبد الكريم سلمان)، تغمده الله برحمته.

ولد الفقيد في قرية (جنبواي) إحدى قرى مديرية البحيرة من أبوين كريمي الأخلاق، أما الوالد فألباني الأصل، وأما الوالدة فعربية المحتد، وكان بين بيته وبيت الأستاذ الإمام تعارف أهل الجوار، فلما جاورا في الأزهر تعاشرا معاشرة الأهل لا الطلاب، ولما خرجا إلى ميدان العمل تعاونا تعاون أخلاء الأصحاب، المتفقين في الآراء والمقاصد والآداب، وعاشا ما عاشا متوادين موادة اللدات والأتراب، ثم ما فرق الموت بينهما مدة التفاوت في العمر، حتى جمع بينهما تحت التراب، فعسى أن يكون هذا مُصْلِيًّا لذلك المُجَلِّي إلى دار الثواب، وأن يجمعنا الله بهما في دار الكرامة يوم المآب.

لعل الشيخ عبد الكريم كان أذكى ذهنًا من الأستاذ الإمام، ولكن هذا فاقه ففاته في الجد والاجتهاد، وتسديد سهام الإرادة إلى كل مراد، والعادة أن أكثر الأذكياء يكونون قليلي العناية والاجتهاد في الأعمال العقلية التي توكل إلى رأيهم واختيارهم (كطلب العلم في مثل الأزهر)، والسبب الخفي لذلك أنهم لا يشعرون بما يشعر به مَن دونهم في الذكاء إلى التعب في التحصيل، إلا مَن كان له من نفسه حافز يحفزه إلى مقصد عظيم، وكان الأستاذ الإمام من هؤلاء؛ فإنه طلب العلم بباعث ديني قوي، نمَّاه في قلبه سلوك طريق التصوف قبله، كما فصَّلناه في ترجمته، فكان وهو يسكن مع الشيخ عبد الكريم في حجرة واحدة - يقضي جُلَّ ليلته في المطالعة، ويحاول الشيخ عبد الكريم هو وغيره أن يحملوه على مشاركتهم في سمرهم وما يلهون به فيه فيعييهم ذلك منه، ولو كان للشيخ عبد الكريم مثل جده وعزيمته لكان للأمة منه نابغة طار صيته في الأقطار، وبلغ من الشهرة ما تبلغه شمس النهار، على أنه مشى الهُوينا فسبق الأقران، فكان الأستاذ الإمام البدء من مريدي السيد جمال الدين وكان هو الثنيان[48].

كان أول عمل تولاه الأستاذ الإمام هو رئاسة تحرير الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية) وإدارة المطبوعات، فكان الشيخ عبد الكريم عضُده الأول في قلم محرريها، ثم كان خلَفه بعد اعتزاله العمل باعتقاله مع زعماء العُرابيين إثْر احتلال الإنكليز لمصر، فوضع اسم (عبد الكريم سلمان) في ذيل الجريدة موضع اسم (محمد عبده)، وظل في عمله هذا إلى أن أُلغي القسم الأدبي من الجريدة، واستغني عن عمله في المطبوعات بعد عودة الأستاذ الإمام من منفاه.

ولما شرع الأستاذ - بعد استقراره بمصر - في إصلاح التعليم في الجامع الأزهر كان الشيخ عبد الكريم ساعده الأيمن في ذلك من أول العمل إلى آخره، وهو هو مؤلف كتاب (أعمال مجلس إدارة الأزهر في عشر سنين)، كتبه عقب استقالتهما من مجلس إدارة الأزهر، وطبعناه ونشرناه قُبيل وفاة الأستاذ الإمام، بعد اطلاعه عليه وإجازته له، ومنه يعلم قيمة عمل الشيخين في إقامة هذا الركن العظيم من أركان الإصلاح الإسلامي، وعبارته تشهد لهما بما كانا عليه من الإخلاص والتواضع والبُعد عن التبجح والدعوى.

فكفى الشيخ عبد الكريم فضلاً وكرامة أن كان عشيرًا وديدًا للأستاذ الإمام في أول نشأته العلمية وعضوًا عاملاً معه في النهضة الإصلاحية الأولى التي توسل إليها بإدارة المطبوعات، وفي الحركة الإصلاحية الثانية التي توسل إليها بإصلاح التعليم في الأزهر، وتفصيل ذلك في سيرة الأستاذ الإمام.

ولقد تخرج مع الأستاذ الإمام على يد السيد جمال الدين كثير من الأزهريين في الأفكار والكتابة والخطابة، كان في مقدمتهم إبراهيم بك اللقاني، واشتغل معهما في المطبوعات أفراد منهم، أشهرهم من الأحياء: سعد باشا زغلول و إبراهيم بك الهلباوي، ومن الموتى: سيد أفندي وفا، ولكن ترك كل أولئك زي العلم الديني، واستبدلوا به الزي الإفرنجي العثماني، فكان أكثرهم - بعد الثورة العرابية - محامين في المحاكم الأهلية، ولم يجد الأستاذ الإمام مَن يشتغل معه في الإصلاح بعد العودة إلى مصر إلا مَن حافظ على الزي الأزهري وهو الشيخ عبد الكريم.

وبهذا يُعلم تأثير تغيير الزي في الشئون الاجتماعية.

بعد خروج الفقيد من خدمة المطبوعات جُعل عضوًا (قاضيًا) في المحكمة الشرعية العليا، فكان فيها قدوة صالحة في تحري العدل، والاستقلال في الرأي، ومن آيات ما وصفناه به من شدة الذكاء أنه ولي القضاء بمذهب الحنفية في المحكمة العليا الاستئنافية، وهو شافعي لم يتمرن على الأعمال والأحكام القضائية في المحاكم الابتدائية، فلم يعجزه أن يضرب مع أكبر القضاة بكل سهم، ويكون

سبَّاقًا إلى إصابة الحق والعدل في الحكم، وكان له من الشهرة في المحكمة ما هو جدير به.
نعم، إنه كان قد سبق له دراسة بعض كتب الحنفية في الفروع والأصول، كما شهد له الشيخ عبد القادر الرافعي وغيره من كبار فقهائهم.
ولئن وُجد في زمن الفقيد أفراد يساهمونه في فضيلة استقلال القضاء، وآحاد يجارونه في حلبة الأدب والإنشاء، وآخرون يسبقونه بالتوسع في بعض العلوم، أو الإغراب في بعض شوارد الفنون - فقد كاد يكون نسيج وحده في أفضل ما يتفاضل فيه الناس، بعد ما يتعلق بالباطن من معرفة الله، وكمال الإيمان والإخلاص، أعني مكارم الأخلاق، وما يلزمها من محاسن الأعمال والآداب، فقد كان ممتازًا بالوفاء لإخوانه، والإخلاص لأخدانه وخِلانه، والمروءة والنجدة في قضاء حاجات قاصديه، وإن لم يكونوا من أصحابه ومحبيه، وأما أصحابه فكان أسبقهم إلى عيادة مريضهم، وتشييع ميتهم، وإصلاح ذات بينهم، وتهنئتهم بكل نعمة تحدث لهم، وكان ربما يسافر من بلد إلى آخر للعُتبى بين متغاضبين، والتأليف بين متباغضين، وإزالة الجفاء بين أسرتين؛ وكان له من الحذق في الاستيعاب ما يسل به السخائم، ومن اللطف في العتاب ما يستخرج به الحفائظ، فلا تكاد تتعاصى حية على رقيته، أو تأبى عقدة أن تنحل بنفثته.
ومن سوء حظ المسلمين أن أسرع إليه اليأس من صلاح حالهم، فأقعده في آخر عمره عن مساعدة أعمال الإصلاح العام لهم، وقد كان الأستاذ الإمام عناه بقوله لي في أول العهد بمقدمي إلى مصر: (إن لي أملاً كاملاً، وهنا رجل آخر له نصف أمل !).
ثم لم يلبث هذا النصف أن ذهبت به وقائع الأيام، حتى كان يصرح بذلك، ويحتج عليَّ وعلى الأستاذ الإمام قائلاً: سترى ما ينتهي إليه أملكما في هذه الأمة الميتة، وما يبلغه إصلاحكما من هذه الشعوب الفاسدة، وله كلمة في هذا المعنى قالها لأستاذنا الشيخ حسين الجسر، ألبَسها كعادته ثوب الدعابة والهزل، وقد كنا بدار الأستاذ الإمام، نتحدث فيما أشيع من رغبة الأمة اليابانية في التديُّن بدين الإسلام، قال الشيخ حسين الجسر: إذًا يُرجى أن يعود إلى الإسلام مجده، قال الفقيد: دعهم؛ فإني أخشى إذا صاروا منا أن نفسدهم قبل أن يصلحونا !ذكرت هذا في ترجمة الرجل لما فيه من العبرة المحزنة.
وإلى الله المشتكى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

كان الفقيد طويل القامة، عظيم الجثة، قوي البنية، فاعتراه منذ سنين مرض في المعدة، طال عهده وما نقه منه إلا وقد ذهب سمنه، وهزل بدنه، وضعف قلبه، حتى توفي فجأة بسكتة قلبية، وكان

يعزى أصدقاؤه آل محمود في بلدة الرحمانية، فنقلت جثته إلى مصر، وصلي عليه في الجامع الأزهر، ودُفن بجوار صديقه الأستاذ الإمام، تغمدهما الله بالرحمة والرضوان، وقد حضر تشييع جنازته وليالي مأتمه مَن لا يُحصى من العلماء والوجهاء ووفود البلاد من الوجهين البحري والقبلي، مُظهرين لمكانته العالية من أنفسهم ومعزين لنجله المهذب حسان أفندي، وللفقيد مقالات كثيرة في موضوعات شتى متفرقة في الصحف كالوقائع المصرية ومجلة الآداب وجريدتي المؤيد والمقطم، ولكن يقل فيها ما هو موقَّع منه أو معزوّ إليه، وفي الاستطاعة جمع طائفة كبيرة منها إن وُجد مَن يُعنَى بذلك.

فعسى أن يأذن نجله بذلك لمَن شاءه، جاعلاً له حق طبعه ونشره لإحياء ذكرى والده وحفظ أثره.

حسن جلال باشا[49]

كان حسن باشا جلال - المتوفى في 18 جمادى الأولى الماضي - من رجال العلم والعمل والفضيلة ومكارم الأخلاق الإسلامية، ففي سيرته من العبرة وحسن الأسوة ما يتوخى المنار نشره، ولم يكن ترْكُنا لترجمته عقب موته تعمدًا كتركنا تراجم أكثر مَن يموت من أرباب المناصب والرتب العلمية، والمظاهر الدنيوية، العارين مما يتوخاه المنار وإنما تركناها؛ لأن ما نعلمه من سيرته قليل مجمل، وكان توفيق أفندي أبو طالب رئيس كتاب محكمة مصر الأهلية قد أخبرنا بأنه شرع في كتابة ترجمة له، فانتظرنا صدورها للأخذ عنها، وأكثر ما نرويه خلاصة منها.

وُلد الفقيد بمصر في أربع خلون من شعبان سنة 1271، ولما بلغ سن التعليم أدخل في مدرسة خليل آغا، فكان الأول من طلبتها في جميع فصولها، فمهد له ذلك دخول مدرسة دار العلوم التي أُنشئت في سنة 1278 بطريق الاستثناء لفقده بعض شروطها، فعني وجدّ إلى أن حصَّل ما كان ينقصه منها، وفي سنة 1292 جعل مدرسًا بالمدرسة التجهيزية بعد أداء الامتحان المشترط لذلك، وفي سنة 1295 اختير لتدريس اللغة العربية لأبناء فاضل باشا، فرافقهم إلى سويسرة، وتعلم فيها اللغة الفرنسية، وكان يتردد فيها على وزير مصر الشهير مصطفى رياض باشا دون جميع مَن هنالك من المصريين (إذ كانوا يجتنبون لقاءه لمغاضبته للخديوِ إسماعيل باشا)، فلما اعتزل إسماعيل وولي توفيق، وعاد رياض إلى وزارة مصر - أرسل الفقيد إلى أوربة لتحصيل علم الحقوق على نفقة الحكومة، فنال شهادة الحقوق، وعاد إلى مصر، وخدم القضاء مساعدًا للنيابة، فقاضيًا، فوكيلاً لبعض المحاكم، فرئيسًا لعدة منها، آخرها محكمة الإسكندرية تولاها عشر سنين ونصف سنة، فمستشارًا في محكمة الاستئناف، وكان آخر راتبه الشهير فيها مئة جنيه.

ومن خدمته للعلم أنه كان عضوًا في المجلس الأعلى للأزهر والمعاهد الدينية وعضوًا في اللجنة الإدارية لمدرسة القضاء الشرعي.

هذه السيرة الرسمية - التي تتطلع لتحصيل مثلها أعناق أكثر المتعلمين - ليست مما نحفل بذكرى

أصحابها في المنار، وإنما فضل الرجل عندنا في سيرته العملية وأخلاقه وآدابه الدينية التي فضل بها الجم الغفير من أمثاله رجال القضاء، وممن يعد فوقهم في المنصب والجاه كالوزراء والأمراء.
كان الرجل محافظًا على أوامر دينه ونواهيه من سن الصبا إلى سن الشيخوخة، لم يُفتن في شبابه بمعاصي الشهوات، ولا في كهولته بمنكرات العظمة والكبرياء، ولا في شيخوخته بدناءة الطمع والحرص على المال، ولم تزلزل الإقامة في البلاد الأوربية ما نشأ عليه من الآداب الإسلامية، ولم تفسد عليه عفته وورعه، ولم تحوله عن زيه العلمي ولا عاداته، حتى إنه كان يتورع عن أكل ذبائح النصارى لكثرة الملاحدة فيهم، ويذهب من محل إقامته إلى جزار يهودي في مكان بعيد، يشتري منه اللحم، ويعالجه لنفسه.
وروى أبو طالب عن بعض عشرائه من شبان المصريين طلاب علم الحقوق في فرنسا أنهم أغروا به امرأة بارعة الجمال لتراوده عن نفسه، وجعلوا لها عشرة جنيهات إن هي فتنته عن عفته، فجاءت حجرته متبرجة بما استطاعت من زينة، وطرقت الباب، ففتح لها، وسألها قبل الدخول عن حاجتها، فضحكت ضحكة دلّ ومداعبة، ورأرأت رأرأة مغازلة وملاعبة، وحاولت الدخول عليه، ومدت يدها إليه، فدفعها بعنف، وأغلق دونها الباب، فرجعت خائبة تجهر بالهُجر والسباب !ومما رواه من سيرته أنه كان أبر الناس بوالديه، وأوصلهم لرحمه، وأحفاهم بإخوانه وأصدقائه، وأشدهم عناية بكل مَن له عهد وصلة به، مرضت والدته بمصر أيام كان مقيمًا في الإسكندرية رئيسًا لمحكمتها، فكان يعودها كل أسبوع حاملاً معه ملاءات فراشها كاملة النظافة والكي، ويتولى ترتيب ذلك وفرشه بيده، وكان - وهو يطلب الحقوق في أوربة - يرسل إليها في كل شهر جزءًا من راتبه.
وبلغني أنه كان ينفق ثلث الراتب، ويرسل إليها الثلث، ويجعل الثلث الثالث للكتب، وما زال محبًّا للكتب باحثًا عن نفائسها المخطوطة طول عمره، وكنت أراه في أواخر عمره يختلف إلى صغار باعة الكتب، ويجلس عندهم باحثًا عما عساهم التقطوه من بعض التركات، أو أصحاب الحاجات.
قال أبو طالب: وكان وفيًّا بالعهد؛ فقد عرف في (قنا) يوم ولي القضاء فيها بدالاً مصريًّا متوسط الحال، كان يشتري منه حاجته، فلما عاد إليها وهو مستشار سأل عنه، فقيل له إن حالته تضعضعت، وتجارته كسدت، وهو الآن يبيع المراوح، فلم يمنعه ذلك من زيارته، وتعهُّد شأنه كلما ذهب إلى قنا، ولا تسلْ عن اغتباط ذلك البدال بمثل هذه الزيارة؛ فإنها كانت أشهى إليه من رد ثروته، بل شبابه عليه.
اهـ.

وأفضل ما يؤثر من مناقبه مبالغته في الاستقلال والعدل في القضاء، حتى إنه لم يكن يقبل شفاعة، ولا حديثًا في قضية رُفعت إليه، ولا في ترقية عامل تحت رياسته، كما أنه لم يكن يكلم أحدًا من أصدقائه القضاة ولا غيرهم في مثل ذلك.

وقد اشتهر بذلك، حتى لم يكن أحد من أقرانه ولا ممن فوقه من المناصب يطمع أن يكلمه في شيء من ذلك، وله مواقف ووقائع تؤثر في ذلك، ذكر بعضها أبو طالب.

ويعجبني مقاله في إثْر هذه المناقب، وهو:ولقد أغفلت التوسع في حياة الفقيد القضائية وذكر الحوادث التي اتفقت له دالة على مبلغ ما كان عليه من الفقه في القضاء والعدل والشجاعة مكتفيًا بأن المعاصرين أحاطوا بكل هذه الأحوال، ويلوح لي أن كتابة تاريخه المعاصر بالتفصيل فيه من الصعوبة ما لا يظهر لأول وهلة؛ ولذلك اقتصرت على هذا الإلماع اليسير.

وما كنت لأطمع أن يكون كل المصريين كحسن باشا جلال؛ فهذا من المحال قطعًا، ولا أرجو أن يكون واحد في الألف كذلك، بل الذي آمله أن يتصفح هذه الورقات بإمعان، وأن لا يستصغروا شأن الحوادث التي سقتها هنا مثالاً من أخلاقه؛ عسى أن يحتذي حذوه ويهتدي بهدْيه نفر من الأمة؛ ليعملوا كما عمل، لعل الله يبعث فيها الحياة الحقيقية، التي لا يُظهرها إلا مثل هذه الأخلاق؛ فإن الذي يعيش الآن بين ظهراني المصريين لا يمكنه أن يتجاهل العلماء العديدين في كل علم وفن فمصر ليست فقيرة من هذا النوع؛ إذ للقضاء رجال وللطب آخرون وللهندسة والزراعة مثلهم ولكل مطلب من مطالب الحياة قوم يشغلهم شأنه، وما ينقص المصريين إلا شأن واحد وهو الأخلاق؛ فإن ذوي الأخلاق الفاضلة قليلون بالنسبة لمجموع الأمة ومدارسها ومعاهدها.

وإني - على قدر معلوماتي القاصرة - لا أرى بابًا لهذه الأخلاق إلا النفس التي بين جنبي كل حي من الأمة، فما عليه إلا أن يروّضها على الفضائل التي شاعت في الكتب وتداولتها ألسن الصغار، وغفلت عنها عقولهم، فإن أصغر كتاب مدرسي فيه بيان لأصول الفضائل، ولو مرنت النفوس مِرَانًا حقيقيًّا عليها لتغيرت الأحوال تغيرًا عظيمًا في وقت قصير.

أما ما نعيش الآن فيه من حيث الأخلاق وآداب المعاملات - فمما يعجز عن وصفه أكبر كاتب بليغ، وإني لَيحزُنني جدًّا أن أجهل مصدر هذا الداء الوبيل الذي تفشى تفشيًا مزعجًا؛ فإن ابن عشر سنين يبرز في النفاق والمداهنة على ابن الستين !، فنحن نتقدم فيها، ولكنه تقدم معكوس؛ لأن كل مَن أتقن هذا النفاق عُدَّ ظريفًا كيِّسًا، وقد عم جمود الإحساس والعواطف كثيرًا من هذه الطبقات في هذه الأمة ذات المجد القديم والتاريخ العظيم، التي تحتاج إلى شيء بسيط حتى تكون من أرقى الأمم؛ وذلك

باعتدال أبنائهم في أحوالهم وأقوالهم وعملهم بلا إفراط ولا تفريط؛ لأن الحالة الوسطى تكاد تكون معدومة، وقد دعت الحياة فيها:

وفي النفس حاجات وفيك فطانة *** سكوني بيان عندها وخطاب

وعندي أن إصلاح شأن هذه الأمة - التي سهلت طباعها وزكت نفوسها ولان جانبها وسهل قيادها - لا يأتي إلا بحسن اختيار العاملين من أبنائها من أصغر عامل عمومي وهو الخفير إلى أكبر موظف وهو الوزير، فما كل النفوس بصالحة للخدمة العامة التي تتطلب صفات خاصة تظهر في صاحبها من أول نشأته، فإذا صح انتقاء هؤلاء أصبحت مصر في زمن قليل فردوس الأرض؛ لأن هذه الأمة سريعة التقليد لحكامها.
اهـ المراد.

(المنار)

لقد هدي هذا الكاتب إلى ما يجب من العبرة في هذه السيرة الحسنة بعبارة تدل على أنه عني بتهذيب أخلاقه وتربية نفسه، حتى ظن أن ذلك يسير على أكثر الناس المتعلمين.
وهيهات هيهات، إنهم عن السمع لمعزولون، وعن الحاجة إلى تزكية النفس لغافلون، وهذا التعليم المعروف لا يزيدهم إلا غفلةً وإعراضًا عنها، ولن يكون ذلك إلا بانقلاب يتغير به نظام التربية والتعليم، ويكون أمرهما موكولاً إلى أصحاب الفضيلة والحكمة من الأمة، وأين هم ؟! وكيف السبيل إلى تفويض الأمر إليهم ؟! وأما اختيار أمثالهم لأعمال الحكومة فمَن يقدر عليه ويُعنى بتنفيذه ؟! ههنا محل التأمل للمتأملين.

باحثة البادية[50]

وحفني ناصف

(1)

وفاتهما وترجمتهما

(باحثة البادية) لقب للأديبة الشهيرة (ملك) كريمة حفني ناصف بك، اختارته لتوقيع ما كانت تنشره من مقالاتها وشعرها في الجرائد كما يفعله كثير من المتنكرين والمتنكرات في الشرق والغرب، توفيت لعشر خلون من المحرم فاتحة هذا العام، ثم احتفل بتأبينها في اليوم الثاني من شهر ربيع الأول، وقد كان شهر وفاتها وما بعده من الفترة التي لم يصدر فيها المنار، وشهر تأبينها ضاق عما أعد له، فرجونا فيه بأن نكتب شيئًا في ترجمتها وتأبينها في هذا الجزء.

وفي هذه الفترة بين الجزئين توفي والدها الأسيف، وكان قبل وفاتها مريضًا فضاعف الحزن عليها المرض حتى صار حرضًا انتهى بالموت، وكان سبب موتها هي الانتقال من الفيوم إلى القاهرة، وهي مصابة بالنزلة الوافدة لأجل مواساته في إثر انكشاف كارثة كانت سبب مرضه أو سبب شدته، فأصيبت بما ضاعف النزلة، فكانت القاضية، وقد خسر القطر المصري - بل الأمة العربية - بوفاتهما ركنين من أركان النهضة العربية للرجال والنساء معًا، كما يتضح ذلك لغير العارف بفضلهما من أهل الأقطار البعيدة، مما تثبت من ترجمتها الوجيزة.

باحثة البادية

هي كبرى أولاد حفني بك ناصف، عُني بتربيتها وتعليمها وهي في شرخ الشباب وزمن الجهاد في إصلاح التعليم وترقية الآداب، وضعها في المدرسة السَّنية، التي هي أرقى مدارس البنات

الأميرية، فكانت أول ابنة مصرية نالت شهادتها الابتدائية، ثم انتقلت من القسم الابتدائي إلى قسم المعلمات العالي، فجدت حتى نالت شهادة هذا القسم فيه، وكانت الأولى أيضًا، وكان من مبادي التوفيق أن كان من أساتذتها في القسم الأول الشيخ حسن منصور وفي القسم الآخر الشيخ أحمد إبراهيم، وهذان الأستاذان في الذروة العليا من مدرسي علوم اللغة العربية وفنونها في مصر، علمًا وآدابًا وأخلاقًا وحذقًا في التعليم، ثم إنها اشتغلت بالتعليم في المدرسة نفسها، فكانت خير معلمة كما كانت خير متعلمة، امتازت بالذكاء النادر، والجد والاجتهاد، والتنزه عما ينتقد من عادات الفتيات في هذه البلاد، فتم لها بالتعليم ركنان من أركان العلم، أو طوران من أطواره الثلاثة التي لا ينضج عالم إلا بمجموعها، وثالثها الكتابة والتأليف الذي وجهت إليه عنايتها بعد زواجها، واختيارها بنفسها شؤون الحياة الزوجية وتدبير المنزل، ولم ينقصها من الخبرة التي تؤهلها لمرتبة الإصلاح النسائي على وجه الكمال، إلا الحرمان من صفة الأمومة والقيام على تربية الأولاد، فسبحان من تفرد بالكمال، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

ثم إن والدها زوَّجها برضاها من عبد الستار بك الباسل أحد زعماء العرب المصريين وشيوخهم، وهو وأخوه الأكبر حمد باشا الباسل رئيسا قبيلة الرماح المقيمة بجوار الفيوم، وقد امتاز هذان الأخوان في عربان الديار المصرية وغيرهم بالجمع بين فضائل البداوة ومحاسن الحضارة، والتنزه عن رذائلهما، فمن الأولى: الوفاء والسخاء والنجدة والمروءة وقري الضيف وإغاثة الملهوف، ومن الثانية: محبة العلم والأدب وأهلهما والاطلاع على شؤون الاجتماع والعمران، ولهما مشاركة في هذا وما يتعلق به من مسائل التاريخ القديم والحديث والقوانين، زادتها معاشرتهما للطبقة العليا من العلماء ورجال الحكومة والسياحة في أوربة وبعض البلاد الشرقية اتساعًا وصقلاً، ولكن هذه المزايا التي اجتمعت لزوجها وسعة الرزق التي هي في نظر أكثر النساء خير منها ومن النبوغ في أي علم من علوم الدين والدنيا، كان يظن أن سيعارضها ما هو أقوى منها في نظر فتاة مصرية تعلمت التعليم العالي، وهو زي عبد الستار بك العربي من الشملة البيضاء والطربوش المغربي، ذلك بأن وجهة التعليم بمصر أوربية يقصد بها فرنجة المصريين كما قال لورد كرومر، ومن شأن اللواتي يتعلمن ويتربين على هذه الطريقة أن ينفرن من كل ما هو وطني محض من الزي والعادات، ويفضلن كل ما هو تقليد للإفرنج منها، حتى إن بعض بنات الوجهاء المتعلمات لا يقبلن زوجًا لأنفسهن إلا من كان حاملاً لشهادة عالية من أوروبة، لذلك استغرب كثير من الناس رضاء (ملك ناصف) بقرين لها من شيوخ العرب، وإن كان بيته أرقى من بيت أبيها ثروةً، وأوسع معيشةً.

كما يرى القارئ هذا فيما ننقله في هذه الترجمة من تأبين تلميذة الفقيدة وصديقتها (نبوية موسى) التي هي تلوها في الذكاء والتحصيل، وما ذاك إلا أن فطرة (ملك) وتربيتها المنزلية وهدي أستاذيها في المدرسة حالا دون إفساد التفرنج للبها، واستحواذ زخرفه على قلبها، وبذلك كانت جديرةً بمعرفة قيمة رجل من كرام أمتها، لم يخطبها إلا لعلمها وحسن تربيتها، ففضلته على الشبان المتفرنجين المتطرسين، المتورنين الذين انسلوا من شرف الصيانة وفضائل الدين.

وجدت الفقيدة من قصر الباسل أجمل منظر يتجلى فيه ذوق المرأة وعلمها بتدبير المنزل، ووجدت من عبد الستار أوفى زوج تهنأ معه الحياة الزوجية لأديبة مثلها يتساهمان تفضيل المزايا المعنوية على المظاهر الصورية ، ووجدت من حريته الأدبية ما مكنها من نشر أفكارها الإصلاحية، ويقل أن يوجد في المسلمين حتى المتفرنجين منهم من يرضى لزوجه أن تنشر آراءها في الصحف المنتشرة، وتتصدى لمناظرة أرباب الأقلام فيها، بل أكثر البنات اللواتي يتعلمن في مثل بلاد أوربة ينتهي بالزواج اشتغالهن بالعلم فلا يجدن بعده وقتًا للتأليف ولا لإنشاء المقالات للصحف، ولذلك كانت آثار النساء القلمية قليلةً جدًّا بالنسبة إلى عدد المتعلمات منهن في كل أمة إذا قوبلت بآثار الرجال بالنسبة إلى عددهم، ولكن عقيلة الباسل لم تجد من بيتها وبعلها إلا التنشيط على الكتابة والنشر.

لآل الباسل هؤلاء ثلاث دور آهلة.

(إحداها): بجوار مزارعهم وقبائلهم من مديرية الفيوم بالقرب من مدينة الفيوم وتعرف بقصر الباسل، وهي سكنهم الأصلي، وفيها يكونون في أكثر أوقاتهم.

و (الثانية): بمدينة الفيوم نفسها.

و (الثالثة): في القاهرة يقيم فيها حمد باشا أيام انعقاد الجمعيات التشريعية التي هو أحد أعضائها، ومن يتعلم من ولده في المدارس، ويختلف إليها هو وعبد الستار بك أيامًا من كل شهر لمصالح لهما في العاصمة، وللقاء أصدقائهما فيها، ويلم بها أزواجهما أيضًا، وقد حُبب لابنة حفني المقام في قصر الباسل لما فيه من اجتماع محاسن الحضارة والبداوة، وصفاء العيشة الخلوية مع رفاه العيشة الحضرية وزينتها، وتسنى لها فيه اختبار حال الفلاحين المقيمين بقرية قصر الباسل، وسكان الخيام من البدو المخيمين بجواره، فكانت تعاشر نساء الفريقين، وتتعرف على حال حياتهن الزوجية، ومن ثم انتزعت لنفسها لقب (باحثة البادية).

ظهر اسم (باحثة البادية) أول مرة في صحيفة (الجريدة) سنة 1326 في ذيل اقتراح بناء مدفن لعظماء رجال مصر، فرددنا على هذا الاقتراح في المنار ردًّا دينيًّا رجحنا أن المقترح رجل متنكر

فقلنا في أول الرد: نشر هذا الاقتراح بتوقيع (باحثة البادية) وما هو إلا خيال باحث في الحاضرة، أو تمني متفرنج في العاصمة، إلخ (راجع ص380 م11) وقد أخبرني عبد الستار بك من عهد غير بعيد أنها أرادت يومئذ أن ترد على المنار، واستشارته في ذلك فأشار عليها بأن لا تفعل قائلاً: إنك لن تستطيعي أن تجادلي كاتبًا من أئمة الدين في مسألة دينية كهذه...
ثم إنه علم منها بعد ذلك أنها استنبطت من ذلك أنه يكره لها أن تكتب في الصحف مطلقًا، فصرح لها بأن ظنها هذا خطأ، وأنه لا يكره أن تكتب ما ترجى فائدته، فكان هذا بدء حياتها الإصلاحية وخدمتها العامة، فالعامل في هذه الحياة الاستعداد الفطري، ثم دار النشأة وروحها الوالد الذي نبين كنهه في ترجمته، ثم المدرسة وروحها من ذكرنا من الأساتذة، ثم دار الزوج وهو روحها، وقد ذكرنا من أمر هذا العامل الأخير ما يعرف به قدر تأثيره في هذه الحياة، فهذه العوامل هي التي كونت (باحثة البادية) في حياتها التي تتجلى للقارئ في مقالاتها الخالدة وآثارها الباقية، ولما لم يجتمع ذلك لغيرها من بنات مصر في هذا العصر كانت في مسلمات مصر نادرةً شاذةً.

مقالاتها وآثارها القلمية

كتبت مقالات كثيرة، ونظمت بعض القصائد والمقاطع من الشعر، وألفت عدة خطب في محافل اجتمع فيها مئات من كرائم النساء في القاهرة، وشرعت في تأليف كتاب في حقوق النساء في الإسلام وفي أوربة لم يتم، وقد نشر أكثر ما كتبت في الجريدة وجمع بعضه في كتاب سمي (النسائيات) وطبع الجزء الأول منه في سنة 1328 ، فقرظه نفر من الأدباء والعلماء، وقد ذكرت في تأبينها أن آثارها القلمية تدور على بضعة أقطاب، أو تدخل في ستة أبواب:

(الأول): تربية البنات، وتعليمهن في البيوت والمدارس.

(الثاني): المرأة - تأثيرها في العالم - تأثيرها الخاص في زوجها وولدها وأهلها - ما ينبغي لها في كل طور من أطوار حياتها - أحوال القرويات والبدويات والمدنيات - المقارنة بين المرأة المصرية والمرأة الإفرنجية - الجمال والعادات والأزياء.

(الثالث): الزواج - سنه - حقوق الزوجين والعشرة بينهما - تقصير كل منهما فيما يجب عليه - تزوج المصريين بالأجنبيات.

(الرابع): الحجاب والسفور.

(الخامس): الرجال والنساء - جناية كل منهما على الإنسانية بجنايته على الآخر - وظائف كل منهما - مزايا كلٍّ ومساويه.

(السادس): شجون وشؤون عامة، كوصف البحر، والعيشة الخلوية والجمال، وأقلها شوارد شعرية في الحال الاجتماعية السياسية.
وقيمة هذه الآثار ومزيتها التي استحقت به الفقيدة الترجمة في المجلات العلمية والإصلاحية، وتأبين فضلاء الرجال لها في حفلة عامة، هي في نظري أنها إصلاحية جاءت وسطًا بين آراء المحافظين الجامدين على كل قديم، والمتهافتين كالأطفال على كل جديد، وأن الكاتبة مستقلة فيها غير مقلدة.
(للترجمة بقية)

((يتبع بمقال تالٍ))

باحثة البادية[51]
تتمة ترجمتها
(2)

حقيقتها النفسية ومذهبها الإصلاحي

إن ما بيناه من خبر نشأتها وتربيتها، وما أشرنا إليه من آثارها القلمية هما كالعلة والمعلول والمقدمات والنتيجة، في ظهور صورتها النفسية العقلية وسيرتها العملية، فثبت عندنا أن باحثة البادية ذات رأي ثابت ومذهب كوّنه العلم والبحث في تربية النساء المسلمات وتعليمهن وما يجب أن يقمن به من الإصلاح الاجتماعي في العالم الإسلامي في هذا العصر، وإنها كانت داعية إصلاح منبعثةً بِغَيْرَةٍ نفسية إلى نشر مذهبها، والحمل على اتباعه، ومناضلة المخالفين له.

قبل أن نبين حقيقة هذا المذهب نقول: إن هذه مَنقبة للمُترجَمة لم تسبقها إليها امرأة في مصرها في عصرها، ولعلي لا أبالغ إذا قلت: في أمتها العربية كلها، بل هذا مما يقل في الرجال بله النساء، وقد غفل عن معرفة هذا لها من رثوها وأبّنوها في الصحف، وفي حفلة التأبين التي نذكرها بعد؛ لأن مثل هذه الدقائق لا يلتفت إليها الشعراء والخطباء، ولا أكثر كتاب الصحف.

كتب كثير من الرجال والنساء في المسائل التي كتبت فيها باحثة البادية في هذا العصر، ولا نجزم بأن أحدًا منهم صاحب مذهب ثابت له حافز من نفسه للدعوة إليه والدفاع عنه إلا قاسم بك أمين وباحثة البادية، لا أنكر أن من أولئك الكاتبين من هم أوسع اطلاعًا وأفصح عبارةً من باحثة البادية، وأن منهم من له رأي ثابت فيما كتب خطأً كان أو صوابًا، ولكنه مقلد فيه لغيره حتى في الاستدلال، ومزيتها على أمثال هؤلاء أنها قد ارتقت إلى طبقة أهل الإصلاح وأصحاب المذاهب الاجتماعية.

لما شبت حرب المناظرة والجدال في المسألة التي سموها تحرير المرأة، وجعل أساس عقيدتها ما سموه السفور أو رفع الحجاب - كنا نرى مقالات كثيرةً لمقلدة المحافظين على الحجاب، وأخرى

لمقلدة التفرنج طلاب السفور، هؤلاء متهوكون في فتنة التشبه بالإفرنج، ظانين أنهم في التشبه بهم في أهون الأمور وألذها يكونون مثلهم حتى في غير ما تشبهوا بهم فيه، وأولئك متمسكون بكل ما تعودوه ودرجوا عليه، ولا سيما إذا كان له شيء من صبغة الدين، خائفون أن يكون في التحول عنه انحلال أمتهم بذهاب مقوماتها أو مشخصاتها، وإن لم يكونوا على علم بأن للأمم مقومات ومشخصات تقوى بالاعتصام بها، وتنحل بانحلالها، وأن ما يحافظون عليه وينافحون دونه منها؛ لأن ذلك الخوف وجداني مبهم لا علمي مبين، فنرى جمهورهم يظن أن ما جرى عليه أكثر نساء المدن، وبعض نساء القرى من وضع البراقع على أفواههن هو الحجاب الشرعي.

لم تكن باحثة البادية من هؤلاء ولا من أولئك، بل كان لها مذهب وسط مبني على أصلين، أحدهما: وجوب التزام النساء جميع ما قرره الإسلام من عقيدة وأمر ونهي، وثانيهما: اقتباس جميع ما تحتاج إليه المرأة المسلمة من الفنون والنظام والأعمال؛ للقيام بما يناط بها عند ما تكون زوجًا لرجل وأُمًّا لولد ورئيسةً لمنزل، أو منقطعةً لإتقان علم أو عمل على ما تقتضيه حالة العصر من مجاراة الأمم العزيزة القوية في مضمار الارتقاء.

إن تسمية هذا المذهب وسطًا بين نزغات المتفرنجين ورغبات المحافظين على القديم على علاته، يشعر بتفضيله، وناهيك بقاعدة: (خير الأمور أوساطها) المسلَّمة عند الجمهور، وقد رويت حديثًا مرفوعًا، أخرجه السمعاني في ذيل تاريخ بغداد عن علي -كرم الله وجهه- بسند مجهول، ولكن معناه يؤيد بقوله تعالى: [وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً](البقرة: 143) مع قوله في آية أخرى [كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ](آل عمران: 110) وبما تقرر في علم الأخلاق من كون الفضائل أوساطًا بين أطراف، هي الرذائل، كالجود بين طرفي البخل والإسراف.

ويمكن بيان ذلك في هذا المذهب بطريقة علمية مستمدة من سنة الله تعالى في أجساد الناس وأنفسهم وعقولهم، ذلك بأن لله تعالى في تسلسل أفراد الناس (وغيرهم من الأحياء) بعضهم من بعض، سنتين متقابلتين: سنة التباين، وسنة التوافق والتوارث، فبمقتضى سنة التوافق يشبه الابن أباه، والفرع أصله، في بعض صفاته الجسدية والنفسية، وبمقتضى سنة التباين يخالفه في بعض تلك الصفات، فلا يوجد أحد يماثل أباه أو غيره من أصوله في كل شيء، أو يخالفه ويباينه في كل شيء، ولولا هاتان السنتان لكان كل فرد من الأفراد التي يتولد بعضها من بعض مباينًا لغيره، كأنه نوع من جنس لم يوجد منه غيره ، أو لكان جميع البشر كأبيهم الأول في كل شيء، بحيث يتعذر التفرقة بين اثنين منهم في سن واحدة، فسبحان الخلاق العليم الحكيم.

ثم إن لله تعالى سنتين كهاتين السنتين في سيرة الناس العملية وحياتهم الاجتماعية، وهما سنة المحافظة والتقليد، وسنة الاستقلال والتجديد، وحكمة الله تعالى في جعل مقدار ارتقاء البشر في العلوم والأعمال على اجتماع هاتين السنتين، كحكمته في جعل مدار وجود الأجناس والأنواع على تينك السنتين، ولو قلد كل أحد مَن قَبله في كل ما وجدهم عليه، لكانت حياتهم العملية متماثلةً كحياة النحل والنمل من الحشرات التي تعيش بالاجتماع والتعاون، ولو خالف كل أحد مَن قبله في كل شيء واستقل بجعله جديدًا، لخرج الإنسان بذلك عن كونه عالمًا اجتماعيًّا يرتقي بالتعاون وبناء الجديد على القديم مع التحسين فيه، ولما تكونت الأمم والشعوب، ولا ارتقى علم ولا عمل ولا صناعة، فالأمم تتكون بما يشترك أفرادها فيه من العلوم والأعمال التي تطبع في أنفسها ملكات وأخلاقًا وأذواقًا خاصةً تكون من أقوى مقوماتها التي تفصلها من غيرها، ولا يتكون للأمة خلق جديد في أقل من جيل، وقلما يكمل لها خلق أو ذوق خاص في الفنون والصناعات في أقل من ثلاثة أجيال، كما يقول بعض علماء الاجتماع.

بعد هذا البيان التمهيدي لبيان قيمة مذهب باحثة البادية في مسألة تربية النساء المسلمات في هذا العصر، أقول: إن أكثر الذين خاضوا في هذه المسألة يجهلون هذه الأصول، فكان منهم من غلبت عليه سنة التقليد والمحافظة على القديم برمته، وهو لا يدري أن الاقتصار عليه ضار على أنه محال، ومنهم من غلبت عليه سنة حب التجديد لكل شيء وإبطال كل قديم، وهو لا يدري أنه مفسدة على أنه مطلب لا ينال، وجهل الأكثرون من الفريقين أن التطورات الجديدة الطارئة على الأمة التي تدعوها إلى تغيير شيء من ماضيها، وتحدث التعارض والتدافع بين الفريقين المذكورين يجب أن يتروى في أمر تيارها، فلا يساعدها على جرفه للماضي الذي صار من مقومات الأمة، ولا يقاوم بمحاولة منعه من أي تغيير في شؤونها، وإن كان إزالة ضار واستبدال نافع به، لهذا نرى من المتفرنجين - طلاب التجديد بغير علم صحيح ولا فطرة معتدلة - مَن يستعجلون في هدم عقائد الدين وشعائره، وفي التصرف في اللغة تصرفًا يخرجها عن أصولها وقواعدها وفي تغيير الأخلاق والآداب الاجتماعية بسفور النساء ومخالطتهن للرجال في المجامع والملاهي والحانات والمراقص، وما الدافع لهم إلى هذا إلا ما يرون فيه من اللذة والتمتع والتشبه بالإفرنج فيما يشكو منه حكماؤهم وفضلاؤهم.

كان قاسم بك أمين مستقلاً معتدلاً في فريق مقلدة التفرنج، وخصمه محمد طلعت بك حرب مستقلاً معتدلاً في فريق مقلدة التدين والتعود، ثم ظهرت باحثة البادية مستقلةً معتدلةً، تجاذبها الفريقان، كل

منهما يعدها من حزبه فيما توافقه فيه، غير مشدد عليها بالإنكار فيما تخالفه فيه، فبهذا التفصيل الوجيز تعرف قيمة هذه المرأة المسلمة العربية المصرية الفاضلة، وأنها فوق قيمة من توصف بأنها كاتبة ناثرة شاعرة، أو خطيبة ماهرة، فمزيتها في نساء قومها أنها مصلحة مستقلة معتدلة.
الاحتفال بتأبينها

تحدث بعض من حضر مأتم الباحثة من المفكرين في استحسان إقامة حفلة تأبين لها، تكون مظهرًا لتكريم الرجال للنساء، وترغيبًا لهن في العلم النافع، والسيرة الزوجية الصالحة، ثم تألفت لذلك لجنة برياسة شيخ الأدباء إسماعيل صبري باشا، كان أول عملها أن عرضت على السير عدلي باشا يكن وزير المعارف جعل حفلة التأبين تحت رئاسته، فقبل مرتاحًا، ولما كان الراغبون في التأبين والرثاء كثيرين، اضطرت اللجنة إلى اختيار ثلاثة من الخطباء، وبضعة من الشعراء الذين يحضرون الحفلة، واختارت من رسائل التأبين والرثاء كلمةً وجيزةً بليغةً لصديقة الفقيدة نبوية موسى ناظرة مدرسة البنات الأميرية في الإسكندرية، وقصيدة لأحمد أفندي الكاشف الشهير.
ثم اختارت أن يكون الاحتفال في قاعة الخطابة الكبرى من دار المدرسة السعيدية التي كانت دار الجامعة المصرية، وضربت موعدًا لذلك الساعة الرابعة من مساء يوم الجمعة ثاني ربيع الأول، ولم يكد يجيء الموعد حتى غصت تلك القاعة الفسيحة بأهل العلم والأدب والوجاهة وطلاب الأزهر والمدارس التجهيزية والعالية، وكان المنظِّم للمكان والمراقب لنظام الاحتفال علي بك حسني ناظر المدرسة السعيدية وهو عريق في ذلك وأصيل، وقد اعتذر عن حضور الحفلة عدلي باشا بانحراف ألمَّ بصحته، وحضرها وكيل نظارة المعارف الذي تولى المساعدة نيابةً عن الوزير في جعلها في أحد معاهد الوزارة.
وكان أول الخطباء إبراهيم بك الهلباوي المحامي الشهير، وموضوع تأبينه ترجمة الفقيدة، فذكر كل ما ينبغي ذكره في ذلك بفصاحته وطلاقته التي تشبه بالسيل المدرار وتدفق الأنهار، وألم بما دار من الجدل والمناقشات في تعليم المرأة وحجابها، وعد باحثة البادية حجةً على المنكرين، وقد اضطرب الحاضرون عند ذكر مسألة الحجاب، وكاد بعضهم يقاطع الخطيب ويصرحون بأن الفقيدة حجة على طلاب السفور؛ لأنها فاقت جميع المتعلمات في مصر ، وهي محافظة على حجابها الشرعي، وناصرة للقائلين به.
وتلاه الشيخ مصطفى عبد الرازق كاتب سر مجلس الأزهر والمعاهد الدينية الأعلى، فتلا خطبةً فصيحة العبارة، موضوعها الغرض من إقامة هذا الحفل، وهو تكريم النابغين المستحقين للتكريم من

الرجال والنساء، لما في ذلك من حسن الأسوة والترغيب في العلم والعمل النافع للأمة، وألمَّ بذكر النهضة الحديثة في التعليم وتربية البنات، وما للشيخين الأستاذ الإمام محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان من الجهاد واليد البيضاء في ذلك، واستغرب من تقصير أصدقاء الشيخ عبد الكريم الذين هم من كبراء الأمة فيما كان ينبغي من الاحتفال بتأبينه، وما كان ينبغي لغيرهم أن يتقدم عليهم في الدعوة إلى ذلك، ونوه بما كان من نجاح باحثة البادية في العلم والدعوة إلى إصلاح حال المرأة، وما كان من صلاحها في نفسها واشتهارها بعلو الآداب والتقوى الذي استحقت به مثل هذا الاحتفال.

وتلاه كاتب هذه السطور وكان موضوع خطابته: نبوغ باحثة البادية، وانتظامها في سلك المصلحين، وآيات ذلك من مقالاتها وخطبها، وقد بدأت بذكر أولياتها الذي تقدمت الإشارة إليه، وذكرت أن منها أن أول مكان خطبت فيه هو هذه القاعة التي كان تأبينها فيها أول احتفال في مصر بتأبين امرأة، ثم ذكرت نحوًا مما تقدم في الترجمة من أخبار نشأتها وتعليمها وتربيتها، واستنبطت منه أن مدارس البنات الأميرية - وغير الأميرية بالأولى - لا يرجى أن تخرج مثلها؛ لأن نبوغها كان بمجموع تلك الأسباب التي ذكرتها، لا بالمدرسة السَّنية التي تعلمت فيها، وإلا لرأينا في كل سنة عددًا من المتخرجات مثلها، ذلك بأن التعليم عندنا تقليدي آلي - نسبة إلى الآلة - يقُصد به إيجاد آلات للحكومة، وما يشبه مصالح الحكومة من الأعمال الإدارية والزراعية والتعليمية وغيرها، وإنما يكثر النابغون في معاهد التعليم الاستقلالي، وهي لم توجد عندنا بعد، لذلك كان كل من ظهر من نابغينا في هذه العصور الأخيرة - كالسيد الأفغاني والأستاذ الإمام ورياض باشا - من أصحاب الاستعداد الفطري، وما أتيح له من التوفيق والأسباب العارضة.

ثم بينت أن باحثة البادية لم تصل إلى درجة الطبقة العليا من كتاب العصر، لا شعرائه ولا خطبائه ولا مصنفيه، بل كانت وسطًا في ذلك، وإنما مزيتها التي استحقت بها التأبين هي استقلالها بالمذهب الإصلاحي النسائي الذي وجهت قلبها وعقلها بالدعوة إليه، وأوجزت في بيان مذهبها الذي ذكرته في الترجمة آنفًا، وضاق الوقت عما كنت عازمًا عليه من شرحه شرحًا علميًّا بالطريقة التي رأيت في الترجمة.

ثم أنشدت قصائد الرثاء، مبتدأةً بقصيدة شاعر العرب الشيخ عبد المحسن الكاظمي مختتمةً بقصيدة شاعر النيل محمد حافظ بك إبراهيم، وبينهما قصائد الأساتذة الشيخ أحمد الإسكندري والشيخ مهدي خليل والشيخ أحمد الزين ، والشاعرين الشهيرين محمد أفندي الهلباوي و أحمد أفندي الكاشف، وبعد انتهاء الساعة السادسة انفض الاجتماع، ويطبع كل ما قيل في الحفلة وما كتب في الصحف عقب

الوفاة وعقب التأبين مع ما أرسل إلى لجنة الاحتفال مما لم يتسع الوقت لقراءته، ويجمع في كتاب خاص، فمن عنده شيء منه، فليرسله إلى إدارة مجلة المنار بمصر.

ترجمة[52]

السيد عبد الحميد ابن السيد محمد شاكر[53]

ابن السيد إبراهيم الزهراوي

وُلد هذا الفقيد -رحمه الله تعالى- سنة ألف ومائتين وثمانين وثمانٍ للهجرة الشريفة بمدينة حمص من أسرة كريمة، ينتهي نسبها إلى الإمام الحسين ابن السيدة الطاهرة البتول فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - ولما أتم السادسة من عمره وضعه والده في المكتب فتعلم القراءة والكتابة والحساب واللغة التركية على يد شيخه الشيخ مصطفى الترك، ثم نقله والده إلى المكتب الرشدي بحمص، فأتقن وبرع في دروسه حتى أتمها، ففاق أقرانه وتقدم رفاقه وأترابه، وكان في خلال تحصيله موضع الإعجاب بتؤدته وترويه وحسن خلقه وتحصيله، وبعد إكمال دروسه خرج من المكتب المُومَى إليه حاملاً شهادة التحصيل، وعكف دائبًا على تحصيل العلوم بأنواعها، فقرأ فنون العربية بأقسامها على بعض شيوخ بلده، والفقه الحنفي على أستاذه الشيخ حسن الخوجة، والحديث والتفسير والعقائد على محدث زمانه الشيخ عبد الساتر أفندي الأتاسبي ، ومنه أخذ الإجازة بقراءة الحديث وروايته، وقرأ الأصول والكلام والمعقول على الشيخ عبد الباقي الأفغاني نزيل حمص المتوفى فيها، وكان رحمه الله تعالى يجهد نفسه على التحصيل ومطالعة الكتب المطولة في كل فن حتى بلغ شأوًا قصر عنه أقرانه.

بعد أن أتم دروسه على أساتذته كما تقدم سافر إلى الآستانة سنة 1308 بقصد السياحة، فأقام فيها برهةً وجيزةً، ثم سافر منها إلى مصر محط رحال العلماء، فحل نزيلاً في دار نقيب الأشراف وقتئذ السيد توفيق البكري، وهناك اجتمع بكثير من الفضلاء والأدباء، وجرت بينه وبينهم مطارحات شعرية على البداهة فكان محل إعجاب الجميع، ثم رجع إلى وطنه حمص عن طريق بيروت فالشام.

بعد مكثه في بلده بضعة شهور أصدر جريدةً سماها (المنير) كان ينشر في كل عدد منها مقالات في

الإمامة وشروطها، وينتقد أعمال الحكومة الجائرة منبهًا لها على سوء العاقبة إن دام هذا الجور والعسف[54]، وكان يطبعها على مادة غروية على حسابه ويرسلها مجانًا إلى البلدان بواسطة البريد، لذلك اتصلت أبحاثها بمسامع الحكومة، فكانت تصدر التلغرافات الرمزية إلى المراكز بمنع هذه الجريدة كغيرها مما ينبه الأذهان وينشط الكسلان حسب العادة المألوفة في ذاك الزمان.

وفي سنة 1313 سافر ثانية إلى الآستانة بقصد التجارة، فاتخذ مخزنًا هناك في محل يسمى (سلطان أوطه لر) ولما كان مخلوقًا للعلم والحكمة والإصلاح لا للتجارة، ثقلت عليه أعمال التجارة فتركها وعكف على مطالعة الفنون والعلوم في دور الكتب العمومية، وقلما خلت منها واحدة من مراجعته لأكثر كتبها.

في غضون تلك الأيام طلبه صاحب جريدة (المعلومات) طاهر بك؛ ليكون محررًا لجريدته (المعلومات العربية) فباشر العمل بكل همة ونشاط، فكان يكتب فيها المقالات الأدبية والإصلاحية التي لم يكن يتجرأ أحد في البلاد العثمانية على نشر مثلها مع شدة المراقبة على الجرائد في ذلك الحين[55]، ثم أخذ تحت المراقبة من قِبل السلطان عبد الحميد؛ لأنه زار سفارة إنكلترة هو وإسماعيل كمال بك الألباني الشهير مع آخرين مظهرين ارتياحهم لانتصاره على البوير، فساء السلطان أن ألف وفد سياسي في الآستانة لعمل نفذه ولم يعلم هو به إلا بعد وقوعه، ثم عين إسماعيل كمال واليًا لطرابلس الغرب بقصد إبعاده عن الآستانة إلى حيث لا يستطيع عملاً سياسيًّا، بل حيث يسهل الانتقام منه، فلم يقبل، فاسترضته الحكومة حينئذ فلم ينخدع، فلما أعيتهم الحيل فيه صرفوا النظر عنه، وعُين المترجَم في ذلك الوقت قاضيًا لأحد الألوية فلم يقبل أيضًا، وكان القصد من هذا التعيين كالأول خشية أن تسري كهربائية أفكاره المتنورة إلى غيره.

وبعد أن أوقف تحت المراقبة أربعة أشهر، أرسل إلى دمشق الشام (مأمور إقامة) تحت المراقبة براتب خمسمائة قرش كل شهر.

وفي خلال إقامته بدمشق كتب رسالةً في الإمامة، بين شروطها التي ذكرها الفقهاء والمتكلمون، ورسالةً في الفقه والتصوف نقد فيها بعض المسائل فيهما، وبَحَثَ في الاجتهاد شأن من سبقه في مثل هذا النقد والبحث، فلما اطلع على هذه الرسالة بعض المعاصرين الجامدين، أغروا العامة به زاعمين أنه مخالف للدين، فضج الناس وقتئذ عن غير روية؛ لأنهم أتباع كل ناعق، وكان الوقت عصر جمعة من أيام رمضان[56]، وحشدت العامة من كل فج، فكادوا أن يوقعوا بالمترجَم شرًّا لولا أن تداركته العناية الإلهية، وذلك مما يدل على شجاعته وإخلاص يقينه بربه حيث كان غريبًا وحيدًا عن

عشيرته في بلد غير بلده، وقد أثار بعض المتصفين بصفة العلم هذه الفتنة باسم الانتصار للدين، والله يعلم المفسد من المصلح.

شاع الخبر فبلغ الوالي يومئذ، وهو ناظم باشا، فخشي أن ينالوا منه نيلاً، فحسمًا للفتنة وتخليصًا لصاحب الترجمة من شرهم، وتسكينًا لحميتهم استجلبه محافظةً على حياته وأوقفه (أي: حبسه حبسًا سياسيًّا لا يخل بكرامته) ليقف على حقيقة الأمر، ثم إنه أحضر أولئك المحرضين، وجمعه بهم في مجلس خاص للمباحثة في موضوع الرسالة، وطلب منهم إثبات ما زعموه من أنها مخالفة للدين، فما قامت لهم حجة مقنعة على دعواهم، بل كانت حجته هي الدامغة.

عندما يئسوا من الوصول إليه بالأذى من هذا الطريق، أوحوا إلى الوالي ما لفقوه من الإيحاءات السياسية بحقه حتى ألجأوا الوالي لمراجعة الآستانة في أمره، فجاء الأمر بطلبه إليها، فأرسل محفوظًا عن طريق بيروت (وكانت مدة إقامته بدمشق سنةً وستة أشهر) فبقي في الآستانة تحت الحفظ ستة أشهر، ثم أرسل محفوظًا إلى وطنه حمص (مأمور إقامة) بالراتب المذكور، وكانت إعادته عن طريق ميناء الإسكندرونة فحلب فحماه فحمص.

قضى مدةً عند أهله، فضاق صدره، ففر هاربًا إلى مصر - معهد الحرية - عن طريق طرابلس الشام سنة 1320، وبعد وصوله ببرهة وجيزة رغب إليه صاحب جريدة المؤيد أن يكون محررًا فيها، فاستلم الوظيفة وكتب ما كتب فيها من المقالات المفيدة، ثم ألف بعض كبراء القطر المصري حزبًا سموه حزب الأمة، وأنشأوا جريدةً له سموها (الجريدة) فدعوه إلى التحرير والتنقيح فيها، فلبى طلبهم وداوم على عمله حتى حصل الانقلاب العثماني وأُعلن الدستور، فطلبه إخوانه بحمص ليكون نائبًا عنهم في مجلس النواب (المبعوثين) فأجابهم حبًّا بخدمة الأمة والوطن، فانتخب هو وخالد أفندي البرازي مبعوثين من لواء حماة، فذهب إلى الآستانة فكان صوته في المجلس من أعلى الأصوات وأقواها في إقامة الحجة وإيضاح المحجة.

(لها بقية)

((يتبع بمقال تالٍ))

السيد الزهراوي[57]

تتمة ترجمته

بقلم صديقه الشيخ أحمد نبهان الحمصي

في أول سنة من مبعوثيته وقعت حادثة 31 مارث الشهيرة، فحوصر المجلس من قِبل العسكر بحجة الارتجاع عن الدستور، وهددوا المبعوثين بالرصاص حتى إنه قتل أحدهم (محمد بك أرسلان) مبعوث اللاذقية رميًا بالرصاص في باب المجلس، ومنهم من رمى نفسه من أحد النوافذ العالية حتى تحطم خوفًا على نفسه من القتل، وفر كثير من المبعوثين حفظًا لحياتهم، وبقي المترجم -رحمه الله تعالى- مع بضعة أشخاص ثابتي الجأش، غير مبالين بتلك القوة الهائلة التي تهددهم، وهم يخابرون المراكز بالتلفون ويذكرون الوقعة وما هم فيه، حتى كادت تلك القوة أن تقضي على بقية المبعوثين، ثم خرج المترجم يخترق صفوف العساكر بلا اكتراث، حتى وصل إلى منزله وانفض الجمع.

هذا الثبات في مثل هذا الموقف الحرج مما يدل على شجاعته وقوة يقينه.

على أثر هذه الحادثة التي شاع خبرها حتى بلغ الروملي مكبرًا ، زحف محمود شوكت بجيوشه ليضرب الآستانة؛ لحماية الدستور، ولينكل بالارتجاعيين وينتقم ممن أثاروا هذه الفتنة، فأرسلت الحكومة إذ ذاك هيئةً مؤلفةً من الأعيان والمبعوثين لمقابلة الباشا وإبلاغه حقيقة الحال، فكان صاحب الترجمة من أعضاء تلك الهيئة الموقرة، فاستقبلوه في (إياستفانوس) من ضواحي الآستانة، وأوقفوه على جلية الخبر الشائع، ولطفوه في سمعه حتى سكت غضبه وسكن جأشه ودخل بغير إزعاج لأحد.

وفي أثناء تلك المدة - أعني الدورة الأولى لمجلس المبعوثين - أصدر المترجم جريدةً عربيةً في الآستانة، سماها (الحضارة) بشركة شاكر بك الحنبلي ، ثم انسحب هذا الأخير منها إذ تعين متصرفًا

للواء عكا بعد إنذار الحكومة له.

وكان السبب في إنشاء تلك الجريدة أنه لما بلغ الاتحاديون ما بلغوا من الأثرة والاستبداد وتسميم الأفكار بالجرائد التي أنشأوها لبث أفكارهم السوءى، وتصويرهم المحال بصورة الحقائق - تأسس الحزب الحر المعتدل لمعارضتهم، وكان معظم مؤسسيه من مبعوثي العرب، وحزب الائتلاف وكان معظم مؤسسيه من الترك، ثم امتزج الحزبان باسم حزب الحرية والائتلاف، وكان المترجَم من مؤسسي الحزبين المذكورين لمعارضة حزب الاتحاد والترقي، فأصدر جريدته (الحضارة) باللغة العربية للمحافظة على مبدئه الثابت، وهو الاعتدال المحض حتى كان رفاقه يلومونه لشدة هذا الاعتدال والتروى، وحتى إن كبار الاتحاديين كانوا يعجبون من اعتداله مع معارضته لرأيهم، وكان كثير منهم يقول: ليت جميع المعارضن مثل هذا الحر المعتدل. * والفضل ما شهدت به الأعداء *

وفي أثناء تلك المدة أيضًا وقع اضطراب واختلال في الروملي، فعينت الحكومة يومئذ لجنةً من الأعيان والمبعوثين للكشف عن أحوال تلك البلاد، وكان المترجم -رحمه الله- من أعضاء تلك اللجنة.

وفي أثناء مدته نشبت الحرب في طرابلس الغرب ، فصعد المترجم منبر الخطابة في المجلس وهيج الخواطر وحرك السواكن ثم أجهش في البكاء، فقال له بعض الحاضرين من المبعوثين: لا تبكِ فإننا سنستردها، فقال: أنا لا أبكي على طرابلس الغرب، ولكنني أبكي على الروملي وسورية والحجاز والعراق.

من تأمل هذه الجملة الجوابية منه يعلم أنه قد لمح من وراء حجب الغيب ما سيكون في المستقبل استنباطًا حدسيًّا من سوء تدبير من بيدهم الحل والعقد، وقد اتفق مثل هذا لغيره من أصحاب الروية، والحدس، فوقع ما توقعوه، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

في مدة إقامته في الآستانة سواء كان مبعوثًا أو لم يكن، كان بيته مجمع الفضلاء والأدباء على اختلاف لغاتهم، والكبراء مع تفاوت رتبهم، يستمدون من آرائه السديدة، عرف هذا من شاهده بالعيان حتى كانت جلساته على مراتب، لكل فريق وقت يقضيه، فيأتي فريق آخر حتى تنقضي الساعة السابعة بل الثامنة من الليل.

وكان مع كل هذا لا يأخذه ملل ولا ضجر ولا سآمة مما يدل على سعة صدره، وحسن مجلسه.

في أواخر هذه الدورة للمجلس حصلت مناقشة بشأن المادة 35 من القانون الأساسي، ووقع الخلاف الشديد حتى آل الأمر إلى فض المجلس وتجديد الانتخاب ثانيةً، فعاد المترجم -رحمه الله تعالى- إلى

وطنه وزيارة أهله وذويه، فأوحت الحكومة الاتحادية إلى جميع المراكز، وأوعزت للحكومات أن يكون انتخاب المبعوثين ممن لا يخالف رأيهم، وكانت تواصل التلغرافات والمندوبين للمراكز بالوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، ولهذه الأحوال وشدة الضغط ما تمكن الأهالي من انتخاب المترجم؛ لأن حريتهم سلبت حتى امتنع كثير من التصويت.

على أثر ذلك سافر إلى الآستانة للقيام بأشغال الجريدة، فانعقد المجلس من مبعوثين صار تعيينهم من قِبل الاتحاديين في الباطن، وإن كان في الظاهر بالانتخاب.

ثم تغلب حزب الائتلاف على حزب الاتحاد وتشكلت الوزارة، ففضوا ذلك المجلس الجديد، فعاد المترجَم إلى وطنه، فوقعت حرب البلقان، فصرف النظر عن الانتخاب إلى أن تضع الحرب أوزارها.

في ذلك الأوان سافر إلى مصر فانتخب من حزب اللامركزية المؤلف هناك رئيسًا للمؤتمر الذي انعقد في باريس؛ لأجل مطالبة الحكومة التركية بإصلاح بلاد العرب وإعطاء هذه الأمة المهضومة حقها القانوني المهضوم، وقد طبعت مقررات المؤتمر والخطب التي ألقيت فيه، فلا حاجة إلى بيان ذلك.

وفي أثناء إقامته في باريس كان محل إعجاب الجميع في اعتداله، فإذا طالعت تلك المقررات المطبوعة، وتلوت ما فاه به -رحمه الله- حكمت له بذلك الاعتدال، وبأن ذلك الإعجاب به كان بحق، وحسبك شهادة الأجانب، فإن جريدتي الماتان والطان - وهما من أكبر الصحف الفرنسية وأشهرها - قالتا كما نقلته الجرائد المصرية والسورية في ذلك الحين: (إن السيد عبد الحميد أفندي الزهراوي كان للمؤتمر بمثابة الدماغ من الجسد) وذلك بمناسبة ترؤسه للمؤتمر وحسن إدارته له.

وكان مدة إقامته في باريس موضع التبجيل والاحترام، واجتمع بالمسيو بيشرن ناظر خارجية فرنسة في مقر النظارة، فأعجب به غاية الإعجاب وأنزله منزلة الإكرام.

بعد إتمام وظيفة المؤتمر انفض أعضاؤه وبقي المترجَم -رحمه الله تعالى- هناك مع نفر من رفاقه، مطالبين بالإصلاح العربي، فاضطرت الحكومة الاتحادية للتحيل على جلبهم، فأرسلت مِن قِبلها مدحت باشا شكري البك، الكاتب العمومي لمركز الاتحاديين، والمرحوم عبد الكريم الخليل للسعي لإرضائهم ورجائهم؛ خدعةً ومكرًا منها، فعادا بالخيبة وما نالا غايةً ولا مقصدًا، فأعادوهما ثانيةً وأذنوا لهما بوعد جماعة المؤتمر بإجابتهم إلى ما يلزم من الإصلاحات للبلاد العربية، فوعدا وأقسما بالأيمان على ذلك، فحضر عندها المترجَم إلى الآستانة اعتمادًا على أيمانهم الكاذبة المبنية على

الخداع والمكر، وعين عضوًا في مجلس الأعيان ليشرف على إنجاز وعدهم، فبقي ينتظر تلك المواعيد الفارغة (وناهيك بمهارة الأتراك بالمواعيد) إلى أن نشبت الحرب العامة بسوء تدبير الرؤساء الذين أهلكوا الحرث والنسل، وضيعوا ذلك الملك العظيم من أيديهم، وكان من لوازم ذلك إعلان الإدارة العرفية في البلاد، فجعل جمال باشا قائدًا عامًّا في سورية بصلاحية واسعة لتنفيذ أوامر الجمعية الخادعة بالإصلاح الذي كانت تنويه، وهو الانتقام من مُتنوري أبناء العرب ونابغيهم، واتخذوا الحرب فرصة لتنفيذ ما تكنه صدورهم من الضغائن على هذا الجنس الشريف.
صلب المترجم بدمشق الشام مع جملة من وجهاء البلاد السورية بلا محاكمة ولا سؤال عن شيء، وذلك ليلة السبت رجب سنة 1334 هجرية ، و23 نيسان سنة 1916 ميلادية، وكان لسان حاله يقول:

يا جزع نح وابك واندب جثة خلقت *** من يوم (قالوا بلى) للضنك والمحن

وحي أهلاً وجيرانًا وآونةً *** حي الرفاق وحي سائر الوطن

حبًّا بصالحهم أصبحت فديتهم *** ليقطفوا ثمرًا من راحتي جني

***

صفاته -رحمه الله-

كان مستجمعًا لصفات الكمال، وقورًا، ذا ذهن حاد وفكرة واسعة وذاكرة عجيبة، يتوقد ذكاءً، وملامحه أكبر دليل على ذلك، واسع الصدر سليمه، لين الجانب، بطيء الغضب، لا يقابل أحدًا بمكروه، لا يمل من جليسه كيف ما كان، ولا جليسه من محادثته، يعاشر كل إنسان على قدر علمه، أكثر أحاديثه في مجالسه بما يعود بالفائدة، لا يستغيب أحدًا، ولا يحب أن يُغتاب أحد بحضوره، قليل الكلام الفارغ، كثير التفكر، أبي النفس، شجاعًا، شديد الصبر على الشدائد، قوي اليقين بربه تعالى، كريم الخلق، جميل الخلق والهيئة، يحبه من يراه لأول وهلة، عفيف النفس، لا يبالي بزخارف الدنيا، بعيد عن الكلف، شديد البحث والتدقيق في المسائل، يتتبع الأدلة والمستندات، وقافًا عند الحق، يحب أن تكون الحجة مع غيره ما أمكن، معتدلاً في شؤونه كلها، متمسكًا بمبادئه، محافظًا عليها، عرف ذلك منه كل من عاشره حق المعاشرة.

***

مكتوباته -رحمه الله-

كتب في مواضيع عديدة كلها فوائد، منها ما حوته جريدته (الحضارة) التي أصدرها في الآستانة ثلاث سنين، ومنها مقالات في التربية كان ينشرها في جريدة (ثمرات الفنون) البيروتية قبل إعلان الدستور، ومنها ما نشرته المؤيد، والمعلومات العربية، والجريدة، والمنبر، وخلافها من الجرائد المصرية والسورية، وكتب في مجلة المنار عدة مقالات، وله كتاب (نظام الحب والبغض) نشر منه في المنار عدة فصول، وما أكمله لموانع سياسية، ومنها رسالة في الفقه والتصوف، وهي التي نوهنا بها قبلاً، وأخرى في الإمامة، ورسالة ترجمة السيدة خديجة، سلك فيها مسلكًا غريبًا لطيفًا، أبدع فيه كل الإبداع، وأتى بكل ما يستطاع، من طالعها حق المطالعة يقف على مقدرة هذا المترجم واطلاعه وسلامة ذهنه وسلامة قلمه ودقة فكره ونزاهة سره، ولا سيما الأبحاث الأخيرة منها، وقد طبعت بمطبعة المنار، وكانت نيته أن يجعلها الحلقة الأولى لسلسلة تاريخية، فحالت دون ذلك أشغال قامت مانعًا عن إخراج هذا الفكر إلى حيز الوجود، ومنها رسالة في النحو، وأخرى في المنطق، وغيرها في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع، وكتاب في الفقه بأسلوب قريب المأخذ سهل العبارة يدعم مسائله بالأدلة الدامغة[58]، وله محاضرات كان يلقيها في بيروت وحمص أيام ذهابه إلى الآستانة وعودته منها.

وله مكتوبات غير ما ذكر، بقيت مسودةً بخطه، اغتالتها أيدي الأتراك عندما أرسل من الآستانة إلى (عاليه) مركز الديوان العرفي الذي أسسه جمال باشا المخذول.

وله شعر لطيف في كل باب من أبواب الشعر، ومساجلات مع بعض أصحابه، ومراسلات كلها رقاق.

من ألطف شعره، القصيدة العصماء في موضوعها وحسن أسلوبها ورقة معناها، وقد أثبتُّها برمتها ليقف المطالع على رسوخ قدمه -رحمه الله تعالى- وبعد أفكاره وحسن يقينه واعتقاده، وهي هذه:

لا تكذبنا يا بصر *** لا تخدعينا يا فكر

إن الحقائق تحت طي النـ *** ـشر فوق المنتظر

لكن برؤيتها دعاوي النـ *** ـاس تعبي من حصر

وسوى سراب لم يروا *** والآل كم غر النظر

أنى التصور يا حجا *** للسر في هذي الصور

الكون مبني على الـ *** ـحركات كل في قدر

مجموع ذر يقتضي *** كل لها ضم الأخر

والأرض تجمعنا فنحـ *** ـسب أنها إحدى الكبر

والشمس تعربنا لنا *** فنظنها المعنى الأغر

صور تغيّر لا نعي *** صفةً لها غير الغير

ويجل مصدر أمرها *** عن أن تحيط به الفكر

هو مصدر بوجوده *** تقضي اشتقاقات الأثر

وتحيرت في ذاته *** وصفاته فطن غرر

والخبرة المثلى التبا *** عد عن دعاوٍ للخبر

كم مدّعٍ لمعارف *** علياء عرف بالنكر

ما أنت يا إنسان هل *** تدري دماغك لم شعر

أفأنت تدرك مَن جميـ *** ـع الكون عنه قد ظهر

لم ذي الدعاوي يا فتى *** أأحاط منك به البصر

أأحاط منك به الحجى *** خُبرًا كما هو فانسبر

أعرفت من قبل المؤثـ *** ـر كل تفصيل الأثر

أعرفت هذا الفضا *** ء وما به من كل ذر

دع عنك دعوى واستمع *** قولاً مفيدًا مختصر

الناس عثّر في الغرو *** ر ولاجئون إلى الغرر

ويرى بنو الإنسان أنـ *** ـهمو خلاصة ما فطر

دعوى بها يسلون ما *** يلقون من تعب وضر

فهمو رهان الكدح ما *** داموا وتلك هي السير

ذو الحال نائب من مضى *** والعمر جملته خبر

سيان ذي الأنعام في *** حاج الحياة وذا البشر

فتسل فيما اسطعت أن *** فكرت فيما قد حضر

واعبر على المقياس من *** ماض إلى ما ينتظر

واعلم بأن المفلحيـ *** ـن بذي الحياة أولو العبر

والكون ظرف جواهر *** والسر فيه ما ظهر

الشيخ محمد كامل الرافعي[59]

(1)

في أواخر العام الماضي فجعت طرابلس الشام، وهي غارقة مع سائر البلاد السورية في طوفان مصائبها بوفاة أفضل علمائها وأعلم فضلائها، مَثَل الفضيلة والإخلاص الأعلى في هذا العصر، وذكرى السلف الصالح في ذلك المصر، أصدق أصدقائنا وأخلص أوليائنا الشيخ محمد كامل ابن الشيخ عبد الغني الرافعي الطرابلسي الشهير.
ولد الفقيد في طرابلس الشام سنة 1272 أو 1270 ، ولما بلغ سن التمييز أقرئ القرآن الكريم وتعلم مبادئ الخط والحساب في أحد مكاتب الصبيان، ثم دخل المكتب الرشدي العثماني، أي: المدرسة الابتدائية الرسمية للحكومة، فتعلم فيها مبادئ اللغة التركية وما يدرس بها من مبادئ الفنون الرياضية وغيرها، ومنه النحو والصرف للغتين العربية والتركية، وعلم الحال وهو عبارة عن العقائد والعبادات الدينية والآداب، ثم تلقى العلوم العربية والدينية على أعلم علماء العصر الذين بذت طرابلس بهم كل مصر: والده والشيخ محمود نشابه والشيخ حسن الجسر، فقد كان وجود هؤلاء في طرابلس مصدقًا لقول المتنبي :

أكارم حسد الأرض السماء بهم *** وقصرت كل مصر عن طرابلس

ولما كانت الرحلة في طلب العلم مزيد كمال في التعليم - كما قال الحكيم ابن خلدون - لما فيها من حفز الهمة والانقطاع إليه بمفارقة الأهل والأحبة، وكان حب عشيرة الرافعية للأزهر وتعلقهم به يفوق ما يعرف من ذلك عند غيرهم من أهل طرابلس وغيرها من البلاد الإسلامية؛ لأن الرافعي الذي يرحل من طرابلس إلى مصر لا يشعر كغيره بمفارقة وطن ولا بغربة عن الأهل والسكن، لأن أكثر عشيرته يقيمون في مصر، فهو في الهجرة المؤقتة إليها يجمع بين فوائد الغربة وأنس القرابة والقربة - رحل الفقيد إلى مصر في سنة 1297 وجاور في الأزهر سنين لم أقف على

عددها، وكان أشهر شيوخه فيه، كبير الرافعية وأفقه فقهاء الحنفية: الشيخ عبد القادر الرافعي، والشيخ محمد الشربيني الشافعي الشهير الذي أدركنا الناس أخيرًا يضعونه في الذروة من علماء الأزهر في كل علم وفن يدرس فيه، وفي المحافظة على أخلاق علماء الدين، والشيخ عبد الهادي الإبياري الشافعي الشهير بالجمع بين العلوم الدينية والتفنن في أدبيات اللغة العربية، والشيخ أحمد الرفاعي المالكي الشهير الذي كان خير مزية له أنه كان آخر من قرأ جميع كتب السنة الستة في الأزهر.

وهؤلاء الشيوخ الكبار لم يكونوا يفوقون شيوخه الثلاثة في طرابلس في علم من العلوم ولا فن من الفنون، ولا في أخلاق الدين وفضائله إلا أن يكون ما اشتهر عن الشيخ عبد القادر الرافعي من سعة الاطلاع والتحقيق في فقه الحنفية.

وإننا نقدم على ترجمة الفقيد تعريفًا وجيزًا بشيوخه الثلاثة في طرابلس؛ لأننا رأينا لكل منهم أثرًا واضحًا في سيرته العلمية والعملية والأدبية.

***

الشيخ محمود نشابه

أما الشيخ محمود نشابه فقد أقام في الأزهر زهاء ثلاثين سنةً، طالبًا ومدرسًا وأتقن جميع ما يدرس فيه حتى علم الجبر والمقابلة الذي هُجر بعد عهده، ثم قضى بقية عمره المبارك في طرابلس في تدريس تلك العلوم، فتخرج به كثيرون، وكان شيخ الشافعية والحنفية جميعًا، وقلما أتقن أحد فقه المذهبين مثله، وقد أدركته في أوائل الطلب وقرأت عليه الأربعين النووية، وأجازني بها قبل الشروع في طلب العلوم، ثم كنت أحضر درسه لشرح البخاري في الجامع الكبير وأقرأ عليه صحيح مسلم وشرح المنهج بداره، وحضرت عليه طائفة من شرح التحرير، وهو في فقه الشافعية كالمنهج، وما عرفت قيمته وتفوقه على جميع من لقيت من علماء الإسلام في علومه إلا بقراءة صحيح مسلم عليه، فإنني كنت أقرأ عليه المتن فيضبط لي الرواية أصح الضبط من غير مراجعة ولا نظر في شرح، وأسأله عن كل ما يشكل علي من مسائل الرواية والدراية، فيجيبني عنها أصح جواب، وكنت أراجع بعض تلك المسائل بعد الدرس في شرح مسلم وغيره، ولا أذكر أنني عثرت له على خطأ في شيء منها، وكان إذا راجعه بعض تلاميذه أو غيرهم في غلط وقع فيه، يقبله بدون أدنى امتعاض لِما تحلَّى به من الإنصاف والتواضع وغيرهما من الأخلاق المحمدية.

أعطاني شرحه للبيقونية في مصطلح الحديث بخطه، فرأيته استعمل في فاتحته لفظ الفالح بمعنى المفلح، فراجعته فيه فأمرني أن أصلحه وأصلح كل خطأ من قبيله، ورأيته ارتاح لذلك وسُر به.
وكانت معيشته معيشة الزهاد لا يبالي بزينة الدنيا ولا زخرفها، ولا يحفل بحكامها وكبرائها، كان في طرابلس متصرف من أهل العلم، اسمه عارف باشا، وكان يزوره علماؤها إلا الشيخ، فذهب المتصرف لزيارته في داره فرده عن الباب ولم يأذن له بالدخول.
خرجت مرةً معه للرياضة في ضواحي البلد فما كدنا نحاذي دار الحكومة بجوار تل الرمل حتى تعب الشيخ، فالتفت إلي وقال: يا سيد رشيد أعندك كِبر ؟ قلت: أرجو أن لا يكون عندي كِبر، قال: إذًا اقعد معي على الأرض هنا لنستريح، فقعدنا بجانب الطريق.

وقد رثيته بقصيدة، أذكر منها هذه الأبيات للدلالة على ما كان له من المكانة في نفسي وقتئذ مع القول بأن هذه المكانة لم تتغير إلى اليوم:

شيخ الشيوخ إمام العصر أوحده *** ووارث المصطفى فينا ونائبه

فلك الطريقة أو در الحقيقة في *** يم الشريعة راسيه وراسبه

ومرجع الكل في حمل النصوص وفي *** حل العويص إذا أعيت مصاعبه

رب الحقائق مكشاف الدقائق محـ *** ـمود الخلائق مَن جلَّت مواهبه

من حلقت هامة الأفلاك همته *** وزاحمت منكب الجوزا مناكبه

من لا تُحدّ بتعريفٍ معارفه *** وليس تحصى بتنقيب مناقبه

من كان عن خشية الله منكسرًا *** ولان عن رفعة للناس جانبه

من أحيت السنة الغرا مآثره *** وأفنت البدعة السودا قواضبه

وما قواضبه إلا يراعته *** والكتب كم ألفت منها كتائبه

ومنها:

خطب أصاب فؤاد الشرق فانفطرت *** مرارة الكون وارتاعت مغاربه

قد مزق الإفك العلمي أطلسه *** ومن مكوكبه انقضت كواكبه

ومنهج العلم أمسى اليوم مسلكه *** وعرًا تجوب مجاهيلاً جوائبه

وصدر (شرح البخاري) ضاق فيه وكم *** قامت على (مسلم) تبكي نوادبه

لئن بكى تابعو النعمان مذهبه *** فالدين من بعده ضاقت مذاهبه

هذا (ابن إدريس) بعد الشيخ قد درست *** دروس مذهبه وارتاع طالبه

ومنها:

لله مثوًى ببطن الأرض مد به *** بحر تفيض بلا جزر ثوائبه[60]

مثوى حوى منه ذا فضل لقد حسدت *** ترابه من أخي العليا ترائبه

مثوى لقد حفظ الثأر الأثير على *** ثراه إذا ظفرت فيه رغائبه

لئن دفنًا به شخص الكمال ضحى *** فالروح طارت إلى عدن نجائبه

***

الشيخ عبد الغني الرافعي

وأما والد الفقيد الشيخ عبد الغني الرافعي فقد حصل العلوم والفنون الدينية واللغوية في طرابلس ودمشق الشام ، وأشهر شيوخه في طرابلس الشيخ نجيب الزعبي الجيلاني، ولا أعرف شيوخه في دمشق، ومن المعروف المشهور أنه كان فيها يومئذ نفر من أكبر علماء الإسلام في العالم، وكان الشيخ لوذعي الذكاء، يُحصِّل في سنة ما لا يُحصِّله الأكثرون في سنين، وقد امتاز بين فقهاء عصره بالجمع بين النبوغ في علوم الشرع والتصوف والأدب، فكان فقيهًا مدققًا، وصوفيًّا مصفًّى، وأديبًا شاعرًا ناثرًا، وله في كل ذلك ذوق خاص.

سلك طريق الصوفية على الشيخ رشيد الميقاتي الشهير سلوكًا صحيحًا بالرياضة الشديدة ومداومة الذكر حتى رأى من الأسرار والعجائب الروحية ما لا محل لذكر شيء منه في هذا التعريف

الاستطرادي، وكان عالي الهمة قوي العناية شديد المواظبة فيما يأخذ فيه من علم أو عمل، على غير المعهود من أكثر مفرطي الذكاء أمثاله، سمعت منه أنه قرأ كتاب (أدب الدنيا والدين) ثلاثين مرةً، وقرأ إحياء العلوم للغزالي مرارًا كثيرةً، لا أذكر عنه عددها.

أدركناه في شيخوخته قوي الجسم والعقل والذاكرة، وكان جميل الصورة كأن وجهه ورد يحيط به الياسمين من شيبته الناصعة، وكان يلبس أحسن الملابس ويأكل أطيب المآكل، ويسكن دارًا مزينةً بالنقش والأثاث الجميل، وتزوج في شيخوخته بكرًا رزق منها أولادًا، وكان يُرى في سن السبعين أنه لم يفقد من مزايا الشباب شيئًا، ولم يشغله رخاء العيش عن اشتغال القلب واللسان بذكر الله ومذاكرة العلم.

وَلِيَ إفتاء طرابلس وهو أعلى منصب لرجال العلم في عرف الدولة العثمانية، وولي القضاء لولاية اليمن، ولم يكن في مكانه من الرياسة والجاه يمتنع من وضع يده بيد رجل فقير يلبس الأسمال البالية، ويمشي معه في السوق إذا كان له مزيةً من علم أو صلاح؛ إذ كانت أخلاقه أخلاق كبار الصوفية، ومظهره مظهر كبار رجال الدنيا، ولكنه ما كان ليجلس بجانب الطريق العام على التراب أمام دار الحكومة كما فعل الشيخ محمود نشابه.

أذكر مما سمعت من أخبار تصوفه أنه سافر من بلده - وهو في مقام التوكل - ولم يكن معه شيء من الدراهم، فيسر الله الأمر ورزقه من حيث لا يحتسب.

ومن أخبار أدبه أنه لما سافر إلى الآستانة، لقي في الباخرة بعض رجال العلم والأدب، فلما عرف الرجل فضله قال له:

فيم اقتحامك لج البحر تركبه *** وأنت تكفيك منه جرعة الوشل

فأجابه على الفور ببيت من هذه القصيدة (المعروفة بلامية العجم):

أريد بسطة كف أستعين بها على *** قضاء حقوق للعلى قِبلي

ولما لم يعرف له رجال الآستانة قيمته أراد التحول عنها إلى مصر، فأرسل إلى الشيخ عبد الهادي نجا الإبياري رسالة برقية يتوسل بها إلى توفيق باشا عزيز مصر في ذلك العهد، وهي هذان البيتان :

قالت لي النفس الأبية مذ رأت *** في الروم ضاع اسمي وضل رشادي

سر بي لدار الفضل مصر لعله *** يهديك للتوفيق عبد الهادي

وأذكر مما رأيت من إنصافه وتواضعه أنه كان عندما يزورنا في القلمون يعهد إلي أن أقرأ عليه شيئًا من إحياء العلوم؛ لأنني كنت مولعًا بمطالعته من قبل الشروع في طلب العلم، فانتهيت في القراءة مرةً إلى فصل في الحاكايات التي يذكرها أبو حامد الغزالي -رحمه الله تعالى- في بعض الأبواب، كحكايات المتوكلين والأسخياء، فاستوقفني الشيخ وقال: إنني مستغرب لحشو المصنف - قدس سره - هذه الحكايات في هذا الكتاب، وكله علم وتحقيق لولا هذه الحكايات ! قلت: إنني أرى هذه الحكايات من أهم مقاصد الكتاب، فإنه كتاب تربية، وإنما تتم التربية بالتأسي والقدوة، فالترغيب في السخاء بالآثار المروية والحِكم المعقولة لا يبلغ تأثيره وحده ما يبلغه ما نرى في هذا الكتاب وغيره، من ذكر حكايات الأجواد من السلف، وإنما كمال التربية في الجمع بين الترغيب بالقول والقدوة بالفعل، فقال لي: أعيذك بالواحد * من شر كل حاسد * إنني أقرأ هذا الكتاب من قبل أن تُخلَق، وقد قرأته مرارًا وأنا أفكر في هذه المسألة وأنتقدها على المؤلف، ولم يخطر في بالي هذا الغرض الواضح الذي لا شك أنه كان يرمي إليه، رضي الله عنه.

ولم يكتف الشيخ - قدس الله روحه - بهذا الثناء بل كان يذكر هذا الجواب في كل مجلس من مجالسه العلمية والأدبية عقبه، ويقول لمجالسيه وأكثرهم من تلاميذه ومريديه: إنني كنت مستشكلاً هذه المسألة منذ عشرات من السنين، وقد حلها لي هذا الغلام النابغ النابه على البداهة، أو ما هذا معناه بالاختصار.

وقد استفاد من إقامته في اليمن فوائد عظيمةً، منها أن مذاكراته ومناظراته لعلماء الزيدية - مع ما علمت من إنصافه - قوى في نفسه ملكة الاستقلال في فهم الدين وفقه الحديث، عرف سيرة الإمام الشوكاني فاقتنى كتابه (نيل الأوطال وشرح منتقى الأخبار) ولما عاد إلى طرابلس كان يقرأه درسًا للنابغين المنتبهين من طلاب العلم، كنجله الشيخ محمد كامل المترجَم، وقد حضرت بعض هذه الدروس، ولكنني كنت مبتدئًا لا أفهم شيئًا من الاصطلاحات الأصولية والحديثية فيه، وإنما كان يسمح لي بحضورها ما كان لي من الكرامة الشخصية عند الشيخ وأهل بيته بموادتهم مع والدي وأهل بيتنا، ومن أعجب ما سمعناه منه عن أهل اليمن أنه لم يتفق له في مدة توليه القضاء فيهم أن سمع من أحد منهم شهادة زور أو كذبًا على الحاكم أو الخصوم، بل كانوا يقولون له: أتحكم بالشرع يا عبد الغني ؟ فيقول: نعم، فيصْدُقونه في شرح منازعاتهم.

توفي حاجًّا بمكة ، فرثيته بقصيدة.
مطلعها:

طوبى لمن بجوار الله قد نزلا *** وقد أعد له جناته نزلا

ويا هنيئًا لمن أسقاه سيده *** في معهد القرب من كأس الشهود طلا

ومنها:

نعم لقد مات علم لدين الله وانكسفت *** شمس الرشاد، وبدر الهُدى قد أفلا

نعم لقد قبضت روح التصوف ولا *** نصاف منا وجيد الفقه قد عطلا

نعم قد اخترم التبيين واحتكم التلو *** ين واصطلم التمكن مرتحلا

ومنها:

لئن بكاه بنا علم اليقين فقد *** قرت به عينه مذ كأسها نهلا

وإن غدا فيه كل الفضل مجتمعًا *** فقد تفرق في أبنائه النبلا

فللمعارف والإرشاد كالمهم *** من حالف العلم فيه الهدى والعملا

وفي البلاغة كم (عبد الحميد) سما *** وللتحدي بها آي البيان تلا

***

المقارنة بين الشيخين

أختم هذا التعريف المختصر بالشيخين اللذين انتهت إليهما الرياسة العلمية في وطننا بمقابلة وجيزة بينهما، فأقول: إن الشيخ نشابه كان أوسع من الشيخ الرافعي اطلاعًا ومعرفةً لما عدا التصوف والأدب من العلوم المعقولة والمنقولة، وكان واقفًا عليها تمام الوقوف بفهم تام لكل ما قرأه من الكتب في الأزهر وغيره كتفسير البيضاوي وغيره، وشروح كتب السنة وكتب الأصول والفقه وفنون العربية إلخ، ولكنه كان مقلدًا في المسائل وأدلتها غالبًا، قلما يفكر في استعمال فهمه في انتقاد

المعتمد في تلك الكتب، فكان لهذه العلوم والفنون كحُفاظ الحديث غير المستنبطين، ويا لها من مزية قلما تجد الآن أحدًا من رجالها، وكانت عبادته كعبادة السلف، وهي النوافل المأثورة وكثرة تلاوة القرآن، وأما الشيخ الرافعي فكان ـ على ما امتاز به من علوم الأخلاق والتصوف والأدب ـ فقيه النفس مستقل الفكر، إذا ظهر له رجحان مذهب الزيدية مثلاً على مذهب الحنفية الذي نشأ عليه تحصيلاً وعملاً وإفتاءً وقضاءً ـ لا يمتنع من القول بترجيحه.

وقد كان بين الشيخين شيء من تغاير المعاصرة في سن الشباب لانتهاء الرياسة العلمية إليهما، ولكن علو أخلاقهما وقف بهما دون التنافس الذي يجر عادةً إلى التحاسد والطعن، ومما وقع بينهما من المناظرة أن الشيخ عبد الغني -رحمه الله- استخرج من قوله تعالى: [سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا](البقرة: 32) مئة سؤال، وجاء مجلس الشيخ محمود نشابه إذ كان يقرأ تفسير هذه الآية في البيضاوي درسًا، وشرع يلقي عليه سؤالاً بعد سؤال، وهو يجيبه غير مكترث ولا شاعر بأنه مناظر مختبر، فلما كثرت الأسئلة تنبه، فأطبق الكتاب ووضع يديه على صدره، والتفت إلى السائل وقال: أتريد أن تسأل يا عبد الغني ؟ اسأل هيه، اسأل هيه، فما زال السائل حتى فرغ مما عنده، ولم يعجز المسئول، ولا توقف في سؤال من تلك الأسئلة.

***

الشيخ حسين الجسر

وأما الشيخ حسين الجسر فقد حصل العلوم في طرابلس، وأكبر شيوخه فيها الشيخ محمود نشابه، وجاور في الأزهر بضع سنين، ومن أشهر شيوخه فيه الشيخ المرصفي الشهير، وقد امتاز بين علماء الدين بالنظر في العلوم والفنون التي يسمونها العصرية، وبقراءة الجرائد السياسية والمجلات العلمية، فكان لذلك يرغب في جعل طلاب العلوم الدينية جامعين بينها وبين الإلمام بتلك العلوم والفنون، فسعى لحمل بعض الأغنياء على إنشاء مدرسة دينية نظامية تعلم فيها بعض الرياضيات والطبيعيات على الطريقة الأوربية، واللغتان التركية والفرنسية، فأنشئت (المدرسة الوطنية) وكان هو مديرها، وقد دخل كاتب هذه السطور في القسم الداخلي منها سنة 1329 أو 1330 ، فكان ذلك أول العهد بطلبه للعلم بعد أن تعلم القراءة والخط في مكتب الصبيان بالقلمون، وطالع بعض كتب الأدب والتاريخ والتصوف منفردًا، ولكن لم يطل عمر المدرسة، فإن الحكومة

التركية لم تقبل جعلها من المدارس الدينية التي يعفى طلابها من الخدمة العسكرية، وأصر مديرها - الشيخ رحمه الله تعالى - على إقفالها إن لم تعترف بها، فأقفلت وطلب للتدريس في المدرسة السلطانية ببيروت ، فأقام فيها مدةً قصيرةً ثم عاد إلى طرابلس وواظب على التدريس لطلاب العلوم الدينية في المدرسة الرجبية وفي داره، وواظبنا على حضور تلك الدروس حتى تخرجنا بها وأخذنا الإجازة بالتدريس والتعليم منه سنة 1315 رحمه الله تعالى، وجزاه عنا خيرًا.

وكانت طريقته في التدريس أن يوجه كل همه إلى حل المسائل بسهولة وعبارة سهلة يفهمها الطالب، ولم ندرك زمن تلقي المترجم عنه، ولكننا سمعنا منه أنه قرأ كتاب امتحان الأذكياء، وأن الشيخ محمد كامل الرافعي كان يقول: إننا عندما نسمع العبارة من الأستاذ نفهمها ونرى أنها ظاهرة، فإذا أردنا بيانها بعد الدرس تعذر ذلك علينا ورأيناها مغلقةً.

ولشيخنا الجسر مؤلفات مطبوعة مشهورة أشهرها (الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية، وحقيقة الشريعة المحمدية) التي بين فيها عقائد الإسلام وأركان عباداته وأهم معاملاته الاجتماعية، مقرونةً بحكمها، وأدلتها، وذكر ما يرد عليها من الشبهات العصرية وأجوبتها، وقد كافأه السلطان عبد الحميد بنسبة الرسالة إليه برتبة علمية ووسام، فانتقد الناس ذلك عليه؛ لأنهم كانوا ينسبون إليه قصيدةً بائيةً فيها طعن شديد على الحكومة، ولا سيما رتبها وأوسمتها، وطلبه السلطان إلى الآستانة ليكون من شيوخ (يلدز) فأقام بضعة أشهر، ثم طلب الإذن له بالعودة إلى طرابلس معتذرًا بأن هواء الآستانة لا يوافق صحته - وكان مصدورًا - فأذن له، وأخبرنا بأن العلة الصحيحة للهرب من الآستانة هي المحافظة على الدين.

وكان -رحمه الله- على سعة اطلاعه وأخذه حظًّا من العلوم العصرية ووقوفه على طريقتها الاستقلالية، شديد المحافظة على التقليد في جميع العلوم الدينية، وكنت فتحت في درسه باب المناقشة في أدلة العقائد والمذاهب، فكان ينهاني عن ذلك، وكان شديد المحافظة على شرفه وصيته، ولما طبعت الرسالة الحميدية أهداني نسخةً منها، ثم سألني بعد أيام: هل قرأت الرسالة ؟ قلت: قرأت بعضها، قال: إنه يعجبني رأيك، فكيف رأيتها ؟ قلت بعد الثناء عليها بالإجمال: إنني انتقدت منها شيئين:

(أحدهما): التعبير عن المسائل العلمية القطعية التي تعتقدون صحتها، ككروية الأرض بما يدل على الشك أو الإنكار، فاعتذر عن هذا بمراعاة عقول العوام والمتعصبين الذين يطعنون في دين

من يقول بهذه المسائل، فقلت: إذا لم يتجرأ أمثالك من الموثوق بعلمهم ودينهم على الجزم بهذه المسائل، فمن يجزم بها، ومتى يكون ذلك ؟

(والثاني): عدم تقسيم الرسالة إلى أبواب وفصول يوضع لكل منها عنوان يدل عليه على نحو ما هو مفصل في الفهرس؛ للتنشيط على المطالعة وسهولة المراجعة، فقال: إن اتصال الكلام ببعض كالماء الجاري من حسن الإنشاء وأساليب البلاغة، قلت: فلماذا جعل القرآن سورًا، وهو أبلغ الكلام وأفصحه ؟هذا وإنني لما أنشأت المنار انتقد علي - عفا الله عنه - الإنحاء على خرافات أهل الطريق، والشدة والاستقلال في مسائل أخرى في كتاب كتبه لي بعد أشهر من صدور المنار، قال فيه: (ظهر المنار بأنوار غريبة إلا أن أشعته مؤلفة من خيوط قوية كادت تذهب بالأبصار) ثم ذكر تلك المسائل في ورقة واحدة من ورق المخاطبات العادية، فكتبت إليه جوابًا مفصلاً يدخل في بضع ورقات، بينت فيه ما عندي من الحجة على صحة ما كتبته، وكونه نافعًا وضروريًّا، وقلت فيه ما معناه: إنني أعرض هذا على مسامع أستاذي معترفًا بأنني لا أزال تلميذًا له، لكن على ما عهد مني من عدم قبول شيء إلا بعد الاقتناع به، وإنني أنتظر ما يجيب به؛ لأقرره مذعنًا له إذا ظهر لي أنه الصواب، وإلا راجعته فيه كتابةً إلى أن ينجلي لي الحق، فلم يرجع إلي قولاً في ذلك، وهو لم يكن ينتقد يومئذ إلا الأسلوب، وما فيه من نشر عيوب المسلمين.
توفي -رحمه الله تعالى- وأنا بمصر، فطلبت من نجله الكبير الشيخ محمد يمن أن يرسل إلي ما عنده من المواد؛ لأجل كتابة ترجمة حافلة له، وظللت أنتظر زمنًا طويلاً فلم أظفر منه بشيء، ولم أكتب شيئًا لأنني لم أحب أن أكتب ترجمةً بتراءَ، وما رثيته؛ لأنني تركت الشعر من قبل الهجرة إلى مصر، ولذلك لم أرثِ شيخنا الأستاذ الإمام أيضًا، إلا أنني زدت في مقصورتي أبياتًا فيه، وفي السيد جمال الدين، رحم الله الجميع وجزاهم عنا خيرًا، وسنذكر في النبذة التالية من الترجمة تأثير كل من هؤلاء الشيوخ في المترجم، رحمه الله تعالى.

((يتبع بمقال تالٍ))

الشيخ محمد كامل الرافعي[61]

(2)

ورث المترجم من والده عفة النفس، وحسن الهدي والسمت، والصفاء وحسن النية، وحب التصوف وإخلاص الصوفية - ولكنه لم يتسن له من السلوك ما تسنى له، والاشتغال بآداب اللغة، فكان منثوره كمنثوره، وقلت عنايته بالمنظوم، فلم يبلغ فيه شأو الوالد، وإنما بلغها وفاقها أخوه عبد الحميد بك شاعر طرابلس المشهور، وقد أشرت إلى ذلك في رثاء الوالد:

وإن غدا فيه كل الفضل مجتمعًا *** فقد تفرق في أبنائه النسلا

فللمعارف والإرشاد كاملهم *** من حالف العلم فيه الهدي والعملا

وفي البلاغة كم (عبد الحميد) سما *** وللتحدي بها آي البيان تلا

وكان أيضًا يحذو حذو والده في التأنق في مطعمه وملبسه، حتى إنه كان يتولى شراء ذلك بنفسه، وإذا لم يعجبه ما يريد من الخضر والفاكهة، وغيرها في السوق القريبة من داره يذهب بالخادم إلى سوق أخرى، فكان من أهنأ الناس معيشةً جامعًا بين التمتع بالطيبات وتقوى الله تعالى، والرضا بما قسمه له، ولكنه ترك التأنق في الملبس في أواخر عمره.

وورث من أستاذه الشيخ محمود نشابه حب الاستقصاء والتحقيق في العلم، فكان بعد زمن الطلب والتلقي عن الشيوخ، عاكفًا على مطالعة أشهر الكتب وأعوصها، إما وحده وإما بالمشاركة مع بعض أصدقائه من أهل العلم، كالشيخ محمد الحسيني والشيخ محيي الدين الحفار والشيخ عبد اللطيف نشابه نجل الشيخ محمود نشابه.

لما بدأت بطلب العلم ألفيته يطالع مع صديقه الشيخ محمد الحسيني الذي هو أشهر علماء طرابلس اليوم، أشهر كتب المنطق والأصول والكلام، كسلم العلوم، ومسلم الثبوت، والمواقف، والمقاصد،

ولم أدرك زمن حضوره دروس الشيوخ إلا درس (نيل الأوطار) على والده، ولم يتمه.

والفصل بينه، وبين أستاذه الشيخ محمود نشابه أن أستاذه، وأستاذنا هذا وقف في العلوم عند غاية فهم أشهر الكتب التي تلقاها في الأزهر ، والتي قرأها للطلبة، فرضي لنفسه بما صححه فقهاء القرون الوسطى ومتكلموها ومفسروها ومحدِّثوها، وغيرهم من علماء اللغة والمعقول، وكان يصرف سائر وقته في العبادة، وأكثر عبادته تلاوة القرآن، وأما المترجم فقد طلب العلم من سن التمييز إلى منتهى الأجل، فلم تكن نفسه تقف في العلم عند غاية، وإذا لم تطمئن بما قاله أشهر المدققين، وما صُحح في أشهر الكتب المتداولة، يظل يبحث وينقب إلى أن يصل إلى ما يرتاح له ويقتنع به، ولهذا كان يبحث ويسأل دائمًا عما يطبع في مصر و الهند من الكتب الجديدة، ويستحضر ما يعجبه ويرجو فائدته منها، فهو أول من أطلعنا على مؤلفات السيد حسن صديق خان ملك بهوبال، وعلى (زاد المعاد في هدي خير العباد) المطبوع في الهند، وعلى (سلم العلوم) و (مسلم الثبوت) و (روح المعاني) وغيرهما من مطبوعات الهند ومصر.

وورث من أستاذه الشيخ حسين الجسر الميل إلى الوقوف على حالة العصر العلمية والاجتماعية والسياسية، والعناية بمطالعة المجلات والجرائد والاقتناع بشدة حاجة المسلمين إلى مجاراة الأمم الغربية في العلوم والفنون التي عليها مدار العمران والقوة في هذا العصر، مع المحافظة على أصول ديننا وهديه، وآدابه التي تفضل كل ما عليه تلك الأمم، وغيرها ما لم يخالفها، وكثير مما هي عليه موافق لها أو مقتبس منها، فكان المترجم بهذه المزايا محبوبًا محترمًا عند العوام والخواص من المسلمين وغيرهم، ولو أنه وفق لِنزْع قلادة التقليد من عنقه، ووجّه عنايته إلى حل مشكلات المسائل بالاستقلال التام في الفهم بدلاً من كثرة مراجعة الكتب، لكان بما أوتي من الجد والاجتهاد والإخلاص والإنصاف في البحث، آية في التحقيق وحل المشاكل ! على أنه كان على مقربة من ذلك.

ولولا أن شغل بعمل الحكومة عن التدريس والتصنيف، لكان للأمة من سعة اطلاعه وفقه نفسه وحسن بيانه عدد غير قليل من العلماء الذين يجمعون بالتخرج على يديه بين العلم والعمل للأمة والملة، ومن المصنفات النافعة التي يخرج بها علمه وفهمه من حيز الإجمال إلى حيز التفصيل، ومن محجبات الصدور إلى سافرات السطور، فإنه -رحمه الله تعالى- كان من الأولين الذين طلبوا العلم لله، لا للمال ولا للجاه، وقلما تصدى طلابهم للتدريس والتصنيف إلا بنيتهما وباعث الرغبة فيهما، وآية ذلك أن ترى أكثر تلاميذهم يهينون العلم في سبيلهما، وأكثر تصانيفهم خالية من كل ما

تصلح به الأنفس وتهذب به الأخلاق، وفاقد الشيء لا يعطيه.

***

أخلاقه وآدابه

وأما أخلاق الرجل وآدابه، فقد كانت المثل الذي يضرب للأسوة، والإمام الذي ينصب للقدوة: عفة وصيانة، صدق وأمانة، جود وسخاء، عزة وإباء، نجدة ومروة، شجاعة وفتوة، رأفة ورحمة، وفاء وعلو همة، وناهيك بصبره وثباته، وبحبه الخالص، وبإخلاصه لذي رحِمِه وإخوانه، فقد كان للأسرة الرافعية الكثيرة العدد في القطرين الشامي والمصري كالوالد العطوف والأم الرءوم، يقوم لكل منهم بما تقتضيه حاله من غنى وفقر، وصحة ومرض.

كان من زار طرابلس من المقيمين في القطر المصري منهم يرى من حفاوته به، وإقامة المآدب النفيسة له، والعناية بخدمته، والقيام بشؤونه ما لا ينتظر مثله من والد حفي ولا ولد بار تقي، ولا صديق غني وفي، ولا أمير سخي أبي.
توفي أخوه أحمد أفندي في اليمن ، وكان حاكمًا إداريًّا في بعض بلادها العثمانية، وترك غلامًا وجارية صغيرين حضنتهما أمهما، ثم بلغه أنها تزوجت، فخاف أن يكون ذلك مضيعةً لهما، فأخذ إجازةً من الحكومة وسافر إلى اليمن؛ لأجل إحضارهما وتولي تربيتهما، وبعد البحث عنهما في اليمن علم أن زوج أمهما رحل بها وبهما إلى العراق عاملاً للحكومة، فسافر إلى العراق في المحيط الهندي في فصل الصيف، إذ يشتد اضطرابه واصطخابه حتى إن أمواجه لتجرف الناس عن ظهور البواخر أحيانًا، فيضطر البحارة العاملون على الظهر إلى ربط أنفسهم بالحبال، وفي مثل ذلك البحر في ذلك الزمن يظهر للمسافر أنه لا مبالغة في تشبيه التنزيل للموج بالجبال، فما حدّث به المترجم وغيره أن السفينة عندما تقع بين موجتين ترى كأنها في واد عميق من أودية الجبال، وقد عجب كل من لقيه في سفره هذا من أهل اليمن والعراق - كأهل وطنه السوري - من شدة غيرته وعلو همته وتفانيه في سعيه لكفالة هذين الولدين، وما كان من غبطته وسروره بالظفر بهما بعد ما كابده في سبيلهما من المشاق والأهوال، وبذل ما يفوق طاقته من المال.
وقد قال فيه أخوه الصغير (وهو لأب): (والله لم يمضني فقد أبي كفقدي أخي، فقد كفاني غصص اليتم بعطفه وبره وإحسانه، ثم أدبني فأحسن تأديبي بقوة روحه وسعة فضله وبيانه) اهـ.

أقول: كذلك كان عطفه ووفاؤه لأصدقائه وإخوانه، يكاد يضاهي بره وإحسانه بذي قرباه ورحمه، فكانت داره مثابةً لهم في كل وقت من ليل أو نهار، ولكن عنايته بهم كانت أشد وزيارته لهم أكثر، وقد أجمع على حبه والاعتراف بفضله والثقة بإخلاصه، النصارى كالمسلمين، ولم نر دارًا من دور علماء الدين في طرابلس كداره، يتردد عليها أهل الوجاهة والأدب من جميع الطوائف، ولا يظن القارئ أن سائر علماء طرابلس جفاة أو متكبرون، أو ضُرب على أبواب دورهم حجاب من التعصب الديني فلا يزورون ولا يزارون، كلا إنهم بالرقة واللطف مشهورون، ولكن الفقيد كان ممتازًا فيهم وفي سائر الناس بما ذكرنا من الشمائل والصفات، كما أنه كان ممتازًا بين رجال الدين بالعناية بشؤون السياسة والعمران؛ لأن نفسه كانت تعشق جميع المعارف والحقائق، وتطلب فيها الكمال.

كتب إليَّ أخوه عمر أفندي صاحب العبارة التي ذكرناها آنفًا، وهو أصغر إخوته وأشدهم عشقًا لمذهبه واستعذابًا لمشربه، جملةً بمعنى ما تقدم في وصفه، قال:كان رحمه الله على صحة موفورة من العلم والفضل ومكارم الأخلاق، عَزوفًا عن اللغو واللهو، ولوعًا في البحث والدرس، كثير التنقيب عن نفائس الكتب واقتنائها، والوقوف على نوادر مسائلها، فكانت داره لذلك ناديًا لأهل العلم ينتابونه من كل جانب للمذاكرة والمحاورة والإفادة والاستفادة، وقد كان -رحمه الله- شديد الاهتمام بالعالم الإسلامي والأمم الإسلامية لحد لا يوصف، فتراه دائمًا مستطلعًا طلع أخبارهم، متسائلاً عن أحوالهم وأطوارهم، فكان إذا سمع خيرًا استبشر وتهلل، وإن سمع شرًّا بات بليلة الملسوع يتأسف ويحوقل، وكان شديد العناية والعطف على أهله وقرابته، كثير الوفاء لأصدقائه وذوي مودته، وناهيكم بما نُكب به في سبيل تمسكه بمودة الصديق الوحيد والأستاذ الكامل الرشيد، وذلك في أواخر أيام السلطان عبد الحميد، وأما إيتاؤه ذوي القربى واليتامى من أهله، فحدث ولا حرج، فقد كان يلقب نفسه بأبي العشيرة والقبيلة (رحمه الله) نظرًا لكثرة ما كان يهتم للقريب والبعيد عنه من أهله المنتشرة في سورية ومصر وبلاد الله أجمع.

ولولا تعهده إياي مدة اليتم في الصبا، وأيام نكبتي السياسية في دور الشباب لهلكت، وايم الله، ولولا غرسه في نفسي حب الفضيلة والالتحاق بأهلها لما كنت لمثلكم عاشقًا، وبكم طروبًا.

(كان -رحمه الله- صبورًا على اللأواء والضر، ولقد خسرت طرابلس بوفاته عالمًا كريمًا وبارًّا رحيمًا، بكاه المسلم وغير المسلم؛ لصلابته في دينه وعلمه وفضله وثباته العجيب في مبدئه الحق، وهو حب الحق ونصرته بكل وسيلة وذريعة، ولكثير من المسيحيين النبلاء عندنا حب له بوجه

خاص نظرًا لما عرفوا من حريته وشجاعته وصدق وطنيته، ولولا مخافة التطويل لأقمت لكم على ذلك ألف دليل، وحسبي مع ذلك أن أقول: إن مجاهرة المرحوم بكل ما كان يعتقد من حق صريح، ووقوفه في وجه الظلمة الطغاة من كبار رجال الحكومة البائدة في عهد عبد الحميد ومن بعده، بل وإحسانه إلى مواطنيه المسيحيين على اختلاف طبقاتهم بالتأمين والتطمين لهم أيام الحرب العامة كلما هم بهم شيطان من شياطين الحكومة، أو طرأ عليهم حادث من حدثان يطرأ على الأمة - قد عرفهم بكثير من مزايا الإسلام، وفضل علمائه العاملين....).

(ويلي هذا كلام قطعه المراقب من الكتاب).

***

مودة المترجَم وولايته لصاحب المنار

كان بين آل بيتنا وبين الرافعية في طرابلس مودة ورثها الأب عن الجد، ولكنها مع بعض الأفراد أقوى من بعض، فكان الشيخ عبد الغني أحب شيوخهم إلى والدي، ونجله المترجم أحب شبانهم إليه، لذلك كنت منذ الشروع في طلب العلم أتردد عليه وأحب مذاكرته على شدة إعراضي عن معاشرة الناس، محافظةً على سلامة الفطرة والأخلاق، وقد وجدته أقرب المشتغلين بالعلم إلى ذوقي؛ لحبه التصوف وعنايته بكتبه، وكنت لا أعرف من كتب الصوفية إلا إحياء العلوم للغزالي -رحمه الله تعالى- فشوقني إلى كتب الشعراني وكان مغرمًا بها، وأعارني المتن والعهود الكبرى والطبقات، فألفيتها دون الإحياء، فكنت أعرف منها وأنكر، وكنت أحضر في بعض الأوقات دروس مطالعته الخاصة التي بينتها من قبل، وألقي السمع إلى بعض المسائل في الكلام والأصول، فإذا فهمتها ذكرت له ولرفيقه رأيي في الخلاف فيها، فإذا تبين له بعد البحث ومقابلة الدلائل أن ما قلته هو الراجح، قال لي: من أين جئت بهذا الرأي وأنت لم تحضر درسًا واحدًا في هذا الفن، ولا سمعت هذه المسألة وأمثالها من قبل ؟ فكنت أقول له: إنني رجعت إلى نفسي، فوجدتها لا تعقل الحق إلا فيما قلته، أو ما هذا ما معناه، ولما تكرر ذلك صار يبتدأني أحيانًا بالسؤال، فيذكر مسألةً مشكلةً، ويقول بعد بيان الخلاف فيها: ارجع إلى نفسك، واذكر لي حكمها فيها.

كان هذا مبدأ حسن ظن المترجم بأخيه في الله، ثم نمى الاعتقاد، كما ينمي في اليد الخضاب، حتى انتهى فيه أخيرًا إلى رأي العالم الناسك الشهير الشيخ عبد الباقي الأفغاني، إذ كان يقول: إن علم

(فلان) لدنِّي، فإن مثل هذا لا يأتي بالتحصيل الكسبي، فكان المترجم - أجزل الله ثوابه - وليًّا ونصيرًا لي منذ أقدمت على الدعوة إلى الإصلاح الديني والمدني في عهد طلب العلم إلى أن توفاه الله تعالى إليه كما أشار إلى ذلك أخوه فيما رويناه عنه آنفًا.

ولا مندوحة لي عن ذكر بعض الأمثلة والشواهد على ذلك؛ لأنها من أهم ما يكتب في ترجمة الرجل من حيث هو ركن من أركان النهضة الإسلامية الحديثة في طرابلس:دعاني بعض إخواننا مرةً إلى حضور حفلة الذكر السنوية الأولي للمولوية في طرابلس، ويسمونها المقابلة، ولم أكن رأيتها قبل ذلك - ولا رأيتها بعده - فذهبنا بعد صلاة الجمعة إلى تكيتهم في وادي نهر أبي علي جنوبي القلعة، وإنه لواد وسيم صح فيه الماء، واعتل النسيم ، وإنها فيه لدار من أجمل الديار ، في جنات تجري من تحتها الأنهار ، وقد أمها في ذلك اليوم خلق كثير من العلماء والوجهاء وسائر الطبقات، فجلسنا مع أمثل النظارة (المتفرجين) في منظرة (كُشك) تجاه مكان المقابلة، فرأينا شيخ المولوية جالسًا على جلد من جلود الضأن أو الماعز، ورأينا جماعة الذاكرين - بل الراقصين - منهم وقوفًا لابسين جلابيب رقصهم المعروف عند أكثر الناس في كل بلد يوجدون فيه، ورأيناهم يقبلون على شيخهم الجالس، فيحيونه بالركوع وتنكيس الرؤوس، وسمعنا العازفين بالناي يعزفون لهم في موضع معين من تلك (الحضرة) ويخيل إلي أنه كان هنالك معازف أخرى، فلما رأيت ما رأيت وسمعت ما سمعت، أخذتني صورة الغضب ورأيت - والقوم كلهم سكوت مقرون لذلك - أنه تعين عليّ القيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فوقفت في وسط النظارة وبينت لهم أن هذه بدع ومنكرات شر ما فيها أنها جُعلت من الدين، والدين بريء منها إلخ، وأمرت الناس بالخروج؛ لأن إقرار المنكر كفعله، وخرجت ولم ينبس أحد من الناس بكلمة استحسان ولا استهجان، ولما بعدت عن المكان قليلاً نظرت ورائي فوجدت أناسًا يتبعونني، ولكنهم قليل بالنسبة إلى من بقي.

كان هذا الإنكار مثارًا للعجب في طرابلس الشام، وصار حديث الناس في أنديتهم وسمارهم وملاهيهم، وهم بين مستحسن ومستهجن، ومعترض ومجيب، وكنت أرى أن أقوى المؤيدين لي، والمدافعين عني صاحب الترجمة على شدة أدبه مع جميع المنتسبين إلى طرق التصوف وتأثره ببعض خرافات كتب الشعراني، ومن العجائب أن أستاذي الشيخ حسينًا الجسر وصديقه وصديق والدي الشيخ عبد الله البركة من العلماء - كانا من المنكرين عليّ الناصحين ليّ بالسكوت عن مثل هذه الأمور، فقد دعاني معهم في تلك الأيام إبراهيم أفندي السبع إلى طعام أعده لنا في بستان، وهو ما يسميه أهل طرابلس بالسيران، وهنالك سألني الشيخان عن حقيقة ما يتحدث به الناس في تلك

الحادثة، فنصصت القول على غره، فصار شيخنا يدافع عن المولوية بمثل ما يؤثر في الكتب من الدفاع عن الصوفية، وأنا أحتج بالسنة ونصوص الشرع، حتى قال متبرمًا: إن مذهبنا (يعني الحنفية) أشد من مذهبكم (يعني الشافعي) في تحريم السماع والمعازف ولكن الصوفية لهم حالة أخرى مع الله، وإني أخاف عليك من عاقبة الخوض فيهم والطعن عليهم، قلت له: إن هؤلاء القوم ليسوا من الصوفية في شيء حتى يسلم لهم بأن لهم اجتهادًا وأحوالاً تعرض لهم في بعض الأوقات يعذرون فيها بما لا يعذر به غيرهم، قال: فما بالك تخص هؤلاء بالإنكار، وتسكت عن مرتكبي المعاصي الصريحة التي لا تأويل لها، فإن من الناس من يشرب الخمر ومن يلعب بالقمار ؟ قلت: إني لم أر من هؤلاء أحدًا، على أن حالهم أهون من حال مَن يجعل البدع والمنكرات دينًا، قال: لك الحق من الجهة الشرعية، وقد بينت لك رأيي وبذلت نصحي، فاختر لنفسك ما يحلو، أو ما هذا معناه.
(للترجمة بقية)

((يتبع بمقال تالٍ))

الشيخ محمد كامل الرافعي[62]

(3)

حبه للمنار وإيذاؤه فيه

قلنا: إن المودة بيننا وبين الفقيد كانت موروثةً ثم قويت بما كان بيننا من المشاكلة في حب العلم والتصوف، ثم ازدادت قوةً بتصدينا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بالدعوة إلى الإصلاح الديني والاجتماعي في طرابلس الشام، حيث كان - رحمه الله وأحسن مثوبته - أقوى المدافعين والأنصار، فلما أنشأنا المنار وتصدت الحكومة الحميدية لمقاومته وإيذاء قرائه بدسائس بعض المقربين من السطان - كان هو أقوى الثابتين على الانتصار له والمجاهرين بولاء صاحبه.

منعت الحكومة الحميدية إدخال المنار إلى ممالكها منذ سنته الأولى بإرادة سلطانية، فكان يرسَل في البُرُد الأجنبية ويقرأه الناس في زوايا بيوتهم سرًّا منفردين ثم يخفون نسخه في المخابئ، وكان هو وحده يقرأه على من يسمر معه في حجرة الضيوف والسمار ويحمله في جيبه إلى دار الحكومة، ويضعه في درج مكتبه لينظر فيه عند سنوح فرصة فترات العمل، فلما اشتد الضغط والإيذاء لقرائه وفتشت بيوت المتهمين بقراءته كان نصيبه من الجزاء أن حبس في دار الحكومة مع بعض إخواننا، فصبر على هذه المحنة صبر الكرام، ولم يداهن الحكومة الظالمة بقول ولا فعل.

وقد سيم قبل ذلك أن يرد على المنار، أو ينكر على صاحبه مسلكه في شرح خرافات أهل الطريق ومفاسد الظلمة وتقصير العلماء فيما يجب عليهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأبى مصرحًا بأن هذا الذي يقوله المنار هو الحق وأنه أدى به النصيحة التي هي روح الدين وقوامه، وأوعز بمثل هذا الرد إلى كثير ممن يرون رأيه في المنار وصاحبه، ومنهم من يدعي صحبته ومودته فسمعوا وأطاعوا، وكانت جريدة طرابلس ميدانًا واسعًا لجولان أقلامهم، وكل منهم يعتذر لمثل الفقيد من إخواننا الصادقين بأنه مُكره لا مختار يخشى إيذاء رئيس زبانية الجلاوزة، وغضب

المتصرف، فإن أمن شرهما في نفسه وماله وشرفه لمكانة له في بلده فلا يأمن من شر المحرك لهما من ضفاف البسفور، ومنهم من زعم أنما كُتب عن لسانه في تلك الجريدة كذب وأنه لا يجرؤ على التكذيب.

وكان في جميع الأوقات والأحوال راضيًا عن جميع مباحث المنار وآرائه الدينية والأدبية والاجتماعية والسياسية مؤيدًا له فيها مناضلاً كل ما يسمعه من نقد أو اعتراض عليها، وكان يرجح ما يحققه المنار من قواعد العقائد ومشكلات الفقه ومسائل التصوف على جميع ما خالفه من أقوال المتقدمين والمتأخرين، وإن عظمت شهرتهم وضخمت ألقابهم.

ولما جئت طرابلس عقب إعلان الدستور العثماني بذل منتهى طاقته واجتهاده في الحفاوة بي، وكانت مدة إقامتي في داره أضعاف مدة إقامتي في دار أمي وأبي، وكان يتفنن لي كل يوم باختيار أطايب الطعام، وأنواع الحلوى، وأصناف الفاكهة، لتجديد الرغبة فيها، وإثارة الشهوة لها، وأمن الملل من المتكرر منها، وكان فوق ذلك كله يغتنم فرص خلو المكان من الزائرين - وقلما كان يتفق ذلك إلا عند المنام وبعد صلاة الفجر - فيطرح علي مشكلات المسائل العلمية التي تعرض له في مطالعته لأشهر الكتب، وغير ذلك مما يفكر فيه من الأمور السياسية تارةً والروحية أخرى.

إنني لم أعرف أحدًا من الناس أشد من هذا الرجل حرصًا على العلم، وحبًّا للحق، وإخلاصًا في القلب، وصفاءً في النفس، وبعدًا عن الهوى، وبغضًا للدعوى، وسلامةً من الشكوى، فهو على مخاللته إياي، ومكاشفته لي بكل ما يجول في ذهنه، ويعلق بقلبه لم أره في يوم من الأيام شكا إليّ بغض أحد له، أو بغضه لأحد إلا ما كان يؤلمه من غفلة الناس وإعراضهم عن الحق، وعدم قبولهم دعوة الإصلاح؛ حبًّا فيهم وحرصًا على هدايتهم.

فمن كان متحليًا بهذه الصفات لا يستغرب منه الرغبة المخلصة في الاستفادة من كل من يراه أهلاً للإفادة العامة أو الخاصة، وإن كان يفضله في كل ما عدا ما يستفيده منه، فكيف يكثر منه طلب الفائدة بمنتهى الصفاء والإخلاص ممن غرس في قلبه حسن الاعتقاد فيه من أول نشأته، ولم يزل ذلك الغرس ينمى ويترعرع حتى صار شجرةً عظيمةً ثابة الأصل سامية الفرع يانعة الثمر الذي هو أحب الثمار إليه وإن كرهه من يخالفه في ذوقه ولم يتح له مثل عنقوده.

كتبت هذا، وأنا في خجل من كتابته حتى كاد يصدني عنه، وما كان أشد تريثي في المضي فيه ولولا النية الصالحة في كتابته لما غلبت خجلي بقوة الإرادة التي يغلب بها الرجل كل ما يتعارض فيه الشعور النفسي والمصلحة الراجحة، وإنني لأشد خجلاً من تنفيذ شيء آخر يتعلق بترجمة هذا

الرجل الكامل مما يقتضيه تاريخ الإصلاح ورجاله، وهو نشر مقال من مكتوباته إلي، وسأراجع طائفةً منها، ثم أرى هل يمنعني الخجل مما فيها من الإطراء عن نشرها أم لا.

وجملة القول في الفقيد أنه لا يختلف أحد ممن يعرفه في أنه أفضل أسوة في الخير، وأكمل مثال في هذا العصر للفضيلة، فهو من شهداء الحق على الخلق، وقد حدث بفقده فراغ لا يملأه ألوف الرجال، فنسأله تعالى أن يحشرنا وإياه مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

الشيخ عبد الرزاق البيطار[63]
ترجمة بقلم حفيده الشيخ محمد بهجة البيطار

(عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم بن حسن بن محمد بن حسن البيطار الدمشقي)

في عاشر ربيع الأول من سنة 1335 فجعت دمشق الشام بوفاة أكبر وأشهر علمائها وأعلامها، علامة الأقطار الأستاذ الجد سيدي الشيخ عبد الرزاق البيطار - رحمه الله ورضي عنه - ولقد كانت وفاته خسارة عظمى على المسلمين والإسلام، وإليك نبذة يسيرة من ترجمة حياته.

***

مولده وتحصيله

ولد المرحوم بمحلة الميدان من دمشق الشام سنة ألف ومائتين وثلاث وخمسين سنة 1253، تعلم القراءة والكتابة، ثم حفظ القرآن الكريم وجوده على الشيخ الفاضل أحمد الحلواني شيخ قراء الشام، ثم حفظ المتون في مبادئ العلوم على والده العلامة الجليل المتفنن الشيخ حسن البيطار وكان يحضر دروسه الخاصة والعامة، ثم في أول رمضان سنة 1272 توفي والده -رحمه الله- فقرأ على شقيقه الأكبر الشيخ محمد فقه أبي حنيفة النعمان، رضي الله عنه.
وأخوه هذا كان أمين فتوى دمشق يوم كان مفتيها العلامة الشهير محمود أفندي حمزة، وأخذ عن شقيقه الثاني العلامة الشيخ عبد الغني علم القراءات، ثم لازم دروس العلامة المحقق الشيخ محمد الطنطاوي ، فأكمل عليه العلوم العربية والشرعية، وتوسع في المعقول والمنقول، وأخذ عنه علم الميقات والفلك والحساب، ثم صحب العارف بالله تعالى الأمير عبد القادر الجزائري فقرأ عليه جملةً من كتب الحقائق، وأعظمها الفتوحات المكية.

***

صحبته للأمير عبد القادر

لازم فقيدنا المرحوم الأمير الملازمة التامة، وأخذ عنه الفصل بالعدل في القضايا العامة، ولقد كان يَرِدِ على الأمير - قدس سره - كثير من الخصومات بين الخلق، إذ كان هو المرجع للناس في دمشق، فكان يحولها إليه، ويحيل أصحابها عليه، فيكون قوله الفصل بإجراء الحكم على سنة العدل، ولقد استفاد المرحوم من أخلاق السيد وآدابه، حتى عد ثاني الأمير في حياته، وعهد إليه بتربية أولاده وتعليمهم، وكنت أسمع من أصدق أصدقاء المرحوم علامة الشام الثاني فقيد الإسلام شيخنا الشيخ جمال الدين القاسمي -رحمه الله- أن أدب الأستاذ أدب الملوك، قلت: صدق -رحمه الله- ويعرف ذلك كل من جلس إليه وسمع حسن عبارته، ورأى لطف إشارته.

***

صدعه بالحق وتأثير أفكاره

كان عصر المرحوم الذي تلقى فيه دروسه الشرعية عصر جمود على القديم، وتلقي الأقوال بالتسليم من دون تمحيص للصحيح من السقيم، فاستمر فقيدنا على طريقة معاصريه متأثرًا بها إلى ما بعد الخمسين، ولقد سمعته في منزله يقول لعلامة العراق السيد محمود شكري الآلوسي لما كان نزيل دمشق سنة 1333، وقد جاء ذكر أحد أئمة الإسلام العظام: كنا أيام التحصيل عند شيوخنا إذا ذكر مثل هذا الإمام نظنه رجلاً خارجًا عن دائرة الإسلام.

ثم ألهمه الله - تعالى - الأخذ من الكتاب والسنة، وعدم قبول رأي أحد من دون حجة، كما كان على ذلك السلف الأمة، وكما أوصى جميع الأئمة - رضي الله عنهم - بعدم الأخذ بقولهم إلا بعد معرفة دليلهم، فصار يأخذ الأحكام والدلائل، ويقبل قول الحق من أي قائل، ويصدع به ولا يخاف في الله لومة لائم.

فإن كان العلم الصحيح أخذ المسائل بأدلتها - كما يقولون - فهو في بلاد الشام من أول العلماء بلا شبهة ولا مراء، لأنه أول من أخذ بالدليل وجاهد في هذا السبيل، ورفع فوق رءوس أهل الحق راية السنة والتنزيل.

وكان رحمه الله - تعالى - فصيح اللهجة، قوي الحجة، غزير المادة، وكان لدى مناظريه البطل المغوار والبحر الزخار، لا يشق له غبار. وما ناظره أحد إلا واعترف له بالسبق في هذا المضمار، وكان له مع صديقه المرحوم القاسمي مساجلات علمية ومحاورات أدبية، تشف عن سعة علم وأدب جم.

وكان له في المسائل القريبة أساليب في الإقناع غريبة، فمنها أن بعضهم زعم مرةً أنه يجب القيام، عند ذكر ولادة الرسول عليه الصلاة والسلام - وجوبًا بدعيًّا - تعظيمًا له صلى الله عليه وسلم وألف في ذلك رسالةً، وحملها للفقيد ليكتب له عليها تقريظًا، فاعتذر إليه، فألح عليه، وأخيرًا قال له الأستاذ المرحوم: أنت مقصودك من هذه الرسالة أنه إذا قيل ولد الرسول عليه الصلاة والسلام يجب القيام ؟ قال: نعم، قال: والذي لا يقوم عند ذكر ولادته صلى الله عليه وسلم ؟ قال: يكون آثمًا لأنه ترك واجبًا، قال: أكلما قيل: ولد الرسول صلى الله عليه وسلم يجب ذلك ؟ قال: نعم، فعندئذ قال له الأستاذ: ها أنا ذا قد ذكرت لك ولادته صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فلم لم تقم ؟ فقال له: لأنه لا يوجد هنا الآن مولد، فأجابه الأستاذ: أنت إذًا تقوم تعظيمًا لما اشتمل عليه المولد لا لمن ولد ! فخجل ولم يجب، ثم أرشده الأستاذ إلى أن تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم الحقيقي باتباعه في أقواله وأفعاله ونشر هدايته التي جاء بها عن ربه مشتملةً على سعادة خلقه.

***

خَلْقُهُ وخُلُقه

كان المرحوم طويل القامة جميل الطلعة والهيئة، جليل الهيئة والوقار، يكاد سنا برق جماله وجلاله يذهب بالأبصار، كلامه السحر الحلال، وأدبه ألعب بالعقول من الغيث في الحقول، أما رقة شمائله -رحمه الله تعالى- فلا أعلم له بها نظيرًا في العلماء الأعلام من بني الإسلام، ولقد كان الأستاذ القاسمي -رحمه الله- مولعًا بسمو أخلاقه، ومعجبًا بعظيم آدابه، وناهيك بذوق الجمال الذي كان معدن اللطف والظرف، وقال لي مرةً بعض الأفاضل: ليت الأستاذ يكتب لنا رسالةً في الأخلاق يستمليها من صفاته وآدابه فتكون أنفع ما كُتب في هذا الفن، ولقد قلت مرةً لأستاذنا القاسمي -رحمه الله تعالى-: إني قد عرفت كثيرًا من العلماء، وخالطتهم فلم أجد أكرم منكما أي هو والأستاذ الجد، رحمهما الله تعالى - عشرةً ولا أرق عاطفةً، ولا أخف روحًا، ولا ألطف حديثًا، مع ما رزقتما من

سعة العلم والفضل، فأنا لا أريد أن أفارق مجلسكما ولو إلى النعيم، ولا أمل حديثكما ولو استمر سنين، فقال لي: لهذا السر نحن لا نأنس بغيرنا كما نأنس ببعضنا ولا نسر إذا كنا منفردين.

وقال لي مرةً رب السيف والقلم الأمير محيي الدين باشا الجزائري نجل الأمير عبد القادر - رحمهما الله تعالى - ما معناه: إن للمرحوم أدبًا ممتازًا وكلامًا جذابًا أكسبه ثقة الأمراء ومحبة العظماء، ونزل من نفوسهم منزلةً رفيعةً لا يدانيه فيها أحد من العلماء.

وكان -رحمه الله تعالى- يراعي في مجلسه الطبقات، ويعطي كل إنسان نصيبه من الالتفات.

ومن عجيب أمره - قدس الله روحه - أنه كان يجلس إليه العالم والكاتب والشاعر والزارع والصانع، والتاجر في مجلس واحد فيتبادل الأفكار والآراء مع كل واحد منهم بعلمه، ويفيده به الفوائد الجمة حتى يخرج الكل من عنده فرحين مسرورين.

وكان -رحمه الله تعالى- واسع الصدر جدًّا، كريمًا مضيافًا، يغضب للحق ولا يغضب لنفسه أبدًا، وكان يتحمل من الناس فوق ما يتحمل، ومن سعة صدره وشدة تحمله أنه مهما اشتد به الغضب لمسألة ما فلا يبدو شيء على أسارير وجهه.

والحاصل أنه ليس في وسعي أن أحيط بمكارم أخلاقه، وحسبي أن أقول: إنه كان بها قدوةً، وكان مصداق قوله تعالى: [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ](الأحزاب: 21).

***

صحبة عالم الشام له، وثناؤه في درسه عليه، وما كتبه عنه في حادثة سنة 24

كان أشد الناس صحبةً للمرحوم وملازمةً له صديقه الأبر الشيخ جمال الدين القاسمي، فهو صاحبه ومريده العظيم الذي كان له معه أدب الولد البار مع أبيه، قرأ عليه رسالةً في الفلك، وكان ينسخها دروسًا بخطه، ويكتب على هامشها تقرير الأستاذ بنصه، ولقد حضرت على المرحوم القاسمي مع تلاميذه دروسه في بيته وجامعه ومدرسته نحو ثلاث سنوات، فندر جدًّا أن يمر يوم يذكر لنا فيه الأستاذ المرحوم إلا ويقرر لنا فيه عظمته، أو يطرفنا بنادرة مما اتفق له معه أو مع غيره، وإذا ذكره في الدرس فيذكره دائما بلفظ شيخنا، وكان يعده عالم الشام، وأذكر أنَّا كنا مرةً نقرأ عليه في فن البيان (باب القصر) فقال في مثال قصر الصفة على الموصوف قصرًا ادعائيًّا: لا عالم إلا الشيخ عبد الرزاق البيطار، قال: مع أنه يوجد غيره ممن يسمون بالعلماء، ولكن مع حشو وجمود

فلا يعتد بعلمهم.

وأخبرني عم والدي المفضال شقيق المترجَم سيدي الشيخ محمد سليم البيطار بأنهم لما كانوا في مصر سنة 21 كان مفتي الديار المصرية الأستاذ الإمام -رحمه الله تعالى- يجل الأستاذ المرحوم كثيرًا، ولا يتقدمه أبدًا، حتى ظن بعض أفاضل العلماء في مصر بأن الأستاذ الإمام قد تلقى العلم عن المرحوم أيام كان في بلاد الشام.

وإليك ما كتب عنه الأستاذ القاسمي بخطه في حادثة سنة 24 التي جرت للمترجم مع بعض العلماء بشأن قبور الأنبياء والأولياء بتزوير بعض السفهاء، قال: إن الشيخ عبد الرزاق البيطار - ذاك العالم الجليل - ممن اشتهر بالإنكار على أرباب الخرافات، وممن يقاوم بلسانه وبراهينه تلك الخزعبلات، فإنه ممن لا تأخذه في إبانة الحق لومة لائم، ولا يصده عتب عاتب، ولا قومة قائم، وله صدع بالحق عجيب، وعدم محاباة ومداراة، وكل ما يروى من حكايات (المتمفقرين) فإنه يزنه بميزان العقل، فإن أباه رده جهارًا وقابل قائله بالصد إنكارًا، وطالما صرح بالسخرية ممن ينادي من يعتقد فيه العامة من الأموات، ويستشفع به في قضاء الحاجات، ويعرفهم ما قاله السلف في هذا الباب من أنه أمر ما أذن الله به، إذ أمر بدعائه وحده ! فدعاء غيره مما لا يرضاه، كما صرح به في غير آية من كريم الكتاب، وقصده ترقية العامة عن نداء أحد إلا الله، وتعليق القلب بالخالق تبارك وتعالى.

انتهى.

***

صبره واحتسابه

مر على فقيدنا المرحوم - كما مر على فطاحل الرجال وأساطين العلم والحكمة قديمًا وحديثًا - كثير من المصائب والفتن، فكان بها مثالاً للصبر والثبات، وإنما كانت تدار تلك التدابير السيئة بيد بعض المدلسين والمفسدين، ومن لا خلاق لهم من الجامدين، وإليك بعضها:اتهم بتأسيس مذهب جديد، وبتسليم سورية لنجد ، ومصر للإنكليز، وذلك سنة 24 وكان مما قاله لوالي سورية إذ ذاك (هو شكري باشا ، وكان رجلاً عاقلاً جدًّا): هل سورية ومصر - يا حضرة الوالي - تُفاحتان في جيبي حتى أسلمهما ؟ ثم إن كان في إمكاني أن أتصرف بهما وأسلمهما لغيري فلم لا أبقيهما لنفسي ؟ ووراء ذلك فإن كان يتيسر لمثلي تسليمهما فرجل أقدر مني يسلم البلاد العثمانية كلها للأجانب، وأين

الحكومة وقوتها ؟ فخجل الوالي وقال: أنا أعلم أن هذه وشايات وأراجيف لا أصل لها، ولكني دعوتك عندي من أجل أن آنس بك، وأفطر هذا المساء معك وكان ذلك في رمضان سنة 24.
وفتشت كتبه وداره مرات متوقعين أن يعثروا عنده على بعض أوراق سياسية أومخابرات سرية فيسجنوه أو ينفوه، ولكن طاش سهمهم فإن الأستاذ -رحمه الله- لم يشتغل بالأمور السياسية ، ولم تكن كتب العلم تنزل عن يده إلا لحاجة ضرورية.

***

زهده في الوظائف وبعده عنها وخدمته للعلم

كان المرحوم بعيدًا عن التربع في المناصب، والاغترار بالمظهر الكاذب، ولقد عرض عليه - إذ كان في الآستانة سنة 14 - من قِبل المشيخة الإسلامية الإفتاء أو القضاء في مدينة من أمهات المدن السورية، فرفض كل وظيفة غير خدمة العلم الصحيح، ونشره في طبقات الأمة بالتعليم والإرشاد والتصنيف، ولكن تأثيره - كما قال عالم الشام جمال الدين - أكبر من أثره، كحكيم الإسلام جمال الدين.
وكان -رحمه الله تعالى- يلقي دروسه العامة في جامع كريم الدين الشهير بالدقاق في محلة الميدان، ودروسه الخاصة في حجرته من ذلك الجامع، وفي بيته أيضًا، وقد انتفع به كثير من الطلاب، وحضرت عليه في دروسه العامة والخاصة طائفةً من كتب التفسير والحديث والفقه، عدا دروسي الخاصة التي كنت أقرأها عليه على انفراد، وبعد أن وقع الانقلاب سنة 26، وأصبحت الحكومة دستورية شوروية، ثم بويع السلطان محمد الخامس بعد خلع عبد الحميد، انتخبته دمشق مع بعض رجالها لمبايعة السلطان محمد، ولتقديم واجبات التهاني والتبريك له، فكتبت عنه في ذلك جرائد العاصمة التركية، ما رددت صداه الجرائد العربية السورية، ثم ملأت هذه أعمدتها من آيات الشرف والافتخار، برجوع شيخ الديار الشامية إلى الديار.

***

تآليفه

أما تآليفه فتبلغ بضعة عشر كتابًا، بعضها ديني، وأكثرها أدبي، وأكبرها تاريخه في رجال القرن الثالث عشر ذكر فيه المشاهير وغيرهم، وكان أذن لي في اختصاره، وتآليفه الدينية منها: المنة في العمل بالكتاب والسنة، والمباحث الغرر في حكم الصور، واللمعة في الاقتداء حال التشهد من صلاة الجمعة، وشرح العقيدة الإسلامية للعلامة محمود أفندي حمزة مفتي دمشق.
أما رسائله وقصائده ومكاتيبه العلمية والأدبية فتبلغ لو جُمعت مئات الأوراق، ونسأل المولى أن ييسر سبيل الجمع وتقديم الأهم منها للطبع بمنه وكرمه.

***

نبذة من كلامه -رحمه الله-

نختم هذه الترجمة بإيراد نبذة يسيرة من كلامه ليقف منها القارئ على مشربه في الحديث، وتمييزه الصحيح من الضعيف، ونقده لكلام المؤلفين، على عادة العلماء المحققين قال - رضي الله عنه - في رسالته (المباحث الغرر في حكم الصور) التي حررها في جواب سؤال ورد من أحد علماء الهند، باختصار: ولا التفات لما نسب للفاضل أبي الوليد محمد بن عبد الكريم المعروف بالأزرقي -رحمه الله- المتوفى كما في كشف الظنون سنة 227 من أنه قال في تاريخه الموجود الآن في المكتبة العمومية في دمشق المحمية، الذي ألفه في خصوص البيت الحرام، فقال في مناسبة بناء قريش الكعبة ما نصه ، مع بعض اختصار وتصرف:وجعلوا في دعائمها صور الأنبياء وصور الأشجار وصور الملائكة، فكان منها صورة إبراهيم خليل الرحمن شيخًا يستقسم بالأزلام، وصورة عيسى ابن مريم ، وأمه، فلما كان يوم الفتح دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب فجاء بماء من زمزم ثم أمر بثوب فبُل بالماء، وأمر بطمس تلك الصور فطمست، قال: ووضع كفيه على صورة عيسى ابن مريم وأمه وقال: امحوا جميع الصور إلا ما تحت يدي، ورفع يده عن عيسى وأمه، ونظر إلى صورة إبراهيم - عليه السلام - فقال: قاتلهم الله، جعلوه يستقسم بالأزلام ؟! ما لإبراهيم وللأزلام. انتهى.
ثم ساق الأزرقي هذه القصة بأسانيد عديدة مضطربة المتن، ولذلك قال الأستاذ رحمه الله: أقول: هذا الحديث الذي ذكره بصور متعددة وألفاظ متقاربة من أمر النبي صلى الله عليه وسلم بمحو الصور إلا ما كان من صورة عيسى ومريم - لم يذكره أحد من المحدثين ولا من المفسرين، ولا من أهل

السير، ولا ممن ألفوا المؤلفات في تاريخ بيت الله الحرام أو غيره، لا من كان قبله، ولا ممن عاصره، ولا ممن كان بعده (إلى أن قال): فإن عامة أهل الشرع من الفقهاء والمحدثين على خلاف ذلك، ولو كان ذلك له أصل لوجب عليهم استثناء صورة مريم وعيسى من عموم التحريم؛ لأن الإطلاق في مقام التقييد خطأ كالعكس (ثم قال) ويلزم على تسليمه أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تناقض كلامه واختلفت في هذه المسألة أحكامه، فتارةً يعمم الأمر في محو الصور، وتارةً يستثني عيسى وأمه بمقتضى هذا الخبر، وتارةً يقتضي أنه ما دخل حتى محيت الصور كلها، وتارةً أنه دخل قبل محو شيء منها، مع أن هذا الأمر بعيد جدًّا بل باطل، لا يعول عليه إلا قاصر أو جاهل، فلم يبق إلا أن ذلك مدسوس عليه، ومنسوب كذبًا وزورًا وبهتانًا إليه، وقد تجاسر كثير من الناس من قديم وحديث على ذكر جمل من الكلام، وسموها بالحديث، وأدخلوها في عبارة الكتب وظنوا أنها فضيلةً مع أنها - وإن كانت في الترغيب والترهيب - رذيلة، وأي رذيلة !! وكذلك دسوا بعض عبارات على كثير من الأفاضل والسادات، فحينئذ لا يلتفت إلى هذه العبارة التي دسها في كلامه بعض أهل الغواية، ممن له بها حاجة وغاية، ولم يخش من الكذب على النبي المختار، ولا أفزعه قوله صلى الله عليه وسلم (من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار) وظن أنه يروج المحال وأنه ليس في السويداء رجال، مع أن الشريعة محفوظة، وبعين العناية ملحوظة، فما أدخل قائل قولاً باطلاً إلا ورُدَّ عليه، ولا دس بها جاهل منكَرًا إلا وسهام التكذيب قد توجهت إليه.

وكل ما أجاب به بعض الناس عنها مع تسليم نسبتها لهذا الإمام، فإنه يريد النقض لا الإبرام، ومن كان عنده جواب لائق، ولما ذكره أهل الشرع موافق، فليتكرم بإلحاقه في هذا المكان، ومولاه يعامله بجزيل الفضل والإحسان ا.هـ.

دمشق

(الحفيد)

محمد بهجة البيطار

رزء إسلامي عظيم[64]

وفاة الدكتور صدقي

في أوائل شهر شعبان من هذه السنة 1338 فقد الإسلام رجلاً من أفضل رجاله دينًا وتقوى، وأقوى أنصاره حجةً، وأخلصهم نيةً، صديقنا الصفي الوفي وولينا وطبيب أسرتنا الدكتور محمد توفيق صدقي، المعروف عند قراء المنار في مشارق الأرض ومغاربها بمقالاته الكثيرة المفيدة من دينية وعلمية، تغمده الله برحمته، وحشره مع الذين أنعم الله عليهم من أهل كرامته، وأكثر في هذه الأيام المصابة بالقحط في الرجال من أمثاله.
توفاه الله بمصر، وكاتب هذه السطور (منشئ المنار) في دمشق ، واتفق أن منع البريد فلم أعلم بها إلا بعد زهاء خمسة أسابيع فعظم عليّ وقع المصاب وعلى كل من علم به من إخواننا أهل العلم والدين في الشام ، ولم أستطع كتابة تأبين، ولا ترجمة له في شهر رمضان لاشتغالي بأعمال رياسة المؤتمر السوري، وقراءة درس في الجامع الكبير الأموي، والتهاب عرض لي في اللوزتين كان كلما خف يعود إلى التهيج والازدياد برفع الصوت في كل من الدرس وضبط نظام جلسات المؤتمر، وتلخيص مذكراته وطلب الأصوات على اقتراحاته حتى اضطررت إلى ترك الدرس في أفضل أوقاته، وهي العشر الأخير من رمضان، مع مشقة الصيام، وقلة المنام، وصرف وقت من الليل والنهار فيما لا مندوحة عنه من لقاء الناس، حتى إنني لم أقرأ في رمضان هذا العام أكثر من ثلاث ختمات من القرآن، على أنني قرأت في رمضان العام الماضي أكثر من عشر ختمات.

من غريب الاتفاق أن كانت وفاته قريبة العهد بوفاة تِربه وصِنوه في النشأة العلمية والدينية، الطبيب عبده إبراهيم الذي عَد موته نذيرًا له بالموت بمثل مرضه، وقرب اللحاق به.
كتب إلي وكيلي وابن عمي السيد عبد الرحمن عاصم أنه لما علم بمرضه عَادَه وسأله عن حاله فقال: إنني محموم، وإذا كانت هي هذه الحمى تيفوسية فأنا ميت بها لا محالة.
وكثيرًا ما كان ينعي نفسه في السنة التي عاشها بعد صنوه عبده إبراهيم حتى أنه في حالة صحته

كان يقول: لا أدري من يربي ولدي عمر ؟ وكان شرع في كتابة مقال في العقائد وأخره لينقحه وينشره في المنار، فأعطى ما كتبه إلى أهله وعهد إليهم بأن يرسلوه إلي إذا هو مات، ويبلغوني عنه إذنه لي بتصحيحه كعادته فيما يقبل في حياته من التنقيح في المعنى، إلا ما يقتنع بصحته أو يوافق نظره، فأرسلوا ما كتبه إلى الإدارة بعد وفاته، وقد نشر في هذا الجزء، وذكر لابن عمي أنه عُهد إليه بتحرير المجلة الطبية التي أنشأتها جمعية الأطباء بمصر، وقال له: ما زال المنار يرفعني حتى جعلني كاتبًا.

وسنكتب له ترجمةً علميةً بعد مراجعة مجلدات المنار التي نشرت فيها مقالاته ومناظراته الدينية لبعض علماء مصر والهند، إن شاء الله تعالى.

((يتبع بمقال تالٍ))

ترجمة الطبيب
محمد توفيق صدقي[65]

نعي إلينا صديقنا الصفي الوفي الطبيب النطاسي محمد توفيق صدقي، ونحن في دمشق الشام بعيدين عن إدارة المنار واشتغال عنها بأعمال المؤتمر السوري الذي اختارنا لرياسته هنالك، فكتبنا للمنار نبذةً وجيزةً في تأبينه نشرت في الجزء الثامن منه، ووعدنا بكتابة ترجمة مفصلة له، وبعد عودتنا إلى مصر اطلعنا على ترجمة تاريخية له في العدد السادس من المجلة الطبية الذي صدر في شهر مايو سنة 1920 فرأينا أن ننقلها في المنار، ثم نقفي عليها بما نعلم من ترجمته العلمية الإصلاحية، وهذا نص ما نشر في المجلة الطبية:

المرحوم الدكتور محمد توفيق صدقي

(ننعي اليوم إلى أهل الأدب والطب سواءً رجلاً من أندر الرجال، وعالمًا من العلماء الذين قضوا حياتهم في مزج الطب بالعلم الشرعي، وتطبيق المبادئ الإسلامية على أصول العلم الحديث، ألا وهو المغفور له الدكتور محمد توفيق صدقي الطبيب بمصلحة السجون بالقاهرة.
ولد المرحوم في 24 شوال سنة 1298 هجرية الموافق 19 سبتمبر سنة 1881 فلما بلغ أشده[66]دخل المكتب فاستظهر القرآن الكريم، وذلك هو السر في ميله إلى الأبحاث الدينية، وتطبيقها على مبادئ العلوم العصرية، وفي انطلاق لسانه وجري قلمه، فمن حفظ القرآن فقد وضع يده على أعنة البيان، ثم دخل المدرسة الابتدائية، ونال إجازتها سنة 1896، ثم دخل المدارس الثانوية، ونال إجازتها عام 1900، ثم دخل مدرسة الطب، ونال إجازتها عام 1904، وكان متقدمًا على أقرانه فاستحق أن تشكره وزارة المعارف على اجتهاده بمكتوب خاص مؤرخ في 2 يوليو سنة 1904 فلما أن أتم دروسه وتخلص من عناء الامتحانات انطلق كالجواد المصلي في أبحاثه، موليًا وجهه شطر ما تشبعت به نفسه وامتلأ بحبه عقله وقلبه، وكان مجال الكتابة أمامه فسيحًا فكان يكتب تارةً في

المجلات العلمية كالمنار، وتارةً في الجرائد السيارة كالمؤيد واللواء والشعب والعلم، وغيرها من أمهات الصحف اليومية، يضرب في كل مبحث بسهم صائب حتى بلغ ما كتبه من المقالات والرسائل عددًا كبيرًا عدا المؤلفات الممتعة، فمن مقالاته:

1- تحريم الخنزير ونجاسة الكلب.

2- مقالات الدين في نظر العقل الصحيح.

3- الناسخ والمنسوخ.

4- الإسلام هو القرآن وحده.

5- تاريخ المصاحف.

6- كلمة في الرق في الإسلام.

7- رسالة الخلاصة البرهانية على صحة الديانة الإسلامية.

8- ماء النيل ومضاره.

9- الربا ورأيي فيه.

10- الطلاق في الإسلام.

11- بحث في تعدد الزوجات.

12- الماديون والإلهيون فلسفة صحيحة.

13- الإصلاح الإسلامي في جملة مقالات.

14- القرآن والعلم.

15- خوارق العادات في الإسلام.

16- حجاب المرأة في الإسلام.

17- نظرة في السماوات والأرض.

18- القرابين والضحايا في الأعياد.

19- سن الزواج بالفتيات.

وكثير غيرها من المقالات الخاصة بالديانات، ومن كتبه :

1- كتاب دين الله في كتب أنبيائه.

2- الجزء الأول والثاني من دروس سنن الكائنات ألفه لمدرسة دار الدعوة والإرشاد، وبالجملة فقد كان فقيدنا كاتبًا متفننًا يمزج العلم بالدين في أكثر كتاباته.

وأما ما تقلب فيه من الوظائف، فإنه عقب أن نال جائزة الطب في عام 1904 تعين طبيبًا بمستشفى قصر العيني، ثم انتقل منه إلى وظيفة طبيب في سجن طره في سنة 1905، ورقي طبيب درجة أولى في سنة 1911، وأنعم عليه بالنيشان المجيدي الخامس سنة 1913، ثم نقل إلى سجن مصر ثم إلى إصلاحية الأحداث عام 1914، ثم مرض بالتيفوس، وكان مرضه شديد الوطأة عليه لم يمهله إلا أسبوعًا حتى فارق الحياة الدنيا منتقلاً إلى جوار ربه في يوم الأربعاء من شهر إبريل سنة 1920 الموافق اليوم الثاني من شهر شعبان المعظم سنة 1338، فرحمه الله وغفر ذنوبه) اهـ.

(المنار)

إننا نستغفر الله - تعالى - كل يوم مرارًا، أي: نسأله أن يغفر ذنوبنا، ونعتقد أن كل بشر محتاج إلى مغفرة الله - تعالى - وعفوه، وإننا على هذا الاستغفار والاعتقاد فقد استغربنا من المجلة الدعاء لهذا المترجم بالمغفرة بعد الرحمة دون غيره ممن ذكرت خبر وفاتهم في هذا العدد من الأطباء، وهم أربعة ختمت الكلام في تراجمهم الوجيزة بالدعاء لهم بالرحمة الواسعة، والدعاء بالمغفرة للمترجَمين غير معهود في الجرائد والصحف، فكان هذا وما ذكر قبله من التخصيص سببين للاستغراب، والمتبادر لنا أن القلم جرى بهذا التخصيص بغير قصد فليس تعريضًا بأن المترجَم كان من المعروفين بارتكاب الذنوب، بل هو معروف بالصلاح والتقوى، وممتاز بين الأطباء وغيرهم من أهل العصر بذلك.

***

سيرة الفقيد العلمية والإصلاحية
وشيء من سيرة تِربه الطبيب عبده إبراهيم

لا يعنى المنار بترجمة أحد من الموتى إلا إذا كان في ترجمته عبرةً في الإصلاح الديني أو الاجتماعي، فهو لا يحفل بترجمة أرباب المناصب والمظاهر الدينية ولا الدنيوية إذا خلت من هذه العبرة، وقد يهتم بسيرة من ليس له مظهر كبير إذا كانت مشتملةً على ما يفيد القراء منها، وصديقنا الطبيب محمد توفيق صدقي لم يكن من أصحاب المناصب الدنيوية، ولا من الخاملين المغمولين، بل كان -رحمه الله تعالى - من طبقة الوسط التي هي خير الطبقات، وأهل الطبقة العليا في المناصب والمظاهر الدنيوية يقل أن يوجد فيهم رجل من أولي الفضيلة والإصلاح، وأقل هؤلاء من ارتقى إلى المناصب العالية بسيرته الإصلاحية، كشيخنا الأستاذ الإمام.

كان الفقيد يقرأ المنار منذ كان تلميذًا في المدرسة الخديوية، وقراءة المنار هي التي بعثت ما في فطرته من الاستعداد للبحث والنظر والاستدلال في العلم والدين كما كان يقول، وكان صديقه ورفيقه في المدرسة عبده إبراهيم على شاكلته في هذا الاستعداد، ولكنه لم يوفق للكتابة كصنوه الروحي وتربه صاحب الترجمة، فلم يكن له آثار تكون له ترجمةً إصلاحيةً خاصةً، ولكنه كان مصلحًا في آدابه وأخلاقه ومناظراته وسيرته في أهله ووطنه، ومن البر بهذين الأخوين الروحيين أن نمزج سيرة أحدهما بسيرة الآخر.

كان أول ما كتبه محمد توفيق صدقي من المباحث الدينية العلمية مقالات (الدين في نظر العقل الصحيح) التي نشرت في المجلد الثامن من المنار (ص 330، و417، و693، و132، و771) وقد علقنا عليها بعد الانتهاء من نشرها هذه الجملة في (ص782، و783 م8).

(المنار)

السبب في كتابة هذه المقالات هو أن كاتبها كان يحب البحث عن كل ما يعرض له من الشبهات على الدين، وهو تلميذ في مدرسة الطب، ولهذه الشبهات مصدران: التعليم الجديد، ودعاة النصرانية الذين يعرضون لتلاميذ المدارس بأبلغ مما يتصدون لغيرهم، وكان له رفيق في المدرسة اسمه عبده أفندي إبراهيم عرفناهما منذ سنين إذ كانا يرجعان إلينا في بعض مباحثهما، ويعرضان علينا أهم ما يشتبه عليهما كمسألة الروح، والبعث، وغير ذلك، وكنت أظن أنه لا يوجد في مصر من يطلب العلوم الدينية لأجل الاقتناع والإذعان والقدرة على الإقناع والبيان، إلا هذان التلميذان،

وأحدهما مسلم والآخر قبطي، كانا يأخذان المسألة من مسائل الاعتقاد فيدققان فيها النظر، ويتناصفان في المناظرة إلى أن يتفقا على أن الحق فيها كذا، فما خرجا من المدرسة إلا وقد خرج المسلم من شكوكه في دينه، ودخل القبطي في الإسلام البرهاني الصحيح.
فهو المسلم على بصيرة تامة وفهم لبراهين الدين وحكمه، ثبتنا الله وإياه.
وهذه المقالات هي صورة اعتقادهما الذي هداهما إليه ربهما بعد إطالة النظر والاستدلال عدة سنين، وأكثر ما فيها من المسائل في الألوهية والنبوة وفهم القرآن مقتبس من رسالة التوحيد للأستاذ الإمام، ومن التفسير المقتبس عنه في المنار، ومن مقالات أخرى في المنار، لا تقليدًا بل اقتناعًا بالنظر والاستدلال، وللكاتب مسائل كثيرة هداه إليها البحث والتنقيب ومراجعة كتب المسلمين والإفرنج لا سيما في رد شبهاتهم كما رأيت، وهو يدعو من خالفه في شيء مما كتبه إلي المناظرة بشرط أن يكون الحكم بينهما الدليل القطعي، وما هو إلا العقل والقرآن والسنة المتواترة؛ لأن المقام مقام تأييد الاعتقاد، وهو لا يكون بأخبار الآحاد، ولا بتقليد الآباء والأجداد.
وكأني ببعض الشيوخ المقلدين، وقد أنكروا عليه بعض المسائل التي انفرد بها، أو وافق بعض العلماء المخالفين للجمهور كمسألة ابن السبيل، ومسألة النسخ، فالهَيِّن اللّيِّن منهم يعذره، والجامد المتعصب يغلظ عليه، وإن كان قد خرج بهذه الطريقة من الشك إلى اليقين، وخرج صاحبه من النصرانية ودخل في الإسلام، وإن تقاليدهم لتقصر عن ذلك، ولو راجعهم في شبهاتهم لما رجع إلا بالجحود والإلحاد [وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ](الرعد: 33) اهـ ما نشرناه يومئذ في المنار (سنة 1323).
هذا ما نشر في المنار من مبدأ سيرة هذين الفرقدين منذ 15 حولاً، وإنني أزيده إيضاحًا بما علمته منهما في ذلك العهد:كان كل منهما قد عرض له الشك في دينه فلم يكونا موقنين ولا مكذبين، والشك هو الذي حملهما على البحث والنظر على قاعدة أبي حامد الغزالي: من لم يشك لم ينظر إلخ، ولكن ما كل من يشك ويتحير، يبحث وينظر، وما كل من يبحث وينظر، يجدّ ويخلص ويثبت حتى يعلم ويوقن، وإنما ذلك شأن أصحاب الفِطر السلمية، والأنفس الكريمة، وما أكثر من كان حول هذين التلميذين في مدرسة الطب من التلاميذ الشاكين الراضين بشكهم وحيرتهم، التاركين للنظر والاستدلال حتى انتهى بهم ذلك إلى التعطيل والإلحاد، ويحسبون أنهم في ذلك على علم، وإنما هم في غمرة من الجهل.
بدأ ذانك التلميذان الفاضلان بحثهما فيما عرض لهما من الشبهات على أصول الدين المطلق: - وهي

الألوهية والرسالة والبعث - ثم جعلا من وقتهما مواعيد معينةً للبحث في كل أصل من هذه الأصول فبدءا في مسألة وجود الخالق وتوحيده وصفاته، وكانا يراجعان في ذلك بعض كتب الكلام، وبعض مباحثه في غير كتبه الخاصة كتفسير الرازي ، ويرجعان إلى كاتب هذه الترجمة و (صاحب المنار) فيما يشكل عليهما فهمه أو تستعصي شبهته، فانتهى بهما البحث والنظر إلى الإيمان اليقيني بوجود الله - تعالى - ووحدانيته واتصافه بصفات الكمال، وتنزهه عن كل نقص، ثم شرعا في النظر والاستدلال على بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام، فرسالة خاتمهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وكون القرآن كلام الله - تعالى - وعلى البحث والجزاء، فثبت عندهما كل ما ذكر في زمن طويل.

ومما أتذكره من شبهاتهما وشذوذهما في أثناء البحث في مسألة الروح والبعث أنهما كانا قبل أن أقنعتهما بوجود الروح للبشر مستقلة في وجودها، قد اقتنعا بعقيدة البعث الجسدي فكان هذا من أغرب ما عرض لهما من الشذوذ.

وبعد أن صح إيمانهما نظرًا واستدلالاً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر بقي لهما شبهات مشكلة في بعض آيات القرآن لمخالفة بعض المباحث العلمية والتاريخية لها فزالت بالتدريج، وأذكر أن المرحوم عبده إبراهيم جاءني مرةً وجلس إلي في مكتبي، ثم أخرج المصحف الشريف من جيبه، وقال لي: إنني مستشكل في آيات معدودات وضعت عليها علامات فأحببت عرضها عليك رجاء إزالة الإشكال، ثم طفق يتلوها علي، وكلما تلا آيةً عرفت وجه استشكاله إياها، ففسرتها له بما يزيل إشكاله ويقنعه، حتى إذا ما أتمها قال بصوت مؤثر منبعث من أعماق قلبه: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله).

وأخبرني أنه غير عازم على إثبات إسلامه في المحكمة الشرعية؛ لأنه مؤمن مسلم لله لا لأجل شيء من المعاملات الدنيوية، ثم كان يخبرني بامتعاض والديه وذوي القربى من إسلامه، ومناشدتهم إياه أن يظل كاتمًا له عن الناس، وبقي ذلك عدة سنين، وكان بعد أن صار طبيبًا موظفًا يفيض على والديه وأهل بيته من راتبه، ويواسيهم ويحسن من معاملتهم فوق ما يحسنون من معاملته، وأنه كان يقول لوالديه: إن الله - تعالى - أمرني في القرآن بأن أصاحبكما بالمعروف، ولا أطيعكما في أمر الدين بقوله: [وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً](لقمان: 15) ثم إنه بعد ذلك أظهر إسلامه وتزوج فتاةً مسلمةً، ورزق منها أولادًا كان يحسن تربيتهما وتعليمهما.

وقد شرع بعد اطمئنانه بالإسلام في حفظ القرآن، ومطالبة نفسه بالعمل به، والتخلق بأخلاقه وآدابه، ولم أر من أحد من أصدقائي ولا من تلاميذي، ولا غيرهم مثله في ذلك، وقد جاءني مرةً متألمًا شاكيًا من نفسه فقال: إنني مؤمن إيمانًا يقينيًّا ليس فيه زلزال ولا اضطراب، ولكنني أقرأ بصفات المؤمنين في القرآن فلا أراني متصفًا بها كلها، فكيف يوجد الشيء وتتخلف عنه آثاره ؟ إنني لفي حيرة وغم من التفكر في هذا الأمر، وأرجو أن أجد عندك ما تزول به هذه الحيرة، فأجبته جوابًا مفصلاً أرضاه وكشف غمته، خلاصته أن ما يتبع الإيمان من صفات الكمال لا يحصل كله دفعةً عقب الإسلام، وإنما ينطبع الكثير منها في النفس بالعمل الذي شرعه الإسلام من العبادات والآداب والمعاملات (قلت له): فطالِب نفسك بذلك تتربَّ عليه تربية إسلامية جديدة يساعدك عليها ما وهبك الله من سلامة الفطرة وحسن النية.

هذا، وإن هذين الرجلين كانا يعملان بما يعلمان من أحكام الإسلام وفضائله، وقد شرعا بعد الفراغ من مباحث العقائد يبحثان في الأحكام العملية بما جريا عليه من الاستقلال في الاستدلال، ويرجعان إليّ فيما يعرض لهما من إشكال، وأذكر من ذلك أنهما فهما من آية الوضوء في سورة المائدة أنه واجب لكل صلاة فكانا يتوضآن لكل صلاة، على ما في ذلك من المشقة إلى أن أقنعتهما بأن ذلك غير واجب وأن المتوضئ يصلي بوضوئه ما لم ينتقض بالحدث، وكنت أحيانًا أحيلهما في بعض المسائل على مراجعة بعض الكتب فاقتنيا كثيرًا من الكتب الدينية، وكان المترجَم أكثرهما اقتناءً للكتب ومطالعةً لها ومراجعةً فيها، حتى إنه اشترى مسند الإمام أحمد، وناهيك بصعوبة المراجعة فيه على غير المحدث.

***

مقالات صاحب الترجمة وكتبه والرد عليه

مسألة أبوة آدم للبشر:

أول ما كتبه صاحب الترجمة في أصول الدين باستقلاله الذي مرن عليه مقالات (الدين في نظر العقل الصحيح) كما قلنا آنفًا، وكنت أصحح له العبارة، وأراجعه فيما أخطأ به من المسائل فيصحح ما اقتنع به دون غيره، وقد أنكر غير واحد عليه في هذه المقالات ما ذهب إليه من القول بأن آدم ليس أبًا لجميع البشر، وقد قال ذلك في رد شبهة مذهب (داروين) في أصول الأنواع، وكونه

غير منافٍ لأصل قطعي في الإسلام.
وهذه المسألة كان الأستاذ الإمام قد قررها في تفسير أول سورة النساء في الجامع الأزهر ، ولكن لم تكن نشرت في المنار عندما كتب صاحب الترجمة ما كتبه فيها، ولا أذكر الآن أنه سمعها منه، ولكن يغلب على ظني أنني ذكرتها له بعد أن كتب ما كتبه، ولا أذكر تفصيلاً في ذلك، وإنما أعلم أنني كنت أبحث معه في بعض المسائل غير المنقحة، وتقدم ذكر ذلك.
لما راجعَنا قراء المنار في تخطئته في هذه المسألة قولاً وكتابةً أجبناهم في باب الانتقاد على المنار (ص920 م8) من وجهين، أحدهما: أنه ليس من شأن أصحاب الصحف أن يقرنوا رأيهم بكل ما ينشرونه لغيرهم، وثانيهما: أن الكاتب ذكر ما ذكره في المسألة على تقدير ثبوت مذهب داروين ثبوتًا قطعيًّا، وهو غير ثابت عنده الآن بل هو يقول إنه نظريات ظنية، وإنه إذا ثبت لا ينقض شيئًا من نصوص القرآن، بل يمكن أن يؤخذ من القرآن ما يوافقه.
ثم كتبنا نبذةً أخرى في باب الانتقاد على المنار (ص947 م8) أجبنا فيها عما كتبه بعض المنتقدين في الرد على صاحب الترجمة بقوله تعالى: [إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ](آل عمران: 59) وببعض الأحاديث، وقلنا في آخر هذا الجواب ما نصه: (ولا تنس أننا نؤمن بأن آدم خلق من التراب، كما ورد بلا تأويل، وإنما التأويل لإلزام المعترض على الدين أو إقناع المرتابين).
ثم إن صاحب الترجمة كتب في المجلد الرابع عشر من المنار مقالاً عنوانه: (كيف خلق الإنسان) بعد مقالات نشرها في بعض الصحف اليومية رد فيها على مذهب داروين ردًّا شديدًا قال فيه: إنه أورد عليه في بعض تلك المقالات احتمالات تقوض أهم أركانه، وتدك أكبر أسس برهانه، حتى إن كبيرًا من أعظم أنصاره في الشرق لم يقدر على الرد علينا - يعني: الدكتور شبلي شميل - (قال): وقد سألني بعض الإخوان قائلاً: إذا كنت تشك في صحة مذهب داروين فكيف تفسر لنا علميًّا خلق الإنسان من طين ؟ ثم سرد تلك الاحتمالات، وأتبعها بجواب هذا السؤال (يراجع مقاله في ص303 م14).
(استطراد وجيز): صرحنا غير مرة في المنار بأن مذهبنا في العقائد وأصول الدين وكذا فروعه هو مذهب جمهور السلف الصالح، وأن ما نذكره أو ننشره لنا أو لغيرنا من تفسير أو تأويل مخالف لمذهب السلف - فغرضنا منه إما دفع شبهة عن الدين، وإما تقريب مسألة من مسائله لعقول بعض المرتابين؛ لأن من يخالف مذهب السلف في بعض المسائل غير القطعية المعلومة من الدين بالضرورة عن اجتهاد وتأول لا يعد مرتدًّا ولا متبعًا غير سبيل المؤمنين من بعد ما تبين له الحق،

وقد نشرنا في فتوى الكلام الإلهي وكون القرآن بعبارته منه التي يراها القارئ قبل هذه الترجمة - كلامًا نفيسًا في عذر من أخطأ من العلماء المتأولين بحسن النية وقصد خدمة الدين لشيخ الإسلام ابن تيمية (جزاه الله عن هذه الأمة خيرًا) لم نر لأحد من العلماء الأعلام مثله في تحقيقه وحسنه، ونحن نعتقد أن الأستاذ الإمام والطبيب محمد توفيق صدقي من طبقة أولئك العلماء الذين كانوا ينصرون الإسلام ويدافعون عنه بمنتهى الإخلاص، ويحرصون على إثبات دعوته، وإقناع المنكرين عليه بحقيته، ويردون الشبه عنه، تارةً بالدليل وأخرى بالتأويل المعقول، وأنهم ممن يشملهم الحديث الصحيح الذي يثبت لمن اجتهد فأخطأ أجر الاجتهاد، ولمن اجتهد فأصاب أجر الاجتهاد وأجر إصابة الحق؛ لأنه غير خاص بالمجتهد المطلق الذي له مذهب خاص في جميع مسائل الخلاف، ونقول فيهما ما أرشدنا شيخ الإسلام إلى أن نقوله في مثل الشيخ الأشعري والقاضي الباقلاني، وغيرهم من العلماء المخلصين، وهما منهم على ما بينهما من التفاوت في العلم [رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ](الحشر: 10) ونسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من المجتهدين المثابين، ويحشرنا في ذمرتهم يوم الدين.

ويذكر القراء أيضًا أن بعض الأزهريين قد نسبوا إلينا منذ سنتين مسألة إنكار كون آدم أبًا لجميع البشر، وكفرونا بذلك في مقالات نشروها في الجرائد، ولم يشركوا معنا في هذا الإنكار والتكفير الأستاذ الإمام، ولا الطبيب محمد توفيق صدقي - رحمهما الله تعالى - فدل ذلك على أنهم قالوا ما قالوه اتباعًا للهوى، غفر الله لنا ولهم.

***

مسألة الإسلام هو القرآن وحده

أكبر شذوذ وقع للمترجم -رحمه الله تعالى- وحاول إثباته والدفاع عنه هو ما عرض له من الشبهة على كون السنة ليست من أصول الدين، والاقتناع مدةً من الزمن بأن الإسلام هو القرآن وحده، فمن عمل به كان مسلمًا ولا يحتاج إلى معرفة السنة؛ لأنها كانت شريعةً مؤقتةً، ولما عرض له ذلك واقتنع به هو وصديقه الطبيب عبده إبراهيم -عفا الله عنهما- جاءاني كعادتهما وعرضاه علي، وانبرى صاب الترجمة لبيان ما قام عنده من الأدلة عليه فأوردت عليه اعتراضات كان يشتغل بالبحث فيها زمنًا، وإنني كنت أعلم أن هذا الرأي منتشر في كثير من الأمصار التي يسكنها

المسلمون، وأعلم أيضًا أن كثيرًا من المباحث الكبيرة التي تختلف فيها الأنظار لا تتمحص إلا بالكتابة والمناظرة، فلهذين السببين ولتوفير الوقت علي في تمحيص المسألة لصاحب الترجمة وصديقه بالمشافهة، اقترحت عليه أن يكتب رأيه هذا لينشر في المنار، ويعرض على علماء مصر وسائر الأقطار، وبينت له ما في الكتابة من خروج المسائل العلمية من حيز الإجمال إلى حيز التفصيل، فكتب مقال (الإسلام هو القرآن وحده) ونشرناه في المجلد التاسع من المنار (ص515 - 524) وعلقنا عليه تعليقًا وجيزًا أشرنا فيه إلى سبق بعض الباحثين له فيه، وإلى ما سبق من مذاكراتي فيه معه ومع تِربه وقرينه الطبيب عبده إبراهيم، وإلى المراد بكتابته من عرضه على العلماء والباحثين، ثم قلنا: (فنحن ندعو علماء الأزهر وغيرهم إلى بيان الحق في هذه المسألة بالدلائل، ودفع ما عرض دونه من الشبهات، فإن المحافظة على الدين في هذه العصر لا تكون بالنظر في شبهات الفلسفة اليونانية، أو شذوذ الفرق الإسلامية التي انقرضت مذاهبها، وإنما تكون بإقناع المتعلمين من أهله بحقية الدين، ودفع ما يعرض لهم من الشبهات على أصوله وفروعه الثابتة، وأهونها ما يعرض للمعتقدين المستمسكين، ككاتب هذه المقالة، فإنني أعرفه سليم العقيدة مؤمنًا بالألوهية والرسالة على وفق ما عليه جماعة المسلمين، مؤديًا للفريضة، وإنما كان إقناع مثله أهون على علماء الدين؛ لأنه يعد النص الشرعي حجةً فلا يحتاج مناظره إلى إقناعه بالألوهية والرسالة ليحتج عليه بنصوص الوحي) اهـ المراد من التعليق، وقد كتب هو أيضًا في أواخر المقالة: (فهذه أفكاري في هذه المواضيع أعرضها على عقلاء المسلمين وعلمائهم، وأرجو ممن يعتقد أنني في ضلال أن يرشدني إلى الحق، وإلا كان عند الله آثمًا).

***

رد الشيخ طه البشري على الدكتور

أول من تصدى للرد على هذه المقالة الشيخ طه البشري من علماء الأزهر، وهو نجل المرحوم الشيخ سليم البشري الذي كان شيخ الجامع الأزهر، ورئيس المعاهد العلمية الدينية بمصر في ذلك العهد، فكتب في ذلك مقالاً عنوانه: (أصول الإسلام: الكتاب، السنة، الإجماع، القياس) نشر في المجلد التاسع نفسه (من ص 699 - 711) ومقالاً عنوانه (الدين والعقل) نشر في (ص771 - 781 م 9).

وردَّ صاحب الترجمة على هذا الرد في رسالة عنوانها: (الإسلام هو القرآن وحده - رد الرد) نشرت في المجلد نفسه (من 906 - 935) وعلقنا عليها تعليقًا عنوانه في رؤوس الصحائف (الإسلام هو القرآن والسنة) (من ص935 - 930) فكان هذا التعليق مبينًا له الخطأ الأكبر الذي وقع فيه، وحاملاً له على الرجوع عنه، فكتب قَولةً مختصرةً عنوانها: (أصول الإسلام - كلمة إنصاف واعتراف) نشرت في (ص140) من المجلد العاشر صرح فيها بأنه ارتكب الشطط، وأن الصواب ظهر له مما كتبه أستاذه صاحب المنار، ثم قال: (فأنا أعترف بخطأي هذا على رؤوس الأشهاد، وأستغفر الله مما قلته أو كتبته في ذلك وأسأله الصيانة عن الوقوع في مثل هذا الخطأ مرةً أخرى، وأصرح بأن اعتقادي الذي ظهر لي من هذا البحث بعد طول التفكر والتدبر، هو أن الإسلام هو القرآن وما أجمع عليه السلف والخلف من المسلمين عملاً واعتقادًا أنه دين واجب، وبعبارة أخرى أن أصلَيْ الإسلام اللذين عليهما بُني، هما الكتاب والسنة النبوية بمعناها عند السلف، أي: طريقته صلى الله عليه وسلم التي جرى عليها العمل في الدين) وأستثني من ذلك السنن القولية غير المجمع عليها، وما كان له علاقة شديدة بالأحوال الدنيوية (أي التي فوضها النبي صلى الله عليه وسلم إلى الناس) وعد منها بعض الحدود ومقادير زكاة المال والفطر، والأصناف التي تؤخذ منها، ولكن بعض ما استثناه مجمع عليه، وهو إنما ينكر كونه من أصول الدين القطعية، لا كونه منه مطلقًا.

ثم جاء رد مطول مفصل على مقالة (الإسلام هو القرآن وحده) بقلم الشيخ صالح اليافعي من علماء العرب المقيمين في (حيدر آباد الدكن) في الهند، موضوعه (السنن والأحاديث النبوية) نشر في المجلد الحادي عشر من المنار (ص141، و 214، و371، و454، و521) فرد المترجم على مباحث منه في 3 مقالات عنوانها: (كلمات في التواتر والنسخ وأخبار الآحاد والسنة) نشرت في هذا المجلد (راجع م 11 ص594، و688، و771).

ثم رد الأستاذ اليافعي على هذا الرد في مقالات نشرت في المجلد الثاني عشر (م 12: ص 125، و201، و289، و371، و441، و521) وقال في خاتمة هذا الرد عبارةً تدل على اهتمام العلماء في الهند بهذه المناظرة، وطلب منا الحكم فيها فقال:(هذا جواب ما كتبه الدكتور الفاضل بغاية الاختصار، وأنا أرجو حضرة شيخ الإسلام أن يطبع ذلك في المنار الأغر، ولو دفعات متفرقة فإنه قد رغب فيه كثير من قراء المنار، ومن ينظره بعين الاعتبار، وألتمس من حضرته أن يصلح ما فيه الخطأ والزلل؛ لأني كتبته بعجلة بعد أن كنت أردت الإعراض عن الجواب، ولكن إرضاءً لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ثم للإخوان الكرام الذين رغبوا في ذلك كتبت ذلك ارتجالاً، وألتمس

من شيخ الإسلام أن يذكر ملخص رأيه وكذلك ألتمس من علماء الإسلام - حفظهم الله وأيد بهم الدين - أن يتكلموا ولو بالتصويب والتخطئة؛ فإن الزمان كما ترون أهله أول ما يبادرون إلى حب الخلاف ولو لأضعف الشبهات).

وإننا إجابةً للدعوة كتبنا في ذلك مقالاً في ذلك، عنوانه: (النسخ وأخبار الآحاد) نشر في (ص 693 - 699) من ذلك المجلد (12) وبه انتهت هذه المناظرة الطويلة التي شغلت عدة أجزاء من أربعة مجلدات من المنار في أربع سنين، ثم أوضحنا مسألة السنة، وإفادة بعض أخبار الآحاد اليقين الشرعي اللغوي وحررنا معنى اليقين والظن في المنار بما لم نطّلع على مثله لأحد، ولله الحمد.

ونقول: إن هذه المناظرة الطويلة كانت سببًا لاشتغال كثير من قرائها بعلم السنة وأصول الدين، وقد سرى ذلك منهم إلى غيرهم فصار للسنة من الأنصار في مصر وغيرها ما لم يكن لها من قبل، ولا يزال عددهم في نماء وازدياد، ولله الحمد.

***

رد صاحب الترجمة على المبشرين

أشرنا في أول هذه الترجمة إلى أن دعاة النصرانية كانوا أحد الأسباب الباعثة للمترجَم إلى البحث في الدين، الذي انتهى به إلى الانتقال من الشك إلى اليقين، ثم إلى الدفاع عن الإسلام.

كما انتهى هذا البحث بتِربه الدكتور عبده إبراهيم إلى الإسلام البرهاني الإذعاني، والصلاح والإصلاح النفسي والاجتماعي.

وقد كان أهم ما كتبه المترجَم بقصد الدفاع عن الإسلام، الرد على أولئك الدعاة الذي حفزته إليه مناظراته معهم، واطلاعه على كتبهم، وقد استعد لذلك بقراءة كثير من الكتب الإنكليزية لطائفة العقليين من الإفرنج، وللملاحدة الذين ردوا على النصرانية.

ومقالات الفقيد في الرد على المبشرين لا يغني عنها أكبر الكتب المصنفة في الرد عليهم ككتاب إظهار الحق، وقد جُرد بعضها من المنار وطبع في كتب مستقلة، وأقواها وأوسعها ما نشر في المجلدين الخامس عشر والسادس عشر من المنار كمقالة: (القرابين والضحايا في الإسلام) ومقالة: (الدين كله من القرآن) ومقالات: (بشائر عيسى ومحمد في العهدين) وتراجع في (ص281، و 352، و427، و494، و586، و651، و745، م 15) ورسالة (نظريتي في قصة صلب المسيح

وقيامته) وتراجع في 113 و193 - 216 م 16، و (نظرة في كتب العهدين وعقائد النصرانية) في المجلد السادس عشر أيضًا.

وقد هاجت بعض مقالات هذه الرسالة المبشرين فتوسلوا إلى لورد كتشنر بأن يوعز إلى الحكومة المصرية بإلغاء المنار ومنع صدوره منعًا أبديًّا، وبمحاكمة منشئه والدكتور محمد توفيق صدقي، وقد كلمني في ذلك النائب العمومي في ذلك العهد عبد الخالق ثروت باشا ، وعهد إلي بأن أقابل رئيس الوزراء (محمد سعيد باشا) أنا وصاحب الترجمة، فقابلناه وكلمَنا في المسألة، ونهى المترجَم أن يعود إلى كتابة مثل تلك المقالة المستنكَرة في شدة طعنها، وكَلَّمنا في وجوب تخفيف لهجة المنار في الرد كما يراه القارئ في آخر المجلد السادس عشر (ص 958).

ولما أنشأنا مدرسة دار الدعوة والإرشاد عهدنا إلى صاحب الترجمة بإلقاء دروس سنن الكائنات وحفظ الصحة، فيها معتقدين أنه لا يوجد في مصر طبيب ولا عالم عصري يقدر على أداء هذه الدروس بشرط برنامج المدرسة غيره، فقام بالأمر خير قيام، ونقح هو ما كتبه بعض طلبة المدرسة من تلك الدروس، ونشرت في المنار، ثم طبع بعضها في جزئين.

وجملة القول

أن الطبيب محمد توفيق صدقي -رحمه الله تعالى- كان ركنًا من أركان العلم والإصلاح في مصر، ولم نجد صديقًا لنا ولا تلميذًا في مصر ولا غيرها خدم المنار وكان له مساعدةً ثمينةً في تحريره غيره، وقد كان محسنًا شكورًا يذكر دائمًا مِنة المنار وصاحبه عليه، ونحن نعترف بأن منته علينا أكبر، فقد كان فوق إخلاصه في صداقته ومساعدته القلمية للمنار طبيب بيتنا، وفضله كبير على أولادنا، فرحمه الله - تعالى - وجزاه أفضل الجزاء عنا وعن نفسه ودينه وأمته.

ترجمة فقيد العلم والإصلاح
أحمد فوزي عمران[67]
بقلم شقيقه محمد بسيوني عمرانفي (جاوه)

حضرة العلامة المِفضال، ذي الفضل والكمال، سيدي الأستاذ السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار الأغر متّعني الله والمسلمين بوجوده الشريف.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد فإني أكتب إليكم اليوم ويدي مضطربة وقلبي مملوء حزنًا وأسى، والهموم مسدلة على القلوب لما رُزِئنا بل رُزئت به (سمبس) كلها من فقد شقيقنا العزيز أحمد فوزي عمران ليلة الخميس الواقعة في 27 شعبان المعظم سنة 1339 الموافقة 5 مايو سنة 1921.

ألا إن مصيبتنا في فقيدنا المرحوم كبيرة كما كان رجاؤنا فيه لإصلاح الأمة كبيرًا، لما رزقه الله تعالى من الأخلاق القويمة والصفات الكريمة، فكان رحمه الله مخلصًا قوي الإيمان، قائمًا بالواجبات، منزهًا عن الفواحش والمنكرات صادقًا في الجد والهزل، عالي الهمة، قوي الإرادة، ساعيًا في مصلحة الأمة، محبًّا للعمل، متواضعًا ناصحًا أمينًا، صابرًا حليمًا، عزيز النفس، مكرمًا محبوبًا من أقاربه وأصحابه وقومه وجميع من عاشره من مختلفي الأجناس.

ولكن الله سبحانه وتعالى لم يحقق رجائي ورجاء الأمة فيه، فلله ما أعطى ولله ما أخذ، إنا لله وإنا إليه راجعون، ألا إلى الله تصير الأمور.

وُلد -رحمه الله تعالى- يوم السبت غرة شعبان المعظم سنة 1306 ولما بلغ ست سنوات من عمره علمه والدنا الشيخ محمد عمران مهراج أمام قاضي (سمبس) قراءة القرآن الشريف، ثم أدخله في مدرسة الحكومة الهولاندية ليتعلم فيها الكتابة الملاوية ومبادئ الحساب، وأنا يومئذ في مكة المكرمة أطلب العلم فيها، ففاق رحمه الله في المدرسة أقرانه وتقدم عليهم، ولما أتم دروسه فيها لم يلبث أن طلبته الحكومة معلمًا في هذه المدرسة، وفي سنة 1328 قويت رغبته في تعلم اللغة العربية والعلوم

الدينية وكنت أنا منذ سنتين ونصف جئت من سفري من مكة المكرمة فقلت له: إن أردت أن تتعلم اللغة العربية وعلومها والعلوم الدينية والدنيوية (العصرية) فاذهب إلى مصر وأنا أذهب معك، فاتفق رأينا وطلبنا من الوالد رحمه الله الإذن بالسفر إلى مصر رأسًا لأجل طلب العلم فيها، فلم يستطع مخالفتنا في ذلك، وأخبر الوالد -رحمه الله- مولانا السلطان محمد صفي الدين بمرادنا فسرَّه ذلك الخبر وقال له: إنا نرجوا أن يكون ولداك نبراسًا لبلادنا.

وفي شهر ذي القعدة الحرام سنة 1328 سافرت أنا والفقيد -رحمه الله- وأحمد سعود وسعد علي من أهل بلدنا إلى مصر القاهرة ذاكرين اسم الله وناوين طلب العلم فيها، وفي يوم 13 ذي الحجة الحرام سنة 1328 وصلنا إلى مصر القاهرة ونزلنا في بيت مصلح الأمة العالم العلامة مولانا السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار، فإننا لم نكن نعرف غيره من الناس في مصر، ولا محل لرجائنا في تحقيق أملنا تحصيل ما سافرنا وهاجرنا إليه غير هذا المصلح العظيم، وما كنت أعرفه ولا أرجو ما رجوناه إلا بعد قراءتي المنار، فإني اشتركت فيه منذ سنتين قبل سفرنا إلى مصر، وقد قابلنا في محطة مصر شقيقه الفاضل السيد صالح رضا وكان السيد صاحب المنار ينتظرنا في منزله الشريف، ولما دخلنا وسلَّمنا عليه قابلنا بحفاوة وإكرام على عظم قدره وعلو مقامه، وأكرم مثوانا وضيافتنا ولم ننتقل من بيته إلا بعد أيام - جزاه الله عنَّا خير الجزاء - وكان أول ما سألني عن أحوال مسلمي جاوه وملايو فأخبرته بما علمت، وظهر لي أنه متأسف من انحطاطنا في الأمور الدينية والدنيوية وأنه مهتم بأمورنا الدينية بل والدنيوية، ولم يكن أحد منا يعرف اللغة العربية سوى كاتب هذه الأسطر.

وكنا نود لو نقرأ على السيد ونتعلم منه العلوم العربية والدينية وغيرها من العلوم العصرية، ولكن لم يجد وقتًا لذلك لكثرة أشغاله واشتغاله بما هو أكبر من إقرائنا وتعليمنا من الإصلاح الديني والدنيوي العام، ومع ذلك لم تفُتنا إراشاداته وإفاداته وذلك قبل تأسيس مدرسة دار الدعوة والإرشاد، وأما بعد تأسيسها وفتحها فقد كنتُ أنا والفقيد -رحمه الله- نحضر دروس التفسير والتوحيد التي ألقاها السيد في المدرسة، ولم نحرم ولله الحمد ما كنا نوده ونتمناه، وكنت أنا والفقيد -رحمه الله- نتعلم في الأزهر الشريف ويأخذ كل منا معلمًا خصوصيًّا بأجرة وبغير أجرة.

وكان -رحمه الله- يقرأ النحو والصرف والفقه ويشتغل بحفظ اللغة العربية، ولم يمكث سنة واحدة بمصر إلا وهو يعرف النحو والصرف وينشئ باللغة العربية، ثم أُسست مدرسة دار الدعوة الإرشاد بالروضة بجهة مصر القديمة وكان ناظرها ومديرها العلامة صاحب المنار، ودخلت أنا والفقيد

-رحمه الله تعالى- في هذه المدرسة المباركة بعد امتحاننا فيما اشترطته في طلابها من العلوم التي تعلموها.

وكان الفقيد -رحمه الله تعالى- يُجاري طلبة المدرسة المصريين الذين طلبوا العلم في الأزهر نحو ثماني سنين في العلوم التي تعلم فيها غير أنه رحمه الله لم ينطلق لسانه بالتكلم باللغة العربية انطلاق ألسنة المصريين، وفي سنة 1331 سافرت إلى وطننا (سمبس) والفقيد لم يزل يطلب العلم في المدرسة، ويشتغل بالمطالعات والمذاكرات والمكاتبات، ثم خرج من المدرسة واتخذ معلمين خصوصيين لم يفارقهما حتى سافر إلى (سمبس) أول سنة 1335 وكان قصده التوجه أولاً إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، ثم إلى وطنه ولكن لم يحصل على إذن الحكومة المصرية في السفر إلى الحجاز (كانت الأيام أيام الحرب الأوربية الهائلة التي كانت الإنكليز تخاف فيها السياسة) وكان -رحمه الله- متهمًا بالاشتغال بالسياسة لما وجدته الحكومة المصرية من بعض كتبه إليّ، الذي فيه ذِكر أخبار الحرب، وكان لا يكتب إليّ إلا باللغة العربية.

ولما وصل الفقيد رحمه الله تعالى إلى (سمبس) أحبه مولانا السلطان وازداد رغبة في إنشاء مدرسة تعلم فيها اللغة العربية وعلومها والعلوم الدينية والدنيوية كالجغرافية والحساب، وأمر الفقيد بتأليف نظام للمدرسة المرغوب وجودها في سمبس، فألف رحمه الله نظامًا بموجب الأمر السلطاني مقتبسًا من نظام مدرسة دار الدعوة والإرشاد.

وفي شهر ذي القعدة الحرام سنة 1336 تأسست في (سمبس) والحمد لله مدرسة عربية دينية تسمى (المدرسة السلطانية) وكان ناظرها ومديرها وأكبر أساتذتها فقيدنا المرحوم المأسوف عليه، فكان الإقبال على هذه المدرسة أطال الله عمرها عظيمًا من أهل البلد، فأدخلوا فيها أبناءهم وبناتهم حتى خرج كثير من طلبة مدرستي الحكومة وانتظموا في سلك تلاميذها، ومن يوم تأسست المدرسة وفتحت كان وما زال رحمه الله يشتغل بالتعليم فيها إلى 10 رجب الفرد سنة 1338 الموافق 1 مارس سنة 1920 فإنه -رحمه الله- استأذن مولانا السلطان في السفر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وزيارة قبر النبي - صلى الله عليه وسلم - في المدينة المنورة.

وفي 23 رجب سنة 1338 الموافق 13 أبريل سنة 1920 سافر رحمه الله إلى سنغافورة فإلى مكة المكرمة، وقبل أداء فريضة الحج حصل له فيها نزيف شديد من فمه فذهب مسرعًا إلى طبيب الحكومة الحجازية وفحصه ثم فحصه وعالجه طبيب جاوي أرسلته الحكومة الهولاندية إلى مكة وقال له: إن هذا الداء هو السل وإنك لا بد أن تسافر سريعًا إلى جاوه، وبعد أن أدَّى رحمه الله

فريضة الحج سافر إلى سمبس ولم يمكنه السفر إلى المدينة المنورة طبعًا، وفي يوم الإثنين الواقع في 5 صفر 1339 وصل رحمه الله إلى وطنه وهو لم يزل مريضًا نحيفًا وبعد أسبوع ذهب إلى سنكاوغ (إحدى قرى سمبس) لأجل التداوي عند طبيب الحكومة الهولاندية فقال له الطبيب الهولاندي: إنك لا بد أن تعالج في بتاوي فإني لا يمكنني أن أعالجك هنا وفي 30 صفر 1339 سافر إلى بتاوي ودخل إلى أحد المستشفيات هنالك ثم نقل إلى مستشفى في بوقر وكان لا ينقل إلى هذا المستشفي إلا من تقدمت صحته، وفي 8 رجب 1339 وصل رحمه الله تعالى راجعًا من بتاوي إلى سمبس فسررنا سرورًا عظيمًا لأنا ظننا أنه قد شفي شفاءً تامًّا إذ لم نر فيه إلا سعالاً قليلاً، وفي يوم 16 شعبان 1339 عاوده نزيف الدم وازداد مرضًا، وفي ليلة الخميس عند الساعة الثانية ونصف عربية الواقعة في 27 شعبان سنة 1339 خرجت روحه الطاهرة بعد أن نطق بالشهادتين فحصلت الضجة والجزع والحزن من أقاربه خاصة ومن الناس عامة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

كان رحمه الله تعالى أديبًا، وخطيبًا واسعًا، وشاعرًا قليلاً، وكان له في العلوم العربية نصيب وكذا في العلوم الرياضية والعصرية والدينية، وتدل على ذلك مقالاته التي كتبها باللغة العربية والملاوية، وكان محررًا بجريدة الاتحاد الملاوية التي كانت تصدر بمصر القاهرة، وكان رحمه الله يقرأ المنار من يوم عرف العربية وكان آخر قراءته له الجزء الثاني من المجلد الثاني والعشرين وله مقالة نشرها المنار أيام كان بمصر، ومن أثر اجتهاده وحسن طريقته في التعليم أن تعلم وفهم في مدة سنتين عدة أشخاص من تلامذته اللغة العربية والنحو والصرف فهمًا مكنهم من قراءة وفهم الكتب العربية السهلة العبارة ومن الكتابة باللغة العربية على أنهم لم يكونوا يعرفون شيئًا من اللغة العربية قبل دخولهم المدرسة، ولذلك لما وصل الفقيد رحمه الله من سفره تمنى كل من تلاميذ المدرسة ذكورًا وإناثًا أن يعود إليها معلمًا ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه، وإن إرادة الله فوق كل إرادة وقدرته تعالى نافذة وليس لنا إلا الرضاء والتسليم لحكمه وقضائه.

وقد قال كثير من الناس بعد وفاة المرحوم: إن المدرسة تموت قريبًا، فإنه ليس فيها معلمون أكفاء، والسبب الأول في موتها عدم الأموال التي تحيا بها، والمسلمون بخلاء ضعفاء في الأحوال المالية.

هذا وإنني ذكرت ما ذكرت من الإطراء والثناء على شقيقي رحمه الله، وهو حق إن شاء الله تعالى، ولا فائدة لي وله في ذلك ما لم يستحقه، وشهد له بذلك جميع من عرفه من أهل العلم والفضل الذين يقدرون الفضيلة حق قدرها كما تشهد له به آثاره التي لا موضع لذكرها هنا.

سمبس برنيو الغربية

في 9 شوال سنة 1339 الموافق 16 يونية 1921

كتبه

محمد بسيوني عمران

تقريظ المطبوعات[68]

(كتاب تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر) [69]

صفحات هذا الكتاب 159 بقطع رسالة التوحيد ومواضيعه 53 وقد طبع بدمشق الشام بمطبعة الحكومة العربية السورية (السابقة) سنة 1339 على ورق جيد، ويطلب من مؤلفه الشيخ محمد سعيد الباني بدمشق الشام.

(شيء من مواضيع الكتاب)

المقدمة: من المؤلفين والكُتَّاب من يفترص لما يريد إذاعته فرصة سانحة، فيبدي فيها بعض ما يريد نشره، ومؤلف هذا الكتاب الشيخ محمد سعيد منهم؛ لأنك إذا قرأت الكتاب وأردت أن تأخذ منه سيرة الفقيد مجردة، كما يحب المؤلف، لا تكاد تثبت منه الربع وأما الثلاثة أرباع الباقية فهي مواضيع وآراء في الإصلاح والتراجم والنقد، فهذه المقدمة وهي من ص5-14 ليس فيها شيء من سيرة المترجَم له، بل هي مقالة في الدين ولزومه والبدع المبتدعة إلخ.

أعماله وآثاره: ذكر في هذا الموضوع ما كان من أعمال الفقيد من الاجتهاد في إصلاح الكتاتيب والمدارس الرشدية وبعض مؤلفاته وما عدا ذلك فهو في انتقاد العلم وكتبه إلخ.

استثارته دفائن اللغة العربية: هذا الموضوع في أربع صفحات لم يكن فيها شيء عن الفقيد يزيد على نصف صفحة على أنه لم يذكر فيه شيئًا من تلك الدقائق ولا ما استثاره منها وبعثه من مرقده، فهل كان كتاب (المخصص) من جملة ما أحياه ؟عنايته بإحياء التاريخ: هذه النبذة استغرقت من الكتاب ما يقرب من أربع صفحات لم يكن فيها شيء عن الفقيد سوى ما ملخصه (عني فقيدنا بإحياء التاريخ وإرشاد المسترشدين وغيرهم إلى مزاولته ودراسته وإنعام النظر به وبفلسفته والدلالة على كتبه المفيدة والسعي وراء نشرها وطبعها) وما عدا ذلك فكلام في علم التاريخ وفوائده ولم يذكر ما أحياه من التاريخ والعمران ولا ما نشره منه.

سعيه وراء التوفيق بين الدين والعلم والعمران: هذا الموضوع استغرق ما يزيد على 16 صفحة ليس فيها عن الفقيد سوى ما يقل عن صفحتين نسب فيه للفقيد ما لم يعرف عنه وما لم يدعه هو لنفسه (انظر ص49) وإلا فليقل لنا المؤلف أين مناظرات الفقيد أو كتاباته في الاجتماع والعمران ومحاجته المحافظين على القديم ؟ وإرشاد الطالبين وتعليم الجاهلين.

وكيف كان داعية إصلاح والمؤلف نفسه يقول ما ملخصه: (ولما رأى جدب الزمان من حكماء الأخلاق وساسة الإرشاد، وأن معالم الأخلاق طمست ودراستها قد درست، وأن وظيفته وهي الدعاية إلى الإصلاح العام لم تمكنه من التفرغ لإرشاد السالكين وعظة الغافلين وتربية الأحداث إلخ). انظر ص29.

دعوته إلى الأخلاق والتربية: هذا الموضوع أخذ 11 صفحة كان في الفقيد منها 3 صفحات نسب فيها للمؤلف ما ليس فيه وذكر صحبته وحبه للمستشرقين وحبهم إياه والمزاورة بينه وبينهم وسرد أسمائهم.

فأنت ترى أن الكتاب عبارة عن مجموعة مقالات جعل في كل واحدة منها كلمات في المترجم له رحمه الله تعالى وهذه براعة من المؤلف أشكره على التفطن لها، ولكنني آخذ عليه ـ عملاً بقوله قبيل الخاتمة ص142- (ومن وجد غلطًا في بعض ما عزوته للفقيد...

فليتفضل عليَّ بتصحيح غلطي) إلخ، وبعد الاطلاع على (المدخل) و (المقدمة) ما يأتي فأقول:

أولاً: إن الكتاب بمجموعه لا يصدق عليه اسمه ويصعب جدًّا أخذ تاريخ حياة الشيخ طاهر منه، وأن أخذ ما أورده المؤلف من هذه الترجمة لتشتتها بين أطوائه وفي ثناياه على أنها لا تكون صورة صحيحة للفقيد.

ثانيًا: نسب المؤلف للشيخ تلاميذ ومريدين، ولم يدلنا على أحد منهم والظاهر لنا أنه -رحمه الله- لم يكن ذا قدرة على التعليم فإننا نعلم أنه أقام شهورًا عدة نزيلاً عند بعض السوريين في السويس وأراد أن يعلم أحد أولادهم النحو، وقد رأينا وعاشرنا هذا التلميذ وهو لا يعرف الفاعل من المفعول، فأين هم تلاميذ الشيخ طاهر -رحمه الله- وأين أمكنة دراسته وتدريسه ؟

ثالثًا: لم يذكر المؤلف ما كان له من الآثار في الآثار (العاديات) غير أنه (تعلم كثيرًا من الخطوط الكوفي والمشجر والعبراني وغيرهم ليتسنى له دراسة الآثار الدارسة ونبشها من عالم الدثور إلى عالم الظهور).

رابعًا: لم يذكر ما كان من عمل الفقيد في التوفيق بين العلم والدين إلخ، غير أنه كان من علماء كذا وكذا وما لم يدع الشيخ طاهر لنفسه شيئًا منه في حياته وأنه تبادل الآراء مع المستشرقين وأنه كان بينه وبينهم صداقة إلخ، انظر ص49 و50.

وكذلك قل عن بقية المباحث، ولو أردنا نتبع الكتاب من أوله إلى آخره ما زدنا القراء فائدة ولا المؤلف بصيرة وفيما أوردناه كفاية.

وإليك ترجمة الشيخ طاهر رحمه الله مختصرة مفيدة صحيحة كما وصفها أحد أفاضل علماء الشام ممن له معرفة تامة بالفقيد بعد أن قرأتها عليه إذ قال لي: إنها صورة حقيقية مختصرة للشيخ طاهر فأقول :

الشيخ طاهر الجزائري الدمشقي
حياته وموته ونشأته العلمية

هو الشيخ طاهر ابن الشيخ محمد صالح أحد مهاجرة الجزائريين ومفتي المالكية بدمشق الشام، ولد في دمشق سنة 1268 ونشأ في حجر والده وتلقي مبادئ العلم عنه في بيته، ثم اتصل بالشيخ عبد الغني الميداني فحضر عليه علوم العربية والفقه إلخ، وهو أستاذه الوحيد، وكان له شغف بالمطالعة والمراجعة حتى صار له مشاركة حسنة في جميع العلوم العربية وعني بقراءة الخطوط العربية وخاصة الكوفي منها وتلقى شيئًا من اصطلاحات الهندسة والفلسفة عن بعض ضباط الجند العثماني حتى لم يعد غريبًا عن الهندسة النظرية، وكان ذا حافظة جيدة وذاكرة حسنة لا يغيب عن ذهنه ما قرأه في بعض الكتب من نكتة غريبة أو نادرة، ومع هذا لم يكن يعتمد على ذاكرته بل كان يضع في كل موضع فيه مسألة يحب الرجوع إليها من الكتب علامة من قطع الورق حتى إنه إذا قرأ كتابًا ترى نُتف الورق بارزة منه، وكثيرًا ما كان يكتب رقم الصفحة واسم الكتاب على قطع من ورق تكون في جيبه الذي هو سفطه (محفظته) وجرابه وكان حريصًا على تلك النكت حتى أنه كان يستطرد لوضعها في مؤلفاته، ولو في غير موضعها، وتوفي في دمشق يوم 14 من ربيع الآخر سنة 1338 ودفن فيها رحمه الله تعالى.

هيئته وزيه وعيشته وأخلاقه :

كان -رحمه الله- قمحي اللون واسع العينين غائرهما نحيف الجسم أبيض اللحية رث البزة غير مُعتنٍ بنظافة ثيابه، وكان لباسه ما تسميه أعراب الشام (شبر) ويسمى في مصر (قفطانًا) وفي الشام (قنبازًا أو غنبازًا) فوقه جبة أو جبتان ويتعمم بعمامة من الأغباني، وكان كثيرًا ما يلبس الثوب مرة واحدة فلا يخلعه حتى يبلى ولا يدع الشمسية (المظلة) صيفًا ولا شتاءً ويضع على عينيه منظارًا لتقريب البعيد، فإذا أراد القراءة في كتاب رفعها، وكانت له جيوب في جبته كالخرج.

وكان حديد المزاج ضيق العطن ضعيف المنة، تغلب عليه الوحشة ولعله كان يحس من نفسه بذلك إذ كان يحاول أن يستر الاستياء بمزاح مع جلسائه ومباسطة، وكان كثير الحديث عن علماء دمشق وأعيانها والإسهاب فيما كان عليه معاصروه فيها من الخب والختل والدهان وما كان يدسه هو من الدسائس ليخلص أو يخلص شخصًا، أو ليروِّج مشروعًا خيريًّا من شرهم، ولولا أنه كان يجاهر بذلك في أكثر مجالسه ويفخر به ويعبر عنه بالدسائس الطاهرية، لما استحسنًّا ذكره وقد علمنا علم اليقين أن من دسائسه ما كان للإيقاع لا للإنقاذ.

وكانت عيشته عيشة الزهاد مع الحرص على الوقت وكان يقضي عامة ليله في المطالعة على ضوء مصباح من البترول ثم رأى أن ينتفع بنوره وحرارته معًا، فكان يأتي بقدر صغيرة فيضع فيها شيئًا يريد طبخه يحكم وضعها فوق المصباح معلقة ويقدر لنضجه ساعات يتعاهده عند انتهائها، وكان أحيانًا يطبخ القهوة في القدر ويشرب منها عدة أيام وربما تعفن وجهها من طول المكث.

وكان لا ينام في الليل بل يأتي بيته بعد العشاء ويطالع في الكتب أو يكتب عامة ليله وينام بعد صلاة الصبح إلى العصر وكان ولوعًا بالدخان والشاي والقهوة جميعًا مفرطًا في كل منها، ولم يكن حريصًا على المال.

كان خلقه التعفف والكرم مع الحاجة لا يميل إلى الطمع ولا الدناءة، وقد اشتدت به الحاجة في آخر أيامه في مصر فباع معظم كتبه من أحمد باشا تيمور وكانت نفقته من ثمنها، وكان يتصدق في كل يوم بملاليم (أعشار القرش) يعدها لذلك، وقلما يصدر عن مجلسه وارد بفائدة علمية؛ لأنه لم يكن يذكر بين الناس شيئًا من وسائل العلم لا مفيدًا ولا مناظرًا ولا مذكرًا ولا سائلاً ولا مجيبًا، وإذا سأله مستفيد عن شيء أحاله على المراجعة وربما دله على المظان إن كان يرى أنه يستحق ذلك، وكان يرمي إلى مقاصده من طرف خفي بدهاء.

وربما أوعز إلى بعض جلسائه ليوسط بالأمر يريده، وكان إذا استرسل بالمباسطة أفرط فيكثر من

الحركات ويغرب بالضحك حتى يخرج عن وقار الشيوخ.

وكان متصلبًا في رأيه لا يرجع عنه ولو إلى الصواب، حكى لي شيخ عالم فاضل أطال عشرة الشيخ طاهر أنهم اختلفوا في كلمة لغوية، فكان الشيخ طاهر على رأي تبين بعد المراجعة أنه كان مخطئًا ولم يرجع إلى الصواب.

مؤلفاته :

إرشاد الألباء، مدخل الطلاب إلى فن الحساب، قصص الأنبياء، الفوائد الجسام في معرفة خواص الأجسام، مد الراحة إلى علم المساحة، الجواهر الكلامية في العقيدة الإسلامية، الجوهرة الوسطى، رسالة في العروض.

وقد أراد أن يجعل هذه الكتب مدرسية، وكلها طُبعت في سورية ومنها ما أعيد طبعه مرات، وله مؤلفات أخرى وهي كتاب التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان، طبعه بمطبعة المنار ووقفت على طبعه وعنيت بتصحيحه بإذنه، وكتاب توجيه النظر في الأصول طبعه له الخانجي بمصر وكتاب التعريب إلى أصول التقريب، طبع بمصر بمطبعة النهضة بمصر وشرح خطب ابن نباتة وأمنية الألمعي، وكتاب في التعليم الابتدائي وتفسير القرآن الحكيم، ولعل هذه الأربعة الأخيرة لم تطبع إذ لم نرها وكان هو المحرر للمجلة السلفية التي صدرت في آخر أيام حياته بمصر وكان يودعها نبذًا من مقتطفاته العلمية ومن كناشته (مفكراته) وكانت تلك المجلة تنوه بكناشته وقد وعدت بطبعها فيما أتذكر، وله كتاب (تقويم المجلة السلفية) وإن لم يصدر باسمه.

علمه وعمله :

لم يشتهر الفقيد أو عرف بعلم من العلوم ولا تصدى لتدريس شيء منها، فلم يُعلم له تلميذ عالم أخذ عنه العلم، غاية ما عُرف به أنه كان ذا اطلاع على أسماء كثير من الكتب حتى قال بعضهم: إنه نسخة من كتاب كشف الظنون أو الفهرست، وأنه وإن لم يحص ما أحصى كتاب من هذين، ولكنه كان يعرف مواضع كثير من الكتب وفيها كثير مما يحب نشره ويجب طبعه ولكنه كان يبخل على الوراقين بإرشادهم إليها إذ يرى أنهم لا يستحقون ما ينالونه من الربح بطبعها، وكانت له ميزة فنية في معرفة الخط الكوفي أرشده إليها مقابلة آي القرآن المكتوبة على بعض المساجد

والأضرحة في دمشق ومصر وكتاب معرض الخطوط للآباء اليسوعيين وله إلمام بالحروف العبرية، وما نشر من مؤلفاته إذا دل على سعة اطلاع، فإنه لا يدل تحرير وإبداع ولا على تفقه في العلم أو تمكن منه.
وأما عمله فإنه كان قد تولى التعليم في المدرسة الظاهرية ثم عين مفتشًا للمدارس الابتدائية العثمانية في سورية فكان فيها مثالاً للنشاط والذكاء والنصيحة.
ومن عمله أنه سعى لدى مدحت باشا الوزير العثماني الإداري الشهير عندما كان واليًا على سورية بإصدار أمره بجمع الكتب العلمية المخطوطة المبعثرة في المدارس العلمية والمساجد بدمشق، فكانت مكتبة مفيدة، وجمع من البيوت ما أمكن جمعه وجمل في قبة ضريح الملك الظاهر وجعل لها قوام وخدمة ونظام مخصوص، وفي أيام عبد الرؤوف باشا والي سورية استحصل على طائفة من الكتب كانت في دور الناس من أعيان دمشق أرجعها إلى المكتبة الظاهرية، ثم جُعل مفتشًا على دور الكتب في سورية وفلسطين فقام بذلك أحسن قيام.
ومن مساعيه تأسيس المكتبة الخالدية في القدس الشريف، وقد عين في آخر أيامه عضوًا في المجمع العلمي الذي يرأسه محمد كرد علي في دمشق وناظر المكتبة الظاهرية، وكانت الحكومة عزمت على درس قبر الإمام ابن تيمية لوقوعه في حديقة خارج مدينة دمشق فأهاج الرأي العام ضد ذلك وبقي قبر الإمام محفوظًا بسعيه وعنايته وأظن أن هذه الحادثة وقعت في أيام مدحت باشا.

***

رجل مات والرجال قليل
الأستاذ محمد وهبي[70]

مات محمد وهبي. وسبحان الحي الذي لا يموت، مات محمد وهبي فكتب في الجرائد اليومية بضعة أسطر ملخصها أنه قد توفي فلان ناظر مدرسة الفيوم ونسيب فلان، وصهر علان، وستشيع جنازته من داره في حي السكاكيني في الساعة العاشرة قبل الظهر.
ذلك بأن أصحاب الجرائد لا يعرفون قيمة محمد وهبي؛ لأنه كان كنزًا خفيًّا، وهم قلما يعرفون إلا أصحاب الظهور، وإن كان بلباس الزور، وقد شيعه العشرات من أولي القربى منه وأصدقائه

وأصدقائهم وليس فيهم أمير ولا وزير ولا أحد من أصحاب الرتب العالية؛ لأن هؤلاء قلما يعرفون مثل محمد وهبي، بل قلما يوجد فيهم من هو أهل لمعرفة مثل محمد وهبي.

كان محمد وهبي في الذرورة العليا في علومه وأخلاقه وآدابه، وقوة إيمانه وصلاح أعماله، والإخلاص في وطنيته، والجهاد في سبيل ملته وأمته.

ولكنه كان لشدة إخلاصه يؤثر الكتمان ويكره الظهور، ولو كان الناس يكتمون سيئاتهم كما كان محمد وهبي يكتم حسناته لما وجد في البلاد قدوة في الشر والفجور.

صليتُ على محمد وهبي صلاة الجنازة، والتفتُّ بعد السلام فلم أجد ورائي من المصلين إلا بضعة رجال، وأذن بعد الصلاة عليه مؤذن: ماذا تشهدون فيه ؟ فقال الحاضرون كما يقولون في جواب كل سائل عن ميت: رجل طيب، أو من أهل الخير.

وقلت: اللهم إني أشهد أنه خير من أعرف من الناس؛ ذلك بأنني كنت أفكر قبل هذا السؤال وبعده في أفضل الرجال الذين أعرفهم، خضخضت دماغي لأحرك في زوايا تلافيفه كل رجل رُقمتْ ترجمتُه فيها، فلم أذكر في أحيائهم أفضل من محمد وهبي ولا مثله في مجموعة مزاياه.

عرفت محمد وهبي على تنكره وإخفاء فضائله لأنه أحسن الظن بي فحضر عليَّ بعض دروس التفسير والبخاري وأصول الفقه، وكان يسألني عن بعض أسرار الدين ومزايا الإسلام، ويستشير في صالح الأعمال، ويواظب على قراءة المنار.

عرفته معرفة خُبر، عرفته راسخًا في التوحيد، واسع الاطلاع في أصول الدين وفروعه، ذا بصيرة في حكمه وأسراره، لم يسألني مشتبهًا أو شاكًّا كما وقع كثيرًا للطبيبين الفاضلين الصالحين المصلحين (محمد توفيق صدقي وعبده إبراهيم) في بدايتهما، وكذا غيرهما، بل كانت أسئلته تدل على علم يطلب صاحبه المزيد والكمال، كان يقتني أنفس كتب الدين ويطالعها للاهتداء والعمل بها، وكان شديد العناية بكتب شيخي الإسلام ابن تيمية و ابن القيم ولعله لم يَفُتْهُ شيء مما طبع منها، بل كان يرغب في استنساخ ما وجد منها إذا يئس من طبعه.

ومن مزاياه أنه كان جامعًا بين هداية الدين اعتقادًا وأخلاقًا وعملاً وبين أرقى النظام المدني في أهل بيته وتربية أولاده: كان يستيقظ من النوم فيوقظ زوجه وبناته فيتطهرون ويصلي بهم صلاة الفجر إمامًا، ثم يقرءون جزءًا من القرآن العظيم، ثم يقومون للرياضة البدنية فيأخذون منها بنصيب، وبعد الاستراحة منها يصيبون من ذواق الصباح ما تيسر، ثم ينصرف كل إلى عمله، فلو أن أمة أو أهل مدينة كانت بيوتهم كبيت محمد وهبي في الصلاح والنظام والأدب والنظافة، والتنزه من كل خرافة

وسخافة - لكانوا حجة للإسلام والمسلمين، وسبب دخول أهل المدينة فيه أفواجًا.

كان محمد وهبي عالمًا عاملاً، صالحًا مصلحًا، يأمر بالمعروف مُؤْتَمِرًا، وينهي عن المنكر مُنْتَهِيًا، كان كلما تولى إدارة مدرسة حمل أساتذتها وتلاميذها على المحافظة على الصلوات، حتى لم يكن يدعهم يخرجون منها إلا بعد أن يصلوا العصر، وكان يبث في كل مدرسة روح الوطنية الصادقة مع روح الصلاح والتقوى، فكان المستر (دنلوب) الرقيب العتيد لا يفوته شيء من سيرته هذه، وقد حاول أن يفتنه مرارًا فاستعصم، وقد قال له مرارًا: إنك أقدر أستاذ عندنا إلا أن فيك عيبًا واحدًا لو تركته لارتقيت بسرعة إلى أعلى المراقي ! ذلك العيب أنك لا تُرْضِي رؤساءك.

فكان الفقيد يتجاهل مراده ويقول: إنني أبذل كل ما في وسعي للقيام بما يجب عليَّ في عملي، فإذا لم يُرْضِهِمْ هذا فما يرضيهم ؟ وهو يعلم أن الذي يُرضي دنلوب عنه هو الذي يسخط عليه الله عز وجل، فكان يُؤْثِر رضاء الله تعالى على رضاء دنلوب ومفتشيه وأعوانه، وما وراء ذلك من توالي زيادة الراتب، وارتقاء المناصب، وقد جرَّبوا أن يفتنوه بالترغيب أو الترهيب، فعصمه الله تعالى منهم.

حصروا عمله مرة في تعليم اللغة الإنجليزية للطلبة والمعلمات الإنجليزيات حتى لا يجد لخدمة الدين واللغة العربية سبيلاً، فرأوه قد توسل لخدمة اللغة العربية وبث الآراء الصالحة في التلاميذ بتعليم الترجمة وما يختاره لها من الكلام، أبعدوه عن مصر إلى إدفو في أقصى الصعيد على ما يعلمون من نحافته وقلة احتماله، وذلك من العقوبات الخفية التي يعرفها أهلها - فأثر ذلك في جسمه ولم يؤثر في نفسه، وكان أخوه كاتب هذا هو الذي عرض أمره وبيَّن فضله لسعد باشا زغلول إذ صار وزيرًا للمعارف فنقله إلى القاهرة وجعله ناظرًا للمدرسة الحسينية.

وكان في خدمته الوطنية مصداقًا لقول قاسم أمين: إن الوطنية الصادقة هي التي تعمل ولا تتكلم.

فهو لم يكن متصلاً بحزب من الأحزاب السياسية، ولا من الذين يترددون على بيت الأمة (دار سعد زغلول باشا) على إجلاله لسعد وشكره لجميله، بل كان يضع لكل عمل نافع نظامًا، ويستعين على تنفيذه بخُلَّصِ أصدقائه متحريًا أن يكونوا قليلي العدد، وأن لا يذكروا اسمه لأحد يعمل معهم، كأنه وهو يفعل المعروف الذي يستحق به الفخر، يأتي منكرًا فيتقي سوء الأحدوثة والذكر.

ومثال ذلك أن العشرات من الألوف في أرجاء القطر قرأوا رسائل في الحث على إقامة أركان الدين مع بيان أهم أحكامها وحكمها وفي النهي عن المنكرات وبيان ما عمت البلوى بجهله من أحكام المعاملات كأحكام الرضا - ولم يعلم إلا القليل منهم أن هذا العمل من جماعة الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر، برأيه وإرشاده، وأنه هو المقترِح له، ولا أن مكانه منها مكان القطب من الرَّحَى، ولذلك لم تعمل عملاً يُذْكَر منذ فارق القاهرة.

وكان من تدينه وعقله أن لا يعمل عملاً غير مشروع سواء في ذلك الوسيلة والمقصد، فكان على مذهبنا في أن الباطل لا يكون موصلاً إلى الحق، والشر لا يكون طريقًا إلى الخير.

وجملة القول: إن محمد وهبي كان من شهداء الله وحُجَجه على خلقه، وكنت أرجو أن يكون خير عون وظهير لي على ما أرجو من تجديد دار الدعوة والإرشاد ومن إحياء السنة بالعلم والعمل والتأليف وطبع الكتب المفيدة على الوجه الذي يَعُمُّ به نفعُها، فكان المصاب بوفاته أشد عليَّ منه على أهله وولده وسائر أصدقائه، أسأله تعالى أن يتغمده برحمته ورضوانه ويجمعنا به في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

***

ترجمة حياته بقلم أعرف أصدقائه بسيرته

ولد -رحمه الله- بالقاهرة بجهة بيت القاضي التابعة لقسم الجمالية في أواخر ذي القعدة سنة 1298 الموافق لأول شهر أكتوبر سنة 1881 من أبوين فقيرين.

فوالده هو المرحوم الشيخ إبراهيم محمد من قرية (آبا الوقف) في مركز مغاغة من مديرية المنيا وهو من بيت قديم مشهور في القرية، ولد رحمه الله بصيرًا وأصيب بالعمى بعد ستة أشهر من مولده، ومكث في تلك القرية حتى أرسله أبوه إلى الجامع الأزهر وهو في الخامسة عشرة من عمره بعد أن حفظ القرآن الكريم فعكف على تلقي العلوم وانقطع لها طول عمره وتزوج من القاهرة بزوج رُزِقَ منها صاحب الترجمة وأخاه.

ولما بلغ صاحب الترجمة الرابعة من عمره دخل المكتب ليتعلم القراءة والكتابة والقرآن ومبادئ الأحكام الدينية فكان ممتازًا بين الأطفال بالأدب والنجابة حتى صار فقيه المكتب يعتمد عليه في حفظ نظام المكتب على صغره.

ومكث في المكتب ثلاث سنين حفظ فيها القرآن وأجاد الخط وتعلم مبادئ الدين وبعد خروجه من المكتب كان والده يعتمد عليه في حفظ الدروس؛ إذ كان يستصحبه معه مساء لمطالعة الدروس الأزهرية فحفظ على حداثته بعض المتون، فقوي رجاؤه فيه.

أدخله والده مدرسة الجمالية الأميرية فظهر على أقرانه وكان يحفظ لنفسه المكان الأول في كل فرقة من فرق المدرسة.

ولم تشغله دروسها الكثيرة عما جرى عليه قبلها من مطالعة الدروس لنفسه ولوالده فكان يواظب على ذلك في المساء بعد الخروج منها فرسخت ملكة الدرس وحب العلم في نفسه.

وبعد نيل شهادة الدراسة الابتدائية أدخله والده المدرسة الخديوية الثانوية فمكث فيها أربع سنين كان في خلالها مطمح أنظار المعلمين والتلاميذ.

وكان قد بلغ السن التي يستقل فيها بنفسه فكان يختلف وحده إلى الأزهر في أوقات الفراغ يحضر الدروس على مشاهير العلماء كالأستاذ الإمام والشيخ حسين زائد والشيخ سليم البشري وغيرهم، فأخذ عنهم من العلم شيئًا كثيرًا حتى أصبح يناقش والده مناقشة الند للند.

وبعد حصوله على شهادة الدراسة الثانوية وبعد أن قضى سنتين معلمًا بمدرسة محمد علي الأميرية مال إلى صناعة التعليم فدخل مدرسة المعلمين العالية ومازال يحفظ لنفسه المكان الأول فيها حتى نال شهادتها سابقًا جميع أقرانه ولا سيما في العلوم العربية والرياضية على الأخص.

كان حينئذ قد بلغ الثامنة عشرة من عمره فعُيِّنَ مدرسًا بمدرسة المنصورة الأميرية فأظهر من البراعة في العلم والتعليم ما لم يسبقه به أحد، ونقل في العام الثاني إلى مدرسة شبين الكوم الأميرية ولم يمض عليه العام المدرسي حتى عين ناظرًا لمدرس إدفو الأميرية سنة 1905.

ومن ذلك الحين أخذت مواهبه العالية تظهر بين أفاضل الرجال فكان على حداثته وبحكم مركزه يخالط أكابر القوم وخواصهم وكان يظهر عليهم جميعًا، وعشقوا فضله فكانوا يودون لو يلازمونه ليلاً ونهارًا.

وكان رؤساء الوزارة يضربون به المثل في حسن الأخلاق وإدارة المدارس.

ومكث في إدفو ثلاث سنين تزوج في خلالها من ابنة خالته ثم نقل من إدفو إلى المدرسة الحسينية بالقاهرة بالرغم من اعتراض المستر دنلوب مستشار وزارة المعارف في ذلك الوقت؛ لأنه لم يجد منه ذلك التزلُّف والتملق اللذين كان يحب أن يتصف بهما جميع مرءوسيه وإنما نقله إلى مصر سعد باشا غلول أيام كان وزيرًا للمعارف سنة 1908 ومكث بمدرسة الحسينية ثلاث سنين كان خلالها موضع إعجاب المفتشين الأجانب منهم والوطنيين. حتى كان الشيخ حمزة فتح الله رحمه الله يلقبه بسيد النظار.

وكان إطراء المدرسين له في تقاريرهم يزيد المستشار غضبًا على غضبه منه.

وعرفه في ذلك الحين الأستاذ الشيخ عبدالعزيز شاويش واتخذه صديقًا عزيزًا، وكان يلح عليه أن ينضم إلى الحزب الوطني إلا أنه رحمه الله كان لا يميل إلى حزب سوى (حزب الله) فإنه هو الغالب.

ثم نقل سنة 1909 إلى مدرسة سوهاج الأميرية وكانت الفوضى ضاربة أطنابها في تلك المدرسة من قلة المدرسين بها فأخذ يشتغل رحمه الله في المدرسة مدرسًا.

وكان ما عليه من الدروس يزيد على دروس سائر المعلمين حتى خرج من الأزمة مكللاً بالفوز فأثنت عليه جريدة العلم المصرية حينئذ لحسن قيامه بالواجب.

فزاد ذلك المستشار كمدًا على كمده، وسافر إلى سوهاج وقامت بينهما مجادلات كان رحمة الله عليه الفائز فيها بالحق إلا أن الغطرسة الإنجليزية قضت بتعيينه بعد ذلك مدرسًا للترجمة بالمدرسة التوفيقية جزاء لما قام به من الخدمات الجليلة لوزارة المعارف (؟) ومكث فيها تسع سنين كان فيها موضع إعجاب المفتشين والناظر، ومهبط ظلم المستشار وأعوانه.

حتى إنه لم يمنحه في خلال هذه المدة الطويلة من زيادة المرتب سوى جنيهين مصريين، وما كان ذلك ليَفُتَّ في عَضُدِهِ، أو يغير من يقينه، بل كان ثابتًا على الحق.

ولما كان مبدأ الحركة المصرية سنة 1919 انهالت على وزارة المعارف العرائض والتقارير أنه كان من أشد أنصار الطلبة، ومن أكبر المحرضين لهم على الإضراب وغيره إلا أن الله سبحانه وتعالى حماه من كيد الماكرين ولم يتمكن الوشاة الظالمون من الإضرار به. وكم حاول ناظر المدرسة التوفيقية إغراءه بالمال والرتب ليحوله عن خطته، ويجعله طوع إرادته ! فلم ينل من نفسه العالية وأخلاقه الثابتة منالاً.

ثم عُيِّنَ ناظرًا لمدرسة الجمالية الأميرية فكان خير قدوة لأساتذتها وتلاميذها في حسن التربية ومكارم الأخلاق وصالح الأعمال.

ولما وجد الرؤساء المسيطرون أن نفسه الأبية ووطنيته الصادقة فوق تأثير الوظيفة، وأنه ما زال مُكِبًّا على خدمة العلم والدين والوطن بجأش رابط ونفس مطمئنة - نقلوه إلى مدرسة الفيوم الأميرية ليكون بعيدًا عن العاصمة...

وكان وجوده في ذلك الوادي الرطب سببًا في مرضه الطويل الذي أودى بحياته.

كان رحمه الله شديدًا في الحق، عاملاً على اتباعه لا يخشى فيه لومه لائم، وكم دافع عنه أمام كبار الموظفين في الإدارة، وكم طُلِبَ إليه أن يحابي أولاد كبار الموظفين عند دخول المدارس فكان

يأبى إلا أن يعطي كل ذي حق حقه، فغضب عليه كثير من الرؤساء لذلك.

وكان وَرِعًا تقيًّا عالِمًا بالدين عاملاً به يَحُثُّ جميع الموظفين المرءوسين له على الاعتصام بحبله، والعمل به، وينشره أينما كان ويتناقش مع كل مَن يتوسم فيه العلم والميل إليه، حتى كان يجعل في المدرسة التي يتولى إدارتها مسجدًا تقام فيه شعائر الدين في أوقاتها كما تدرس فيه الدروس بأنواعها بكل نشاط وإخلاص.

كان سباق غايات في العلوم الرياضية حتى إنه لشدة اشتغاله بها كان يُظَنُّ أنه نال غاية الإخصاء في إحدى كليات أوروبا.

وكان كاتبًا قديرًا وكم كتب لوزارة المعارف من تقارير كانت موضع إعجاب المفتشين وموظفي الديوان.

وكان يعرف اللغتين العربية والإنجليزية معرفة أَهَّلَتْهُ لأنْ يكون موضع ثقة الوزارة.

ولإعجاب الرؤساء الإنجليز بعلمه وأدبه عهدوا إليه بتعليم المعلمات الإنجليزيات اللغة العربية على كراهيتهم له.

واشتغل في أواخر أيامه بعلم الفلك، وكان على وشك أن يضع فيه كتابًا إلا أن المنية أدركته قبل الأوان.

ولما كان ناظرًا لمدرسة سوهاج عرض عليه المرحوم أبو الفتوح باشا في حفلة شيئًا من الخمر فأنكر عليه ذلك علنًا ثم ما زال يتعهده بالنصيحة والموعظة الحسنة حتى ترك مُعَاقَرَة الراح أو المجاهرة بها.

وربَّى أولاده تربية دينية متينة فهم يحافظون على الصلاة في أوقاتها وكانت زوجه تقرأ القرآن عليه وكان يعلم بناته وزوجه الإسعافات الأولية وطرق العلاج وكان كلمَّا مرض له ولد يكب على درس الكتب الطبية في الحالات المختلفة حتى كان أحيانًا ينتقد المذكرات الطبية التي يكتبها له الأطباء بحق يعترفون له به.

وتوفي رحمه الله عن أم ضرير وزوج وخمس بنات وغلام كان موضع رجائه ومحط آماله، أحياه الله تعالى وجعله خير خلف له آمين.

بطل العرب والإسلام العظيم
القائد الكبير محمد عبد الكريم[71]

اقتسمت فرنسة مع أسبانية مملكة المغرب الأقصى كما اقتسمت مع إنكلترة سورية والعراق.
وقد قيَّض الله تعالى لأهل الريف الذي جُعِلَ حصة لأسبانية زعيمًا عظيمًا نظَّم لهم جيشًا من أنفسهم يقاتل به الأسبانيين؛ لإخراجهم من بلادهم فأتى في قتاله لهذه الدولة بما يكاد يكون من خوارق العادات التي أيَّد الله بها سلف هذه الأمة في صدر الإسلام، وما زلنا نمني النفس بالتنويه بجهاده منذ بطش البطشة الكبرى قبل ثلاث سنين حتى رأينا في هذه الأيام ما كفانا المؤنة من المقال الآتي (لسعادة الكاتب السياسي الكبير) الذي يغني وصفه عن تعيين شخصه، وحرف الإمضاء عن التصريح باسمه.

المنار

من عادة الجرائد أن تكثر من لفظ (البطولة) تعرب بها كلمة Heroisme التي تدور كثيرًا في الكتابات الأوروبية، والناس مضطرة اليوم إلى تعريب كلماتهم وتقليد مناحيهم.
أما أنا فكنت غير راغب في هذا الاستعمال؛ لأنني لا أكتفي من اللفظة بأن تأتي في معاجم اللغة، وأن لا تعد غلطًا، بل أحب أن أجدها في كلام العرب الأولين أو المخضرمين أو المولدين على الأقل، ولا أتذكر أنني عثرت بالبطولة - أي حالة من كان بطلاً - في غير متون اللغة.

أما الآن فأريد أن أستعملها لهذا الأسد الزائر، والفحل الصائل، المسمى بمحمد بن عبد الكريم، المتولي كِبرَ تحرير قومه في شمالي مراكش، فأقول: بطل محمد بن عبد الكريم بطولة وبطالة فهو بطل، لا بل هو بطل الأبطال، وفذ الأفذاذ وعلم الأعلام، بل هو عندي أعظم مزية من

مصطفى كمال، ومن جميع أبطال العصر الحاضر، البادي منهم والحاضر.

وكل من ينظر في قضية الأمير محمد بن عبد الكريم ويتأمل فيها ويرى موقفه المدهش المحير للعقول في وجه إسبانية مع الفرق الشاسع والشقة الهائلة بين درجتي كل من إسبانية والمنطقة التي تقاتلها من شمالي المغرب - يحكم بأنه لو كان في الدنيا إنصاف لما كان أحد اليوم أولى من محمد بن عبد الكريم بأن يوضع في مقدمة أبطال العصر، ويكتب تاريخه، وتُدَوَّنُ سيرته، وتعرض صورته، ويرجح على فوش وهندنبرغ ومصطفى كمال ودانو نسيو ولنين ومسوليني وطبقتهم التي اختلط ذكرها بالتاريخ العام.

إن فوش عندما أحرز النصر كان رأسًا على 15 مليون جندي من عساكر الحلفاء عدا جنود أميركا التي كان وصل منها إلى فرنسا مليونان ونصف مليون وبقي منها مثل هذا العدد في أميركا، وإن هندنبورغ كان قائدًا لستة ملايين ألماني هم أحسن جنود العالم بدون نزاع، وإن مصطفى كمال وإن صح أن يقال: إنه بعث تركية من قبرها، فإنه كان في تركية عساكر منظمة، وجنود مدربة، وضباط أركان حرب معدودين من الطبقة الأولى، وبقايا أسلحة، وآثار دولة مبنية من أصلها على الأسل، وجاءها لويد جورج بمعاهدة سيفر التي تجعل تركية أثرًا بعد عين، وزحف إليها اليونانيون يذبحون الرجال، ويهتكون الأعراض، فأتيحت لهمة مصطفى كمال أسباب عديدة تجمع حوله أمه باسلة مستبسلة كالأمة التركية.

وإن سائر من ذكرنا من الرجال المعدودين في هذا العصر كانوا في حركاتهم متوكئين على أمم عظام، وأعداد لا تُحْصَى، وتشكيلات إدارية تامة، فاستوسق لهم من الأمور ما استوسق، وظهر من شأنهم ما ظهر.

وأما محمد بن عبد الكريم فإن جئنا إلى عد أنصاره فإن الريف كله يبلغ جزءًا من سبعة من سلطنة المغرب، فإن كانت هذه السلطنة ثمانية ملايين فيكون الريف زائدًا قليلا على المليون، وإن كانت هذه السلطنة لا تنوف على أربعة ملايين أو خمسة كما جاء في بعض مؤلفات الفرنسيس الأخيرة؛ فيكون الريف نحو ثلثي المليون أي أكثر قليلاً من جبل لبنان وأقل شيئًا من فلسطين، ومع هذا فإن هذين الثلثين من المليون، أو فلنقل هذا المليون واقف في وجه دولة إسبانية التي عدة أهلها عشرون مليونًا بخلاف تركية مع اليونان؛ إذ تركية مع كل ما اقتطع منها بقيت 12 مليونًا، واليونان مع كل ما أضيف إليها لا تزيد على 6 ملايين.

فأنت ترى ما هنالك من الفرق، وزد عليه أنه لم يجتمع من جنود اليونان في وجه مصطفى كمال ما

اجتمع من جنود الإسبانيول في وجه محمد عبد الكريم، فقد كان جيش اليونان المحارب لجيش أنقرة من 150 إلى 170 ألفًا حال كون الجيش الإسبانيولي الذي غزا الريف سنة 1921 بلغ عدده 250 ألف مقاتل وباء بالخذلان كما هو معروف.

والجيش الإسبانيولي الزاحف اليوم إلى الريف هو بحسب قول الجرائد الأوروبية مائة وستون ألف مقاتل.

وإنه في كلتا المرتين تطوع في الجيش الإسبانيولي ألوف مؤلفة من أصناف الإفرنجة لا سيما من الإنكليز الذين لا يتركون فرصة يُظهرون فيها فرط محبتهم للإسلام إلا وَلَجُوهَا، وهذه المرة يقال: إن أكثر الإلحاح على الدولة الإسبانية في استئصال شأفة المقاومة من الريف واقع من دولة بريطانيا العظمى.

ثم لا يخفى ما يوجد من الفرق بين زحف اليونان من بلادهم راكبين أثباج البحر الواسع وإيغالهم في بلاد الأناضول الطويلة العريضة التي تأكل الجيوش بمساوفهم وبين ركوب الإسبانيول بحرًا اسمه بحر الزقاق أو بوغاز جبل طارق عرضه ساعات قلائل، وكون الريف كله لا يساوي في الرقعة ولاية من ولايات الأناضول.

لا نريد في هذه المقابلات والمقارنات تصغير شيء من مجادة العمل الذي قام به إخواننا الترك وأدهش الربع العامر بأسره، وترنحت له أعطاف الشرقيين عند من يقول بجامعة شرقية، وقرَّت به عيون المسلمين عند مَن يأخذ بجامعة إسلامية.

إن الأتراك أشهر في الحروب من أن ينوه فيها الإنسان بقدرهم، وإن انتصارهم الأخير بعد أن نهكت قواهم الحروب المتتابعة بدون انقطاع ولا فتور منذ بضع عشرة سنة - أضاف صفحة جديدة على تاريخ مجدهم، وخلد مصطفى كمال ذكرًا لا تمحوه الأعصر بأنه هو المؤسس الأخير للدولة التركية.

ولكننا نريد أن نثبت بهذه المقارنات أنه بالنسبة إلى قلة الوسائل وضيق الرقعة وفقد التشكيلات، ونزارة الأسلحة، وندورة الضباط، وانحصار الريف بين البحر من جهة والمنطقة الفرنسوية من أخرى، وصغر الريف من أصله، فإن فضل محمد بن عبد الكريم هو أعظم من فضل مصطفى كمال ومن فضل أعاظم قواد أوروبا؛ لأنه لو قام أي واحد من أولئك العظام مقام ابن عبد الكريم لعجز أن يأتي بشي مما أتاه.

في تموز سنة 1921 استأصل الريفيون بقيادة هذا البطل الغشمشم 25 ألف مقاتل إسبانيولي وأسروا ألوفًا وغنموا 170 مدفعًا وقيل 300 مدفع و 70 ألف بندقية وأعتادًا حربية لا تحصى وعددًا من

الطيارات، وسبق لهذا العاجز - المعجب بمحمد بن عبد الكريم المتحسر على أن ليس في سورية مثله - مقالات متعددة عن تلك الطوائل التي طال بها والوقائع التي انتصر فيها، منها ما نشرناه (بالبيان) ومنها في (الصباح) الذي كان يطلع بفلسطين؛ لأن حرية المطبوعات...

في سورية لعهد محرري الأمم...

لم تكن تسمح بنشر شيء عن قوم يدافعون عن استقلالهم، ولو كانوا من أقصى البلاد عن سورية.

وبعد هاتيك الهزيمة عوَّل الإسبانيول على سياسة التفريق والشقاق بين الريفيين، تلك السياسة التي طالما نجحت بها الدول المستعمرة، ونالت مآربها من الشرق من ثنايا منافسات الشرقيين بعضهم مع بعض، فعقد الإسبانيول الصلح مع الرسولي، وأعملوا الهمة في التضريب بين القبائل الريفية، وخدَّروا أعصاب كثيرين منها، وبذلوا المواعيد ومنوا الأماني، حتى خُيِّلَ لهم أن الحركة قد همدت، وأن حزب ابن عبد الكريم قد ضعف جدًّا عن ذي قبل، وأنهم إن صمدوا إليه وجدوه هذه المرة في قلة من قومه وقضوا منه وطرهم، فكان الأمر بعكس ما خالوا، وهو أنهم لما آنسوا منه رقة الجانب وطمعوا في أخذه بالقوة عاد هذا الأمير فاستفز قبائل الريف، وأوضح لهم الخطر فارتفعت الواعية، وامتدت الصارخة، واعصوصبت القبائل حول قائدها، وتأهبت للنضح عن ذمارها، وعاد الأمر كما بدأ، لا بل رأى محمد بن عبد الكريم أن يجعل الإسبانيول غداءه قبل أن يجعلوه عشاءهم، فجمر[72]للزحف على مواقعهم الأمامية بقرب مليلا، وناوشهم القتال منذ أوائل هذا الصيف، فدارت رحى الهيجاء، وحمي الوطيس وتباعث العرب والبربر على الموت في سبيل دينهم ووطنهم، فجفلوا الإسبانيول عن مراكزهم، وأفحشوا النكاية فيهم، ورأت إسبانية أن ابن عبد الكريم لا يزال ابن عبد الكريم من المَنَعَة في قومه، والحيطة من وراء أمره، والحمية على وطنه، والحفيظة لحقه، وأن الريفيين لم يبرحوا على عهدهم بالشهامة وإباء الضيم، والبصائر بالحرب، والغرام بالطعن والضرب، فسقط في يدها، وخابت آمالها، وجردت إلى الريف زحوفها، حتى بلغ عدد الفيلق[73] الإسبانيولي المرابط الآن بالريف 160 ألفًا، وهي لم تنل وطرًا، ولا قضت حاجة، فثارت الخواطر في مادريد واضطربت الحكومة وادْلَهمَّ الخطبُ، وأبى الحزب العسكري إلا أن يتابع إرسال الإمداد إلى أن تستقيم عصاة الريف أو تنكسر، وذهب آخرون إلى أنه لا فائدة من غزو الريف إلا تراكم الخسائر في المال والرجال، وقدم اثنان من النظار استعفاءهما: أحدهما ناظر المالية الذي شكا من كون عجز الموازنة المالية هذه السنة بلغ 900 مليون، فماذا يكون إن أصرت الحكومة على متابعة حرب الريف ؟هذه حالة إسبانية اليوم، وهذا هو الفري الذي فراه محمد بن عبد الكريم عوْدًا على

بَدْءٍ، فأثبت أنه بطلها اليوم كما كان بطلها بالأمس، وسنرى أنه بطل السلم كما هو بطل الحرب، وأنه أصدر أوامر بالاتفاق مع أعضاء الحكومة الريفية التي هو رأسها بإنزال أشد العقاب إلى حد القتل بمن يعتدي على إسبانيولي أو أي أوروبي أو يخالف القوانين الحربية المرعية بين الدول المتمدينة.

وقد نشر رجل سويسري من زوريخ منذ أيام رسالة تناقلتها كثير جرائد سويسرة كنا نود تعريبها ونشرها كلها نقلاً عن جريدة (فوي دافي) الصادرة بلوزان لكن طولها حال دون تعريبها برمتها، ومآلها: أن بعض الشبان من سويسرة قصدوا إسبانية للعمل وبينما هم يعملون ببرسلونة[74]إذ أخذتهم حكومة إسبانية إلى الريف بحجة أنها تريد أن تستخدمهم في النقليات.

وأن هنا عملاً بأجرة وهناك عملاً بأجرة فذهبوا مسيرين غير مخيرين، ولما صاروا إلى مليلا نظموهم في التابور وأرسلوهم إلى ميدان الحرب؛ خلافًا لما كانوا وعدوهم به، ولما كانوا من رعية سويسرة لا شأن لهم في حرب واقعة مع إسبانية فر منهم بضعة نفر فأدركهم الإسبانيول وحاكموهم محاكمة البلط (الفارين من العسكر) وحكموا عليهم بالقتل ونفذ فيهم الحكم رميًا بالرصاص مع أنهم لم يكونوا متطوعين في جند إسبانية وإنما سيقوا إلى الحرب جبرًا وقهرًا بعد أن خدعوا بقول الحكومة الإسبانية لهم أنهم يكونون في مليلا عَمَلَةً كما كانوا في برسلونة.

قال هذا الرجل السويسري الزوريخي: فالتزمنا أن نشهد وقائع من أشد وأهول ما يتصور العقل كانت غالبًا خسائر الإسبانيول فيها أفدح من خسائر المغاربة، وذكر واقعة قال: إن الإسبانيول خسروا فيها وحدها أربعة آلاف مقاتل.

وهو يحزر مجموع خسائر الإسبانيول بستين ألف مقاتل.

ثم قال: إننا مللنا القتال ونحن لا ناقة لنا في الأمر ولا جمل ففررنا إلى جهة العرب فأخذونا إلى عبد الكريم فأمر بانتظامنا في الجيش، فبعد أن كنا نقاتل في صف الإسبانيول صرنا نقاتل الإسبانيول، وكنا في كلا الحالين مكرهين لا أبطالاً، فبعد أن شهدنا عدة وقائع لاحت لنا فرصة للفرار ففررنا أملاً بالوصول إلى ساحل البحر، ومنه نجد فُلْكًا يأخذنا إلى أوروبا فكانت وقعتنا بالقرب من قرية عربية فقبضوا علينا وساقونا إلى الأمير عبد الكريم فأيقنا في أنفسنا بالهلكة، وقلنا: يصيبنا هنا ما أصاب رفاقنا عند الإسبانيول، فلما وصلنا إلى الأمير كان منه أن قال لنا: نعم يحق لكم أن تفروا؛ لأنه طال عليكم الغياب عن أوطانكم، ولكن أخطأتم بأنكم لم تخبرونا بعزيمتكم حتى نؤدي إليكم نفقة الطريق، ثم نقد لنا[75]مبلغًا يكفي نفقتنا وأرسلنا إلى جهة ركبنا منها البحر إلخ.

ويذكر هذا السويسري بعد ذلك الفرق بين الإسبانيول والمغاربة مما هو ظاهر للعيان من سياق هذه

القصة.

إن الذي يربطنا بعبد الكريم وقومه ليس أنهم مسلمون فقط ولا أنهم معدودون من الأمم الشرقية، ولو كانوا من الغرب، بل لكوننا مقيدين وإياهم بسلسلة طويلة فهي متصلة الحلقات لا خرم فيها من أولها إلى آخرها، ومن المحال أن يفوز المغربي في الريف أو في أي مكان آخر بدون أن ينتشق أخوه المشرقي أرج الفرج، ولو على بُعْد ألوف من الفراسخ، وهذا أمر يعرفه الأوروبيون جيدًا؛ لذلك تجدهم متضامنين متكافلين في وجهنا مهما اشتدت الشحناء بينهم في بلدانهم.

وهاك مثالاً وقع معنا نحن الوفد السوري:إنه لمعلوم كون فرنسا منافسة إسبانية في المغرب.

وإسبانية لا تود فرنسا، وأكثر الخلاف بينهما على مسألة طنجة، فذهب مرة أحد زملائنا أعضاء الوفد السوري لمقابلة المندوب الأسباني في جمعية الأمم نظير غيره من مندوبي الدول الذين قابلناهم وشرحنا لهم قصة سورية، إلا أنني لم أكن والحمد لله حاضرًا هذه المرة مقابلة المندوب الإسبانيولي بل كان الرصيف وحده، فما كاد يفتح له حديث الاستقلال وحق سورية في الاستقلال إلا وجد المندوب الإسباني نفر وانتثر وقال له: (نحن لا نساعد أبدًا أممًا أمثالكم على الاستقلال ويكفينا ما عندنا من مسألة الريف) وصادف أن رصيفنا لم يكن يريد إغضابه ظنًّا بأن مرضاته ربما تفيد شيئًا، وأنه هو أيضًا ممن يعتقد المصانعة وكتمان الضمير في السياسة، فأخذ يبرهن له على أهلية سورية للاستقلال، ويؤكد له وجود قسم كبير فيها من المسيحيين.

وشرع الإسبانيولي يرد عليه بأن المسيحيين في سورية هم فئة قليلة فأجابه رفيقنا لا بل عندنا مسيحيون نحو الثلث.

وأخيرًا فصل السياسي الأسباني الخطاب بأنهم هم أي الأوروبيين لا يجدر بهم أن يساعدوا أمة شرقية على الاستقلال، ولو كان فيها مسيحيون، وأتى بهذا الجواب المقشر بدون أدنى محاباة ولا محاياة، فلينظر إذًا الشرقي وليتأمل.

هذه قضية لم نأخذ منها النتيجة عقلاً، بل أخذناها نقلاً بل شفهيًّا من فم مندوب إسبانية في جمعية الأمم.

يكره هؤلاء استقلالنا بالشام؛ لئلا تشتد بقوتنا نحن عزائم أهل الريف، ولو كان الأسبان أضداد الفرنسيس، أبعد هذا شك في وجود التضامن بينهم ووجوب التضامن لا بيننا وبين كل أمة إسلامية فقط بل كل أمة شرقية بل كل أمة مظلومة مسلمة أو غير مسلمة ؟ إذًا فليحي محمد بن عبد الكريم؛

لأن قضيته هي قضيتنا.

البيان - (ش)

(المنار)

إن فيما ختم به مقاله أمير الكُتَّاب، لموعظة وذكرى لأولي الألباب، ومن العجب العجاب أن أهل الشرق كافة، والمسلمين منهم خاصة والإفريقيين منهم على الأخص.
لم يحفلوا بأمر هؤلاء الريفيين على إعجابهم ببسالتهم، وعلمهم بقلة الوسائل التي بأيديهم، ولو كنا أحياء كالإفرنج الذين يتعاونون على استعبادنا، ويتكافل المتنازعون منهم فيما بينهم في كل ما يقضون به علينا - لكنا أجدر بإرسال المتطوعين إلى الريفيين، من الإنكليز بالتطوع مع الأسبانيين، وإننا نرى نهضة شعبنا المصري قد دخلت في كل طور من أطوار حياة الأمم إلا طور الجهاد بالنفس، والتمرن على فنون الحرب، أفلم يكن يجدر بهم أن يغتنموا مثل هذه الفرص - حرب طرابلس وحرب الريف - فيرسلوا حملات المتطوعين من شبانهم التي دلتنا الثورة الأخيرة على شجاعتهم فيها وعدم مبالاتهم بالرصاص في أثنائها، وأن يجدوا من ضباطهم الذين في (الاستيداع) مَن يقود حملتهم ويدربها ؟ بلى، والله ثم بلى.
فإن كان هذا طورًا جديدًا لَمَّا يُتَح لهم فما بال أغنيائهم الذين حمد العالم لهم بذلهم المساعدة للدولة العثمانية في حروبها ولا سيما حرب طرابلس الغرب وحرب الأناضول - لا يمدون أيديهم السخية لمساعدة هؤلاء المنكوبين حتى إن جمعية الهلال الأحمر لم تُبَالِ بهم، كأنها لا تشعر بوجودهم ؟

بطل العرب والإسلام وأندلسهما الجديدة
الأمير محمد عبد الكريم[76]
وقول كاتب أسباني فيه

ركدت عاصفة المعارك بين الدولة الأسبانية والأمير محمد عبد الكريم، وخمد لهيبها فبقي جل جمرها تحت الرماد من حيث اشتعلت نارها بينه وبين الدولة الفرنسية في منطقة حكومة المخزن المغربية الواقعة تحت حمايتها، وكان الكثيرون من الناس سيظنون أنَّ تقحُّم هذا البطل بِصِليِّ هذه النار الحامية سيحرق شهرته ويقضي على آماله؛ لما لفرنسة من الشهرة الطائرة في فنون الحرب علمًا وعملاً، ولكن فوزه في حرب الفرنسيس لم يكن دون فوزه في حرب الأسبانيول، بل كان فوزًا قامت له أعرق أمم في أوربة في الحرب وقعدت، فأسقط قيمة نقدها إلى أسفل دركة كانت ألقته فيها الحرب العظمى، واضطرها إلي متابعة سَوق الجيوش من الوطن أرسالاً، واستنفارهم خفافًا وثقالاً، وطفقت صحف العالم تتحدث بدنو الخطر من فاس وتوقع امتداده إلى الجزائر، هذا على كون أخبار الوقائع لا مصدر له دونها، ويعلم جميع الناس سنة الدول كلها في إفراغ هذه الأخبار في القوالب السياسية الموافقة لمصلحتها من كتمان بعض وتمويه بعض، والمنار لا يعنى بنشر الوقائع الحربية ووصف ميادين القتال، وإنما يدخل في موضوعه ما له شأن في الانقلابات والتطور الاجتماعي وأسبابه من حوادث التاريخ.

وقد قرأنا في جريدة البيان العربية التي تصدر عن (نيويورك) مقالة لكاتب أسباني اسمه (إنريك دي مناس)، نشرها في جريدة (هرالد تربيون) النيوركية، وصف بها ما عرف وما اعتقد من حرب الأمير محمد عبد الكريم وشؤونه ومقاصده بعد اختباره الشخصي، إذ كان من الذين شهدوا بعض معارك القتال بينه وبين قومه؛ فرأينا أن ننقل جل هذا المقالة عن عدد البيان الذي صدر في 22 شوال الماضي الموافق 16 مايو (أيار).

بدأ الكاتب كلامه بمقدمة ذكر فيها أن أخبار القتال في الريف لا يصدر شيء منها عن معسكر عبد الكريم، بل كلها تصد عن طريق خصوم العرب، فلا يوثق بشيء منها ولا سبيل إلى معرفة الحقيقة منها إلا لمن يستنبطها من فحوى الكلام، ويستشفها من لحن القول دون صريحه (وعبر عن ذلك بقراءة ما بين السطور وهي كناية عصرية غربية صارت مشهورة) وضرب لذلك المثل ببعض الأخبار الفرنسية المختَلَقَة التي لا تُعقل بحسب الفن العسكري من خسائر العرب وخسائر الفرنسيس، ولا ينسين القارئ أنه أسباني عدو لهم وناصح لفرنسة، ثم قال:وقد قدر لي أن حاربت عبد الكريم بنفسي من عهد غير بعيد، فأنا لذلك أعرف بعض الشيء عن نشاط الريفيين وشدة مراسهم، وأشهد علنًا بالقلم واللسان ببطولتهم، رأيت بعيني أولئك العرب الشجعان يواجهون المدافع الرشاشة، ويهاجمون رجالها غير مبالين بنيرانها الآكلة حتى كأنها ليست موجودة أو أنها عديمة الأذى، ومن أجل هذا أقول: إن دعوى الفرنساويين بأن مثل هؤلاء الأبطال يتراجعون إلى الوراء بسبب خمسين رجلاً من الأقوال المضحكة.

فالمصيبة في هذا هي أن الأمير كان وغيرهم من أهل الغرب الموالين لفرنسة والمريدين لها الفوز يقبلون على هذه الأنباء كأنها آيات منزلة، ويصدقونها فلا يجهدون العقول ولو قليلاً للتمييز بين غثها وسمينها أو صدقها وكذبها، وهذا هو الباعث على خفاء حقيقة الخطر الكبير الذي يهدد كل أوربة من جانب المشكل المراكشي[77] ؛ ولهذا عقدت العزيمة على كتابة هذا المقال؛ لكي أوضح فيه نيات الريفيين وما يرمون إليه في ثورتهم هذه من الوجهتين السياسية والدينية.

فالحركة التي يقوم بها عبد الكريم الآن متأتية في أصلها عن البواعث التالية: لقد كانت فرنسا تسعى من زمن غير يسير إلى موالاة القبائل المراكشية المختلفة، والاتفاق معها على ترويج المتاجر الفرنساوية هناك وذلك بواسطة الشريف حرقاوي، وهو زعيم كبير من قبيلة بني مولود، وقد حصرت أكثر قواها في ترويج هذه السياسة في قبيلة بني زروال المجاورة لقبيلة بني مولود، ثم إن القسم الأكبر من قبيلة بني زروال تحت زعامة ابن مناله وهو زعيم كثير الطموح صمم العزيمة عندما وجد نفسه في مركز منيع يخطب وده فيه الفرنساويون من جهة وعبد الكريم من جهة أخرى على سياسة مزدوجة.

وكان في هذا الوقت أحد مناصري عبد الكريم وهو الفقيه الزهاري قد ناجز الشريف حرقاوي في وقعات عديدة، لم يكن فيها نصر فاصل لأحدهما، فابن مناله حافظ على خطة الحياد وهو لكي يقي رجاله من أن يستميلهم الفرنساويون أو العرب إليهم، ويحفظ ما له من السيطرة عليهم مال إلى

استعمال القسوة فيهم؛ فأدى ذلك إلى تذمر شديد بينهم، فعلم عبد الكريم بذلك؛ لأنه كان يرقبهم بعين ساهرة، وسعى إلى اغتيال ابن مناله بوسائل مختلفة أهمها الرشوة والوعود التي بذلها لمحبي الزعامة فيهم.

كان ذلك في شهر مارس (آذار) من هذا العام، فلما تخلص عبد الكريم من ابن مناله وتمكن بدهائه من إزالة ما للحرقاوي من النفوذ، أدرك أنه قد أصبح في مركز منيع يساعده على مهاجمة فرنسة؛ فحشد جموعه على ما علمنا قريبًا من تازه على مسافة ثلاثين ميلاً من فاس شمالاً بشرق، وأرسل كتائب من أنصاره؛ لتعيث فسادًا في منطقة متالزا الفرنساوية على التخوم التي تفصل بين مراكش الأسبانية ومراكش الفرنساوية، وكان الفرنساويون قد أنشأوا على مقربة من تازه عدة مراكز عسكرية، وعمل فرنسة في إنشاء تلك المراكز خطأ فاضح من الوجهة الحربية.

ذلك أن مثل هذه المواقع العسكرية التي عرفت أسبانية بعد فوات الوقت أنها علة شقائها، والتي أمر المسيطر الأسباني دي ريفيرا بتخليتها في الحال يمكن قطعها عن مجموع الجيش بسهولة ومحاصرتها ومنع النجدات عنها، ولما كان عبد الكريم قد عرف باختباراته الماضية ملاءمة هذه المواقع العسكرية لحركاته لم يُضيع دقيقة من الوقت في التردد في مهاجمتها؛ لعلمه بأن ذلك هو الشيء الوحيد الذي يكسبه التفوق (أولاً) لأنها قريبة (وثانيًا) لأن فصلها عن بقية الجيش سهل للغاية (وثالثًا) لأن أول انتصار يحرزه مهما يكن قليل الشأن ينشط أتباعه، ويثير في صدورهم روح الشجاعة ويحملهم على المخاطرة والإقدام.

وأنا أعتقد أن المواقع العسكرية الفرنساوية المحصورة المسلحة بمدافع رشاشة وغيرها عديدة ستتمكن من المقاومة وقتًا طويلاً، ولكن الصعوبة هي في طريقة تمكن فرنسة من إمدادها بالمؤن والذخائر، فإذا لم يحصل المحصورون على أقوات جديدة ومياه صالحة للشرب تصير مقاومتهم عديمة الجدوى، وبما أن الريفيين يدركون هذه الأمور فهم قد زادوا عدد المراقبين للطرق المؤدية إلى تلك المعاقل لكي يحولوا - مهما كلفهم ذلك - دون وصول أقوات إلى الرجال الذين فيها والذين يعدهم الريفيون الآن من أسراهم.

وطريقة العرب في الحرب هي أن لا يوجدوا مقاومة رسمية منظمة إلا ما كان منها في الأقاليم الجبلية أو في الأماكن الملائمة لهم بنوع خاص، فأساليبهم الحربية منحصرة في الدفاع عن موقف معلوم وقتًا معلومًا عندما يهاجمهم العدو، ومن ثم ينهزمون منه اختيارًا يوهمون مهاجميهم إمكان الظفر بهم بسهولة، ولكنهم يعودون ذات ليلة أو في نفس تلك الليلة كأنما قد خرجوا من جوف

الأرض، ويقومون بمهاجمة عنيفة، فهذه الطريقة قد مكنتهم من أعدائهم، وسهلت لهم الحصول على الغنائم والأسلاب، وتبديد شمل العدو.

فالجيش الفرنساوي المؤلف من 12000 رجل تحت قيادة الجنرال ليوتي في الوقت الحاضر لا يكفي لسوى حماية مدينة فاس وأرباضها، على أنه لا يقوى على الحراك أو على مناهضة عبد الكريم إلا بعد أن تصله النجدات المنتظرة من الجزائر، وهي فيما يقال: ستكون متراوحة في العدد بين 15000 و 20000 جندي، وعندها يزحف إلى إنقاذ المعاقل العسكرية المحصورة على أن تلك النجدات سوف تلاقي صعوبات جمة في الوصول إليه؛ لأنها مضطرة إلى عبور نهر أوترغا، وهو في هذه الأيام بحالة فيضان يتعذر معها عبوره.

وفي رأيي أن فرنسة لا تَقوى على مواجهة عبد الكريم بما يصون ماء وجهها في العراك بأقل من أربعين إلى خمسين ألف جندي، ومن المعلوم أن عجز فرنسة عن مناهضة عبد الكريم وصد هجماته قد أوجدت تأثيرًا سيئًا في نفوس القبائل التي لا تزال موالية لها، والتي قد تنقلب إلى أعداء في أقل من ارتداد الطرف كما قد وقع لأسبانية، فإذا جرى هذا يصبح موقف فرنسة في تلك الأرجاء حرجًا كبير الخطر.

وأنا أعتقد أن فرنسة قد ارتكبت خطأ فظيعًا في غض نظرها عن النكبات التي لحقت بأسبانية في مراكشها مدة خمس عشرة سنة، فهي فيما أظن قد اعتقدت أن عبد الكريم بالرغم مما أحرزه من الانتصارات على أسبانية لا تحدثه نفسه بمهاجمة فرنسة، ففي هذا لم تكن ذات نظر بعيد، وقد كان من حقها أن تدرك أن سَكرة النصر التي قد تتملك عبد الكريم تحمله يومًا من الأيام على التمادي في إبعاد كل الأجانب عن بلاده - وهكذا يهاجم فرنسة - تلك أمور قد أدركها كثيرون من زمن طويل، وأما فرنسة فقد عجزت عن إدراكها.

وإنني على ما يدعيه بعض الفرنساويين من أن العرب يكرهون الأسبانيين أقول عن اختبار: إنهم يكرهون الفرنساويين أضعاف ذلك، نعم إنهم كانوا يبدون احترامًا أكثر لفرنسة، ولكن ذلك الاحترام ناتج عن خوف لا عن حب، فالعرب كما لا يخفى لا يحترمون سوى القوة، وبما أنهم كانوا إلى اليوم يعتقدون أن فرنسة في مراكش أقوى منهم بالشيء الكثير لم يفكروا في مهاجمتها، وعلى هذا أقول: إن الفتنة الحالية منظورًا إليها من كل الجهات هي من الحركات العظيمة الأهمية، وقد تكون أهميتها في هذا الحين غير بادية للعيان إلا أن المستقبل مخيف.

ويمكنني أن أدعي بعض العلم بالخطط التي رسمها عبد الكريم لنفسه،استقيت ذلك من صديق لي

اسمه خوزي دياز، وهو من الناس القلائل الذين زاروا عبد الكريم في منزله بأكسدير، علمت من هذا الصديق وغيره أن عبد الكريم يفاوض على الدوام زعماء العالم الإسلامي في كل مكان في العالم، وغرضه من ذلك إيجاد حركة عدائية ضد كل الدول المسيحية التي تحتل بلدانًا إسلامية، وعبد الكريم يعتمد في خلق ما يلزمه من القوة على تعصب العرب الديني وهو يؤجج نيرانه ليبلغ من ذلك مُناه في طرد أسبانية وفرنسة من مراكش[78]ودعاية عبد الكريم مبثوثة بين جميع القبائل تدعوهم إلى مناصرته للبطش بالطامعين بأراضي الإسلام، وتؤكد لهم أنه سيقذف بهم جميعًا إلى البحر.

ومما هو جدير بالذكر أن عبد الكريم ليس بطلاً مجربًا فقط فقد حدثته في مواضع كثيرة وحدثه غيري كثيرون، فهو رجل واسع الاطلاع وفيه ذكاء ودهاء وتعقل بمقدار يندر وجود مثله في رجل واحد، والرجل يعتقد أن عليه واجبًا وطنيًّا، وهو يعرف كل الحوادث المتعلقة بمدة السبعمائة سنة التي سيطر فيها العرب على أسبانية، وهو وأخوه الذي تلقى فن الهندسة في مدريد قد جالا في كثير من البلدان المتمدنة، وسكنا زمنًا طويلاً في جنوبي أسبانية.

وفي مدة إقامة عبد الكريم في ذلك الجانب من أسبانية شاهد آثار أمجاد العرب الباقية في كل مكان من تلك البلاد، ولا سيما في غرناطة، فأثر ذلك فيه أيما تأثير، وولد فيه نزوعًا إلى محاولة استعادة أمجاد الأجداد، وهو أمر نبيل يشكر عليه الرجل مهما قيل عن مساوئه وأخطاره، وقد بث هذه الدعوة العربية في كل مكان بواسطة المشايخ والأئمة الذين يتجولون من مكان إلى آخر، ولهم سلطة معروفة على العامة.

وقد لقب عبد الكريم نفسه منذ زمن بعيد برئيس جمهورية الريف حتى إنه ألف وزارة وهو طامح إلى توحيد كل القبائل والشعوب التي هي من جنسه تحت هيئة حكومة منظمة، ومعلوم أن فرنسة حسب الظاهر لا تحسب حسابًا كبيرًا لفتنة الريفيين، ولعلها تصبر إلى أن يهب كل سكان مراكش لمناهضتها قبل أن تدرك وتعترف بأن الحالة موجبة للخوف والاحتساب، على أن المراكشيين فيما أعتقد لا يخيبون آمالها من هذا القبيل ولكل شيء وقت، والتاريخ مملوء من هذه النظائر.

ويذكر الذاكرون أن نابليون قد انكسر مرارًا بجيشه المجرب في أسبانية، حيث حاربه هناك شراذم من الرجال عام 1808، وكانوا يجرون في مكافحته على نفس الخطة التي يجري عليها الريفيون مع الفرنسويين اليوم، وثورة البورس على إنكلترا هي مثال آخر من تلك الأمثلة، ومثل هذا يقال عن الفتنة في بنجاب من بلاد الهند[79]، ومن المعلوم أن تملُّك المستعمرات البعيدة الشُّقة هو الآن من

الكماليات الموجبة لباهظ النفقات التي تستكبرها أغنى الدول وأقواها.
وقد أصبح الناس في تلك المستعمرات غيرهم بالأمس، فهم يعرفون تاريخ بلادهم وتاريخ الدولة التي تسيطر عليهم، ويدركون حقوقهم وواجباتهم، خذ مثالاً لذلك عبد الكريم الذي تلقى العلوم في أسبانية وغيرها، وعاد إلى بلاده ينشر ما استنتجه من ذلك بين أبناء قومه، فالعلوم التي تلقَّنها كانت بمثابة سلاح قاطع في أيدي التلاميذ ضد معلمهم، وعبثًا تحاول فرنسة قمع العصيان وإطفاء نائرة الفتنة، فهي وإن استطاعت ذلك (وهو فيما نرى بعيد) فإنها لم تستأصل أسباب الخروج وبواعث النواة التي بثها عبد الكريم بين مواطنيه.
وانغلاب العرب في الكفاح ليس من الأمور التي يعبأون بها، فهم إن انهزموا اليوم يعودون في الغد إلى المناجزة أوفر نشاطًا وأكثر إقدامًا، وما يشيعه ذوو الأغراض من أن عبد الكريم يقصد بتوجيه حملاته على المنطقة الفرنساوية خدع الأسبانيول الذين يطمع في إخراجهم من البلاد هو من الأقوال العارية عن الصحة؛ لأن عبد الكريم غير مبالٍ الآن بالمنطقة الأسبانية؛ لأنه يدرك قوة تحصين الأسبان بعد تراجعهم إلى الوراء، وهو أعقل من أن يهاجمهم في هذا الحين.
فغرض عبد الكريم الحقيقي هو توجيه ضربة شديدة إلى فرنسة حتى إذا بطش بجيشها يثير عواطف الشعوب والقبائل المراكشية، ويحملها بفوزه على مناصرته، وحينئذ يحشد من الجيوش ما يمكنه من توجيه الضربات الشديدة إلى فرنسة وأسبانية معًا، ومن أجل هذا أقول: إنه ما لم تقو فرنسة على إنزال أشد العقاب بعبد الكريم بالأسرع الممكن، تكون خسارة فرنسة في مراكش عظيمة وسقوط مهابتها في عيون أهل البلاد سريعًا للغاية؛ لأن عبد الكريم يذيع أنباء انتصاراته في طول البلاد وعرضها لكي يحمل أهل البلاد على اعتقاد أن سحق فرنسة وأسبانية في مراكش ليس من الأمور المحتملة فقط بل من الأمور المقررة.

ويجب أن لا ننسى أن المراكشيين إذا حاربوا بعدد قليل من الرجال لا يكون ذلك ناتجًا عن عدم وجود الرجال عندهم، بل عن عدم وجود الأسلحة، على أن كفاحهم بالقليل من الرجال يزيل سوء نتائج هذه الحاجة فإن المراكشي إذا حارب يندفع بشجاعة أو بالحري يتناسى الخوف، والمراكشي الذي يرى رفيقه مجندلاً في ساحة القتال لا يرتاع ولا يلوي إلى الفرار بل يأخذ مكانه.
والأسلوب الحربي الذي يتمشى عليه عبد الكريم هو أن يتراجع بينما يكون العدو متقدمًا، حتى إذا وقف العدو عن التقدم يشرع هو ورجاله في اصطياد رجال العدو واحدًا بعد آخر، وهو فن يحسنه العرب أكثر من كل شعب آخر، ومن الصعب جدًّا إطلاق الرصاص على المراكشيين؛ لأنهم لا

يحاربون مجتمعين بل أفرادًا أو أزواجًا يتحركون على الدوام، بينما الفرنساويون أو الأسبانيون يزحفون جماعات تكون أفضل هدف لرصاص عدوهم.

إن المقاتل العربي الفارس لا يشق له غبار ولا يصطلى له بنار، فهو يهجم كالمارد على صفوف الأعداء إلى أن يصير على مسافة 1500 إلى 2000 متر، ويطلق نيرانه وهو مثابر على الجولان، وهو على الغالب لا يخطئ المرمى حتى إذا قضى وطرًا يكر راجعًا؛ ليعبئ بندقيته من حيث تطيش طلقات الأعداء المصوبة عليه فلا تصل إليه، وغني عن البيان أن الطيارات والمدافع لا نفع منها في هذه الولايات، ولا توجد هناك مدن أو حصون ليضربها العدو ويستولي عليها، بل أبطال مجربون يصيبون ولا يصابون.

هؤلاء العرب هم جنود مدربون من المهد، وهم يفضلون اصطياد الناس على اصطياد الوحوش وغيرها، ومن الأقوال المأثورة عنهم: إن أحب الأشياء إلى العربي في الحياة بندقيته ثم جواده وأخيرًا زوجته التي يعاملها على ما هو مشهور كما يعامل البهيمة، وهي قلما تترك البيت، فإذا فعلت تخرج مبرقعة، ولا يرى وجهها إلا سيدها دون سواه[80].

والمحارب العربي يكفيه القليل من القوت كحفنة من التين أو التمر تغذوه النهار بطوله، ولا يعطش ويقوى على الركض مسافات طويلة، ولا يتأثر من الحر، وإذا حارب العرب حربًا دينية فلا يوجد في جيوش الأرض من يضارعهم؛ ذلك لما في دينهم من الوعود بالجنة لمن حارب ضد المسيحيين[81] ، فهم ينالون مقابل هذا الجهاد مكانًا جميلاً في السماء، ويحرزون الجياد المطهمة والسلاح الجميل والنساء الحسان، ومن أجل هذا فهم لا يخافون من الموت في ساحة القتال[82].

وبعكس ذلك الجندي الفرنساوي أو الأسباني الذي لا دين له على الغالب ولا هو يؤمن بثواب حتى ولا في هذا العالم، ولا بعقاب في الآخرة، ومن أجل هذا فهو لا يستميت في القتال ولا يتهالك كالعربي، ذلك ما أردت بيانه هنا إيضاحًا للحالة الراهنة، وهناك أشياء كثيرة مهمة لا تسمح الفسحة بإيرادها، على أن القراء يدركون من الذي تقدم بيانه راكنة الحركة التي يقوم بها عبد الكريم، وأنها تتطلب اهتمامًا خاصًّا ودراية وتدبيرًا عظيمًا؛ لإنقاذ غوائلها.

وجملة القول

أنه إذا كان عبد الكريم قد نجح في مساعيه بغرس البغضاء في أذهان مواطنيه للأوروبيين فليس في الدنيا ما يقوى على إزالتها، ومهما أتى الفرنساويون من آيات القتال، ومهما جردوا من

الجيوش فإنهم يعجزون عن استئصال هذه الفكرة القومية التي ستكلف فرنسة على تمادي الزمن أنهارًا من الدماء وأنهارًا من الذهب كما كلفت أسبانية.

(المنار)

انتهت المقالة، وقد جاءتنا الأنباء قبل طبع هذه الكراسة من المنار بأن محمد عبد الكريم يحارب الآن الدولتين معًا وهو منتصر عليهما.

عالم العراق ورحلة أهل الآفاق

السيد محمود شكري الألوسي[83]

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم؛ اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسُئلوا فأفتوا بغير علم فَضَلّوا وأضلوا) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

وقد قبض الله تعالى إليه في الرابع من شهر شوال الماضي عالم العراق ورحلة أهل الآفاق، ناصر السنة، قامع البدعة، محيي هدي السلف، حافظ فنون الخلف، علامة المنقول، دراكة المعقول، دائرة المعارف الإسلامية، نبراس الأمة العربية، حجة العترة النبوية، عميد الأسرة الألوسية، صديقنا وأخانا في الله عز وجل السيد محمود شكري الألوسي قدس الله روحه.
كان -رحمه الله تعالى- إمامًا يقتدى به في علمه وعمله وهديه وآدابه وفضائله.
وقف جميع حياته على علوم الإسلام وفنون اللغة العربية في هذا العصر الذي قل فيه الاشتغال بالعلم والأدب في تلك البلاد بين أهل السنة، وكاد ينحصر في الشيعة، فبعد أن كانت بغداد في عهد العباسيين عاصمة العلوم والفنون في الأرض، وكانت المدرسة النظامية فيها أول مدرسة جامعة في العالم، ثم بعد أن كان يوجد فيها في كل عصر أفراد نابغون كجد الفقيد صاحب روح المعاني (رحمه الله تعالى) استقبلنا هذا القرن الرابع عشر للهجرة من أوله في الاشتغال بالعلم ، وصار لنا بنشر المنار وبالسياحة علم واختبار بأحوال الأقطار الإسلامية ، فلم نسمع للعلوم العربية والدينية على مذهب السنة صوتًا إلا من هذا الرجل، لهذا لقبناه في مكتوباتنا له بعالم العراق، كما لقبنا المرحوم جمال الدين القاسمي بعالم الشام.
إنما العالم من كان مستقلاً في فهمه للعلم واستدلاله على مسائله ، وقد مات العلم الحي المنتج في بلاد

الإسلام بالتقليد رويدًا رويدًا ، حتى صار وجود العالم (المستقل) نادرًا، وصار إذا وجد متهمًا في دينه من أهل الحشو والجمود من أصحاب العمائم المكورة، والأردان المكبرة، والأذيال المجررة.

إن التعليم في المدارس الدينية الإسلامية كله تقليدي ، فإذا رأيت عالمًا مستقلاًّ؛ فاعلم أنه لا فضل لمدرسته ولا لشيوخها في ذلك ، بل سببه استعداد خاص فيه، قارنه إرشاد مرشد من غير العلماء الرسميين في الغالب - أو اطلاع على بعض المصنفات التي ترشد إلى العلم الصحيح ، فلقحه فأثمر وأنتج، وحسب فقيدنا الكريم أنه كان في أثناء طلب العلم يراجع تفسير جده ، أو يطالع كتاب أستاذه وعمه (جلاء العينين) فهما يرشدانه إلى ترك التزام ما قرره أفراد من العلماء لتسميتهم علماء مذهبه ، ونبذ كل ما أثر عن غيرهم من علماء الملة؛ وإن وضح دليلهم لأنهم أئمة مذاهب أخرى أو منسوبون إليها.

وما يدرينا لعل عمه السيد خير الدين كان يرشده إلى الاستدلال والاستقلال ولو في الأصول، وإن كان كوالده صاحب التفسير يلتزمان التقليد في الفروع، فمهما تكن حالهما في التدريس والفتوى ، فقد كانا غريبين في عصرهما؛ لما أوتيا من سعة الاطلاع وعدم الجمود على المألوف عند الأشياخ، دع التعصب الذميم للمذهب.

والذي يظهر لنا أن الأستاذ -رحمه الله- لم يعن بالدعوة إلى الاستقلال وترك التقليد وتربية نشء جديد يقوم بذلك، على ما كان عليه من الشجاعة وعدم المبالاة بالدنيا وأهلها، ولو عني بهذا لكان له به شغل عن شرح فاتحة كتاب المطول للسعد وأمثالها، ولعل عذره أنه لم يجد في بغداد طلابًا مستعدين ، ولذلك لم نر له غير تلميذ واحد يرجى أن يكون خلفًا صالحًا له في التدريس والتصنيف وإحياء موات الكتب النافعة بالتنقيب عنها، واستنساخها، والسعي لطبعها، وفي غير ذلك من فضائله، ألا وهو الأستاذ الشيخ محمد بهجت الأثري - فقد عهد الفقيد إليه بمكاتبتنا بالنيابة عنه لما تناوبته الأمراض في السنين الأخيرة فرأينا من مكتوباته خير مثال لمكتوبات أستاذه في اللفظ والمعنى، وفي الخط أيضًا فخطه كخطه كأنه هو، ولولا آمالنا بهذا لكان حزننا على فقيدنا العزيز مضاعفًا أضعافًا كثيرة، وهو الذي تفضل علينا بترجمته المفصلة الآتية، فنبدأ بنشرها، ثم نقفي عليها ببعض الفوائد في جزء آخر إن شاء الله تعالى.

***

ترجمة الفقيد

هو العالم الكبير، التقي الورع الزاهد، تذكرة السلف، وحجة الله على الخلف، الإمام السيد محمود شكري ابن العالم الصوفي السيد عبد الله بهاء الدين ابن إمام القرن الثالث عشر أبي الثناء السيد محمود شهاب الدين صاحب تفسير (روح المعاني) ابن السيد عبد الله رئيس المدرسين في بغداد ومدرس المدرسة العظمى في جامع الإمام أبي حنيفة ، ابن السيد محمود الخطيب الألوسي البغدادي، وينتهي نسبه إلى الإمام الحسين رضي الله عنه.

ولد ببغداد في (19 رمضان سنة 1273هـ). في بيت عريق في الحسب والنسب، ضليع في العلم والأدب، ينسب إلى ألوس (بالقصر على الأصح) وهي قرية على الفرات قرب (عانات) نبغ فيها قديمًا كثير من الفضلاء: كمحمد بن حصن بن خالد، والمؤيد الشاعر المتوفى سنة 557 هـ الذي اتهمه المقتفي لأمر الله بممالاة السلطان ومكاتبته ، فأمر بحبسه في خبر ليس هذا محله.

وقد فر إليها أحد أجداده من وجه هولاكو عندما دهم بغداد وفتك بأهلها، ومنذ نحو ثلاثمائة سنة رجع أبناؤه إلى بغداد ولبثوا فيها ، وبنوا لهم بجدهم واجتهادهم مجدًا رفيعًا.

يبلى الزمان وحسنه يتجدد

نشأ -رحمه الله- في حجر والده كما ينشأ ربيب العز والمجد، وتلقى عنه القراءة ومبادئ النحو والصرف والحساب، وأتقن عليه الخط فاشتهر وهو صغير بإجادته، وكان يعتني بتربيته وتهذيبه لما يتوسم فيه من أمارات النباهة والذكاء، ثم بعد وفاة أبيه لازم عمه العلامة السيد نعمان الألوسي وأكب على المطالعة وعكف على اكتساب العلم، وأكمل دروسه على سائر علماء بغداد فأتقن علوم الأدب والفقه والحديث والتفسير، والهيئة والحكمة الطبيعية والإلهية ومنطق اليونان والجبر وغير ذلك، وتعلم من اللغات الفارسية والتركية، وألف وهو ابن عشرين عامًا، وكان كتاب (شرح الثناء) باكورة مؤلفاته، ودرس في بادئ أمره في بيته، ثم انتقل إلى مدرسة (جامع العدلية)، ثم أسند إليه تدريس مدرسة والسيد سلطان علي وتدريس المدرسة الداودية (الحيدر خانة)، وأخيرًا أحيل إليه تدريس (مدرسة مرجان)، فترك تدريس (السيد سلطان علي) لأحد أبناء أسرته اكتفاء بمدرسة مرجان والحيدرية، وقد تخرج به كثيرون اشتهروا بالعلم أو الأدب كابن عمه شيخنا العالم الأديب الكبير المغفور له السيد علي علاء الدين الآلوسي، ومعروف الرصافي الشاعر المشهور، وأخذ اسمه ينتشر، وشهرته تتعاظم يومًا بعد يوم بدروسه التي يلقيها على تلامذته الكثيرين ومؤلفاته التي تنمقها أنامله وتدبجه يراعته العسالة، ولا سيما كتابه (بلوغ الأرب في لسان العرب) الذي ألفه

تلبية لنداء لجنة الألسنة الشرقية المنعقدة في (استوقهلم) بدعوة (أسكار الثاني) ملك أسوج و نروج.
فقد اقترحت هذه اللجنة منذ نحو أربعين عامًا على علماء الشرق والغرب تأليف كتاب يعرب عن أحوال العرب قبل الإسلام ويستوعب بيان ما كانوا عليه في جاهليتهم من العوائد والأحكام وغير ذلك ، فأجاب هذا الاقتراح كثير من علماء الشرق والغرب ومن بينهم المترجم ، وعرض كل منهم مؤلفه على تلكم اللجنة ، ولدى السبر أدركت أن أجمعها مادة، وأوسعها جادة، وأغزرها فائدة، وأجزلها عائدة، وأزيدها إيضاحًا، وأقربها مراعاة للشروط التي ألزمتها اللجنة من يريد الخوض في عباب هذا البحث - هو كتاب (بلوغ الأرب) فاستحق الكتاب التقريظ والإطراء ، كما فاز مؤلفه دون سواه بالوسام الذهبي والجائزة.

وقد بعث إليه (الكونت كرلودي لندبرج قنصل أسوج ونروج العام في مصر ووكيلها السياسي) برسالتين -فيما أعلم- أثنى بهما عليه وشكر له عنايته ، ووعده بطبع كتابه تخليدًا لمآثره في خزائن الآداب، وقد نشرت إحداهما في أواخر الكتاب، والثانية في جريدة (الزوراء) التي كانت تصدر في بغداد.
هنالك - بعد ما طبع الكتاب ونشر اسم الفائز في ذلك المضمار البعيد المدى - كتبت الصحف والمجلات السيارة في الشرق والغرب الفصول الضافية الذيول في تقريظ الكتاب وإطراء مؤلفه النابغة الذي نشأ في بيئة منحطة علمًا وأدبًا ، فسبق بجده واجتهاده كل من حبر وكتب من أبناء البلاد المتقدمة في مضمار العلم والأدب، فطار صيته في الآفاق، وعرف فضله الخاص والعام حتى يكاد لم يبق أحد لم يسمع باسمه.
وتعرف به كثير من أفاضل المستشرقين ، واستفادوا من فضله وسعة اطلاعه ، نخص منهم بالذكر العلامة مرغليوث الإنجليزي صاحب المؤلفات الكثيرة ، وصديقنا الجهبذ البارع لويز ماسنيون الفرنسي.
وقد عرف الأمراء والولاة فضله فقربوه منهم ، وعرضوا عليه مناصب في الحكومة سامية ، فزهد فيها ورغب عنها؛ لانصرافه بكليته إلى العلم، ومقته الاشتغال في المناصب ، والتزلف من الحكام وكل ما يصده عن خدمة العلم والأدب، حتى إنه رغب عن لذات الدنيا ولم يتزوج قط.
ولما جاء الوزير سري باشا التركي واليًا على بغداد، أدناه منه كثيرًا دون غيره من علماء بغداد واستفاد من محاضراته الأدبية ومحاوراته العلمية، ثم اقترح عليه بإلحاح بأن يتولى إدارة جريدة (الزوراء) وهي أول جريدة أنشئت في بغداد أنشأها الوزير مدحت باشا الشهير ، وأن ينشئ فيها

القسم العربي ، فلما لم يجد منه بدًّا لباه، وأجاب نداه، فتولى شؤونها وكتب فيها بعض المقالات الأدبية ، ونشر قسمًا من (بلوغ الأرب) وأعمل حركة أدبية في ذلك الجو الساكن القاتم ذلك اليوم ، بما كان يعرضه فيها من الأسئلة في شتى العلوم على علماء البلد.

وقد كان عصر الفقيد الذي تلقى فيه العلم عصر تقليد وجمود على الرث البالي، يتلقى الطالب ما يقرؤه في كتب الأعاجم المؤلفة في عصور التأخر والتقهقر بالتسليم، ويأخذ ما يتلقفه من مشايخه بالقبول من غير نقد أو تمحيص، ويحرص عليه حرصًا يجره إلى تكفير كل من يخالفه غالبًا، فاستمر الفقيد على هذه الطريقة العوجاء متأثرًا بها، حتى برقت له بارقة اليقين، وقد تجاوزت سنه الثلاثين، فهدته بنورها الخلاب إلى المحجة البيضاء التي لا يضل سالكها، وكسر أغلال التعصب، وفك ربقة الجمود من عنقه، وأطلق طائر فكره من قفص التقليد الأعمى إلى فضاء التساهل والتيسير، والتبشير دون التنفير، وطفق يأخذ بالكتاب والسنة، وبما يوافقهما من كلام سلف الأمة من غير تحزب لشيعة أو مذهب، فصدع - بعد أن رسخت قدماه بالأخذ بالدليل - بالحق ، وشن غارات شعواء على الخرافات المتغلغلة في النفوس والتقاليد الذميمة بمؤلفاته العديدة، تلك المؤلفات التي زعزعت أسس الباطل، وأحدثت بين حين وآخر انقلابًا عظيمًا في الأفكار: ككتاب المنحة الإلهية، وغاية الأماني ، والسيوف المشرقة ، وصب العذاب ، وفتح المنان وغيرها.

ودعا المقلدين الجامدين إلى الهدى، وترك ما وجدوا عليه آباءهم، فشالت نعامتهم وصبوا عليه جام التشنيع في المجالس، ونبذوه بالوهابية وهي كلمة يعظم وقعها على الهمج والرعاع، وناصبوه العداء، غير أنهم لم يجدوا لأنفسهم عليه سبيلاً.

إلى أن كانت سنة 1320 فسعوا به إلى والي بغداد وهو يومئذ عبد الوهاب باشا ، وكان من الحشوية الضالين يناصب كل من يدعو إلى الإصلاح، المتوقف عليه الفلاح والنجاح، فاتخذ بعض التدابير السيئة، وكتب لعبد الحميد ولأبي الهدى يخبرهما (بأن الفقيد له تأثير كبير على نفوس العراقيين لمنزلته العلمية الكبرى ، وأنه أخذ ينشر مبادئ الوهابيين، ويؤسس مذهبًا جديدًا مخالفًا لمذهب أهل السنة!! وأن دعوته أخذت بالانتشار في سائر أنحاء العراق، فمن الخطر العظيم إذا ظل الرجل ينشر دعوته ومبادئه)! فجاء الأمر من عبد الحميد بنفيه ونفي كل من ينتمي إليه ، فنفي هو وابن عمه السيد ثابت الألوسي والحاج حمد العسافي من التجار الصالحين إلى الأناضول ، وما كادوا يصلون الموصل حتى قام رؤساؤها لهذا الظلم وقعدوا، فكتبوا لعبد الحميد يكذبون ما نسب للفقيد ، ويطلبون إليه إرجاعه ومن معه إلى وطنهم ، فقبل شهادتهم فيه وأمر بإرجاعهم بعد أن قضوا في الموصل

الحدباء شهرين لاقوا فيهما من حفاوة أهلها الكرام ما يعجز عن بيانه اللسان، ويكل دون سطره البنان ، فعادوا سالمين غانمين، وعاد الشامتون نادمين على ما فرطوا في جنب الشيخ قارعين سن الندم على ما عملوا.

أكب -رحمه الله- بعد عودته على التدريس والتأليف والنشر وخدمة العلم الصحيح بكل ما يصل إليه جهده ، إلى أن كانت سنة 1330 هـ فأدناه الوالي (وهو يومئذ جمال باشا) منه، فكان يشاوره في الأمر، ويأخذ منه الرأي السديد في الحادثات، ثم اتفق أن ناصب الوالي بعض أعداء الفقيد من وجهاء بغداد ، ففصله عن منصبه (وهو عضوية مجلس الإدارة) فعرضه على الفقيد ، فزهد فيه فألح عليه إلا القبول ، فلما لم يجد منه بدًّا قبله ، وبقي فيه مدة من الزمن كان فيها نصير الحق وحليف الإنصاف، وسار كما هي شيمته سيرة مرضية وأخذ بضبع المظلومين ولم يمكن منهم الظالمين.

إلى أن كانت السنة الأولى من سنين الحرب العامة ، فندبته الحكومة للذهاب إلى صاحب نجد في أمر سياسي خطير - ليس هذا محل ذكره - فرحل إليه عن طريق سورية فالحجاز فنجد ، واجتمع به فأكرم نزله واحتفى به حفاوة عظيمة لعظم منزلته العلمية وكبير تأثيره ، ففاوضه الفقيد في الأمر الذي جاءه به من قبل الحكومة العثمانية، ثم رجع أدراجه.

وتفقد معاهد العلم وخزائن الكتب الحافلة بالآثار الجليلة النادرة في سورية والحجاز ونجد ، واجتمع به أكابر علماء هاتيك الأقطار ، فاستفادوا منه علمًا جمًّا وأدبًا غضًّا.

وهنالك عندما وصل إلى الشام عائدًا بخفي حنين ظن الناقمون عليه أنهم وجدوا لهم سبيلاً لإيذائه ، فأغروا به جمال باشا السفاح الذي استدنى الفقيد منه يوم كان واليًا على بغداد، زاعمين - وبئس الزعم ما زعموا - أنه هو الذي متن صاحب نجد على الحكومة، فلم يصغ إليهم لما يعهد فيه من الصدق مع الحكومة، والحرص على جمع كلمة المسلمين.

ثم عاد -رحمه الله- بعد أن نجا من كيد الجاهلين إلى بغداد ، وعاد إلى سيرته الأولى ودرس وألف وأفتى حتى سقوط بغداد بيد الإنجليز ، فعرضوا عليه القضاء وغيره ، فزهد فيه وامتنع عن التدخل معهم، ثم عرض عليه زمن تشكيل الحكومة العربية المؤقتة الإفتاء فرياسة مجلس التمييز الشرعي فالقضاء فالمشيخة الإسلامية وغيرها ، فرفض كل وظيفة غير خدمة العلم الصحيح ونشره بإخلاص وصدق بين أفراد الأمة تدريسًا وتصنيفًا ، وانتخب أخيرًا عضوًا لمجلس المعارف كما انتخبه المجمع العلمي العربي الزاهر في دمشق عضو شرف، ولم يزل يخدم العلم والأدب بإخلاص ،

وشأنه يزداد يومًا فيومًا علوًّا ورفعة حتى توفاه الله (يوم الخميس 4 شوال سنة 1342 هـ).
وقد كان رحمه الله إمامًا في معرفة مذهب السلف، يأخذ بالدليل دون التقليد، شديد الإنكار على الحشويين لا يعرف المحاباة ولا المداجاة ، يقول للمصيب: أصبت. وللمخطئ: أخطأت. وللصادق: صدقت. وللكاذب: كذبت.
وكان مستجمعًا للفضائل، عظيم التواضع ، كثير الحياء، غض الأدب، أبي النفس، عزيز الجانب، أريحيًّا لطيف المعشر ساعة الرضى، يقتبس منه الجليس النادرة إثر الشاردة ولا يمله، بل يود لو أنه يصاحبه الدهر، يورد النكتة في حديثه فيطرب لها السامع ولا يكاد ينساها.
وكان قوي الشكيمة ، شديد الغضب ، سريع الرضى ، طاهر القلب ، لا يفتر لحظة عن التفكر في مستقبل الإسلام وأهله ، وقد بالغ في ذلك حتى أدى به إلى تعب الخاطر ، ونحول الجسم.
وكان مهيبًا وقورًا ، ولا أتذكر أنني ملأت عيني منه يومًا.
وكان بعيدًا عن التأنق في المأكل والملبس والاغترار بالمظهر الكاذب، وإن رائيه - لولا ما عليه من نور النبوة - ليحسبه من سائر الناس لعدم اعتنائه بنفسه ولكن لسان حاله يقول نحو ما قاله الإمام الشافعي نفسه:

علي ثياب لو يباع جميعها بفلس *** لكان الفلس منهن أكثرا

وفيهن نفس لو تباع بمثلها *** نفوس الورى كانت أعز وأكبرا

وقد خدم -رحمه الله- العلم والأدب خدمة قل من تسنى له مثلها، ومؤلفاته الكثيرة في شتى الأبواب شاهد عدل على ما أقول.
وإليك أسماءها:

مصنفات الفقيد

مرتبة على الحروف:

(1) إتحاف الأمجاد في ما يصح به الاستشهاد. رسالة صغيرة فرغ من تأليفها في 21 صفر سنة 1301 هـ).

(2) الأجوبة المرضية عن الأسئلة المنطقية: في (42 صفحة) فرغ منه في 13 صفر سنة 1340 هـ.

(3) أخبار بغداد. في ثلاثة أجزاء:(الأولى) في (بيان حال بغداد) ومحالها وقصورها وقراها المجاورة لها ووصف مبانيها وما آل إليه أمرها على سبيل الإجمال ، ولم يستوعب الكلام على ما جرى عليها في عنفوان شبابها وأيام هرمها وهو في نحو 15 كراسة.(الثاني) في تراجم العلماء والأدباء الذين اشتهروا في القرن الثالث عشر في بغداد. وقد سماه (المسك الأذفر) وهو في 450 صفحة بقطع الربع.(الثالث) في وصف مساجد بغداد وتاريخ بنائها إلخ في نحو 140 صفحة.

(4) أخبار الوالد. جزء لطيف في ترجمة أبيه.

(5) إزالة الظماء بما ورد في الماء. في نحو كراسة.

(6) الأسرار الإلهية شرح القصيدة الرفاعية. طبع بمصر سنة 1305 هـ وهو من مؤلفاته في نشأته الأولى !

(7) أمثال العوام في مدينة دار السلام. مجموع ما يدور على ألسنة العوام من الأمثال المشهورة - نقل اللفظ العامي من غير تغيير وربما غيره إلى ما يقاربه التعبير تحاشيًا عن بعض الألفاظ العجمية ... رتبه على حروف الهجاء، وهو في نحو 80 صفحة.

(8) الآية الكبرى، على ضلال النبهاني رائيته الصغرى. كتاب جدلي في نحو (50 صفحة) فرغ من تأليفه سنة 1330 هـ.

(9) بدائع الإنشاء. في جزئين:(1) مجموع رسائل والده في (..) صفحة. (2) مجموع مكاتباته أدباء العصر في (340) صفحة.

(10) بلوغ الأرب في أحوال العرب. طبع في بغداد سنة 1318 هـ في ثلاثة مجلدات ، ويطبع اليوم في مصر مصححًا ومشروحًا بقلم كاتب السطور، وكان قد نقل بعضه الشاعر البليغ عبد الحميد الشاوي الحميري إلى التركية وأسماه (منتهى الطلب في ترجمة بلوغ الأرب) ونشر طرفًا منه في جريدة (الزوراء).

(11) بنان البيان. متن صغير في علم البيان.

(12) تاريخ نجد. طبعت مقدمته في إحدى المجلات البغدادية وفقد باقيه.

(13) تجريد السنان في الذب عن أبي حنيفة النعمان. رد على بعض غلاة الشافعية في نحو مائتي صفحة بالقطع الكبير ، وهو كتاب جليل يشتمل على مطالب في الفقه مهمة ، فرغ منه في أواخر شعبان سنة 1306هـ.
(14) ترجمة رسالة للقوشجي. في 7 كراسات ولم أره، ولعله فقد.

(15) الجواب عما استبهم من الأسئلة المتعلقة بحروف المعجم. جواب عن أسئلة السيوطي السبعة التي لم يجب عنها أحد في زمانه فرغ منه في 15 رمضان سنة 1319 هـ وهو في 40 صفحة.

(16) الجوهر الثمين، في بيان حقيقة التضمين. في 50 صفحة.

(17) الدر اليتيم، في شمائل ذي الخلق العظيم. لم يتمه.

(18) الدلائل العقلية على ختم الرسالة المحمدية. في نحو 40 صفحة فرغ منه في 17 ذي القعدة سنة 1317هـ.

(19) رسالة في كيفية استخراج القياس. أظنها فقدت.

(20) رياض الناظرين، في مراسلات المعاصرين. في نحو 560 صفحة(21) الروضة الغناء، شرح دعاء الثناء: هو باكورة مؤلفاته ألفه سنة 1294هـ.

(22) سعادة الدارين، في شرح حديث الثقلين. هو رسالة في الرد على الرافضة باللغة الفارسية للشيخ عبد العزيز الملقب بغلام حليم ابن الشاه ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي الفاروقي مصنف - حجة الله البالغة -، وقد عربها المترجم ، وضم إليها بعض الفوائد المتعلقة بهذا الحديث ، ورتبها على مقدمة ومقصد وخاتمة ، فرغ منه في شهر رمضان سنة 1336هـ وهو في 40 صفحة.

(23) السيوف المشرقة، مختصر الصواعق المحرقة، للشيخ محمد الشهير بخواجه نصر الله الهندي. رد على الرافضة في 300 صفحة بالقطع الكبير فرغ منه سنة 1303هـ.

(24) شرح أرجوزة تأكيد الألوان. نشر في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق (م1 ص76).

(25) شرح خطبة المطول. لم أره.

(26) شرح منظومة عمود النسب. في نحو 1000 صفحة ، وقد وصفناه في مجلة المجمع العربي (م3 ص 105).

(27) شرح القصيدة الشاوية. في نحو 80 صفحة ، والقصيدة للأديب الكبير أحمد بك الشاوي الحميري -رحمه الله- في مدح الشارح.

(28) شرح منظومة الشيخ حسن بن العطار في الوضع أحد الفنون العربية.

(29) صب العذاب، على من سب الأصحاب. رد على أرجوزة لبعض الرافضة من سكان كربلاء، في مائة صفحة وصفحتين. فرغ منه في 11 جمادى الأول سنة 1304هـ.

(30) الضرائر، فيما يسوغ للشاعر دون الناثر. كتاب جليل كنت قد شرحته في أوائل ملازمتي له وعنيت بنشره ، وطبع في المطبعة السلفية بمصر سنة 1340هـ.

(31) عقد الدرر شرح مختصر نخبة الفكر. في مصطلح الحديث والمتن للشيخ عبد الوهاب بركات الشافعي الأحمدي.

(32) عقوبات العرب في جاهليتها ، وحدود المعاصي التي يرتكبها بعضهم. رسالة لطيفة نشرتها في ممتاز جريدة العراق لعامها الخامس.

(33) غاية الأماني، في الرد على النبهاني. كتاب إصلاحي جدلي في سفرين كبيرين ، رد بهما على ما جاء به الشيخ يوسف النبهاني من الآراء السخيفة والنقول الواهية في جواز الاستغاثة والاستعانة بغير الله تعالى، وما تجاوز به دائرة الأدب في سب كبار أئمة الدين كالإمام ابن تيمية

والإمام ابن قيم الجوزية من المتقدمين ، والإمام السيد صديق حسن خان والمصلح السيد نعمان الألوسي وأبيه أبي الثناء من المتأخرين إلخ ، وقد طبع في مصر بمطبعة كردستان العلمية.

(34) فتح المنان، تتمة منهاج التأسيس رد صلح الإخوان. كتاب إصلاحي جدلي رد به على بعض متصوفة بغداد. طبع في الهند سنة 1309 على نفقة الأمير الشيخ قاسم بن محمد بن ثاني.

(35) فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية للإمام محمد بن عبد الوهاب.

(36) القول الأنفع، في الردع عن زيارة المدفع[84]. في كراسة ولم أره.

(37) كتاب ما اشتمل عليه حروف المعجم، من الدقائق والحقائق والحكم.

في 115 صفحة.

(38) كتاب ما دل عليه القرآن، مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان. في 100 صفحة ، وقد فرغ من إملائه علي في 6 شوال سنة 1339هـ.

(39) كشف الحجاب. عن الشهاب في الحكم والآداب للقضاعي لم أره ولعله فقد.

(40) كنز السعادة، في شرح كلمتي الشهادة. في 54 صفحة ، وقد فرغ منه في 6 ج 2 سنة 1198هـ.

(41) لعب العرب. رسالة لطيفة (اقتطفها من لسان العرب) أثناء مطالعته له عام 1326هـ.

(42) اللؤلؤ المنثور، وحلي الصدور. مجموع مكاتيب والده وجده في نحو 170 صفحة.

(43) مختصر الضرائر، فيما يسوغ للشاعر دون الناثر[85].

(44) مختصر مسند الشهاب للقضاعي.

(45) المسفر عن الميسر.

(46) المفروض، في علم العروض. اقتطفه من لسان العرب أثناء مطالعته له.

(47) المنحة الإلهية تلخيص ترجمة التحفة الاثني عشرية. رد على الرافضة ، طبع في الهند في 200 صفحة بقطع كبير.

(48) منتهى العرفان والنقل والمحض، في ربط بعض الآي ببعض. شرع فيه في أوائل الماضي فوافته المنية قبل إتمامه.

(49) كتاب النحت.في 13 صفحة.

وله مجموعات ومؤلفات أخرى فقدت أثناء نفيه منها:

(50) كتاب جليل في بيان سرقات اليازجي في مقاماته (مجمع البحرين).
وقد وجدت منه بعض الأوراق، ولعلي أعثر عليه بجملته.
هذا ما أردت كتابته بإيجاز ، وتفصيل ترجمته وأحواله وأطواره وآرائه وغير ذلك في كتابنا (ذكرى الإمام الألوسي) الذي شرعنا في تأليفه.

بغداد
محمد بهجت الأثري

(المنار)

نشكر للأستاذ الأثري عنايته بتتبع آثار الفقيد ، وبيان فضله، وسنقفي على ترجمته ببعض الفوائد في جزء آخر إن شاء الله تعالى.

الشيخ أحمد عباس الأزهري البيروتي[86]
وفاته وترجمته

في يوم الثلاثاء لتسع خلون من شهر شوال هذا العام توفي الأستاذ العالم العامل الشيخ أحمد عباس الأزهري في مدينة بيروت مسقط رأسه، وموطن عمله، ودفن في مقبرة الباشورة باحتفال كبير يليق بمقامه.

وقد كتبت خبر وفاته مع الوعد بترجمته؛ لينشر في الجزء الماضي، ولم أعلم بأنه لم ينشر لكثرة مواد الجزء إلا بعد صدوره.

كان الأستاذ صديقًا لي، وكان لي معه مجالس إصلاحية خاصة في زياراتي الأخيرة لبيروت، ولكنه لم يكن يعلم فيما أظن أنني أفضله على جميع علماء بلادنا في مجموعة معارفه، لا في كل نوع منها، ولا في علم ، أو فن خاص امتاز به، وفي إقدامه ، وسعيه لنشر علوم الدين والدنيا ، وفي وطنيته وقوميته.

لا أعرف أحدًا من علماء سورية كان خبيرًا بزمانه وأهله كما قال بعض السلف في وصف العالم أو الفقيه ، وكان بخبرته يهتم بأمر أمته ووطنه ، ويحب لهم أن يسابقوا غيرهم في العلم والعمل - إلا أستاذي الشيخ حسين الجسر ، فصديقي الشيخ أحمد عباس رحمهما الله تعالى ، وكان الشيخ حسين أوسع من الشيخ أحمد علمًا، ولكن الشيخ أحمد كان أنشط منه في العلم والسعي.

سعى الأول لإنشاء مدرسة وطنية في طرابلس تجمع بين العلوم الدينية والفنون العصرية ، وبعض اللغات الأجنبية التي تقتضيها ترقية التجارة والعلم ، ثم سعى لأن تعترف الحكومة العثمانية بأنها مدرسة دينية يعفى طلابها من الخدمة العسكرية ، فلما لم تقبل الحكومة؛ سقطت المدرسة ، وقضى الأستاذ بقية عمره في تدريس فنون العربية والعلوم الدينية على الطريقة الأزهرية التقليدية مع نوع من سهولة الإلقاء ، والتنبيه الفكري ، ولو ثبت على النهوض بإدارة المدرسة الوطنية؛ لأحدث انقلابًا كبيرًا في سورية.

وأما الشيخ أحمد عباس؛ فما زال يجاهد في هذه السبيل إلى أن قضى نحبه كما ترى في ترجمته، وهو لم يلق من أغنياء سورية ولا بيروت ، ولا من وجهائها ما كان يجب عليهم من مساعدته.
ولو ساعدوه؛ لأمكن أن يستغنوا بسعيه عن مدراس الأجانب.
جاهد الشيخ أحمد عباس في سبيل نشر العلم بالتعليم نصف قرن ، وقد احتفل بعيده الذهبي في بيروت احتفالاً حسنًا لم يتح لنا الاشتراك فيه، وقد ألقى صديقنا الأستاذ عبد الباسط فتح الله خطابًا في ذلك الاحتفال أودعه تاريخ الأستاذ المحتفل به ، وهو أجدر الناس بذلك علمًا واطلاعًا وحسن بيان، فنحن ننشر هذا التاريخ بنصه في المنار مع تغيير ألفاظ قليلة جدًّا اقتضاها الفرق بين الكلام عن رجل في حياته ، ثم بعد وفاته ، وهو:

مولد الأستاذ ومنشؤه

كان مما تركته الحملة المصرية التي اكتسحت الديار الشامية سنة 1245هـ بقية صالحة تأصلت في ثغر بيروت؛ فنشأ منها فرع أزهر ، وأثمر، وانتظم البلاد خيره.
العباس بن سليمان من جند إبراهيم باشا ابن محمد علي الخديوي تزوج ببيروتية من بني الشامي؛ فرزق منها عدة أولاد صفوتهم (أحمد) الذي لبس حلة الوجود عام سنة 1270 هجرية؛ فكان شعلة من نور أضاءت بيت والد فقير ، فلما بلغ الخامسة من عمره؛ أدخله إلى الكتاب ، فقرأ القرآن الكريم على الشيوخ الحفاظ المجودين، واستظهر منه بضعة أجزاء ، وفي السنة العاشرة دخل المدرسة الرشدية التي أنشأها المرحوم الشيخ حسن البنا حيال سنة 1280 ، وهي أول مدرسة إسلامية عصرية سماها صاحبها بالرشدية قبل أن تنشئ الدولة مدارسها المعروفة بهذا الاسم نسبة إلى راشد باشا والي سورية لذلك العهد ، فتعلم الخط والحساب ، وكان من شيوخه فيها علامة الفقه والأدب المرحوم الشيخ إبراهيم الأحدب.
إلى ذلك الزمن ظل العلم عزيزًا ، والعلماء نادري الوجود ، والناس ولا سيما المسلمون في هجعة قطعت صلتهم بالماضي، وتراكمت على فكرهم سحب من الجهل حجبتها عن التطلع إلى المستقبل، فظلوا في فترة من العلم حتى نبغ الأستاذان الفاضلان الكبيران الشيخ محمد الحوت ، والشيخ عبد الله خالد قدس الله روحيهما، فصاحا بالقوم صيحة أيقظتهم من سباتهم، وزحزحتهم عن مضاجع غفلتهم، وجعلا ينيران بدروسهما عقول الكافة، ويثقفان عقول النابهين من الخاصة، حتى استرشدوا ، وأحسوا الحاجة إلى العلم؛ فهبوا لطلبه، وكان آنئذ بدء النهضة العلمية في الطائفة الإسلامية في بيروت.

ثم أراد العلامة الناهض الشيخ عبد الله خالد أن يتوسع في نشر العلم ، فاقترح على زملائه والنابهين من تلاميذ قرينه العلامة الشيخ محمد الحوت الكبير انتخاب طائفة من نجباء تلامذة الرشدية ، واختصاصهم بدروس توسع ما أدركوا من علوم الدين ، فتزيدهم معرفة بالعلوم العربية؛ ليتسنى لهم أن يخدموا الأمة بنشر العلم فيها عملاً بقوله تعالى: [فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ](التوبة: 122) فارتاح الأساتذة إلى هذا الاقتراح ، واقتسموا المنتخبين ، فكان (أحمد) من نصيب الأستاذ الأديب الشاعر الشهير السيد عمر أنسي؛ فلزم دروسه ، ووجد فيه السيد عمر أنسي نباغة ، وحرصًا على التحصيل ، فزاده من عنايته حتى فاق رفاقه ، وصار يذاكرهم الدرس عندما كان يغيب الأستاذ الذي شغلته تجارته بعد حين عن مواصلة التدريس في الأوقات المعينة.

واتفق أن الأمير محمد أرسلان صادف الشيخ عمر ، ومعه تلميذه الصغير (أحمد) يماشيه ، فسأله عنه ، فعرفه إليه ، وأثنى عليه ، فجعل الأمير يباحثه في بعض مسائل النحو ، وهو يحسن الجواب حتى التفت الأمير إلى الشيخ عمر ، وقال له: جدير بتلميذك أن يدخل الأزهر ، فكان لهذه الكلمة أثرها في نفسه ، وبعد قليل يمم الأزهر أحد رفقائه في طلب العلم ، وهو الشيخ خضر خالد ، فهاجت رغبته الكامنة ، واشتد شوقه إلى ورود ذلك المورد العلمي العظيم غير أن أباه الفقير كان كثيرًا ما يمنعه من الانقطاع إلى الدرس في نفس بيروت للاستعانة به على الكسب ، فكيف إذا سأله السفر ، وما يستلزمه من النفقة ؟ فجعل يستنجد بأستاذه؛ ليبلغه مقصده، والأستاذ الأنسي يقول له: رويدك لا يصبر على الأزهر إلا كل ضامر مهزول.

فيجيبه (أحمد): وهل أنا إلا ذلك الضامر المهزول ؟ واتصل الخبر بالسري الأديب المفكر الناهض السيد حسين بيهم ، فأجرى عليه وظيفة شهرية من ريع لأسرتهم كان موقوفًا على عمل الخير ، ثم انتدب الشيخ الأنسي ، ورفيقه الشيخ عبد الرحمن الحوت ، فهونا الأمر على والده ، وأقنعاه؛ فأذن له ، وفرض على نفسه مبلغًا أضافه إلى ما رتبه المرحوم السيد حسين بيهم ، وولى أحمد وجهه شطر الجامع الأزهر سنة 1285هـ ، فعكف على التحصيل مدة ست سنين ، فنال من فضل الله بجده ما لم ينله غيره في مثلها من الزمن.

والناس مشتبهون في إيرادهم *** وتفاضل الأقوام في الإصدار

فتلقى علوم العربية وآدابها من خواص مدرسيها لذلك العهد كالشيخ المرصفي والأشرافي والإبياري والبابي الحلبي، وأخذ الشريعة على مذهبي الإمام محمد بن إدريس الشافعي ، والإمام أبي حنيفة عن أعلام علمائها (الأشموني والعز والرافعي ومنقاره) ، واضطلع بالعلوم العقلية والنفسية والتصوف بين يدي جهابذتها حكيم الشرق السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ أحمد البابي الحلبي والشيخ محمد الولي الطرابلسي.

وعندما كان يأتي بيروت أثناء العطلة الأزهرية لم يكن يقضي أيامه في الاستراحة ، بل كان يتزود في المنطق والأدب من دروس العلامة الشيخ يوسف الأسير رحمه الله.

وبينما هو على وشك الفراغ من التحصيل أصابته في السنة الخامسة مصيبة كادت تعجله عن الإتمام؛ إذ توفي أبوه ، ففقدت أسرته المعين ، وأعوزته النفقة، فاضطر إلى ترك الأزهر في بدء السنة السادسة ، وقفل راجعًا ، وحل ضيفًا على رجل المروءة والإحسان المرحوم سعد الله بك حلابه بالإسكندرية ، فسأله عن أسباب عودته في غير ميعاد العطلة ، فنبأه بخبره، وما كاد يتم قصته حتى نقده - تغمده الله برحمته - مبلغ الراتب الذي كان يرسله إليه أبوه عن السنة كلها ، وأمره بالعود ، وإتمام التحصيل ، فأحسن له الدعاء ، وعاد؛ فأتم ، ونال إجازات التدريس سنة 1219 من أساتيذه في العلوم التي تعلمها (بعد التحصيل).

تلك المرحلة الأولى من حياة الأستاذ الرئيس ، وهي في كثير من ماجرياتها تشبه حياة أكثر العصاميين ، فأين مميزات ذاته ومقومات ماهيته التي ترتسم بها صورته الخاصة في أذهان المعاصرين، ويحتفظ بها لوح التاريخ ؟لا جرم أنه يسهل على الإنسان تصور حقيقة ما كما هي كلما كانت أقرب إلى السذاجة ، فإذا تشعبت وعلت مرتبتها في الوجود عز ضبطها ، فتفاوتت صورها في الأذهان بتفاوت المدارك ووسائل التصوير، من أجل ذلك نرى الناس يختلفون في وصف الرجل الواحد من العلماء ، والمفكرين المصلحين.

فكل يرسم له صورة حسبما وصل إليه من خيره، وقلما يصيب الحق فيه واصف؛ لما يعترضه من وعورة الرواية ، واختلاف أهواء الراوين، وفي هذه الحال لا يبقى إلى معرفة الحقيقة غير سبيل واحدة ، وهي النظر في العمل؛ لأن الأعمال هي وحدها مرآة الرجال الصافية التي تحتفظ من حقائقهم أمثل صورة ، وأصدق مثال، فهلم نستقرئ شيئًا من أعمال شيخنا التي تتجلى فيها صورته المعنوية الخالدة.

نرى للمعاهد العلمية الكبرى أثرًا خاصًّا تطبعه في نفوس واردها بقصد ، أو بغير قصد؛ حتى

ليدركه البصير في نقد الرجال أثناء المعاملة أو المذاكرة والمباحثة غير أن الأزهر - وإن اتحد أثره في الأزهرين من حيث التحقيق في البحث والاستقصاء في التقرير إلا أن له آثارًا مختلفة من حيث العمل بالعلم والاستفادة منه - فترى في الأزهريين المجتهد العامل الذي استعد عقله للجري على نظام التجدد ، وقبول الحقائق التي يقررها العلم الحديث ، وتأهلت نفسه لسلوك سبل الحياة سهلها وحزنها، كما ترى فيهم الجامد والخامل الذي لا فرق بينه وبين الصحيفة تؤثر فيها المطبعة ، أو يد الخطاط ، فلا تعود تقبل الزيادة، ويعتريها النقص بما ينتابها من عوارض الطبيعة، ثم هي تستقر حيث تلقى لا تغيير ، ولا تبديل حتى يدركها الفناء، فمن أي الفريقين جاء الأستاذ الرئيس ؟ كأني بكم تقولون معي: من الفريق الأول ، ولا ريب.

عاد من الأزهر إلى بيروت سنة 1291 هجرية ، وكان العلامة العامل الكبير المعلم بطرس البستاني قد أنشأ مدرسته الوطنية ، وازدحم فيها الطلبة من كل ملة ، فدعا الأزهري الجديد إلى التدريس فيها ، واختصاص التلامذة المسلمين بدرس ديني.

فلبى الدعوة ، وقام بالعمل إلى آخر سنة 1294 حيث صرفت المدرسة تلامذتها ، وأقفلت بسبب انتشار الهواء الأصفر، وهكذا أصبح الأزهري بلا عمل ، فماذا فعل ؟ لم يكن ثوبه العلمي ليمنعه من كسب الرزق الحلال من موارده المشروعة ، فاتخذ له دكانًا ، وجهزها بما استطاع من البقول والأثمار ، وقعد يبيع ، ويشتري كعامة الناس، ومر به الوجيه الورع المرحوم الحاج محيي الدين بيهم ، فعز عليه أن يرى الشيخ الفتى يحترف الحرفة المبتذلة ، فدنا منه ، وقال له: أرى أن هذا غير لائق بك.

فأجابه: أرى أن هذا أليق من التسول للقيام بأود الأهل ، وبعد قليل من الزمن - أي: في سنة 1295 - دعاه الأمير مصطفى أرسلان إلى التدريس في المدرسة الداودية في (عبية) ، فلبى دعوته ، وظل يعمل هناك بجد وإخلاص مدة ثلاث سنين آخرها سنة 1298.

وكان من تلاميذه ثمة المحامي المشترع المرحوم عباس حميه ، والأفاضل محمود بك تقي الدين مدير المعارف السابق ، وسامي بك العمار وثامر بك العمار وفرحات بك حمادة وغيرهم ، ثم ترك الداودية ليتولى إدارة مدرسة المقاصد الخيرية التي تأسست في بيروت سنة 1299 بعناية أبي الأحرار المرحوم مدحت باشا ، وصديقه الكبير رائف باشا متصرف بيروت، ثم انتخب لتدريس العلوم العربية والدينية في المدرسة الرشدية العسكرية سنة 1300.

ولما افتتحت جمعية المقاصد الخيرية مدرستها السلطانية عام 1302؛ دعته إلى التدريس فيها ،

وتولى نظارة السلوك كما دعت الأستاذ علامة سورية المرحوم الشيخ حسين الجسر إلى تولي إدارتها؛ فقام بالوظيفة خير قيام مع محافظته على التدريس في الرشدية العسكرية حتى كاد لا يكون له ساعة للراحة.

في المدرسة السلطانية عرفنا في الأستاذِ الرئيسَ الناظرَ البعيد النظر، والرقيب الشديد الحذر، والمربي الحكيم يحسن سياسة النفوس، حتى إذا ما استقامت على الطريقة بث فيها روح التقدم وساقها إلى أنبل مقصد من مقاصد العلم ، وأمثل غاية من غايات العمل.

في المدرسة السلطانية كان أول من (شنف) آذاننا ، وشغل أذهاننا بهذه الكلمات الذهبية: حب الوطن، الغيرة على الأمة، والاستعداد للمستقبل، المجد، النهوض، الاعتماد على النفس، إلى أمثالها من الفرائد الكريمة التي كان ينسج منها خطبه ، ومواعظه، ويشعل بنارها أفئدة النشء الذي كان يربيه ، ويعده؛ لخدمة ملته وبلاده.

لم تطل إقامته في المدرسة السلطانية؛ لما اعتور إدارتها من تأثير السياسات المختلفة ، فاستقال من خدمتها سنة 1304 ، ولما كانت همته وعصاميته تأبى الارتزاق من موارد الكسل؛ انصرف إلى تجارة الكتب؛ لكيلا يفارق العلم في أيما عمل متأسيًا بأستاذه البابي الحلبي صاحب المطبعة والمكتبة المشهورة ، وأسس في تلك السنة مكتبته العثمانية ، ومع ما في ظاهر هذا العمل من النفع الخاص ، فقد خدم به العلم؛ إذ حبب المطالعة إلى كثير من الناس ، وزاد في رغبة الراغبين فيها بما كان ينتقي لهم من التآليف الحسنة في كل فرع من الفروع على أن تجارته هذه لم تكن لتغفله عن غرضه الأسمى من إصلاح النفوس بالوعظ والإرشاد والتربية والتعليم؛ لذلك ما كان ينفك عن إلقاء الدروس في المسجد الجامع العمري.

تلك الدروس التي كان يرمي فيها إلى تهذيب الأخلاق التي إنما يكون المسلم بها مسلمًا ، بل الإنسان إنسانًا، وتفقيه الكافة في الدين، وتنوير عقولها بمواعظ التاريخ الإسلامي، ومناقب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصحابته الكرام رضي الله عنهم، ولمثل هذه الغاية من الإصلاح كان سلك غب عوده من الأزهر الطريقة الشاذلية، وعمل جهده على ضبط أفكار مريديه من العامة بضابط الشرع، وشحذ قرائح المعلمين منهم بآداب التصوف، وقاية لأولئك من الشذوذ الذي قلما يسلم منه السالك الجاهل، وصونًا لهؤلاء من الجمود الذي يستولي على الطالب الواقف عند ظواهر الفقه دون النفوذ إلى أسراره المتعلقة بكمالات الروح ، وتهذيب النفس، على نحو ما أشارت إليه هذه الكلمة الحكيمة: (الطريقة بلا شريعة باطلة، والشريعة بلا طريقة عاطلة) [87].

ثمان سنين مضت على الأستاذ في المكتبة دون أن يفارقه الفكر في خدمة الأمة من أقرب الطرق بأنجع الوسائل خصوصًا وقد رأى (بعد) ما عرى المدرسة السلطانية من القلب ، والإبدال في المبدأ والمقصد أن الخطب يتعاظم ، والخطر يشتد.
تنبه المسلمون للعلم بصحبة القطبين الجليلين: الحوت ، وخالد، ثم اندفعوا إلى تحصيله من الطريق الوطني الإسلامي الذي اختطته لهم جمعية المقاصد الخيرية أسوة ببقية الطوائف المواطنة؛ ليجاروها في حلبة المدنية.
بيد أن الحكومة السابقة التي كانت تخصهم من مراحمها بالقسط الأوفر أخذت عليهما هذه الطريق ، وصدتهم في بدئه عن بلوغ غايته؛ إذ حولت المدرسة السلطانية إلى معمل موظفين؛ فارتدوا حيارى ، وسبل العلم متفرقة ، ومناهله مختلفة لا يدرون أي سبيل يسلكون، ولا أي منهل يردون، وألحت بهم الحاجة إلى مدرسة يعتاضون بها عن المدرسة الوطنية التي فقدوها، فمن لهذا الأمر العظيم غير الكفء الندب العظيم ؟دفعت الغيرة والحمية أستاذنا لسد هذه الثلمة ، فترك تجارة الكتب سنة 1312 استعدادًا لإنشاء المدرسة المنشودة ، وكاشف بالأمر صديقه المفضال صاحب السعادة السيد عبد القادر أفندي قباني ، فوجد عنده من الشعور مثلما كان يجد هو في نفسه حتى إن سعادته ارتاح إلى مشاركته في رأس المال.
وهكذا تيسر له سنة 1313 هجرية فتح المدرسة التي سماها بالعثمانية تعوذًا من شر.

ودعاني إلى ما أحب من الخدمة؛ فلبيت ، وسعدت بموازرته زهاء عشرين سنة، ومنذ ذاك دخل الأستاذ الرئيس في طور من الجهاد الأدبي لا يحتمل المقام وصف مصاعبه ومتاعبه.
جرت المدرسة العثمانية على نظام عصري في الإدارة والتدريس لم يعهد بمثلها في المدارس التي ينفرد بتدبيرها شخص واحد حتى زهت في برهة يسيرة ، وانتشرت شهرتها في الآفاق؛ فأمتها الطلبة من أقاصي البلاد الإسلامية فضلاً عن الأحياء السورية، ثم اتسعت دائرتها ، وجمعت داخل محيطها أقسام التعليم الثلاثة: الابتدائي والاستعدادي والعلمي عدا روضة الأطفال، وبهذه صارت كلية وأخرجت للأمة من الشباب الناهض الذي انطلق يؤدي ما وجب عليه لأمته من خدمة المدنية في فروع العلم التي حصلها في الكلية الإسلامية، ثم اضطلع بها في جامعات بيروت وأوربا ، فكان منه الأديب الصحافي والطبيب والصيدلي والحقوقي والتاجر، وبالجملة فإن تلامذة الكلية الإسلامية إن لم يرفعوا أمتهم إلى ذروة المجد؛ فقد قربوها من المنزلة التي تليق بها بين أخواتها في الوطنية من الأمم الراقية.

هذا ومن الأماني الإصلاحية التي كانت تشغل قلب الأستاذ الرئيس التوفيق بين مقتضيات العلوم الحديثة ، ومقررات العلوم الدينية.

كان يزعجه ما يرى من التباين في الرأي بين بعض تلامذة المدارس العصرية ، وبعض طلبة العلوم الدينية؛ لجهل كل من الفئتين بعلم الفئة الأخرى ، وخاف على الجهود المبذولة في سبيل نهضة الأمة أن يحيط بها هذا الخلاف ، ويحبطها إلى عكس المقصود منها، فهم بتلافي الأمر ، فوسع قدر ما أمكن دروس العلوم الدينية من فقه ، وتوحيد ، وأضاف إليها درسًا في علم الأصول، ثم حاول إنشاء دائرة خاصة بمريدي الاختصاص في العلوم الدينية شرط أن لا يقبل فيها إلا من اضطلع بالعلوم العصرية ، وأحرز (إجازة البكلوريا).

ولما كانت واردات المدرسة لا تتسع للإنفاق على هذه الدائرة رأى أن يستنجد المشيخة الإسلامية؛ فسافر إلى الآستانة سنة 1913 ، وعرض عليها الفكر؛ فأعجبت به ، ونقلته إلى رجل الدولة إذ ذاك (أنور باشا) ، فحبذه أيضًا ، ووعد بتخصيص ألف ومائتي ليرة تدفع مشاهرة معاونة لهذا المشروع[88].

غير أنه لم يدفع منها سوى قسط واحد ، ووقعت الحرب العالمية؛ فبدلت الخير شرًّا، وانقلبت المعاونة إلى مضايقة وإحراج ، وانتهى إلى إقفال المدرسة ، ونفي الأستاذ الرئيس إلى إستانبول ، ووضعه هناك تحت المراقبة كما هو معلوم، على أن الكلية ومشاغلها العظيمة ما كانت تستغرق همته، وما كانت عزيمته لتقف عند حد من الخدمة، فقد كان لا يدع فرصة تسنح إلا اغتنمها للقيام بعمل مفيد، وإن أنس لا أنسى دهشتي ، وقد دخل علي المخزن[89]يومًا من أوائل أيام الدستور العثماني ، وفي يمينه أسطوانة من الورق ، فقلتُ له: يا أستاذ ، ما تلك بيمينك ؟ فألقاها إليَّ ، وإذا هي ثلاث استدعاءات بطلب ثلاث رخص بإنشاء جريدة ومجلة ومطبعة.

إلى ذلك اليوم كنت أحسب نفسي أعرف الناس بمبلغه من علو الهمة ، والإقدام، ولكن استصغرت نفسي ، واستضعفت إدراكي؛ عندما ظهر لي أن همته لا تحد بحد، وأن إقدامه لا يقدر بمقدار.

***

آثاره العلمية والأدبية

إن ما تقدم بيانه من المهام التي شغلت قلب الأستاذ ، وجوارحه منذ برز لمعركة الحياة كانت تكفي لإشغاله عن سواها من الكتابة ، والتأليف غير أن احتماله أعباء التدريس حمله على وضع عدة كتب نافعة في علوم الصرف والبلاغة والمنطق وأحوال الفقه[90]على أسلوب يقرب هذه العلوم الرياضية والطبيعية واللغات وآدابها.

وكان شرع في تصنيف كتاب في تاريخ آداب العربية ، وأملى منه عدة فصول على تلامذته، فلما ظهر كتاب (الوسيط) الذي وضعه الأستاذان الفاضلان الشيخ أحمد الإسكندري ، والشيخ مصطفى عناني في مصر وجده وافيًا بالغرض؛ فاعتمده في تدريس هذا العلم ، وأجل إتمام كتابه.

أما مكانته من الشعر ، وفنون الأدب ، فيكاد لا يجهلها أحد ، فقد صور شهامة العرب ومكارمها ، وعواطف القلب البشري ، وأهواء النفس في رواياته البليغة: السموأل والسباق، وذي قار، وفتاة الغار، التي تكرر تمثيلها ، وشهدها الألوف من الناس؛ فراقهم حسن سبكها ، وما رصعت به من الشعر الجزل ، والأمثال الحكيمة التي للمسامع ، والقلوب (كذا).

***

أثره الأكبر

على أن للأستاذ أثره الخالد ، وتأليفه الحي النامي الذي أبدعته عزيمته الماضية، وتعاهدت تنسيقه ، وتنميقه قواه العقلية والبدنية تعضدها مزاياه النفسية من حزم ، وثبات ، وإخلاص، ذلك الأثر الذي اتخذ له من عقول النابتة وقلوبها صحائف حساسة أودعها ما شاء أدبه ، وشاءت الوطنية والمدنية من كل علم وفضيلة ، ثم هو لم يفعل بها فعل المؤلفين يجمعون صحفهم بين دفتين، بل فرقها في الآفاق تشع النور والعرفان، وتنمو ، وتكثر ما تعاقب الملوان، وأضاء النيران (عنيت المدرسة) [ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ](الجمعة: 4).

(المنار)

يظن بعض الناس أن قصر مدة مجاورة الشيخ أحمد عباس في الأزهر يدل على أنه لم يكن من علماء الدين بكل ما في هذا اللقب من معنى، ونقول: إن اشتغال طالب العلم الذكي بتلقي العلوم

الأزهرية بضع سنين ، وتلقيه فيها عن علماء أذكياء كالشيخ المرصفي ، وغيره من شيوخ فقيدنا كاف لتحصيل القدر الكافي من هذه العلوم الذي يمكن صاحبه من الإخصاء بنفسه في كل ما يريده منها ، ولتحقيق كل مبحث يريد الإحاطة به من مباحثها ، ولو أنه مكث بضع عشرة سنة في دراسة تلك الحواشي ، والتقارير المعلومة ، والغوص في مناقشاتها؛ لغرق في بحر من الخيال تتقاذفه أمواج الأوهام والشكوك ، ولم يخطر في باله خدمة أمته بمثل ما خدمها به.

وأما الذي أذكى مصباح استعداده للعمل والسعي للنهوض بالأمة فهو حضوره بعض مجالس السيد جمال الدين الأفغاني ، ثم قراءته لصحيفة العروة الوثقى التي كان يصدرها هذا الحكيم بقلم مريده وصديقه الأستاذ الإمام رحمهم الله أجمعين.

مصاب مصر بأكابر رجال العلم والدين والسياسة[91]

الدكتور يعقوب صروف، شيخ الأزهر

بطرك القبط،زعيم الأمة سعد باشا زغلول

اشتدت وطأة الحر في صيف هذا العام على تشبع هوائه الضعيف بالرطوبة؛ فثقل علينا القيام بأعمالنا العادية الكثيرة، فعزمنا على جعل شهري إجازة المنار السنوية شهري المحرم وصفر متتابعين، وقد حدث في هذه الفترة وفاة أكبر أكابر رجال مصر في المنصب والمقام والسن جميعًا يتلو بعضهم بعضًا:مات أولا الدكتور يعقوب صروف أحد مؤسسي مجلة المقتطف الشهيرة والمحرر الأول لها عن 75 سنة ، وما عهد الاحتفال بعيد المقتطف الذهبي الخمسيني ببعيد، فكان لموته رنة أسف في مصر و سورية وسائر البلاد العربية ، وجدد عشاق العلوم والفنون فيها الاعتراف له بخدمتها نصف قرن كامل.

وتلاه الشيخ أبو الفضل الجيزاوي شيخ الجامع الأزهر ورئيس المعاهد الدينية ، مات عن 85 سنة ، وكان في الرعيل الأول من العلماء المتقنين للعلوم الأزهرية كلها يقل نظراؤه فيها، ولم يكن معاديًا للإصلاح في عهد الأستاذ الإمام، بل كان صديقًا له، ولكنه لم يعمل شيئًا في أيام مشيخته، على أن الأزهر في هذا العهد مقيد بقيود ثقيلة ، ودخل جمهور شبابه في مآزق السياسة فصار أمر إدارته أعقد من ذنب الضب.

وتلاه بطرك القبط الأرثوذكس الملقب برئيس الكنيسة المرقسية ، مات عن زهاء 95 سنة ، وكان عظيم الملة القبطية وأعطى منصبه حقه من الوقار والمحافظة على التقاليد الكنسية، وفي عهده ترقت القبط في الشؤون الاجتماعية وطالبوا رجال الدين الذي هو رأسهم بإصلاحات كثيرة أهمها: ما يتعلق بشؤون أوقافهم ، وانتفاع الشعب بها، وكانوا أمثل من المسلمين في خدمة دينهم وأوقافهم

وتكافلهم وأدبهم مع رئيسهم الديني ، وفي مصالحهم السياسية والاجتماعية وسائر أمور دنياهم.

***

سعد باشا زغلول

وتلاه زعيم البلاد الأكبر الرئيس الجليل سعد باشا زغلول ، مات عن زهاء سبعين سنة ، فزلزلت الأرض، وعظمت أهوالها، وشاركت الشعوب العربية أخاها الشعب المصري في المصاب ، وعدوه مصاب الأمة العربية بأعظم رجل سياسي نبغ فيها، وتجاوبت برقياتها مع مصر بالتعزية حتى كان أكبر ملوك العرب صاحب الحجاز و نجد ونائبه الأمير فيصل في مقدمة المعزين للشعب المصري ولحكومته.

بل اهتزت لموته أرجاء الشرق والغرب وأكبرته جرائد الأمم كلها، حتى إن جرائد أوربة عامة و إنكلترة خاصة قد أظهرت لنا من معرفة قدره وتقدير مواهبه ما غاب بعضه عن جرائد مصر نفسها.

وأما الأحزاب المصرية وجرائدها؛ فقد أجمعت على إكبار الرجل في نفسه، وإكباره في عمله، وإكباره في مصاب البلاد به، إجماعًا ظهر أنه خرج من صميم أفئدة الكتاب، بالرغم مما كان من شذوذ بعض الأفراد والأحزاب.

وقد كان مشهد جنازته والاحتفال بتشييعه مما لم ير له أحد نظيرًا في هذه البلاد ولا في غيرها إلا في يوم عودته من أوربة إلى مصر عظمة وحفلاً وجلالاً ووقارًا، إلا أن الحزن العام، وقد اقتضى بطبعه شيئًا من الإخلال بالنظام، فإن الجماهير من دهماء الشعب كانوا يهجمون المرة بعد المرة على النعش بسائق أقرب إلى الاضطرار منه إلى الاختيار، وظهر أنهم كانوا يريدون انتزاعه ، وإخراجه من مركبة المدفع التي وضع عليها لحمله على أعناقهم.

لا يتسع هذا الجزء من المنار لوصف المصاب ، ولا لوصف الفقيد العظيم وترجمته، وإنما نقول: إن الشعور بأن المصاب بسعد مصاب كل فرد من أفراد الشعب كان شعورًا عامًّا ، ولكن لا نزاع في أن وقع الرزء على قرينته كان أعظم من وجوه يعرفها بالإجمال كل أحد ، ويعرفها بالتفصيل من عرف كيف كانت حياتهما الزوجية في جميع أطوارهما ، ولا سيما الجهاد السياسي الأخير فنحن نعزيها بقول أشهر النساء في الحزن وهي الخنساء الشاعرة الصحابية رضي الله عنها:

ولولا كثرة الباكين حولي *** على أحبابهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن *** أعزي النفس عنه بالتأسي

بل نقول: إن الخنساء تعزت بكثرة الناس الذين يبكون حولها من فقدوا وإن لم يكن في نظرها كمن فقدت - ولكن قرينة سعد أولى منها بالعزاء لأن الذين يبكون حولها إنما يبكون من تبكي هي ، فلا تستطيع أن تقول كما قالت الخنساء.

(وما يبكون مثل أخي) فإن كان المصاب لا نظير له في عظمته ، فالتعزية لها لا نظير لها أيضًا فهي على قدر المصاب سواء.

سننشر لهذا الزعيم الكبير ترجمة نودعها من العبرة ما يوافق خطة المنار ، ونعجل الآن بذكر مسألة مهمة وهي أن مجلس الوزراء قرر أخذ بيت سعد باشا الذي يدعَى (بيت الأمة) ، وهو موقوف بطريق الاستبدال المعروف ، وجعله من المنافع العامة ذكرى للفقيد مع إبقاء كل آثاره فيه ، وشراء البيتين المجاورين له ، وهدمهما وإنشاء قبة عظيمة يجعل فيها قبره بنقل جثته إليها ، وتجعل مسجدًا ومزارًا للناس؛ فتكون كقبة الشافعي والبدوي ونحوهما، وقد رسم الرسامون شكل القبر وشكل القبة، وطُبِعَا في بعض الجرائد.

وقد أنكر هذا العمل القبط ومن على رأيهم من وجهين :

(أحدهما) أن الفقيد كان زعيمًا سياسيًّا للشعب المصري كله ، لا للمسلمين وحدهم ، ولم يكن زعيمًا دينيًّا إسلاميًّا ، بل هو الذي جمع بين الهلال والصليب ، ولم يكن يفرق بين المسلمين وغيرهم ، فلا يجوز أن يجعل قبره معبدًا للمسلمين.

(ثانيهما) أن شكل القبة التي رسمت لقبره عربي إسلامي ، والواجب أن يكون مصريًّا فرعونيًّا؛ لأنه هو كان مصريًّا قبل كل شيء ، ويعنون بهذه الكلمة أن الجنسية المصرية الوطنية مقدمة على كل رابطة أخرى دينية كانت أو لغوية أو غيرهما.

وقال بعض الكاتبين في ذلك: إن الزمن الذي كان فيه المصريون من القبط ، والمسلمين يلعنون الفراعنة لأجل دينهم (الوثني) ولا سيما فرعون موسى تبعًا للتوراة والإنجيل قد مضى ، وصار جميع المصريين الوطنيين يفتخرون بفرعون وبأنهم سلالة فرعون.

ولعل هؤلاء يستحسنون أن يجعل ما يبنى على قبره بشكل الهرم كما قالت إحدى السيدات المسلمات.

ونحن نتعجب لسكوت علماء الدين ، ولا سيما أهل الحديث منهم عما نستدركه عليهم من النصح للحكومة أن لا تجعل قبره مسجدًا لأن بناء المساجد على القبور محرم شرعًا ، وقد وردت الأحاديث

الصحيحة في البخاري و مسلم والسنن الأربع وغيرها بلعن فاعليه ، ووصفهم بشرار الخلق، ونحن نعلم أن العلماء إنما يسكتون عن مثل هذا البيان والنصح للحكام لاعتقادهم أنهم لا يعملون به، ولولا الملوك والسلاطين؛ لما وجدت هذه القباب العظيمة والمساجد على قبور الأئمة والصالحين وعلى الملوك بالتبع لهم ، فهم الذين ابتدعوا ذلك ، ونفذوه بالرغم من أنوف العلماء؛ ولذلك أجاب بعض العلماء الأعلام في كتاب له من احتج بوجود هذه القباب والمساجد في أكثر بلاد الإسلام على مشروعيتها ، فكان مما قاله: إن هذه أمور حكومية لا حكمية، ودولية لا دليلية، ولكن الحكومة المصرية الحاضرة لا ترضى أن تجعل قبر سعد باشا فتنة لعوام الشعب يضلون به كما ضلوا بقبور الأولياء فعبدوها بالدعاء والنذور والطواف بها وغير ذلك مما شرحناه مرارًا، وإنني قوي الرجاء في امتناعها عن جعل قبة قبره مسجدًا؛ لمخالفته لنصوص الشارع ولحكمة التشريع معًا، وهو افتتان الجاهلين بتعظيم القبر تعظيمًا دينيًّا ، وتعليق آمال زائريه بقضاء الحاجات، ودعائه لذلك في المهمات والنذر له ، فهذه الحكومة لا تريد أن يكون قبر رجلها السياسي سببًا لازدياد الخرافات والضلالات في البلاد، ولكنها لا تسمع كلام العلماء فيما عدا ذلك من المباني والتماثيل التي قررتها ، وقد يتأول لها من يبالي بالدين من رجالها بأنها خالية من الحكمة أو العلة التي حرمت لأجلها، وهي كونها ذريعة للشرك محتجين بأنه لا يوجد في مصر أحد يعظم تمثال محمد علي باشا أو ولده إبراهيم باشا تعظيمًا دينيًّا ، ولا غير ديني أيضًا، فإذا كان هذا مأمونًا فيما ستنصب الحكومة لسعد من التماثيل ، فليس مأمونًا في قبر عليه مسجد يصلى فيه بجانب القبر ، والصلاة إلى القبر ممنوعة شرعًا أيضًا.

وقد ظهر أن قرن الفتنة بعبادة سعد قد نجم في الأرياف؛ إذ بلغنا أن بعض أهل الطرق ابتدعوا طريقة سموها السعدية الزغلولية.

وإننا لا نشك في أن جعل البناء على قبره مسجدًا معدًّا للصلاة فيه بفرشه ووضع محراب فيه لمعرفة القبلة يكون ذريعة لجعله كقبر البدوي والسيدة زينب وأمثالهما.

وهل يظن عاقل أن جميع عوام المصريين يفهمون أن خدمة سعد للبلاد سياسية محضة لا شائبة للدين فيها ؟ ، كيف وإن بعض كبار علماء المغرب الأقصى قد ذكر في مقال له نشر في المنار ما يدل على أن العلماء المستنيرين هنالك يعتقدون أنه زعيم ديني ، فعسى أن تتدبر الحكومة المصرية هذا الأمر وتحول دون وقوع هذه الفتنة التي هي خلاف مرادها من إحياء ذكرى سعد بقبره وداره وآثاره وما تنصب له من تماثيل، وإنما مرادها أن تحفظ ذكرى خدمته السياسية

ومقاصده الاستقلالية ويتمسك الشعب بها ويكون عونًا للقائمين بعده بتنفيذها كما كان عونًا له يؤيده في كل أعماله.

وأما تعليل دعاة الإلحاد من القبط والمسلمين طلبهم جعل شكل القبة فرعونيًّا تبعًا لجعلهم جنسية المصريين في هذا العصر فرعونية ، وجعل سعد من ذرية فرعون ، فهو تعليل باطل، فسعد من أسرة عربية الأصل ، كما أخبرني ابن أخيه العالم الفاضل الثقة عبد الرحمن زغلول رحمه الله تعالى، والجنسية المصرية في هذه العصر جنسية سياسية شاملة لكل سكان هذا القطر من عرب - وهم السواد الأعظم - وقبط وترك وإفرنج وغيرهم من الأجانب الذين قبلوا هذه الجنسية الوطنية السياسية ، ولا دخل للأنساب القديمة ولا للحديثة فيها.

سعد زغلول[92]

(1)

فطرته واستعداده - تربيته العقلية والنفسية - تعليمه - ونتيجة ذلك

إن اسم (سعد زغلول) أو (سعد) وحده قد صار أشهر وأكبر - وهو غفل من الألقاب والنعوت - من كل ما تتحلى به أسماء العظماء وتحلى هو به من لقب ونعت كالزعيم والرئيس الجليل وذي الرياستين والوزير الخطير ورئيس الوزراء أو رئيس مجلس النواب؛ أعني أن جميع طبقات الناس صاروا يعدون شخص الرجل أكبر وأعلى بصفاته ومزاياه الذاتية، من كل المناصب الرسمية وغير الرسمية التي وصل إليها.

ذلك بأن هذه المناصب قد تحلى بها غيره، ولم يكن لأحدٍ منهم معشار ما بلغه من إجلالِ أمته وغير أمته له.

وعدتُ بأن أكتب شيئًا في ترجمة سعد يليق بمشرب المنار، وقد كان يخطر بالبال أن اضطراري إلى تأخير إنجاز الوعد يجعلني مضطرًا للاقتباس مما كتبه غيري لأن جمهور الكتاب من تاريخيين وسياسيين ومترسلين وجمهور الشعراء المفلقين قد تسابقوا إلى تأبين سعد ورثائه وكتابة تاريخه ببلاغة رائعة وعناية تامة، شارك فيها المصريين سائر الشعوب العربية من فلسطين إلى سورية إلى العراق إلى عمان و جزيرة العرب في الشرق ومن تونس و الجزائر إلى مراكش في الغرب.

ناهيك بحفلة التأبين الكبرى في العاصمة وما قاله فيها الوزراء والرؤساء، ومصاقع الخطباء وخناذيذ الشعراء، وبتراجم الجرائد الكبرى وما توخاه محرروها من الاستقصاء.

حضرت حفلة التأبين الكبرى وسمعت ما قيل فيها مما أبكاني وأبكى جمهرة الحاضرين، وقرأت كثيرًا مما نشر في أشهر الجرائد، ولا أدعي أنني قرأتُ كل ما كتب في الصحف التي ترسل إليَّ وهي تعد بالعشرات، دع ما لا يرسل إليَّ منها وهو أكثر؛ ولكنني على كثرة ما سمعت وقرأت قد

بقي لي ما أقوله مبتدئًا غير مقتبس، ومبتكرًا غير منتزع، بَيْدَ أنَّه لا بد من مزجه بغيره مما قد يعرفه كل أحد.

ومن الغريب أن جميع من وقفت على كلامهم قد قصروا في بيان أهم شيء في تاريخ الرجل وهو تربيته وتعليمه مع إجماعهم على أن التربية والتعليم هما بعد الاستعداد الفطري كل شيء، على أنهم قصروا في الكلام على استعداده أيضًا كما قصروا في الكلام على إيمانه بالله عز وجل الذي هو السبب الأكبر في كل ما رأوا من شجاعته واستهانته بالمصائب، واهتمامه بمعالي الأمور وعزوفه عن سفسافها، نعم إنهم قصروا فيما يجب بيانه من هذه الأمور الأربعة وهي البذرة والجرثومة فالشجرة، وكيف نبتت واستوت على سوقها ورسخ أصلها وعلا في المساء فرعها، فأينعت ثمراتها، وآتت أكلها ضعفين بإذن ربها.

وحق المنار على قرائه أن يتلافى هذه التقصير ويتم ما كتب غيره في موضوعه.

***

(1) نفس سعد وفطرته

قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) رواه البخاري.

في صحيحه من حديث أبي هريرة مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم في جواب مَن سألوه عن أكرم الناس وأرادوا معادن العرب وأنسابها.

وقوله: (كمعادن الذهب والفضة) من زيادة رواية العسكري.

والمعنى أن الناس في اختلاف استعدادهم للخير والشر كما في رواية أبي داود الطيالسي للحديث معادن بعضهم كالذهب والفضة في صفاء جوهره وجماله وبقائه وقلة قبوله للخبث والصدأ، وبعضهم كالزنك والقصدير في ضعف مادته وسرعة قبوله للصدأ والتلف، وبعضها كالنحاس والحديد بين ذينك وذين، وقد كان سعد ذا مزايا فطرية ووراثية يعد بها جوهر نفسه من أزكى النفوس، وعقله من أذكى العقول، كان ذكي الفؤاد شجاع القلب دقيق التمييز عظيم الإقدام عالي الهمة، يحب المعالي ويحتقر الصغائر، عرفت فيه هذه الصفات الفطرية من صغره، وتجلت تمام التجلي في كبره، فكانت هي الأصل في استفادته مما صادفه من حسن التربية والتعليم، وقد روى

الطبراني في الكبير من حديث الحسين بن علي مرفوعًا وحسنه (إن الله تعالى يحب معالي الأمور وأشرافها، ويكره سَفسافها).

ولد سعد سوي الخلق، جميل الصورة، تام البنية، كبير الدماغ، مستعدًّا لتربية يكون بها من عظام الرجال، وهو من عرق عربي أصيل ورث عنه الشجاعة والإقدام، وغريزة الحرية والاستقلال، ولم يكن يحتاج إلا إلى رجل حكيم جمع بين العلم الصحيح ومكارم الأخلاق وعلو الهمة وشرف المقصد يربي فيه هذه الغرائز وينميها ويصقل معدنها ويضعه حيث ينتفع به، وكم وكم يولد في الأمة من أطفال أزكياء الفطرة فيفسد فطرتهم سوء التربية؛ كما يوضع المعدن النفيس في السبخة، فيعلوا طبعه الطبع، إلى أن يأكله الصدأ.

***

تربيته وتعليمه

إذًا إن خير ما قيضه الله لسعد فكان بعد ما ذكرنا من استعداده سببًا لكل ما ظهر منه من المزايا أن ساقه في أول نشأته إلى كنف نادرة الزمان المصلح الكبير الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده عند ما أراد طلب العلم في الأزهر، ولم أسأله ولا سألت شيخنا وشيخه عن أول أمره فيه ولكنني علمت منهما أنه لم يكن يعجبه درس غير درس الأستاذ الإمام بعد أن اعتاده، فسعد قد جلس إلى كثيرٍ من شيوخ أستاذه وغيرهم من شيوخ الأزهر ولم يستفد إلا من واحدٍ منهم ولم يتخرج إلا به؛ بل كان كثيرًا ما يجلس إلى تلك الدروس مختبرًا للشيوخ والطلبة منتقدًا عليهم في نفسه تارةً وبلسانه تارةً كما سمعت من لسانه، وسأنشر في هذه الترجمة بعض مكتوباته المصرحة بذلك.

قال لي مرة: علمت أن الشيخ أحمد الرفاعي يقرأ درسًا في المنطق - لعله قال شرح السلم أو إيساغوجي - فجلست في درسه لأعلم كيف يقرأ علمًا هو في عقله من أبعد الناس عنه، فإذا هو يبدي احتمالين في إعراب عبارة يقتضي أحدهما بطلان القاعدة المنطقية التي يقررها وهي كون القضية الكلية السالبة تنعكس جزئية ولا يطرد عكسها كلية فلا يصح.

فقلت له: يا سي الشيخ إن هذا الإعراب يبطل القاعدة من أساسها فلا يصح أن يكون مرادًا.

فقال: ما لنا ؟ هم العلماء قالوا إذا صح الإعراب صح المعنى ؟ فعجبت لأستاذ يقرر بطلان قواعد العلم القطعية فيه بإيراد احتمال في إعراب عبارة مؤلف فيه ! أو ما هذا معناه.

وقال لي مرة إنه حضر له درسًا آخر في علمٍ آخر - لعله السعد أو جمع الجوامع - فاستمر الدرس ساعتين كاملتين (قال) ولم أحضره من أوله، وكان موضوعه مسألة واحدة لم يستقر ذهن الشيخ على فهم رضيه فيها إلا بانتهائه، وهنالك تنفس الصعداء وقال الحمد لله، هذه المرة فهمناها في درس واحد، وقد قرأت هذا الكتاب مرتين قبل هذه، فأما الأولى فقد استغرق بحثنا في هذه المسألة ثلاثة دروس مثل هذا الدرس، وأما الثانية فقد فهمناها في درسين مثله في طوله.

قال سعد فقلت له: ياسي الشيخ لِمَ لَمْ تكتبوا الحل الذي فهمتوه في المرة الأولى أو الثانية بعد ذلك التعب الطويل فيها ليستغنوا عن هذا التعب في كل مرة ؟وإننا رأينا بعض الجرائد تذكر أن الشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله تعالى كان من أشياخه كفلان وفلان، نعم وكان من أشياخ شيخه أيضًا؛ ولكن هل علم أولئك الكاتبون بما استفاده من فلان وعلان ؟ ولَمْ أَرَ أَحَدًا منهم بين أن أستاذه الذي تخرج به هو فلان؛ بل ذكروا أو ذكر بعضهم أنه كان يحضر مع (صديقه) الشيخ محمد عبده دروس الحكيم السيد جمال الدين الأفغاني، والسيد لم يكن يقرأ إلا دروسًا عالية في الفلسفة والكلام والأصول، ذكرنا كتبها في تاريخ الأستاذ الإمام؛ إذ كان سعد مبتدئًا لم يستعد لحضور تلك الكتب؛ ولكنه كان يختلف إلى مجلسه بالتبع لأستاذه فيستفيد منها علمًا وحكمة وأدبًا وسياسة؛ لأن مجالس السيد -رحمه الله- كانت كلها كذلك كما قلت في المقصورة الرشيدية :

وأشرع الطريق للإصلاح من *** علم وحكم ولسان وحجا

بما أفاض من هوامي حكمة *** قد زانها فصل الخطاب ونثا[93]

في خطب يُحْيِي القلوب وقعها *** وتكشف الخطب وتبعث الرجا

وفي دروس كتب أحيا بها *** من دارس العلوم ما كان عفا

وفي آمالي بها أنشأ من *** معالم الإنشاء ما كان أمحي

يقبسهن في ثبا [94]من داره *** مريده والشمس في رأد الضحى

ثبا له ينحوه أهل الرشد ما *** بين ثبات وفرادى وثنى

وفي كؤوس سمر يديرها *** في سامر (البورصة) ما الليل سجا [95]

لا لغو بين شربها يخشى ولا *** غول فيغتال الجسوم والنهى[96]

تنازعوها حيث لا تنازع *** صرفا بأفواه العقول تحتسى

كان سعد زغلول مريدًا للأستاذ الإمام لا تلميذًا فقط، أعني أنه كان ربيبه ولا يصح لكل من حضر دروسه أن يدعي أنه مريده ولا ربيبه، وكان هو يعبر عن نفسه في مكتوباته للإمام بالمريد، وهذا اللقب من اصطلاح الصوفية الذين كان مدار التربية الروحية عندهم على تربية الإرادة.
وتربية الإرادة هي التي يكون بها الرجل رجلاً حرًّا من الرق والعبودية لغيرِ الله عزَّ وجلَّ - طليقًا من الأسر؛ أسر الشهوات والأهواء، فلا تكون إرادته خاضعة إلا لاعتقاده، ولا يتصرف فيها ملك من الملوك، ولا يستخذي لناسك من النساك؛ بل يأبَى أن تذل ويخزَى لسلطان الجمال أيضًا.
وكان منهاج الأستاذ الإمام في التربية أن تكون غاية التأديب والتثقيف حرية الإرادة وقوية العزيمة، ومنهاجه في التعليم أن تكون غايته حرية الفكر، واستقلال العقل في الحكم، ويدخل في هذا تعليم الدين فقد كان منهاجه فيه الرجوع إلى مذهب السلف الصالح، وفهم الدين من الكتاب والسنة كما كانوا يفهمون، والاهتداء به في الأخلاق والعمل كما كانوا يهتدون، والتوسل إلى ذلك بتحصيل ملكة اللغة العربية قَوْلاً وكِتَابَةً وخَطَابَةً عن فَهْمٍ وذَوْقٍ للكلام العربي الفصيح بكثرة مزاولته مع الاستعانة بأحسن ما كتب في فنونه.
وجعله صديقًا للعلم وعونًا له على إصلاح البشر، وكان يمزج التربية والتعليم بشيء من السياسة يرى أنه لا تتم إنسانية المرء ولا كونه حرًّا مستقل الإرادة والفكر بدونه، وهو الدعوة إلى استقلال الأمة وحريتها، وعدم استبعاد حكامها لها.
ويدخل في هذا الروح السياسي مسألة الوطنية واتفاق أهل الوطن على مصالحهم الوطنية من غير جناية على الهداية الدينية.
وقد كتب فيما شرع فيه من ترجمة نفسه هذه المقاصد قال: وارتفع صوتي بالدعوى إلى أمرين عظيمين:

(الأول) تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه، وتقلل من خبطه وخلطه، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني، وإنه على هذا الوجه يعد صديقًا للعلم، باعثًا على البحث في أسرار الكون، داعيًا إلى احترام الحقائق الثابتة، ومطالبًا بالتعويل عليها في آداب النفس وإصلاح العمل.
وكل هذا أعده أمرًا واحدًا.

وقد خالفت في الدعوة إليه رأي الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منها جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم.

(وأما الأمر الثاني) فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير سواء كان في المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها أو فيما تنشره الجرائد على الكلفة منشأ أو مترجمًا من لغات أخرى أو في المراسلات بين الناس.
وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر في نوعين كلاهما يمجه الذوق وتنكره لغة العربي؛ إلخ.

(ثم قال) وهناك أمر آخر كنت من دعاته، والناس جميعًا في عمى عنه وبعد عن تعقله؛ ولكنه هو الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية، وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه.
وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة؛ نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها وهي هذه الأمة التي لم يخطر لها هذا الخاطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرنًا - دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم وأنه لا يرده عن خطئه، ولا يقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول وبالفعل.

جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه

والظلم قابض على صولجانه

ويد الظالم من حديد

والناس كلهم عبيد له أيّ عبيد ا.هـ

كان سعد أيام طلبه للعلم في حجر الإمام وكنفه كولده لا كسائر تلاميذه فكان يستفيد من علمه وعمله، ومن أخلاقه وشمائله، ومن فصاحته وبلاغة كلامه، فشبَّ بين يديه كاتبًا خطيبًا أو أديبًا سياسيًّا، وطنيًّا إسلاميًّا.
لأجل هذه النزعة السياسية نفى الخديو توفيق باشا الأستاذ الإمام من القاهرة إلى بلده محلة نصر في

الغربية عقب نفي أستاذه السيد الأفغاني إلى الهند، وكان يعلم أنهما قد بثا في مريديهما فكرة الحكومة النيابية الدستورية في الحزب الوطني الذي ألفه السيد وكان سببًا لإسقاط إسماعيل باشا بالتواطؤ مع ولي العهد توفيق باشا الذي كان انتمى إلى هذا الحزب وعاهد رئيسه السيد على أن يجعل حكومة مصر نيابية إذا آل أمرها إليه إلخ ما بيناه بالتفصيل في الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الإمام الذي سيصدر عن قريب إن شاء الله تعالى، ثم انقلب على الحزب وزعيمه بدسائس الطامعين في ملكه وهو لا يدري.

وأعجب من هذا أن توفيق باشا أبى على الأستاذ الإمام ما طلبه بعد عودته إلى مصر بانتهاء مدة نفيه من أن يكون مدرسًا في مدرسة دار العلوم لئلا يربي طلابها على أفكاره الاستقلالية - وأمر البلاد في أيدي المحتلين لا في يده - وأمر بعد العفو عنه بأن يجعل قاضيًا في المحاكم الأهلية؛ ولكن في غير القاهرة فقال الأستاذ لوزير الحقانية لما عرض عليه ذلك إنني لم أُخْلَقْ قاضيًا وإنما خُلِقْتُ معلمًا، على أنني أعلم إذا دخلت القضاء أرتقي إلى أعلى درجة فيه وأن التعليم ليس فيه ارتقاء.

هكذا كان شيخنا الأستاذ الإمام، وشيخه السيد الأفغاني موقظ الشرق وحكيم الإسلام، يعلمان ويربيان مريديهما ويعدانهم لكل إصلاح.

كانا يشبهان في استفادة الناس منهما الكون الأعظم أو العالَم الكبير: سماؤه وما فيها من النيرات، وأرضه وما فيها من جماد ونبات وحيوان، كل أحد يأخذ عنهما كما يأخذ عن الكون ما هو مستعد له بفطرته، وبما توجهت إليه نفسه في تربيته، وكانت مجالسهما وأوقاتهما كلُّها عِلْمٌ وحكمة كعالم الكون الأكبر لا تحجب عن أحد، فكانت صيقلاً لمعادن مريديهما تعدها للنفع والفائدة للناس، والقيام بما يتيسر للمرء من المصالح العامة، وقد كان تعليم سعد دينيًّا أدبيًّا سياسيًّا، فعرض له أن يكون محاميًا في المحاكم الأهلية ففاق جميع المحامين؛ بل كان أول من جعل لهذه المهنة قيمةً واحترامًا لم يكونا لها من قبله، ثُمَّ طفر منها إلى أعلى درجة في القضاء الأهلي فكان مستشارًا في محكمة الاستئناف في الذروة العليا منها، وتعلم اللغة الفرنسية وقوانينها في أثناء اشتغاله بها، وذلك أن مَن كان مريدًا للأستاذ الإمام يصلح لما تَعَلَّمَ الوسائلَ له، ولِمَا لم يتعلم وسائله.

قال لي الأمير شكيب أرسلان الشهير: قلت لأستاذنا الإمام إن الدولة عَرضت عليّ أن أكون مديرًا للمعارف في ولاية بيروت فامتنعت معتذرًا بأن استعدادي للأمور الإدارية العامة لا للتعليم - فعذله الأستاذ عذلاً شديدًا لقوله إنه غير مستعد لإدارة التعليم وإنني أنقل هنا كتابًا من كتب سعد لأستاذه

ليقف القارئ منه على ما كان من أثر تربيته له في نفسه، وسأنقل غيره أيضًا إن شاء الله تعالى.

((يتبع بمقالٍ تالٍ))

أول كتاب من سعد إلى الأستاذ الإمام[97]
بعد عودته من أوربة إلى بيروت
أيام النفي بعد الثورة العرابية

من مصر 24 ربيع الآخر سنة 1300 إلى بيروت

مولاي الأفضل، ووالدي الأكمل، أحسن الله معاده؛

بعد تقبيل الأيدي الكريمة ، قد ورد الكتاب الكريم على طول تشوقنا إليه، فتلوناه ووعيناه في الفؤاد، وحمدنا الله تعالى على أن شرفتم تلك الديار سالمين، مبالغًا في إكرامكم والاحتفال بكم من كرام أعيانها المسلمين، وأماجد نبهائها المؤمنين، جزاهم الله عن كل مصري يعرف مقداركم خير الجزاء.

ولهم منا معشر أتباعك ومريديك بما تقبلوك به من كريم الاحتفال، وعظيم الإجلال ألسنة مرطبة بالثناء عليهم، وضمائر مطوية على مزيد احترامهم وفائق تعظيمهم.

صحتي البدنية معتدلة ، أما فكري فقد تولاه الضعف من يوم أن صدع الفؤاد بالبعاد، وتمثلت فيه بعد تلك الحقائق التي كنت تجلو مطالعها معان، نعرفها أوهامًا يضيق بها الصدر ولا ينطلق بردها اللسان؛ مخافة فوات مرغوب، أو لحاق مكروه مما تعلمون.

توجهت إلى البيك صاحب تاريخ العرب وسألته إعارته فأجاب بأن محمود سامي أخذه منه وسافر ، ولم يرده إليه، ثم هو يسلم عليكم أطيب السلام ويقول: إنه مستعد لخدمة جنابكم في أي شيء تريدون حسيًّا كان أو معنويًّا.

وسأتحرى هذا الكتاب في كتب سامي عند بيعها فإذا وجدته فيها؛ اشتريته، وأرسلته في الحال إلى حضرتكم أو أحضرته معي إن وافق ذلك استجماعي لوسائل السفر.

الحال العمومية على ما تركتها، غير أن الناس أخذوا في نسيان ما فات من الحوادث وأهوالها، وقلَّت قالتهم فيها، وخفت شماتة الشامتين منهم، وأصبح المادحون للإنكليز من القادحين فيهم وبالعكس، والكثير يتوقع انقلابًا أصليًا ، والله أعلم بما يكون.

رفعت تحيتكم لجميع من ذكرتم في الكتاب تصريحًا وتلويحًا، فتقبلوها بمزيد المسرة والانشراح.

يسلم على جنابكم الصادق في صداقته ومودته حسين أفندي وهو في غاية من الصحة والعافية وقد عاد من الريف فرارًا من شروره، آسفًا على ما وقع لجنابكم أكثر من أسفه على نفسه.

الشيخ محمد خليل والشيخ عامر إسماعيل والشيخ حمادة الخولي والسيد عثمان شعيب والشيخ حسن الطويل ووالدي عبد الله وأخواي شناوي وفتح الله (هو المرحوم أحمد فتحي باشا) وكثير غيرهم يقبلون يديكم، ويسلمون عليكم، ويقدمون مزيد تشكرهم لحضرات أولئك الكرام الأماجد الذين أحسنوا وفادتكم وأكرموا مثواكم، زادهم الله كرمًا وكمالاً.

مولاي: ذكرت لحضرتك أن الضعف ألم بفكري فبالله إلا ما قويته بتواصل المراسلة غير تارك فيها ما عودتنا على سماعه من النصائح والحكم التي نهتدي بها إلى سواء السبيل، ونتمكن بها من السير في العالم المصري الذي اختبرت حقائقه، وعرفت خلائقه، وما يناسبها من ضروب المعاملة ، وفقنا الله لمتابعتك، ولا أطال على بلادك مدة غيبتك، إنك إمامها وإن اقتدت بغيرك، ومحبها الصادق وإن لم تعرف بقدرك، والسلام.

ولدكم

سعد زغلول

((يتبع بمقال تالٍ))

سعد زغلول[98]

(2)

تكلمنا في النبذة الأولى من هذه الترجمة على فطرة سعد الزكية، وغريزته الاستقلالية، ووراثته للسجايا العربية، كالفصاحة والشجاعة والحرية، وحاجته إلى تربية حكيمة وتعليم نير يكمل بهما استعداده لعظائم الأمور.

ثم تكلمنا على هداية الله له ، وسوقه إياه عند إرادته طلب العلم إلى حضن الأستاذ الإمام ، فكان له تلميذًا عنه يتلقى العلم، ومريدًا إليه ألقى مقاليده في تربية النفس، كما أنه أدرك معه أواخر عهد حكيم الأمة السيد جمال الدين الأفغاني، فكان يختلف إلى مجالسه، ويلتقط بعض ما ينثر من درره، وتنفعل روحه بما يتجلى في شكل خلقته، وعلو همته، وملامح نظرته، من شعاع ينبعث من عينيه، وحرارة تفيض من بين جنبيه، وحكمة تتدفق من بين ماضغيه، وهمة تتضاءل أمامها العظائم، وشجاعة تجبن دونها الضياغم، وناهيكم بفصاحة لسانه، وقوة عارضته، وتأثير خطابته.

حدثني حفني بك ناصف وهو كسعد و محمد باشا صالح من الرعيل الأول من تلاميذ الأستاذ الإمام قال: كنا إذا قيل لنا: إن السيد سيخطب الليلة نفضل سماع خطبته على سماع أطرب المغنيين (كالسي عبده) فنؤثرها عليها حتى إن المدعو منا إلى وليمة عرس يترك الإجابة لها، وكنا نجد في أنفسنا من سماع خطبته (وكذا سائر كلامه في الإصلاح) أن الواحد منا جدير بإصلاح مديرية أو إصلاح مملكة ا.هـ.

قد صار جميع الذين اختلفوا إلى مجلسه خطباء يتفاوتون بقدر معارفهم ولسنهم، وكان الأستاذ الإمام أوسعهم علمًا وأصحهم حكمًا وأفصحهم لسانًا وأحسنهم بيانًا وأبلغهم قلمًا، وكان يليه في سلاسة الإنشاء ودقة التعبير إبراهيم بك اللقاني، وانفرد إبراهيم بك المويلحي ببلاغة الترسل ونكت النقد، فخلف وراءه فيهما كل أحد، وخطابة إبراهيم بك الهلباوي معروفة للجماهير لأن الشيخوخة لم تنل من منته، ولم تضعف من شرته، ولم تخفض من جرس صوته، وقد اشتهر السيد عبد الله نديم

بخطابة التهييج في عهد الثورة العرابية فكان مسعر نارها ، ولم تكن تصلح إلا له ولم يكن يصلح إلا لها، فإنه ذو خلابة وغلو، ولا يهيج العوام إلا الغلو، وأما سعد فقد بز الجميع في الخطابة الجدية بعد أن زاولها في عهد اشتغاله بالمحاماة، وإن أصعبها مركبًا، وأعزها مطلبًا، وأعلاها على العقول منالاً، وأعصاها على فصاح الألسنة مقالاً، لهي الخطابة السياسية، في متنازع المصالح الدولية والمطامع الاستعمارية، كما هو شأننا مع الدولة البريطانية، وقد أصاب سعد القدح المعلى منها، حتى شهد له أشهر خصومه الإنكليز وغيرهم بنبوغه فيها، وكانت أفعل مواهبه في زعامته، وكان مع هذا كاتبًا مجيدًا، والأستاذ الإمام هو الذي علمه الإنشاء، ثم مرنه عليه بجعله أحد المحررين بالقسم الأدبي في الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية) في عهد توليه لرياستها مع إدارة المطبوعات العامة.

وقد رأى القراء نموذجًا من مكتوباته العادية لأستاذه وأستاذنا إذ كان في بيروت عقب نفيه من مصر[99].

***

(3) إيمان سعد وخلائقه وتأثيره في عمله

قد علم مما تقدم أن سعدًا تربى في حجر الأستاذ الإمام تربية إسلامية استقلالية ، فكانت عقيدته الدينية راسخة ، وآدابه الإسلامية عالية ظهر أثرهما في أعماله الكسبية ، ونزاهته فيها عن الطمع والدناءة وأهل السحت، بل كان يقيد في دفاتره ما يأخذه من مقدم جعل الوكالة في المحاماة في دفتر الأمانة لا في دفتر الدخل والإيراد، ليردها إلى صاحبها إذا لم يقدر على عمل شيء له.. ولم يكن يقبل الوكالة في دعوى يعتقد أن صاحبها على الباطل، وربما كان ينصح لبعض الذين يطلبون توكيله عنهم نصائح يستغنون بها عن توكيله، حدثنا عن نفسه أن رجلاً عرض عليه أن يوكله في قضية ذكرها له ، فقال له: إنني لا أقبل جعلاً منك أقل من مائتي جنيه، وقضيتك هذه بسيطة لا يحتاج المدافع فيها عنك علمًا واسعًا ، ولا حججًا تعجز أنت عن الإدلاء بها كما ألقنك، فأنا أذكر لك ما أدافع به عنك إذا قبلت الوكالة ، وأرجو أن يحكم لك به كما يحكم لي إذا كنت صادقًا فيما ذكرت لي من موضوع القضية، فاسمع ما أقوله لك ، ووفر على نفسك مبلغ 200 جنيه ، وذكر له ما يجب أن يدافع به ، فقال الرجل: بل أرجو أن تقبل الوكالة عني ، وتدافع لي في المحكمة بنفسك وتأخذ

الجعل حلالاً طيبة به نفسي.
قال سعد: فقلت له قبلت ، وسترى وتسمع صدق ما نصحت لك به، وذهب إلى المحكمة في بنها ومعه الموكل ، وقال فيها عند الدفاع عنه ما كان ذكره له بعينه ، وحكمت له المحكمة على خصمه ، (قال): وكان دفع لي نصف الجعل فلما جاءني بالنصف الآخر قال لي: أتظن أني أبله (عبيط) لم أفهم نصيحتك لي أو لم أصدقها ؟ كلا إنني فهمتها وصدقتها ، ولكنني رجل ذو نعمة وأطيان واسعة ، وقد كثر المعتدون علي ، فأردت أن يعلموا أن وكيلي (سعد زغلول) ليكفوا عن الاعتداء علي ، فأنا وفرت بهذا المبلغ مالاً كثيرًا أو تعبًا لا يُعْرَف آخِره !.
ا هـ وهذا القول يدل على بعد مدى الصيت الذي وصل إليه سعد في أثناء اشتغاله بالمحاماة.
ثم إن سعدًا دخل في أطوار التفرنج في معيشته وأفكاره الاجتماعية والقانونية، وغلبت نزعة الوطنية المصرية عنده على فكرة الجامعة الإسلامية، وظل يقول بأن المسلمين لا يرتقون ارتقاء صحيحًا إلا بالإصلاح الديني الذي كان يدعو إليه الحكيمان أستاذه وأستاذ أستاذه، وأما العبادات فلا نعلم أنه كان يذهب إلى المساجد إلا في بعض الاحتفالات الرسمية في عهد وزارته وبعض صلوات الجمعة في زمن زعامته، وأنكر عليه أهل الدين أمورًا منها عمله في تجرئة النساء على السفور المتجاوز للحد الشرعي، ولكنه قاوم الدعوة إلى لبس البرنيطة.
وأما إيمانه بالله وتوحيده له وتوكله عليه فلم يزدد في هذه السنين الأخيرة إلا قوة وثباتًا، حتى إنه صار حالاً له ووجدانًا، وقد بلغ من الإيمان بالقضاء والقدر أن صار من قبيل من يسميهم الصوفية أهل الفناء في التوحيد ، أو ممن يسميهم المتكلمون بالجبرية ، فكان كثيرًا ما يصرح في الكلام على كل ما مسه من مصيبة، وكل ما أُوتي من فلج على الخصوم في حادثة، بأن هذا فعل الله وحده، وأنه لا حول له فيه ولا قوة، حتى إنني ناظرته في بعض كلامه هذا ، وبينت له فيه مذهب السلف ومذهب متكلمي السنة ، فكان يقول: إنني أعبر عما أشعر به ، وأراه ضروريًّا لا اختيار لي فيه مهما تكن المذاهب، وكان أول عهدي بهذه الحال فيه عقب فوزه المضاعف في انتخابه للجمعية التشريعية في دائرتين، بعد أن تصدى لمناهضته في الانتخاب صاحبا السلطتين، سلطة الأمير الشرعية، وسلطة عميد الاحتلال الفعلية.
وقد جرى بيني وبينه مناظرات كثيرة في بعض المسائل الشرعية الاجتهادية ، وبعض المشكلات في تفسير القرآن ، فكان فيها كلها متحليًا بالاستقلال والإنصاف لا يتعصب لرأيه ولا فهمه، ولا يجد أدنى غضاضة في قبول ما يظهر له أنه الصواب وكان يسأل عن بعض المشكلات سؤال استفهام لا

يشوبه رأي يحتج له أو يدافع عنه.
جلست بجانبه في مأتم صديق الجميع حسن باشا عاصم رحمه الله تعالى ، وكان القارئ يقرأ سورة النمل ، فسألني عدة مسائل في بعض الآيات ، وقبل مني كل ما أجبته به عنها ، وربما كان يكون الجواب كلمة واحدة.
مثال ذلك أنه سأل عند قوله تعالى حكاية عن بلقيس ملكة سبأ [إِنَّ المُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً](النمل: 34) الآية ، قال: إن الأمر ليس كذلك الآن، وكم يحفظ التاريخ مثل ما تراه الآن من زيارة الملوك لعواصم غير بلادهم ، فما المراد من الآية ؟ قلت: المراد إذا دخلوها فاتحين ، قال: ظاهر.
وسألني مرة عن الإنجيل المنزل على عيسى بن مريم كما ورد في القرآن أين هو ؟ وإنما عند النصارى أربعة أناجيل هي عبارة عن تواريخ وجيزة كالسيرة النبوية عندنا، قلت: إن الإنجيل المفرد المذكور في القرآن مذكور في هذه الأناجيل الأربعة أيضًا ، وفي غيرها من كتب تلاميذ المسيح ورسله المعبر عنها عندهم بالعهد الجديد كقوله للحواريين (التلاميذ): (واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها) كما ترى في أواخر إنجيل لوقا عنه عليه السلام.
وأول كلمة في إنجيل مرقس: (بدء إنجيل يسوع المسيح ابن الله) ، فهذا الإنجيل المفرد في كلامهم هو الذي يعنيه القرآن ، وهو ما كان يعظهم ويبشرهم به ، ولم يوجد كله في كتاب كما يدل عليه قوله تعالى: [وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظاًّ مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ](المائدة: 14) إلخ ما فصلته له ، فأعجبه ، ومن شاء الوقوف عليه فليراجعه في أول تفسير سورة آل عمران وغيره من تفسيرنا.
فمن كان يسمع منه إشكالاً مثل هذا أو ذاك يظن أنه معترض على القرآن وهو لا يبالي ذلك، والأقرب أن يقال: هو مستشكل لا معترض، ولولا أنه كان صريحًا في أمثال هذه الإشكالات إذا عرضت ، ومجاهرًا بما أنكرنا وأنكر غيرنا عليه لما ذكرناه.
وأرجى ما يرجى له عند الله تعالى قوة إيمانه به وتوحيده إياه توحيدًا علميًّا وجدانيًّا لا يشوبه شرك في ألوهيته تعالى ولا في صفاته ولا في أفعاله، حتى كاد يكون منكرًا للأسباب أن يكون لها تأثير في الوجود كما علمت ، وأنه كان إذا ظهر له الحق يذعن له وينقاد ، فهو حسن النية فيما أخطأ فيه.
لهذا أنكرت على الذين كانوا انشقوا عليه من الوفد ، وطفقوا يطعنون عليه بأنه متكبر مستبد، وعلى من قلدهم في ذلك، أنكرت على هؤلاء كلهم قولاً ومناظرة لبعضهم في المجالس وخطابًا على المنابر

وكتابة في المنار، وقد كتبت مقالاً طويلاً في تلك الأثناء نشرته في الجزء 7 من المجلد 22 (سنة 1329 هـ 1921م) بلغت صفحاته 27 صفحة عنوانه (الطور الجديد للمسألة المصرية) ومما ذكرته فيه من خطبة لي في إحدى الاحتفالات بعد عودته من أوربة إثر تولية عدلي باشا للوزارة وظهور الشقاق في أثنائها ردًّا على من اتهم سعدًا بالكبرياء والاستبداد بالرأي (إن الذي نعهده فيه بالاختبار هو الاستقلال في الرأي ، واحترام الحقيقة ، والاعتراف بها إذا ظهرت له، وطالما شهدنا له في داره محاورات في مسائل علمية وشرعية واجتماعية كان ينصف فيها مناظريه ومحاوريه بكل ارتياح، ويعترف بصحة رأيهم إذا ظهر له أنه الصواب، وربما كنا معهم أو منهم في بعض الأحيان) اهـ.

على أنه كان شديد الإعجاب بنفسه، وعدم المبالاة بخصمه؛ بل غلبت عليه في المدة الآخرة المحاباة السياسية، على ما سبق له في الأولى من العدالة القضائية، فصار يؤثر المتملقين له على المتنزهين عن التملق والدهان حتى من محبيه الناصحين ، وكنت ذكرت في مقالي المذكور آنفًا (الطور الجديد للمسألة المصرية) ما ينتقد عليه من ضعف السياسة بغلب ملكة القضاء عليه، ولما قرأ تلك المقالة في المنار قال: هذه مقالة تحفظ للتاريخ، سمع هذا منه محمد بك يوسف المحامي المشهور ، وهو الذي نقله إلي.

وجملة القول أن سعدًا قد ربي تربية إيمان وعقل، واستدلال واستقلال، وحب للحق والعدل، وعزيمة قوية، وشجاعة أدبية، فكانت هذه التربية سبب نجاحه في كل عمل تولى أمره، وكانت أعماله في الكتابة والتحرير ، ثم في المحاماة ، ثم في القضاء في وزارتي المعارف والحقانية ، ثم في الجمعية التشريعية هي المكملة لاستعداده الفطري لزعامة الأمة ، واضطلاعه بما حمل من أعبائها، والاستهانة بأعظم الأخطار في سبيلها، وكان استعداد الشعب مع استعداده هما السبب فيما نال من الفلج والظفر في مكافحة بريطانية العظمى فقد صرحت الجرائد الإنكليزية المشهورة بأن كفاحه كان هو السبب في رفع الحماية الرسمية عن مصر والاعتراف لها بالاستقلال والسيادة القومية، ولما كان هذا الاعتراف مقيدًا بما سموه التحفظات الأربع لم يعتد ولم يزده إلا مضاء في جهاده.

والأمة لم تأل جهدًا في تأييده وتفويض أمر قضيتها له، ولولا ذلك لذهب استعداده كما ذهب استعداد أستاذه الذي كان أكبر من استعداده كما سنفصله في النبذة الثالثة من هذه الترجمة إن شاء الله تعالى.

((يتبع بمقال تالٍ))

كتاب آخر جوابي من سعد زغلول[100]
إلى شيخه ومربيه الأستاذ الإمام
عقب نفيه إلى بيروت في إثر الحوادث العرابية

مولاي الأفضل، ووالدي الأكمل، أحسن الله مآبه.

أكتب إلى السيد الأستاذ بعد تقبيل يده الشريفة عن شكر مزيد لمكارمه التي لم يمنع من تواترها على صنائعه تباعد الديار، ولا تنائي البلدان، معترفًا بالعجز عن وفاء واجب الحمد، مع الاعتقاد بأن هذا لا يثنيه عن المكرمات يوليها، والمبرات يسديها، فما يفعل الخير التماس الثناء، ولا يصدر البر ابتغاء الجزاء، إنما يحسن محبة في الإحسان، ويبر شفقة بالإنسان.

تفضل - أدام الله فضله - على خريج حكمه، الناشيء في نعمه، بكتاب هو المحكم آياته، المعجز دلالته، الشافي لما في الصدور، الكاشف لحقائق الأمور، الهادي إلى سبيل الرشد وإلى صراط مستقيم فسر لمرآه، سرور العليل بالشفاء وافاه، وتلاه متدبرًا دقيق معناه مكررًا رقيق مبناه، فازداد إيمانًا بفضل مولاه، ويقينًا بحكمة من أوحاه، وشكر الله على صحة من أهداه، دامت نامية وارفة الظلال.

وتكرم - أبقى الله كرمه - ببيان بعض أسماء الكملة الكرام الذين دارسوه فصولاً من المروءة وأبوابًا من النجدة، وما لهم من كمال الفضل، وما فيهم من تمام العقل فرسمنا أسماءهم على صفحات القلوب، وحفظنا أمثلة فضائلهم في الصدور، وتشوقنا لأن تتشرف أبصارنا برؤياهم، كما تحلت بصائرنا بمعرفة أعلامهم ومزاياهم، وما يحتاج في إقناع النفوس بضعف تلك الحجة، وإن كانت تمكنت في الأذهان إلى قوة البيان، فمعرفتهم بمقام فضله، ومقدار حكمته ونبله، كافية بذاتها في الدلالة على نزاهة نفوسهم، وطهارة قلوبهم وغزارة فضلهم، وسمو عقولهم، ورجاحة هممهم، وسجاحة شيمهم، وفي توجيه ما ثبت من الفساد في أخلاق غيرهم إلى أسباب أخرى؛ نود أن يبينها

الأستاذ الجليل في كتاب مخصوص إذا وجد من الوقت مساعدًا، إنما نحتاج إلى قوة البيان في هذا الموضع؛ لنتبين كيف يكون تدارس المروءة بين الأفاضل، وتداول النجدة بين الكرام الأماثل، فما رأيتنا[101] من قبل لدينا إلا فاضلاً كريمًا يدرس الفضائل بين من لا يعرفون للفضل مقدارًا، ولا يفقهون للكرامة اعتبارًا.

ولقد زادني ميلاً في السفر، وبغضًا في الحضر، ما جاء في وصف أولئك الأماجد ذوي النفوس الزكية، والمحامد العلية، وما تلاه من بيان حقيقة غوازي الأمم، ساقطي الهمم، سافلي القيم، جاهلي مقادير النعم، غير أني عدلت عن داعية هذا الميل امتثالاً للأمر، وفي النفس حسرات لا يقاومها صبر، وبها إلى السفر أشواق لا يتناولها حصر.

وأحسن ـ خلد الله إحسانه ـ على صنيع آدابه، اليتيم في أترابه، بحكم من مثل التي تعودها غذاء للعقل، ونورًا للفكر، فتلقاها بقلب شاكر، وتقبلها بفؤاد حامد، وحفظها في الوجدان، راجيًا من الله التوفيق إلى الأخذ بمعانيها، والهداية إلى اتباع ما فيها، آملاً من مكارم مواليها، دوام تواليها.

أسفت بل خجلت مما بلغ المقام الشريف عن الشيخ عبد الكريم الفاضل[102]ثابتًا صدقه بشهادة من سئلوا من الصادقين، ولولا التحقق من سعة بال الأستاذ الكريم، ومن وثوقه بي فيما أرويه لكان الأسف مضاعفًا.

إني ـ كما تعلمون ـ كثير الاجتماع بهذا الشيخ، وما سمعت منه ما يقصد به مس مقامكم الكريم، ولم يتكلم أمامي يوم أن بلغه خبر الاعتراف باليمين المعروف، إلا بما معناه الأسف والإشفاق من عاقبة هذا الاعتراف، فلعل ما بلغ المسامع الشريفة من هذا القبيل، والسامعون لشدة حرقتهم وبلوغ الأسف من فؤادهم مبلغه، انصرف خاطرهم عن رعاية مقام القول فتوجه ذهنهم إلى مفهوم الكلام الحقيقي، وطبقوا المقام على ما فهموه، ولهم العذر، فهم لم يتعودوا سماع كلام مثل هذا في جانب حضرتكم ولو مرادًا به غير حقيقة معناه، ولم يألفوا تأويل العبارات وصرفها عن ظواهرها، ولم يعرفوا عادة ذلك الشيخ في كيفية تأدية مراده، والعبارة في حد ذاتها يصعب تأويلها إلى غير المتبادر للأفهام منها كل الصعوبة على من لم يكن أزهريًا متعودًا من الشيخ سماع أفظع منها مفهومًا وأشنع تركيبًا.

وكيف يتأتى له إرادة الظاهر مع علمه بكون ذلك لا يصدر إلا عن لؤم طبيعة وخراب ذمة وسفاهة عقل ؟أنسي ما أوليته من كرائم النعم، وجلائل الأمم ؟ التي لا يزال متمتعًا بها متفيئًا ظلالها، وإنك لمؤرق أسفًا المحترق حزنًا المشفق عليه يوم وجدت اسمه مكتوبًا في تقارير اللئام، حتى شغلك همه عن همك، وسعيت وأنت مسجون في تنجيته من التهمة بواسطة المحامين.

ما نسي كل هذا وما قدم العهد عليه حتى ينقض ولاءك، ويبتكر هجاءك، ويمس مقامك، في بيت أواه، ومنزل طالما رتع في بحبوحة نعماه.

فهذه العبارة - إن صح النقل - لا يمكن أن يكون المراد بها شيئًا وراء إعلان الأسف والإشفاق، أما كونه لم يرسل خطابًا فمولاي يرى أنه من الأدلة الصادقة على كون ذلك الشيخ الفاضل صادقًا في ولائه، حريصًا على دوام تذكر أوليائه، إذ لم يدعه إلى ذلك الإتمام رغبته في المحافظة على النعمة التي غرستم أصولها، وأنميتم فروعها، ليكون على الدوام متذكرًا الحقيقية مبدئها، متصورًا صورة منشئها.

أما كتاب الشيخ محمد خليل فقد علمت ما في إرسال صورته من (حسن التعليل) وكمال التلطف في التأديب، على ما جرى به عادتكم الشريفة، وقد طالعت هذه الصورة، فرأيت أنها من أقوى الأدلة على شدة ميل صاحب الأصل إلى الصدق ورغبته عن التمويه، حيث أوضح حاله صادرًا في الإيضاح عن الحق، برهانًا على شدة إخلاصه بإثبات العبارة التي نفيتها بين يدي حضرتكم في الدائرة.

فإن إثباتها لا يصدر إلا عن تمام إخلاص لا يشوبه تمويه، ومن هنا يتبين لحضرتكم سلامة نيته وحسن طويته.

أما عنوان الجواب، فما أداه إلى نسجه على ذلك الأسلوب إلا اعتماده على معرفتكم بكونه من الصادقين المعظمين لجنابكم الكريم، وعلى كل حال فنحن لا نستغني عن كريم عفوك، وجميل صفحك، فإن لم تعف عنا وتصفح كنا من الخاسرين.

إن ظنكم فيما رأيتموه في جريدة البرهان هو الموافق للصواب، ويحق لحضرتكم السرور بما نال ولدكم[103] فهو المتربي في نعمتكم، المغترف من بحار حكمتكم، المحفوف بعنايتكم، المشمول بعين رعايتكم، البالغ ما بلغ ويبلغ من مراتب الكمال بحسن توجهاتكم، وكريم تعطفاتكم، أدامكم الله لكل خير مبدأ.

رفعت تحيتكم إلى حضرات من ذكرتم أسماءهم، وأشرتم إليهم فتقبلوها بالاحترام، وهم جميعًا يقبلون يديكم، ويسلمون عليكم، وأخص منهم بالذكر منبع الصفا ومصدر الوفاء الذاكر لفضائلكم في كل حين، والدي حسين أفندي.

وحضرة ولدكم الصادق في متابعتكم الشيخ عامر إسماعيل الذي امتن غاية الامتنان بما اختصصتموه به في كتابكم الشريف وحضرة الشيخ سليمان العبد والسيد أمين أفندي.

ونحن جميعًا نرفع أحسن التحيات وأزكاها لحضرات الكرام الذين تشرفنا بمعرفة أسمائهم من الذين دارسوكم فصول الكرامات، ونقدم لهم واجبات الاحترام، أدامهم الله مثالاً للفضل وعنوانًا للكمال، ونسلم على حضرات أخينا الفاضل إبراهيم أفندي اللقاني وإبراهيم أفندي جاد ونجلكم الكريم وجميع من بمعيتكم حفظهم الله.

أحوالنا العمومية أنتم أعلم بها منا فلا حاجة إلى بيانها.

نرجو تفصيل أحوالكم وما تشتغلون به من قراءة وتأليف إذا حسن لديكم ذلك.

كتب سامي لم تشهر إلى الآن في المزاد، ولا زلت مراقبًا لإشهاره.

حضرة البيك صاحب الكتاب، توجه قبل ورود كتابكم إلى البلد، ولم يحضر إلى الآن.

وعند العلم بحضوره أتوجه إليه وأرفع لحضرته مزيد تشكراتكم، دامت معاليكم.

أفندم ، في 8 جا سنة 1300.

صنيعكم ـ سعد زغلول

أرجو عدم انقطاع المراسلات ، وأتمنى أن لا أحرم كل أسبوع من كتاب تطمينا للخاطر وترويحًا للفؤاد، ولمولاي في إجابة هذا الرجاء النظر العالي.

وفاة سيد أمير علي[105]

أحد قادة التفكير الإسلامي وحامل دعوة الإسلام في الغرب

القاضي أمير علي الهندي عالم من أكبر أعلام الإسلام في الشرق والغرب لا يحتاج فيهما إلى تعريف أو وصف، اختاره الله إلى جواره والإسلام في أشد الحاجةإلى أمثاله العظماء في علمهم وأخلاقهم وخدمتهم إليهم، وقد كنا ننتظر أن نرى ترجمة لحياته الحافلة من علماء الهند، ولكنا لم نظفر إلا بهذه الترجمة التي دبجها يراع الأستاذ محمد عبد الله أفندي عنان المصري ونشرت بجريدة السياسة، وهذه هي:

نعت إلينا الأنباء الأخيرة المرحوم (مولانا) سيد أمير علي المشترع والفيلسوف الهندي الأشهر فطويت بوفاته صفحة حافلة من أنفس صفحات التفكير الإسلامي في عصرنا، وفقد الإسلام إمامًا من أحدث أئمته، وأرسخهم قدمًا في دراسته، ومجاهدًا باسلاً قضى زهاء نصف القرن في الذَّوْد عن مبادئه وأحكامه، ولعل مفكرًا مسلمًا لم يعمل في عصرنا لِبَثِّ دعوة الإسلام العلمية والاجتماعية قدر ما عمل أمير علي برائع بيانه وناهض حجته وطريف نقده وتحليله فقد خاطب أمير علي الغرب بلغة غربية وعمد إلى شرح مبادئ الإسلام الروحية والشرعية والاجتماعية بأساليب الغرب العلمية، فكان أول مسلم استطاع أن يخرج للغرب صورة صادقة من هذه المبادئ تضطرم بإيمان مسلم شربت نفسه روح الإسلام الحقة ولا تشوبها مع ذلك ذرة من التشيع أو التحامل، وأن يعرضها في ثوب علمي محدث يتذوقه الذهن الغربي ولا ينكره الذهن الإسلامي، وكان أول مسلم استطاع أن يخرج للغرب أجمل وأدق صورة من المجتمع الإسلامي القديم ومدنيته وتفكيره.

ويرجع ذلك بالأخص إلى نشأة أمير علي وتكوينه الفكري، فهو سليل أسرة عربية تنتمي إلى آل البيت هاجرت في أواسط القرن الثامن عشر من فارس إلى الهند واستقرت في موهان من إقليم أود (أيودهيا) في شمال الهند، وفي موهان ولد سيد أمير علي في 6 إبريل سنة 1849 من أب مسلم (هو

سعادت علي) وأم إنجليزية (هي إيزابيل أدا) ودرس أولا في كلية هوجلي في كلكوتا ونال أعلى درجات في التاريخ والأدب، ونال شهادة العالمية من كلية عليكرة الإسلامية، ثم ذهب إلى لندن ودرس القانون، ونال إجازته سنة 1873 واشتغل بالمحاماة بادئ بدء، ثم عين أستاذًا للشريعة الإسلامية في كلية الرياسة في كلكوتا، فمديرًا لمدرسة الحقوق بها، فكبيرًا لقضاة كلكوتا، وكان قد ظهر بكفايته وبيانه في كل هذه المناصب فعين في سنة 1890 مستشارًا بمحكمة بنغالة العليا، فكان أول هندي جلس في هذا الكرسي، وفي سنة 1904 اعتزل القضاء، وعاد إلى إنجلترا وأقام في لندن وكان اسمه قد ذاع يومئذ ولفت أنظار ولاة الأمر في الهند وفي إنجلترا بخدماته القضائية، وكفايته الفقهية، ومقدرته النادرة في الكتابة بالإنجليزية، فعين في سنة 1909 مستشارا ملكيًّا في المجلس المخصوص، وانتدب للعمل في لجنته القضائية فكان أيضًا أول هندي ظفر بهذا المنصب السامي.

بيد أن التدرج في مناصب الدولة ومراتبها الرفيعة ليس أعظم ما في حياة سيد أمير علي، فإن جانبها الباهر هو الإنتاج الفكري والنشاط السياسي اللذين سلخ أمير علي فيهما زهاء نصف قرن، وقد اختص فتوته وكهولته بالإنتاج الفكري ولم يأخذ قسطه من النفوذ السياسي إلا في شيخوخته بعد أن تبوأ بظفره في عالم التفكير والكتابة مكانًا أسمى، ولم يعن أمير علي بالتفكير والكتابة إلا في ناحية واحدة هي الإسلام مبادئه وأحكامه وتعاليمه وتاريخه: ففي هذا الميدان برز أمير علي وكان الفقيه البارع والفيلسوف المحدث والكاتب المبدع، وكان أول ما أخرج في هذا الباب رسالة نقدية في حياة النبي وتعاليمه[106] كتبها سنة 1872 وهو فتى لا يجاوز الثالثة والعشرين فألفتت إليه الأنظار في الهند، والظاهر أنه آنس منذ البداية في نفسه كفاية خاصة لتحقيق تلك الأمنية التي جاشت بها نفسه، وخصها بتفكيره وبيانه، وهي عرض الإسلام على الغرب في ثوبه الحقيقي والذود عنه مما يُرْمَى به ظلمًا في المجتمعات الغربية، وقد وفق أمير علي في تحقيق هذا الغاية أعظم توفيق وأبدع فيما وفق إليه، فأخرج للغرب بالإنجليزية سلسلة كتبه النفيسة في شرح مبادئ الإسلام وأحكامه ولم يقتصر فضله في ذلك على تدوين الأحكام الشرعية وتنظيمها وشرحها كما فعل في مؤلفه الضخم (الأحوال الشخصية في الأحكام الشرعية)[107] اللذين أَمْلَى وضعهما عليه ما شاهده أثناء حياته القضائية في معاهد بنغالة الفقهية ومحاكمها الشرعية من غموض وتعقد في درس الشرعية الإسلامية وتطبيقها على يد قضاة من الإنجليز قَلَّمَا يدركون روح التشريع الإسلامي.

لم يقتصر فضله على ذلك، ولكنه عمد إلى غاية وَعِرَة شاقة هي شرح مبادئ الإسلام الروحية من الوجهة العلمية وتحليلها من الوجهة الاجتماعية والمقارنة بينها وبين مبادئ الأديان الأخرى وإلى

حياة النبي العربي وتصوير خلاله ومناقبه وشرح تعاليمه السياسية، فأخرج أقوى كتبه وأعظمها (روح الإسلام أو حياة محمد وتعاليمه)[108] وهو مؤلف ضخم يعرض فيه بالنقد والتحليل لترجمة النبي وأصول الإسلام وفرائضه وفكرته في الألوهية وأحكامه في الأحوال الشخصية والاجتماعية وفكرته في البعث وروحه في القومية والسياسة والعلم والأدب والفرق الإسلامية وفلاسفة الإسلام وفيه يبلغ ذروة الافتتان والإجادة في دقة التصوير، وسلامة التدليل والتعليل، وروعة البيان والعرض، ولا سيما في مقدمته التي هي قطعة من أقوى وأبدع فصول التوحيد والكلام، أما ناحية الإسلام الأخلاقية فقد تناولها أمير علي في كتاب آخر هو: (خلال الإسلام)[109] الذي يعتبر تتمة لكتاب (روح الإسلام).

ولم يقف أمير علي عند هذا العرض الباهر لمبادئ الإسلام وتعاليمه، وهذا الوصل الجريء الراجح بين العلم والدين بل شاء أن يقدم إلى الغرب صورة صادقة من المجتمع الإسلامي ذاته خلال العصور المتعاقبة، وأن يقرن الصور المعنوية التي قدمها من الإسلام وروحه وأصوله بصورة مادية من سير الدول الإسلامية فوضع كتابه (مختصر تاريخ المسلمين)[110] وفيه يتناول تاريخ الدول الإسلامية دولة فدولة، وإذا ذكرنا تشعب الموضوع واتساعه كان وصف المؤلف كتابه (بالمختصر) حقًّا من حيث الإيجاز في سرد الحوادث، ولكن كتاب أمير علي يقدم للقارئ صورة من أبدع الصور التي وضعت في تاريخ الإسلام ويَبُذُّ الكتب الموسوعة بالطرافة والحداثة وحسن الترتيب ودقة التحليل، وفيه يبدو أمير علي المؤرخ المستنير والناقد المتمكن، فيسرد تاريخ الإسلام ودوله في ضوء النظريات الحديثة، سواء من حيث الدولة أو السياسة، ويُعْنَى بالناحية الاجتماعية والفكرية فيقدم عنهما في نهاية كل دولة لمحة قوية ممتعة، وتراه فيما يسرد وينقد يضطرم بروح إسلامي حق لا تشوبه شائبة تعصب أو تحامل يحمد في مواضع الحمد، ويحمل في مواضع الذم، وأسلوبه في كل ذلك عذب قوي، وليس من المبالغة أن نقول: إنه كثيرًا ما يسمو إلى منافسة جيبون وماكولي خصوصًا في وصف الحوادث العظمى كالحروب الصليبية، وغزو التتار لبغداد، وسقوط غرناطة، والخلاصة أن مختصر أمير علي في تاريخ الدول الإسلامية من أنفس ما كتب في هذا الموضوع، وفي اعتقادنا أنه وُفِّق أعظم توفيق في إدراك الغاية التي قصدها بوضعه وهي (التعريف بأحدث الشعوب التي تركت في العالم آثارًا لا تُمْحَى والتي ما زالت أوربا الحديثة تتغذى من تراثه).

هذه هي الخدمات الجليلة التي أداها أمير علي في سبيل نشر الدعوة الإسلامية والذَّوْد عنها بسلاح الحقائق والأدلة والمنطق السليم، وقد سبق أمير علي وعاصره مستشرقون تجردوا لبحث الإسلام

وتاريخه وبذلوا في هذا السبيل جهودًا نبيلة مثمرة بلا ريب، ولكن أمير علي يفوقهم جميعًا بكونه قد تحرَّر من أسباب التحامل التي تُرَى ماثلة في كثير من مباحثهم وأدرك روح الإسلام ونفذ إلى أعماق العواطف والخلال الإسلامية فكان بذلك خير أهل للمهمة التي كرس لها تفكيره وبيانه.

وكان للسيد أمير علي مقامه في الزعامة السياسية في الهند، وكان يعمل أثناء الأعوام الطويلة التي سلخها في قضاء الهند وإدارتها على تحقيق أمنية عزيزة له هي تقدم مواطنيه مسلمي الهند، سواء من الوجهة المادية أو المعنوية، وقد بذل في ذلك السبيل جهودًا شتى، وكان لهذه الجهود نصيب كبير من الفوز أثناء أن كان عضوًا بمجلس التشريع الإمبراطوري ما بين سنتي 83 و 85 على أنها لم تحمل ثمرتها العامة إلا في عهد اللورد مورلي في سنة 1906 حيث رأت الحكومة البريطانية أن تُدْخِل طائفة كبيرة من الإصلاحات الدستورية والتشريعية في حكومة الهند تحقيقًا لأماني المعتدلين وتهدئة للاضطرابات الوطنية التي وقعت يومئذ.

على أن أمير علي كان في جهوده السياسية بالنسبة للإسلام دوليًّا أيضًا، ففي جميع الخطوب التي كانت تدهم الإسلام أو الأمم الإسلامية كان صوت أمير علي يرتفع في بريطانيا وفي أوربا، وكان آخر صيحة أرسلها في هذا السبيل نداءه المشهور الذي وجهه أيام الحرب الريفية إلى فرنسا، وناشدها فيه أن تسالم شعبًا صغيرًا مجاهدًا، فالعالم كله يعرف أنها تستطيع سحقه بأيسر أمر، ولكن التسامح في احترام الأماني القومية لهذا الشعب الصغير الباسل، يسجل لفرنسا في صحف الفروسية والشهامة، فكان هذا النداء قطعة مؤثرة من البيان والحكمة التي عرف بهما أمير علي كل حياته.

هذه هي صفحة وجزء من حياة هذا المفكر المسلم الكبير وآثاره الجليلة، ففقده رُزْء للعالم الإسلامي كله، ولكن للعالم الإسلامي أن يتعزى عن خطبه الفادح بما أودعه أمير عَلِيّ صفحات آثاره الخالدة من عميق حكمته وصائب منطقه وسحر بيانه تغمده الله برحمته وأفسح له رحب جنانه.

وفاة العلامة الجليل الشيخ سليم البخاري[111]

جاء في جريدة (العهد الجديد) البيروتية الغرَّاء لمراسلها في دمشق بتاريخ 25 تشرين أول سنة 1928 ما نصه:

طويت صباح أمس صفحة ماجدة وضَّاءة من صفحات العلم والوطنية والإخلاص بوفاة سماحة العلامة الجليل الشيخ سليم أفندي البخاري والد الشهيد البطل المرحوم جلال الدين البخاري وصاحب المعالي الوطني الكريم نصوحي بك البخاري وزير الزراعة والتجارة ووزير المعارف سابقًا، فكان لِمَنْعَاهُ رنَّةُ حزنٍ أليمةٍ في البلاد السورية جمعاء التي بادرت للصلاة على روحه الطاهرة الكريمة صلاة الغائب.

والشيخ سليم أفندي البخاري علامة جليل من كبار علماء المسلمين، له ولعه الشديد بجمع آثار السلف الصالح واقتفاء أثر المخطوطات النادرة، والحرص عليها حرص البخيل على درهمه، كما أنه كان مثال النزاهة والعفة وطهارة اليد والذيل وصورة الأخلاق الفاضلة الكريمة، وهو أحد أركان النهضتين الوطنية والعلمية والنافخ في بوق التجديد، والعالم الفذ على استئصال شأفة البدع والخرافات، وقطع السبيل على المرتزقة من رجال المشيخة الأغرار، حتى إنه رحمه الله سن قانونًا خاصًّا للتدريس في المساجد إبَّان وجوده في رئاسة العلماء حظر فيه القيام بالنصح والإرشاد وإلقاء الدروس الدينية في المساجد على غير العلماء المعروفين المشهود لهم برسوخ قدمهم في علوم الدين، ولكن هذا القانون قد درست معالمه وألقي في سلة المهملات بعد أن غادر سماحته منصب رئاسة العلماء مستقيلاً إثر ما جرى من تدخل في شئون الدين يوم أعلنت خلافة جلالة الحسين بن علي ملك الحجاز السابق فآثر رحمه الله اعتزال المنصب على أن يُقِرَّ هذا التدخل ويحول بين المسلمين وبين المبايعة كما أنه رحمه الله بايع وأمضى صك البيعة، وهذا دليل ناهض وحجة دامغة على مقدار صلابة سماحته في مبدئه.

وفوق هذا كله فلقد كان رحمه الله لغويًّا كبيرًا وعالمًا جليلاً في الأدب والمنطق والفلسفة الإسلامية، ومن أشد الناقمين على البدع والخرافات والداعي إلى اجتثاثها من أصولها؛ لتتنزه تعاليم الإسلام عما يحسبه الأغرار من الدين وما هو منه في شيء.

وكان مجلسه رحمه الله مجلس علم وأدب ويأبى أن يذكر في حضرته اللسان بسوء، وهو من أصحاب المغفور له العلامة الكبير الشيخ طاهر الجزائري.

وما ذاع النبأ في المدينة حتى تهافت الكبراء والوجهاء والعلماء والشباب والأساتذة إلى المنزل يواسون معالي نجله الكريم الأستاذ نصوحي بك البخاري وأخوانه، وعندما عرض جثمان الكريم على المغتسل دخل إلى الغرفة التي تجري فيها مراسم الاغتسال سماحة العلامة الجليل المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين أفندي الحسني فودَّعه وداعًا حارًّا استهل الدموع المدرارة وأثار العبرات الحارة.

وبعد أن تمت مراسم الاغتسال سارت الجنازة تتقدمها جنود الدرك ورجال الشرطة وجلاوزة البلدية فالعلماء يتقدمهم سماحة المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني فجثمان الراحل الكريم فمعالي نجله نصوحي بك وإخوانه فالكبراء والعظماء من رجال الوطنية والوجاهة والعلم ورئيس الوزراء الشيخ تاج الدين أفندي الحسني ووزير المعارف الأستاذ محمد بك كرد علي ومعتمد الدولة العربية ورجال الصحافة والمحاماة والأطباء والموظفون وطلاب الجامعة السورية والمعاهد العلمية الكبرى وتلاميذ المدارس الأميرية والرسمية حتى بلغوا الجامع الأموي الكبير حيث صلى على الجثمان الكريم سماحة الأستاذ الشيخ بدر الدين وقبل الصلاة عاد رئيس الوزراء ووزير المعارف، ومن ثم سار موكب الجنازة بنظامه إلى مقبرة الدحداح حيث ووري الجثمان الكريم، وقد كانت الجنازة منقطعة النظير تدل على ما للأستاذ الفقيد من منزلة سامية في النفوس، وقد رافق الجنازة على عجزه وكبر سنه سماحة المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين أفندي الحسني حتى المقبرة، رحمه الله رحمة واسعة وألهم الأمة المفجوعة بفقده وذويه الصبر وجزاهم الأجر، وإننا نتقدم لمعالي نجله الأستاذ نصوحي بك ولإخوانه الأكارم وذويه الأفاضل بواجبات التعزية، سقى الله جسده الطاهر وثراه الطيب صيب الرضوان ا هـ.

(المنار)

كان الأستاذ الكبير الشيخ سليم البخاري رحمه الله تعالى من أفراد علماء سورية العاملين المستقلين، وعلمًا من أعلام رجالها المصلحين، الجامعين بين علوم الدين النقية من البدع والخرافات وبين الإلمام بعلوم العصر الكونية والعقلية، وحاجات المسلمين فيه من مدنية وسياسية، سلفي العقيدة مهذب الأخلاق غيورًا على الدين، نصوحًا للمسلمين، واسطة العقد بين المدنيين والدينيين، عرفته في دمشق عند زيارتي لها عقب إعلان الدستور العثماني سنة 1326 (1908) ثم تلاقينا في الآستانة في السنة التالية ثم في دمشق سنة 1338 وكنا متفقين في الرأي في كل ما بحثنا فيه، ومن أهمه موافقة الأستاذ الإمام رحمه الله في آرائه الإصلاحية، والإعجاب بمواهبه العلمية، ولكن بلغنا عنه في العهد الأخير رأي شاذ وافق فيه بعض خصوم الشريعة الغراء والسلطان الإسلامي، ولا ندري سبب ذلك ومنزلته من الصحة، وإننا نقترح على المجمع العلمي بدمشق أن يترجمه في مجلته ترجمة حافلة تليق به.

الشيخ عبد العزيز شاويش بك[112]
وفاته وشيء من ترجمته

إن العالم الإسلامي قد خسر اليوم بفقد الشيخ عبد العزيز شاويش رجلاً من أركان حزب الإصلاح المعتدل الذي هو وسط بين المسلمين الجامدين الخرافيين والمسلمين الجغرافيين الملحدين، لا عزاء عن فقده إلا بما رأينا من إكبار الأمة لفقده.

يموت في كل يوم كثير من الأغنياء والوجهاء والحكام وأصحاب الألقاب الرسمية فلا ينشر في الصحف شيء من خبر موتهم وتشييع جنائزهم إلا ما يرسل إليها من أوليائهم وأقاربهم، ومنها من تذكر له عملاً نافعًا، وتعد فقده خسارًا بَيِّنًا، ومنها من تصف الاحتفال بجنازته وكثرة من عز من أقاربه، تزلفًا إليهم، أو لمكانة له أو لهم عند من يكتب ذلك، وقد توفي الشيخ عبد العزيز شاويش في منتصف هذا الشهر فكان لخطبه من الهزة والاضطراب في البلاد، ما لم يعهد له نظير إلا في بعض الأفراد، أبَّنَتْه الجرائد على اختلاف سياستها ومشاربها، وأطراه كثير من الكتاب والأدباء، ورثاه كثير من الشعراء، وبكاه كثير من الأفراد والجماعات، وعطف جلالة الملك على أولاده فتبرع لهم بألف جنيه وراتب شهري، وقررت حكومته التبرع لهم بخمسة آلاف جنيه وتعليمهم في المدارس مجانًا؛ لأنهم لا يستحقون عليها شيئًا من راتب والدهم باسم المعاش ولا غيره لحداثة عهده في خدمتها وقصر مدتها، وقلما رأينا مثل هذه العناية بأولاد أحد من مستخدميها حتى من كانوا من أحزاب وزارتها على ما عهد من أكثر وزرائها من محاباة أنصارهم ورجال أحزابهم، وإنما كان رحمه الله من رجال الحزب الوطني المعارض لكل وزارة والمقرَّر لديه عدم التصدي لخدمة حكومة بلاده ما دام للاحتلال الأجنبي نفوذ فيها.

لماذا كان لموت هذا الرجل هذا الإكبار الذي حزن قلوب الشعب، وأطلق ألسنته بالرثاء، وبسط يد حكومته بالعطاء ؟ إنما كان كذلك؛ لأن من فقدوه كان كبيرًا في نفسه، وإن لم يكن كبيرًا في وظيفته، عاليًا في همته، وإن لم يكن عاليًا في ثروته، وكان يوجه كل ما أوتي من كبر نفس وعلو همة إلى

خدمة الأمة والملة بجرأة جنان، وذلاقة لسان، وقوة إيمان، وقلم سيال، وهمة لا تعرف الكلال، وقد أوتي جميع المواهب التي يكبر بهما التأثير في أنفس الأفراد والجماعات من حسن صورة وطلاقة وجه، وفصاحة نطق، وجرس صوت، وحسن أداء، وغزارة مادة، وكان خطيبًا مفوَّهًا، وكاتبًا مدرها، وداعية مؤثرًا.

جاور في الأزهر وانتقل منه إلى دار العلوم، ومنها إلى كلية أكسفورد في إنكلترة، ولما عاد منها اتصل بشيخنا الأستاذ الإمام، فتلقح ذهنه بأفكاره، واقتبست بصيرته من أنواره، وكنت أنا الذي قدمته إليه وذكرت له ذكاءه وغيرته وطموحه وهمته، وجمعه بين التعليمين الإسلامي والأوربي...

قال: وماذا حذق من العلم في إنكلترا وبأي شُعَبِهِ كان يُعْنَى ؟ قلت: إنه عاد حديثًا، ولما نرو في ذلك عنه حديثًا، قال: سله كم سنة مكث في الأزهر، فإن كان أطال فيه المكث، فقد فَقَدَ الاستعداد للعلم، وما أراه حصَّل شيئًا ذا قيمة، فذكرت هذا للشيخ عبد العزيز (رحمهما الله تعالى) فأغرب واستغرب، وذكر أنه لم يمكث في الأزهر طويلاً.

عينته الحكومة مساعدًا للتفتيش في نظارة المعارف، ورقاه سعد زغلول باشا في عهد وزارته للمعارف مرة بعد مرة بما يزيد على ما يبيحه له القانون إلا بقرار من مجلس النظار فاستصدر القرار بعد القرار بذلك، ولكن تلك النفس الطموح الجموح أو الوثابة الثائرة كما يقول كتاب العصر قد استصغرت الترقي الاستثنائي واحتقرت كل ما يُرْجَى من ورائه، وكان مَيَّالاً إلى السياسة فاتفق له أن زار مع زميله وصديقه الشيخ محمد مهدي المشهور مصطفى كامل باشا (رحمهم الله تعالى) في إدارة جريدة اللواء، وشاهد ما كان ثَمَّ من إقبال الوجهاء والكبراء، فلما خرجا قال للشيخ مهدي إننا كالموتى مدفونون في نظارة المعارف، ونحن أقدر على خدمة البلاد بالصحف وغيرها، وكان من تأثير تلك الزيارة في نفسه أن أَعْقَبَهَا زيارات انجلت عن استقالة الشيخ شاويش من وزارة المعارف وانتظامه في سلك محرري جريدة اللواء، وكان فيها أشد حماسة في نقد الحكومة المصرية والاحتلال من سائر المحررين، ومن أشهر ما كتبه فيها مقالات في وزارة المعارف ووزيرها سعد باشا زغلول عنوانها: (ما هكذا يا سعد تُورَدُ الإبل) وهو مثل قبله (أوردها سعد وسعد مشتمل).

ههنا أذكر أنني كنت أمدح الشيخ عبد العزيز لسعد باشا بالغيرة الوطنية والإخلاص ليعنى بجعله من رجاله وأنصاره فقال لي مرة: أين ما كنت تصف وتقول في هذا الرجل ؟ قلت: إنني أعتقد مع هذا كله أنه مخلص فيه، وأن الإخلاص اضطره إلى ما يسوءك على إحسانك إليه أو ما هذا معناه ـ فقال ما خلاصته:أنا لا أنكر أن في وزارتي ما ينتقد حتى عندي، وإنما أبذل جهدي، وليس الأمر كله

بيدي، ولو لم يقل في الشيخ شاويش إلا ما يعتقده لما كان لي أن أطعن فيما تصف من إخلاصه (ولكنه كذب عليَّ، والكذب والإخلاص ضدان لا يجتمعان) هذا إجمال ما دفع به وزير المعارف عن نفسه يومئذ.

إنني لم أذكر هذه الكلمة لسعد كتلك الكلمة التي نقلتها عن الأستاذ الإمام؛ لأنهما مما يؤثر عن أمثال هذين الرجلين العظيمين فقط؛ بل لأستدل به على أن سعد باشا كان يقدر الرجل قدره بعد ما كان من إساءته إليه ولو حقد عليه لما رضي في العهد الأخير بتوظيفه في وزارة المعارف وأمر الحكومة كلها بيده.

صار الشيخ شاويش ركنًا من أركان الحزب الوطني وأشد محرر جرائده اللواء فالمعلم فالشعب حماسة في مشربه، ولكنه لم يقف قلمه على السياسة وحدها فيها، بل أنشأ مجلة باسم (الهداية) غرضها الإصلاح الديني كالمنار، وكان ينشر تفسيرًا عصريًّا للقرآن المجيد، ويطرق سائر أبواب الإصلاح الإسلامي المدني، وكان الفرق بين خطتي المجلتين أن إحداهما كانت أشد التزامًا للنصوص والأخرى أشد عناية بالمصلحة.

ثم إنه اتصل من طريق الحزب الوطني بجمعية الاتحاد والترقي التركية وتطوع لخدمة الدولة العثمانية تحت لوائها، وقاوم مشروع الدعوة والإرشاد بإغرائها، كما جاهد في مقاومة الحركة العربية التي حدثت تجاه العصبية الطورانية التركية، وبها صرنا على طرفي نقيض، وشرح هذا لا يليق هنا، ثم التقينا في برلين وتصالحنا بسعي صديق الجميع الأمير شكيب أرسلان، وبعد أن عاد إلى مصر نشرت له في المنار تلك المقالة التي كتبها في مفاسد مقاومة الترك الكماليين للدين؛ لأنه رجع فيها إلى رأينا في ملاحدة الترك وعداوتهم للإسلام، وللعرب وقوم خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام.

عاد الأستاذ رحمه الله تعالى إلى مصر بعد غربة طويلة قاسى فيها شدائد عظيمة في أثناء الحرب وبعدها متنقلا بين الآستانة و سورية و المدينة المنورة، واشتغل بالتدريس في المدرسة الإصلاحية التي أسسها الاتحاديون في القدس الشريف وهي مدرسة دينية مدنية، كان لهم فيها أغراض سياسية، ثم عاد إلى الآستانة، وتنقل بعد انكسار الدولة في أوربة إلى أن ألقى عصا التسيار في ألمانية فكان يشتغل فيها بإرشاد المصريين من طلاب المدارس ولا سيما المنتمين إلى الحزب الوطني، ولما ظهر سعد باشا بحركته الجديدة في الوفد المصري كان السواد الأعظم من أولئك الطلبة في ألمانية، وكذا في سائر أوربة مشايعين له وضعف نفوذ الفقيد فيهم وقد كان هذا نافعًا له؛ لأنه صرف كل

همته إلى المطالعة والاستزادة من العلم فاستفاد كثيرًا؛ ولما عاد إلى مصر بعد ذلك كله عاد باستعداد عظيم لخدمة الأمة بعلمه الواسع واختياره الدقيق، فتصدى للدخول في مجلس النواب المصري بأن رشَّح نفسه للانتخاب في الإسكندرية بمساعدة الحزب الوطني فلم ينجح لمعارضة مرشح الوفد السعدي له، ثم إن الحكومة عينته بعد ذلك رئيسًا لإدارة التعليم الأوليّ في وزارة المعارف فنهض بها نهضة عظيمة، وكان هو المدير الوحيد الضليع بالجمع بين أحدث خطط التعليم النظامي الأوربي مع مراعاة التربية الدينية والعقائد الإسلامية.

ولكن طموحه وعلو همته أبى عليه الاكتفاء بهذه الخدمة الجليلة فكنت تراه يساعد الجمعيات الإسلامية المتعددة كجمعيات المواساة الإسلامية ومكارم الأخلاق والشبان المسلمين وكان قد أصيب منذ سنين بضعف في القلب أقعده عن الوصول إلى كل ما يطمح له ويرمي إليه، ويقال: إنه كان مع هذا كله ينوي إعادة إصدار مجلته غير مُبَال بنصح الأطباء له، فانتهى ذلك بقضاء القلب الروحي على القلب الجسدي، وتوفي في وقت اشتدت حاجة أمته فيه إلى خدمته لها في دينها ودنياها فرحمه الله تعالى وأحسن عزاءها فيه وعزاء أهله وولده وحزبه.

السيد عبد الباسط فتح الله[113]

وفاته وملخص ترجمته

في غرة جمادى الأولى من هذا العام رزئت مدينة بيروت، بل القطر السوري، بل الأمة العربية والملة الإسلامية بوفاة فرد من أفرادها، وبدل من أبدالها، وشهيد من شهداء الحق، وحجج الله تعالى على الخلق، صديقنا الوفي وأخونا في الله عز وجل، وأحد تلاميذ شيخنا الأستاذ الإمام ومريديه في ديار الشام، وبتربيته وإرشاده كان من أركان الإصلاح في العلم والعمل، والأخلاق والأدب، ومن الكُتاب المجيدين، والخطباء المؤثرين - الأستاذ السيد عبد الباسط فتح الله رحمه الله تعالى وأثابه، وأحسن مرجعه إليه ومآبه، ثم أحسن عزاءنا وعزاء أهله ووطنه عنه، وعظَّم أجرنا جميعًا بمصابنا فيه، توفاه الله تعالى عن ستين سنة هجرية كاملة، إثر مرض طويل أعيا الأطباء، وتعذر الشفاء.

وقد كبر مصابه على عارفي فضله، فأبَّنوه عند دفنه، ثم أقاموا له حفلة تأبين في اليوم الأربعين من تاريخ فقده، تبارى فيه خطباء بيروت وشعراؤها في رثائه، وذكر مناقبه نظمًا ونثرًا.

وإننا نقتبس ترجمته التاريخية مما ألقاه في تلك الحفلة صديقنا وصديقه الأستاذ الشيخ أحمد عمر المحمصاني الشهير، وهو مأخوذ من ترجمته لنفسه التي نشرتها مجلة المجمع العربي في دمشق ومما عرفه المترجم بنفسه منه وعنه بطول المعاشرة في القرب، وكثرة المكاتبة في البعد، كُنا قد كلفناه كتابة ذلك لأجل نشره في المنار، فكتبه وألقاه في حفلة التأبين ثم أرسله إلينا فلخَّصنا بعضه وتركنا أقله وأثبتنا أكثره بحروفهفمما ذكره المترجم أن كلاً من والديه رحمهما الله تعالى (من أسر بيروت القديمة ولنسبهما صلة بأهل البيت النبوي الكريم) ومما بلغنا من صفة والده أنه كان رجلاً صالحًا تقيًّا، وحدَّثنا الفقيد عنه أن الشيخ يوسف النبهاني (الخُرافي الحشوي المعروف) حمله عند سفره إلى الحج بعض كتبه لأجل توزيعها في المدينة المنورة فكان من أمره أنه قبل وصوله إلى المدينة بليلة واحدة - على ما أذكر - رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه فأمره ألا يدخل مدينته بتلك الكتب، وفهم منه أنه صلى الله عليه وسلم غير راضٍ عنها، فألقاها أو دفنها في مكان قبل

دخولها، ولما عاد من الحج جاء الشيخ النبهاني للسلام عليه في داره وكان عنده كثير من الزائرين، فلما دخل عليه ودنا منه ليعانقه لم يملك لسانه أن قال له: يا شيخ يوسف إن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير راض عنك، فبُهت النبهاني وأحجم لقوله، واستغرب الحاضرون ذلك ووجموا لسماعه، فذكر لهم رؤياه المذكورة، ثم قال المترجِم:

نشأته :

ولد عام 1288 هجرية، وتعلم القراءة والخط وأوليات الحساب في مدرسة المرحوم الشيخ حسن البنا، ثم في سنة 1300 دخل المدرسة السلطانية التي فتحت في بيروت، فتعلم فيها العربية والتركية والإفرنسية وما إليها من الفنون، وكان من أساتذته فيها أستاذنا الإمام المرحوم الشيخ محمد عبده، وعنه أخذ علوم البيان والمنطق والتوحيد والأحكام العدلية (مجلة الأحكام الشرعية) وكانت له به عناية خاصة، فقرأ له في بيته أثناء العطلة المدرسية وليالي رمضان فصولاً من متن التهذيب في علم الكلام والسيرة النبوية.

(ولما اضطرب نظام المدرسة بتدخل السلطة العسكرية في إدارتها برحها الأستاذ الإمام، فتبعه المترجَم ولزم مجلسه حتى أشار عليه بدخول الكلية البطركية لإتمام ما كان حصَّله في المدرسة السلطانية من اللغة الإفرنسية والفنون، فدخلها عام 1888 وحضر فيها دروس أستاذ اللغة العربية الشيخ إبراهيم اليازجي، ودروس غبطة الحبر العلامة البطريرك ديمتريوس القاضي في الآداب الإفرنسية والتاريخ القديم والحكمة الطبيعية، واكتسب من ميل هذا الحبر ورعايته، ما لا يقل عن اهتمام الأستاذ وعنايته، ثم خرج من هذه الكلية وقد نال شهادتها العلمية، مع جائزة الشرف في العلوم العربية).

(وكان يختلف أثناء العطلات المدرسية، وفي أوقات الفراغ بعدها إلى مجالس الأستاذ المحدث الشهير الشيخ عبد الباسط الفاخوري مفتي بيروت السابق رحمه الله، فسمع منه مع فريق من طلبة العلم جملة صالحة من صحيح البخاري).

وهنا ذكر المترجِم شيئًا من سيرته في حياته العلمية ثم قال:

خدمته للعلم :

بيد أن مشاغله الإدارية والتجارية لم تكن تمنعه مما يهوي إليه فؤاده من خدمة العلم ونشره، فقد دعاه الأستاذ الناهض المقدام الشيخ أحمد عباس إلى معاونته على تأسيس مدرسته الشهيرة

(بالمدرسة العثمانية) فلبَّى الدعوة، ونشط للخدمة، إذ وجد فيها متسعًا لتحقيق أمانية في الإصلاح، وظل يتبرع بمشاطرة الأستاذ - المشار إليه - تدبير مدرسته وتنظيمها، ويلقي فيها المحاضرات الأدبية، ويعطي الدروس في الجغرافية والطبيعيات والتعريب، إلى أن قضت السياسة التورانية بإقفالها أوائل أيام الحرب.

(على أن سعيه نحو غايته من بث العلم لم يكن لينحصر في سبيل تعليم البنين وتربيتهم، بل كان تثقيف البنات والوفاء لهن بحقهن من العلم والتهذيب مناط همه الأكبر، فبالرغم من المصاعب الجمة التي كانت تعترض الساعين في تنوير الأمة (خصوصًا العربية) أيام عبد الحميد قد وُفِّق مع طائفة من المفكرين الناهضين لتأسيس (جمعية ثمرة الإحسان) بُغية تحسين حالة الأنثى المسلمة، وأنشأوا لها مدرسة حَوَت العدد الجم من البنات، ومن تلميذاتها اليوم من تدير إحدى مدارس الحكومة، واشترك كذلك مع فريق من أصحاب الشأن في تأسيس (جمعية مآثر التربية) التي غايتها معاونة الطلبة المعوزين على تحصيل العلم العالي أو الإخصاء في أحد فروعه في كليات بيروت أو جامعات أوربا، ومن أبنائها من هم اليوم في عداد الأطباء، والمحامين وأهل القضاء.

وانتُخب لعضوية (جمعية المقاصد الخيرية) وما زال يدأب في خدمة مدارسها وأنظمتها على نحو خدمته للمدرسة العثمانية، ومدرسة ثمرة الإحسان من قبل، كما أنه قام بتدريس الديانة والتهذيب للصفوف المؤلفة من البنات المسلمات في المدرسة السورية الأهلية).

أثر قلمه :

تراه وهو في غضون تلك الأعمال السابقة يغتنم الفرصة، ويفترص المناسبة لبث الأفكار الصحيحة والمبادئ السليمة، ويلفت الأنظار إلى حقائق الأمور وتعرُّف المصلحة العامة والاعتدال في الأخذ بالجديد والمحافظة على القديم، عاملاً بسنة أستاذه الإمام في الدعوة إلى ترك الجمود على التقليد الضار، وخلط الدين في كل شأن من شؤون الدنيا.

(تلك المقاصد والموضوعات تراها منبثة في مقالاته وخطبه جارية من بيانه مجرى الدم من جثمانه، فمن غرر مقالاته المشهورة: النهضة الاقتصادية، الألفة، التمدن، الصدق، التعصب، العلم روح المدنية، والمدنية معنى الإنسانية، الميسر وأضراره، ذكرى من سفر في وصف قلعة بعلبك، المداواة الحديثة، تأثير السجايا في الأعمال، لبوس الصيف والنسيج الوطني، الرقيقة إمبراطورة (كتبها عن هنري إمبراطورة الصين) العافية نور على هام الأصحاء لا يدركه إلا الضعفاء، غريبة في عالم الصناعات، العبادة عادة والدين المعاملة، بحث في الصحافة، اللجان الخيرية، في الكستنا أو الشاه

بلوط، الإسلام (مقالة رد فيها على مقال للمسيو كولرات نُشرت في جريدة الدبيش كولونيال بعنوان ضد الإسلام) تصويت النساء، في شأن المرأة، في المدافعة الملية، الهرم، وصية منتحر، احتفال الجمعية الكيماوية، الحكم على الكلاب بالإعدام (يداعب فيها البلدية) المحاميات، عبد الله باشا فكري والهيئة الجديدة (قرَّظ بها رسالة عبد الله باشا فكري وزير معارف مصر في المقارنة بين الهيئة الجديدة وتطبيقها على النصوص القرآنية) ذكرى العاقل وتنبيه الغافل (قرَّظ بها رسالة بهذا العنوان للأمير الكبير السيد عبد القادر الجزائري) مجالس الوعظ في رمضان، الظاهر المألوف من المفروش والملبوس، كلمة في بلدية بيروت، وهذه نشرت في جريدة ثمرات الفنون مع كثير من المقالات.

وله مقالة عنوانها (التجارة محور السياسة) نُشرت في الثمرات عدد 1284 أتى فيها بالعجب العُجاب في بيان سر الاقتصاد عند الأمم الراقية، وأن التجارة هي حفظ السعادة وقوام العمارة، إلى أن ختمها بقوله: ولو بحثت من الأمور السياسية في أدقها وما قد لا يُشتم منه ريح التجارة لتحققت أن التجارة سره ولبابه، مهما اختلفت مظاهره وتلونت أثوابه، ولأدركت أن التجارة هي غاية السلم، غاية الحرب، محور السياسة، فضلاً عن أنها قطب رحى الحياة المدنية.

وله مقالة عنوانها (الإصلاح من طريق العلم والتهذيب) نشرت في العدد الأول من مجلة الكشَّاف، ومما يناسب أن يخص بالذكر في هذا المقام دلالة على شعوره الأدبي ما كتبه بُعيد خروجه من المدرسة في بيان حاجة العربية إلى تأسيس مجمع علمي ينقسم إلى شعب تتفرغ كل منها للعمل في سد جانب من عوز اللغة (الأمر الذي لم يتم لنا إلا بعد ثلاثين سنة).

وإذا تأملت في مقالاته فإنك تجد رجلاً اجتماعيًّا يخوض في مواضيع شتى، وهو هو بقلمه المتين، وعبارته الجيدة، وحجته الناصعة، فبينا تراه يكتب في موضوع أخلاقي يشبعه درسًا، فإذا به في مقال آخر يصف شيئًا فيقربه إليك كأنك تراه ماثلاً أمامك، وتارة تجده في موضوع أدبي أو علمي أو اجتماعي أو زراعي أو تاريخي يوضح لك المحجة، ويقرع الحجة بالحجة.

وأما خطبه الممتعة فحدِّث عن البحر ولا حرج، ومن الذي لا يذكر مواقفه في المدرسة العثمانية (الكلية الإسلامية الآن) وأقواله التي تملك الآذان بلا استئذان، مع ثبات جأش، وقوة عارضة، ومتانة في الجمل والكلمات، ورقة في الأسلوب والعبارات، والذين شهدوا خطبه في معنى المسلم وفي الأخوة الدينية، وعن المدرسة الإسلامية في أول نشأتها، وفي الروايات الأدبية وتأثيرها، ومحاضرته عن أبي العلاء المعري وعن التمثيل وفوائده يعرفون المواهب التي وهبه الله إياها،

ويدركون عظيم الخطب بفقد الأمة له، وهي في أشد الحاجة إلى العاملين المخلصين المصلحين).

رحم الله منك نفس كريم *** وقليل من النفوس الكرام

ثم ذكر مما ترجمه بالعربية عن الفرنسية (كتاب التدريس العلمي ليولبرت أحد نظار المعارف الإفرنسية، وكتاب فلسفة السياسة لغوستاف لوبون، وكتاب الرين ووستفاليا لجول هوره، وترجمة فصل من كتاب سر تقدم الألمان، وهذه الأربعة لم يتمكن من إتمامها، وقد أتم تعريب رسالة (مسألة النساء) لأرنست لوكوفي وجعل لها مقدمة جليلة جدًّا.

ومن أهم مميزات الفقيد: الإنصاف في المناظرة والمحاورة، وهذا مما امتاز به وعرفه له مخالطوه ومعاشروه، كما أنه من أكبر الأدلة على المتانة والرسوخ في العلم، ومن أجل المواهب التي يؤتاها النابغون، ولا يوجد بعد العلم حلية لأهل العلم مثل الإنصاف فيه [وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ](فصلت: 35).

ومن أعظم مميزاته اعتناؤه الكلي بالتنظيم في الأعمال التي أدارها وبالأخص فيما يتعلق بالعلم والتعليم، وما دخل في مصلحة إلا وكان له فيها الأثر الخالد.

وقد ظهرت هذه الميزة في رئاسته لنادي رأس بيروت فقد وضع نظامه وأحكم أساسه، وتولى بنفسه إلقاء المحاضرات الممتعة والمواضيع النافعة مع بعض إخوانه، ولو قُدِّر لهذا النادي البقاء لكان من مفاخر بيروت الجميلة، ومن أهم الأندية في البلاد؛ ولكن مداهمة الحرب العامة ذهبت بكل ما كان يُنتظر من هذا النادي الجليل في الإصلاح المطلوب.

إن الفقيد بسيرته هذه وعلمه الجم، وعلمه الخالص الأتم، كان حجة الله على كثير ممن عرف العلوم العصرية واللغات الأجنبية، ولم تكسب أمته من علمه ومعرفته شيئًا يرقيها ويفيدها بنقل أو تعريب، أو دفاع عن حوزتها وكيانها وعمّا يتهمها به الأعداء من الطعن في معتقداتها أو الحط من مفاخر أسلافها.

وحجة الله أيضًا على كثير ممن تذوقوا العلم فوقفوا عند القشور، واشتغلوا بسفاسف الأمور، ولم ينفذوا إلى اللباب، فأضاعوا أنفسهم وأمتهم وضاعوا عن الصواب.

حياة كلها علم وعمل، وجهاد وأمل، ودعوة إلى الحق، وثبات وصدق، وصبر واحتمال، وسير حثيث إلى الكمال، مع إنصاف في المناظرة، وأنس في المحاورة، ووقوف عند الحدود الشرعية،

ودعاء إلى السنة السنية، ونفور من البدع، لا تأخذه في الحق لومة لائم.

فهذه آثار ناطقة بسمو مداركه وعلو مكانته، في أي بحث طرقه، أو أي موضع تناوله، كان ابن بجدته، فقد جمع ما تفرق في غيره اهـ.

هذا وإنني أختم هذه الترجمة بالتنويه بمقال كتبه لنا باقتراحنا عن سيرة الأستاذ الإمام في بيروت ليُنشر في الجزء الأول من تاريخنا له، فرحمهما الله تعالى وحشرنا وإياهما مع [الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً](النساء: 69).

أحمد تيمور باشا[114]

وفاته وملخص ترجمته

في صبيحة 27 من شهر ذي القعدة الماضي انتهت حياة رجل لا كالرجال، وفرد لا كالأفراد - إلا أن يراد بالأفراد نحو مما يريده الصوفية - ألا وهو صديقنا وأخونا في الله عز وجل الأستاذ العالم المؤرخ الأديب السلفي أحمد تيمور باشا المشهور بأخلاقه العالية وعلمه وأدبه؛ ولكنه على شهرته يكاد يكون مجهولاً عند الأكثرين بخصوصيته، فهو من شهداء الله وحججه على خلقه في دينه وفضائله، ونادرة من نوادر الزمان - هذا الزمان - في مجموعة مزاياه، رحمه الله تعالى وأكرم مثواه، وقد خسرت الأمة العربية بفقده ركنًا من أركان علماء لغتها الخادمين لها بما تقتضيه حال العصر، وخسرت الأمة الإسلامية مسلمًا مخلصًا لدينه وأمته مدافعًا عنهما غيورًا عليهما.

ذُكر في بعض الصحف أنه ولد في 22 شعبان 1278، وأنه لما دخل في سن التمييز اختار له والده إسماعيل باشا تيمور رئيس الديوان الخديوي من المعلمين من يلقنه مبادئ القراءة والكتابة في داره، وأنه تلقى التعليم الابتدائي العصري في مدرسة مارسيل الفرنسية، وأن نفسه جنحت بعد ذلك لدراسة الفنون العربية والعلوم الدينية، فأخذ أولاً عن الشيخ رضوان محمد المخللاتي، ثم عن الشيخ حسن الطويل الشهير الذي كان جامعًا بين العلوم الشرعية والعقلية والتصوف، وأنه كان يتردد على الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي الكبير، فيتلقى منه ما شاء من اللغة العربية وآدابها.

ثم أقول: إن الفقيد -رحمه الله تعالى- قد اشترك في صحيفة المنار من أول العهد بإنشائها، ثم عرفته معرفة شخصية منذ شهر رمضان سنة 1316، إذ كان يحضر كل يوم درسي الذي كنت ألقيه في المسجد الحسيني في عقائد الدين وأصوله الإصلاحية العالية بأسلوب خطابي اهتزت له مصر، وكاد يحدث فيها ثورة دينية بما شرعت أفنده فيه من البدع والخرافات التي شوهت تعاليم الإسلام الصحيحة؛ حتى كنت كثيرًا من الأيام ألقاه عند خروجي من المسجد، فنمشي في خان الخليلي، ثم في السكة الجديدة نتحدث في موضوع الدرس، وحال المسلمين في هذا العصر، فوجدته موافقًا لي في

كل ما كنت أنكره من تغلغل نزغات الشرك في القلوب وانتشار البدع والخرافات في الأعمال، وفيما يجب من الإصلاح الإسلامي، وجدته موحدًا فحلاً، لا مخنثًا بين فحولة التنزيه وأنوثة التشبيه، يتفصى من النصوص بخلابة التأويل.

ثم كان يحضر معنا دروس الأستاذ الإمام في الأزهر، وفي أثناء ذلك اقترحت على الأستاذ أن يعقد مجلسًا خاصًّا لبعض إخواننا المستعدين لتلقي حكمة الإسلام العليا من خريجي دار العلوم وأساتذة المدارس الأميرية وغيرهم يتخولنا بها في بعض أوقات الفراغ، فقبل الاقتراح، واخترنا دار أحمد بك تيمور في درب سعادة لهذه الدروس العالية إذ كان هو أحد الراغبين فيها، فاجتمعنا فيها مرارًا، وكنا نذهب في بعض الأيام إلى (عين شمس) فنتلقى الدرس أو المحاضرة في دار الأستاذ الإمام نفسه هنالك، ثم ابتاع فقيدنا اليوم دارًا في عين شمس بقرب دار الإمام فأقام فيها.

تسنَّى لي في تلك المدة معاشرة أحمد تيمور وكثرة مجالسته، فرأيت منه شابًّا غنيًّا تُوفيت زوجته عن أولاد صغار فأبى أن يتزوج على كثرة البيوتات التي تتنافس في صهر مثله في كرامة بيته وسعة ثروته وحسن سيرته، وإنما أبى خوفًا من كراهة الزوج الجديدة لأولاده ومضايقتها له في تربيتهم، فاختار العزوبة مع العفة والصيانة التامة لأجلهم، على حين نرى أمثاله من الأغنياء لا تحصنهم الزوج الواحدة ولا الزوجان ولا الثلاث، ولا يبالون في طاعة شهواتهم ما يكون من سوء تأثيرها في الأولاد، وأما الآخرة فلا تكاد تخطر لأكثرهم في بال.

وكانت لذته من الدنيا أو في الدنيا جمع الكتب العربية النفيسة، ولا سيما المخطوطات القديمة النادرة، وجرى في هذا على عرق وراثة، وجد في دارهم مكتبة صغيرة، فما زال يزيد عليها حتى أسس خزانة لها احتوت عشرين ألفًا من الأسفار في جميع العلوم والفنون، منها ما لا يوجد أو لا يوجد مثله في غيرها حتى دار الكتب المصرية العامة، ولم يكن حظه منها مجرد الجمع والتلذذ بالاحتواء والملك كما يُعرف عن بعض عشاق الكتب الذين ينظرون إليها نظرهم إلى غيرها من أعلاق العاديات والآثار التاريخية، بل كان يقضي جل أوقاته في المطالعة والمراجعة، وبعضها في كتابة المقالات والرسائل وتصنيف الكتب، وكان يتروى فيما يخطه ويكثر التأمل والمراجعة حتى يكون محررًا منقحًا كما يحب، وأكثر ما يعنى به التاريخ واللغة.

وله مصنفات مفيدة منقحة لعل نجليه الكريمين يطبعانها كلها إحياء لذكره الحميد، فلا سبيل لهما إلى بره مثل هذه السبيل، فمما علمنا من أسماء مصنفاته:

(1) كتاب معجم اللغة العامية: استقصى فيه ما علمه بالبحث الطويل من الألفاظ العامية، وبيَّن ما له أصل عربي، وما ورد في معنى ما ليس له أصل، وغرضه من هذا دحض شبهة بعض ملاحدة أدعياء التجديد، الذين يدعون إلى جعل اللغة العامية لغة العلم والتعليم، ويدَّعون أنها أصلح وأوفى بحاجة العصر من العربية الصحيحة، وكان يمقت هؤلاء المتفرنجين ويحتقر دعواهم للتجديد.

(2) ذيل لهذا المعجم في الأمثال العامية.

(3) كتاب معجم الفوائد: وهو كتاب كان يجمع فيه ما يعثر عليه من الفوائد المهمة في الفنون العربية، والتعبيرات البليغة، والمسائل الشرعية، وغيرها مما حققه بعض العلماء ويحتاج إليه أهل العلم، وقلَّما يهتدون إليه بالمراجعة لخفاء مظانه، فكان يرتب ذلك على حروف المعجم لتعبيد طريقها لمن يريدها، ومن المعلوم بالبداهة أن هذا الكتاب لم يتم؛ ولكن الموجود منه لا يتوقف على غيره؛ لأنه فوائد متفرقة، لا أبواب علمية متسقة، فالانتفاع بها ليس مرهونًا باستيفاء مباحثها.

(4) ترجمة أبي العلاء المعري: والمرجو أن يكون فيها فصل الخطاب في كل ما اختلف فيه الناس من أمره ولا سيما عقيدته؛ لأن فقيدنا رحمه الله قد اطلع على ما لم يطَّلع عليه غيره من أقوال المعاصرين والغابرين فيه.

(5) كتاب وفيات القرنين الثالث عشر والرابع عشر للهجرة: وقد استعان عليه بمكاتبة من عرفهم من أهل العلم في الأقطار المختلفة، ولم يقتصر على ما اطلع عليه في الكتب الكثيرة، وكان هذا التصنيف دينًا على علماء التاريخ العربي قام به من هو أجدر به، والظاهر أنه كان يتوقع فيه المزيد من العلم كمعجم الفوائد، وإنه لذلك لم يبيضهما.

(6) مفتاح الخزانة: وهو 13 فهرسًا لخزانة الأدب الكبرى للبغدادي لا تتم الاستفادة من هذا الكتاب النفيس الجامع في آداب اللغة وتاريخها وتراجم رجالها بدونها، لمن يريد مراجعة المسائل والتراجم عند الحاجة إليها.

(7) نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة في فقه أهل السنة وانتشارها في الأقطار، وأين يكثر كل مذهب منها.

(8) تاريخ اليزيدية، وأجدر به أن يكتب حقيقة تاريخهم.

(9) رسالة في العَلَم العثماني - أي علم الدولة العثمانية - بيَّن فيها أصله ومأخذه وتاريخه، وأخذ العَلَم المصري منه وهي مطبوعة.

(10) رسالة في قبر الحافظ السيوطي وهي مطبوعة.

(11 و 12) رسالتان في تنقيح لسان العرب والقاموس المحيط، وهما مطبوعتان.

وله مقالات في بعض المجلات آخرها ما كانت تنشره مجلة الهداية الإسلامية في (الآثار النبوية) والمراد بالآثار هنا ما يسميه بعضهم المحفوظات وبعضهم (المخلفات النبوية) كشعره صلى الله عليه وسلم وبردته، وغير ذلك، وكذا ما يُذكر من الأحجار التي فيها أثر الكف أو القدم، وقد نشر في الهداية بضع مقالات من ذلك يظهر أن لها تتمة، ومع هذا يمكن طبعها مستقلة.

وقد جعل خزانة كتبه وقفًا وبنى لها دارًا في ضاحية (الزمالك) من ضواحي القاهرة ووقف عليها أرضًا (أطيانًا) يكفي ريعها لنفقاتها والزيادة فيها؛ ولكن وجودها هنالك يحول دون الانتفاع العام بها.

ولم أر له ميلاً في صباه إلى شيء من اللهو المباح، فضلاً عن المحظور أو المكروه، إلا أنه كان يرتاح إلى شيء من سماع الأقوال الشاذة المستغربة من رأي أو خبر، وكان هذا من أسباب ارتياحه إلى مجالسة الأستاذ الشيخ طاهر الجزائري رحمهما الله تعالى، فقد كان لديه من ذلك الجم الكثير، وأما أول أسباب عشرته وحبه له فهو كونه من علماء الدين الميالين إلى الإصلاح العارفين بحال العصر، وما له من الاطلاع الواسع على نفائس الكتب العربية في خزائنها المشهورة في الشرق والغرب مع العلم بقيمتها العلمية والتاريخية، وهو الذي دله على الكثير منها، وكان الشيخ طاهر جمع كثيرًا من هذه الكتب المخطوطة النادرة، وقد اضطر إلى بيع بعضها عند الحاجة إلى الدراهم في مدة إقامته بمصر، فاشترى صاحب الترجمة كثيرًا منها فيما بلغني، ولو كان الشيخ طاهر يقبل من أحد مواساة مالية لكان له من صديقه الوفي المخلص أحمد تيمور ما يكفيه وفوق ما يكفيه مع الإخفاء والكتمان؛ ولكن كان له من عزة النفس بالعلم وشرف البيت، ومن العفة والقناعة بآداب الدين ما يربأ به عن ذلك، رحمه الله تعالى.

ومما عرفناه وشاهدناه من ترويح فقيدنا الكريم نفسه بسماع الآراء الشاذة أنه كان يختلف إليه في داره بدرب سعادة شيخ كبير السن سبق له اشتغال بطلب العلم، ثم صار له خواطر في التصوف و المهدي المنتظر، بل كان يعتقد أنه هو، فكان الفقيد يُكْرِمه ويسمع له ما ينطلق به لسانه من الخواطر الغريبة والأفكار الشاذة ويضحك كثيرًا، وربما فتح له هو أو من حضر من أصدقائه أبواب الحديث.

ومما سمعناه منه مرارًا في تلك الدار الانتقاد على الأستاذ الإمام بإغراء المجلس أن إسماعيل باشا صبري قال له مرة: إن الشيخ محمد عبده المفتي يضع الشال الكشمير أحيانًا على ذراعه كما يفعل الإفرنج بوضع أرديتهم ومعاطفهم على أذرعتهم، وقال له مرة: إن المفتي يدخن بالسجاير الإفرنجية دون السجاير الإسلامية، فكان يرفع عقيرته في الإنكار والاستعاذة بالله تعالى من هذا الزمان الذي صار فيه مفتي الإسلام يفعل فعل النصارى ويستعمل سجاير النصارى، وتارة يستبعد تصديق ذلك، ويقول لإسماعيل باشا أو لتيمور بك: بالله العظيم يا باشا، بالله العظيم يا بك، مفتي الإسلام يشرب سجاير نصرانية ؟ فيقولان: نعم نحن رأيناه بأعيننا، فيقول: أعوذ بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله، فسد الزمان...

وكنا كلنا نضحك من هذه السذاجة والغفلة، وتصديق الرجل بأنه يوجد سجاير إسلامية وسجاير نصرانية !!كان الفقيد يرتاح إلى هذا ولكنه كان يُفهم ذلك الشيخ المجذوب بعد ذلك حقيقة المسألة، وأنها ممازحة، وما كان يقبل من أحد دون ذلك طعنًا في الأستاذ الإمام، وقد زعم بعض الذين كانوا يدينون بافتراء الكذب عليه أنه لا يصلي فردَّ عليهم بلطف وهم في داره، وقال ما يعلمه من قوة دين الإمام وعبادته، ولم يلبثوا أن دخل عليهم خادم كان يتردد عليه للخدمة مدة وعلى علي باشا رفاعة أخرى بالتناوب لخدمة خاصة، فلما دخل عليه في غير موعده سأله عما جاء به، فأجاب بما حاصله أنه جاء الباشا ضيف اسمه الشيخ محمد عبده فوكلني بخدمته، فإذا هو يقوم بعد نصف الليل بقليل فيتوضأ ولا يزال يصلي إلى قرب طلوع الفجر ولا ينام إلا قليلاً بعد صلاتها، وأنا مضطر لانتظار خدمته ما دام مستيقظًا فلم أطق صبرًا على ذلك، ففررت من هذا الضيف الثقيل، فقال الفقيد لمن حضر: الحمد لله الذي أظهر لكم الحق بما لا شبهة فيه لأحد، فوالله إنني لم أر هذا الخادم منذ كذا من الأيام.

وأقول: إن الإمام رحمه الله كان يتردد أحيانًا على صديقه علي رفاعة باشا في داره بمهمشة بالقرب من إدارة السكة الحديدية للمطالعة والمراجعة في كتب والده المرحوم الشيخ رفاعة، وأما قيام الليل فلم يكن يتركه في إقامة لا سفر.

ذكرت هذا لأبيِّن لقراء المنار أنني ما عهدت من هذا الرجل في شبابه شيئًا من اللهو والهزل للتسلية غير هذا، وقد تركه كما أظن في كهولته، وقلما يوجد في الدنيا شاب غني وجيه يترك جميع لذات الدنيا وشهواتها المباحة غير المعتاد من الطعام اللائق ببيته، ويصرف جميع أوقاته في الدراسة والمطالعة والكتابة، ثم إنه في السنين الأخيرة توجه إلى بعض الأعمال النافعة للأمة، وأهمها

مساعدة الجمعيات الإسلامية كجمعية مكارم الأخلاق، وجمعية الشبان المسلمين، وجمعية الهداية الإسلامية، وهو صاحب الفضل الأول في تأسيس الجمعية الأخيرة، وفي إنشاء مجلتها وجريدة الفتح بماله وبنفسه وبقلمه.

وجملة القول فيه إنه كان موحدًا سلفي العقيدة، مهذب الأخلاق، عالي الآداب، محبًّا للإصلاح، ومبغضًا للتفرنج والإلحاد، وقد تجدد له أمل في نهضة الإسلام بالدولة السعودية، وما عزته إليه بعض الصحف من ارتيابه في حقيقة الوهابية، وقوله في شيخي الإسلام ابن تيمية و ابن القيم أنهما كانا عالمين لا زعيمين - ينافيه علمه الواسع بالتاريخ، فهو افتراء عليه أو سوء فهم من الناقل عنه.

وذكر لي بعض أصدقائي وأصدقائه أن له صدقات سرية كان يتحرى فيها أن لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، وحسبه من الصدقة الجارية وقف كتبه الثمينة وما وقف للنفقة عليها، قد يقال إنه لو كان يظهر زكاة ماله للاقتداء به لكان أفضل من إخفائها؛ ولكنه كان أعلم بحال نفسه وحال وقته وما هو أفضل له.

توفي رحمه الله تعالى فجأة بسكتة قلبية، وكان عرض له ضعف القلب من سنين مع مرض الصدر، واشتدت عليه وطأته بمصابه بنجله الكبير محمد بك، ثم إنه ترك التدخين فحسنت حاله الصحية بعد أن انقطع عن العمل زمنًا طويلاً فعاد إليه بنشاط.

وأذكر أنه كان يشكو الضعف وسوء الهضم من أوائل عهدي بمعرفته أي منذ ثلث قرن وكانت سنه دون الثلاثين، وأن الأطباء كانوا يقولون له إنه ليس مصابًا بمرض يُخشى منه، وأذكر أنني قلت له مرة إن هذا الضعف لا سبب له إلا الإفراط في الراحة والترف، وإنه لا علاج له بالأدوية وإنما علاجه في شيء واحد وهو أن تُحْدِث لنفسك ما يحملها على التعب الجسدي بالرياضة البدنية العنيفة، وعلى التعب النفسي والعقلي أيضًا في وقت آخر، وجميع الأطباء يوافقون على هذا الرأي ويقولون به؛ ولكن الذي يعمل به باختياره من غير باعث نفسي اضطراري أو متكلف بحيث يكون كالاضطراري قليل من الموسرين.

وجملة القول إن هذا الرجل كان في مجموعة فضائله ومزاياه وجده وغيرته على الدين وعلمه وعمله ونأيه عن الهزل واللهو أمة واحدة، فهو من نوادر هذا العصر، وشهداء الله وحججه على الخلق، ولا سيما الأغنياء والمتفرنجين في مصر، فإن أكثر أغنياء مصر، وكذا غيرهم من مسلمي هذا العصر شر من أغنياء سائر الأمم في جهلهم وبخلهم، مع إسراف أكثرهم في شهواتهم، وأكثر المتفرنجين مصيبة على بلادهم، يزعمون أن التهذيب العصري لا يتفق مع الدين، فليأتونا بمثل

أحمد تيمور من كبراء ملاحدتهم إن كانوا صادقين ؟كان له ثلاثة أبناء نجباء عُني بتعليمهم وتربيتهم، فاحتسب أكبرهم في حياته لآخرته، وترك اثنان يحيا بهما ذكره من بعده: إسماعيل بك من رجال التشريف في خدمة جلالة ملك مصر كما كان جده وسميه إسماعيل باشا وجد أبيه من قبله في خدمة أبي جلالته وجده، ومحمود بك الذي فاق أدباء العصر في إنشاء القصص التمثيلية وغير التمثيلية، فنعزيهما بل نعزي الأمة الإسلامية عنه، وندعو له بالرحمة والرضوان، ولهما بطول البقاء مع طاعة الله، وللأمة بأن يعوضها عنه بالرجال العاملين المخلصين، وستقيم له جمعية الهداية حفلة تأبين حافلة، وأول من رثاه بالشعر صديقنا وصديقه الأستاذ عبد الله بك الأنصاري، وكنا جعلنا مرثيته خاتمة لهذه الترجمة، ثم اضطررنا إلى تأخيرها إلى الجزء الآتي.

الشريف الحسين ملك الحجاز السابق[115]
وفاته - والعبرة من ترجمته

في يوم الخميس الثامن أو التاسع عشر من المحرم توفي الشريف حسين بن علي آخر من تولى إمارة مكة للدولة العثمانية وأول من سُمي ملك الحجاز بعد الانقلاب العام الذي أحدثه حرب المدنية الكبرى.

توفي في عَمَّان فنقل منها إلى القدس ودفن في جوار المسجد الأقصى بالقرب من مدفن محمد علي الزعيم الهندي وقد احتفل بدفنه احتفال عظيم اشتركت فيه الحكومة الإنكليزية رسميًّا.

فنعزي أنجاله أصحاب الجلالة والسمو.

ونسأل الله تعالى له المغفرة والرحمة التي وسعت كل شيء.

كان الملك حسين ذا مواهب فطرية ووراثية عظيمة، صار بها من رجال التاريخ العام وتاريخ العرب الخاص.

كان شجاعًا حازمًا قوي الإرادة، ماضي العزيمة، كبير الهمة، نزيه النفس، شديد البأس، عفيفًا عن الشهوات، عزوفًا عن الدنايا، محافظًا على الفرائض الدينية، أديب المجلس، حسن الحديث، على عظمة وكبرياء، وشَمَم وإباء، ولكن معارفه الدينية والمدنية ضيقة النطاق، مبنية على تقليد المقلدين من الآباء والعشراء، وخبرته ضعيفة مستمدة من أهل الملق والرياء في مكة، وأُولي التَّقِيَّة والعبودية والحميدية في الآستانة؛ فلهذا لم يكن ينال الزلفى عنده إلا المراءون المخادعون، وكان شديد الاعتداد بنفسه، والإعجاب برأيه، والثقة بعلمه، والظنة والريبة في كل مَن يتصل به، والإصرار على رأيه وإن فُرض أنه ظهر له خطؤه فيه حتى كان بعض خاصته يقول: لولا عناد سيدنالكان كل ما يُنتقد عليه سواه هينًا، لا يُخشى ضرره، ولم يكن أحد من عماله ولا من أولاده يتجرأ على النطق أمامه بما يخالف رأيه، وهذا خلق يقطع على المتخلق به طرق العلم والاستفادة التي لا يستغني عنها بشر

مهما تكن درجة عقله، وسعة علمه ودقة خبرته، وقد قال الله تعالى لرسوله خاتم النبيين وسيد ولد آدم [وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً](طه: 114) وقال الإمام الشافعي:

كلما أدبني الد *** هر أراني نقص عقلي

وإذا ما ازددت علمًا *** زادني علمًا بجهلي

وإن في هذين البيتين لَحكمةً لا يسمو إليها إلا أرقى الناس عقلاً وأوسعهم علمًا.

وكان رحمه الله تعالى يكره دولة الترك ويتألم من سيادتهم على الحجاز، والظاهر أن بعض رجالهم في الآستانة كانوا يشعرون بذلك منه ويحسبون كل حساب لإمارته على الحجاز في عهد الدستور، وفي هذا دليل على أنه أعز من غيره من شرفاء مكة نفسًا ؟ وأعلى همة وأبعد مرمى، وكان نجله الشريف عبد الله أشد منه بغضًا للترك وميلاً للاستعداد للخروج عليهم ونبذ سلطانهم، ولكن نجله الشريف فيصلاً كان إلى الترك أميل، وعلى الاتفاق معهم أحرص، كما أخبرني بذلك في بيروت والشام بعد الحرب.

ولما أسسنا جمعية الجامعة العربية كاشفت بخبرها الشريف عبد الله في نزالته لدى الخديو من قصر عابدين وكان عائدًا من الآستانة إلى مكة هو وأخوه الشريف فيصل، ولم أقابل فيصلاً ثَم، وقد نظمت عبد الله في سلك الجمعية وحلفته يمينها الغَموس فحلفه، وأخبرني أنه موفد لإقناع والده بقتال السيد الإدريسي لاستقلاله في العسير دون الدولة انتصارًا لها فقلت له: إياكم تسفكوا دماء العرب بسيوف العرب.

فوعدني بأن سيبلغ والده ما أمر به ويجتهد في إقناعه بأن لا يقاتل الإدريسي، وأن يعنى بالاتفاق معه ولو في الباطن تمهيدًا للحلف العربي الذي هو أُسّ الجامعة العربية.

ولكن والده قاتل السيد الإدريسي بغضًا فيه وطمعًا في ضم بلاده إلى الحجاز لا حبًّا في الترك وانتصارًا لهم، فقهره الإدريسي ورده خائبًا منكسرًا.

ولما اشتعلت نار الحرب الكبرى وانضمت الدولة العثمانية فيها إلى الحلف الألماني كان من سياسة الإنكليز فيها أن يستميلوا الأمة العربية إلى الانضواء إليهم وإلى حلفهم، والخروج على الدولة العثمانية ووعدوهم بأن يكون جزاؤهم على ذلك الاستقلال وتأسيس دولة عربية جديدة تحيي حضارة العرب الزاهية، ولعلِّي قد كنت أول مَن أرادوا أن يستخدموه ببث الدعاية لهم في جزيرة العرب وفي الولايات العربية العثمانية، وكلفوني إرسال مندوبين من قِبَلي إلى أمراء الجزيرة

وجمعيات العرب السياسية في الولايات بذلك.

ولما كنت أعلم من سياسة الإنكليز أنهم كالسيل - يقذف جلمودًا بجلمود، ويقاتلون الأمم والشعوب بعضها ببعض ثم يستأثرون هم بالغنيمة - اشترطت عليهم أن تقرر دولتهم بالاتفاق مع حلفائهم الاعتراف باستقلال الأمة العربية في جميع بلادها معرفة بحدودها الطبيعية استقلالاً مطلقًا من كل شرط وقيد.. إلخ ولم تنتهِ المراجعات بيني وبين رجلهم هنا في ذلك إلا وقد أيقنت أنهم مخادعون، وأنهم إذا انتصروا جعلوا البلاد العربية غنيمة لهم ولحليفتهم فرنسا، ولهذه المناقشات قصة طويلة وفيها وثائق مكتوبة ليس هذا محل بيانها.

كنت قررت أن أرسل أخي المرحوم السيد صالح إلى الحجاز للكلام مع الشريف حسين في هذه المسألة وقرر الإنكليز أن يرسلوه من طريق السودان فحالت العوائق دون إرساله حتى زال من أنفسهم ما كانوا يرجونه مني، ووجدوا واسطة أخرى لمخاطبته وإقناعه بالخروج على الدولة العثمانية، وإعلان الانضمام إليهم وكانت فظائع جمال باشا السفاح التركي في سورية قد أيأست أهلها من إمكان البقاء تحت سيادة الترك وبثوا شكواهم إلى الشريف حسين وأظهروا له ميلهم إلى الخروج على الدولة، فأعلن الثورة العربية ولكنه لم يُطْلِعْ أحدًا من حاشيته ولا من بطانته ولا من أولاده على الأساس الذي بناها عليه بالاتفاق مع الذين أغروه بها من الإنكليز؛ لأنه لا يثق بأحد.

لا ينكر عاقل أن الاحتراس والحذر والكتمان من أركان السياسة، كما لا يخفى على عاقل أن من لا يثق بأحد لا يمكنه أن يقوم بعمل عظيم ولا سيما الأعمال السياسية والانقلابات القومية، وتأسيس الدول والممالك وأن شدة الحذر تفضي إلى التردي في شر مما يخافه الحذر من ناحية ضعف الثقة بالعاملين، فإنه يضطر إلى الاعتماد في أعماله على صغار النفوس المتملقين الذين يرضون أن يكونوا كالآلات المعدنية والأدوات الخشبية في يده لأجل منافعهم الشخصية منه أو من الأجانب الذين يدسون له من جواسيسهم من يوافقونه على هواه في كل شيء لينقلوا لهم عنه كل ما يعلمون من أعماله وأحواله.

وإن أغرب ما أنكرناه من أموره المتناقضة أنه على عدم ثقته بأحد من أمته ولا من أولاده قد وضع ثقته كلها في الإنكليز المشهورين في العالم كله بالخداع والمكر والعبث بالرجال العظماء وبالدول والأمم - وثق بهم ثقة عمياء صماء بكماء ورهاء بلهاء، معتقدًا أنهم أعلى البشر أو فوق البشر في الصدق والوفاء !، بل كان يعتقد أنهم سيمنحونه كل ما يؤمّله ويتمناه، لا ما وعدوه به خداعًا وتغريرًا

ولا ما اقترحه عليهم مما سماه مقررات النهضة فقط.
(للترجمة بقية)

((يتبع بمقال تالٍ))

الشريف حسين ملك الحجاز السابق[116]

(2)

كتب كثير من أصحاب الجرائد العربية وغيرهم مقالات في تأبين الشريف حسين ونظمت قصائد متعددة في رثائه، وأقيمت حفلات في الأمصار العربية لتأبينه فمنهم من أطرى ومن انتقد ومن حاولوا الجواب عما ينتقد، ويقل فيمن كتب وأبّن من تحرى الحقيقة لذاتها أو من هو واقف عليها، ومن الظاهر البين أن من المؤبِّنين والراثين من كان غرضه الازدلاف إلى أنجاله أصحاب الجلالة والسمو.

ومن العجيب أن بعض الأفراد - قيل: والجماعات - قد اقترحوا نصب تمثال له فتهكَّم الكاتب الإسلامي محب الدين أفندي الخطيب بهم؛ إذ اقترح عليهم أن ينصبوا ذلك التمثال تجاه الزاوية التي كان يصلي فيها الجمعة من الحرم المكي الشريف، أي فيكون من مناقبه إعادة التماثيل التي أزالها جده النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم من بيت الله الحرام، والتي قال فيها جده أمير المؤمنين علي عليه السلام لعامله أبي الهياج: أبعثك على ما بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا تدع تمثالاً إلا طمستَه، ولا قبرًا مشرفًا إلا سوَّيتَه.

وقال بعض الذين طرقوا باب المباحث التاريخية في سيرته: إنه قد نهض بدعوته وأشعل نار ثورته توسلاً إلى استقلال أمته، وتأسيس سلطنة (إمبراطورية) لها لا لنفسه، فخدعه الإنكليز ونكثوا عهده كما خدعوا مَن هو أجدر منه بمعرفة كيدهم وخداعهم وهو الدكتور ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة.

وإنه لم يجد من ينصح له ويبين له ما يجب من الاحتياط في ذلك، وقال بعضهم إنه إنما أراد إنقاذ الحجاز من غائلة الحرب ومجاعتها ولم يُرد إسقاط الدولة العثمانية التي كانت هي السياج الأخير للحكم الإسلامي.

وصرح بعضهم بأن المنقبة الوحيدة له في سياسته سلبية، وهي امتناعه من إمضاء الاتفاق الأخير

الذي حمله إليه من لندن وكيله ونائبه في ذلك الدكتور ناجي الأصيل، ومن مواده اعترافه بالانتداب الذي يتضمن إنشاء الوطن القومي لليهود في فلسطين، وزاد امتناعه قبل ذلك من إلحاق منطقة العقبة و معان بحكومة نجله الأمير عبد الله في شرق الأردن؛ إذ طلبه منه الإنكليز لعلمه بأنها حينئذ تكون إنكليزية يتصرف الإنكليز بها كما يشاؤون فيكون أول مسلم خان الله ورسوله في أرض الحجاز المحرمة بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته على غير المسلمين، ولكن ما امتنع منه وعُدَّ هو المنقبة الصحيحة له قد فعله أبناؤه في حياته.

وزعم بعضهم أنه بامتناعه ما ذكر قد ضحى ملكه وسلطانه على الحجاز أو حرم نفسه من امتداد ملكه إلى آخر حدود جزيرة العرب بمساعدة الإنكليز والصحيح أنه ما كان يتصور زوال ملكه بذلك، ولا الإنكليز يفضلون امتداد ملك ابن سعود إلى البحر الأحمر فيقال: إنهم ساعدوه على ذلك.

وإننا لم نجد أحدًا من الكتاب ولا من الخطباء احتج على شيء من أقواله بمستند رسمي مما نشره الملك حسين في جريدته القبلة التي كان كل ما يكتب فيها إما بقلمه وإما بإملائه أو إقراره.

وقد نقلت من هذه الوثائق الرسمية في المنار ما هو حجة على أكثر هؤلاء الذين يقولون بغير علم، ومنهم من يقول بلسانه ويكتب بقلمه خلاف ما يعتقد ويعلم باختباره.

ذهبت إلى الحجاز في أثناء ثورته في أول مدة الحرب الكبرى، وتكلمت معه في هذه الشؤون سرًّا وجهرًا، وارتجلت في حفلة تهنئته بالعيد الأكبر في مِنى خطبة بينت فيها الأسباب الظاهرة لثورته العربية، وأقصى ما يمكن أن يحتج به لجوازها من حال الدولة العثمانية، وما ينبغي أن يقصد بها وما تنتهي إليه، فوافقني هو على ما قلته، وصرح في ذلك المحفل الحافل بأنه لم يَرَ أحدًا وافق رأيه رأيه من كل وجه بلا تواطؤ ولا سبق حديث إلا هذا الخطيب، وأمر أن أكتب الخطبة لتُنشر في جريدة القبلة فكتبتها فأمر بنشرها والتعليق عليها بما قاله في المحفل.

والظاهر أن موافقته كانت في الباطن كالظاهر والراجح عندي أنه اقتنع بما قلته لا أن ذلك كان رأيه من قبل، وكان يعتقد يومئذ أنني مخلص في نصحي له وكذلك كنت وهو دأبي وخلقي، ولكن جواسيس الإنكليز أرجعوه عن ذلك الرأي الذي كان اقتنع به، وقد صرح لي برجوعه عنه مدير مكتبهم العربي في مصر (كورنواليس) مستشار الداخلية لحكومة العراق الآن، وكذلك غيَّر قلبه عليَّ أحد حاشيته من صنائعهم الذي كان يحلف لي قولاً وكتابةً بأن مكانتي من قلبه فوق كل مكانة، بل أحفظ منه كتابًا بخطه أقسم فيه أنه لو اجتمع الخلائق كلهم صفًّا صفًّا.. وقالوا قولاً وقلت غيره (لجعلت مقالهم دبر أذني ووراء ظهري) فكان هو سبب منعه المنار من الحجاز و (من الممالك

الهاشمية) كما جاء في بلاغ المنع الرسمي من جريدة القبلة ! وكان هذا المنع خيرًا لي كما بينته في المنار.

أنا لم أكن أعرف الشريف حسينًا قبل الحرب معرفة شخصية وإنما عرفت في الآستانة نجله الشريف عبد الله معدن الظرف واللطف والتواضع والأدب، وكنا نشتغل في ذلك الوقت بتكوين الجامعة العربية فرأيت منه ميلاً إليها ورغبةً في تأييدها، وتعارفنا وتواعدنا على ذلك وعقدنا رابطة المودة.

ثم كان بيني وبينه في مصر ما ذكرته مختصرًا في الجزء الماضي وقد بلغ والده ذلك، ومنه ما ذكرته له في الآستانة من شدة استيائي مما كان يكتبه عبيد الله أفندي عدو العرب المشهور من الطعن في والده فكان هذا هو السبب الأول لثقته بإخلاصي في نصحه.

وقد أكده سبب آخر وهو ما بلغه إياه المرحوم محمد شريف الفاروقي معتمده في مصر من الثناء والتعاون معه على كل ما فيه نجاح النهضة العربية، وقد كان هذا الرجل جامعًا بين الذكاء والإخلاص في خدمته، ولولا أنه بلغ الإنكليز رسميًّا بأنه يطلبني لمقابلته في مكة المكرمة لما سمحوا لي بالذهاب ولو بقصد الحج، على أن الجنرال كليتون حاول إقناعي بأن لا أذهب إلى الحجاز ووعدني وعودًا عظيمة إن بقيت في مصر منها إعادة مساعدة وزارة الأوقاف لمدرسة الدعوة والإرشاد !! لأنه ظن أنني أريد أن أبقى عند الشريف في مكة وكان يعتقد أنني إذا كنت بجانبه لا يستطيعون أن يسيِّروه كما يريدون.

وجملة القول أنني جئت مكة مزودًا بثقة لا مجال للظنة فيها، فأجلَّني وأكرم مثواي، وكاشفني بما يبعد أن يكون كاشف به غيري، وهو مَن عرف جميع رجاله وأولاده شدة كتمانه وعدم ثقته بالناس، حتى أنه صرح لي بأنه إنما يخاطب معتمده في مصر بالبرقيات الرمزية (الشفرة) لئلا يعلم موظفو ديوانه بما يخاطبه به لا للتعمية على الإنكليز بمصر فهو لا يرى مانعًا من علمهم بكل ما يخاطبه به.

(للترجمة بقية)

خسارة الأفغان و الإسلام بفقد الملك الهمام
محمد نادر خان[117]

الشعب الأفغاني من أعظم الشعوب الإسلامية استعدادًا لتجديد مجد الإسلام وحضارته في الشرق لما هو ممتاز به من الشجاعة والبسالة والتدين وغريزة الاستقلال ومقت التدخل الأجنبي، وخلو بلاده من الدخلاء الخونة صنائع الإفرنج في الشرق، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون بما ينفثونه فيها من سموم الإلحاد والفسق باسم الحضارة والمدنية، ولكن دب إليهم دبيب هذه السموم من عاصمة الدولة العثمانية أو مدارسها، ومن تقليد بعض شبان الأفغانيين لرجالها، وافتتانهم بالتفرنج الذي أفضى إلى استواء أمان الله خان على عرش ملكها، ووجد من البطانة والوزراء والأعوان ما جرأه على محاولة إفساد أعظم قوة وأشرف غريزة في هذا الشعب العزيز الكريم، ألا وهي قوة التعصب في دينه المبين، هذه القوة التي هو أحوج إليها في عهد الحضارة العصرية التي تمهدت الأسباب لدخولها بجميع مفاسدها فيه، من كفر تعطيل بلشفي من جهة، وإلحاد إباحة من جهة، وما في كل منهما من تهتك النساء، واستباحة الأعراض، والانغماس في الشهوات، والتفاني في حب الزينة والبذخ، والسرف في الترف، وغير ذلك مما يفضي إلى تدخل النفوذ الأجنبي من مالي فسياسي فعسكري، كما وقع في جميع ممالك الشرق الأدنى والأوسط والأقصى، إلا اليابان التي انفردت دون غيرها باتباع الحكمة فيما اقتبسته من أوربة من العلوم والفنون الخاصة بالثروة وينابيعها، والقوة الحربية وآلاتها، مع المحافظة التامة على دينها وآدابها وتشريعها.

كان من قدر الله أن أسرف أمان الله خان في التفرنج ومفاسده إسرافًا لا يطيقه مزاج هذا الشعب الديني والقومي، فثار عليه ثورة أخرجته من البلاد مهزومًا مذءومًا مذمومًا مدحورًا، أمام زعيم للثورة من أحقر أهل البلاد وأرذلهم وأسفلهم، ثم كان من لطفه تعالى به أن قيَّض له أفضل رجال بيت الإمارة والملك (محمد نادر خان) فقضى على الثورة ونكَّل بالثائر الحقير الشرير، وطهَّر البلاد، وأمَّن العباد، ونهض بها نهضة الآساد، فأجمع الشعب على مبايعته بالملك فسار بسياسته

سيرة عمرية في العدل والفضل والمجد والقوة، والقيام بشئون الدين والدولة، وفي مقدمتها تنظيم القوة العسكرية، ونشر العلوم والمعارف الدينية والمدنية، وتفجير ينابيع الثورة والنهوض بأعمال العمران العامة من تعبيد الطرق وبناء الجسور والمدارس وغير ذلك.

لقد قويت آمال عقلاء المسلمين في دولة الأفغان وشعبها وبلادها في عهد الملك نادر خان تغمده الله تعالى برحمته ولا سيما مسلمي الهند وإن كان بعض الملاحدة من كتابها لا يزالون كغيرهم يحنون إلى أمان الله خان وتفرنجه ويفضلونه بزعم أنه كان عدوًّا للإنكليز، وأن نادر خان كان مسالمًا لهم، وهذا الزعم يدل على جهلهم بالسياسة وأنهم لا يزالون فيها كالأطفال أو العوام، فالدولة الأفغانية في طور تأسيس وتكوين فالسياسة المثلى فيها مسالمة جميع الدول، ولا سيما جارتيها القويتين الإنكليز في الهند و روسية.

علق قلبي حب الشعب الأفغاني منذ أشرق عليه نور الحكمة والإصلاح من تلك الشمس العلوية المحمدية التي بزغت من بلاده بظهور السيد جمال الدين فيها، ثم علق قلبي حب الملك محمد نادر خان بما وفقه الله تعالى له من تطهير تلك البلاد من فساد أمان الله خان، وغذاه وزيره المفوض بمصر محمد صادق المجددي الذي هو خير مثل له في الجمع بين الدين والعلم والعمل الصالح للدين والدنيا، وإن ما حدث أخيرًا في تركستان الشرقية من تأسيس دولة إسلامية فيها قد أنبت في أرض ذلك الحب الخصبة أملاً قويًّا باتحادها بدولة الأفغان، وقرب تجديد مجد الإسلام في الشرق الأوسط والأقصى وبلغ من قوة أملي بسياسة هذا الملك أن كاشفت وزيره الصادق المفوض هنا بعزمي على كتابة تقرير في إصلاح دولته هنا ليرفعه إلى جلالته وضعت النقط الأساسية له، ولم نلبث أن فجأنا البرق بما فجعنا من نبأ اغتياله ونشرناه في الجزء السادس على أن نعود إلى الكلام في هذه الفجيعة والمسألة الأفغانية.

وقد رأيت أن أنشر هنا مقالة لعالم هندي كبير وأستاذ شهير نشرت في جريدة التيمس الإنكليزية، وترجمت بالعربية لجريدة السياسة المصرية وهذه ترجمتها :

تراث نادر شاه

عن التيمس للسير سيد مسعود نائب عميد جامعة عليكرة الإسلامية بالهند

إن المأساة التي وقعت في كابل يوم 8 نوفمبر الماضي (ت 2 سنة 1933) قد لفت البلاد برمتها في ثياب الحداد؛ لأن البلاد لم تفقد بقتل الملك نادر شاه ملكًا صالحًا فحسب، بل فقدت أيضًا أكثر زعمائها استحقاقًا لثقتها، ولقد كانت لي مقابلة مع الملك الراحل في كابل قبيل وفاته ببضعة أيام، فاعتبرته -إذ ذاك- أعظم الحكام المسلمين في العالم الإسلامي اليوم.

ولقد تداول على أفغانستان ملوك كثيرون كان بعضهم مرهوبًا، وكان بعضهم مرغوبًا ومحترمًا، ولكنني أرتاب في أن يكون أحدهم اجتمع له حب الكافة واحترامهم كما اجتمعا للملك نادر شاه؛ إذ إنه ظهر على المرسح في وقت كانت تئن فيه البلاد تحت طغيان المغتصب باجي سقا، وكان يتهددها خطر تفكك الوحدة السياسية التي يتوقف عليها وجودها كمملكة مستقلة، فاستطاع أن يضع حدًّا لمنافسات القبائل فيما بينها، وسارع إلى جمع جيش غير منظم ولا تام الأهبة أنزل به المغتصب عن العرش، وهيأ ذمته أن تستعيد كرامتها التي فقدتها لما رأت عرش أفغانستان يجلس عليه جاهل متعصب من أصل وضيع.

ولعل المشاق التي احتملها الملك نادر شاه خلال حملته على باجي سقا في وقت كان فيه هو نفسه ضعيفًا واهن القوى، هذه المشاهد قد ملكت ألباب مواطنيه المقاتلين، كذلك رفضه قبول العرش الذي عرض عليه ثلاث مرات جعل القوم يتبينون أنهم اهتدوا أخيرًا إلى رجل كانت رغبته الوحيدة أن يكون نافعًا لبلاده القلقة.

وكان الملك نادر شاه خلال الحملة كلما رجاه شيوخ القبائل أو أتباعه الآخرون في أن يعرب عن نفسه صراحة يجيب إجابة لا تتغير، وهو أن واجبهم الضروري أمام الأمة أن يطردوا الغاصب ثم ينظروا في أن يولوا عليهم ملكًا من تختاره الجمعية الوطنية بالإجماع.

على أن الهزائم التي أوقعها به جيش باجي سقا ما جعلته يومًا يفقد أمله؛ لأنه كان رجلاً مؤمنًا بالله يعلم أنه يقاتل في سبيل قضية هي حق فهو لهذا سيفوز في النهاية.

وفي أثناء السنوات الأربع التي تولى فيها الملك في كابل وفق إلى إعادة السلام والوحدة في إرجاء البلاد.

وأذكر أنني حضرت حفلة كبيرة وقف يخطب فيها أحد الزعماء فصرح بأن أفغانستان قد أصبحت الآن بفضل ملكها الكبير القلب بلادًا متحدة فلم يعد فيها خلاف بين الشيوخ والشبان، والذي يدل على مبلغ نجاح نادر شاه في نشر الأمن في ربوع البلاد أن موته لم يحدث اضطرابًا في البلاد خلافًا لما هو معروف من قبل، بل أجمع الكل على اختيار ولده وهو شاب في التاسعة عشرة[118] من عمره خلفًا

له فبايعته كل القبائل ذات الخطر.
وتعود بي الذاكرة وأنا أكتب هذا إلى صلاة الجمعة التي أديتها مع الملك نادر شاه يوم 27 أكتوبر الماضي في المسجد الجامع بكابل، وإن أنس لا أنسى نظرة الإخلاص والإعجاب في عيون الجمهور وهم يشاهدون ملكهم يسير متمهلاً في صحن المسجد؛ لأنني بصفتي شرقيًّا عرفت هذه النظرة الخاشعة من الإخلاص وشعرت ألا شيء يمكن أن يكون أصدق منها، ولا تزال ترن في أذني صيحات الهتاف بحياة الملك التي ملأت الجو عقب صلاة الجمعة، فلما التفت الملك ليودعني كانت الدموع تترقرق في عينيه.
وكان هذا آخر العهد بيننا، فإنه مع الأسف قد عجلت به طلقات ذلك الشاب المفتون الذي لم يلحقه منه أذى.
وكان الملك قبل وفاته مشغولاً بأمرين يحصر فيهما اهتمامه وهما:

(1) كيف ينظم ديوان التعليم

و (2) كيف ينمي الموارد المعدنية لمملكته - فيما يتعلق بمسألة التعليم أعطى للأمة القصر العظيم الذي شيده الملك أمان الله خان في دار الأمان ليكون جامعة حديثة، وقرر الملك نادر شاه أن يبدأ في جامعة كابل بافتتاح الكليات التي تدرس المواضيع العلمية مثل الطب والهندسة والزراعة، وقد نظمت فعلا كلية الطب، وكان رحمه الله لا يميل إلى تشجيع العلوم النظرية مثل الفلسفة؛ لأنه رأى ظروف البلاد تجعل من مثل هذه العلوم ترفًا، كذلك كان في نيته أن يستغل شلالات الماء المهمة في أفغانستان لتوليد الكهرباء التي تستخدم في المصالح الصناعية.
وكان الملك ينوي في سبيل ترقية الموارد المعدنية في مملكته أن يأمر بعمل مساحة جيولوجية للبلاد، ثم ينظم شركات تعمل تحت إشراف خبراء يستخدمهم وكان كذلك يفكر في إنشاء طرق معبدة تم منها في حياته فعلا الطريق المؤدي إلى الحدود الروسية، وحينما قتل الملك في كابول كان رئيس وزارته ووزير خارجيته بعيدين عن العاصمة يتعهدان هذا الطريق قبل افتتاحه للمرور وينتظر أن يكون معدًّا في السنة القادمة الطريق الآخر الموصل من كابول إلى بشاوار ومتى تم تنقص المسافة بين المدينتين ثلاثين ميلاً.
ومن حسن حظ أفغانستان أن الرجال القابضين على إدارتها الآن وهي في مفترق الطرق هم رجال ذوو مقدرة مخلصون في مقاصدهم يثق فيهم الشعب لحبهم لبلادهم، فالسردار محمد هاشم خان رئيس الوزرة وهو أخو الملك الراحل خبير بالعلاقات مع الدول الأجنبية، وله كل المؤهلات اللازمة

لرجل يشغل مثل مركزه الممتاز، وهو بعد ذو شخصية جذابة بارع في اكتساب مودة زائره - كما أن السردار فايز محمد خان وزير الخارجية رجل مطلع على الشؤون الأوربية، عليم باللغات، جم النشاط، وعلمه بشؤون الدول الغربية يسير أبدًا مع الوقت، ومحدثه يستفيد دائمًا من حديثه.

وأما شاه محمد خان وهو أخو الملك الراحل ووزير الحربية في الوزارة الحاضرة فإن في فطرته تواضع الأكفاء من رجال الجندية، كما أنه كريم مصقول فيه صراحة.

وقد أتاح لي الحظ أن أجتمع بوزير آخر هو نواز الله خان وزير الأشغال العامة وهو رجل ذو نشاط لا يخمد، لعب دورًا هامًّا في حملة نادر شاه على باجي سقا وهذا الوزير ولد في بلاد الهند، وتربى في بلاد البنجاب وهو الإخلاص مجسمًا وقلبه يخفق بحب بلاد أفغانستان التي نشأ فيها آباؤه الأولون.

كل هؤلاء الوزراء أعرفهم تمامًا وأشعر لهم ولمثلهم العليا بأسمى الاحترام وهم يعملون باتفاق تام لعلمهم أن السكينة والأمن هما أهم ما تحتاج إليه بلادهم، أما فيما يتعلق بالبلاد الأخرى فلن يكون تغيير في السياسة التي وضعها الملك الراحل.

فحكومة الأفغان تود أن تعيش في صفاء ومودة مع كل جيرانها، وكل من يقول بضد هذا لا يقول صدقًا؛ لأن القابضين على السلطة يعلمون أن أهم واجب أمامهم في الوقت الحاضر أن يُرَقُّوا المصادر الصناعية للبلاد، كما أنهم يعلمون أن هذا الواجب إنما يمكن القيام به إذا شمل الهدوء والسلام أنحاء البلاد.

فالعمل الذي بدأ به الملك الراحل من إنشاء مستشفى تام المعدات لمعالجة المسلولين بالمجان كان إيذانًا ببداية عصر يعنى فيه حكام أفغانستان بتحسين الحالة الصحية للأمة.

ومن المؤسفات أن الملك نادر شاه لم يُتَح له أن يرى بناء مدينة كابل الجديد التي فكر في إنشائها وفق تخطيط يلائم أحدث مبادئ الصحة العامة، على أن الوزراء الحاليين يستمرون على إتمام هذا العمل موالين للابن الشاب كما كانوا موالين لأبيه؛ ذلك أنهم رجال محنكون يعلمون ما لا يعلم غيرهم مبلغ الضرر الذي يحيق بالبلاد إذا اضطرب الأمن الذي ثبت نادره شاه دعائمه فيها ا هـ.

بتصحيح قليل للترجمة.

أحمد زكي باشا شيخ العروبة[119]
رحمه الله تعالى

في يوم الجمعة لثلاث خلون من هذا الشهر (ربيع الأول) لبى دعوة ربه صديقنا (أحمد زكي باشا) الكاتب المؤرخ المصنف الخطيب الأديب الطائر الصيت، في إثر (ضربة هواء) كما يقول العوام أحدثت التهابًا شديدًا في رئته أعيا علاجه أصدقاءه من نطس الأطباء، لم تمهله إلا أسبوعًا أو بعض أسبوع، اختطفته المنية من حجر أمه مصر وهو ابنها البار، ومن ميدان أمته العربية وهو فارسها المغوار، وشيخ العروبة الذي فاق في شيخوخته وناصع شيبته جميع الشبان قوة وفتوة، ونضارة وبهجة، وهمة وسعيًا وحركة، وأملاً في طول الحياة، فلو كانت الأعمار بقوة البنية وشدة العضل ومرونة العصب ويسر المعيشة وقلة الهموم وكثرة السرور، لكان أحمد زكي باشا جديرًا بأن يبقى بعد المعمر التركي زارو أغا الذي توفي بعده في هذا الشهر عن 135 سنة، حتى يبلغ سنه أو يزيد عليها، وما أراه زاد على نصفها إلا قليلاً، ولعله لم يفته من أسبابها إلا عيشة القصد والاعتدال، فقد كان في بلهنية من الترف دان له بها الأهيفان، وسبحان مقدر الآجال.

نَعَتْهُ الصحف التي كان يشغل أكثر المشهور منها بمقالاته ومناظراته التاريخية والجغرافية والأدبية، فراع نعيه الفجائي العلماء العصريين من الشرقيين والغربيين واختلفوا أفرادًا وجماعات على منزله (دار العروبة) في جيزة الفسطاط للتعزية عنه، كما كانوا يختلفون إليها آنًا بعد آن لحضور المآدب والاحتفالات التي يدعوهم إليها لتكريم من يفد على القاهرة من العلماء والأدباء والزعماء الشرقيين والغربيين.

وشُيعت جنازته منها، يحف بها الجم الغفير منهم، وقد أممت المصلين عليها في أحد مساجد الجيزة فكان هذا آخر العهد بمودتنا الطويلة التي لم تشبها شائبة جفوة، ولا فترة اختلاف ولا فرقة، ثم حُمِلَتْ إلى القبر المعد لها تحت منارة مسجده الفني الصغير الذي بناؤه كان شغله الشاغل في سنيه الأخيرة، وأَبَّنَهُ هنالك المؤبنون، وانصرفوا بعد دفنه فيه مسترجعين مسترحمين.

ومما انفرد به أنه كان كلف الفقيد رحمه الله الشيخ عبد الله الشيبي بمكة المكرمة أن يأتيه بكناسة غار حراء سرًّا ففعل، فجاء بها ووضعها في القبر الذي أعده لنفسه ولزوجه في هذا المسجد، وهو بدعة تدل على إيمان كإيمان العجائز، وتعارض ما كان من فلتات اللسان في دعابته تسيء ظن بعض سامعيها في عقيدته، ويروي بعضهم عنه ما يدل على تأوله فيه، والدعابة في الحوار كالنكتة في الشعر، لا تترك، لا تصدر عن إيمان، ولا عن كفر.

رأيت أحمد زكي بك أول مرة في مكتب إبراهيم باشا نجيب وكيل الداخلية رحمه الله، وكان ذلك في سنة 1316 ثم قوي التعارف بيننا، وكنا نجتمع في أكثر ليالي رمضان مع طائفة من الأدباء والمحبين للمباحث الدينية، والتوفيق بينها وبين المعقولات والمعارف العصرية، منهم أحمد زكي بك مدير الأموال المقررة، وعبد الله بك فائق (باشا بعد)، ومحمود بك أنيس رحمهم الله وآخرون لم يبق أحد منهم حيًّا إلا حمزة بك فهمي، وكان من رجال القصر الخديوي، وكانت تلك المباحث جل ما يدور في سمرنا، وأكثر ما تبدأ به مشكلات تلقى على صاحب المنار يُطلب منه حلها.

من أجل هذا استفتاني فقيدنا اليوم في عشرة أسئلة ألقاها عليه بعض علماء الحقوق والشرائع في باريس في صيف 1904 ليترجمها لهم بلغتهم الفرنسية (ليعلموا أن في السويداء رجالاً ، وأن الشرق لا يزال عامرًا بأصحاب العقول الكبار)، وموضوع هذه المسائل الاجتهاد، ومعنى إقفال بابه عند العامة وعند أهل التحقيق، ومعنى القانون بوجه التدقيق العلمي، والفرق بينه وبين الشرع وسلطة الحاكم وحدودها... إلخ.

وقد نشرت كتابه ومسائله مع أجوبتها في المجلد السابع من المنار في جمادى الأولى سنة 1322 ويوليو سنة 1904، واستمرت المودة بيننا؛ ولكنه لم ينشر شيئًا من مباحثه في المنار، وكان يعلل ذلك أو يعتذر عنه باستغناء المنار عنها.

كان المرحوم أحمد زكي منذ نشأته الأولى من عشاق العلم، وهذا العشق هو الذي كان يحمله على إنفاق كل ما زاد عن حاجته من المال في اقتناء الكتب النفيسة ولا سيما الخطية النادرة، وقد جمع خزانة منها ذات قيمة كبيرة وقفها على طلاب العلوم وأمرها مشهور.

وعني في السنين الأخيرة من عمره بالسياسة العربية، ولقب نفسه بشيخ العروبة فاشتهر به، بعد أن كنت أسميه في السنين الأولى: حلقة الاتصال بين الشرق والغرب، وهو فلسطيني الأصل، وأول من جاء مصر جده الأدنى كما صرح بذلك لبعض الأدباء السوريين، ويقل من يعلم هذا، فنسأل الله تعالى أن يتغمدنا وإياه برحمته، ويعفو عنا وعنه.

تأبين أحمد زكي باشا[120]

أُلِّفَتْ في القاهرة لجنة من رجال الأدب لتأبين أحمد زكي باشا المشهور في الأقطار (بلقب شيخ العروبة)، وكان الاحتفال بعد تمام الاستعداد له بدار (الأوبرة الملكية) في مساء 13 شوال الماضي الموافق 18 يناير (ك2) سنة 1935 م تحت رعاية وزير المعارف أحمد نجيب بك الهلالي أُلقيت فيها بضع خطب وبضع قصائد لأدباء العربية في مصر وغيرها من الأمصار ، وكان موضوع كلمتي (أحمد زكي باشا والدين) وهذا نصها بالتقريب.

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها السادة والسيدات

لا تنتظروا أن تسمعوا مني تأبينًا بليغًا للمرحوم أحمد زكي باشا كالذي تسمعون من إخواني الخطباء أعضاء لجنة التأبين، فليس هذا من دأبي، وموضوع كلمتي لا يدخل في باب المناقب ولا يتسع لها، ولا تباح فيه المبالغات الشعرية؛ فإنه خاص بما كان بينه وبين ربه عز وجل.
جعل إخواني أعضاء اللجنة مناقب الفقيد العلمية والعملية موضوعات معدودة واقتسموها بين الخطباء منهم، ورغبوا إليّ أن أختار لنفسي موضوعًا أقول فيه كلمة أقضي بها حق مودته عليّ، وبعد اعتذار لم يقبلوه مني اخترت أن أجعل عنوان كلمتي (أحمد زكي باشا والدين) ولعلهم لم يذكروا هذا في مناقبه؛ لأنهم يريدون بتأبينه أن يعرضوا على الناس ما كان له من صلة بهم وخدمة لهم.

ولكن رأيي واعتقادي أنه يجب الإلمام فيه بجميع جوانب تاريخه، وأنه لو أمكن أن يستشار الآن فيما يُذْكَر به لكان ذكر صلته بربه آثر عنده وأحب إليه، وأن الذين يحبون معرفة سيرة رجل

مثله يودون أن يعرفوا هذا الجانب منها وهو أعلاها، وربما يظن كثير منهم أن الرجل المدني العصري مثله يكون غير متدين.

وأظن أنني أعلم أصدقاء أحمد زكي بما كان من مكانة الدين من نفسه؛ فإن أول عهدي بمعرفته أن التقينا في سنة 1916 هـ 1899 م عند المرحوم إبراهيم باشا نجيب وكيل الداخلية، وقد أخبره الباشا الذي عقد عروة التعارف بيننا وهو الرجل العظيم الشيخ محمد عبده إذ طلب منه أن يرشده إلى عالم يعرف الدين معرفة صحيحة معقولة ليكلفه تلقينه لنجليه (مصطفى و إسماعيل) فكان هذا التعريف سببًا لتوادنا، ورغبته في قراءة المنار، ودامت الموادة بيننا لم يعرض لها انفصام (وكان من قضاء الله تعالى وقدره أن كان المتكلم هو الإمام للذين صلَّوا على الفقيد صلاة الجنازة، ولم يذكر هذا في الكلمة، بل سبق ذكرها فيما كتبت عن وفاته).

فأنا ألقي على حضرتكم كلمة وجيزة فيما خبرت من تدينه، بعد مقدمة مختصرة في بيان أن للدين أعظم تأثير في أعمال الناس الخاصة والوطنية وأنواعها، حتى العسكرية والسياسية منها، وأعظم تأثيره هو الإخلاص والصدق والأمانة؛ فإن من لا يؤمن بالله واليوم الآخر والجزاء فيه قلما يعمل إلا لمنافعه الشخصية من المال والجاه.

أما هذه المقدمة فهي شهادة على معنى قولي هذا، شهد بها رجل من أعظم رجال أوربة الذين قاموا بأعظم الأعمال السياسية الدولية لأمتهم ووطنهم وهو البرنس بسمارك مؤسس الوحدة الألمانية نقلها لنا عنه أعظم رجال أمتنا في مصر وهو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، رجل الإصلاح الديني والوطني الأكبر، الذي ربى كثيرًا من رجال الدين والوطنية، ومنهم الزعيم الوطني العظيم سعد باشا زغلول، والعلماء الذين لا يُرجى إصلاح الأزهر إلا بهم، ترجمها الإمام من (كتاب وقائع بسمرك التي نشرها بعد وفاته أمين سره موسيو بوش) ونُشِرَتْ ترجمتها في (رمضان سنة 1316 هـ يناير سنة 1899) من السنة الأولى للمنار.

اتفق على هذه الشهادة أعظم رجال الشرق والغرب، ولخصت منها اليوم على اختصارها ما يكفي لإثبات ما أريد عرضه هنا للغرض الذي ترجمها الإمام ونشرناها لأجله، إذا قال بعد ذكر إطلاعه على كلام بسمارك:(فاستحسنت ترجمته ليطلع عليه من لم يعن بقراءة هذا الكتاب من شبابنا الذين يرون أن النسبة إلى دينهم سبة، والظهور بالمحافظة عليه معرة، وليعلموا أن الإيمان بالله وبوحي إلهي إلى أنبيائه ليس نقصًا في الفكر، ولا ضلة عن صحيح العلم، ولا عيبًا في الرياسة ولا ضعفًا في السياسة.

كان هذا الكلام من البرنس بسمارك على مائدة الطعام عنده، وكان سببه سقوط شيء من مرق الطعام على غطائها، فقال البرنس كلامًا خلاصته أن قلب الجندي يشرب الإيمان، فيغوص فيه كما غاص هذا المرق في نسيج هذا الغطاء، فيكون هو الذي يحمله على بذل روحه في الدفاع عن وطنه.
فقال أحد جلسائه: أتظن سعادتكم أن الجندي يخطر بباله هذا في ميدان القتال ؟ قال: لو كان يخطر بباله لما كان هو ذلك الوجدان الفطري)...
إلخ.
ثم قال بسمارك في سياق حديثه ما نص ترجمته بالعربية مختصرًا:(إنني لا أفهم كيف يعيش قوم، وكيف يمكن لهم أن يقوموا بتأدية ما عليهم من الواجبات، أو كيف يحملون غيرهم على أداء ما يجب عليه إن لم يكن لهم إيمان بدين جاء به وحي سماوي، واعتقاد بإله يحب الخير، وحاكم ينتهي إليه الفصل في الأعمال في حياة بعد هذه الحياة) ثم قال:(لو نقضت عقيدتي بديني لم أخدم بعد ذلك سلطاني ساعة من زمان، إذا لم أضع ثقتي في الله، لم أضعها في سيد من أهل الأرض قاطبة)(لو لم يكن لي إيمان بالعناية الإلهية التي قضت بأن يكون لهذه الأمة الألمانية شأن كبير، وأثر في الخير عظيم، لطرحت لساعتي ما حملته من أثقال وظائف الحكومة).
ماذا أقول ؟ بل لولا ذلك الإيمان لما قبلت شيئًا من هذه الوظائف؛ لأن الرتب والألقاب لا بهاء لهما في نظري، ولولا يقيني بحياة بعد الموت ما كنت من حزب الملكية، لو لم يكن هذا اليقين لكنت جمهوريًّا بالفطرة، يتبين ذلك من الغارات التي أشنها على هنات (خصال الشر) رجال الحاشية من مدة تزيد عن عشر سنين، من هذا يظهر أن إيماني قد بلغ من القوة أعلاها حتى حملني بقوته على أن أكون ملكيًّا، اسلبوني هذا الإيمان تسلبوني محبتي لوطني، اهـ المراد منه.
وقد استدل على كلامه بثروته الموروثة، ومجده المورث، ومحبته للحياة الخلوية الزراعية، حتى قال: إن الأسرة المالكة في بلاده ليست أنبل من أسرته.
بعد هذا التمهيد أذكر لكم ثلاث شهادات وجيزة على تدين فقيدنا في أول عهدي به ووسطه وآخره (الأولى) أننا كنا في أول عهدنا نتلاقى كثيرًا في ليالي رمضان مع جماعة من الأصدقاء كلهم يصومون ويصلون، وكان أكثر سمرنا فيها البحث في المسائل الدينية؛ إذ كانوا يسألون من تعجبهم أجوبته عن المشكلات التي تثيرها المعارف العصرية على الدين، فكانت هذه المباحث وقراءة المنار هما الباعثان للفقيد رحمه الله تعالى على المراجعة الخاصة بيننا في المسائل الدينية عند الحاجة، ومنها أنه دارت بينه وبين علماء الشرائع والقوانين الفرنسيس بباريس في صيف سنة 1904

محاورة في عشر مسائل سألوه عن رأيه فيها، منها بحث الاجتهاد في الفقه، ومعنى إقفال بابه عند العامة وعند أهل التحقيق، ومعنى القانون والفرق بينه وبين الشريعة، فاستمهلهم ريثما يكتب إلى بعض أولي الاختصاص في مصر، ويدلي إليهم بجوابهم عنها، وأرسلها إلى صاحب المنار فأجبته عنها وأرسلتها إليه فترجمها لهم، ثم أخبرني بأنها كانت كافية ومقنعة، وهي منشورة في المجلد السابع للمنار سنة 1323 تحت عنوان (الأسئلة الباريسية) والغرض من هذا أنه كان يهتم بالدفاع عن الإسلام وبإقامة حجته، فهذا بعض عهدي به في وسط عشرتنا شهدت به.

وأما آخر ما أشهد به كغيري فهو ما سبقني إلى التنويه به في قصيدته الأستاذ خليل بك مطران، وهو أنه عُني في آخر عمره ببناء هذا المسجد المحكم على أحدث قواعد الفنون لِيُذْكَر بعد موته إلى ما شاء الله من عمر الدنيا.

فإن قيل: إن في هذا ما فيه من حب الشهرة؛ فإنني أكاشف هذا الجمع بسر أفضى به إليّ قلما يعرفه أحد، وهو أنه قد فعل في هذا القبر - بباعث الشعور الديني الكامن في أعماق النفس؛ حتى أشربته في أخفى مكان من سويداء القلب - ما لعله لم يخطر في بال أحد من الغلاة في التبرك بآثار الأنبياء والصالحين، وأقول: إنه ليس بمشروع في هذا الشرع المبين.

ذلك أنه عندما كان في مكة المكرمة كلف المرحوم الشيخ عبد القادر الشيبي أمين مفتاح بيت الله الحرام أن يرسل إلى غار حراء من يكنسه ويجمع كناسته ويحفظها في وعاء ففعل، فأخذها وبذل له من الجعل أو الإكرام ما بذل، ثم جاء بهذه الكناسة ووضعها في القبر الذي أعده لدفنه تبركًا بها، للقدوم على الله في الدار الآخرة معفرًا بغبار الغار الذي كان يتحنث فيه ونزل عليه الوحي أول مرة وهو فيه رسوله محمد خاتم النبيين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم إلى يوم الدين.

آمين

الشيخ محمد الجسر[121]

الرزيئة القومية الوطنية

بالشيخ محمد الجسر

قبيل فجر يوم الأحد ثالث شهر شعبان (11 نوفمبر - تشرين الثاني) من هذا العام (1353 هـ - 1934م) رزئت الأمة العربية والوطن السوري اللبناني بوفاة رجل لا كالرجال، وفرد لا كالأفراد، بل علم لا تطاوله الأعلام: رزئنا بأخينا الشيخ محمد الجسر أبرع نابغة سياسي وطني، ابن أستاذنا ومربينا الشيخ حسين الجسر أنفع عالم ديني عصري، ابن الشيخ محمد الجسر أورع صالح صوفي، ثالث ثلاثة أنبتتهم لهذه الأمة رياض مدينتنا طرابلس الشام، فكان رزؤه مصابًا كبيرًا عامًّا لجميع أهل هذا الوطن على اختلاف أديانهم ومذاهبهم السياسية المتباينة التي لم تجمعها على غيره جامعة؛ وإنما كان إجماع طوائفهم على إكبار المصاب به فرعًا لإجماعها على الإعجاب بعلمه بزمنه، وأدبه في معاشرته، وعدله في حكمه، وبراعته في سياسته، مزايا لم تتفق في هذا الوطن لغيره، بل أقول: إن إجماع طوائف هذا الوطن على الاعتراف بها لرجل من أهلها معجزة من معجزات النبوغ العقلي، والتوفيق العملي.

فحق لطرابلس أن تفخر به على الأمصار، وحق لهذا البيت الإسلامي أن يباهي به البيوتات من جميع الأديان، وحق لهذا الوطن أن يفيض حزنًا ويذوب أسفًا على هذا النابغة الذي فقده في أشد أوقات الحاجة إليه، وقد كملت حُنكته، وتمت خبرته، وعمت الثقة به في بلاد تأبى عليها ذلك تربيتها الدينية وتقاليدها الطائفية، وتعاليمها المدرسية التي لا نظير لها في وطن من أوطان أمة من أمم الأرض.

وأغرب مدارك هذا الإعجاز في ثقة نصارى لبنان بالشيخ محمد الجسر العالم المسلم المعمم ابن الشيخ حسين الجسر الذي انتهت إليه رياسة علماء الإسلام، حفيد الشيخ محمد الجسر أشهر صلحاء

صوفية المسلمين بالولاية والكرامات، أن ينال هذه الثقة في عهد سيطرة الدولة الفرنسية على لبنان واعتزاز نصارى لبنان بها، وهي التي تعد شنئان الإسلام ومجاهدة أهله من أسس تقاليدها السياسية والصليبية الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل ولا تتحول.

كان الشيخ محمد الجسر أحد الأفراد الذين شذوا دون طائفتهم بإظهار الميل إلى الاحتلال الفرنسي فسخطت عليه وكان مسلمو بلده (طرابلس) أشدهم سخطًا لخيبة رجائهم فيه أن يكون أول حامل للواء الوطنية فيهم؛ لأنه أجدرهم بمعرفة خطر هذه السيطرة عليهم في دينهم ودنياهم، ولم يكن يختلج في خاطر أحد منهم أن يكون أقدر رجل فيهم، بل في بلادهم كلها على خدمة هذا الوطن الذي دهي بأقتل الدواهي القاصمة، والفواقر المفقرة، فيكون البدر الطالع في غاسق الظلم إذا وقب، والطبيب الآسي لشر سحرة السياسة النفاثات في العقد.

كان أول منصب ظهر فيه للطوائف كلها فضله منصب القضاء الأهلي برياسة محكمة الجنايات للجمهورية، فشهد له جميع المتقاضين وجميع العارفين بضعف القضاء في البلاد بأنه أعطى العدل والمساواة جميع حقوقها، حتى حكي عن بعض من كانوا أظهروا له العداء من إحدى الطوائف النصرانية أنهم وقعوا بين يديه في قضية يخفى مسلك الحق والعدل فيها، ويتسنى للقاضي الجائر أن يتصرف كيف شاء في الحكم لمن يميل له أو عليه من خصومها، وظنوا أنه آن له أن ينتقم منهم، ولم يلبثوا أن رأوا من عدله وإنصافه المالك عليه زمام أمره ما بدل خوفهم أمنًا، وبغضهم له حبًّا.

ليس كثيرًا على شيخ مسلم سليل بيت الفقه والتصوف، وقد تولى رياسة محكمة الجنايات واؤتمن على الدماء، أن يكون عدلاً في القضاء، فهذا فرض يوجبه عليه دينه عقيدة وعلمًا وتربية، فنص القرآن يوجب المساواة في العدل بين جميع الناس كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم، وقويهم وضعيفهم، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، وإنما بزغ نبوغ ابن الجسر كالشمس في توليه رياسة مجلس النواب اللبناني ست سنين، كان يديره فيها كما يدير خاتمه في خنصره، فلا يتعاصى شيء على إرادته، فأعجب بسياسته وكياسته الوطنيون والأجانب على سواء.

حتى إذا ما انتهت المدة القانونية لرئيس الجمهورية اللبنانية، وأريد انتخاب الرئيس الذي يخلفه علم موسيو بونسو مندوب فرنسة السامي ورجاله كغيرهم أن السواد الأعظم من جميع الطوائف منتخبون للشيخ محمد الجسر لا محالة، حتى نواب الموارنة الذين يعدون لبنان بتأييد فرنسة لهم وطنًا نصرانيًّا مورانيًّا كما صرح بذلك بطركهم فكبر على غبطته أن يكون الشيخ رئيس جمهوريته، ورأى أن المندوب السامي الفرنسي قد أظهر ارتياحه لانتخابه، ورضاه برياسته، فلجأت إلى حكومة

باريس العليا حتى أصدرت أمرها إلى مندوبها بوجوب منع هذه الكارثة، فماذا يفعل وقد تجلى له أنه عاجز عن منع انتخابه، وأن جلاء فرنسة عن لبنان وسورية أيسر خطبًا من جعل رئيس جمهورية لبنان شيخًا مسلمًا معممًا ؟ لم ير حيلة للتفصي من هذه المعضلة إلا إقناع الشيخ بترك ترشيح نفسه لها، فبذل المستطاع من دهائه وأمانيه له، فأبت قناة الشيخ أن تلين لغمزته، وحية دهائه أن تستجيب لرقيته، فلما أيقن أن الانتخاب مفض إلى جلوسه بعمامته البيضاء على كرسي رياسة الجمهورية لم يجد مناصًا من هذه النتيجة إلا إصدار أمره الدكتاتوري بإلغاء دستور لبنان من أساسه.

أكتب هذا مؤبنًا، لا مؤرخًا له مدونًا لسيرته، فإنني أرجئها إلى الجزء التالي وأقتصر هنا على بيان أكبر ما أحاط بإعجابي من مزايا نبوغه الذي انفرد به، فكان جديرًا بحزني وحزن وطنه وأمته عليه، وشعورهم بعظم الخطب بفقده بعد اكتمال حنكته واستعداده لما يرجى من الرجال العظام الأفذاذ، الذين لا يظفر تاريخ الأمم بأمثالهم إلا في بعض الأجيال، عسى أن يكون في هذا التنويه عبرة للمنافقين الذين يظنون أن العظمة في نيل المناصب والرواتب، ولو بخيانة الأمة والوطن والإخلاص في العبودية للأجانب، وأنى للمنافقين في صغار أنفسهم أن يعقلوا معنى العظمة الصحيحة، أو ما دونها من مراتب الفضيلة ؟لا شيء يعزينا عن فقيدنا العزيز إلا ما روي لنا من تحقق ما كنا نتمناه من كتابة مذاكرات حرة دَوَّنَ فيها ما علمه وخبره في أثناء معالجته للأمور العامة ومعاشرته للعاملين من الوطنيين والأجانب، فهذه المذاكرات كنز نفيس هي خير عوض تفيد الأمة أنفع ما كانت ترجو أن تتلقاه منه؛ ولكن الذي لا عوض عنه هو ما كانت ترجوه من عمله عندما تتاح الفرصة للعمل، بعد التمهيد له بالثقة وجمع الكلمة الذي لا ينهض بدونه وطن، فالمرجو من نجله الكبير وصنوه الكريم أن يعجلا بنشر كل ما يمكن نشره منها، ونسأل الله تعالى أن يحسن عزاءهما، ويطيل بقاءهما، وينفع الأمة بهما، وأن يديم ذكر هذا البيت فخرًا وذخرًا لهذا الوطن المسكين، ويفرغ عليهما وعليه الصبر في هذا المصاب، والله مع الصابرين.

((يتبع بمقال تالٍ))

ترجمة الشيخ محمد الجسر[122]
(هذه خلاصة تاريخية لترجمته مستمدة من آله، رحمه الله وأحسن عزاءهم عنه)

(1) تولى والده تربيته، فصُنِعَ على عينيه، وألبسه الزي العلمي الديني وهو في الثانية عشرة من عمره، وعلمه عقائد الدين وأحكامه بنفسه، وخَرَّجه في المدارس الرسمية التركية، وجعل له معلمًا خاصًّا يعلمه اللغة الإفرنسية لعدم العناية بتعليم الإفرنسية في مدارس الحكومة العثمانية، وهو المعلم عثمان أفندي الأرنؤوط الشهير بتعليم الإفرنسية في طرابلس.

(2) في العشرين من عمره عُيِّن مديرًا لمدرسة اللاذقية الإعدادية الرسمية، فمكث فيها زهاء سنة، ثم نُقِلَ على سبيل الترقية مديرًا للمدرسة الإعدادية الرسمية في طرابلس، وظل في هذا المنصب إلى سنة 1329 هجرية.

(3) في هذه السنة وقع الانقلاب الدستوري في الدولة العثمانية، وتولت جمعية الاتحاد والترقي زمام الأمر فيها، وكان والده العلامة معدودًا من رجال السلطان عبد الحميد فكانوا ينظرون إليه نظر الريبة، وإن لم يتدخل في سياستهم، وربما أظهر نجله الشيخ محمد السخط عليهم فاستقال من مديرية المدرسة، وأراد والده رحمه الله بأن يسلك سبيلاً حرًّا في العمل ويترك الوظائف فأطاعه، وأخذ يشتغل بالتجارة فبورك له في عمله، وجنى منه ربحًا غير قليل، وما كان يظن بمثل الشيخ في علو جاهه ومقامه العلمي أن يرضى لولده أن يكون تاجرًا صغيرًا؛ ولكن سعة عقله وعلمه بحال زمنه كانا فوق أفق أقرانه من كبار العلماء وعامة الوجهاء.

(4) وكان والده رحمه الله قد ترك إليه من قبل ذلك بسنتين تحرير جريدة طرابلس، فكان الشيخ محمد يشتغل بالتجارة وبتحرير هذه الجريدة في آن واحد، وكان يكفيه أن يستغني بالتحرير

عن التجارة، وكان غيره يعجز عن الجمع بينهما.

(5) وفي سنة 1912 ميلادية رشح نفسه للنيابة عن لواء طرابلس في مجلس المبعوثان، وكانت حكومة الاتحاديين قد رشحت لها رجلاً تركيًّا مقيمًا في طرابلس؛ ولكن الطرابلسيين اجتمعوا إلبًا واحدًا على انتخاب الشيخ محمد، فرأت الحكومة أنها مضطرة إلى موافقتهم فتنازلت عن مرشحها الخاص له، ففاز بالنيابة فوزًا شعبيًّا باهرًا وكان يومه مشهودًا، ولا تزال مهرجاناته حديث الناس حتى اليوم، وقد استفاد من ممارسته لأعمال المجلس في سنة واحدة علمًا واختبارًا واعتبارًا في السياسة والنظام، ما كان ليستفيده في خارجه إلا في عدة أعوام.

(6) بعد أن أغلق الاتحاديون المجلس النيابي سنة 1913 عاد إلى طرابلس ورشح نفسه لانتخابات المجالس العمومية للولايات ففاز فيها، وذهب لبيروت فنال حظوة كبيرة عند الوالي باكير سامي بك الشهير، ثم عند الوالي عزمي بك لما رأياه فيه من الفضل والعلم والذكاء العجيب والدهاء الغريب، وما لبث أن عرف الناس في بيروت وجميع أنحاء الولاية أن الشيخ محمد الجسر هو الرجل الذي يلي الوالي في النفوذ وإدارة دفة الحكومة طول مدة الحرب، فأتاح له هذا المقام الرفيع أن يسدي الإحسان إلى كثير من الناس من طرق ووسائل شتى، فأجمعت القلوب على حبه ولا سيما النصارى الذين كانوا يرون من آثار شفقته ما لم يكونوا يحتسبون.

(7) لما وضعت الحرب أوزارها واحتل الحلفاء البلاد، وجدوا الشيخ محمدًا في رئاسة المجلس العمومي التي شغلها طول مدة الحرب فأقروه فيها، ثم اختلف مع الحاكم الفرنسي فاستقال حالاً، وكان يعرف سبيل الحياة الحرة الذي يغنيه عن الحكومة كما علمه أبوه، فعاد فورًا إلى الاشتغال بالتجارة في بيروت.

(8) لكن الإفرنسيين لم يتركوه فما لبث أن بُلِّغ قرارًا من الحاكم الإفرنسي العام بتعيينه لرئاسة محكمة الجنايات العليا في بيروت، فوجم لذلك لأنه لم يسبق له اشتغال بأمور القضاء لا قاضيًا ولا محاميًا، ولكنه قبل المنصب الرفيع وأخذ يجهد نفسه بدرس القوانين الجنائية حتى برع فيها، وتمكن بفرط ذكائه من الاضطلاع بأعباء هذا المنصب على أكمل وجه، فأدهش رجال القضاء وجماعة المحاميين.

(9) مكث في هذه الوظيفة من سنة 919 إلى سنة 921، وفي هذه السنة عهد إليه بمنصب رئيس النيابة العمومية في محكمة التميز، فمكث فيها شهرين تقريبًا، ثم عُهِدَ إليه بمنصب (وزارة

الداخلية) في الحكومة اللبنانية، وبعد سنتين عُهِدَ إليه (بوزارة المعارف) وظل فيها إلى سنة 1926.

(10) في هذه السنة أُعلنت الجمهورية اللبنانية، فعُيِّن الشيخ محمد عضوًا في مجلس الشيوخ اللبناني، وانْتُخِب رئيسًا له، ولما أدغم مجلس الشيوخ في مجلس النواب انْتُخِب رئيسًا له، وظل في هذه الرئاسة يُنْتَخَب في كل عام بلا انقطاع ولا مزاحمة من أحد إلى تاريخ 9 مايو سنة 931 إذ عطل الدستور، وحل المندوب السامي للمجلس النيابي.

وقد كان سبب حل المجلس على ما هو مشهور موقف الشيخ محمد نفسه من قضية رئاسة الجمهورية؛ فإنه رحمه الله رشح نفسه لرئاسة الجمهورية وأيده في ترشيحه أكثر النواب؛ ولكن بطريرك الموارنة ملأ سماء فرنسا صراخًا وعويلاً لكي لا يكون على رأس لبنان حاكم مسلم، وصور ذلك لوزارة الخارجية الفرنسية بصورة خرق للنواميس والتقاليد المعروفة عنها مع النصارى عامة والمارونية خاصة، ولم ينفع معه إقناع المفوض السامي المسيو بونسو أنه لم يكن يرى بأسًا بنجاح المسلم بنيل هذا المنصب، فظل البطريرك مصرًّا على رأيه، يطالب فرنسة بتعصب صليبي صريح أن توسد رئاسة الجمهورية اللبنانية لشخص مسيحي؛ لأنه مسيحي حتى اضطرت وزارة الخارجية إلى تنفيذ إرادته، وأمرت المفوض السامي ببذل كل نفوذه لتحقيقه، فحاول حمل الشيخ على الانسحاب، فأبى وأصر على ترشيح نفسه حتى النهاية، وبعد مراجعات كثيرة أمرت وزارة الخارجية مفوضها السامي بحل المجلس، وتعليق الدستور عند عدم النجاح في انتخاب المرشح المسيحي ففعل.

(11) عزم الشيخ محمد عقب هذه التجربة عزمًا قاطعًا على ترك الحياة السياسية؛ لأنه إذا اشتغل بشيء وجه له كل قواه، فانقطع للاشتغال بالعلم والمطالعة والتأليف، فوضع مصنفات أهمها سيرة حياة والده مفصلة كان من مادتها ما كتبته له بطلبه، ثم وعدني بعرضها علي قبل نشرها، ودوَّن مذكراته السياسية وما كان إعراضه عن مناصب الحكومة بصارف للوجوه عنه، بل ظل محترمًا مبجلاً محبوبًا من الجميع حتى الإفرنسيين أنفسهم، وبقي كذلك لا يفكر بالحياة السياسية، ولا تبدر منه أقل بادرة تدل على التقرب من رجال السياسة وطنيين وأجانب إلى أن وافاه الأجل المحتوم في التاريخ الذي بيناه في الجزء الماضي، فكانت نهايته في كل أمر خيرًا من بدايته، وإنما الأعمال بالخواتيم، غفر الله لنا وله، وأدخلنا برحمته في عباده الصالحين.

العلامة المصلح [123]
الشيخ محمد أمين الشنقيطي[124]

في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور العلماء ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوسًا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا) أو كما قال[125] وعن ابن مسعود: (كل يوم ترذلون، لا أقول: عام أخصب من عام، ولا أمير خير من أمير ولكن بذهاب علمائهم فيضعف الإسلام) أو كما قال[126].

أنعي إلى الأمة الإسلامية أحد أركان العلم والإسلام وأنا في غاية الحزن والأسى ألا وهو العلامة المتبحر في العلوم المجاهد العالم صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد بن أمين الشنقيطي المغربي القاطن ببلد الزبير من أعمال البصرة.

مولده ومنشؤه في قبيلته (إذَ بَلْحسن) أي بني الحسن قبيلة عظيمة من قبائل العرب من أهل شنقيط معرفون بالعلم والشجاعة، وقد نبغ منهم خلق من العلماء والشعراء، رحل الفقيد إلى الشرق وهو شاب بعدما درس العلوم التي تدرس ببلاده ولما وصل إلى مكة وجد بها العلامة الكبير الحافظ الشيخ شعيب الدكالي بارك الله في حياته فألقى بها عصا التسيار، ولازم العلامة المذكور سنين، وكان أستاذه هذا معجبًا به حتى إنه كان يرد إليه المسائل الأدبية فيتكلم فيها أثناء الدرس، ثم زار الشيخ شعيبًا أحد أعيان أهل البصرة ممن كانوا يلقبون بكلمة (الباشا) التركية في عهد الترك، فسأل هذا الوجيه الحافظ الدكالي أن يبعث معه من يرتضيه من العلماء ليؤسس له مدرسة ومسجدًا ويقف عليهما ما يكفي للنفقة عليهما من المال، فندب لهذا الأمر صاحب الترجمة فامتثل أمره وتوجه إلى الزبير، وأقام بها ينشر العلم صابرًا على أذى شياطين المتفقهة ممن يشرقون بنشر العلم النافع المحمدي الصحيح؛ لأنه يبطل نواميسهم ومكرهم الذي نصبوه حبالة لصيد الحطام، وقد أجمعوا أمرهم على إخراجه وشكوه مرارًا، وهو صابر ثابت على خطته في نشر العلم والإعراض عن

الجاهلين، وكان رحمه الله آية في الحلم، بعيني رأيت أكبر أعدائه الذي كان سببًا لكل ما أصابه من الأذى التجأ إليه في شدة أصابته فقابله الشيخ الفقيد بما جبل عليه من البشاشة وأخرج أوراقًا مالية فناوله إياها، ثم أمر أحد التجار أن يعطيه عدة أكياس من الرز على حسابه، هذا بعد ما فشل ذلك الشيخ المشاغب في جميع محاولاته.

وواقعات حلمه مشهورة، وكان سراجًا منيرًا في الخليج الفارسي وبلاد العراق ونجد.

وفي زمن الحرب الطرابلسية شد الرحل من العراق إلى طرابلس للجهاد، وسافر إلى بلاد نجد ليستوطنها فرارًا من الكون تحت تأثير الأوربيين فلم يستقم له ما أراده، فرجع بعد ما أقام بعُنَيْزَة أربع سنين قضاها كلها في نشر العلم والعمل، وترك أهل عنيزة كلهم ألسنًا ناطقة بالثناء عليه، ثم توجه إلى الكويت وما مضت عليه هناك إلا ليلة واحدة حتى نُفِيَ لاتهامه بعداوة الإنكليز، فتوجه إلى الزبير ثانية، وأسس (مدرسة النجاة) هناك وكانت الأمية والجهل مخيمين على بلدة الزبير، فحاربتهما هذه المدرسة بأن ضمت بين جدرانها مئات من أولاد إسماعيل و قحطان، فهذبت من أخلاقهم، وتخرج فيها خلق من الكتاب والأدباء والعلماء، ولا تزال قائمة إلى الآن.

ولما ازدهرت هذه المدرسة التهبت قلوب المتفقهة حسدًا، وكبر عليهم مقام الشيخ وتذكيره بآيات الله، فأجمعوا أمرهم ليقضوا عليه ولا ينظروه، فرموه بأنه يعلم تعليمًا وهابيًّا يسمِّم أفكار شبان العراق، زخرفوا هذه الوشاية إلى ولاة الأمر ليقطعوا الإعانة التي كانت تتلقاها المدرسة من وزارة الأوقاف العراقية، ومن وزارة المعارف ومجموعهما اثنا عشر ألف روبية، فكادت المكيدة تنجح ولكن الشيخ بادر بالتوجه إلى بغداد وعرض عليهم منهاج الدروس ولم يكن فيه شيء مما يسميه الجهلة وهابية إلا العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية (ولا يخفى أن الجهلة يعدون ابن تيمية وهابيًّا) فحذفها الشيخ من المناهج وجعل محلها عقيدة الإمام ابن أبي زيد القيرواني المالكي فبطل كيدهم واستمرت الإعانة جارية.

ثم بعد سنة جدَّد أولئك الشياطين الكرة فنجحوا وقطعت إعانة الأوقاف؛ ولأمر آخر نذكره؛ لأن فيه عبرة للمسلمين قطعت إعانة المعارف أيضًا، وذلك أن الشيخ كان عضوًا في إدارة المعارف بالبصرة، وكان قد بقي في المدارس الابتدائية بالعراق درس ديني ودرسان في الأسبوع وهذه الدروس الدينية كلها لا تزيد على بضع كراريس بقطع صغير في العقائد إجمالاً والطهارة والصلاة والصوم والحج، وكانوا يُعَيِّنُونَ لتدريس هذه الدروس عالمًا أو مُلاًّ كما يقولون من المتدينين أو المعممين كما يسميهم المتنورون !! ! فاجتمع هؤلاء المتنورون بنورة أعداء العروبة والإسلام

وقرروا تطهير المدارس من هؤلاء المعممين وأجمعوا على أن يعينوا بدلهم شبانًا من المتنورين، فعقدوا اجتماعًا دَعَوْا فيه الأستاذ الفقيد للحضور وعرضوا عليه هذا المكر الذي بَيَّتُوهُ، وأضافوا إليه من سب المعممين والوقيعة بهم ما شاءت لهم النورة، فامتنع الشيخ من الموافقة امتناعًا كليًّا، وكان رحمه الله على ما فيه من الحلم النادر إذا وصل الأمر إلى هدم الأصول يتصلب فلا تلين قناته لغامز، فجعل بعض المتنورين يجادله فتكلم الشيخ وقال: أنا أعرف الشبان وأعرف المعممين فَهَبُوا أنهم بلغوا في البلادة والجمود كل مبلغ ولكنهم يعملون بما يعلمون، يعلمون التوحيد وصفات الله وهم بها مؤمنون، وأما هؤلاء الشبان فإنا نراهم متى ذكروا العقائد بادروا إلى السخرية التي لقنهم أعداء العرب والإسلام.

ثم يعلمون أركان الإسلام وهم يؤدونها، وأما هؤلاء الشبان فلا يتوضئون ولا يصلون ولا يصومون ولا يحجون، فهل تظنون أن الإسلام لعبة يصح بمجرد الدعوى الفارغة ! وبعد هذا انصرف من مجلسهم فتسببوا في قطع الألفين اللذين كانت تعطيهما وزارة المعارف وبقيت المدرسة على تبرعات المحسنين وقليل ما هم، فنقصت حتى صارت على الثلث، وكم حاول قوم من الأعيان أن يقنعوا الشيخ بالخضوع إلى سلوك منهاج المعارف والسير تحت مراقبة مفتشها وترد النفقات التي قطعت فأبى وجمع من يظن بهم الإخلاص من المدرسين وخطب فيهم وذكرهم بما يجب عليهم من خدمة الأمة فقنعوا كلهم أن يأخذوا ربع أو ثلث ما كانوا يأخذون من الرواتب ولا ينهزمون.

وكان رحمه الله قدوتهم في ذلك فإنه كان يأخذ في زمان ميسرة المدرسة 150 روبية فأنزلها إلى 50 وبقيت المدرسة عامرة إلى الآن، ولكنها لا تستطيع أن تقبل من الطلبة إلا نحو نصف العدد الذي كانت تحويه من قبل.

ومناقب هذا الإمام كثيرة يضيق هذا المقام عن عشر معشارها.

توفي إلى رحمة الله ضحى يوم الجمعة 14 جمادى الآخرة سنة 1351 على رأس ستين سنة كلها جهاد وصلاح وخير للمسلمين، ولم يتخلف عن جنازته أحد من أهل الفضل من البلدين البصرة والزبير، ولو كانت البلاد محتوية على وسائل النقل لحضر جنازته الجم الغفير من أهل نجد وأهل الخليج الفارسي وأهل العراق، فالله يلهم ذويه الصبر الجميل ويخلفه على المسلمين وإن كان كما قال الشاعر:

حلف الزمان ليأتين بمثله *** حنثت يمينك يا زمان فكَفِّرِ

ولكن الله يفعل ما يشاء.

(المنار)

لله در أخينا الأستاذ الهلالي أتى بخير خلاصة لترجمة هذا الإمام المصلح بأدق عبارة وأجمعها للفوائد، وأنزهها في التعبير، ولا سيما موقف الرجل بين فريقي الشيوخ الجامدين، والشبان المتفرنجين، اللذين يكاد يضيع الإسلام بينهما، فالشيوخ على محافظتهم على التقاليد الخرافية المنفرة عن الإسلام ومحاربتهم للإصلاح الديني والدنيوي لا يزالون يقومون بشعائر الإسلام وأركانه علمًا وعملاً، وبهذا فضلهم الشيخ رحمه الله على الشبان الذين ليس لهم من الإسلام إلا الجنسية السياسية، وأسماء الأعلام ولكنهم يعنون بالإصلاح الإداري والسياسي، ونراهم ينتصرون على الشيوخ في الحكومات التي ترى نفسها مضطرة إلى نظام المدنِيَّة العصري، وبهذا حملوا حكومة العراق على إلغاء الإعانتين اللتين كانت تساعد بهما (مدرسة النجاة) من وزارتي المعارف والأوقاف.
وهي خير من جميع مدارس العراق، فعسى أن تعيد النظر إلى ذلك وزارة العراق الجديدة التي هي أرجى وزارة ألفت في دولتها الجديدة وتعيد إليها الإعانتين، فلن ينفعها الإصلاح المدني بدون الإصلاح الديني، والله الموفق.

الخوجه كمال الدين الهندي[127]

توفي في سلخ شعبان من هذه السنة (1351) أيضًا أكبر الدعاة إلى الإسلام في هذا العصر الخوجه كمال الدين الهندي إمام جماعة المسلمين في مسجد ووكنج في لندن ومحرر مجلة الإسلام التي تصدر باللغة الإنكليزية هنالك، وقد أسلم بدعوته كثير من رجال الإنكليز ونسائهم أجلهم قدرًا، وأرفعهم قدرًا، لورد هدلي الذي سمي بعد اهتدائه (الفاروق) وقد حج مع أستاذه كمال الدين، وخدم الإسلام خدمة جليلة، وللخوجه كمال الدين رحمه الله تعالى مصنفات في الإسلام مفيدة كانت خير مروج لدعوته إليه، وقد اشتهر أنه كان من أتباع مسيح الهند الدجال القادياني المعتدلين، ولكن كذب ذلك بعض العارفين بأحواله، وأخبرني من يقرأ مجلته منذ سنين أنه لم ير فيها ما يدل على ذلك.
وهاك خلاصة ترجمته.

(ملخص ترجمة الفقيد رحمه الله)

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ صاحب المنار:نبعث إليكم مع هذا ترجمة حياة المرحوم الخوجا كمال الدين لتتفضلوا بنشرها في مجلتكم القيمة، ولكم الشكر.

خوجا عبد الغني
سكرتير الجمعية الإسلامية لاهور

أسلم المرحوم الخوجا كمال الدين الروح يوم الأربعاء في الثامن والعشرين من شهر ديسمبر سنة 1932 م.

ولد الفقيد عام 1870 لوالده الخوجا عزيز الدين بمدنية لاهور (البنجاب) فهو حفيد الشاعر المشهور الخوجا عبد الرشيد الذي كان قاضي لاهور أيام حكومة السيخ، وقد اشتهر بيته بالعلم والفضل.
بدأ الفقيد دراسته في مدرسة الحكومة، ثم انتقل إلى كلية فورمان بلاهور فنال منها شهادة البكالوريا في الآداب والعلم، ونال الميدالية في الاقتصاد من جامعة البنجاب، وعُيِّنَ أستاذًا في كلية لاهور الإسلامية، ثم ما لبث بأن صار مديرًا لها، وفي عام 1898 نال شهادة الحقوق من درجة البكالوريا، ومارس المحاماة في بشاور ست سنوات، وعاد بعدها في 1903 إلى لاهور حيث أصبح في زمن يسير من كبار المحامين لدى محكمة البنجاب الرئيسية وفي تلك الأثناء طاف بلدان الهند يلقي فيها المحاضرات عن الإسلام وقد اختارته جامعة عليكرة الإسلامية عضوًا في هيئة كبار علمائها وأمينًا في لجنة أمنائها، ثم بارح الهند إلى إنكلترة عام 1912 للدعوة إلى الإسلام وحده مستقلاً بنفسه، تاركًا عن طيبة خاطر ما حازه في بلاده من مكانة عالية وشهرة واسعة في المحاماة، كانت تدر عليه أرباحًا طائلة، فلم يتوقع له أحد من أهل وطنه نجاحًا فيما وطَّد العزم عليه، إلا أن الحوادث قد أثبتت بعدئذ أن رحلته هذه كانت فتحًا جديدًا للإسلام في الغرب.
أقام الفقيد في ووكنج بإنكلترة وأنشأ فيها بنفقته الخاصة (المجلة الإسلامية) فاتسعت دائرة انتشارها وذاع صيتها مع الأيام ثم أنشأ في لاهور عام 1914 مجلة مماثلة لها باللغة الأوردية باسم (رسالة إشاعتي إسلام) وكان يحرر المجلتين بما عهد فيه من مقدرة وكفاءة نادرة مدة عشرين عامًا كانت وفاته في نهايتها، وفي عام 1913 تولى الإمامة بمسجد (شاه جهان) بووكنج، وبقيت له هذه الإمامة حتى توفي.
وقد كتب نحو مائة مؤلف في الإسلام والأديان الأخرى كان لها أثر محمود في المعاهد والبيئات الدينية.
لم يكن يقول بشيء من الفوارق بين الفرق الإسلامية بل كانت كلها في نظره سواء، وكان جُلُّ مراده وأهم مقاصده أن يعود الإسلام إلى ما كان عليه في عصر النبوة من البساطة والنقاء، ولعل هذا القصد كان سر نجاحه وإثمار جهاده، فهدى الله تعالى به وحده إلى الإسلام ما ينيف على ألف نسمة من الإنكليز من رجال ونساء، منهم لورد هدلي الشهير.
وقد طاف الفقيد أوربة وأفريقية والشرق الأدنى والأقصى داعيًا إلى الإسلام ناشرًا لواء هدايته، وحج البيت الحرام مرتين أولاهما في عام 1915 والثانية مع لورد هدلي عام1923.
وكانت في حياته عنوان البساطة والتضحية في سبيل الإسلام وإعلاء شأنه ورفع مناره، وقد انهمك

في أواخر حياته بترجمة القرآن وتفسيره بالإنكليزية مع ما كان عليه من ضعف فخشي عليه الأطباء مغبة الانهماك وتحميل نفسه فوق ما تستطيعه، ونصحوا له ترك العلم ريثما يسترد قواه، فلم يأبه لنصحهم وتابع ما شرع فيه، وكان له في الهند أملاك تقدر بنحو لك ونصف (أي مائة وخمسين ألف روبية).

وفي عام 1927 عندما شعر بثقل المرض عليه وقف جميع أملاكه لبعثة وكنج الإسلامية، وأما حقوق مؤلفاته والمجلة الإسلامية فقد جعل الحق فيها للجمعية الإسلامية في لاهور.

كان الخوجا كمال الدين ذا شخصية فذة، وكان خطيبًا مُفَوَّهًا يقف في الجماهير ساعات بطلعته المهيبة فلا يشعرون خلالها بملل ولا سآمة.

وكانت صفاته الممتازة تحببه إلى جميع عارفيه ورواد مجلسه، ولا نبالغ إذا قلنا: إنه قد انتقل إلى الدار الآخرة تاركًا كل من اتصلوا به أصدقاء ليس بينهم عدو واحد، وقد خدم الإسلام أجلّ خدمة، ولم يكن له نظير في وقتنا هذا.

وسيكون من الصعب بل من المستحيل ملء الفراغ الكبير الذي أحدثه فقده، تغمده الله بالرحمة والرضوان ا.هـ.

مصاب الهند والعالم الإسلامي
بالشيخ شبلي النعماني[128]

نعى إلينا بريد الهند أشهر علمائها، وأبعدهم شهرة وصيتًا صديقنا الشيخ شبلي النعماني الملقب بشمس العلماء، صاحب المصنفات النافعة، واليد البيضاء في الإصلاح، ختم الله تعالى حياته السعيدة في خاتمة العام الماضي (28 ذي الحجة) وله من العمر 58 سنة، على ما يؤخذ من ترجمته في بعض الجرائد، فإن صح هذا فقد مات في مثل سن الأستاذ الإمام التي مات فيها، إلا أنه كان لنحافة بدنه وشيبته يظن أنه من أبناء السبعين، ولم يكن يظهر على الأستاذ الإمام مثل هذا الكبر وإن عاجله الشيب في سن الشباب، ولعل رائيه كان يظن أنه لم يتجاوز الخمسين، على أن كلاًّ من الشيخين اللذين تساويا في العمر مات وهو شاب في علو الهمة، وقوة العزيمة والنشاط في السعي إلى الإصلاح.

كان الشيخ شبلي عالمًا مستقلاً لا عالمًا رسميًّا مقلدًا، وكان كأكثر العلماء المستقلين، والحكماء المصلحين، أستاذ نفسه، وتلميذ همته، تلقى قليلاً عن الأساتذة؛ ولكنه بجده واجتهاده صار أشهر نوابغ علماء الهند في هذا العصر.

نعم إن فيهم من يُعَدُّون أوسع منه علمًا واطلاعًا في علوم الحديث والفقه والأصول؛ ولكن قلما يوجد من يماثله أو يقاربه في القدرة على نفع الناس بتعليم هذه العلوم أو التأليف فيها، ولا نعرف له ثَم ضريبًا في إتقان اللغة العربية، وطول الباع، وحسن الذوق في فهم منثورها ومنظومها، والقدرة على الكتابة في الموضوعات المختلفة فيها، فأكثر علماء الهند وغيرها من الأعاجم المتأخرين لا يقدرون على الكتابة العربية الفصيحة إلا قليلاً، وإنما قصارى ما يأتي منهم أن يكتبوا شرحًا أو حاشية لبعض الكتب المشهورة، أو يؤلفوا رسالة أو كتابًا جديدًا في بعض العلوم التي يكثرون مدارستها كالفقه والأصول والمنطق والحديث، بحيث يكون جُل ما يكتبونه مقولاً بنصه من الكتب المؤلفة في ذلك، ومن تجاوز ذلك منهم إلى منظوم أو منثور كثر غلطه وتكلفه وجاء بالغَثّ الذي لا يكاد يُفْهَم، وأما

الشيخ شبلي فقد كان من نوادر المجيدين منهم: كان قادرًا على الكتابة العربية السليمة من كلفة العجمة في العلوم والفنون والأدب والتاريخ، كما يُعْلَم من نقده تاريخ التمدن الإسلامي وغيره.
كان رحمه الله تعالى أمة وسطًا بين أولي التفريط الجامدين على التقاليد القديمة، وبين أهل الإفراط من المفتونين بالتقاليد الحديثة، إذ كان صاحب مشاركة صالحة في العلوم الإسلامية تمكنه من التدريس والتأليف فيها بطريقة استقلالية إذا شاء، وصاحب مشاركة في العلوم الكونية من رياضية وطبيعية واجتماعية عَرَفَ بها حال هذا العصر، وما يحتاج إليه المسلمون فيه، وقد أتقن علم التاريخ إتقانًا لعله لا يوجد في العالم الإسلامي كله من يساويه فيه الآن، وقد دخل في أعمال الحكومة ثم تركها، واشتغل بالتعليم في مدرسة العلوم الكلية في عليكره على عهد مؤسسها السيد أحمد خان الشهير، وكان من أصدقائه، واشتغل بأمر الجمعيات العلمية، وساح في الممالك والأقطار، فكان بعلومه وأعماله، وسعة تجاربه واختباره، وبما أوتيه قبل ذلك من ذكاء الذهن، وعلو الهمة، ومضاء العزيمة، جديرًا بأن يكون من زعماء الإصلاح، وأن يقوم في وجهه من الخصوم من ينبزه بلقب الإفساد، ويرميه بالكفر والإلحاد، كما هي سنة الله تعالى في العباد، وسيعرف أهل وطنه من قيمته بعد وفاته، ما لم يعرفوه له أو يعترفوا به في حال حياته، وسنذكر في الجزء الثاني ما وصل إلينا من ترجمته، وما يعن لنا من البحث فيها، والاعتبار بها، رحمه الله تعالى وأحسن عزاء البلاد الهندية والأمة الإسلامية عنه.

ترجمة الشيخ شبلي النعماني[129]

بقلم الشيخ حبيب الرحمن خان الشرواني

مترجمة من جريدة (عليكرة إنستيتيوت غازت) بقلم عبد الرزاق من تلاميذ دار الدعوة والإرشاد.

انتهت السنة الثانية والثلاثون الهجرية على حادثة فجائية ستُذْكَر في تاريخنا إلى زمن بعيد: أذيع خبر وفاة الشيخ شمس العلماء شبلي النعماني في صبيحة 28 ذي الحجة، أي في الوقت الذي تنير فيه الشمس العالم، ولكن وآسفاه غربت فيه شمس العلم، وأظلم العالم العلمي.

(ثم بين الكاتب مجد المسلمين القدماء، وكثرة وجود العلماء والنابغين فيهم الذين كانوا يخلفون السلف، وانحطاط المسلمين الآن، وفقدان الرجال الذين يحلون محل موتاهم، قال:إن في سيرة الشيخ عبرًا ودروسًا للطبقتين: طبقة النابتة الحديثة، وطبقة العلماء، فلو كُتب تاريخه لكان نافعًا للمسلمين، وتوخيًا للفائدة نلمح إلى تاريخه فنقول:الشيخ شبلي النعماني من بلدة أعظم كدة الشهيرة، وهو من أسرة كبيرة، وابن رجل عظيم، لا أعلم سنة ولادته؛ ولكني قرأت ما كُتب في الجرائد من أنه ولد سنة 1857 أي سنة الثورة، وكان من أسباب تقدمه العلمي ذهنه الثاقب، وطبعه السليم، وحرص والده على تثقيفه وتربيته، ووجود أستاذ كامل له كمحمد الفاروق، الذي كان ماهرًا في العلوم العربية والآداب الهندية، أخذ الشيخ شبلي علم الحديث عن العلامة أحمد علي الشهير، وبعد فراغه من التحصيل دخل خدمة الحكومة، ولكنه لم يلبث أن تركها من تلقاء نفسه، ثم قُرر معلمًا للغة العربية في كلية علي كرة، فاتخذ له بيتًا بجوار السيد أحمد خان رئيس الكلية، وكان السيد يبحث في العلوم المختلفة، فاقتبس منه ومن المعلم آرنلد الأستاذ في الكلية معلومات في الفلسفة والعلوم الحديثة، وهو الذي علم الأستاذ المذكور عليه كثيرًا من العلوم الإسلامية واللغة العربية، لهذا كان في تأليف كتاب (الدعوة الإسلامية preachig Islam of) للأستاذ آرنلد يد كبيرة للشيخ.

وخرج من الكلية سنة 1898 بعد أن توفي السيد أحمد، وذهب إلى حيدرآباد، وهنالك كانت قد أسست

الجمعية العلمية المسماة (السلسلة الآصفية) فتوظف فيها براتب 200 روبية في الشهر (والآن قد زيد فيها مائة فصارت 300 روبية) وألف بضعة كتب باسمها، ثم رتب مشروع كلية حيدرآباد.

ولما رجع من حيدرآباد طلبه محسن الملك رئيس الكلية لها ولكنه لم يقبل، ورجح ندوة العلماء عليها، وأقام في مدينة لكهنؤ، فكان فيها عضوًا كبيرًا عاملاً، وفهم مقاصدها حق الفهم، وأراد أن يثمرها فنظم شؤونها، وأصدر مجلة كبيرة باسمها كانت من أشهر المجلات الهندية وأرقاها، وهي لا تزال فخرًا في اللغة الهندية؛ ولكنه لما انتخب رئيسًا للجمعية بعد اعتزال رئيسها الشيخ محمد علي لم يقدر على استخدام الأعضاء كلهم كما استخدمهم سلفه؛ لأنه اشتهر بحرية الرأي والاجتهاد في كل شيء، فخالفه العلماء وظنوا به الظنون، حتى قال بعضهم: إنه دهري ويريد إفساد الجمعية، فلم ينجح في عمله هذا كما ينبغي؛ ولكنه استطاع تنفيذ كثير من مقاصدها.

وساح في البلاد الإسلامية في زمن إقامته في الكلية للاستعانة على تأليف تاريخ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بمطالعة الكتب التي لا توجد في الهند، فكان الكتاب من أحسن الكتب التاريخية على طريقة حديثة، وسيكون فخرًا له إلى الأبد، وبعد رجوعه من السفر ذهب إلى رستميد، فمرض هناك مرضًا شديدًا ذهب بصحته الجيدة، فلم تعد إلى الموت.

ومن الحوادث المؤلمات في حياته إصابة رجله بالرصاص؛ وسبب ذلك أنه كان جالسًا في حرمه والبندقية في يد زوجة ابنه، فسقطت على الأرض فأصابت ساقه.

وآخر حياته مملوءة بمخالفة العلماء له في الندوة؛ ولكنه مع هذا كله ما زال مشغولاً بتأليف تاريخ النبي - صلى الله عليه وسلم - وأرسل إليّ خطابًا قبل وفاته بقليل وصف فيه تأثير موت أخيه في نفسه، ثم قال: أريد تأسيس دار للمصنفين، ودار لتكميل العلوم أدرس فيها بنفسي التفسير والحديث ويدرس فيها غيري من العلماء الآخرون لعلي أنجح في هذا بعد العجز عن العمل في الندوة التي أضعت وقتي فيها، ولكن جاءت المنية قبل تحقق رجائه، جزاه الله خير الجزاء لأعماله النافعة للمسلمين.

***

ترجمة الشيخ شبلي النعماني

بقلم عبد الرزاق أحد طلبة دار الدعوة والإرشاد

كان الشيخ شبلي النعماني من أكبر علماء الهند قدرًا، وأوسعهم علمًا، وأشدهم غيرة على الدين والأمة، خدم المسلمين زمنًا طويلاً، بدون تعب ولا نصب ولا مبالاة بحوادث الدهر، ومن مزاياه الكثيرة أنه كان نابغًا في علوم عديدة، مجتهدًا في الدين والعلوم العقلية، ماهرًا في تاريخ الشرق والغرب، أديبًا بارعًا في اللغة العربية والفارسية، ينشد الشعر بالفارسية مثل أعظم شعراء العجم، وهو يعد من أئمة اللغة الهندية، وأفصح كتابها، له كتب كثيرة جدًّا في الفلسفة والتاريخ وآداب اللغتين الفارسية والهندية، وفي علوم شتى، وآخر كتاب كان يعنى بتأليفه هو (سيرة النبي صلى الله عليه وسلم)، ولم يكد يتمم جزءًا منه حتى عاجلته منيته، وهو ابن خمس وستين سنة تقريبًا، هذا الكتاب ليس مثل سائر الكتب التاريخية، بل أراد رحمه الله أن يكتب باستقصاء لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من آثار النبي، وأقوال المتخرسين (؟) إلا أحصاها، وبحث فيها بحثًا فلسفيًّا ليس من ورائه بحث، وكان من اهتمامه بالكتاب المذكور أنه قبل الاشتغال فيه أعلن في الجرائد الهندية أنه يحتاج إلى خمسين ألف روبية (3325 جنيهًا) ليسافر إلى الممالك الإسلامية والإفرنجية، ويطالع في مكاتبها الكتب المؤلفة في سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم -، وتساءل عمن يساعده بذلك ؟ فأجابت طلبه (أميرة بهوبال) التي اشتهرت بالأعمال الخيرية والعلمية، غير أنها لم تأذنه بالسفر لكبر سنه، وما أصابه من المرض، بل وعدت بأن تطلب له جميع الكتب المحتاج إليها، وتعطي 200 روبية شهريًّا لمترجمي الكتب الإفرنجية منها (لأن الشيخ لم يكن عالمًا بلغات العرب) فاشتغل الشيخ بالكتاب ثلاث سنوات، وكمل منه جزء واحد كما ذكر آنفًا.

وكان ينتهز الفرص لينفع المسلمين، ومن مآثره أنه نجح في مسألة الوقف على الأولاد عند الحكومة، فأجازته بعد أن كانت أبطلته.

ربما يظن ظان أن هذا الشيخ الجليل كان من متخرجي المدارس العالية، ومن أصحاب الشهادات العليا، وليس الأمر كذلك؛ فإنه لم يتعلم في مدرسة ما قط، بل كان يتلقن بعض العلوم المتروكة القديمة في بيوت بعض العلماء، ولم يكن يعلم شيئًا من أحوال العالم المدني، ولكن علامات الذكاء كانت تنطق على سِيمَاه بعظيم مستقبله.

ولما كمَّل دروسه غير المنظمة، انتظم في سلك المعلمين في كلية علي كرة الشهيرة، وهنالك ظهر له أنه يوجد عالم غير عالمه، وعلوم غير الفقه والكلام والفلسفة اليونانية، فأخذ يطالع العلوم حتى عُدَّ من أكبر علماء الهند، وفي هذه الأثناء ساح في البلاد الإسلامية كلها ليعرف داء المسلمين ودواءه، وبعد رجوعه إلى وطنه ابتدأ دوره الذهبي؛ لأنه ترك الوظيفة، ولم يعمل شيئًا بعد إلا لإصلاح

المسلمين، ولهذا الغرض أخذ على عاتقه مشروع ندوة العلماء، وهي لم تكن شيئًا يذكر قبله، وبهمته العالية ترقت في مدة قصيرة حتى سُمع صوتها في العالم المدني، وتخرَّج فيها العلماء والمربون، وكانت له أماني كثيرة حالت منيته دونها إذا وافته بعد أن مرض نصف شهر، فسقطت بذلك حلقة كبيرة في سلسلة المصلحين، وانطفأ مصباح الهند، فليحزن على فقده المصلحون، والهنود المسلمون، إنا لله وإنا إليه راجعون.

(المنار)

فقدنا الأستاذ النعماني في عهد هذه الحرب التي حرمتنا رؤيته، ما عدا جريدة عليكدة من جرائد الهند، فلم نقف على شيء من تأبينها وترجمتها له، والشيخ حبيب الرحمن الذي كتب تلك النبذة الوجيزة في جريدة عليكده من أهل العلم والدين، وحزب المصلحين المعتدلين، ولكنه أوجز واختصر حتى أنه لم يذكر لنا مصنفات الشيخ، ولعل أهل مصر وغيرها من البلاد العربية لا يعرفون منها إلا رده الوجيز على كتاب تاريخ التمدن الإسلامي، وما هو إلا عجالة جعلها نموذجًا لبيان ما أنكره من ذلك الكتاب، ولم يرد به الاستقصاء، وكنت رأيت له رسالة في الجزية نشرت بعضها في المجلد الأول من المنار، وهي تدل على اجتهاد في التاريخ وعلوم الدين، ومن سوء حظ المسلمين أن يقوم حزب الجمود في وجوه هؤلاء الأفراد من المصلحين كالشيخ النعماني، ويحولوا بينهم وبين خدمتهم لملتهم وأمتهم، ويضعف أنصار الإصلاح عن إحباط أعمالهم، ومما يذكر بالإعجاب في ترجمته أنه لم يوجد في أمراء الهند وعظمائها رجل عرف قيمة هذا الأستاذ الكبير المصلح، كما عرفته أميرة بهوبال فضلى نساء تلك الأقطار وأقيالها.
وسننشر في الجزء التالي كلمة وجيزة من صلة المودة بيننا، وبين الفقيد وكتابًا منه يعلم منه شيء من صلته العلمية الدينية بصاحبة بهوبال، أدام الله النفع بها.

((يتبع بمقال تالٍ))

الشيخ شبلي النعماني[130]

كان الشيخ شبلي النعماني - رحمه الله وأدام النفع به - ركنًا من أركان نهضة الإصلاح الإسلامي في الهند.

ورجال هذا الإصلاح في كل الأقطار الإسلامية أمة وسط بين فريق الجامدين على التقاليد والعادات، التي انتهى إليها أمر جمهور المسلمين بعد فتك التفرق الديني والسياسي بهم، وانتشار البدع والخرافات فيهم، وإضاعة جل ما ترك سلفهم من العلم والمجد التليد، وإعراضهم عن العلم الحديث والمجد الطريف، وبين فريق المتفرنجين الذين أصابوا حظًّا من اللغات الأجنبية، وتلقوا قليلاً من العلوم والفنون الأوربية، فأحدث لهم ذلك غرورًا بأنفسهم، واحتقارًا لأمر أمتهم، فطفقوا يمرقون منها بزلزال عقائدهم وأفكارهم، وتغيير عاداتهم وأزيائهم، فوهت فيهم جميع مقوماتها، ولم يندغموا في أمة من الأمم التي يقلدونها، على أن منهم من يحسبون أنه يمكن جعل أمتهم كلها، مثلهم أو مثلها.

المباينة بين الجامدين والمتفرنجين عظيمة، كل منهم يحتقر الآخر ويكرهه، ويعده علة لضعف الأمة وانحطاطها، أولئك يرمون هؤلاء بالكفر والفسوق، ويَنْفرون ويُنَفِّرون منهم ر ومن هذه العلوم والفنون، ويعدونهم آلات الأجانب التي يحللون بها عناصر الأمة ويستعملونها كما يستعملون عناصر الأرض في تنمية ثروتهم، وإعلاء كلمتهم، واستعمار البلاد وجعلها تحت سلطتهم - وهؤلاء يرمون أولئك بالتعصب والجهل، والخرافات والهمجية، التي يجب نسفها لإقامة بناء الحضارة والمدنية، والحق أن كلا منهما مخطئ في شيء، ومصيب في شيء آخر، وله مزايا حسنة، ورزايا ضارة، وأن الأمة لو سارت على رأي كل منهما وحده لم تكن عاقبتها إلا الانحلال والهلاك.

وأما حزب الإصلاح، فهو وحده محل الرجاء؛ لأنه يُقَدِّر مزية كل من الحزبين قدرها، ويعرف منافعه ومضاره، ويريد أن يكون معقد الارتباط والاتصال بينهما بإرجاع كل منهما عن خطئه، والسير بالأمة في طريق تحفظ به مقوماتها ومشخصاتها، وتعيد الموروث النافع منها إلى جدته، وتتدرج في استبدال النافع بالضار منه، وتقتبس من علوم العصر وفنونه وصناعاته ما لا تقوم لأمة

قائمة في هذا العصر بدونه، وليس هذا المقام مقام شرح الإصلاح، ولا بيان أحوال الأحزاب الثلاثة، وإنما ذكرنا هذا لبيان مرادنا من قولنا إن فقيد الإسلام في الهند كان ركنًا من الإصلاح الإسلامي.

ولم يكن طلاب الإصلاح إلا أفرادًا من الناشئين في بيت حزب الجمود أو حزب التفرنج، هداهم الله تعالى باستعداد في فطرتهم، وتوفيق في سيرتهم، إلى معرفة الطريقة المثلى لصلاح أمتهم، وكان المعقول أن يكون رجال العلم الديني أقدر على أهل الجمود منهم على المتفرنجين، ولكن كثر ما كان الأمر على غير ذلك؛ وسببه أن كبراء الجامدين من الشيوخ هم أشد حسدًا وبغضًا للمصلح الديني من غيره، فلهذا لم يتم للشيخ شبلي ما كان يريد من الإصلاح في ندوة العلماء، وكان أدنى الناس إلى مساعدته المتدينون من كبراء الدنيا كأميرة بهوبال، وقد أخبرني رحمه الله تعالى أن الأمير الجواد، الذي تفاخر به الهند أمراء المسلمين في جميع البلاد، النواب محمد علي راجا محمود آباد، عرض عليه مبلغًا كبيرًا من المال يدفعه سنويًّا لمدرسة ندوة العلماء بشرط جعلها للمسلمين كافة كمدرسة عليكرة لا خاصة بأهل السنة، وهذا باب عظيم من أبواب الإصلاح ما كان ليشايعه عليه المتعصبون من أعضاء الندوة؛ فلذلك اعتذر للأمير بأن هذا عمل ما حان وقته.

وأما الأميرة المحسنة التقية صاحبة بهوبال، التي جعلها الله تعالى بعد المصلح العظيم السيد صديق حسن خان، نصيرة العلم وخادمة الإسلام، فقد كانت ظهيرة للشيخ في جميع ما يخدم به الدين والعلم من الأعمال، وإننا ننشر هنا نص كتاب جاءنا منه، يشير إلى ما كان من صلتها وصلتنا به، وهو:

إلى حضرة السيد المحترم

متع الله المسلمين بطول بقائه

بعد التحية والسلام

إني لم أزل أقرأ في الجرائد ما تبذلون من السعي في تأسيس دار العلم والإرشاد، وهذه هي بغيتنا التي كنا ننشدها نحن أهل الندوة، فجعل الله سعيكم مشكورًا، وتوج عملكم بالنجاح، طالما تاقت نفسي إلى زيارة مصر للقائكم، ولكن هيهات فإني قد قُطِعَتْ إحدى رجلي لرصاصة أصابتها فبقيت جليسًا[131]للبيت غير قادر على تحمل أعباء الرحلة والسفر، والأمر الذي دعاني الآن إلى إرسال النميقة أن الأميرة سلطان جهان (بيكم) صاحبة إيالة بوفال[132]خرجت راحلة إلى لندرة للحضور في حلفة تتويج الملك جرج، وهي تريد زيارة البلاد الإسلامية، وتصل في مصر في شهر رمضان.

وهي من عظماء بلادنا أعطت مائة ألف روبية لتكميل كلية عليكده، وعينت ثلاث مائة روبية جراية

شهرية لندوتنا، وكم لها من أمثال ذلك.
ولها شدة عناية بتربية عائلتها؛ ولذلك أرادت أن تجلب إحدى المعلمات المسلمات من مصر المحروسة، وقد كتبت إليَّ أن أكون مساعدًا لها في إنجاح هذا الأمر، فالمرجو من حضرتكم أنها لما تصل إلى قاهرة[133]وتستدعي من حضرتكم الاستشارة والاستعانة، فافعلوا ما يليق بكم من إكرام مثل هذا الضيف الكريم العديم المِثْل، والفضل لكم[134].

شبلي نعماني
في 7 مايو سنة 1911
ندوة لكهنؤ

هذا وإن الفقيد رحمه الله تعالى قد اشترك بالمنار من أول العهد لظهوره، وكان مواظبًا على قراءته معجبًا به، وقد كان له من حسن الظن بصاحب المنار ما حمله على دعوتنا لرئاسة مؤتمر ندوة العلماء السنوي رجاء زيادة إقبال مسلمي الهند على هذا المؤتمر، وما يتبع ذلك من تعضيد الندوة ومساعدتها، وهذا نص كتابه الأول في ذلك:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى حضرة الفاضل الأستاذ مولانا رشيد رضا أطال الله بقاءه.
لا يخفى على أمثالكم أن إغارات جرجي زيدان على أعراض العرب في كتابه (تاريخ التمدن الإسلامي) أكثر من أن تحصى، وإن كل ما دسَّه وَموَّه به لا أصل له أصلاً، وحين اطلعت على ذلك كاد قلبي أن يتميز من الغيظ غير أني صبرت وأمعنت النظر فيما له نظر، ولما عيل عني الصبر ونأى، قمت على ساق، وألفت رسالة أكشف فيها دسائسه، وهي الآن تطبع، وأريد إرسال ما فُرغ من طبعه منها إليكم لكي تدرجوه في جريدتكم، وكذلك إلى الفراغ منها بأسرها.
ومما أنهيه إليكم أن ندوة العلماء في كل عام تعقد محفلاً عامًّا يحضر فيه الخاص والعام، والأمراء والنواب وأهل الحل والعقد، ويكون انعقاده عامنا هذا في أول إبريل سنة 1913، فنحن معشر المعتمدين والآراكين نهوى ونود من صميم قلوبنا أن يكون صدر[135] هذا المحفل العظيم، وواسطة عقده النظيم حضرتكم الشريفة، فإن تشرفونا بالقدوم علينا في الهند، تهرع أهل البلاد الشاسعة إلى

هذا المحفل الإسلامي على كل ضامر من كل فج عميق لمقدمكم المبارك إن شاء الله تعالى، ويحصل بعون الله لكم ما أنتم بصدد الاجتهاد فيه من إظهار مقاصد مجلس التعليم والإرشاد، ويعظم بذلك محفل ندوتنا، ويُقَدَّر قَدْرَه، وفي طي رقيمي هذا، أُرسل إليكم خطبة والي الهند، وعميدها؛ فيظهر لكم منها أن الدولة البريطانية لها عناية تامة بندوة العلماء، ولولا ذلك لم تعين لها في كل شهر خمسمائة روبية من خزائنها، فإن عزم جنابكم على تشريفنا بما اقترحناه فلا عليه أن يلاقي سفير الدولة البريطانية في مصر المحمية، وينهي إليه خطبة والي الهند وعميدها في حق ندوة العلماء، وعريضتها عند قدوم الملك المعظم مع ملكته المعظمة قاعدة الهند دهلي، لكي يكون على علم ويستحسن قدومكم علينا، وإن أمكن منكم طلب الإجازة بذلك مرقومة فيها فنعم ذلك، ودمتم أفندم.

شبلي نعماني
5 جنوري (يناير) سنة 1913
ندوة العلماء - لكهنؤ

جاءنا هذا الكتاب ونحن نستعد لفتح مدرسة (دار الدعوة والإرشاد) فكان المانع من إجابة هذه الدعوة أرجح من المقتضي، إذ كان لا بد من السفر بعد فتح المدرسة بشهر أو أقل - وأنا ناظر موظف لها، والروح المدبر في تأسيسها والقيام بها، ولكن أعضاء مجلس جماعة الدعوة والإرشاد رأوا أن رحلتي إلى الهند خير لمشروعنا؛ لأن إشهاره في مثل ذلك المؤتمر العظيم فقروا في جلسة رسمية إجازتي وإعانتي على ذلك.

اقترح الشيخ رحمه الله تعالى عليّ أن أسافر بإجازة من عميد الدولة الإنكليزية هنا، وأرسل إليّ خطبة حاكم الهند العام، الذي ذكر ندوة العلماء بخير لأتوسل بها إلى هذه الإجازة، فكان هذا من بعد نظره وغور فهمه للسياسة، وكان مراده أن تكون هذه الإجازة كتابية فلم يتيسر ذلك، فلقي الشيخ من إنكار والي لكهنؤ عليه دعوتي إلى رياسة مؤتمر الندوة ما لقي، وأمكنه إرضاؤه بما كان أعده لذلك من الحجج، ومنها ما كتبه لورد كرومر في تأبين شيخنا الأستاذ الإمام من مدح حزبه، وخطبة للدكتور مرجليوث الأستاذ الشهير في مدرسة أكسفورد ذكر فيها رأي صاحب المنار في الجامعة الإسلامية بكلام مرضي، وثناء حسن.

ونحمد الله أن حقق ظن الشيخ رئيس الندوة، وأعضائها الكرام فينا، إذ كان الإقبال على المؤتمر في

ذلك العام مما لم يسبق له نظير من قبل، ورحم الله الشيخ شبليًّا، وأحسن عزاء المسلمين عنه.

السيد الإدريسي[136]
والحكومة العثمانية
لصاحب الإمضاء

ولد السيد محمد الإدريسي في بلدة (صبية) من أعمال العسير واسم والده السيد علي وجده السيد محمد وجد والده السيد أحمد الإدريسي رحمهم الله، وهذا هو الذي هاجر من المغرب منذ سبعين سنة تقريبًا إلى جهات عسير.

اشتهر والد السيد الإدريسي وأجداده وجميع أفراد عشيرته بالصلاح والتقوى والعفة والاستقامة وخدمة الدين الحنيف والشريعة الغراء فأصبحت هذه الشريعة الكريمة موضع إجلال اليمانيين واحترامهم، واتفقت كلمة الناس على حب رجالها وسماع نصائحهم والرجوع إليهم في كثير من الشئون المهمة، وهذا من أهم الأسباب التي مهدت للسيد محمد سبيل الظهور في هذا المظهر، مظهر السيادة والإمارة.

حفظ السيد محمد القرآن، وأخذ بعض العلوم والفنون على أساتذة يمانيين في صبية، وكان والده رحمه الله يمنعه من الاختلاط بالناس.

ويقال : إن السيد الإدريسي لم يخالط الناس إلا بعد أن جاوزت سنه العشرين.

ذهب السيد محمد إلى الأزهر في مصر وهو في سن الخامسة والعشرين فدرس فيه بقية العلوم والفنون مدة 7-8 سنوات ثم غادر مصر إلى السودان فلبث هنالك سنة وأشهرًا، ومنها عاد إلى جهات العسير حيث يقيم الآن.

وهو اليوم في سن التاسعة والثلاثين، قوي البنية طويل القامة، صحيح الجسم، أسمر اللون، وعلائم الدهاء والذكاء والمتانة والرزانة بادية على وجهه.

لا يخاطب السيد الإدريسي اليمانيين في خطاباته إلا بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ولم يَسْتَمِلْهم إليه ويمتلك قلوبهم ويتسلط على عقولهم إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخدمة الدين والشريعة بالفعل، ومنع الغزو وإبطاله، وإزالة الشقاق والاختلافات القديمة من بين القبائل والعشائر، وإحقاق الحق وتطبيق العدالة والمساواة بين الكبير والصغير والرفيع والوضيع من الأهلين.

نعم، إن السيد الإدريسي لم يستمل اليمانيين، كما زعم بعض الكاذبين المنافقين، باستعمال الفوسفور والكهرباء وغير ذلك من الاختراعات العصرية الجديدة التي لم ترها عربان اليمن بعدُ، قصد إقناعهم بولايته أو نبوته، بل استمالهم بالحجة والبرهان والمبادئ القويمة الصحيحة، ولم نسمع ونحن من صميم اليمن أن السيد الإدريسي ادعى هذه الدعوى أي الولاية، وما أشبه.

اليمانيون يحبون السيد الإدريسي حبًّا كالعبادة، وينقادون له انقيادًا أعمى ويطيعونه طاعة زائدة، وينفذون أوامره بكل ارتياح، والسعيد منهم من يتشرف بمقابلته ويتبارك بتقبيل يده وركبته، كل ذلك ناشئ من شدة تمسكه بقواعد العدل والمساواة وتطبيقها بين جميع الطبقات، واعتبار الجميع واحدًا في القضاء والمعاملات.

قبل أن يعود السيد الإدريسي من مصر إلى عسير كانت الفوضى في هذه الأنحاء منتشرة والأمن مفقودًا، والراحة مسلوبة والغزو كثيرًا، واعتداء القوي على الضعيف أمرًا مألوفًا، وكان الابن يخاف على نفسه من والده، والوالد لا يأمن على حياته من ولده، وكان الإنسان يجلس في الظلام ليلاً خوفًا من أن يراه عدوه إذا أنار المصباح فيطلق عليه الرصاص، وكانت الطرقات مسدودة لكثرة اللصوص وقطاع الطريق.

والخلاصة :

كانت الأهالي بأشد حالات الضيق من هذه الأحوال التي تسلب الراحة، ففرج الله عنهم بقدوم السيد الإدريسي إلى العسير حيث بدأ بنصح وإرشاد القبائل وشرع في نشر مبادئه وتعاليمه الدينية والمدنية بينهم، فاستمالهم إليه، وامتلك قلوبهم وجمع حوله منهم قوة، ثم أخذ بتطبيق أحكام الشريعة

عليهم بدون محاباة ولا مراعاة، فأعدم المئين من الرجال الذين ارتكبوا جريمة القتل، وقطع أيدٍ كثيرة إقامة لحد السرقة، فاستتب الأمن، وبطل الغزو، وزال الشقاق، وحل محله الوفاق بين القبائل، ووقف القوي عند حده، وامتد رواق العدل والمساواة في تلك الأصقاع، فارتاحت الأهالي وأمنت على أرواحها وأموالها، وصاروا كلما ذكروا عذاب الماضي وقاسوه بنعيم الحاضر يتضاعف حبهم للسيد الإدريسي، وتزداد طاعتهم له وانقيادهم لأوامره وتقوى الروابط بينه وبينهم.

أعدم السيد الإدريسي عددًا كبيرًا من كبار القوم الذين ارتكبوا جريمة قتل الأبرياء الضعفاء قصاصًا ولم يلتفت إلى علو كعبهم ورفعة منزلتهم بين قومهم، ولا إلى شرفهم وعظمتهم ونفوذهم، فلم يغضب لهذا الأمر إنسان لأنه عدل وحق.

قاعدة السيد الإدريسي في الحكم والإدارة العدل، وهو عنده فوق كل شيء، وهذا مما جعل الرأي العام في جهات جزيرة العرب وفي جهات العسير منها خاصة يميل إليه ويحب خطته ويطري مبادئه ويثني على منهجه القويم.

السيد الإدريسي لم يفاجئ الحكومة العثمانية بالعدوان ولم يعلن عليها الحرب في حين من الأحيان، بل كان الأمر بالعكس، فإن الباب العالي كان يصغي لأكاذيب ولاة اليمن وقوادها الجهلة المغرورين الذين كانوا يوسوسون له ويدسون الدسائس ضد الإدريسي فيأمر - أي الباب العالي - بتجبيش الجيوش وتسيير الحملات على السيد فيضطر هذا إلى الدفاع فالهجوم فسحق القوات فحصار المدن والثغور فالاستيلاء عليها.

في واقعة واحدة من الوقائع العديدة العظيمة التي حصلت بين رجال السيد وبين الجيش العثماني وهي واقعة جازان المشهورة، قُتل من الجنود العثمانية أكثر من أربعة آلاف عسكري، ولم يعرف عدد الجرحى، والتجأ قائد الجيش الميرالاي محمد راغب بك إلى السيد خوفًا من فتك الضباط به بسبب الخطأ الذي ارتكبه في هذه الواقعة على زعمهم.

وبقي هذا القائد التركي عند السيد معززًا مكرمًا مدة سنة ونصف ثم فر هاربًا بدون أن يستأذن من السيد مع أن السيد كان تاركًا له الحرية في السفر أو البقاء، على باخرة إنكليزية كانت مرت بجازان.

لما أعلنت إيطالية الحرب على الدولة العثمانية أخلت هذه في الحال ميناء جازان من العسكر ولم يتيسر لها لضيق الوقت ولقلة وسائط النقل أن تنقل إلى الحديدة غير الجنود فقط، وتركت السلاح والمؤنة والذخائر والخيام والبغال.

تركت أشياء كثيرة كانت معدة لحملة عسكرية مؤلفة من خمسة وعشرين تابورًا، فاستولى السيد الإدريسي على ما تركوه ودخل جازان، وهي أعظم ميناء على السواحل اليمانية بعد الحديدة، ولا تزال في يده كما أنه استولى بعد ذلك على غيرها من الموانى مثل ميدي وشفيق وحبل وبركة والفوز، وفي ميدي قلعة كبيرة مهمة أخذها الإدريسي بما فيها من المدافع والذخائر.

ولقد تمكن السيد الإدريسي منذ نشبت الحرب بين الحكومة العثمانية وإيطاليا إلى الآن من جلب أكثر من مائة ألف بندقية وخمسين مدفعًا ونيف من درجات مختلفة أي كبيرة ومتوسطة وصغيرة؛ لأن الطليان كانوا أغرقوا وأسروا بواخر خفر السواحل العثمانية كلها فخلا للسيد الجو وانتهز هذه الفرصة الثمينة واستعد استعدادًا عظيمًا، ولديه الآن أكثر من عشرين مدفعًا من المدافع الكبيرة التي ترمي إلى مسافة 12-15 كيلو متر وهي موضوعة في الحصون التي أنشأها في السواحل الثغور التي بيده، وقد تعلمت الجنود العربية استعمال المدافع واستخدامها في الحروب، وبرعوا جدًّا في إطلاق القنابل، ولا يزال عند السيد عشرات من أفراد الجند وضباط الصف (الجاويشية) العثمانيين الذين أسروا أو التجأوا إليه في الحروب ومعظم هؤلاء من صنف المدفعية، وإذا أضفنا عدد المدافع التي أخذها السيد من جيوش الدولة في الحروب، والبنادق التي استولى عليها والتي كانت عند العربان من قبل إلى الأرقام السالفة الذكر يمكنا بلا مبالغة أن نقول : إن لدى السيد الإدريسي الآن أكثر من تسعين مدفعًا ومن مائتي (200) ألف بندقية جديدة من أحدث طرز، ومعظم البنادق الجديدة محفوظة مع ذخيرتها الكافية الوافية لوقت الحاجة في المخازن التي بنيت بصورة مخصوصة.

في قبضة السيد الإدريسي الآن عدة مواني أهمها جازان وميدي وشفيق وبركة وحبل والفوز، كما ذكرنا آنفا، وفي كل ميناء منهن جمرك له عمال موظفون من قبل السيد لاستيفاء الرسوم الجمركية من الواردات والصادرات، والرسوم التي يتقاضاها السيد أقل من الرسوم التي كانت تأخذها الدولة.

والتجارة كثيرة جدًّا بين هذه الثغور وبين عدن و مصوع؛ لأن هذه الثغور هي مواني قطعة العسير كلها وبعض جهات اليمن والحجاز، والسنابك[137] تروح وتغدو بينها وبين مصوع وعدن دائمًا، والأمن مستتب، والرشوة ولله الحمد مفقودة، والعدل موجود، والظلم معدوم، والتسهيلات متوفرة، والناس كلها ألسن مدح وثناء على السيد الإدريسي الذي أحيا هذه القطعة وأصلح شئون أهلها.

ولقد انتشر نفوذ السيد الإدريسي كثيرًا من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب حتى السواحل بقدر ما قل وتناقص نفوذ الإمام يحيى، لأسباب لا محل لذكرها هنا.

حتى إن كثيرًا من القبائل التي كان عليها معظم المعول عند الإمام يحيى أتت لعند السيد الإدريسي وبايعته ووضعت عنده الرهائن من أولاد زعمائها، وفي مقدمة هذه القبائل قبيلة حاشد العظيمة التي يقودها الشيخ ناصر بخيت.

على رأس كل قبيلة من قبائل العسير قاضٍ وأمير من قِبل السيد الإدريسي، فالأول ينظر في الشئون القضائية، والثاني ينظر في الشئون الإدارية والحربية، ويجمع الزكاة الشرعية للسيد، والمخابرات الرسمية جارية بكمال الدقة والاهتمام بين المركز والضواحي.

عند السيد الإدريسي وكيل اسمه يحيى زكريا وهو بمثابة رئيس الحجاب أو الصدر الأعظم، وأمين لبيت المال واسمه محمد يحيى وهو بمثابة ناظر المالية، وكثير من القواد وكلهم يحملون السيوف دائمًا ولهم شارات مخصوصة كل بحسب رتبته ومقامه.

أرسل قائمقام لحية إبراهيم بك خليل بتاريخ 10 مارس سنة 1913 كتابًا إلى السيد الإدريسي يطلب فيه الإذن بمقابلته فأذن له فجاء وأخبر السيد بأن الوالي محمود نديم بك تلقى من الباب العالي أوامر تقضي بمخابرته بأمر الصلح وحسم المشاكل وفض الاختلافات التي بينه وبين الدولة، وسأله هل يقبل بفتح المفاوضات، فقبل السيد، فقفل القائمقام المذكور راجعًا إلى لحية وأخبر بذلك الوالي برقيًّا، فغادر محمود نديم بك ومعه القائد سعيد باشا صنعاء ووصلا إلى لحية في 27 مارس سنة 1913، وأرسلا كتابًا إلى السيد يطلبان فيه حضوره لثغر ميدي ليقترب منهما فأرسل السيد مِن قِبله هيئة لمخاطبتهما على رأسها أمينه محمد يحيى بخطاب يقول فيه : بلغوا كل ما تريدون لهذا الأمين وهو يوصله إليَّ حتى أعلم ما تريدون[138].

كانت مطالب السيد الإدريسي قبل ثلاث سنوات ـ كما ذكرها هو في كتابه إلى الإمام بسيطة جدًّا، أما مطالبه اليوم فهي لا تشابه تلك المطالب بوجه من الوجوه.

ففي ذلك الحين لم يكن في يد السيد الإدريسي ثغر من الثغور البحرية وقد أصبح اليوم في قبضة يده عدة مواني كما تقدم في كل واحد منهن بضعة مدافع كبيرة تحميها.

وفي ذلك الحين لم يكن قد وقع بين رجاله وبين الدولة سفك دماء، وكان ذلك قبل حرب الطليان وما تلاها من المصائب وحرب البلقان وما أعقبها من النوائب، وجملة القول أن كلاً من حالته وحالة الدولة لم تكن مثل ما هي الآن.

يحق للسيد الإدريسي اليوم أن لا يرضى لما كان رضي به قبل ثلاث سنوات، ولم ترضَ به الحكومة العثمانية؛ لأن نفوذه خلال هذه المدة انتشر بين القبائل انتشارًا هائلاً، وأحواله انتظمت ورجاله تسلحت، وقبائله استعدت، وعساكره تعلمت وتمرنت على إطلاق القنابل واستعمال المدافع الكبيرة والصغيرة، وقد علمت من رجل كبير من رجاله أنه سيستمسك بالمطالب الآتية :

1-الاستقلال الإداري التام تحت سيادة الدولة.

2- أن لا تتدخل الدولة في شئون موظفي البلاد التي في قبضة يده والتي سيبين حدودها في المعاهدة.

3- أن تكون الراية الهلال والنجم مع كلمة التوحيد لا إله إلا الله من جهة ومحمد رسول الله من الجهة الأخرى.

4- أن تكون الجنود محلية وعددها كافٍ لحماية البلاد في زمن السلم والحرب.

5- أن تكون الجمارك في الثغور راجعةً إلى الإمارة الإدريسية والمعاهدات التجارية مع الدول من حقها أيضًا.

6- أن تكون الأحكام طبق الشريعة الغراء، واللغة الرسمية هي اللغة العربية فقط بحيث لا تعرف لغة سواها في التعليم والقضاء والإدارة وفي المخابرات الرسمية مع الآستانة.

7- كل ما ينشأ من المنافع العمومية كالسكك الحديدية والتلغراف والتليفون في جهات العسير يجب أن تكون لمنفعة الإمارة وخاصة بها وخاضعة لها.

8- أن يصدر بهذا الاتفاق فرمان سلطاني قبل أن يجتمع مجلس المبعوثين العثماني يؤتى به من الآستانة على يد مندوب عالٍ وعلى سفينة حربية ويقرأ باحتفال عام في المكان الذي يختاره الأمير الإدريسي.

هذه هي أهم المواد الأساسية العمومية التي سيطلبها الإدريسي، وهناك مسائل أخرى خصوصية وفرعية لا أهمية لها.

ولا نظن أن الصلح يتم بين السيد الإدريسي وبين الحكومة العثمانية إذا رفضت هذه مطلبًا واحدًا من هذه المطالب الثمانية، ومن قاس هذه المطالب بمطالب السيد الأولى يتبين له الفرق العظيم بين هذه وتلك كما يظهر له جليًّا بُعْدُ نظر رجال الحكومة العثمانية وطول باعهم في السياسة والإدارة والسلام.

مصوع 7 مايو 1913
يماني

(المنار)

لم يبق للدولة مع هذه المطالب إلا اسم السيادة فلا يعقل أن تقبلها، فإن كانت تعجز عنه الآن فإنها تفضل السكوت على إعطائه فرمانًا تقيد به نفسها، والمعقول أن يكون للدولة مع الاستقلال الإداري بعض الحقوق العامة كاشتراط موافقتها على العهود التجارية مع الدول وأخذ شيء مما يزيد على نفقات البلاد من دخلها.

كتاب متصرف عسير[139]
وقائدها سليمان باشا إلى السيد الإدريسي[140]
(يطلب فيه الاتفاق وعقد الصلح)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الهادي إلى سبل السلام، والصلاة والسلام على سيد الأنام، وعلى آله وصحبه الكرام،

من سليمان شفيق علي كمال، متصرف وقومندان عسير، إلى السيد محمد علي الإدريسي، أرشدنا الله وإياه لما فيه رضاه وألهمنا تقواه، وتولى هدانا وهداه،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد،

فإن الانقطاع الحاصل والتنازع الواقع هو مخالف لما أمر الله تعالى بقوله : [وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ](الأنفال : 46) ولكن كل هذا بقضاء الله وقدره، ولسنا الآن بصدد البحث عما مضى، وعسى الله أن يجمع القلوب ويكون الإسلام يدًا واحدة على أعداء الدين، ونذب عن حقوق المسلمين، كما قال سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم : (الإسلام كالبنيان يشد بعضه بعضا[141]) إلى كثير من الآيات والأحاديث الواردة بوجوب الاتحاد والتناصر بالدين، ولا نزيدكم علمًا بهذه العجالة فأنتم لستم كغيركم بل أنتم بدرجة من العلم.

فهلم يا أخي في الدين نسعى بما فيه صلاح المسلمين، فهذه دول الأجانب من النصارى أعداء الدين قد تعاونوا وتناصروا واتفقوا على محو الإسلام وهدم قواعد الإيمان، وأن يجعلوا البلاد

الإسلامية مضغة في أفواههم، وقسمة باردة في أطماعهم، وقد بلغنا ما حل بإخواننا المسلمين في الجهات فواجب علينا معشر الإسلام الذب عن الوطن، الذب عن العرض، عن النفس، عن الدين، كما قال عليه الصلاة والسلام : (قاتل دون مالك[142]) فما بالك دون نفسك، دون عرضك، دون دينك.

ويعفو الله عما سلف، فبادر لندفع عن الوطن، عن الدين، عن المسلمين هذه البلية، ونكون يدًا واحدة على حفظ حقوق المسلمين.

هذا زمن الحمية الإسلامية والجهاد، هذا وقت الإخلاص وأوان الخلاص، إن الأمة الإسلامية في أقطار الدنيا ناظرة إلينا وعندها الظن الجميل بتعاوننا وتناصرنا، وها أنا أنتظر منك الجواب الشافي الذي يكون فيه حفظ شرف الإسلام، فإن أجدادك الكرام قد أسسوا مجدًا أخرويًّا فهدوا وأرشدوا وحفظوا كيان الإسلام، وشادوا أركان الإيمان، وهذه نزغات قلم مسطور باح لك به النصح الواجب، فإن أجبت فأرسل لنا بسرعة هيئة تعتمدون عليها لنتخابر معها بما يصلح ويحفظ شأن الإسلام والمسلمين على شرط بالوجه والأمان، وإن شئت بين لنا معالمكم لدفع أعداء الدين فيجتمع الرأي المصيب بما فيه الصلاح، إن شاء الله.

وإني عازم بحول الله على مدافعة أعداء الدين والجهاد أمام المسلمين، مع ما لدي من قوة هي تزيد عن عشرين ألفًا، ونحن بهذا العزم، ولو فني منا الصغير والكبير، وعلى الله توكلنا وإليه المصير، فأسرعوا إلينا بالجواب، وفقنا الله وإياكم للصواب، والسلام.

في 21 شوال سنة 1329

***

كتاب السيد الإدريسي في جواب سليمان باشا

بسم الله الرحمن الرحيم ،

الحمد لله رب العالمين، وهو حسبي وكفى، وأتم الصلاة والسلام المقترنين بالتحيات القدسية على أشرف الخلائق المصطفى، وصحبه معادن الصدق والوفا.

من محمد بن علي الإدريسي إلى أخينا في الدين صاحب السعادة سليمان شفيق بن علي كمال متصرف وقمندان لواء عسير، سلك الله بنا وبه مسالك أهل البصائر المبصرة، وأخذ بيدنا وبيده إلى ما ينفع في الدنيا والآخرة.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبينما النفس في قلق، والأنفاس تتصاعد بنيران الأرق، مما فعل المسلمون بأنفسهم، بينما أسلافهم قد رفعوا لهم أعلام العز، وشادوا على قوائم الدين دعائم العصمة والحرز، أولئك الذين استمسكوا بعروة الله الوثقى التي ليس لها انفصام، وكان لهم من قوله تعالى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً](آل عمران : 102-103) وغير ذلك من آيات الذكر الحكيم أعظم اعتصام - إذ خلف من بعدهم خلف أضاعوا الحقوق، واستبدلوا بإخاء الدين - الذي به ملاك الأمر- القطيعة والعقوق، ليستعد أحدهم لأخيه بالمدمرات، ويعد أعظم المفاخر إذا صرعه فمات، مع أن مجرد الإشارة بحديدة ورد فيها (من أشار إلى أخيه بحديدة لم تزل الملائكة تلعنه حتى يشيمها[143]) هذا، وأعداء الملة من وراء هذه الأستار ينظرون نظر المفترس إلينا، ويترقبون كلَّ آنٍ الفرصةَ لمحونا، ومن الحمق أن نخرب بيوتنا بأيدينا، فأعنَّاهم بنا علينا، كأننا لم نتلُ في القول الصحيح أن التنازع يوجب الفشل ويذهب الريح [وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ](الأنفال : 46) فلا عجب من هذه الغمة، إذا حلت بنا معاشر هذه الأمة، وانطوى على الهوان يومهم وأمسهم؛ لأنهم [نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ](الحشر : 19) [فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القَوْمُ الفَاسِقُونَ](الأحقاف : 35) [إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ](المجادلة : 20) ولو أنهم اعتصموا بحبل الله مولاهم، لكان لهم نعم المولى ونعم النصير وكفاهم، ولكان لهم ما كان لأسلافهم؛ إذ دانت لهم المشارق والمغارب، وما قاومهم أحد إلا خذل؛ لأنهم حزب الله وحزب الله كما كتب على نفسه هو الغالب [وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ المَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ](الصافات : 171-173) [ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ](محمد : 11) [وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ](الأنفال : 40) ومهما هال العدو بما في يده من الآلات الشنيعة، فإنه والله ستنكشف عما هو كسراب بقيعة [فَأَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ](الأنعام : 81-82) وأعداء الدين في كل وقت أعظم عددًا، وأكثر استعدادًا وأقوى مددًا وجندًا ليحق الله قوله : [وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ

وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ المُؤْمِنِينَ](الأنفال : 19) [وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ](يوسف : 21) [حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً](الجن : 24) ولا يزال الحق هذه صفاته وفي كل آن ومكان هذه نعوته [وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ](الأنعام : 115).

فبينما الخاطر في هذه المهامه، والفكر في هذه المفاوز حيران وواله، وهل من مستبصر مستهدٍ يأخذ في هذه المضايق بالأيدي - إذ ورد كتابكم الكريم المستحق للاحترام والتعظيم والتفخيم، مسفرًا عما تحدو إليه الرغائب من الدعوة للاتحاد ونبذ ما هو بجانب، فانشرح البال وأسرعت إلى داعيك وحمدت الله؛ إذ كانت نسائم التوفيق تهب بناديك، متوكلين على الملك الجليل، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وهل يرضى الله ورسوله إلا إذا كان المسلمون إخوانًا، يجاهدون في سبيله وعلى الحق أعوانًا، ولقد أخذنا وأخذتم بذلك، حتى حالت أمور قد ذكرتم لا حاجة إلى ذكر ما هنالك، وما ذكرتم من الهيئة فقد أرسلنا إليكم أخانا محمد يحيى ومعه جماعة يتوجهون إلى رجال (المع)[144] ولا تطمئن نفسه بالدخول إلى (أبها) فيتفق بجانبكم بأطراف (المع) الشام وتحصل المذاكرة، وإن شرفتم بالقدوم فحيهلا وسهلاً، وغيرنا وغيركم لا يكاد بهذه المقاصد أن يقوم، ولعلنا أن نكون السبب في كشف هذه المشاكل من جميع الوجوه في أقرب وقت عاجل، فترتاح الدولة في هذه الديار، بل في جميع الأقطار والأمصار، والأمور وإن تشعبت فإن مرجعها إلى الله، وبيده الحركة والسكون وهو أهل الكرم، حاشاه أن يخيب من وفقه للالتجاء إليه ودعاه، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم، والسلام عليكم (ورحمة الله) وعلى من حواه المقام، ورحمة الله وبركاته في البدء والختام.

غاية شوال سنة 1329.

((يتبع بمقال تالٍ))

وفاة زعيم عربي علوي عظيم
السيد محمد علي الإدريسي[145]

في منتصف شهر شعبان نعت إلينا أنباء عدن السيد محمد علي الإدريسي أمير عسير وتهامة - اليمن السفلى - فشككنا كعشيرته وجماهير الناس هنا في صحة الخبر، ولم نستيقن إلا في آخر شعبان، وكان سبب الشك أنه كان قد جاء قبل ذلك بأشهر نبأ من الحجاز بوفاته ثم ظهر كذبه.

قد امتاز السيد محمد علي الإدريسي في عشيرته بمزايا عظيمة لا يجتمع مثلها عادة إلا للأفراد الأفذاذ في الأجيال، كالذكاء والسخاء والشجاعة والحزم والإقدام، مزايا مكنته من تأسيس مملكة مستقلة بنفسها في بلاد يتنازع الحكم والسلطان فيها أقدم دولة عربية إسلامية - وهي دولة أئمة اليمن - وأقوى دولة إسلامية عسكرية - وهي الدولة العثمانية- وقد اجتمعت الدولتان على مناوأته وقتاله واستعانت الدولة العثمانية عليه بحكومة الحجاز فكان له الفلج والظفر، وبذلك تأيد حكمه واستقر.

الإدريسيون شيوخ طريقة صوفية، لا قواد جيوش ولا رجال أحكام وسياسة، ولجدهم السيد أحمد بن إدريس شهرة ذائعة بالصلاح والولاية، وهو مدفون بجوار (صبيا) عاصمة عسير، ولطريقته في تلك البلاد أتباع كثيرون يخضعون لشيوخ الطريقة خضوعًا روحيًّا إذعانيًّا، لا يقبل أهله فيه بحثًا ولا برهانًا عقليًّا ولا دينيًّا، كدأب عامة بلاد اليمن وإفريقيا، فمثل الإدريسية كمثل إخوانهم السنوسية.

ومما امتاز به السيد محمد علي - رحمه الله تعالى - على شيوخ طريقتهم في هذا العصر أنه طلب العلم في الأزهر بجد وعناية فاستفاد في سنوات قليلة ما لا يدرك أكثر المجاورين في هذا المعهد مثله في بضع عشرة سنة، بل ما يقصر عنه فيه أكثر الشيوخ الذين يقضون عشرات السنين

هنالك متعلمين ومعلمين، ذلك بأنه كان نَيِّر العقل، مستقل الفكر، لم تَقْوَ خرافات الطريقة ولا طريقة التعليم الأزهري العقيمة على أن تغلب على فطرته الزكية، ومن آيات ذلك أنه كان راضيًا عن المنار معجبًا به كثير الثناء عليه، وقد اقتنى جميع مجلداته السابقة على الحرب العامة الكبرى التي قطعت الصلة بيننا وبينه، ولما عادت في هذا العام جدَّد الاشتراك فيه، وكنا على وشك بإرسال بقية المجلدات التي تجددت لإكمال مجموعته عنده، ومنها أنه عقد اتفاقًا رسميًّا مع سلطان نجد كان من وسائله أنه هو على مذهب السلف في عقيدته، وقد هدم القبة التي كانت مبنية على قبر جده معترفًا بأنها من البدع المخالفة للأحاديث الصحيحة.

ذهب الفقيد إلى بلاد عسير بعد ما كان من طلبه للعلم بقصد الإرشاد والتعليم، ولم يبلغنا عنه أنه كان مستشرفًا للإمارة والحكم، فكان إقبال الناس عليه عظيمًا، وكانوا يتحاكمون إليه حيث لا حكم للدولة العثمانية في داخلية البلاد فيحكم بينهم بالشرع على مذهب الإمام الشافعي الذي ينتمي إليه أكثر الناس هنالك، فارتابت فيه الدولة العثمانية، فكان رجالها يكيدون له، ويذيعون عنه أنه يغش الناس بالدخل والتلبيس وإظهار الكرامات المصنوعة، كزعمهم أنه يظهر للناس في بعض الليالي أنوارًا كهربائية من أدوات يخفيها عنهم فيوهمهم أنها تفيض من صدره على وجهه، وأمثال ذلك.

والمعروف عنه أنه لم يكن يخطر بباله أن يخرج الدولة من البلاد ليؤسس له ملكًا فيها، بل كان يريد مساعدتها على إدارتها وإصلاح شؤونها بنفوذه الديني بشرط أن تكون أحكامها فيها شرعية محضة، وأن يلتزم حكامها الإداريون والقضائيون شعائر الدين، لا كذلك الباشا الذي أرسلوه إليه ليفاوضه فذهب مخاصرًا لامرأة إفرنجية بملابسها المعتادة، ومعها كلب لها فدخلت المسجد مع الباشا وتبعها الكلب.

وقد أرسل الاتحاديون إليه بعد إعلان الدستور الشيخ توفيق خوجه العالم السائح المشهور ليكشف لهم حقيقته، وكان يعرف شخصه إذ كانا مجاورين في الأزهر، فكتب إليهم بما وقف عليه من حسن نيته وكذب الطاعنين فيه، وأخبروني بذلك في نادي نور عثمانية بالآستانة فذكرته للصدر الأعظم حسين حلمي باشا فرمى الشيخ توفيقًا بالبلاهة والغفلة، ولكن التهمة إغراء، وفي الحكم النبوية : (إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم) رواه أبو داود و الحاكم عن أربعة من الصحابة رضي الله عنهم.

وقف الرجل على كيد رجال الدولة له فأخذ حذره وأجمع أمره على المقاومة، وانتهى ذلك بالحرب، فقتل في معركة واحدة من عسكر الدولة بعدد جميع رجاله، وعجزت الدولة مع إمام اليمن وشريف مكة عن القضاء عليه، بل كان ذلك هو السبب لرسوخ قدمه وتوطيد سلطانه.

وقد أنكر المسلمون عليه في كل قطر مصافاته للحكومة الإيطالية في أثناء حربها لطرابلس واستمداد للسلاح والمال منها.

وكان بعض العقلاء يجيب هؤلاء المنكرين بأنه لا حرج على مَن يأخذ من الأجنبي.

وإنما الحرج على من يعطيه، وهو لم يعط أحدًا شيئًا ولم يساعد إيطالية على أهل طرابلس ولا على الترك بشيء.

ثم أنكروا عليه موالاته للدولة البريطانية في أثناء الحرب الكبرى وأخذه منها السلاح والمال، ولذلك كافأته بإعطائه ثغر الحديدة، وأجاب عنه المحبون له بأن اتفاقه مع الإنجليز لم يكن إلا كاتفاقه مع الطليان من قبل، وهو أن يأخذ ولا يعطي، فلم يرض أن يقاتل الترك وإنما التزم للإنجليز أن لا يساعدهم أيضًا، وقيل : إنه كان يسمح للأهالي بإمدادهم بالقوت؛ وأن الإنجليز عاتبوه على ذلك فأجاب بأنه لم يساعدهم بنفسه، ولم يدخل في مواد الاتفاق أن يمنع الأهالي من الاتجار معهم، ولكن يقال : إن في اتفاقه معهم الاعترافَ لهم بحماية سواحله.

وقد نقل إلينا عنه أنه قال : إنه لا يستحل أن يبدأ أحدًا من المسلمين بقتال، وإنما يقاتل من يقاتله، فحكم الأقوام والشعوب عنده كحكم الأفراد، فاعتداء بعضها على بعض كاعتداء الصائل إذا لم يمكن دفعه إلا بالقتل أبيح قتله كما هو مقرر في الفقه.

ولكن لا ندري أكان يلتزم الدفاع في حربه لإمام اليمن ويقف فيه عند حد الضرورة ؟ كيف وقد روي أنه استولى على عدة مواقع من مملكة الإمام ؟ وأنه كان يطمع في أخذ سائر البلاد التي يقطنها الشافعية.

ولو كان يعتقد صحة إمامة الإمام يحيى أو السلطان التركي لما كان لاجتهاده هذا وجه شرعي؛ لأن الإمام الحق هو صاحب السلطان فلا يعد إخضاعه البلاد صيالاً.

كانت الروايات التي تصل إلينا في التنازع والتقاتل بينه وبين الإمام متعارضة وقد سعينا للتأليف والاتفاق بينهما قبل الحرب العامة وبعدها، وكنا نرجو أن نبلغ هذه الغاية بالرغم من أولي الدسائس بينهما الذين كانوا يمنون كلاً منهما بمساعدته على الآخر إذا هو واتاهما، ولكن الله توفاه إليه قبل ذلك، وقد بايع زعماء البلاد نجله السيد علي على أن يكون إمامًا لهم من بعده، وسننظر ما يكون من أمره، ونرجو أن يوفقه الله تعالى إلى ما فيه السلام والخير لقومه، والمرضاة لربه باتباع شرعه، وقد ذكر لنا عن نجله هذا أنه شاب مهذب في الثانية والعشرين، وأنه مشتغل بطلب العلم، وله من أبناء عمومته مستشارون أولو تجربة واختبار، وبصيرة في أحوال تلك البلاد، فعسى أن ينصحوا له بمكاتبة الإمام، والاتفاق معه على الاتحاد اليماني العام، ومنه أن يكونوا مستقلين في إدارة منطقتهم، ومرتبطين بمجلس الاتحاد في سياستهم، فذلك خير من استمرار القتال، وأحسن مآلاً من أماني الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس.

الشيخ سليمان بن سحمان[146]

وفاته وترجمته

من جريدة أم القرى الغراء

نَعَتْ إلينا أنباءُ نجد وفاة العالم العلامة المِفضال الشيخ سليمان بن سحمان، وهو من أكابر علماء نجد الأعلام، توفاه الله في هذا الشهر عن عمر ناهز الثمانين عامًا قضاها في الدرس والتأليف.

وقد كان لنعيه رنة أسى وحزن في نجد جميعًا ولدى كل مَن عرف فضل الأستاذ وما آتاه الله من علم وفصل في الخطاب.

وُلد المرحوم في قرية (السقا) من أعمال أبها في عسير في الثلث الأخير من القرن الثالث عشر الهجري، وإلى ذلك يشير في إحدى قصائده :

وأرض بها علي نيطت تمائمي *** تسمى (السقا) دار الهداة أولي الأمر

بلاد بني تمام حيث توطنوا *** وآل يزيد من صميم ذوي الفخر

وقد نشأ في قريته حتى راهق البلوغ ثم انتقل مع والده إلى بلد الرياض أيام الإمام فيصل بن تركي رحمه الله، وقد كانت حينذاك آهلة بالعلماء الأكابر فأخذ العلم عنهم لا سيما عن الإمامين الجليلين : الشيخ عبد اللطيف بن الشيخ عبد الرحمن ابن حسن، والشيخ حمد بن عتيق.

فبرع في كثير من العلوم وعلى الخصوص في علم التوحيد والفقه واللغة.

ثم تولى الكتابة للإمام عبد الله بن فيصل برهة من الزمن، ثم استقال وتفرغ للعلم فدرس على علماء وقته أمثال الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف وأخيه الشيخ إبراهيم، وعمهما الشيخ إسحاق بن عبد الرحمن.

وكان جميل الخط فاشتغل في نسخ كثير من الكتب الجليلة، وقد كان هذا وابتعاده عن الناس أكبر مساعد له على الدرس والمطالعة.

وكانت عنده كناشة كبيرة يجمع فيها ما يجده أثناء النسخ والمطالعة من المسائل الدقيقة والقضايا العويصة وكان يرجع إليها عند الحاجة.

وكان ضليعًا في اللغة العربية، واقفًا على أسرارها.

وقد كان رحمه الله يميل إلى السكون والابتعاد عن الشهرة، فكان زاهدًا تقيًّا صادعًا بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم.

وقد صنف المصنفات العديدة من نثر ونظم، أكثرها في الرد على أهل الزيغ والإلحاد، منها :

(1) الأسنة الحداد في الرد على الحدّاد.

(2) الضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق.ويريد به داعية التعطيل في هذا العصر : جميل صدقي الزهاوي.

(3) تنبيه ذوي الألباب السليمة.

(4) الهدية السنية.

(5) إقامة الحجة والدليل.

(6) تبرئة الشيخين.

(7) الصواعق المرسلة.

(8) إرشاد الطالب.

(9) رسالة في الرد على أناس من الإحساء.

(10) رسالة في الرد على العلجي.

(11) كشف غياهب الظلام.

(12) فتاوى.

وغيرها من الكتب والردود.

وقد جمع ورتب رسائل أستاذه الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ فبلغت نحو عشرين كراسة سماها (عيون الرسائل والأجوبة على المسائل) وكان المرحوم شاعرًا بليغًا جمع قسمًا من قصائده وأشعاره في ديوانه المسمى (بعقود الجواهر المنضدة الحسان) وقد طبعت جميع كتبه على نفقة حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود المعظم ووزعت على طلاب العلم مجانًا.

هذا ما اتصل بنا من ترجمة المرحوم الأستاذ رحمه الله تعالى.

وفي الجملة فقد كان رحمه الله من سيوف الله المسلولة على أهل الزندقة والإلحاد، وصاحب الحجة الدامغة في دفع الشبه والريب التي يذيعها أهل المروق من الدين، والذين كان يغريهم شياطين السياسة من المرتزقة المرذولين.

وكان شديد الصراحة فيما يعتقد من الرأي، لم يعرف المحاباة في رأيه مدة حياته وهو في كل مجالسه حفيًّا بالسؤال عن كل ما يطبع من الكتب النافعة كما يحرص على اقتنائها.

وقد كفّ بصره في آخر حياته ولكن ذلك لم يمنعه عن المطالعة والتأليف وتفقد الذين يطعنون في الإسلام وفي دين التوحيد الخالص لرد كيدهم إلى نحورهم.

وبهذا كان رحمه الله ركنًا من أركان الدعوة إلى الله، والسيف القاطع لمن يريد أن يصد الناس عن سبيل الله.

فنسأل الله أن يُنزل عليه غيث رحمته، وأن يوفق للعمل كي ينشأ كثيرون من طلبة العلم على منوال الشيخ المرحوم؛ فلا تفقد نجد بهجة علمها وعلمائها.

الشيخ أبو بكر خوقير[147]
وفاته وملخص ترجمته
(1)

فاجأتنا أنباء الحجاز في الشهر الماضي بوفاة صديقنا العالم العامل المصلح الشيخ أبو بكر خوقير، تغمده الله تعالى برحمته، فننشر للقراء موجزًا من ترجمته كما علمناه من أصدق إخواننا وإخوانه.

فنقول :هو أبو بكر بن محمد عارف بن عبد القادر بن محمد علي خوقير.

من بيت علم بمكة، ولد فيها وتفقه أولاً على مذهب الحنفية تبعًا لآبائه، ثم إن أستاذه مفتي مكة الشيخ عبد الرحمن سراج الحنفي أشار عليه وعلى آخرين من طلبة العلم بأن يتفقهوا في المذهب الحنبلي؛ ليكون في علماء الحجاز مَن يتولى منصب الفتوى في هذا المذهب بدلاً من علماء نجد؛ الذين كانوا يتولونه لعدم وجود أحد من علماء الحنابلة في الحجاز، ولم يكن هذا مما ترتاح إليه الحكومة العثمانية ولا أمراء الحجاز، فدرس الفقيه المذهب، وتمكن فيه وفي مذهب السلف في العقائد.

وقد عُين مفتيًا للحنابلة في أول إمارة الشريف حسين بن علي، ولم يلبث أن غضب عليه فعزله وعين بدله أحد الشافعية، فكان لا يُفتي للحنابلة إلا بعد مراجعته والأخذ بما يرشده إليه، وجعله الشريف حسين عضوًا في مجلس الشيوخ ثم عزله بعد سنة لاعتراضه على خوض محرر جريدة القبلة في تفسير القرآن بغير علم، وكان الشريف نفسه هو الذي يفسر بعض الآيات برأيه في بعض المقالات التي ينشرها في تلك الجريدة وفي بعض بلاغاته الرسمية أيضًا.

وقد امتحن وأُوذي إيذاءً شديدًا جزاءً له على إنكار البدع والخرافات ولا سيما بدع القبوريين والمتصوفين، حُبس أولاً ثمانية عشر شهرًا، ثم حبس ثانيًا نحوًا من سبعين شهرًا في عهد الشريف حسين، وحبس ولده الشيخ عبد القادر في سجن القبو الذي هو شر من سجن الحجاج بن يوسف، وقد سبق وصفه في المنار، فمات فيه صبرًا، وكان له ابن صغير فمات كمدًا وقهرًا، وخرج الشيخ من سجنه لا مال له، وإنما كان يصيبه قليل من أوقاف الحرمين التي تأتي من الآستانة ومصر والشام والعراق.

وكان قد اعتاد الاتِّجار بالكتب منذ عزله الشريف عون الرفيق من وظائف الحرم الشريف؛ إذ كان غضب على الشيخ عبد الرحمن سراج مفتي مكة ورئيس العلماء فيها فعزله وعزل جميع رجاله من المفتين والمدرسين.

وكان للفقيد منها إفتاء الحنابلة وإمامة الصلاة في مقام الحنابلة كما كان مدرسًا.

وكان يدعو للشريف عون بالرحمة لإلجائه إلى تجارة الكتب التي تعينه على العلم، فكان يذهب إلى الهند يحمل إليها من مطبوعات مصر ومكة ويعود منها ببعض مطبوعاتها إلى مكة، وقد جلست إليه في مكتبته في باب السلام غير مرة، وكان مهذبًا رقيق الطبع حسن المعاشرة على شدته في دينه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، حتى أن مجلسه لا يخلو من دعابة ما في المفاكهة، ونكت أدبية وتاريخية وكان يحب سماع الأصوات الشجية ولا يرى بها بأسًا.

(للترجمة بقية)

((يتبع بمقال تالٍ))

الشيخ أبو بكر خوقير[148]
تتمة ترجمته

وله مصنَّفات نافعة منها :

(1) فصل المقال وإرشاد الضال في توسل الجهال، طبع في مطبعة المنار بمصر.

(2) مسامرة الضيف في رحلة الشتاء والصيف، طبع في بيروت.

(3) ما لا بد منه في أمور الدين، طبع في مصر.

(4) حسن الاتصال بفصل المقال في الرد على با بُصيل وكمال.

(5) السجن والمسجونون.

(6) ما لا غنى عنه شرح ما لا بد منه.

(7) التحقيق في الطريق في نقد الطرق المتصوفة.

وهذه المصنفات لم تطبع وهي جديرة بالطبع.

وكان يقرأ لطائفة من الطلاب دروسًا في العلوم الدينية والتاريخية وغيرها في بيته بعضها بالنهار وبعضها بالليل، وهو لم يتعرّف إلى الملك عبد العزيز آل سعود إمام السلفيين ولم يطلب منه مساعدة ولا وظيفة على كونه أكبر علماء السلفيين وفقهاء الحنابلة في الحجاز، ولكن دلَّه عليه بعض العارفين بقدره فجعله مدرسًا في الحرم الشريف قبل وفاته بسنة.

توفاه الله تعالى في بلدة الطائف مصطاف الحجاز في يوم الجمعة غرة ربيع الأول من هذا العام بمرض الزحار عن عمر ناهز السبعين رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وجمعنا به في دار القرار مع المقربين والأبرار.

استدراك على ما نشر من الترجمة في الجزء الثالثفي عام 1324 و1325 كان الشريف علي باشا أمير مكة وهو الآن مقيم بمصر وفي إمارته كان الشيخ أحمد فتة الشافعي مفتيًا للحنابلة وكان الذي يكتب له الفتوى ويستشار فيها الشيخ أبو بكر خوقير.

لما صار الشريف حسين أمير مكة في سنة 1327 عين الشيخ أبا بكر خوقير مفتيًا للحنابلة ثم عزله، وعين الشيخ عبد الله بن حميد النجدي مفتيًا للحنابلة بمكة وحفيد الشيخ محمد بن حميد مفتي الحنابلة بمكة سنة 1290 وهو مؤلف (السحب الوابلة في تراجم الحنابلة) ذيل الطبقات للحافظ ابن رجب.

ثم عزل عبد الله بن حميد وعيّن الشيخ عمر باجُنيد الشافعي مفتيًا للحنابلة وهو من علماء مكة القبوريين - والآن دخل الوكر - وهو تلميذ با بصيل تلميذ دحلان.

وقد استدركت بهذا على عبارة الترجمة لئلا يقول الناس ليس بين خوقير وبا جنيد اتفاق حتى يكتب له الفتوى.

الشيخ محمد عبد العزيز الخولي[149]

رُزئت مصر، بل نهضة الإصلاح الإسلامي في هذا العصر، باغتضار الشيخ محمد عبد العزيز الخولي في شرخ شبابه وغضاضة إهابه، وغضارة معيشته، وصولة مجاهدته، بعد مرض فجأه على غرة فأقصده، بجهل الطبيب كنهه وعلاجه، لاستكماله ما كتب الله له من العمر، وإذا قُضي الأجل عمي البصر، وضاعت الحيل، وخاب الأمل.

مات الشاب الذي فاق الشيوخ حكمةً وعلمًا، وفات الكهول همةً وثباتًا وحِلمًا، وبَذَّ الشباب نجدةً وإقدامًا.

مات خطيب مصر المفوَّه، وواعظها الديني المؤثر، المبشر المنذر، الذي تخشع لوعظه القلوب، وتسيل الغروب، وتجيش الصدور، وتستهل الشؤون.

مات المصنف المدرس الصحيح العلم، الجيد الفهم، المتحري لهدى القرآن الحكيم، وهدي محمد خاتم النبيين، صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم في التزام سنته، والنصح لأمته.

نعم، مات أخونا وصديقنا وأحد أركان جماعتنا دعاة الإصلاح على المنهج الذي تقتضيه حال الزمان، من هدم الخرافات والبدع، وإقامة قواعد السنن، والقيام بحقوق الروح والجسد، واستقلال العقل والفكر، والجمع بين الدين والعلم، والعمل النافع في عمران الدنيا والاستعداد للآخرة، فحزنت لموته القلوب، وفاضت الدموع، وإنا على فقده لمحزونون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

كان أول عهدنا بمعرفته سنة 1331؛ إذ اشترك في مجلة المنار وصار يتردد علينا للمذاكرة والبحث، وكان طالبًا في مدرسة القضاء الشرعي، فكانت قراءته للمنار وزياراته لنا في بعض

الأحيان مقوية لاستعداده لمعرفة حقيقة الإسلام، والاهتداء بهما للعمل والتعليم على منهج الإصلاح.

ولما حان وقت امتحانه النهائي لنيل شهادة المدرسة، وكان لا بد له من كتابة رسالة في أحد المباحث العلمية الدينية للتقديم بين يدي الامتحان اتباعًا للعادة الملتزمة - اختار بحث السنة وعلومها وتاريخها، فكتب رسالته التي سماها (مفتاح السنة - أو تاريخ فنون الحديث) وكان يستشيرنا في تأليفها وفي الكتب التي يستمد منها، وفي الوقوف على أخبار المشتغلين بعلم السنة في الأقطار الإسلامية في عصرنا.

ونشرنا له هذه الرسالة في مجلد المنار الثاني والعشرين وطبعناها مستقلة في مطبعة المنار سنة 1329 (1921 م) وقدمها للمدرسة فنالت حسن القبول.

وقد نَوَّهَ رحمه الله تعالى في أواخر هذه الرسالة بما كان من تأثير مجلة المنار في نشر السنة والاهتداء بها؛ إذ قال في فصل (حال السنة في عصرنا الحاضر) ما نصه (ص61 من الطبعة الأولى) : (ولما كانت مجلة المنار سلفية المنهج، وكانت عنايتها موجهة إلى محاربة البدع، والرجوع بالدين إلى ما درج عليه الرعيل الأول من السلف، وكان ذلك داعيًا للعناية بالسنة والبحث فيها وفي فنونها، والاستدلال بها في الفتاوى وغيرها - كان لها أثر صالح في نشر السنة وتكثير سواد الطالبين لها في الأقطار الإسلامية المختلفة) اهـ.

وبقي لنا عليه دَين أدبي كان يعد بوفائه من غير مطالبة، وهو تقريظ تفسير المنار كما قرظه أخص إخوانه من علماء الأزهر وغيرهم، وكان يسوِّف فيه؛ ليجد فرصة لكتابة شيء لم يسبقه إليه غيره، فرحمه الله وعفا عنه.

خلاصة ترجمته

قال صديقه ورفيقه في الطلب والتدريس الأستاذ الشيخ مصطفى محمد خفاجي المدرس في تجهيزية دار العلوم في تأبينه إياه في حفلة المدرسة (في 26 ذي الحجة) :

(وُلد رحمه الله ببلدة الحامول من أعمال المنوفية سنة 1310 من الهجرة، ولما أتم حفظ القرآن وتجويده التحق بالجامع الأزهر كسائر أهل بلده إذ ذاك (كذا).

ولكنه لم يرُقْه ما كان عليه من الفوضى، فولى وجهه شطر الإسكندرية وانتسب إلى معهدها؛ إذ كان على شيء من حسن النظام والدقة، فقضى به أربع سنين إلا بعض السنة، ثم تاقت نفسه الوثَّابة وآماله البعيدة إلى الالتحاق بمعهد يكون أدق نظامًا وأعلى إحكامًا، فكانت مدرسة القضاء الشرعي طِلبته، ومغناها بُغيته، فألقى عصاه بذُراها، وانتظم في طلبتها وذلك سنة 1329هـ الموافق سنة 1911 ميلادية وما زال بها الطالب المجد والجندي القوي حتى أتم تسع السنين.

ثم غادرها إلى حلبة الحياة العملية وقد اتسعت أمامه الأرجاء، وانفتح لمداركه وآماله مغلق الأنحاء، فعُين مدرسًا بالمعهد الذي تخرج فيه سنة 1922.

ولما أنشئ به قسم التخصص في الشريعة الإسلامية، كنا ممن اختير ليدرس في هذا القسم، ولما عصفت الأعاصير بذلك المعهد الشامخ نقلنا إلى مدرسة دار العلوم، حتى إذا كان صيف العام الماضي، نقلنا إلى المدرسة التجهيزية حيث نحن الآن، ثم غادرنا إلى الدار الآخرة قبل شهر كامل من اليوم) (أي في 25 ذي القعدة).

ثم ذكر خلاصة ما علمه بالمعاشرة، والمزاملة في المدرسة، من شمائله وآدابه وأخلاقه، وأسلوبه في المدرسة، ومنزعه في الخطابة والوعظ، وصلته للأرحام، ووفائه للخلان، وغيرته على الدين، واهتمامه بأمر السلمين، وذكر أنه لقي في طريقته الوعظية التي جرى عليها في المساجد معارضة من الخرافيين الجامدين، فنصره الله عليهم.

وأقول : إن الخطابة الدينية قد ارتقت في هذه السنين بمصر ارتقاءً يبشر بخير عظيم، فنبغ فيها طائفة من علماء الخطباء العارفين بحال الزمان، يُرجى فيهم الخير الكثير في هداية العوام، الذين زادهم جهلاً على جهلهم، وضلالاً على ضلالهم خطباء الفتنة الذين يلقون على منابرهم خطب الدواوين المعروفة، وكان فقيدنا رحمه الله تعالى في الذروة منهم.

ومن عرف كنه ما هبطت إليه الخطابة الدينية في المساجد الإسلامية بموت العلم وإفساد الملوك والأمراء الفاسقين للعلماء الرسميين وأنها صارت في هذا العصر مشوهة للإسلام في نظر المتعلمين المصريين، ومعززة للخرافات في أنفس العوام الجاهلين - علم أن مثل فقيدنا اليوم خير لدينه وأهل ملته من ألف عالم من هؤلاء المتأخرين الجامدين، حتى من يعدونهم من كبراء المصنفين، كالشرقاوي والباجوري والإنبابي والسقا وأضرابهم.

وكتابه في الوعظ والخطابة، ورسالته في تاريخ الحديث أنفع من كل تلك المصنَّفات ودواوين الخطب التي ليس لأحد منهم تحقيق مسألة دينية نافعة.

فرحمه الله رحمة واسعة، آمين.

نعي السيد الجليل[150]

السيد محمد بن عقيل تغمده الله برحمته

الحمد لله الباقي بعد فناء خلقه.

حضرة العلامة الجليل الأستاذ العزيز السيد محمد رشيد رضا، حفظه الله تعالى.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(وبعد)

فننعي إليكم بمزيد الشجن، وعظيم الحزن والدنا الجليل، العلامة فقيد العلم والإسلام، مولانا البركة السيد محمد بن عقيل بن يحيى، توفي رحمه الله في الساعة الثالثة من صباح يوم الثلاثاء الموافق 13 ربيع الأول على أثر حمى لزمته نيفًا و3 أسابيع.

وقبل التحاقه بالرفيق الأعلى بيومين أكثر من الصلاة مع ضعفه المتناهي حتى خارت قواه، ولفظ النفس الأخير، ولقد عظم المصاب علينا بموته، وانفطرت لهوله أفئدتنا حزنًا وشجنًا رحمه الله، ولكن ماذا عسى أن نقول إلا ما يرضي الرب سبحانه وتعالى : إنا لله وإنا إليه راجعون.

فعظَّم الله أجورنا جميعًا وعزاء الإسلام وأهله، والعلم وطلابه في فقيدنا الجليل، ومما يخفف الشيء الكثير من حزننا مشاطرة الحكومة المتوكلية اليمانية في مصابنا، فقد شيعت الفقيد مئات الجيوش منكسة أسلحتها، كما شيعه رجال الدولة والأهلون عن بكرة أبيهم، فنشكره إليكم جد الشكر، ونسأل الله أن يتغشى راحلنا الكريم بالمغفرة والرضوان، وأن لا يريكم مكروهًا قط، والسلام.

الحديدة 14 ربيع الأول سنة 1350.

الحزين/ عبد الله بن يحيى

الباكي / علي بن محمد بن عقيل

(المنار)

جاءنا هذا النعي لصديقنا الكريم، وولينا الحميم، في فترة احتجاب المنار، وحبسنا للنفس على إتمام تاريخ الإمام، ولما تم التاريخ واستأنفنا تحرير المنار شرعنا في كتابة ما نرى فيه الفائدة والعبرة من مناقبه وسيرته، وكتابة مثل ذلك من سيرة سيدتنا الوالدة رحمهما الله تعالى، فضاق هذا الجزء - وكان قد طبع أكثره - عن سيرتهما، فقدمنا سيرةَ مَن حَقُّها علينا أعظم، وأخرنا الآخر إلى الجزء التالي، وإنني لأنكر الحكم (بالرفيق الأعلى) له ولكل أحد بعد خاتم النبيين وسيد ولد آدم، وهو إنما كان يدعو الله بها لنفسه عند وفاته صلى الله عليه وسلم، وأسأل الله تعالى لفقيدنا الكريم الرحمة ولآله وأصدقائه حسن العزاء والصبر.

((يتبع بمقال تالٍ))

السيد محمد بن عقيل بن يحيى[151]

ذكرنا في آخر الجزء الأول من هذا المجلد (32) خبر وفاة هذا السيد النبيل، وإننا شرعنا في كتابة ما نرى فيه الفائدة والعبرة من سيرته، واضطررنا إلى تقديم سيرة والدتنا بالنشر عليها، وقد سافرنا بعد ذلك إلى القدس لحضور المؤتمر الإسلامي العام، وبعد العودة إلى مصر والشروع في طبع الجزء الثاني أردنا أن ننشر فيه ما كتبنا من سيرته ونزيد عليها فَضَلَّتْ عنَّا فلم نجدها، فلا ندري أسقطت في الورق المهمل الذي يخرجه الخادم من مكتبنا أم ضلت بين أوراق أخرى، وقد نُشرت ترجمته - رحمه الله - في كثير من جرائد الأقطار الإسلامية وعقدت له حفلات تأبين في مصر وجاوة، وإنني أفي بوعدي بنشر شيء من سيرته أستأنف كتابته، فأقول :

كان - رحمه الله تعالى - قوي الجسم والعقل ذكي الذهن، زكي النفس، عالي الهمة، واسع الاطلاع على الكتب الإسلامية من شرعية وأدبية وتاريخية، مختبرًا لأهل هذا الزمان، عارفًا بشؤون السياسة الدولية، وأحوال الشعوب الشرقية والغربية، فإن له عدة رحلات من بلاده حضرموت إلى جاوة والحجاز ومصر والهند والصين واليابان وأوربة الشرقية والغربية.

وكان قوي الذاكرة، حسن المذاكرة، ذا بديهة حاضرة، وعارضة ماضية، وعبارة سلسة في الكتابة لا ركاكة فيها ولا براعة، ولا أعلم شيئًا عن حظه من الخطابة، وكنت أول عهدي بطلب العلم بطرابلس الشام أقرأ في المؤيد مقالات معزوة إلى الرحالة سيف الدين اليمني ثم علمت أنها له.

وأما أخلاقه فصف ما شئت من عزة نفس، وسخاء كف، وشجاعة وإقدام، وعفة وورع، ووفاء ومروءة، واهتمام بالمصالح القومية والملية، ولولا أنه شغل بالتجارة لكان من أكبر زعماء الأمة العربية ودعاة الإصلاح الإسلامي فيها.

وكان كثير الزواج يجمع ما طاب له من النساء مثنى وثلاث ورباع، وكثير النسل والإنتاج، أخبرني سنة 1330 أن أولاده وأحفاده يزيدون على خمسين نسمة وهم متفرقون في بلاد مختلفة، وأنه لا يعرفهم كلهم بأشخاصهم، وأنه لا يعلم عدد من مات منهم، ولم يكن هذا بشاغل له عن أعماله التجارية، ولا عن أبحاثه العلمية والسياسية.

وقد نشأ على مذهب الشافعية تربية وتعليمًا وعملاً، ولكنه كان مع ذلك مستقل الفكر في المسائل العلمية والدينية، إلا فيما ملك وجدانه من شعور السيادة ولوازم عصبيته.

ولما ظهر المنار في أواخر سنة 1315 بدعوته الإصلاحية في الدين والاجتماع واللغة كان من السابقين إلى الاشتراك فيه ثم عني بنشره في سنغافورة وجاوة وسائر الجزائر الإندونسية، واتصلت المودة والمكاتبة بيننا بقوة وحرارة، ثم فترت في السنوات الأخيرة لما سأذكره، وقد أنشأ في جاوة مع بعض الإخوان مطبعة ومجلة إسلامية سماها (الإمام) وكتب إليَّ أن الغرض منها نشر مقاصد المنار الإصلاحية بلغة البلاد الملاوية، وأن جل اعتماده فيها على ما يترجمه عنه.

وأول خلاف في الآراء وقع بيننا مسألة لعن معاوية وأن دعاة التشيع من العلويين قد أثاروها في جاوة أو أندوسية كلها واستُفتيتُ فيها، فأفتيت بعدم الجواز وبينت ما في هذا الشقاق من الضرر والتفرق بين المسلمين بدون مصلحة راجحة تقابله، وفيها ألَّف كتابه المشهور (النصائح الكافية) وعذر كل منا أخاه في اجتهاده.

ثم تفاقمت دعاية الرفض والغلو في آل البيت وسلائلهم في تلك الجزائر فكان من زعمائها بالتبع لأستاذه السيد ابن شهاب كما بيَّنت ذلك في ترجمة هذا عقب وفاته؛ ولكنه لم يكن داعية لما وراء ذلك من الخرافات كعبادة الموتى من السادة وغيرهم من الصالحين بدعائهم والطواف بقبورهم، ولما كان الغلو والإفراط في طرفي كل أمر يثير الغلو في الطرف الآخر، ظهر في تلك الجزائر خصوم كثيرون للسادة العلويين وتفاقم الخلاف، واستشرى به الشقاق، وهو ما كنا نخشاه ونتوقعه، وظهرت في أثناء ذلك جمعية عربية باسم (جمعية الإرشاد) غرضها إنشاء المدارس ونشر التعليم الديني والمدني الذي تقتضيه حالة العصر من الاستقلال وإحياء هداية الكتاب والسنة ومقاومة الخرافات الفاشية من طرق الابتداع في الدين، وجرَّ ذلك إلى إنكارهم على العلويين ترفعهم بأنسابهم على الناس بما يعد احتقارًا لعلمائهم وأهل الوجاهة منهم، وأفرط بعضهم في ذلك.

وقد طلبت مني جمعية الإرشاد مرة أن أختار لها بعض المعلمين لمدارسها من مصر فأجبتها إلى ذلك بما أمرنا الله تعالى به من التعاون على البر والتقوى، وإنما يقومان على أساس العلم.

فكتب إليّ السيد محمد بن عقيل - عفا الله عنا وعنه - كتابًا ينكر علي فيه مساعدة هذه الجمعية الضالة المضلة، في زعمه، بل وصفها بما هو أقبح من ذلك، ثم أذاع بعض العلويين أنني أنصر الإرشاديين عليهم، وهم مخطئون، فأنا لا أنصر إلا ما أعتقد أنه الحق ولو كنت أتبع الهوى لكان هواي مع العلويين؛ لأنني منهم وأهل العلم الصحيح منهم يعلمون ذلك.

وقد علمت منه أنه ترك مذهب الشافعي لا إلى اتباع الدليل، بل إلى تقليد مذهب العترة أو آل البيت - أي مذهب الزيدية - وأخبرني أنه حاول إقناع الملك حسين بنشر هذا المذهب في الحجاز والحكم به دون مذهب أبي حنيفة الذي أجبرت دولة الترك شرفاء مكة على تقليده، فلم يقبل فغضب عليه، ولعل هذا سبب ما أرسله إليّ من مكة وقتئذ في الطعن على الملك حسين، ووصف ظلمه واستبداده وقسوته في سجنه وغيره مما نشرته وقتئذ، واعتمدت عليه في الخطاب العام الذي وجهته إلى العالم الإسلامي في القيام عليه.

ثم سعى لدى شيخ الأزهر في مصر لتقرير تدريس هذا المذهب في الأزهر فلم يقبل، وأنا لم أنكر عليه هذا السعي؛ لأن مذهب الزيدية في الفقه كغيره من المذاهب الأربعة التي تدرس في الأزهر، وقلما يخالف بعضها في حكم إلا ويكون موافقًا للآخر منها؛ وإنما كنت أعارضه قولاً وكتابة هذا الغلو في العلويين الذي تأباه حالة البشر الاجتماعية في هذا العصر الذي فشت فيه فكرة المساواة وما يسمونه (الديمقراطية) وهم مهما يكن من غلوهم في تعظيم آل البيت النبوي، فلن يصل إلى غلو من قبلهم من الشيعة الظاهرية والباطنية، وكله عرضة للضعف فالزوال.

وقد عرضت عليه وعلى غيره في تلك الأثناء رأيًا لن يجد العلويون من الحضارمة ولا من غيرهم أمثل منه لإحياء مجد آل البيت النبوي وحمل جميع المسلمين على حفظ كرامتهم وإعلاء شأنهم وتفضيلهم على غيرهم بالطوع والاختيار، وهو ما سأذكره في النبذة التالية إن شاء الله تعالى.

((يتبع بمقال تالٍ))

تتمة ترجمة السيد محمد بن عقيل[152]

(2)

كنت أود لو أتيح لي كتابة ترجمة لصديقي السيد محمد بن عقيل رحمه الله في وقت فراغ يسهل علي أن أراجع مكتوباته الكثيرة المحفوظة عندي وما نشرته في المنار من المسائل الإصلاحية التي اختلف فيها رأينا واعتقادنا؛ ولكنني لا أملك من هذا الفراغ كثيرًا ولا قليلاً، لهذا أقتصر على مسألة واحدة هي أمها وأهمها.

اقتراحي على العلويين وشيعتهم :

أنا أعتقد أن شر ما مُني به الإسلام هو الخلاف والشقاق، وأن أضر أنواعه ما كان بين أهل السنة والشيعة، فلقد كان كل ضر دون ضره، وكل شر أهون من شره، ولا أستثني ردة المرتدين ولا قتال الكافرين، ولا ظلم المستبدين، وأعتقد أيضًا أن الغلو في أئمتنا آل البيت العلوي النبوي عليهم السلام كان أضر عليهم من كل ما أصيبوا به من البلاء والمحن، بل كان هو سبب أكثرها.

إنما أستثني عداء بني أمية لهم فهو عداء موروث من عهد الجاهلية أذكى ناره في قلوبهم بعد الإسلام حب الرياسة وعظمة الملك، ولَذَّات الدنيا، واعتقادهم أن أولئك الأئمة أولى وأحق بالإمامة منهم، وأن الأمة لو تُركت وشأنها فإنها تفضلهم عليهم.

وأعتقد أن شر ذلك الضرر على أكثر سلائل أولئك الأئمة الهادين المهديين هو ما حدث في أنفسهم من اعتقاد أن شرف النسب أعلى من شرف العلم والعمل لإعزاز الملة، ومصالح الأمة، وأنه يغني عنه فيما تحبه الطباع من كراهة الجاه ونعمة المال، فأعرض الأكثرون منهم عن الجد والاجتهاد في تحصيل العلوم والفنون، والجهاد في سبيل مصالح الأمة العامة، اكتفاء بشرف النسب الذي يجذب الرؤساء والحكام إلى تقبيل أيديهم والأغنياء إلى بذل كثير من المال لهم، فصار جميع

الذين فتنوا بهذا المظهر منهم عالة على الناس، ولقد حرَّم الشرع عليهم الصدقات تكريمًا لهم فأحلوها لأنفسهم بهذه الفتنة، وتوهمهم أن تقبيل المتصدقين عليهم لأيديهم ينافي كون تلك الصدقة من أوساخهم التي كرمهم الشرع بمنعهم منها.

حدثني صادق باشا أحد شرفاء مكة المشهورين، قال : إنني أردت أن أُعلِّم أولادي في مدارس الدولة في الآستانة فبلغني رئيس كتاب السلطان عبد الحميد أن جلالة السلطان لا يرضيه ذلك لأنه لا يليق بأبناء الرسول صلى الله عليه وسلم أن يزاحموا سائر طبقات الناس في المدارس توسلاً بها إلى الدنيا، وأن أكبر رجال الدنيا ليقبلون أناملهم تبركًا بهم وتقربًا إليهم، فأحضرت لهم معلمًا يلقنهم الدروس في داري فبلغني (الباشكاتب) كراهة السلطان لذلك ومنعني منه، والسبب الباطن لهذا المنع أن السلطان كان يكره أن يوجد في أبناء هذه الأسرة المشهورة في الأشراف علماء يعرفون أصول الشرع وطبائع الأمم وسنن الاجتماع لئلا تسمو هممهم بالعلم إلى قيادة الأمة التي تمكِّنهم من ناصية الملك.

فلما رأيت ما يبثه السيد محمد بن عقيل وشيخه السيد أبو بكر بن شهاب - عفا الله عنهما - من تجديد الغلو في إطراء العلويين والاحتجاج لهم في استعلائهم على الناس بأنسابهم، حتى بما يجدد التفريق بين المسلمين وإلقاء العداوة والبغضاء بينهم من الطعن في بعض الصحابة وأئمة السنة - اعتقدت أن هذه الدعاية ستأتي بضد ما يرومه دعاتها منها في هذا العصر الذي تغلغلت في شعوبه وأقوامه كلها نزعة المساواة التي يعبرون عنها في عرف هذا العصر بكلمة (الديمقراطية) وأنه ستهيج عليهم الناس وتحملهم على بغضهم والطعن فيهم وفي أنسابهم - وكان الأمر كذلك كما تقدم - ففكرت في تلافي هذا الشر قبل تفاقمه، وتوجيه عصبية النسب إلى عمل لا يمكن إعلاء شأن أهل البيت النبوي، وحمل المسلمين كافة على الاعتراف بفضلهم وشرفهم في هذا العصر بغيره، فاهتديت لما أذكره هنا بمعنى ما كتبته يومئذ لعدم تمكني من مراجعته، وربما كان هنا أوضح من ذاك :اقترحت عليه السعي لإنشاء مدرسة جامعة خاصة بآل البيت يتخرج فيها الإخصائيون النابغون في جميع العلوم الدينية والدنيوية والفنون التي عليها مدار العمران في هذا العصر، فيكون منهم الذين ينفردون بعلوم القرآن، ويكونون المرجع للأمة في تفسيره وبيان إعجازه وصراط هدايته المستقيم، وما أودع فيه من الحكمة وإصلاح البشر، ودفع الشبهات التي تحوم حوله، وسائر ما يعرض للناس في هذا العصر من ذلك.

ويكون منهم حفاظ الحديث وعلماء روايته ودرايته وتحرير كل ما يحتاج الباحثون إلى تحقيقه فيه من جرح وتعديل واستنباط لما قصر فيه المتقدمون من حكمه وأحكامه وسياسته وسائر ما يحتاج إليه أهل هذا العصر من هدايته.

ويكون منهم أئمة الفقه وأصول التشريع القادرون على بيان ما في الشريعة السمحة من أصول الإصلاح للبشر الذي تفضل به جميع القوانين الوضعية، وأساتذة علوم اللغة العربية وآدابها الناهضون بترقية التعليم والتصنيف فيها على المناهج التي ارتقت بها لغات الأمم الحية والمتقنون لجميع اللغات الراقية.

ويكون منهم الأطباء في كل فرع من فروع الطب والمهندسون البارعون في كل نوع من أنواع الهندسة والفلكيون وعلماء الاقتصاد السياسي والماليون.

ونقول باختصار : يجب أن يتخرج منهم في هذه الجامعة كل صنف من العلماء والعاملين الذين تحتاج إليهم الأمة الإسلامية فيما يجب أن تتوجه إليه في نهضتها التي تحيي بها مجد الإسلام وسيادته وإصلاحه للبشر ليتولوا ترقية التربية والتعليم والإرشاد والتهذيب في المدارس وتأليف الجمعيات الدينية، والعلمية والخيرية، والأحزاب الاجتماعية والسياسية والشركات المالية وغير ذلك، وحينئذ تعلم الأمة أن سلائل آل بيت نبيها هم سادتها وأئمتها وسفينة نجاتها مما سقطت فيه من الذل والجهل والتفرق والتمزق.

ويتوقف هذا المشروع على وضع نظام لجمع المال الكثير له من جميع أقطار الأرض بطريقة مأمونة موثوق بها، يقتنع كل من وقف عليها بأن ما يدفعه سيصرف في الغرض الذي جبي لأجله، وعند الشروع في جباية المال يعلم المحبون الصادقون لآل البيت، ويعلم المنافقون والمقلدون الذين ينحصر حبهم لهم في مآتم عاشوراء، ونقل رمم الموتى إلى النجف والكاظمية وكربلاء، وما إلى ذلك من البدع التي سيقضي عليها روح هذا الزمان بسرعة عجيبة.

قد انتشر اقتراحي هذا واشتهر حتى إن بعض المخلصين من شيعة العراق طبعوه في رسالة صغيرة نشروها في الناس؛ ولكن السيد محمد بن عقيل الذي كان أول من خوطب به وعرف قيمته لم تسم به همته إلى السعي لتنفيذه ولا سعى غيره من العلويين ولا من الشيعة لذلك.

بيد أن الملك فيصلاً أنشأ في بغداد مدرسة باسم (جامعة آل البيت) لم يتح لها من رجال العلم وأئمة الإصلاح من يعطيها حقها، فقضي عليها في مهدها.

وأختم هذا البحث هنا بكلمة نصح أخص بها إخواني مؤسسي جمعية الرابطة العلوية في جزائر الهند الشرقية وغيرها (والرائد لا يكذب أهله) وإن اتخذني الجاهلون منهم خصمًا لهم، وهي : تساهلوا ما استطعتم في الصلح بينكم وبين الإرشاديين، واعلموا أن التواضع خير لكم من التكبر، وأن تفضيل الناس لكم بشرف النسب لن يكون في هذا الزمان إلا بوسيلتين أقربهما وأسهلهما مكارم الأخلاق وعمل البر، وأبعدهما النبوغ في العلوم والأعمال الإصلاحية العامة التي اقترحتها عليكم من قبل، واعتبروا بالدولة البريطانية (الأرستقراطية) التي صار رئيس وزارتها من حزب العمال، واعلموا أن تكريمكم لنسبكم رهين بحفظكم لحرمته بأدبكم، ولا تنسوا قاعدة الشرع في الغنم والغرم، فمن يؤتى أجره مرتين، يضاعف له العذاب ضعفين، وسأفصِّل هذا في مقال مستقل إن شاء الله.

(للترجمة بقية)

قتل محمود شوكت باشا[153]

أهم حوادث هذا الشهر قتل محمود شوكت باشا الصدر الأعظم وناظر الحربية.

كان خارجًا بسيارته الكهربائية من نظارة الحربية فدنت منها سيارة أخرى عند وقوفها في الطريق بسبب مرور جنازة وأطلق عليه الرصاص ثلاثة نفر منها، فخرَّ صريعًا في الحال وطارت سيارة الجناة فلم يدرك لها أثر، وقد عرا جماعة الاتحاديين الوجل والذعر لهذه الفاجعة، وهمَّ زعماؤهم بالفرار من الآستانة أو الاستخفاء فيها؛ فكان أثبتهم جأشًا جمال بك محافظ العاصمة فثبتهم وبادر إلى إلقاء القبض على كل من وجد من خصوم الاتحاديين السياسيين الذين كان يصرف جلّ أوقاته في مراقبتهم وأسلمهم إلى ديوان الحرب العرفي، وكل رجاله من الاتحاديين، فعذبهم وأساء معاملتهم، فألقى الرعب في قلوب أهل العاصمة وتمكنت الحكومة والجمعية من الاحتفال بجنازة قتيلها فكان عظيمًا، وجعل ناظر الخارجية البرنس سعيد باشا حليم صدرًا أعظم.

ثم لم يلبث ديوان الحرب أن سجن مئين ونفى مثلهم وحكم بالإعدام على عشرة من كبار الزعماء الذين جعلهم جمال بك في موضع التهمة بالاشتراك بالقتل أو التدبير له، وبادرت الحكومة بأخذ توقيع السلطان (الإرادة السنية) بقتل من قبضت عليه منهم، وفي مقدمتهم صالح باشا بن خير الدين باشا التونسي الشهير وهو من أصهار السلطان، وروت الجرائد أن أخت السلطان شفعت عنده في زوجها وبكت وأبكت ولم يمكن العفو عنه لإصرار الاتحاديين على قتله؛ لأنه من أكبر خصومهم.

وحكموا أيضًا على صباح الدين أفندي ابن أخت السلطان فاستخفى بمساعدة بعض الأجانب وفرَّ كثيرٌ من خصومهم السياسيين لاعتقادهم أن الجمعية ستغتنم هذه الفرصة للفتك بجميع من تظفر به من المخالفين لها في سياستها.

ومن جملة الذين فروا إسماعيل بك وكيل حزب الحرية والائتلاف وكان الاتحاديون قبل الحادثة قد عرضوا عليه تأليف الوزارة من الحزبين الاتحادي والائتلافي فأبى وقال : إن حزبه قد أعلن رسميًّا ترك العمل لمدة الحرب؛ لعدم التهويش على الحكومة بالسياسة فليس له صفة للاتفاق معهم الآن.

وكذلك كانوا كلموا صباح الدين أفندي في الاتفاق معهم فأبى.

ذلك بأنهم كانوا يشعرون بضعفهم ونفور الأمة منهم وكيد الأحزاب لهم فكان قتل زعيمهم قوة لهم؛ لأنه كان من قبل الأفراد لا الأحزاب كما علمنا فجعلوه حجة لتنكيل الحكومة بالرجال الذين يخالفونهم.

اختلف العثمانيون والإفرنج في الثناء الحسن والقبيح على محمود شوكت باشا كما شأن الناس في كل من ينال شهرة، والحق الذي ظهر لي من كلام المختلفين واختباري الشخصي بلقائه مرارًا متعددة في الآستانة وسماعي كلامه وآراءه وكلام العارفين فيه أنه رجل عسكري غير سياسي، وأن معارفه العسكرية أكبر من شجاعته، وأنه كان يخاف جمعية الاتحاد والترقي فجاراها على إشغال الجيش بالسياسة وكان يتربص الفرص لإزالة سلطتها من الدولة إلى أن اتهمه مجلس المبعوثين بالتواطؤ مع حقي باشا الصدر الأعظم على إضاعة طرابلس الغرب وطلب محاكمته معه فلم يجد أمامه ملجأً يحميه من المجلس إلا الجمعية التي أضاعت نفوذها من المجلس فكاد يسقط وزارتها بتهمة الخيانة، عند ذلك ساعدها محمود شوكت باشا بنفوذه وتأثيره في القصر السلطاني فأصدر لها إرادة من السلطان بحل المجلس وصار معها بقلبه وقالبه، ووثقت هي به، فولته منصب الصدارة ونظارة الحربية بعد إسقاطها وزارة كامل باشا الأخيرة بقتل ناظم باشا ناظر الحربية.

لما جئت الآستانة في أول شوال سنة 1327 للسعي في تأسيس جمعية الدعوة والإرشاد فيها كتبت إلى هادي باشا قائد الجحفل الثالث في سلانيك أستشيره في بدء السعي في ذلك فكتب إلي أن أبدأ بعرض المشروع على محمود شوكت باشا وأعمل برأيه وكتب إليه كتابًا يعرِّفه بي، فلما قابلته بيَّن لي رأيه في المشروع، وأن الإسلام والدولة في أشد الحاجة إليه وما يخشى من المقاومة له، وعهد إليَّ أن أذهب من قِبَله إلى الصدر الأعظم حسين حلمي باشا أولاً، ثم إلى ناظر الداخلية طلعت بك وأن أرجع إليه فأخبره بما يقولان، ثم كانت سيرته معي أو سيرتي معه هكذا : كلما تجدد شيء في السعي أخبره به ويذكر لي رأيه فيه، وقد كنت أجلس عنده الساعة والساعتين وأكتب من كلامه

ما أراه جديرًا بأن يكتب في دفتر المذكرات المؤرخ، ومنه كلمة فلتت بالمناسبة في رأيه في زعماء الاتحاديين أشرت إليها في مقال سابق من غير عزو إليه، وهي قوله بمناسبة وعد طلعت بك وحقي باشا بتنفيذ المشروع : (هل صدقت ؟ إن هؤلاء ظاهرهم غير باطنهم).

لو أن محمود شوكت باشا شجاع لأسقط الجمعية وأصلحها ولو أنه أمر بمحاكمة قاتلي سلفه ناظم باشا لما اشتد السخط عليه وأقدم مَن أقدم على قتله.

ذهب معي مرة لزيارته صديقي السيد عبد الحميد الزهراوي وكان مبعوثًا فأثنينا على خطبته التي خطبها في نظارة الحربية بوجوب امتناع الضباط من الاشتغال بالسياسة وقلنا له : إننا لا نزال نراهم على حالهم لم يمتنعوا، وذكرنا له حادثة كانت وقعت في نابلس من أقبح حوادثهم وأفظعها في العدوان، فقال : أما هنا فقد امتنع اشتغالهم بالسياسة، وأما في الأماكن البعيدة كبلادكم فيحتاج منعهم ألبتة إلى زمن، ولكن ظهر بعد ذلك رسميًّا ما كتبه في عريضة استقالته من نظارة الحربية أن قوله هذا غير صحيح.

وذكرنا له مسألة التناظر والتغاير بين الترك والعرب وأعمال رجال الدولة والجمعية التي أحدثت الخلاف وما يجب من تلافيه.

فقال : إنني أسمع كلامًا في هذا لا يعجبني وأرى مستقبل الدولة لنا نحن العرب؛ لأننا أكثر عددًا وأزكى فهمًا وأنشط في العمل، ولكن يجب أن ندخل أولادنا مدارس الدولة ونرتقي بها، ولكنه مع هذا لم يساعد العرب ولا كفَّ عنهم شيئا من العدوان بل هو الذي سير الحملات العسكرية إلى اليمن و الكرك و حوران إطاعة للجمعية.

على أن هذه الشدة هي التي كونت المسألة العربية الحاضرة.

وقد بلغنا من الأخبار الخاصة أنه كان في العهد الأخير عازمًا على إجابة العرب إلى مطالبهم الإصلاحية، وإن كان هو الذي أمر بتشديد حازم بك على طلاب الإصلاح في بيروت.

وقد أشار طلعت بك في كلام له نشرته الجريدة إلى ميل شوكت باشا إلى إجابة العرب إلى ما يطلبون من الإصلاح المعقول.

وبالجملة فإن للرجل -عفا الله عنه ورحمه - حسنات وسيئات وأمورًا متناقضة، والله أعلم بالسرائر.

***

احتجاج حزب المحافظة على حقوق الإنسان على فظائع الاتحاديين

لما اتصل بحزب حقوق البشر الفرنسيين خبر الأعمال الفظيعة التي ارتكبها الاتحاديون بحجة التحري عن قتلة شوكت باشا أرسل رسالة برقية بواسطة رئيسه إلى مولانا السلطان من باريس في 18 يونيو احتجاجًا على فظائع الاتحاديين وهذه ترجمة الرسالة :

اسمحوا يا صاحب الجلالة لأصدقاء مخلصين للدولة العلية أن يستغيثوا بما اتصفتم به من العدل والإنصاف باسم ستين ألفًا من الرعايا الفرنسيين أعضاء حزبهم؛ إذ قد يتعذر على الرأي العام الأوربي أن يتصور قيام حكومة في أيام سلطان محب للقوانين والتقدم لإلقاء القبض على الجموع العديدة عقب قتل شوكت باشا، وإلقاء العذاب الأليم بهم وإعدام المتهمين منهم دون أن تضمن لهم الحق بالدفاع عن أنفسهم.

أجل، إن الحكومات والشعوب لم تجنِ إلا العلقم من اتباع سياسة الإرهاب ولا شيء شر وأسوأ من التذرع بحجة جرم سياسي لإلغاء الحزب المعارض والقضاء عليه القضاء الأخير.

الإمضاء

رئيس الحزب

الشيخ محمد مهدي[154]

فُجع القطر المصري في الشهر الماضي فجأة بوفاة أخينا وصديقنا الكريم، وولينا الحميم، الأستاذ محمد مهدي بك وكيل مدرسة القضاء الشرعي ، والمدرس في القسم العالي منها، فكانت وفاته زلزالاً عظيمًا، ورزءًا أليمًا، وخطبًا جسيمًا، شعر بشدة وقعه عارفو فضله من العلماء والأدباء ولا سيما الذين تخرجوا به ، أو تلقوا عنه في المدارس الأميرية الابتدائية فالثانوية فالعالية - وآخرها دار العلوم والجامعة المصرية ومدرسة القضاء الشرعي - والذين عاشروه وحظوا بنصيب من آدابه النفسية واللسانية - فقد كان رحمه الله تعالى نادر المثل ، ومنقطع النظير في مجموعة أخلاقه وفضائله ومعارفه وآدابه.

إنني أذكر من ترجمته بعض ما سمعت ورأيت منه وما رويت عنه بالإيجاز ، وأختص ما كان من أمره في حزب الإصلاح ومريدي الأستاذ الإمام :

هو من عرق ألباني جاور في الأزهر سنين، وتخرج في مدرسة دار العلوم، وكان ممن تلقوا عن الأستاذ الشيخ حسن الطويل أحد أفراد علماء الأزهر في هذا العصر ، في استقلال الفكر وسعة الاطلاع والجرأة على مخالفة الجماهير في الرأي، وكان تلاميذه في الدرجة الثانية بعد تلاميذ الأستاذ الإمام الذين دخلوا هذه المدرسة في أول العهد بتأسيسها، وأعني درجات الاستعداد للإصلاح.

ولهذا كانوا أشد خريجيها رغبة في الاتصال بالإمام في قيامه بالنهضة الأخيرة، وأكثرهم استفادة منه، ولا غرو ! فقد كان الشيخ حسن الطويل صديقًا للشيخ محمد عبده وأستاذاً له في الأزهر قبل مجيء السيد جمال الدين إلى هذه البلاد، جمع بينهما الميل إلى العلوم العقلية، والبحث عن غير ما يقرأ في الأزهر، وكانا أول من لقي السيد، وسمع منه مباحث في تفسير بعض آيات القرآن الحكيم

، لم يطرق آذانهما مثلها، جذبت إليه ثانيهما ، فانقطع عن كل شيوخه وانفرد بصحبته وكان الوارث الأكبر له.

كان الجامدون من أهل الأزهر لا يستطيعون فتح أبصارهم في نور حكمة الأستاذ الإمام وعلمه الاستقلالي وآرائه الإصلاحية ، بل كان بعضهم كالأعمى، وبعضهم كالأعشى تجاه ذلك النور.

وكان تلاميذ الطويل يصرفون أبصارهم إليه إذا صرفت أبصار غيرهم عنه، فربما طرفت عين أحدهم عند النظرة الأولى، ولكنه لا يلبث أن يعيدها مرة بعد أخرى، حتى تقوى على إدراك ذلك النور وإدراك الحقائق به، وكذلك وقع للمهدي.

حدثني فقيدنا الكريم بأول عهده بمعرفة الأستاذ قال : ذهبت مع صديق لي إلى دار سعد بك زغلول في (الظاهر) ليلة ، فوجدت عنده الشيخ محمد عبده وقاسم بك أمين وآخرين، وكانوا يتكلمون في سوء حال المسلمين وما ينتقد عليهم من أمور دينهم ودنياهم، فرأيت أنهم مخطئون في بعض ما يقولون، وقد أردت أن أجول معهم فيما رأيته خطأ من أقوالهم وما يقرره الشيخ فيوافقونه عليه ، فألفيتني عاجزًا عن الرد عليهم وضقت بهم ذرعًا، فرأيت من الدهاء أن أورطهم فيما يظهر به خطأ رأيهم للناس ، فقلت للأستاذ بعد جولة قصيرة معه : إذا كان المسلمون بحيث تذكرون فما بالكم لا تبينون لهم ضلالهم، وتدلونهم على المخرج منه بمقالات تنشرونها في الجرائد ؟ - وكنت أمكر به؛ ليكتب فيتصدى للرد عليه من هم أقدر مني على ذلك - فقال الأستاذ : قد صدرت هنا جريدة جديدة ، لأجل هذه المباحث فيحسن بك أن تقرأها ؟ وذكر (المنار).

كان هذا القول سبب اشتراك الفقيد في المنار منذ السنة الأولى ، وتلا ذلك تعارفنا وتآلفنا، وكان في أول العهد به يجادلني في بعض مباحث المنار التي يرى فيها نظرًا أو خطأ، وكانت طريقته في المذاكرة أو المناظرة أنه يحفظ لنفسه خط الرجعة غالبًا، فلا يظهر رأيه بصيغة الجزم، حتى إذا ظهر له أنه مخطئ لم يشق عليه أن يعترف بالحق، وكان هذا دأبه طول عمره، وكان يسر بالفلج والإحسان والإصابة، ويدل به فيبتسم وتبرق أساريره ، فإذا جاراه جليسه وشاركه في تبسمه ضحك، فإذا شاركه فيه أطال وأغرب، وكان يكتئب إذا أخطأ فتراه قد تخاوص وقطب.

وقد حمد - رحمه الله تعالى - صحبتي وحمدت صحبته، ولما اقترحت على الأستاذ الإمام عقد مجالس خاصة يتلقى عنه فيها الحكمة العالية بعض خواص المستنيرين من أساتذة المدارس وغيرهم كان الشيخ مهدي أول من ذكرت له منهم فقال لي : إن هذا من الجامدين.

قلت : لا بل هو مستقل الفكر، حريص على حقائق العلم.

وكان سبب هذا الظن فيه سمره تلك الليلة معهم في دار سعد باشا زغلول - ثم كان من أحظى الإخوان عند الإمام رحمهما الله تعالى.

كان الفقيد يحضر معنا دروس الأستاذ الإمام في الأزهر؛ رسالة التوحيد والتفسير والمنطق والبلاغة، ولما خرجنا من الدرس الأول من دروس كتاب أسرار البلاغة قال لي : إننا في هذه الليلة قد اكتشفنا معنى علم البيان.

وكان يحضر الدروس أو المجالس العالية الخاصة التي كان الأستاذ يلقيها على فئة مختارة في دار أحمد بك تيمور (هو أحمد باشا تيمور عضو مجلس الشيوخ) في شارع درب سعادة، ثم في داره هو بعين شمس - فبهذا كان الفقيد من خواص مريدي الأستاذ الإمام الذين وردوا حوضه وشربوا نهلاً وعلاً، وأشربوا آراءه الإصلاحية، فنشروها قولاً وفعلاً، إلا أنه لم يكن يتحرى الدعاية لها، ولم يكن يجهر بنضال الخصوم دونه ودونها، بل كان يوردها في الأكثر من تلقاء نفسه ويجادل فيها على طريقته التي بيناها آنفًا.

وكذلك كان شأنه في آراء المنار، كان معجباً بها ومظاهراً لي عليها، وكان يقول لي : إننا نرى في كل جزء من المنار شيئًا جديدًا ما كنا نعلمه، وكان يحب نشر ذلك والدفاع عنه بما بينا من أسلوبه وطريقته.

فإذا تصدى له بعض خصوم الأستاذ الإمام أو خصوم المنار منكرًا ومجادلاً تحرى في الدفاع أن يكون محايداً لا ضلع له معنا، إلا أن يكون المنكر من تلاميذه أو ممن هم كتلاميذه في توقيره واحترام رأيه، فقد يصرح حينئذ بالانتصار والثناء، وكان يرى أن هذا الأسلوب وهذه الطريقة أقرب وسائل الإقناع، وهو الذي كان يخبرني بهذا عن نفسه، وكنت أرى أن هذا من الضعف الناشئ عن تحاميه أسباب الانتقاد عليه والتخطئة له، فإنه لم يكن يطيق هذا، فكان البون بيننا في هذه الخليقة واسعًا.

وكان بعض إخوانه يتهمه بحب الانفراد ولو تشبعًا.

قال لي أستاذ في الذروة منهم علمًا واستقلالاً وصراحة : فاجأنا أخونا فلان بآراء جديدة ومباحث طريفة، يلقيها علينا في سامرنا لم نكن نعهدها منه، ونحن أعلم الناس به، فكنا نجادله فيها ولم نعرف مصدرها ، حتى اشتركنا في المنار (وكان اشتراك هذا الأستاذ في أثناء السنة الثانية).

وعندي من النظر في إطلاق هذه التهمة أن الإنسان إذا اقنع بشيء وتمكن من نفسه صار رأيًا له ومذهبًا، وصار يتحدث به من عند نفسه، فهي التي تلقى على لسانه وتملى على قلمه، ما لعله في غفلة عن مصدره، وتكثر هذه الغفلة إذا طال العهد على تلقي ذلك الشيء ولا سيما إذا كان من المسائل التي تتكرر بالأساليب المختلفة؛ لأجل الإقناع بها وتعميم نشرها، دع ما كان من توارد الخواطر، ووقع حافر في إثر حافر.

تلك المباحث الإصلاحية التي كانت جديدة في أول العهد بظهور المنار هي ما أشرنا إليه في فاتحته، وشرحناه بالتدريج في المقالات المتسلسلة والمتفرقة كمقالات منكرات الموالد ، ومقالات الإصلاح الإسلامي التي أنحينا فيها على رؤساء الدين والدنيا من الخلفاء والملوك والمتكلمين والفقهاء والمتصوفة، وأهمها مسألة التقليد وتفرق المذاهب ، ولما عزمت على بسط هذا البحث وإقامة الحجج عليه ، ووصف العلاج للتفرق بجمع الكلمة على المجمع عليه في الإسلام ، وجعل المسائل الخلافية في الدين كأمثالها في اللغة والعلوم والفنون البشرية، لا تقتضي تفرقًا ولا عداوة ولا طعنًا في المخالف - كاشفت الفقيد بذلك فنصح لي بأن لا أصرح بذلك؛ لئلا تقوم قيامة الشيوخ على المنار، فقلت له : سأكتب ذلك بصفة مناظرة بين مصلح ومقلد - وأفتح باب الرد عليها لمن شاء.

وقد نفذت ذلك في المجلدين الثالث والرابع وجمعت تلك المقالات في كتاب (محاورات المصلح والمقلد) التي طبعت في كتاب مستقل كان له في العالم الإسلامي تأثير عظيم ، ولقد كنت أرجو عند إنشاء المنار أن أجد من هؤلاء الداربين في مصر حزبًا كبيرًا يشد أزري في عملي ، فلم أجد إلا أفرادًا ، كان الفقيد أبرهم وأوفاهم وأوصلهم - فجزاه الله خير الجزاء - وقد كان من حبه لي أن سمى نجله الوحيد باسمي، فأسأله أن يجعله خير خلف له.

وجملة القول في نشأة الفقيد الأدبية الإصلاحية :

إنه كان من خيرة الذين تخرجوا في دار العلوم ، وأرقاهم تحصيلاً وأحسنهم تعليمًا، ومن وسط المستعدين للإصلاح، وأوائل الفئة التي اتصلت بالأستاذ الإمام في عهدنا ، فأشربت طريقته المعتدلة في الإصلاح ومذهبه الوسط الجامع بين هداية الدين على منهاج السلف الصالح وتجديد حضارة الأمة ، بما يقتضيه ترقي العلوم الكونية والفنون الحديثة.

ومن أكبر الآيات على ذلك تربيته وتعليمه لكريمته (أسماء) فقد رباها تربية إسلامية فاضلة ، وعلمها تعليمًا عصريًّا راقيًا.

وكان من شجاعته الأدبية أن أرسلها إلى إنكلترا؛ لإتمام تعلمها واثقًا بدينها وأدبها، فحقق الله ظنه فيها، وهي الآن ناظرة لمدرسة من مدارس البنات الأميرية ، تديرها أحسن إدارة.

ومسألة المرأة أهم مسائل تجديد الحضارة في الشرق ، والمذاهب فيها ثلاثة : مذهب ملاحدة المتفرنجين : وهو جعلها كالمرأة الإفرنجية حتى في الخلاعة والرقص مع الرجال نصف عارية ، ومعاقرة الراح معهم وما وراء ذلك من وقاحة وإباحة.

ومذهب الجامدين : وهو أن تكون جاهلة مظلومة مستضعفة.

ومذهب حزب الإصلاح والتجديد المعتدل :

وهو أن تربى البنات على التدين والفضيلة والعفاف والتقوى ، وتعلم القراءة والكتابة بلغة أمتها وملتها وأمور الدين، وكل ما تحتاج إليه للقيام بتكوين الأسرة ونظامها من أمور الصحة ، وتربية الأطفال وتدبير المنزل إلخ وأن لا يحرم المستعدات منهن للعلوم العالية منها ولا سيما الطب ، وآكده ما يختص منه بالنساء، وإدارة مدارس البنات، والملاجئ الخيرية للنساء، وكل ما تمس إليه حاجة الأمة.

حسبك يا قارئ المنار في الآفاق أن تعرف مما ذكرنا أن الفقيد كان من مريدي الأستاذ الإمام؛ أي : من الحزب الإسلامي المعتدل ، الذي لا يرجى بدونه صلاح حال المسلمين، وارتقاؤهم المدني والاجتماعي والسياسي ، مع بقائهم مسلمين كما شهد بذلك بعض أقطاب السياسة من الأوربيين أولي العلم والاختبار لأمور الشرق الذين وصفوه بالحزب الوسط بين جمود السواد الأكبر ، وبين غلاة المتفرنجين.

صرح اللورد كرومر بهذا في تأبينه للأستاذ الإمام في تقريره عن مصر سنة 1905 ، وسبقه إلى ذلك مراسل جريدة الطان الفرنسية بتونس.

بعد هذا أنقل إليك ما كتبه أحد تلاميذ الفقيد من دعاة التفرنج أنصار الجديد أعداء القديم فيه من هذه الجهة.

رأي تلميذ له فيه

كتب الدكتور طه حسين مقالاً فيه نشره في جريدة السياسة ، وهو أحد كتابها ذكر فيه أن الأستاذ المهدي كان له تأثير عظيم في أنفس تلاميذه الكثيرين ، وأنهم كانوا يحبونه حبًّا شديدًا ، وأن منهم كثيرًا من كبار المعلمين والقضاة والمحامين من شيوخ مصر وشبانها ثم قال :ولقد أريد أن أترك منه في هذه الكلمة صورة قريبة من الصدق، أريد أن أكون مؤرخًا لا مداحًا ولا راثيًا، وأشعر بأن عمل المؤرخ في مثل هذا المقام ليس بالشيء السهل.

(لم يكن الشيخ محمد مهدي من أنصار القديم ، ولكنه لم يكن من أنصار الجديد، وإنما كان وسطًا بين هاتين الطائفتين، كان يزدري أنصار القديم ويغلو بعض الشيء في ازدرائهم، وكان يراهم خطرًا على الرقي العقلي وعلى الحياة الصالحة، كما أنه لم يكن يحب الغلاة من أنصار الجديد ، بل كان يتبرم بهم كثيرًا ويراهم خطرًا على الحياة الاجتماعية والدينية بنوع خاص ، كان شديد الإعجاب بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وبعض تلاميذه، بل كان إعجابه هذا لا حد له، وكان سببًا من أسباب قصوره عن إدراك الحياة الجديدة، فكان يخيل إليه أن المثل الأعلى من الرقي العقلي ومن الحرية العقلية ، إنما هو ما وصل إليه الشيخ محمد عبده، وأن الذين ينحرفون عن طريق الأستاذ الشيخ محمد عبده إلى ناحية الجمود كالذين ينحرفون عن طريقه إلى ناحية التقدم، خطرون على الحياة الاجتماعية والدينية والعقلية ، أولئك يؤخرونها والتأخر شر، وهؤلاء يثبون بها والوثوب خطر.

ثم كان الأستاذ الشيخ مهدي يمثل جيلاً خاصًّا من الأساتذة والأدباء هو أقرب الآن إلى أن ينتهي ، ويترك مكانه لجيل من الشبان يخالفه المخالفة كلها.

كان قد أدرك ذلك العصر الذي لم تكن فيه حياتنا العقلية والأدبية راقية ولا مرضية، وكان من الذين ظهر فيهم الرقي الجديد ، فكان معجبًا بهذا الرقي مفتونًا به، وحفظ هذا إلى آخر أيامه، فكان يرى نفسه خيرًا من غيره، وكان لا يتكلف الاحتياط في إخفاء ذلك أو الاقتصاد فيه، وكان أصدقاؤه وتلاميذه الذين يحبونه ويميلون إليه يسمعون منه ذلك راضين بل متفكهين، كانوا يبسمون له ويستعيدونه، فإذا انصرف عنهم الأستاذ أعادوا ما سمعوا منه وضحكوا لا ضحك سخرية وازدراء بل ضحك عطف وحب) اهـ.

(المنار)

هذا قول صريح من الدكتور طه حسين في رأيه ورأي أمثاله من غلاة التفرنج في حزب الأستاذ الإمام ، الذي بينا أساسه آنفًا.

وإذا كان الدكتور طه يعد الفاسق الخليع أبا نواس من المصلحين في عصره، فلا غرو أن يعد الأستاذ الشيخ محمد مهدي ممن يضحك منهم في هذا العصر، ومن آرائهم في الإعجاب بالشيخ محمد عبده ومبادئه في الجمع بين هداية الدين والترقي الدنيوي.

وإننا نود من الدكتور وشبان حزبه أن يبينوا لنا بمثل هذه الصراحة وجه تفضيل جيل الشبان الجديد على جيل المعتدلين المصلحين ، وهل منه أن السيدة أسماء كريمة المهدي التي تربأ بشرفها ودينها أن تتعلم الرقص مع الرجال الذي شرحته لنا السياسة من عهد قريب؛ تعد من نساء العهد القديم الذين يدعون إلى القضاء عليه ؟ أم تعد كأبيها ممن يضحك منهن ويعطف عليهن؛ لأنهن تعبن في اقتباس العلوم العصرية ولم يقدرن أن يصلن بها إلى الرقي الجديد، فوجب عليهن أن يتركن مكانهن لبنات الجيل الجديد اللواتي يرقصن مع الرجال الأجانب ، والوطنيين في مصر الجديدة وشارع عماد الدين كما يرقص أخواتهن التركيات في مراقص غلطه و بيرا مع رجال الروم والإفرنج بإغواء ملاحدة المتفرنجين هنالك ؟إن شأن غلاة التفرنج في مصر لعجيب، وأعجب منه تفضيل مثل الدكتور طه المدرس في الجامعة المصرية ، والمحرر في جريدة السياسة هؤلاء الغلاة على المعتدلين الذين يرشدون الأمة إلى كل نافع ويزجرونها عن كل ضار من قديم وجديد.

إن هؤلاء الغلاة في التفرنج أشد إفسادًا لأممهم من الجامدين على كل جديد ، فهم الذين يبددون ثروتها في الفسق والفجور، وهم الذين يفسدون أخلاقها وآدابها وأعراضها، ويقطعون ما أمر

الله به أن يوصل من مقوماتها ومشخصاتها، فإن كانوا على شيء من العقل والفضيلة؛ فليبينه لنا الدكتور طه وأمثاله لنقيم له ميزان المناظرة، ونحكم فيه مصلحة الأمة.

الشيخ سالم أبو حاجب[155]

سبحان الحي الذي لا يموت، إننا قبل أن نفرغ من ترجمة عالم العراق وإمام الشرق في تلك الآفاق السيد محمود شكري الألوسي، إلا ونعى بريد المغرب الإسلامي علامة الديار التونسية ، وإمام البلاد المغربية شيخ الشيوخ مفتي المالكية ، العلامة المستقل الأديب العاقل الشيخ سالم أبو حاجب - تغمده الله برحمته - وقد كان بين عالم الشرق والغرب تشابهًا عظيمًا ، وكان من حسن حظنا أن وجدنا صديقًا لنا من تلاميذ كلاً منهما ، يكتب لنا ترجمتهما ، وقد شاء الله تعالى أن يتأخر صدور هذا الجزء من المنار حتى ننشر فيه ترجمة علامة جامع الزيتونة الأكبر بقلم الأستاذ الفاضل الشيخ محمد الخضر نزيل القاهرة، وقد ألقاها في حفلة جامعة في الجامع الأزهر وهذا نصها :

***

تأبين رئيس العلماء في الديار التونسية

أقام طلاب العلم من جاليات شمال أفريقيا حفلة بالجامع الأزهر مساء يوم الإثنين الحادي عشر من الشهر الجاري حفلة؛ لتأبين المأسوف عليه الأستاذ الكبير الشيخ سالم أبي حاجب مفتي الديار التونسية.

افتتحت الحفلة بقراءة آيات من الذكر الحكيم ، ثم قام محرر هذا المقال وألقى خطبة في نشأة الفقيد ومواهبه السامية ، وعلمه الغزير وهذه خلاصتها :نعت إلينا (هافس) والصحف التونسية فضيلة أستاذنا الشيخ سالم أبى حاجب واسطة عقد العلماء ورئيس المحكمة الشرعية المالكية بالديار التونسية ، فكان نعيه لدى العارفين بمقامه الأسنى كقبس من نار تذوب له القلوب لوعة ، وتتساقط له العبرات أسفًا.

كان الفقيد ـ رحمه الله ـ آية من آيات العبقرية ، وأحد العلماء الذين لا تجود بهم يد الأيام إلا في أوقات معدودة ، فلا جرم أن أنثر على بساط هذا الاحتفال الجامع شذرًا من آثار حياته الزاهرة؛ خدمة للعلم والأدب والتاريخ ، وإن في سيرة العظماء من الرجال لعبرة لأولي الألباب.

ولد الفقيد حوالي سنة 1244 بقرية من قرى الساحل تسمى (بنبله) ، ثم ارتحل منها عندما بلغ سن التعليم إلى حاضرة تونس؛ لتلقي العلم بجامع الزيتونة الأعظم ، ولم يلبث أن سطع بين جدران ذلك المعهد شعاع ألمعيته ونبوغه، وصلاحيته في أندية العلم والأدب ، ولا سيما إذ كانت له في صناعة القريض براعة فائقة ، وفي نقده الشعر ذوق لا يقل عن ذوق العربي الصميم.

ترقى الفقيد في مدارج العلم حتى تقلد وظيفة التدريس بالمعهد الزيتوني ، درس من علوم الشريعة والعربية كتبًا عالية مثل : شرح العضد على مختصر ابن الحاجب، وشرح القسطلاني على صحيح الإمام البخاري، والشرح المطول للسعد التفتازاني ، وكان يجلس لدرس هذه الكتب وغيرها على منصة التحقيق، ويخوض عبابها بنظر مستقل ، وينطق فيها بلهجة مجتهد نحرير ، فلا ينتهي من تقرير موضوع إلا بعد أن يعقد لما يجري فيه من الخلاف محاكمة يدخل إلى القول الفصل فيها من باب الحرية والإنصاف.

ولما وضع في فطرته من حب البحث والغوص في أغوار المسائل ، كان يتلقى أسئلة التلاميذ في الدرس بصدر رحب ، وكثيرًا ما يغمر الباحث النجيب بعبارات الثناء؛ تشجيعًا له على البحث ، وأخذًا بيده إلى أن يسير مع أصحاب الآراء المؤلفين على مقتضى حكمة من يقول : (هم رجال ونحن رجال).

ولعلمه الراسخ وعبقريته البارزة كان بعض أقرانه مثل الأستاذ الشيخ مصطفى رضوان يقرر في درسه عازيًا شيئًا من الأفهام التي انفرد بتحقيقها ، وكثيرًا ما يورد الفقيد في مجالسه أو دروسه في صدد الاستشهاد على بعض المعاني اللغوية عبارة القاموس بنصها ، حتى ظن كثير من أهل العلم أنه يحفظه على ظهر قلب ، وأغلب مسائل الشرح المطول، والمغني لابن هشام، وشرح السيد علي مفتاح، وشرح الدماميني على التسهيل تجري على طرف لسانه مهما تدعو الحاجة إلى الاستشهاد بشيء منها.

ولم يكن الأستاذ ممن يسارع إلى الاعتقاد بصدق من يخرج في زي المجذوبين ، أو يدعي أنه من أرباب الولاية والكرامة ، وظهر منه هذا الخلق في مجلس بعض رجال الدولة، فقال له : اعتقد ولا تنتقد.

فقال الأستاذ : ليس الاعتقاد مما تعتنقه النفس بمجرد الاختيار ، وإنما هو من قبيل العلم الذي لا يرتسم فيها إلا بمؤثر من حجة وبرهان ، وكان يحارب الخرافات والآراء السخيفة والأقوال المسندة إلى الشريعة بمجرد الدعوى أو بأحاديث غير ثابتة ، وكان يبدي رأيه بكل صراحة، وإن صادم المعروف بين شيوخ عصره؛ كإنكاره لوجود جبل قاف، ومشاهدة الجن بعين الباصرة ، ويرى أن ما يزعم من ذلك إنما هو من قبيل تأثير الخيال.

أحرز الفقيد بين رجال الدولة مكانة إكبار وإجلال ، وانتظم له هذا الإقبال؛ إذ كان من أولي النظر الواسع في شؤون الاجتماع ، وما تقتضيه المدنية الراقية وكذلك كانت دروسه في علوم الشريعة مملوءة بالبحث عن أسرارها من حيث المطابقة لما تستدعيه مصالح الشعوب ، ومن هذا الوجه كان للأستاذ حياتان : علمية، وسياسية، فاتخذه الوزير خير الدين باشا من مساعديه في تنظيم التعليم وإصلاح الإدارة قبل الاحتلال ، وتقلد وظيفة العمل بإدارة المال مضافة إلى وظيفة التدريس بجامع الزيتونة.

سافر الأستاذ إلى إيطاليا مبعوثًا من طرف الحكومة التونسية قبل الاحتلال؛ لينوب عنها في قضية أقامتها على ورثة أحد قابضي أموالها المدعو (نسيم) ، وأقام هنالك زمنًا واسعًا التقى في خلاله بكثير من علمائها ، ودارت بينه وبينهم محاورات علمية ، وكانوا يلقون عليه أسئلة فيما يشكل عليهم من بعض الأحكام الإسلامية ، فيذهب في الجواب عنها إلى طريق النظر الفسلفي حتى تقع أجوبته لديهم موقع القبول والتسليم ، وكان الأستاذ يقول : إن هذه الرحلة مجموعة عنده في كتاب ، وقص علينا أنه دخل إلى بعض المكاتب الحاوية لكتب عربية ، فتناول كتابًا منها ، فكان أول جملة وقع عليها بصره : (كان العرب إذا خطبهم لاعب الشطرنج منعوه ، وقالوا : إنه ضرة ثانية) وفي هذه الرحلة بعث الأستاذ بصورة فتوغرافية إلى الوزير محمد البكوش وكتب عليها من نظمه.

لما شكت شحط النوى روحي التي *** أبقيتها عند الأحبة بالوطن

أرسلت تمثالي لها بوًّا عسى *** تسلو فلا تبغي التحاقًا بالبدن

وسافر الفقيد رفيقًا للوزير خير الدين باشا إلى الآستانة وامتدح السلطان العثماني بقصيدة ، فأمر بمكافأته عليها بوسام فأبى وقال للمرسل من جانب السلطان : إن حمل الوسام مما لا يرغب فيه أهل العلم ببلدنا ، بل يرونه بحكم العادة مزريًا بمقامهم.

وكان يلقي في شهر رمضان من كل سنة درسًا من صحيح البخاري (بجامع سبحان الله) ودرسًا من كتاب الموطأ في المدرسة المنتصرية ، ويشهدهما صاحب المملكة التونسية سمو الباي وكبير الوزراء في مجمع حافل من أعيان العلماء ، وتجري فيهما مباحثات من أقران الأستاذ أو نجباء تلاميذه ، وقد يورد بعض الأبحاث الأمير نفسه متى كان من رجال العلم ، مثل المغفور له الناصر باي ، وهذه الدروس التي كان يلقيها الفقيد بعناية لا تزال محفوظة؛ إذ كان يحررها كتابة قبل يومها المشهود.

واشتهر بالفلسفة في العلوم الإسلامية ، فكان مورد المستشرقين ومن تشتد عنايتهم للاطلاع على حقائق الإسلام من فرنسيين وغيرهم ، فيجاذبهم أطراف المحاورة بنفس مطمئنة وأدب جميل.

وكان يقوم بالخطابة والإمامة بالجامع المعروف بجامع سبحان الله ، ويلقي خطبًا يراعي في إنشائها ما تستدعيه حال الزمان والمكان ، ومما ابتكره في الخطابة أنه كان يعتمد إلى ما يرد في الخطبة من حديث أو آية يسبق إلى ظنه أنه بعيد المأخذ من أفهام السامعين ، فيشرحه بعبارات يصوغها على طريقة بيانه في التدريس ، وقد ظهر قسم من هذه الخطب مطبوعًا في تونس منذ ثلاث عشرة سنة.

وكان يشد أزر القائمين على بعض الأعمال الإصلاحية ، وكان النشء الناهض يلتف حوله؛ ولهذا انتخبوه للخطابة في حفلة افتتاح المدرسة الخلدونية التي تعد شعبة من جامع الزيتونة لدراسة العلوم الرياضية والطبيعية والتاريخ ، وأذكر أني كنت أنشأت مجلة علمية أدبية تسمى (السعادة) فتحركت بعض النفوس الخاملة لكتم أنفاسها ، فقال لي الأستاذ حال انصرافنا من درس صحيح البخاري : لا تعبأ بما يلقيه هؤلاء في سبيل عملك وتأس بالنبي عليه الصلاة والسلام؛ إذ قال له ورقة بن نوفل : لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي.

وكان للفقيد عاطفة أدبية تسمو به إلى الاحتفاء بالعلماء الوافدين على الحضارة وبذل المستطاع في مجاملتهم.

زار فيلسوف الإسلام الأستاذ الشيخ محمد عبده البلاد التونسية سنة 1321 ، ونزل ضيفًا مكرمًا في بيت حضرة السيد خليل أبي حاجب نجل الفقيد، وهو اليوم وكيل وزير الداخلية بتونس ، فعرف الفقيد فضل الأستاذ الشيخ محمد عبده ، وكان يقضي جل أوقاته في مؤانسته ومذاكرته العلمية أو الأدبية أو الإصلاحية.

وورد عالم الجريد الشيخ إبراهيم أبو علاق الحاضرة وأتى درس الفقيد بجامع الزيتونة ، ولم تنعقد صلة التعارف بينهم بعد ، فأخذ يناقش الأستاذ في المبحث الذي كان بصدد تقريره ، ولما طال أمد المناقشة ووقع في ظن الفقيد أن ليس الغرض منها طلب الحقيقة ، بدرت منه كلمة كبرت على مسمع الشيخ أبي علاق فانصرف عن الدرس وقال :

تقاصرت مذ أبدى التطاول سالم *** وسالمت والقاصي المكان يسالم

ولما وصل نبأ هذا البيت إلى مجلس الفقيد نهض في الحال للقاء الشيخ أبي علاق فاسترضاه ، وخطب مودته ودامت بينهما الصداقة المحكمة.

وتحلّى الفقيد بآداب راقية مثل : التواضع والحلم والصراحة فازداد شرفًا على شرف العبقرية ، وانجذبت له القلوب بعاطفة المحبة بعد امتلائها بمهابته وإجلاله حتى إذا حضر مجتمعًا خاصًّا أو عامًّا أمسك بعنان المجلس ، وأخذ ينشر على أسماع الحاضرين من غرائب المسائل ولطائف الأدب ما يخيل إليهم أنهم في جنة عالية لا تسمع فيها لاغية ، وكنا نرى أهل العلم والأدب يقصدون في الاحتفالات الجامعة إلى أن تكون مجالسهم بمقربة من مجلس الفقيد ، حرصًا على اقتباس أدب مؤنس، أو اقتناص علم غريب.

وانفرد بين علماء جامع الزيتونة بأنه كان يتزيى في لباسه بزي علماء الشرق؛ أي : يلبس القفطان والجبة المفتوحة من أمام ، ويضع عليهم البرنس ، ولم يكن يلتزم تقاليد أهل العلم وذوي المناصب الشرعية في بلاده ، حتى إنه كان يلبس الجزمة أيام لبس أهل العلم لها شيئًا نكرًا ، ويتجول في بعض المتنزهات العامة راجلاً، وغيره من ذوي المناصب العالية لا يغشونها إلا مرورًا في عرباتهم.

وكانت له عند افتتاح الكلام عقدة خفيفة لذيذة على السمع ، حتى إذا انطلق لسانه في التقرير، سمعت العربية الفصحى ولهجة تتسوغها الأسماع بارتياح وإعجاب.

ومن المعروف عن الأستاذ أنه كان يطمح إلى طول الحياة ، ويمثل حركة الساعة الميقاتية بحسيس الأرضة في أكلها من عمر الإنسان ، وينقل عنه في تعليل عدم حمله للساعة ، أنه يكره أن يسمع أو يرى آلة تذكره كيف تنقضي حياته العزيزة شيئًا فشيئًا.

هذا ما أجده في الذاكرة من مآثر حياة الأستاذ الذي فارقته - وبودي لا أفارقه - برحلتي إلى بلاد الشرق سنة 1331 - وقد ناهز التسعين من عمره اهـ.

علاوة

حكى الأستاذ أن أحد الباشاوات من قواد الجند بالآستانة دعاه إلى منزله في طائفة من أهل العلم ، ومما دار بينهم في المذاكرة أن صاحب المنزل سأله عن حكم تعلم الجغرافية فقال له : إن تعلمها من فروض الكفاية.

قال الأستاذ : فالتفت ذلك الباشا إلى أحد الفقهاء بالمجلس وقال له : لماذا كنت تقول لي أن تعلمها حرام ؟ فأقبل ذلك الفقيه على الأستاذ وقال له : ما دليلك على ما تقول من أن تعلم الجغرافية من الواجبات ؟ قال: فلم أرد أن أطيل الحديث في الاستدلال بمثل قوله تعالى : [وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ](الأنفال : 60) واخترت أن أورد كلمة أقرب إلى فهم السائل فقلت موجهًا الخطاب لصاحب المنزل : إذا صدرت إرادة السلطان يأمرك أن تسير بقسم من الجيش إلى بعض بلاد العدو ، وكنت تجهل المسألة التي بينك وبين ذلك البلد، ثم لم تكن على خبرة مما يوجد في تلك النواحي من ضروريات حياة الجند وما لا يوجد ، فإنك بلا ريب تذهب على غير هدى ولا تأمن أن يقع الجيش في تهلكة ، فوقع الجواب من نفس الباشا موقع الارتياح والقبول.

وفيما حكى الأستاذ من هذه المحاورات أن أحد المستشرقين سأله عن الوجه في إباحة الإسلام تزوج المسلم بالكتابية من مسيحية أو إسرائيلية ، ومنعه المسلمة من أن تتزوج مسيحيًّا أو إسرائيليًّا ، وقال السائل : ما هذا الحكم إلا ضرب من التعصب في الدين ، فأجابه الأستاذ : بأنه حكم قائم على حكمة عمرانية بالغة ، وهي أن النكاح يقصد به التعاون على مرافق الحياة ، وهذا الغرض لا يتحقق إلا مع التآلف وانتظام حلة للمعاشرة ، ومن المعروف أن المسلم يؤمن بالرسول الذي تؤمن به الكتابية ، ويعتقد بصحة دينها في الجملة ، فلا يتوقع أن يصدر منه ما يجرح إحساسها ، ويكدر

صفو المعاشرة بينهما و وأما الكتابي غير المسلم فإنه لعدم إيمانه بصحة الإسلام وصدق الرسول الذي جاء بشريعته قد يؤذي المسلمة بما يقذفه من كلمات ، يطعن بها في أصل دينها أو ينال بها من كرامة الرسول الذي تعتنق شريعته.

وحكى لنا الفقيد أن الأستاذ الشيخ محمد عبده تكلم عن ضرورة الاجتهاد فقلت حكام الشرعية حتى قال : ينبغي إهمال كتب الفقهاء وإتلافها بالإحراق ، قال في الآلة : لا بأس بإبقائها والاستعانة بها؛ لأنها لا تخلو من فوائد، فقال لي : فلتبق.

رفيق العظم[156]
وفاته وترجمته

في يوم عرفة (9 ذي الحجة سنة 1343 الموافق 30 حزيران يونيو) سنة 1925 فجعت البلاد المصرية والسورية، بل الأمة العربية، برجل كان من أعلى رجالها قدرًا، وأنبههم فيها ذكرًا، وأعظمهم لديها زخرًا، رجل الحسب الشامخ، والأدب العالي، والفكر المنير، والوطنية الصادقة، العالم المؤرخ، الكاتب الاجتماعي، العامل السياسي، صديقي الوفي (رفيق بك العظم) ابن محمود بك خليل العظم من أسرة آل العظم السورية العريقة في المجد، ففقدت الأمة بفقده زعيمًا كبيرًا، ونابغًا حكيمًا، وكاتبًا قديرًا، في زمن هي أحوج فيه إلى الرجال المحنكين، والزعماء المخلصين منها إلى العافية للأبدان، والطمأنينة للحيران، فرحمه الله تعالى.

***

نشأته الأولى

ولد الفقيد في دمشق سنة 1282هـ، ونشأ كما كان ينشأ أمثاله من أبناء الوجهاء المترفين في ذلك العهد، فلم يُعن والده بتعليمه في مدارس العلم العربية؛ لأنها خاصة برجال الدين، ولا في مدارس الحكومة العثمانية الإعدادية والعالية؛ لعدم شعوره بالحاجة إلى تخريجه فيها، أو عدم رغبته بجعله من عمالها وموظفيها، الذين لا تكنهم دار ولا يقر لهم بين أهلهم قرار، أو لمحض الإهمال، على أنه هو لم يتعلم تعلمًا منظمًا وإنما أخذ بعض المبادئ عن بعض شيوخ عصره، وكان يعاشر العلماء والأدباء والمتصوفة، ويطالع الكتب ودواوين الشعر لأجل التسلية، فكان بذلك شاعرًا ومؤلفًا في الأدب والتصوف، وجاء فقيدنا وارثًا له في ذكائه ونشأته؛ ولكنه فاقه في الجد والعلم النافع

والعمل، أخذ التعليم الابتدائي في كتاب أهلي، ثم أخذ شيئًا من مبادئ اللغة العربية عن الأستاذ الفاضل الشيخ توفيق أفندي الأيوبي الشهير، وكان كل ما حصله بعد ذلك بمطالعاته الشخصية، فهل كان يدور في خلد أحد أن مؤلف كتاب أشهر مشاهير الإسلام وغيره من الكتب والرسائل والمقالات الكثيرة في كبرى الجرائد والمجلات المصرية لم يقرأ كتابًا حافلاً من كتب النحو والصرف ولا من كتب المعاني والبيان، ولم يتلقَّ علمًا ولا فنًّا قديمًا ولا حديثًا عن أستاذ ؟ فما هذا الذكاء النادر الذي وضعه في مصاف العلماء المصنفين، والكتاب المجيدين ؟ وما تلك الهمة العالية التي رفعته إلى مقام الزعماء السياسيين، ورجال الانقلاب المدبرين ؟كان رفيق ذكي الفؤاد ميالاً بفطرته إلى العلم والجد ومعالي الأمور، عزوفًا عن سفاسفها وصغائرها، نبت به هذه الفطرة الزكية عن صرف أوقات صباه في اللهو واللعب مع أمثاله من أبناء الموسرين، وجذبته إلى معاشرة أهل العلم والأدب والأفكار في الأمور العامة : كالأستاذ المرحوم الشيخ طاهر الجزائري والأستاذ الشيخ سليم البخاري والأستاذ الشيخ توفيق الأيوبي من كهول مشيخة الشام، والأستاذ الشيخ محمد علي مسلم ومحمد أفندي كرد علي من الأتراب، وحُبب إليه البحث ومطالعة كتب الأدب والتاريخ، وكانت نزعته العلمية وكذا الاجتماعية إسلامية، حتى إن علماء الأقطار البعيدة الذين وصلت إليهم كتبه ورسائله بعد ذلك كانوا يظنون أنه من علماء الدين.

***

اشتغاله بالسياسة وهجرته إلى مصر

ثم إنه كان يعاشر أحرار رجال الحكومة العثمانية من الترك وغيرهم أيضًا، وتعلم اللغة التركية باجتهاده حتى صار يقرأ كتبها وجرائدها، وإذ كان ميالاً بطبعه إلى السياسة والأمور العامة استماله بعضهم إلى الاشتغال معهم في جمعياتهم السرية، فدخل أولاً في جمعية الدستور التي أسسها في الشام أسعد بك مدير البوليس فيها، ثم في جمعية الاتحاد والترقي.

ولما اشتد السلطان عبد الحميد في مطاردة السياسيين العثمانيين طلاب الدستور، وطفق ينكل بمن يتعذر استمالته منهم بالوظائف أو الرتب والنياشين؛ أزمع الفقيد الهجرة إلى مصر، ويقول شقيقه الكبير عثمان بك : إن ذلك كان سنة 1894م.

وبعد استقراره في مصر واتخاذها دار هجرة ومقامة، طفق ينشر المقالات السياسية والاجتماعية في أشهر جرائدها اليومية : الأهرام، فالمقطم، فالمؤيد، فاللواء، وفي أشهر مجلاتها : كالمقتطف، والهلال، والمنار، والموسوعات، وكان يختلف إلى مجالس الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ولا سيما بعد تلاقينا وتوادنا، وكان له بالشيخ على يوسف صاحب المؤيد صلة ود وثيقة، ثم كان من أصدقاء الزعيمين السياسيين مصطفى كامل باشا ومحمد فريد بك منذ نشأتهما السياسية الأولى، وظهورها في ميدان السياسة إلى آخر عمرهما حتى إنه رثى محمد بك فريد حين علم بموته - طريد وطنيته - في أوربة بأبيات من الشعر وجدهما شقيقه عثمان بك في أوراقه، وقد رثى قبله الأستاذ الشيخ طاهرًا، ولعل هذين الرثائين آخر ما نظم، وليسا كل ما نظم، فقد كان - رحمه الله - ينظم الشعر بما يجده من الداعية في نفسه لإرضاء نفسه، ولكنه لم يكن يحب أن ينشر شيئًا من شعره في الجرائد ولا أن يظهره للناس، إما لأنه لم يكن يراه بالمنزلة اللائقة بشهرته، أو لأنه لم يكن يحب أن يسمى شاعرًا، وإذ كان الشعر عنده أمرًا ثانويًّا ذكرناه في ترجمته استطرادًا.

***

تلاقينا وتعاوننا على خدمة الأمة

في منتصف سنة 1315 (الموافق لخريف سنة 1897م) هاجر كاتب هذه الترجمة إلى مصر، وفي الربع الأخير منها أنشأ (المنار) فكان سببًا للتعارف والتآلف بينه وبين الفقيد، فالتعاون على الإصلاح السياسي والاجتماعي فالاشتراك في الأحزاب والجمعيات السرية والجهرية.

وكانت أول جمعية سياسية أسسناها بمصر (جمعية الشورى العثمانية) وقد اشترك في تأليفها معنا رجال من سائر الشعوب العثمانية الكبرى وفي مقدمتهم الترك والجركس والأرمن، وكان من أعضائها المؤسسين الضابط صائب بك الذي كان حاجبًا لصاحب الدولة أحمد مختار باشا الغازي، ومندوبًا لجمعية الاتحاد والترقي بمصر، ثم ترك خدمة المندوب العثماني السامي؛ إيثارًا للسياسة التي تغضب السلطان عليها، ومنهم الدكتور عبد الله جودت بك المشهور أحد مؤسسي جمعية الاتحاد والترقي أول مرة، وكان هو (السكرتير التركي) لها، وكان الفقيد أمين صندوقها وابن خاله حقي بك (سكرتيرها العربي) وكاتب هذه السطور رئيس مجلس إدارتها.

كان تأسيس هذه الجمعية موافقًا لرأي صاحب الدولة أحمد مختار باشا الغازي المندوب العثماني السامي بمصر، وأنا الذي استشرته في ذلك وطلبت منه أن يمنحها رعايته، ويأذن لنجله محمود باشا بأن يكون الرئيس العام أو رئيس شرف لها فيمدها بمساعدته، فقال : إن الإصلاح لا يأتي من الأعلى ومن رجال الدولة، إنما يأتي من وسط الأمة ومن الطبقات الدنيا فيها، وأخبرني أن السلطان علم بوجود الجمعية وهو أنه يرسل البرقيات إليه تترى في السؤال عنها وعن مؤسسيها، ويسميها جمعية إفسادية، وأنه تجاهل في جوابه أولاً، ثم كتب إليه بأن لا إفساد ولا ضرر منها، فإنها مؤلفة من بعض أهل العلم وأبناء الأسر الوجيهة المخلصة للدولة.

ثم علمنا من شأن اهتمام السلطان بها ما هو فوق ذلك، فقد روى لنا حقي بك عن خاله المرحوم صادق باشا المؤيد عن السلطان نفسه أن نبأ هذه الجمعية أقض مضجعه؛ فبقي ثلاث ليالٍ لا تذوق عيناه النوم إلا غرارًا، ولم يقر له قرار حتى عرف مؤسسيها من بعض جواسيسه بمصر (وهو رجل اسمه كامل بك) دخل الجمعية بعد تأسيسها، وأظهر من الإخلاص لها والعناية بخدمتها ما كان محل إعجاب جميع الأعضاء.

ولا غرو، فقد كان عمل الجمعية عظيمًا : تأسس لها فروع في الأقطار المختلفة، وكانت تطبع المنشورات بالعربية وبالتركية وترسلها إلى فروعها في البرد الأجنبية؛ فيوزعونها في الولايات التي يقيمون فيها وفيما جاورها، بل كان يرسل بعض هذه المنشورات في البواخر الروسية مع بعض المسافرين والمستخدمين فيها إلى ثغور البحر الأسود؛ فيأخذها هنالك منهم من يتولون إرسالها إلى جميع بلاد الأناضول.

ثم أصدرت الجمعية (في فبراير سنة 907) جريدة باسمها (الشورى العثمانية) استغنينا بها عن المنشورات، وكان الفقيد يحرر القسم العربي منها، وحقي بك يحرر القسم التركي إما إنشاء وإما ترجمة لما يكتبه الفقيد أو غيره منها بالعربية، وقلما كنا نساعدهما على ذلك، وكان ينشر فيها بعض المقالات باللغة الفرنسية أيضًا.

وبلغ من عناية جمعية الاتحاد والترقي بالجمعية فوق ما كان من التعاون والمراسلة بينهما من أوربة ومن المركز العام في سلانيك أن أحمد رضا بك الشهير جاء من باريس إلى مصر لأجل السعي لتوحيد الجمعيتين، وقد قصد الفقيد أولاً وكلمه في ذلك، فجاء به إليّ، فلما كلمني قلت له : إن جمعيتكم تركية وجمعيتنا عثمانية عامة، فنحن لا نتفق معكم إلا في مقاومة الاستبداد والظلم والسعي

لجعل الحكم بالشورى النيابية، قال : ونحن جمعيتنا عثمانية لا يميز قانونها التركي على غيره، قلت : هي عثمانية بالقانون تركية بالفعل، فليس في زعمائها أحد من غير الترك، فقانونها كقوانين السلطان عبد الحميد ولو كان السلطان عبد الحميد ينفذ قوانين الدولة على علاتها لما أبحت لنفسي ولا لغيري أن يسعى لتغيير شكل الحكومة أو يقاوم نفوذه فيها...

ثم اتفقنا على أن تعمل الجمعيتان بالتعاون مع بقاء كل جمعية على حالها.

ثم إن جمعية الاتحاد والترقي عادت بعد إعلان الدستور، فكتبت إلى جمعيتنا من المركز العام تدعوها إلى الحلول فيها والاتحاد بها، فاشترطنا في ذلك شروطًا لم تقبلها، ولكن الفقيد وحقي بك دخلا في جمعيتهم عند زيارتهما للآستانة بعد الدستور، وتفرق سائر الأعضاء الذين لم يجمعهم في مصر إلا الاضطهاد، فلم يبق لجمعية الشورى عمل.

أطلت بعض الإطالة في ذكر هذه الجمعية؛ لأن عمل الفقيد فيها كان عظيمًا، وقد أنفق من ماله في سبيلها ما لم ينفقه غيره، ولولا اغتراره بجمعية الاتحاد والترقي لرضي بما ارتأيته من إبقاء فروع الجمعية وتكثيرها في البلاد العربية؛ لتكون قوة للعرب أمام تعصب الاتحاديين للترك، ولكنه قال لي بعد عودته من الآستانة : إني عدت إلى جمعيتي الأصلية، وأن بقاء جمعيتنا تفريق غير جائز، على أنه عاد من الآستانة غير راضٍ عن سير الاتحاديين رضاء تامًّا، ثم صار يشاهد آنًا بعد آن من تعصبهم على العرب وهضمهم لحقوقهم ما حاول إن يتلافاه بطرق الإقناع، فألف في ذلك رسالة طويلة يئس من فائدتها قبل أن يتمها، فلم ينشرها وسيأتي الكلام عليها عند ذكر مؤلفاته وآثاره.

وكان آخر الجمعيات السرية التي اشتركنا في تأسيسها جمعية عربية أسست للتأليف بين أمراء جزيرة العرب وللتعاون والاتفاق بين الجمعيات السياسية التي أنشئت في الولايات العربية وفي الآستانة؛ لمقاومة تعصب الاتحاديين وضغطهم على العرب، ولحفظ حقوق العرب في الدولة والعمل لمستقبلهم.

كان تأسيس هذه الجمعية ضروريًّا؛ لأن آفة العرب المفسدة لجميع مواهبهم الفطرية هي التفرق والاختلاف، وكان الملجئ إليها انكسار الدولة العثمانية في حرب البلقان، والخوف على البلاد العربية أن تتخطفها الدول المستعمرة، فرأى المؤسسون أن قوة العرب في جزيرتهم، وأنها لا

يمكن الانتفاع بها، إلا بتأسيس اتحاد حلفي يجمع بين أمرائها، وكان قد سبق لهذا تمهيد من بعض المؤسسين، ثم وضع له النظام الذي يرجى تنفيذه، وأما الجمعيات العربية فكانت مختلفة المقاصد، وليس بينها من التعارف والاستعداد للاتحاد عند الحاجة ما يؤمن معه سوء المغبة، ويرجى به حسن العاقبة، فوضعت الجمعية نظامًا لذلك، ولم يقنع المترجم بضرورة هذه الجمعية إلا بعد أن رأى من انكسار الدولة في حرب البلقان ما أقنعه بأنه ليس لها من القوة الذاتية ما يضمن بقاءها، وأنها عرضة للزوال فجأةً إذا صدمتها صدمة أخرى.

***

الأحزاب الجهرية

وأما التي اشتركنا فيها فهي حزب اللامركزية، وكان الفقيد رئيسًا له، وحزب الاتحاد السوري وأمرهما معروف للجمهور، فلا حاجة إلى شرح خدمة المترجم لوطنه فيهما، وإنما أقول : إن حزب اللامركزية كان يراد به خدمة الدولة والبلاد العربية معًا، وكان سبب تأسيسه ما ذكر آنفًا من سبب تأليف الجمعية العربية، وهو ما أنذرت الحرب البلقانية العثمانية من توقع زوال الدولة، وقد كنا نعتقد أن الدولة لا يمكن أن تعيش طويلاً إذا أصرت على شكل حكومتها المركزي وتحكيم الترك في جميع شعوب الدولة، وكان المترجم - رحمه الله تعالى - حريصًا على بقاء الدولة، وكان على هدى وبصيرة في ذلك، وكنا متفقين معًا على هذا الرأي، وعلى أن العرب يحتاجون إلى زمن طويل؛ لترقية أنفسهم وجمع كلمتهم واستغنائهم عن الدولة إن زالت أو بقيت، وكنا نرى أن الخروج على الدولة ضار وخطره على العرب أشد من خطره على الترك، ولا أقول : إن كل أعضاء الحزب كانوا على رأينا، وإنما كانوا متفقين على أن شكل الحكم اللامركزي خير لبلادنا ولغيرها، وكان لبعضهم أهواء أخرى وشذوذ في الفكر وفي العمل، ولكن الحزب نفسه لم ينحرف عن قانونه المستقيم.

وأما حزب الاتحاد السوري فأمره أظهر، لأن العهد به أقرب، وكان الفقيد من المؤسسين له، ولكنه تركه منذ سنين واعتزل السياسة وغيرها من الأعمال، لأن صحته ساءت، واشتد عليه مرض الربو، وضاعفه تصلب الشرايين فضعف القلب، حتى أودى ذلك كله بحياته فجأة.

هذا وإننا لم نختلف في كل هذه المدة في مقصد من المقاصد، ولا في مهمات الوسائل أيضًا، إلا ما كان في أيام حرب المدنية الكبرى، فقد اختلفنا في مسائل مهمة لا يحسن في هذه الترجمة ذكرها، ونحمد الله تعالى أن كان اختلافنا محصورًا في مناقشات جرت بيننا، لم تتجاوزنا إلى غيرنا.

***

آثاره القلمية

(1) إن أجل تآليفه وأعظم آثاره العلمية هو تاريخ (أشهر مشاهير الإسلام) الذي طار به صيته في الأقطار، وإنما أتم منه أربعة أجزاء، طبعت مرارًا ونفدت نسخها.

(2) وكتاب (السوانح الفكرية في المباحث العلمية) وهو كتاب اجتماعي أدبي جعله أربعة أقسام : (القسم الأول المدنية ودواعيها، وأسباب تقدمها أو تلاشيها)، وفيه 3 أبحاث (القسم الثاني التربية والأخلاق) وفيه 4 أبحاث، (القسم الثالث الأدبيات) وفيها 4 أبحاث (القسم الرابع مباحث علمية مختلفة) وفيه 5 أبحاث، خامسها (التفرنج) وقد أطال في ذمه، ووصف ضرره وشره.

وهذا الكتاب مبيض بخطه في زهاء مائة صفحة من القطع الوسط، وإنما صده عن طبعه -كما نظن- أنه أثنى في فاتحته على السلطان عبد الحميد، فأطراه إطراء لم يلبث أن ظهر له أنه مخطئ فيه، بعد أن انخدع كغيره بما كانت تنشره جميع الجرائد العربية والتركية من مدائحه المنثورة والمنظومة.

ويحسن بي أن أذكر عبارته في ذلك؛ لما فيها من الدلالة اللفظية والمعنوية، على حال فقيدنا العزيز الفكرية والأدبية، قال :

(وإنني لما رأيت أبناء وطني قد تفتحت منهم الأذهان، وتنبهت بعد الرقدة والفكر، وسرى سر الحمية في أمثالي من شبان هذا العصر، فأخذوا يتتبعون أشتات العلوم والمعارف، ويتفيئون تحت ظلها الوارف، بوجود من لا تكلُّ عن الثناء عليه ألسنة رعيته، وقد اتحدت القلوب تحت راية عدله وشوكته، السلطان ابن السلطان، السلطان الغازي عبد الحميد، المحفوف من الله بالعز والتأييد، فقد أحببت إتحافهم بكتاب يروق في عين كل لبيب، ويحتاج إليه كل أديب أريب، وشحت بفرائد الفوائد طروسه، وأبرزت في دست الكمال عروسه، ليكون بهجة للناظرين، ولذة للسامعين).

وإنني لم أر له ـ رحمه الله ـ أسجاعًا كهذه في غير هذا الكتاب الذي كان من أول ما كتب، وأول ما ألف على ما أعلم، بيد أنه لم يلتزم السجع إلا في خطبته فقط، وهو لا يخلو من لحن فيما هو من ضروريات علم النحو، وهاك أسماء بقية آثاره القلمية التامة :

(3) (كتاب الدروس الحكمية للناشئة الإسلامية) وكفاه تقريظًا له أن الأستاذ الإمام قرر تدريسه في مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية.

(4) رسالة تنبيه الأفهام، إلى مطالب الحياة الاجتماعية في الإسلام.

(5) (كيفية انتشار الأديان).

(6) (الجامعة الإسلامية وأوربة).

وله خطب علمية ألقاها في بعض المحافل العلمية والمدارس العالية، نشر بعضها في المنار وبعضها في مجلة دار العلوم، وهذه يسهل جمعها وطبعها كمقالاته في المجلات، وأما مقالاته في الجرائد فهي كثيرة، وجمعها متعذر أو متعسر.

وأما الكتب التي شرع فيها ولم يتمها فهي اثنان :

(أحدهما) كتاب في (تاريخ السياسة الإسلامية) رسم له ثلاثة أقسام : عصر الترقي الإسلامي، وعصر الوقوف، وعصر الانحطاط، وبدأ القسم الأول بخلاصة السيرة النبوية، والخلافة والوزارة، والقضاء والولاية، وإمارة الجيش، وكتابة الجيش والديوان والعطاء، والكتابة العامة والسفارة إلخ.

وكتب منه بعض الأبواب ثم وقف قلمه دون إتمامه وإتمام أشهر مشاهير الإسلام وغيرهما، ولو أتمه على المنهج الذي وضعه له لكان أجل من تاريخ أشهر مشاهير الإسلام، بل من أهم الكتب التي يحتاج إليها المسلمون على الإطلاق.

(ثانيهما) الرسالة التي سبقت الإشارة إليها في الخلاف بين الترك والعرب.

وقد كتبت منها 67 صفحة كبيرة، انتهى فيها إلى البحث فيما سماه (أرجوفة الخلافة العربية) فبدأ به ولم يتمه، وهذه الرسالة حجة بينة على شدة إخلاصه للدولة العثمانية وكراهته الشديدة

للرابطة الجنسية وتنفيره عنها، وكان رجال جمعيته الاتحادية يتهمونه مع ذلك بعداوتها، ويتمنون لو تصل إليه أيديهم؛ ليقتلوه شر قتله، وهو لشدة إخلاصه في خدمته للدولة بحزب اللامركزية العثمانية الذي كان رئيسًا له صدق الاتحاديين فيما ادعوه من الرغبة في الاتفاق مع العرب وإعطائهم حقوقهم عقب مؤتمر أريس العربي، الذي عقد هنالك باسم حزب اللامركزية، وانخدع كما انخدع رئيس ذلك المؤتمر أخونا الشهيد السعيد السيد عبد الحميد الزهراوي - قدس الله روحه - الذي كان من اغتراره بخلابتهم أن دعاني ودعا الفقيد إلى الذهاب إلى الآستانة؛ للاشتراك في توثيق روابط الإخاء والوحدة بين العرب والترك، فأما الفقيد فقد انخدع، وزاد في اطمئنانه كتابة بعض أصدقائه من رجال الترك الاتحاديين كجلال الدين بك عارف وأخيه نجم الدين بك، فأرسل برقية إلى الآستانة، وعد فيها بإجابة الطلب والعزم على السفر، وذكر لي ذلك بعد إرسالها فوقفت لإقناعه بالبقاء هنا، وقلت له : إنهم يريدون أن يجمعوا الزعماء العاملين هنالك؛ لينتقموا منهم كلهم، ولئن أجبناهم ليحيطن بنا فلا ينجو منا أحد، وإني لخائف على أخينا السيد عبد الحميد، ولكني أرجح أنهم لا يصيبونه بأذى ما دمنا في مصر؛ لأنهم يريدون أن يصيدونا به.

ثم كافأني الفقيد - أحسن الله إليه - على هذا إخلاصًا في المودة والنصح لا بقصد المكافأة لما علم أنني سأعود من الهند إلى مصر عن طريق العراق (سنة 1330-1912)، فأرسل إليّ برقية بأن أعود في البحر؛ خوفًا عليّ من فتك أحمد جمال باشا السفاك، إذ كان وقتئذ والي بغداد والقائد العام لجيش العراق، ولكن الله سلم، على أن الفقيد لم ييأس من الدولة كل اليأس إلا في أثناء الحرب العامة وما كان من جمال باشا فيها.

فهذه جملة سيرة فقيدنا السياسية، ولولا بعض آثاره العلمية لما كان له شيء يؤثر عنه من وراء السياسة إلا أخلاقه العالية وآدابه السامية.

***

أخلاقه وآدابه

قد أوتي الفقيد حظًّا عظيمًا من الآداب الاجتماعية والفضائل النفسية والفواضل العملية، كان نزيه اللسان طاهر القلب، منزهًا عن الحسد والحقد، وفيًّا لأصدقائه، برًّا بأهله وصولاً لرحمه،

متواضعًا في عزة نفس، ذا مروءة صادقة، ونفس سخية، ويد مبسوطة، حسن الضيافة، كثير الصدقات والمساعدات للجمعيات الخيرية، قليل التبجح والدعوى، ما عاشره أحد من قومه ولا من غيرهم من الشعوب إلا وأحبه واحترمه، ومن آدابه التي يجب أن تذكر بالنص في هذه الترجمة الوجيزة أنه تزوج ولم يرزق ولدًا، ولا كان مغتبطًا، ولم أسمع منه ولا عنه منذ عقدت له عقد زواجه إلى أن توفاه الله تعالى كلمة تؤذن بحسرته على الحرمان من الولد أو الميل إلى التزوج بامرأة أخرى مع زوجه أو بعد تطليقها، فهذا من أعجب الوفاء، والصبر والقناعة آداب يقل نظيرها في هذا العصر وفي كل عصر.

وكان معتدلاً في أمور معيشته، يقتصر على اللائق به من اللباس وجيد الطعام، من غير اهتمام بالتطرز، ولا جنوح إلى التورن، ولا إنفاق في التنعم، ولكنه كان شديد الولوع بدخان التبغ، وكثير الاختلاف إلى بعض المقاهي العامة على قلة عنايته بالملاهي، وإنما كثر ذلك منه بعد أن ضعف جسمه، وصار يتعب من الكتابة والمطالعة.

وجملة القول

أننا قد فقدنا بفقد هذا الصديق الوفي المهذب، وأن الأمة العربية قد فقدت بفقد الابن البار العامل رجلاً لا عزاء عنه إلا أنه قد انتهى إلى حال من الضعف والأمراض، لا هناء له في الحياة معه، ولا رجاء في الانتفاع بشيء من مواهبه وتجاربه، فرحمه الله تعالى، وعفا عنا وعنه، وأدخلنا وإياه برحمته في عباده الصالحين.

فهرس المحتويات

مصطفى رياض باشا

الشيخ علي يوسف

أحمد فتحي باشا زغلول

الشيخ حسن المدور

الشيخ محيي الدين الخياط

الشيخ محمد جمال الدين القاسمي

جرجي بك زيدان

الشيخ شبلي النعماني

السيد عبد الحميد الزهراوي

رفيق رزق سلوم المحام

الدكتور شبلي شميل

الشيخ سليم البشري

الشيخ عبد الكريم سلمان

حسن جلال باشا

باحثة البادية

السيد عبد الحميد ابن السيد محمد شاكر ابن السيد إبراهيم الزهراوي

الشيخ محمد كامل الرافعي

الشيخ عبد الرزاق البيطار

الطبيب محمد توفيق صدقي

أحمد فوزي عمران

الشيخ طاهر الجزائري الدمشقي

الأستاذ محمد وهبي

القائد الكبير محمد عبد الكريم

السيد محمود شكري الألوسي

الشيخ أحمد عباس الأزهري البيروتي

سعد باشا زغلول

سيد أمير علي

الشيخ سليم البخاري

الشيخ عبد العزيز شاويش بك

السيد عبد الباسط فتح الله

أحمد تيمور باشا

الشريف الحسين ملك الحجاز السابق

محمد نادر خان

أحمد زكي باشا

الشيخ محمد الجسر

الشيخ محمد أمين الشنقيطي

الخوجه كمال الدين الهندي

الشيخ شبلي النعماني

السيد محمد علي الإدريسي

الشيخ سليمان بن سحمان

الشيخ أبو بكر خوقير

الشيخ محمد عبد العزيز الخولي

السيد محمد بن عقيل بن يحيى

قتل محمود شوكت باشا

الشيخ محمد مهدي

الشيخ سالم أبو حاجب

رفيق العظم

المركز الثقافي الآسيوي

مؤسسة بحثية مستقلة، تتبع جمعية خريجي معهد الدراسات والبحوث الآسيوية، تخضع لقانون الجمعيات الأهلية المصري، مشهرة في وزارة التضامن الاجتماعي برقم 1328 لسنة 2002م .

يتكون **المركز الثقافي الآسيوي** من الوحدات التالية :

1) وحدة دراسات الخليج وشبه الجزيرة العربية .

2) وحدة الدراسات الإيرانية .

3) وحدة الدراسات التركية والعثمانية .

4) وحدة الدراسات الأرمنية والقوقازية .

5) وحدة الدراسات اليهودية والإسرائيلية .

6) وحدة دراسات الشرق الأقصى .

7) وحدة دراسات الفنون والتراث.

8) وحدة دراسات تركستان الشرقية - شينجيانج

يهدف **المركز الثقافي الآسيوي** إلى عمل البحوث والدراسات المتعلقة بقارة آسيا في النواحي التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وكافة النواحي الحضارية .

يعمل **المركز الثقافي الآسيوي** على طباعة ونشر الدراسات التي تنتجها وحداته المختلفة، كذلك الدراسات التي يتقدم بها الباحثون المتخصصون في مجال اهتمامات وحدات المركز .

كما يقوم **المركز الثقافي الآسيوي** بترجمة الإصدارات العالمية الخاصة بقارة آسيا وإصدارها في نشرات خاصة .

يسعى المركز الثقافي الآسيوي إلى إصدار عدة سلاسل من الكتب والدوريات المتخصصة والتي تخدم الدراسات الآسيوية خاصة، والثقافة الإنسانية بشكل عام .

يمد **المركز الثقافي الآسيوي** يد التعاون للباحثين والمراكز البحثية والهيئات العلمية الأخرى، للقيام بالأنشطة العلمية والندوات والمؤتمرات وعمل الأبحاث ونشرها .

harpgeneration@yahoo.com

(002) 01229365348

Notes

[1←]
مجلة المنار، المجلد3، الجزء6، ص138.

[2←]
مجلة المنار، المجلد 3، الجزء 32، ص855 .

[3←]
مجلة المنار، المجلد 4، الجزء 3، ص113 .

[4←]
مجلة المنار، المجلد5، الجزء6، ص237.

[5←]
مجلة المنار، المجلد5، الجزء7، ص276.

[6←]
مجلة المنار، المجلد6، الجزء9، ص348.

[7←]
مجلة المنار، المجلد6، الجزء11، ص434.

[8←]
مجلة المنار، المجلد6، الجزء13، ص525.

[9←]
مجلة المنار، المجلد7، الجزء20، ص792.

[10←]
وفي الأصل إلى المقام العالي المولوي الأميري الكبيري السيدي الملكي المخدومي العضدي الذخري المجاهدي السبقي نوزور الأتابكى إلخ فحذفنا هذه النسب الأعجمية كما حذفنا ألقاب الأمير والدعاء له كلما ذكر، كما هي سنة المنار السلفية.

[11←]
مجلة المنار، المجلد7، الجزء21، ص825.

[12←]
مجلة المنار، المجلد10، الجزء9، ص709.

[13←]
مجلة المنار، المجلد10، الجزء10، ص781.

[14←]
مجلة المنار، المجلد10، الجزء11، ص877.

[15←]
مجلة المنار، المجلد10، الجزء12، ص955.

[16←]
فروغي:معناه الضوء وهذا هو لقبه الأدبي الشعري الذي اختاره لنفسه، ويعرف عندهم بالمخلص بوزن جعفر ويشتقون منه كما رأيت.

[17←]
هو وزير المطبوعات ورئيس دار الترجمة الخاصة الهمايونية يومئذٍ، وكان من العلماء العصريين، وله تصانيف شهيرة منها (مرآة البلدان) عدة مجلدات.

[18←]
جريدة شبه رسمية تصدر بنفقة الحكومة.

[19←]
مجلة المنار، المجلد11، الجزء1، ص60.

[20←]
مجلة المنار، المجلد11، الجزء3، ص226.

[21←]
مجلة المنار، المجلد14، الجزء6، ص474.

[22←]
مجلة المنار، المجلد14، الجزء7، ص555.

[23←]
أمر من الرمي على ما تنطق به العامة؛ أي ألقه على الأرض لأجل الضرب.

[24←]

مجلة المنار، المجلد14، الجزء8، ص629.

[25←]
مجلة المنار، المجلد16، الجزء11، ص873 .

[26←]
مجلة المنار، المجلد16، الجزء12، ص947.

[27←]
مجلة المنار، المجلد17، الجزء1، ص68.

[28←]
أول من ألف حزبًا سياسيًّا بمصر باسم الحزب الوطني حكيمنا السيد جمال الدين الأفغاني، والحزب الذي كان يذكره مصطفى كامل في حال صحته لم يكن حزبًا مكونًا بالفعل.

[29←]
مجلة المنار، المجلد17، الجزء3، ص239.

[30←]
مجلة المنار، المجلد17، الجزء6، ص472.

[31←]
كتبت في منار أول المحرم سنة 1317 مقالة عنوانها:(الاعتماد على النفس) فقال لي وقتئذ:إني استعملت هذه الكلمة في ترجمة كتاب (سر تقدم الإنكليز) الذي طبع الآن وأراك سبقتني إلى استعمالها، ثم كثر استعمال هذه الكلمة بانتشار ذلك الكتاب لا بمقالتي.

[32←]
مجلة المنار، المجلد17، الجزء7، ص556.

[33←]
مجلة المنار، المجلد17، الجزء8، ص628.

[34←]
مجلة المنار، المجلد18، الجزء2، ص156.

[35←]
مجلة المنار، المجلد18، الجزء3، ص233.

[36←]

يحتمل أن تكون الكلمة (حلسا) بالحاء المهملة المكسورة إذ يقال:فلان حلس بيته، أي ملازمه، وأصل الحلس ما يفرش تحت سرح الدابة، أو رجل البعير وعلى الأرض في البيت، وقد يفرش غيره فوقه.

[37←]
هكذا يكتب الهنود اسم هذه الإيالة، والمشهور عندنا ما كان يكتب في مصنفات السيد حسن صديق خان وهو هكذا " بهوبال ".

[38←]
كذا في الأصل، ومهما أتقن علماء الأعاجم العربية؛ فإنهم يظلون يغلطون في تعريف الأعلام وتنكيرها.

[39←]
لقصر مدة إقامة الأميرة بمصر لم يتيسر لنا اختيار معلمة يمكن أن تراها وتختبرها، ثم لم يتيسر ذلك بعد سفرها أيضًا، وقد عرضنا ذلك على الآنسة نبوية موسى فطلبت أن يكون راتبها الشهري مائة جنيه مع شروط أخرى، وإنه ليوجد في الهند معلمات إنكليزيات لا يزيد راتب إحداهن عن بضعة جنيهات.

[40←]
يعنون بكلمة صدر ما نعبر نحن عنه بكلمة رئيس، وبهذا المعنى يستعملونها في لغتهم الأوردية.

[41←]
مجلة المنار، المجلد19، الجزء3، ص169.

[42←]
كنت كتبت إلى الأخ الذي أشار إليه ثم إليه هو أن عرب الجزيرة هم صفوة العرب وأعظمهم استعدادًا، فإن هنالك إصلاحًا عربيًّا فيجب أن يكون لهم حظ منه وأن نعتني بشأنهم أكثر من غيرهم.

[43←]
المنار) الصواب في هذه المسألة ما بيناه في هذا الجزء.

[44←]
مجلة المنار، المجلد19، الجزء10، ص625.

[45←]
مجلة المنار، المجلد20، الجزء3، ص160.

[46←]
مجلة المنار، المجلد20، الجزء6، ص288.

[47←]
مجلة المنار، المجلد20، الجزء10، ص437.

[48←]
تطلق العرب كلمة (البدء) على السيد الأول في السيادة والتقدم، و (الثنيان) على التالي له في ذلك، قال الشاعر ـ في تفضيل قومه على غيرهم ـ :

ثنياننا إن أتاهم كان بدءهم *** وبدؤهم إن أتانا كان ثنيانا .

[49←]
مجلة المنار، المجلد20، الجزء10، ص441.

[50←]
مجلة المنار، المجلد21، الجزء2، ص105.

[51←]
مجلة المنار، المجلد21، الجزء3، ص163.

[52←]
جاءتنا هذه الترجمة لفقيدنا العزيز من أخلص خلانه وخلاننا الأستاذ الشيخ أحمد نبهان الحمصي ، وهي ترجمة تاريخية وجيزة ليس فيها شرح لعمل ولا مبالغة في وصف فنشرناها لتضم إلى ما كتبناه في رثائة وترجمته من قبل، وإن كان بعضها تكرارًا لما تقدم.

[53←]
مجلة المنار، المجلد21، الجزء3، ص150.

[54←]
كانت تلك الجريدة السرية مؤيدةً لدعوة جمعية الاتحاد والترقي الأولى التي كان أحد أعضائها.

[55←]
في أثناء تلك المدة أنشأنا المنار بمصر، ونشرنا في آخر عدد من سنته الأولى أصولاً للإصلاح كانت نشرت في جريدة المعلومات، وناقشناها فيها فكان ذلك أول تلاقٍ بين أفكارنا وأفكار ذلك الصديق من حيث لا ندري ولا يدري؛ لأن ما نشر في (المعلومات) بقلمه لم يكن معزوًّا إليه ولأن المنار كان ممنوعًا من البلاد العثمانية.

[56←]
كان تأليب بعض الجاحدين المفسدين العوام في دمشق على الفقيد في مثل ذلك الوقت من ذلك الشهر مثل تأليبهم إياهم علينا فيها بعد ذلك ببضع سنين، فكان ذلك مما يذكر الفقيد من التناسب والموافقات بيننا، وهذه الرسالة هي التي أشار إليها الأستاذ الإمام في مقالات الإسلام والنصرانية (راجع ص 169، 170 من مجلد المنار التاسع عشر).

[57←]
مجلة المنار، المجلد21، الجزء4، ص207.

[58←]
المنار:كان سبب تأليف هذا الكتاب محاورة طويلة دارت بيننا وبين الفقيد من جهة، و أحمد فتحي باشا زغلول أيام كان وكيلاً لوزارة الحقانية بمصر من جهة أخرى، ولو تم على عهد الباشا لسعى إلى طبعه على الحكومة لأجل المحاكم الشرعية.

[59←]
مجلة المنار، المجلد21، الجزء3، ص153.

[60←]
مياه المد الذي يعقب الجزر ففي البيت (الاحتراس) من أنواع البديع.

[61←]
مجلة المنار، المجلد21، الجزء4، ص214.

[62←]
مجلة المنار، المجلد21، الجزء6، ص325.

[63←]
مجلة المنار، المجلد21، الجزء6، ص317.

[64←]
مجلة المنار، المجلد21، الجزء8، ص447.

[65←]
مجلة المنار، المجلد21، الجزء9، ص483.

[66←]
المنار:لعل كاتب الترجمة ظن أن (الأُشد) بمعنى التمييز، والصواب أنه من سن 18 - 30.

[67←]
مجلة المنار، المجلد22، الجزء8، ص631.

[68←]
كتب تقريظ هذا الكتاب وترجمة الشيخ طاهر شقيقنا السيد صالح مخلص رضا.

[69←]
مجلة المنار، المجلد22، الجزء8، ص635.

[70←]

مجلة المنار، المجلد24، الجزء8، ص630.

[71←]
مجلة المنار، المجلد24، الجزء9، ص684.

[72←]
المنار:جمر بنو فلان:اجتمعوا وجمرتهم:حشدتهم وهو مأخوذ من:جمرات العرب، جمع جمرة وهي الطائفة التي تجتمع على حدة لقوتها وشدة بأسها، وقول الكاتب:جمر للزحف، معناه لأجل الزحف وفي حقيقة الأساس:وجمر الأمير الغزاة (بتشديد الميم) حبسهم في الثغر وفي نحر العدو لا يقفلهم، أي:لا يأذن لهم بالرجوع.

[73←]
الفيلق بوزن زينب: الكتيبة العظيمة، مؤنثة المعنى، وكتاب العصر يذكرونها بتذكير اللفظة، أو بمعنى الجيش.

[74←]
قال في معجم البلدان:برشليانة بسكون اللام وياء وألف ونون بلدة بالأندلس من أقليم كبلة.

[75←]
يقال:نقدته الدراهم ونقدتها له على الزيادة بمعنى أعطيته إياها.

[76←]
مجلة المنار، المجلد26، الجزء2، ص147.

[77←]
المنار:يريد بهذا الكلام تحريض أوربة كلها على الريفيين كعادتهم.

[78←]
البيان) عادوا إلى ذكر التعصب الذي يرمي به الغرب الشرق كلما شكا من ظلم الاستعماريين أو هب للتخلص من تصلفهم وجشعهم.

[79←]
المنار:أي التي كان سببها إطلاق الإنكليز العادلين الرحماء مدافعهم على الأهالي العزل من رجال ونساء وأطفال بلا ذنب إلا أن يكون التعصب الذي معناه التألم من ظلم الأجنبي المستعبِد لهم.

[80←]
المنار:إنها على هذا أفضل عند العرب من الزوجة الإفرنجية التي يرى غير زوجها لا وجهها فقط بل سائر بدنها أيضًا.

[81←]

المنار:هذه التهمة اختلقها الصليبيون واستغلها الماديون والملحدون من سلائلهم، والصواب أن القرآن نطق بأن النصارى أقرب الناس مودة للمسلمين؛ ولكن الإفرنج عادوا المسلمين وسلبوا ملكهم، ثم كانوا معهم مضرب المثل (رمتني بدائها وانسلت) فهم يتهمونهم بذلك لتطيعهم شعوبهم الحرة، وتوافقهم على استمرار استعبادهم واضطهادهم لهم.

[82←]
هذا أهم أسباب عناية الإفرنج بإفساد عقائد المسلمين وإبطال ثقتهم بدينهم، وقد كان تأثير مدارسهم ومدارسنا المقلدة لهم في تمكينهم من استعباد المسلمين وسلب ملكهم أعظم من تأثير أساطيلهم وجيوشهم، وإن ملاحدة المتفرنجين منا لشر منهم وأضر، لعنة الله عليهم.

[83←]
مجلة المنار، المجلد25، الجزء5، ص374.

[84←]
مدفع:من مدافع الإيرانيين ، يعرف (بطوب أبي خرامة) ، تزوره النساء ، وتوقد له الشموع ، وتعلق عليه التمائم والأحجار.

[85←]
المنار:من الغريب أن يختصر المؤلف كتابه الضرائر ويشرحه تلميذه ، وقد كان الأصل مغنيًا عن الشرح ، ولكنها شنشنة مصنفينا في القرون الوسطى.

[86←]
مجلة المنار، المجلد28، الجزء5، ص386.

[87←]
المنار:إذا أريد بالطريقة هذه النظم المعروفة المنسوبة إلى المتصوفة كما هو الظاهر؛ فهو مراد باطل، وإذا أريد ما هو أعم ، وهو الاهتداء بالشريعة عملاً وحالا؛ فالمراد صحيح.

[88←]
المراد أن المبلغ المذكور إعانة سنوية ، ولكنها تدفع مشاهرة كل شهر مائة ليرة.

[89←]
محل تجارة صاحب الترجمة.

[90←]
أي:قسم العبادات من الفقه.

[91←]
مجلة المنار، المجلد28، الجزء6، ص477.

[92←]
مجلة المنار، المجلد28، الجزء8، ص584.

[93←]
نثا الشيء ينثوه أظهره.

[94←]
الثبا بالضم المجلس الذي يحوي الأكابر.

[95←]
السامر محل السمر وهو الحديث في الليل والمراد به مَقْهَى كان يسمى (قهوة البورصة) بجوار حديقة الأزبكية.

[96←]
الشرب بالفتح جماعة الشاربين والغول بالفتح ما في الخمر من السم الذي يغتال العقل ويزيله، وهو ما يسمى في عرف الأطباء بالكحول أو الألكول.

[97←]
مجلة المنار، المجلد28، الجزء8، ص591.

[98←]
مجلة المنار، المجلد28، الجزء9، ص709.

[99←]
مر في ص 591 ج8 أن ذلك الكتاب كان بعد عودة الأستاذ من أوربة إلى بيروت والصواب أنه كان بعد ذهابه من مصر إلى بيروت وقبل سفره إلى أوربة ، ووقع غلط آخر في ص 590 من تلك النبذة وهو أن محلة نصر بلدة الأستاذ في مديرية الغربية والصواب أنه في مديرية الشرقية كما بيناه في ترجمته وتاريخه، وكان الغلط من المطبعة.

[100←]
مجلة المنار، المجلد29، الجزء1، ص71.

[101←]
الكلمة في الأصل هكذا (رايتنا)، ولعل المراد فما رأيناك إلخ، الخطاب للأستاذ الذي بعث الفضيلة بالعلم والعمل في جماعة نكثوا عهده، وخانوا وده ووشوا به عند الشدة.

[102←]
ذكر لي الأستاذ الإمام رحمه الله أيام غضب الشيخ عبد الكريم سلمان علي؛ أنه كان بلغه في أثر الفتنة العرابية أنه طعن فيه يتبرأ من كونه من حزبه، فكتب في ذلك كلمة في كتاب لآخر؛ أظنه سعدًا قال:وأما ذلك الشيخ الذي اكننته كني وأدنيته مني، وجعلته في مكان النحو من ابن جني فهو يصرح بسبي ولا يُكني.

[103←]
يعني سعد نفسه، وأظن أن الخبر المشار إليه هو اشتغاله بالمحاماة.

[104←]
يعني سعد نفسه، وأظن أن الخبر المشار إليه هو اشتغاله بالمحاماة.

[105←]
مجلة المنار، المجلد29، الجزء5، ص352.

[106←]
Critcal Examination of life and Teachigs of Mahomet

[107←]
personal law of the Mohammedans.

[108←]
Studentds hand book of Moh.

[109←]
Spirit of Islam.

[110←]
Ethios of Islam.

[111←]
مجلة المنار، المجلد29، الجزء8، ص633.

[112←]
مجلة المنار، المجلد29، الجزء9، ص712.

[113←]
مجلة المنار، المجلد30، الجزء6، ص469.

[114←]
مجلة المنار، المجلد30، الجزء10، ص784.

[115←]
مجلة المنار، المجلد31، الجزء9، ص718.

[116←]
مجلة المنار، المجلد31، الجزء10، ص797.

[117←]
مجلة المنار، المجلد33، الجزء8، ص625.

[118←]
أي بالحساب الشمسي، وما روي من أنه بلغ الحادية والعشرين يراد به سنه بالسنين القمرية، فلا تعارض بين الروايتين.

[119←]
مجلة المنار، المجلد34، الجزء3، ص239.

[120←]
مجلة المنار، المجلد34، الجزء9، ص713.

[121←]
مجلة المنار، المجلد34، الجزء6، ص475.

[122←]
مجلة المنار، المجلد34، الجزء7، ص553.

[123←]
مجلة المنار، المجلد33، الجزء2، ص130.

[124←]
كتب هذا التأبين والترجمة للمنار والفتح صديقنا الأستاذ العلامة الشيخ محمد تقي الدين الهلالي المدرس في مدرسة دار العلوم الندوية في الهند.

[125←]
المنار:الحديث متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص بلفظ (ينتزعه من العباد) والباقي كما قال.

[126←]
في المقاصد الحسنة ومختصره، وفي الدرر المنتثرة أن كلمة:(كل عام ترذلون) من كلام الحسن البصري وفي معناها حديث البخاري وغيره (لا يأتي عليكم زمان وفي رواية عام إلا والذي بعده شر منه) وفي بعض الروايات من البيان له مثل ما ذكر عن ابن مسعود.

[127←]
مجلة المنار، المجلد33، الجزء2، ص138.

[128←]
مجلة المنار، المجلد18، الجزء1، ص79.

[129←]
مجلة المنار، المجلد18، الجزء2، ص156.

[130←]
مجلة المنار، المجلد18، الجزء3، ص233.

[131←]
يحتمل أن تكون الكلمة (حلسا) بالحاء المهملة المكسورة إذ يقال:فلان حلس بيته، أي ملازمه، وأصل الحلس ما يفرش تحت سرح الدابة، أو رجل البعير وعلى الأرض في البيت، وقد يفرش غيره فوقه.

[132←]
هكذا يكتب الهنود اسم هذه الإيالة، والمشهور عندنا ما كان يكتب في مصنفات السيد حسن صديق خان وهو هكذا " بهوبال ".

[133←]
كذا في الأصل، ومهما أتقن علماء الأعاجم العربية؛ فإنهم يظلون يغلطون في تعريف الأعلام وتنكيرها.

[134←]
لقصر مدة إقامة الأميرة بمصر لم يتيسر لنا اختيار معلمة يمكن أن تراها وتختبرها، ثم لم يتيسر ذلك بعد سفرها أيضًا، وقد عرضنا ذلك على الآنسة نبوية موسى فطلبت أن يكون راتبها الشهري مائة جنيه مع شروط أخرى، وإنه ليوجد في الهند معلمات إنكليزيات لا يزيد راتب إحداهن عن بضعة جنيهات.

[135←]
يعنون بكلمة صدر ما نعبر نحن عنه بكلمة رئيس، وبهذا المعنى يستعملونها في لغتهم الأوردية.

[136←]
مجلة المنار،المجلد16، الجزء6، ص،465 .

[137←]
المنار : السنابك جمع سنبوك في لغتهم وهي نوع من السفن الشراعية،وفي سواحل الشام يطلقون لفظ السنبك (بضم السين والباء) على نوع من قوارب الصيادين الصغيرة،وجمعه سنابك.

[138←]
المنار : أورد الكاتب ههنا نبذة من كتاب الإدريسي إلى الإمام استدل بها على كونه لم يكن يقصد عداوة الدولة بل خدمتها والاتفاق معها،وقد حذفناه لأننا كنا نشرنا ذلك الكتاب برمته في ج 4 ص 300 م 16 من المنار.

[139←]
مجلة المنار،المجلد16، الجزء5، ص388 .

[140←]
هو الذي أشرنا إليه في الجزء الماضي في هامش كتاب السيد الإدريسي إلى الإمام يحيى.

[141←]
لفظ الحديث : (المؤمن للمؤمن كالبنيان) إلخ رواه الشيخان وغيرهما عن أبي موسى.

[142←]
رواه أحمد و الطبراني وله تتمة.

[143←]
المنار : حديث رواه مسلم في صحيحه،و الترمذي من حديث أبي هريرة بلفظ (من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه وإن كان أخاه لأبيه وأمه) ورواه الحاكم من حديث عائشة وصححه بلفظ : (من أشار بحديدة إلى أحد من المسلمين يريد قتله فقد وجب دمه) ورواه البزار والطبراني عن أبي بكرة بلفظ (إذا سل - وفي رواية : شهر - المسلم على أخيه سلاحًا فلا تزال ملائكة الله تلعنه حتى يشيمه عنه) أي يغمده.

[144←]
اسم موقع.

[145←]
مجلة المنار،المجلد24، الجزء5، ص402.

[146←]
مجلة المنار،المجلد31، الجزء3، ص238 .

[147←]
مجلة المنار،المجلد31، الجزء3، ص240 .

[148←]
مجلة المنار،المجلد31، الجزء4، ص320 .

[149←]
مجلة المنار،المجلد31، الجزء8، ص637 .

[150←]
مجلة المنار،المجلد32، الجزء1، ص80 .

[151←]
مجلة المنار،المجلد32، الجزء3، ص238 .

[152←]
مجلة المنار،المجلد32، الجزء4، ص315 .

[153←]
مجلة المنار،المجلد16، الجزء7، ص556 .

[154←]
مجلة المنار،المجلد25، الجزء3، ص215 .

[155←]
مجلة المنار،المجلد25، الجزء6، ص474 .

[156←]
مجلة المنار،المجلد26، الجزء4، ص288 .